# شرح الحكم العطائية

المسمى

## شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم


تأليف

الإمام العالم العلامة

أبي محمد علي بن عبد الله بن أحمد باراس

الكندي الدوعني الحضرمي الشافعي

رحمه الله تعالى

( ١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ )


بعناية

لجنة إحياء التراث بدار الحاوي


دار الحاوي    دار السنابل

# شرح الحكم العطائية

المسمى

شفاء السقم وفتح خزائن الكلم

في معاني الحكم

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الحاوي
بيروت – لبنان
فاكس : ٧٨٦٢٣٠

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه ، وبأيّ شكلٍ من الأشكال ، أو نسخه ، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه ، وكذلك لا يسمح بالاقتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبقاً .

دار السنابل
دمشق – سورية
هاتف: ٢٢٤٢٧٥٣

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

جميع الحقوق محفوظة

دار الحاوي للطباعة والنشر
لبنان - بيروت - فاكس 786230 1 961+

دار السنابل للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
هاتف 2235402 11 963+ - فاكس 2237960 11 963+

# الموزعون المعتمدون

MEGASTORE

فيرجن وفروعها في العالم العربي

## الجمهورية اليمنية

**مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت**

هاتف 417130 ـ فاكس 418130

## مملكة البحرين

**مكتبة الفاروق ـ المنامة**

هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

## دولة الكويت

**مكتبة دار البيان ـ حَوَلي**

تلفكس 22616490 ـ جوال 9952001

**دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي**

هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

## الجمهورية اللبنانية

**الدار العربية للعلوم ـ بيروت**

هاتف 785107 ـ فاكس 786230

**مكتبة التمام ـ بيروت**

هاتف 707039 ـ جوال 03662783

## الإمارات العربية المتحدة

**حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي**

هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

**مكتبة الإمام البخاري ـ دبي**

هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

**مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي**

هاتف 3339998 ـ فاكس 3337800

## جمهورية مصر العربية

**دار السلام ـ القاهرة**

هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

**مكتبة نزار الباز ـ القاهرة**

هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

## المملكة المغربية

**مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء**

هاتف 0522853562 ـ فاكس 0522854003

**دار الأمان ـ الرباط**

هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

**دولة قطر**

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

**المملكة الأردنية الهاشمية**

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

**الجمهورية العربية السورية**

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

**جمهورية الجزائر**

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 021773627 ـ فاكس 021773625

**جمهورية الصومال**

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

**الجمهورية التركية**

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

**جمهورية أندونيسيا**

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 006231352297

جوال 00623160222020

**الهند**

مكتبة الشباب العلمية – لكناؤ

هاتف 00919198621671

**جمهورية فرنسا**

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

**انكلترا**

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

**جميع منشوراتنا متوافرة على :**

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

قال الله تعالى :

يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ
وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

سورة البقرة : الآية ( ٢٦٩ )

# بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي شرف العلماء ؛ إذ جعلهم ورثة الأنبياء ، وقال في حقهم : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ .

والصلاة والسلام على الشفيع النذير ، السراج المنير ، القائل : « الإيمان يمانٍ ، والحكمة يمانية » ، وعلىٰ آله وصحبه ، ومن سلك نهجه واتبع هداه .

## وبعد :

فقد شهد المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن بالحكمة ؛ ولا تزال هٰذه المنقبة ظاهرةً في أحوالهم سلوكاً وعملاً ، قولاً وفعلاً .

ومن ذٰلك : هٰذا الشرح العجيب الذي نقدِّم له بهٰذه الكلمات ؛ فإنه بحقٍّ مملوءٌ حِكَماً أضافها إلىٰ حكم ابن عطاء الله ، فكان هٰذا الشرح تحفة فريدة ، لا يذوق حلاوته إلا المحبُّون ، ولا ينهل من معينه إلا الموفَّقون .

وهو علىٰ وجازته ضم فوائد عظيمة ، وجواهر يتيمة ، فحُقَّ لطالب العلم أن ينادمه ويلازمه ، وأن يقرأهُ ويتفهمه ؛ فالشرح والمتن مؤلَّفان عظيمان شهد لهما أهل المعرفة والذوق ، فطوبىٰ لمن عرف قدر هٰذين الكتابين ، وشرب من عذبهما ، وتربىٰ بسلوكهما ، وأخذ علىٰ نفسه تحقيق توجيههما ؛ فإن فعل ذٰلك . . فقد فاز ، ونال السعادة في الدنيا ، والنعيم في الأُخرىٰ ، وهما مطلب الألبّاء ؛ ذٰلك لأن هٰذين العَلَمين قد شهد لهما الأعلام النبلاء بالتبحُّر والرسوخ .

ثم إنه ما دام الشارح من أهل الحكمة اليمانية . . فإن ذٰلك يقتضي مزية شرحه ؛ لأن الحال كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ وهٰذه خَصيصَة ليس وراءها مرمىً ، وقد تمثَّل أهل المعرفة وأرباب السلوك بقول الأول :

تزودت من ليلىٰ بتكليم ساعةٍ فما زاد إلا ضعفَ ما بي كلامُها

وعلىٰ كل حال فقد تربَّعت « الحكم العطائية » علىٰ قائمة المؤلفات الجامعة بين عِلْمَي التوحيد والتصوف ، وأسست لها مدرسة كبرىٰ ، ودخلت منهاج التعليم والتربية ، وتنوَّعت شروحها تنوعاً رُوعي فيه حال المخاطب : أمبتدئٌ هو أو منتهٍ ؟ أسالك أم متناءٍ عن ذٰلك ؟ فجاء بعض الشروح موجزاً ، وآخر مسهباً ، وبعضها اعتمد العبارة ، وبعضها سلك طريق الإشارة ، وبعضها تمسك بعلم الظاهر ، والبعض الآخر كان جامعاً بينهما .

لقد بقيت « الحكم العطائية » مصدراً إلهامياً لجميع العارفين والسالكين إلىٰ يومنا هٰذا ، وهٰذا عائد لأسباب عدَّة ؛ منها :

- أنها جمعت مقاصدَ كتاب « إحياء علوم الدين » ؛ كما أشار إلىٰ ذٰلك العارف بالله أبو العباس المرسي رضي الله عنه لمَّا نظر فيها ؛ وكتاب « الإحياء » هو أعظم موسوعة تربوية متكاملة كتبت إلىٰ يومنا هٰذا مع شرحه العظيم « إتحاف السادة المتقين » للحافظ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ .

- وأن مؤلفها عالمٌ مبرّز ، متقنٌ لعلوم الشريعة وآلاتها ، قبل أن يكون صاحب قدم راسخة في طريق القوم .

- وأنها جمعت بين لسان الظاهر والباطن دون كلفةٍ ممجوجة .

ـ واتفـاق أهل العلم على الثنـاء عليها وعلىٰ مؤلفهـا العلامة ابن عطاء الله رحمه الله تعالىٰ .

ـ ولحلاوة صياغتها وتبويبها ، وشمول موضوعاتها وغور معانيها .

إلىٰ ملحوظات أُخريـات لا تكاد تخفىٰ علىٰ من طالعها ؛ فقد نقل العلامة ابن عجيبة في « إيقاظ الهمم » عن شيخه العربي الدرقاوي قال : سـمعت الفقيه البناني يقـول : ( كادت حكم ابن عطـاء الله أن تكون وحياً ، ولو كانـت الصلاة تجوز بغير القرآن . . لجازت بكلام الحِكَم ) أو كما قال[1] .

وهي كلمةٌ بديعةٌ لا يخفىٰ علىٰ كل ذي ذوقٍ سليمٍ ملاحة ما فيها من التنويه والإشارة بفضل هـٰذه الحِكَم .

وقال العلامة ابن عبَّاد عنها : ( من أفضل ما صنف في علم التوحيد ، وأجـلِّ مـا اعتمـده بالتفهُّـم والتحفُّـظ كل سـالكٍ ومريـد ؛ لكونه صغير الحجـم ، عظيـم العلـم ، ذا عبارات رائقـة ، ومعانٍ حسـنة فائقة ، قصد فيهـا إلىٰ إيضاح طريـق العارفين والموحِّدين ، وإبانة مناهج السـالكين والمتجرِّدين )[2] .

ووصفه العلامة زرُّوق بقوله : ( عبارته رائقة جامعة ، وإشـارته فائقة نافعـة ، تثلج الصدر وتبهج الخاطر ، وتحرِّك السـامع لها والناظر ، مع تداخل علومه وحكمه ، وتناسب حروفه وكَلِمه ؛ إذ جلُّه داخل في كُلِّه ، وأولـه مرتبط بالأخير من قوله ، بل كل مسـألة منـه تكملة لِمَا قبلها ،

(١) إيقاظ الهمم ( ص ٤ ) .

(٢) غيث المواهب العلية ( ١/٤٧ ) .

وتوطئة لِمَا بعدها ، وكل بابٍ منه كالشرح للذي قبله ، والذي قبله أيضاً كأنه شرح له . . . )[1] .

* * *

لٰكن العلامة باراس رحمه الله تعالىٰ كان له مع « الحِكَم » شأن خاصٌّ ، جعله متميزاً عن كل الشروح والتقييدات التي كتبت عليها .

فقد كتب هٰذا الشرح اللطيف بإشارة من شيخه قطب أوانه وعلامة زمانه الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس باعلوي ؛ كما صدَّر ذٰلك في مقدمة شرحه لـ « الحِكَم » ، وبيَّن أنه وجد بركة تلك الإشارة بعدما استنَّ بالاستخارة .

يقول العلامة باراس في مقدمته : ( فقدمت معتمداً علىٰ ما ينقدح بنور الفهم ، ولم أكن بعدُ قد وقفتُ لهٰذا الكتاب علىٰ شرحٍ غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبَّاد النِّفْزي ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامَهُ لأوائل كلامنا أُسّاً ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحاتِ النقول وجلياتِ المعقول ، وأنا منتظر ما يلقىٰ في الفؤاد من لوائح الوداد ، فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد ، فتكلمنا بحسب ما يظهر لنا من لوائحه . . . )[2] .

والناظر في شرحه هٰذا سيجد لأول وهلةٍ مصداق ما يقوله الشيخ ؛ فشرحه مقارَناً بشروح « الحِكَم » فيه ما لا تجده عند اللاحق ، فضلاً عن السابق ؛ وكأنه قد استلهم روح ابن عطاء الله ساعة خطَّ « الحِكَم » ، فعرف ما طواه من المقاصد تحت لَبِنات الكلمات ،

---

(١) شرح الحكم العطائية السابع عشر للعلامة زروق ( ص ٢ ) .

(٢) انظر ( ص ١١٠ ـ ١١١ ) .

واستجلىٰ ما ينزع إليه من المعاني المضنونات ، **فشرح « الحِكَم » لا** لفظ « الحِكَم » ، فكان بحقٍ كما قال عنه شيخه العارف بالله تعالىٰ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس : ( **إن « الحِكَم العطائية » عذراء ، لم يفتضها إلا هٰذا الشرح** ) .

فقد سطر العلامة الشارح شرحَهُ هٰذا **بمدادٍ غيبي وقلمٍ فيضي** ، فجاء شرحه مستكملاً لأنماط تلائم « **الحِكَم العطائية** » التي نُعتت **بأنها مواهب لدنية ، وأسرار ربانية ، نطقت بها أفكار قدسية ، وأسرار جبروتية** [1] ؛ **فهو ينهل من مشكاتها ، ويغوص في يمِّها** .

**ومما يؤكد هٰذا** ما جاء في « القرطاس » : ( **بل شرحه بالوارد الإلٰهي من الكلمات المطابقات ، التي لا يفهمها إلا أهلها نفع الله بهم** ) [2] .

فإن رُمْتَ مثالاً لهٰذا .. **فالشرح برمَّته ناطق به** ، ولا سيما عندما يسرح في شرح المقامات ، وأوصاف المقرَّبين ، وأحوال المريدين ، ومكاشفات العارفين ، **يحدِّثك حديث راءٍ** ، قد جاب مفاوز المقامات وفلوات الأحوال ، **غير مبالٍ في كشف ستارٍ هابَ سابقوه كشفه** ما لم يكن في كشفه ملامٍ وعار ، إلىٰ أن يصل بك إلىٰ موطن يرىٰ فيه الأخذ بعنان القلم [3] .

وسترىٰ في شرحه إضافة إلىٰ تلك اللغة الفيضية التي هي أخصُّ

---

(١) إيقاظ الهمم ( ص ٣ ) .

(٢) القرطاس ( ١/١٠ ) .

(٣) وانظر مثلاً حديثه عن التدوار الذي لم يبثَّ في شروح الحكم ، وقال عنه المصنف ( ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ) : ( ولم أقف علىٰ من أفصح بعلم هٰذا التدوار .. إلا إشارات الإمام الحاتمي الطائي ) في شرح الحكمة ( ٧١ ) .

خصائصه . . تعريفات لمصطلحات القوم مع كل حكمة ، يبرز معناها لغةً وعُرفاً ، وينزّلها علىٰ مقتضىٰ تلك الحكمة .

كما ألزم نفسه أن يختتم شرح كل حكمةٍ بشيءٍ من شعره يلخِّص فيه معنى الحكمة ، وقد تحمله الغلبة والنصرة للمعنىٰ علىٰ إهمال بعض ضوابط الشعر العروضية ؛ فليس المراد من الشعر لحنه وإيقاعه ، بل إظهار المعنىٰ بلغة قريبة من الفؤاد .

وقد صرَّح في ثناياه أنه رام الاختصار ، وأنَّ « الحِكَم » منطوية على المزيد ، فقال مثلاً : ( فالشرح حكمُهُ : أن يبين المراد من الحكمة ، وما سمح من تفاصيل أحكامها ومتعلقاتها ، لا كل التفاصيل )[1] .

فالحق : أن هـٰذا الشرح وإن انتفع به كل طالب . . إلا أنه بأهل الاختصاص أليق ، ولمتقدمة المريدين السالكين أنفع ؛ فالغِرُّ قد يجهل فيعترض ، فيكون اعتراضه سبباً لهجر ما قصُرَ فهمه عنه ، فيتشاغل عنه إن سلمت طويته ، أو يرميه بالخشن من الكلام .

وعلىٰ كلا الحالين : فاته الانتفاع ؛ وهو ما يعبِّر عنه القوم بالطرد والحرمان ، أو يكون ممن اغترَّ فظن حديثاً ساقه المصنف لأهل المراتب العلية . . قد سيق لأجله ، فوقع المغرور في شِبَاك أبي مرَّة ، فنال حظَّه منه ، واستمتع الواحد بالآخر ، ولها عما طُلب منه بالحجب الظلمانية والنورانية علىٰ قدر حاله في الإخلاص والصدق .

هـٰذا بشأن الشرح الذي بين أيدينا ، والذي غيَّبته عنَّا الأيام ليظهر اليوم فيُفرح به فرحَ الوالد بالوليد ، والساكن الحاضر بعَوْد الغائب البعيد ،

---

(١) انظر ( ص ٤٦٤ ) في شرح الحكمة ( ١١١ ) .

وكلنا أمل أن يكون عوناً بين يدي الباحثين والطالبين ؛ لاستجلاء الحقائق وتزكية النفوس .

بقي أن نلفت الانتباه إلىٰ أن الشارح بلغ الشأو القصي في علوم القوم ، وهو ممن ذاق وعرف ثم اغترف ، واتبع أسلوب ربط الحكم بعضها ببعض ؛ فكأنها عِقدٌ عُلِّق علىٰ جيد الزمان ، متناسق الخرزات ، تنتقل من جوهرةٍ لأخرىٰ تليها ، لا يليق لغيرها أن تكون مكانها ، وهـٰذا ما ستراه في هـٰذا الشرح المبارك ، نسأل الله النفع به وبما ينشر من كتب المتقدمين .

والحمد لله رب العالمين

الناشر

# تقديم

بقلم فضيلة العلامة السيد
عمر بن حامد بن عبد الهادي الجيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعطى الحكمة من شاء من العباد ، فأرشدوا بما فاهوا به منها إلىٰ سبل الرشاد ، وسار بحكمتهم الركبان في كل نادٍ من جميع البلاد .

وصلِّ اللهم علىٰ من أُوتي جوامع الكلم ، خير من عَلَّم وعَلِم ، وعلىٰ آله وصحبه وسَلِّم .

وبعد :

فإن الحكمة منشودة من العقلاء والفضلاء من المؤمنين ، يبحثون عنها بحث فاقدٍ لها محتاج إليها ، فإذا ظفر بها . . كان له بها الجذل والاحتفاء ، وبدلالتها الاستفادة والاقتداء ؛ كما جاء عند الترمذي وابن ماجه وابن عساكر عن علي رضي الله عنه ـ كما في « الجامع الصحيح » ، قال المناوي : بإسنادٍ حسن ـ : « الحكمة ضالة المؤمن ؛ فحيث وجدها . . فهو أحق بها » .

وهي امتنانٌ من الله تعالىٰ على المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وأوضح الله سبحانه : أن من أعطاه الحكمة . . فقد أجزل له العطاء بحصوله على الخير الكثير ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

والحكمة يكون بها الاغتباط ؛ كما جاء في « الصحيحين » : « لا حسد إلا في اثنتين ؛ رجل آتاه الله تعالىٰ مالاً فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى الحكمة فهو يقضي فيها ويعلِّمُها » .

وقد بوَّب الإمام البخاري في ( كتاب العلم ) من « الصحيح » باباً أسماه : ( **باب الاغتباط في العلم والحكمة** ) .

وجاء في « الصحيح » عن ابن عباس رضي الله عنهما : ضمَّني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ صدره وقال : « **اللهم ؛ علِّمه الحكمة** » .

وأخرج الطبراني من رواية أبي أمامة مرفوعاً أن لقمان قال لابنه : ( **عليك بمجالسة العلماء ، واسمع كلام الحكماء** ؛ فإن الله يُحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر ) .

وقد تعدَّدت معاني الحكمة ، وهي تدل في كل معانيها علىٰ أنها ممدحة لكل من أُوتيها أو نال حظاً منها ، وهي في أصلها تعني الإتقانَ والإحسانَ ؛ تقول : أحكمت الشيء ؛ إذا أتقنته .

قال في « البحر المديد » لابن عجيبة : ( **الحكمة** : التي دلَّت علىٰ معنىً فيه دقة ، مصونة معانيها عن الاختلال والخطأ والفساد ) .

وحَدُّها بالنسبة للحكمة الملفوظة : ( الكلام الذي يقِلُّ لفظه ويجلُّ معناه ) ولا شك أن أعلاه وأغلاه . . ما جاء في كلام الله جلَّ في عُلاه ؛

في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ كما في « المستدرك » : أنها أجمع آية في القرآن للخير والشر .

وعندما سمعها عثمان بن مظعون رضي الله عنه في مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : ( فَذَاكَ حين استقرَّ الإيمانُ في قلبي ، وأحببتُ محمداً صلى الله عليه وسلم ) .

وقال الوليد بن المغيرة مقالته الطويلة الجميلة بعدما سمع هٰذه الآية : ( والله ؛ إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أوله لمورق ، وأعلاه لمثمر . . . ) إلخ .

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلماتٌ قَلَّ لفظها وجَلَّ معناها ، خميصةٌ من اللفظ ، بطينةٌ من المعنىٰ ؛ وهي مما اختُصَّ به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم .

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري من طريق أبي هريرة رضي الله عنه : « بُعثتُ بجوامع الكلم ، ونُصرتُ بالرعب ، وبَينا أنا نائم . . أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض » .

ومن جوامع كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- إنما الأعمال بالنيات . « الصحيحان » .
- الدِّين النصيحة . « الصحيحان » .
- من حُسن إسلام المرء . . تركه ما لا يعنيه . « الترمذي » .
- دَعْ ما يَرِيبك إلىٰ ما لا يَرِيبك . « الترمذي » .

ـ مَن أحدث في أمرنا هٰذا ما ليس منه . . فهو رَدٌّ . « الصحيحان » .

ـ ازهد في الدنيا . . يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس . . يحبك الناس . « ابن ماجه » .

ـ كل معروفٍ صدقةٌ . « البخاري » .

ـ خيركم خيركم لأهله . « الترمذي » و« ابن ماجه » .

ـ اتقوا النار ولو بشق تمرة . « البخاري » .

ـ ما أُضيف شـيءٌ إلىٰ شـيءٍ أفضل من حلمٍ إلىٰ علم . « أبو الشيخ الأصبهاني » .

**وفي الأمثال والأشعار حكمٌ** قلَّ لفظها وجلَّ معناها ، استملحها الناس وحفظوها وردَّدوها ، واستشهدوا بها عند كل مناسبةٍ وحادثةٍ تتَّسق معها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لَسِحْراً ، ومن الشِّعر لحكمة » رواهما البخاري بإسنادين .

**فمن ذٰلك قولهم :**

١ ـ حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

٢ ـ التواضع من مصايد الشرف .

٣ ـ الحلم سيد الأخلاق .

**ومن الشعر** : قول النابغة الذبياني :

ولسـتَ بمُسـتَبقٍ أخـاً لا تَلُمُّـه ... علـىٰ شَـعَثٍ أيُّ الرّجـالِ المُهَذَّبُ

وقول النابغة الجعدي :

ولا خيـر فـي حلمٍ إذا لـم يكن له ... بـوادرُ تحمـي صفـوه أن يُكـدَّرا
ولا خيـر في جهـلٍ إذا لم يكن له ... حليـمٌ إذا مـا أوردَ الأمـرَ أصـدَرا

وقول لبيد بن ربيعة :

مـا عاتـبَ الحـرَّ الكريـم كنفسـه والمـرءُ يصلحُه الجليـسُ الصالحُ

والشواهد من الحكم في الموروث الأدبي لا تستقصىٰ .

**أما العلماء الربانيون** الذين زَكَت نفوسهم . . **فقد فتح الله عليهم فتحاً مبيناً** ، وافقوا به مراد الله عزَّ وجلَّ ومراد نبيه عليه الصلاة والسلام ، **فنطقوا بالحكمة** ، وخرجت من بين شفاههم سلسالاً عذباً يقطر ، **وكأن قطراته الدُّر** ، فالتقطها من يبحثون عنها ، ووجدوا فيها ضالَّتهم المنشودةَ ، فحفظوها واحتفوا بها ، وبثُّوها بين الناس في أنديتهم ومدارسهم ، **فأحيت القلوب** ، **وارتوت بها الجدوب** ، وكان للناس بها هداية أوصلتهم إلى المقصود .

**مـن هٰؤلاء الربانيـين** : **الإمـام ابـن عطـاء الله السكندري** صاحـب « الحكـم العطائيـة » ، وشـارحها **الإمـام بـاراس الدوعنـي** رحمهمـا الله تعالىٰ ، وسـنذكر فيما سيأتي لكل واحدٍ منهما ترجمةً موجزة للتعريف بشيء من فضائلهما ؛ فما لا يدرك كله . . لا يترك جلُّه .

❋ ❋ ❋

# ترجمة صاحب الحِكَم
# الإمام الكبير صاحب الإشارات العارف بالله
# تاج الدّين أبي الفضل أحمد بن محمّد بن عبد الكريم المالكيّ
# ابن عطاء الله السّكندريّ
# رحمه الله تعالىٰ (١)

(٦٥٨ - ٧٠٩هـ)

## اسمه ونسبه

هو الإمام القدوة تاج الدين ، والسيد الأسوة ترجمان العارفين ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن ابن عطاء الله ، الجذامي نسباً ، المالكي مذهباً (٢) ، الإسكندري داراً ، القرافي مزاراً ، العارف بالله حقيقة ، الشاذلي طريقة .

يرجع نسبه إلىٰ قبيلة جذام اليمنية القحطانية ، التي انتقلت إلىٰ

---

(١) مصادر ترجمته : « الدرر الكامنة » ( ٢٧٣/١ ـ ٢٧٥ ) للحافظ ابن حجر العسقلاني ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » ( ٢٣/٩ ) للتاج السبكي ، و« الوافي بالوفيات » ( ٥٧/٨ ) للمؤرخ الأديب خليل بن أيبك الصفدي ، و« الديباج المذهب » ( ٢٢١/١ ) للإمام ابن فرحون ، و« شذرات الذهب » ( ٣٦/٨ ) للعلامة ابن العماد الحنبلي ، و« حسن المحاضرة » ( ٤٥٣/١ ) للحافظ السيوطي ، و« الأعلام » ( ٢٢١/١ ) للعلامة الزركلي ، رحمهم الله تعالىٰ ، وقد أفرد له العلامة أبو الوفا التفتازاني كتاباً درس فيه حياة الإمام ابن عطاء الله السكندري وتصوفه .

(٢) قال التاج السبكي رحمه الله تعالىٰ في « طبقات الشافعية » ( ٢٣/٩ ) : ( أُراه كان شافعي المذهب ، وقيل : كان مالكياً ) .

مصر والشـام عقب الفتح الإسـلامي ؛ فهو إسـكندري المولد ، يمثل التصوف المصري في القرن السـابع ، وهـٰذا من الأهمية بمكان ؛ كما لا يخفىٰ علىٰ ذي لبّ .

## ولادته ونشأته وطلبه للعلم

ولد المترجَم له في الإسكندرية حوالي عام ( ٦٥٨ هـ ) ، ونشأ في وسط علمي ؛ فقد كان جده عبد الكريم من العلماء فقيهاً مالكياً مشاركاً في بقية العلوم الشرعية .

فترعـرع الإمام ابن عطاء الله طالباً للعلوم الشـرعية والعربية ، فدرس التفسير والحديث ، والفقه والأصول ، والنحو واللغة والبيان ، وكان أول أمـره ينكـر على الصوفيـة إلىٰ أن هيّأ الله له شـيخ زمانـه ، وقطب أوانه الشـيخ أبا العباس المرسـي ، فكان شـيخ فتحه ، نقل العلامة ابن العماد الحنبلي عن ابن الأهدل قوله : ( الشـيخ العارف بالله ، شـيخ الطريقين ، وإمـام الفريقيـن ، كان فقيهـاً عالمـاً ، ينكـر على الصوفيـة ، ثـم جذبته العناية فصحب شيخ الشيوخ المرسي ، وفتح عليه علىٰ يديه . . . )[1] .

## شيوخه

لقد ورد الإمام ابن عطاء الله معين علماء عصره فعلَّ ونهل ، وأخذ عن جهابذة العلم ، ومن هـٰؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم :

١ ـ الإمـام الفقيـه ناصر الدين بـن المنير ، المتوفـىٰ ( ٦٨٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

---

(١) شذرات الذهب ( ٨/٣٧ ) ، وقد تكلم المترجم له مطولاً عن ذلك في « لطائف المنن » ( ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ) .

٢ ـ مسند الديار المصرية شهاب الدين أحمد بن إسحاق الأبرقوهي ، المتوفىٰ ( ٧٠١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣ ـ إمام علم المنطق والكلام العلامة شمس الدين محمد بن محمود الأصبهاني ، المتوفىٰ ( ٦٨٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤ ـ شيخ المحدثين الحافظ شرف الدين الدمياطي ، المتوفىٰ ( ٧٠٥ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥ ـ الإمام العلامة العارف بالله أحمد بن عمر ، الشهير بأبي العباس المرسي ، المتوفىٰ ( ٦٨٦ هـ ) رحمه الله تعالىٰ ، وغيرهم من الأئمة كثير .

وبتلقِّيه العلم عن هٰؤلاء الكبار من العلماء تخرَّج عالماً متبحراً في علوم شتىٰ ، أهَّلته لأن يخلف بعض هٰؤلاء الشيوخ .

كان ابن عطاء الله في أول أيامه ينكر علىٰ أهل التصوف ؛ حتىٰ قدَّر الله له الاجتماع بالشيخ أبي العباس المرسي ، فأُعجب بعلمه وصلاحه ، وعرف حقيقة ما عليه القوم من عدم الانفكاك عن الوحيينِ الكتاب والسنة ، اللذين اتخذهما القوم ميزاناً للأقوال والأفعال والأحوال ، فأسلس قياده لشيخه أبي العباس ، وانطرح له جاثياً علىٰ ركبتيه يتلقَّى العلوم والسلوك عمَّن جمعهما الله له .

وكان شيخه أبو العباس مغتبطاً به مبتهجاً ، متوسِّماً فيه أنه متأهِّلٌ للخلافة بعده ؛ لنشر العلوم وتربية المُريدين طريقَ الآخرة ، وقال له : ( الزمْ ، فوالله ؛ لئن لزمتَ . . لتكونَنَّ مفتياً في المذهبين ) ، وأفرد للشيخين كتاباً في مناقبهما ؛ سماه : « لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن » رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

## تلامذته

وبعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي في الإسكندرية سنة ( ٦٧٦ هـ ) رحمه الله تعالىٰ . . كان هو الوارث لعلمه ومكانته ، ثم انتقل بعد ذٰلك إلى القاهرة ، وبها ظهر حاله وأشرقت شمسه ، والتفَّ حوله الناس وهو يدرِّس في الجامع الأزهر ، مُعجبين بما يلقيه من علومٍ وفهوم ، وأصبح النجمَ اللامعَ ، وصاحبَ الصيتِ الذائع ، وحقَّقَ الله ما رجاه شيخه أبو العباس له ؛ « وإن من عباد الله مَن لو أقسم على الله .. لأبره » .

طـار صيت هٰذا الإمام ؛ ممـا جعله كعبةً يؤمـه القاصدون ، وكان لوعظه تأثير في القلوب ، فحضـر عنده الفقهاء والعلماء وتخرجوا به ، ومن هٰؤلاء الأئمة :

إمام أهل السنة تقي الدين السبكي ، وقد صرح بذٰلك ولده تاج الدين السبكي رحمهما الله تعالىٰ [1] .

والعلامة الشيخ داوود بن عمر ، الشهير بابن باخلا ؛ وهو خليفة ابن عطاء الله في الطريقة الشاذلية ، وله تصانيف مفيدة .

ومنهـم : الإمـام الأصولـي العلامـة أبـو العبـاس أحمد بـن الميلـق السكندري ، وغيرهم كثير ، رحمه الله تعالىٰ .

## مؤلفاته

ترك هٰذا الإمام الكثير من المؤلَّفات ، التي ظهر نفعها وبركتها ، وسارت بها الركبانِ ؛ وهٰذا دليل قَبولها وإخلاص مؤلفها ، ومَن هٰذه المؤلفات :

ـ التنوير في إسقاط التدبير .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ ( ٢٣/٩ ) حيث قال عنه : ( كان أستاذَ الشيخ الوالد في التصوف ، وكان إماماً عارفاً ، صاحب إشارات وكرامات ، وقدم راسخ في التصوف . . . ) .

- أصول مقدمات الوصول .

- تحفة الخلان في شرح نصيحة الإخوان .

- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس .

- الحكم العطائية ؛ وهي متن هـٰذا الكتاب الذي أكرمنا الله بخدمته ، وسنذكر بعد الترجمة عناية العلماء به .

- الطريق الجادة في نيل السعادة .

- عنوان التوفيق في آداب الطريق .

وغير ذٰلك من الرسائل والمواعظ والقصائد ، قال الإمام ابن العماد الحنبلي رحمه الله تعالىٰ : ( **وما أحسن قوله في شيخه في بعض قصائده :**

كم من قلوبٍ قد أُميتت بالهوىٰ ... أحيا بها من بعد ما أحياها

**وكان شيخه يستعيد منه هـٰذا البيت ، ومن طالع كتبه .. عرف فضله** )[1] .

## من شهادة العلماء فيه

وقد تظاهرت أقوالُ المؤرخين على الإشادة بمكانته وعُلُوِّ كعبه في العلوم والسلوك ، والوعظ والإرشاد ، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني نقلاً عن الإمام الذهبي رحمهما الله تعالىٰ : ( **كانت له جلالةٌ عجيبة ، ووَقعٌ في النفوس ، ومشاركةٌ في الفضائل ، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يُرَوِّحُ النفوس ، ومَزَجَ كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم ؛ فكثر أتباعُه ، وكانت له سيما الخير ...** ) إلىٰ آخر ما قال رحمه الله تعالىٰ[2] .

---

(١) شذرات الذهب ( ٨/٣٨ ) .

(٢) انظر « الدرر الكامنة » ( ١/٢٧٤ ) .

وقال البدر الحسين الأهدل : ( كان فقيهاً عالماً ينكر على الصوفية ، ثم جذبته العناية بصحبة شيخ الشيوخ المرسي ، وفتح عليه على يديه ) انتهى .

وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالىٰ في « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، وقال : ( وكان المتكلم علىٰ لسان الصوفية في زمانه )[1] .

وقال ابن فرحون اليعمُري رحمه الله تعالىٰ في كتابه « الديباج المذهب » : ( كان جامعاً لأنواع العلوم ؛ من تفسيرٍ وحديث ، ونحوٍ وأصول ، وفقهٍ وغير ذٰلك ، وكان رحمه الله تعالىٰ متكلماً علىٰ طريقة أهل التصوف ، واعظاً انتفع به خلقٌ كثير ، وسلكوا طريقه )[2] .

## وفاته

أمضى المترجم له عمره بين دراسة وتدريس وتأليف إلىٰ أن لبَّىٰ داعي ربه سبحانه وتعالىٰ ، فوافته المنية بالمدرسة المنصورية سنة ( ٧٠٩ هـ ) بعد أن صار كهلاً ، رحمه الله تعالىٰ ، وكانت جنازته مشهودة حافلة ، ودفن بالقرافة بجوار الإمام الكمال بن الهمام ، والإمام ابن سيد الناس ، والعارف بالله ابن أبي جمرة ، بلَّ الله ضرائحهم بشآبيب الرحمة والرضوان ، وجمعنا بهم في الجنان ، مع سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) الدرر الكامنة ( ١/٢٧٣ ) .

(٢) الديباج المذهب ( ١/٢١٠ ـ ٢١١ ) .

# عناية العلماء بـ «الحكم العطائية»

لقد كتب الله القَبول لكتاب « الحِكَم العطائية » وانتشر صيته ، واشتغل السالكون بقراءته وحفظه .

وقام عددٌ كبير من العلماء بخدمته ؛ شرحاً ونظماً وسيراً علىٰ منواله ، وكان له الأثرُ البالغ في تربية النفوس وتهذيبها ، والعناية بمقام الإحسان ، وتصفية الأعمال عما يشوبها من القوادح ، وتصحيح الأحوال بما يُحَلّيها من الخلال المحمودة ، ويُخَلّيها عن الصفات المذمومة ؛ فما مضت عقودٌ معدودةٌ من وفاة ابن عطاء الله قبيل انسلاخ العقد الأول من القرن الثامن . . حتى اشتغل العلماء بشرحها ونظمها ومحاكاتها .

وأول من قام بشرحها : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عباد النَّفْزي ، الأندلسي الرُّندي ، المتوفىٰ سنة ( ٧٩٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ ، وله شرحان ؛ سمَّى الأول : « التنبيه » ، وسمَّى الآخر : « المواهب العلية شرح الحكم العطائية » واشتهر بـ « شرح ابن عباد » ، و« التنبيه » : شرح منظوم للحكم ، بلغ ثمان مئة بيتٍ وبيت ، وأسماه « بغية المريد » ، قال فيه :

جَسَّرني عليه ما قد سَلَفا ... من وضعِ تَنبيهٍ بِشَرحٍ عُرِفا
وشَرطُنا في ذاك ما ضَمَّنَّا ... في ذٰلك المجموعِ إذ أعلمنا

ولم يدوَّن في القرن الثامن شرح على « الحكم » ـ فيما حوته مصنفات أسماء الكتب ـ سوىٰ شرحي ابن عباد : المنثور والمنظوم ، ثم تلت « شرحي ابن عباد » شروحٌ كثيرة عبر ستة قرون ؛ من القرن التاسع إلىٰ قرننا الخامس عشر .

## القرن التاسع

١ ـ إحكام الحكم في شرح الحكم ، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي ( ت ٨٠٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن ، عُرف بأبن زاغو التلمساني ( ت ٨٤٥ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣ ـ شرح الحكم لابن عطاء الله ، لأبي محمد خلف بن محمد المشالي الشاذلي المصري الشافعي ( ت ٨٧٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي المواهب محمد بن أحمد بن محمد التونسي القاهري ، المعروف بابن زغدان الشاذلي المالكي ( ت ٨٨٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي القاسم الرماح الطرابلسي الليبي ( ت ٨٨٧ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٦ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي ، الفقيه الفرضي الشهير بالقلصادي المالكي ( ت ٨٩١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٧ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأحمد بن أحمد بن محمد البرنسي ، المعروف بزروق ( ت ٨٩٩ هـ ) رحمه الله تعالىٰ [١] .

## القرن العاشر

٨ ـ كشف الغطا عن حكم ابن عطا ، لشمس الدين أبي عبد الله

---

(١) وقد شرحها سبعة عشر شرحاً ، قال رحمه الله تعالىٰ : ( وجملة التعاليق التي وقعت لنا عليه : سبعة عشر ، الكامل منها : أحد عشر ... ) .

محمد بن إبراهيم بن عثمان الوزيري ، الشهير **بالخطيب** ، كان حياً في ( ٩٠٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٩ ـ الحكم شرح الحكم لابن عطاء الله ، لأبي الطيب برهان الدين إبراهيم بن محمود بن أحمد المواهبي **الأقصرائي** الشاذلي ( ت ٩٠٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٠ ـ مرشد الأمم مما أودعه التاج ابن عطاء الله في الحكم ، لأحمد خير الدين بن محمد بن عبد الله **الكركي** المصري الشافعي توفي بعد سنة ( ٩١٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١١ ـ شرح الحكم ، لشهاب الدين أحمد بن عمر بن سليمان **الجعفري** الدمشقي الوفائي الشافعي ( ت ٩١٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٢ ـ فتح باب الملتزم الجامع لبعض معاني كتاب الحكم ، لأبي عبد الله محمد بن علي بن **الشطيبي** الأندلسي **الزروالي** ( ت ٩٦٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٣ ـ المواهب الربانية شرح الحكم العطائية ، لأبي عبد الله محمد بن علي **الخروبي** **الطرابلسي** **الجزائري** ( ت ٩٦٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٤ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنفي التادفي الحلبي ، المعروف **بابن الحنبلي** ( ت ٩٧١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٥ ـ شرح الحكم لابن عطاء الله ، لعلي بن حسام الدين عبد الملك بن قاضيخان ، المشهور **بالمتقي الهندي** ( ت ٩٧٥ هـ ) رحمه الله تعالىٰ ، وله أيضاً : « النهج الأتم في تبويب الحكم » .

١٦ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لقاسم بن أبي الفضل عبد الرحمٰن بن

حسن السعدي الحلبي القادري الصوفي ( ت ٩٨٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

## القرن الحادي عشر

١٧ ـ مطالع الأنوار السَّنية في بعض معاني الحكم العطائية ، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز التادلي الصومعي ( ت ١٠١٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٨ ـ الجواهر السَّنية في الحكم العليَّة ، لمنصور بن محمد الأريحاوي الفلسطيني توفي بعد سنة ( ١٠١٦ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٩ ـ الدُّرر الجوهرية شرح الحكم العطائية ، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي المصري الشافعي ( ت ١٠٣١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٠ ـ فتح الحكم لترتيب الحكم ، للمؤلف السابق .

٢١ ـ شرح الحكم العطائية ، لأحمد بن إبراهيم ، المعروف بابن علان الصديقي الشافعي النقشبندي ( ت ١٠٣٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٢ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن يوسف بن أحمد البدري الدجاني القشاشي المقدسي المدني المالكي ( ت ١٠٤٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٣ ـ الكلمة الوسطىٰ في شرح حكم ابن عطاء الله ، لصفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الدجاني القشاشي ( ت ١٠٧١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٤ ـ شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم ، لعلي بن عبد الله باراس الدوعني الحضرمي ( ت ١٠٩٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ ؛ وهو هـٰذا الكتاب .

## القرن الثاني عشر

٢٥ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمـٰن الفاسي ، المعروف بابن زِكْري ( ت ١١٤٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٦ ـ شرح الحكم لابن عطاء الله ، لمحمد حياة بن إبراهيم السندي المدني ( ت ١١٦٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٧ ـ شرح الحكم العطائية ، لحسن بن علي بن أحمد المنطاوي الشافعي الأزهري ، الشهير بالمدابغي المصري ( ت ١١٧٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٨ ـ الشرح الكبير لحكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن قاسم بن محمد جسوس الفاسي المالكي ( ت ١١٨٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢٩ ـ الأسرار الخفيَّة الموصلة إلى الحضرة العليَّة في شرح الحكم العطائية ، لعلي بن حجازي البيومي المصري الشافعي الخلوتي ( ت ١١٨٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٠ ـ الهداية للإنسان إلى الكريم المنان ، للمؤلف السابق .

٣١ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن عبادة بن بري ، المعروف بالعدوي المصري المالكي ( ت ١١٩٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

## القرن الثالث عشر

٣٢ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن أحمد التشيني ( ت ١٢٠٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٣ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لصالح بن محمد بن صالح السباعي المصري ( ت ١٢٢١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٤ ـ إيقاظ الهمم بشرح الحكم ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي ( ت ١٢٢٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٥ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد الطيب بن عبد المجيد ابن كيران المالكي ( ت ١٢٢٧ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٦ ـ المنح القدسية على الحكم العطائية ، لعبد الله بن حجازي بن إبراهيم المصري الأزهري ، المعروف بالشرقاوي ( ت ١٢٢٧ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٧ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن محمد الأمير الكبير المالكي ( ت ١٢٣٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٨ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لحمدون بن عبد الرحمٰن بن حمدون السلمي المرداسي ، المعروف بابن الحاج ( ت ١٢٣٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣٩ ـ شرح الحكم العطائية ، لمحمد سعدي بن عمر الحموي الأزهري ، الشهير بالكيلاني ( ت ١٢٤١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٠ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن الطيب الحسني البلغيثي ( ت ١٢٦٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤١ ـ إثمد القلم في أحداق الحكم ، لمحمد بن محمد بن عبد الواحد العلمي الشاذلي الدرقاوي ، الشهير بالحراق ( ت ١٢٦١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٢ ـ شرح الحكم ، لنور الدين بن عبد الجبار بن نوري الحسيني ، الشهير بالبريفكاني الكردي ( ١٢٦٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٣ ـ الغيث المسجم في شرح الحكم ، لأبي بكر بن محمد بن عبد الله البناني الفاسي الرباطي ( ت ١٢٨٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٤ ـ شفاء السقم وجلاء الظلم علىٰ متن الحكم لابن عطاء الله ، لزين الدين حسين بن إبراهيم بن حسين المالكي الأزهري ، مفتي المالكية بمكة المكرمة ( ت ١٢٩٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

## القرن الرّابع عشر وما بعده من العصريّين

٤٥ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لأحمد بن المختار بن الأمين التندغي الشنقيطي ( ت ١٣٢٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٦ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لعبد الغني المدني .

٤٧ ـ القول المحكم في شرح الحكم ، لبدر الدين أبي الإشراق محمد بن شهاب الدين أحمد الدمشقي ، المعروف بابن الطباخ .

٤٨ ـ شرح الحكم ، لحسن بن عوض بن محمد الحضرمي ، المعروف بابن مخدم ( ت ١٣٣١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤٩ ـ شرح الحكم ، لمحمود بن محيي الدين بن مصطفىٰ أبو الشامات الدمشقي الحنفي ( ت ١٣٤١ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥٠ ـ شرح الحكم العطائية ، لأبي محمد عبد المجيد الشرنوبي ، اختلف في سنة وفاته ، والأشهر : أنه سنة ( ١٣٤٨ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥١ ـ المحكم في شرح الحكم ( تركي ) لأحمد ماهر بن محمود القسطموني الرومي الحنفي ، المعروف باللقلي أفندي زاده .

٥٢ ـ مذكرات في منازل الصديقين والربانيين ، شرح فيها مختارات من الحكم العطائية ، لسعيد حوى الحموي ( ت ١٤٠٩ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥٣ ـ الجانب العاطفي من الإسلام ، لمحمد الغزالي ( ت ١٤١٦ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥٤ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ( ت ١٤٣٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

* * *

**وكما خُدمت الحكم بالشرح . . خُدمت بالنظم ، فنظمها عددٌ من أهل العلم ؛ من هاذه المنظومات :**

١ ـ فيض الكرم في نظم الحكم ، لكمال الدين محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي ، الشهير بابن أبي شريف ( ت ٩٠٥ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٢ ـ فيض الكرم نظم وشرح الحكم ، لعبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي بكر باقشير الحضرمي ( ت ١٠٧٦ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٣ ـ نظم الحكم العطائية ، لحمدون بن عبد الرحمـٰن بن حمدون ، المعروف بابن الحاج السلمي المرداسي ( ت ١٢٣٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٤ ـ نظم كتاب الحكم لابن عطاء الله ، لعبد الله بن علي بن يوسف ، الملقب بالفارس المكي ( ت ١٢٦٢ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٥ ـ مرشد الفقير نظم حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن المختار بن حميد الغلاوي ( القرن الرابع عشر ) .

٦ ـ نظم حكم ابن عطاء الله وشرحه ، لمحمد محمود بن محمد **الجكني** ( ت ١٣٤٣ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٧ ـ النظم المحتاج ، لعبد الكريم بن محمد بن بنيس ( ١٣٥٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٨ ـ نظم حكم ابـن عطاء الله ، لأحمد بن إدريس بن محمد **الأهدل الزبيدي** ( ت ١٣٥٧ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

٩ ـ نظم الحكـم العطائية ، للطاهر بن محمد بـن إبراهيم **البكري الأفراني** ( ت ١٣٧٤ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

١٠ ـ لثم النِّعم لنظم الحكم ، لأحمد بن محمد بن الصديق **الغماري** الإدريسي ( ت ١٣٨٠ هـ ) رحمه الله تعالىٰ .

## شرح الشّيخ علي باراس لـ « حِكَم ابن عطاء الله »

شرح الشيخ علي باراس الحكم « العطائية » شرحين : **الأول** : **لطيف** ، ولعله في عداد الأسفار المفقودة بسبب عوادي الزمن والإهمال .

والثاني : **مطول** ؛ وهو هـٰذا الذي نقدِّم له بهـٰذه المقدمة ، وهـٰذا الشرح له نسختان في مكتبة الأحقاف : إحداهما **بمسمىٰ** : « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » ، **والثانية بمسمىٰ** : « شرح الحكم » ، **ونسخة ثالثة** في مكتبة ( قاريونس ) في ليبيا ، **ونسخة رابعة** في مركز النور بتريم .

قام الشيخ علي بشرح الحكم بإشارة من شيخه **الحبيب عمر بن عبد الرحمـٰن العطاس** ؛ الذي اطَّلع عليه وأُعجب به وأثنىٰ عليه ، وذكر الشيخ علي في مقدمة شرحه أنه لم يطلع علىٰ شرحٍ للحكم سوىٰ

« **شرح ابن عباد** » الذي اتخذه أُسّاً لشرحه ، ولٰكنه **اعتمد على الفتح الرباني الذي يُقذَف في رُوعه** ، وهو ما يمكن أن يلاحظ عند قراءة الشرح .

ويظهر أن الشيخ **أَلَّف** شرحيه بعدما تدَيَّر بلدة الخُرَيبة ؛ قصبة وادي دوعن ، الزاخرة **بالفقهاء والعلماء والصالحين** ، وليس كما ذكر في كتاب « الدر والياقوت » بأنه أول من سكنها ، إذا اعتمدنا على القول بأنه سكن بلدة الخريبة عام ( ١٠٤٥ هـ ) ، فيكون عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً ، **وهٰذا يؤكد نبوغه واتساع أفقه العلمي** .

قال في أول الشرح : ( **أما بعد** : فإني استخرت الله سبحانه بعد أن صَدرت إشارةٌ في طيِّها بشارةٌ ، من صدر زمانه ، وقطب أوانه ، العارفِ بالله ذوقاً وكشفاً ، وتحقُّقاً وعلماً ؛ سيدي عمر بن **عبد الرحمٰن** بن عقيل بن سالم بن عبد الله باعلوي السقاف . . **أن أضعَ تعليقاً لطيفاً علىٰ كتاب** « **الحكم** » للشيخ العارف بالله أحمد ابن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن الحسين **بن عطاء الله الشاذلي الإسكندري** )[1] .

وقال : ( **فوجدت عند ذٰلك أثر الاستخارة** ، وبركات قَبول الإشارة ، **فقدمت معتمداً علىٰ ما ينقدح بنور الفهم** ، ولم أكن بعدُ قد وقفت لهٰذا الكتاب علىٰ شرحٍ غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبَّاد النِّفْزِي ، **فجعلت في بعض ما أضعه كلامَهُ لأوائل كلامنا أُسّاً** ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحاتِ النقول وجلياتِ المعقول ، وأنا منتظر ما **يُلقىٰ في الفؤاد من لوائح**

---

(١) انظر ما سيأتي ( ص ١١٠ ) أول الكتاب .

الـــوداد ؛ فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد . . . ) انتهىٰ [1] .

وعند قراءة هٰذا الشرح ينبهر الناظر فيه بسعة علم الشيخ ، وبعارضته القوية ، والأســلوب الأدبي الراقي المُسَجَّع ؛ الذي يدل علىٰ علم واسع بالعربية ، وقدرةٍ عظيمة على اســتحضار مفرداتها ، التي ينســجها في عبــارات تأخذ بالقلوب وتنال الإعجاب ؛ كما تؤكد رســوخه في علوم القوم ، وإحاطته بمصطلحاتهم .

لٰكن يلاحظ : أن الشــارح ينظم عباراته في أبيات لا تخضع لتفعيلة العروضيين ، ولا توزن بميزانهم ؛ ولعل ما جاء في كلام الفقيه محمد بن سـليمان باحويرث بإجراء تصانيفه علىٰ قانونٍ محمودٍ وهو ما أوضحه تلميذه السيد عيسى الحبشي بأن ذٰلك من جهة اللغة .

❋ ❋ ❋

(1) انظر ما سيأتي ( ص ١١٠ ـ ١١١ ) أول الكتاب .

# ترجمة شارح الحِكَم
# الإمام العلّامة العارف بالله تعالى
# أبي محمّد علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر باراس
# الكندي الدوعني الحضرمي الشافعي
# رحمه الله تعالى [1]

(١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ)

## اسمه ونسبه

هو الشيخ العالم المُربّي ، العابد الزاهد شيخ الوادي ، ومرجع الحاضر والبادي : **أبو محمد علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر باراس بن ظفر بن مهدي الصَّدِفي الكندي ، الحريضي الخُرَيبي** ، الشافعي مذهباً ، **الباعلوي** سلوكاً وطريقة .

قال الحبيب أحمد بن حسن العطاس في رسالته في « أنساب القاطنين بوادي حضرموت » التي أكثرُ ما نقله فيها من خطوط الثقات ، قال وهو يعدِّد بطون كندة وآل مهدي بـ ( قبضين ) : **( ومنهم : المشايخ آل الشيخ علي باراس بدوعن وحجر والجبال )** انتهى .

---

(١) مصادر ترجمته : « جواهر الأنفاس بمناقب السيد علي بن حسن العطاس وبعض أصحاب الشيخ علي باراس » مخطوط من مكتبة الأحقاف ( ٢٠٢٦ ) ، و« خلاصة الأثر » ( ١٧٢/٣ ) للعلامة المحبي ، و« مصادر الفكر الإسلامي في اليمن » ( ص ٣٤٥ ) .

ومعلوم : أن قرية ( قبضين ) تكون علىٰ طريق الداخل إلىٰ حريضة ؛ وهي قرية المشايخ آل باراس .

## ولادته ونشأته

ولد الشيخ علي باراس ببلدة حريضة عام ( ١٠٢٧ هـ ) ، وقد أشار العلامة المؤرخ المحبي إلىٰ أن العلامة العارف بالله عبد القادر باعشن الدوعني رحمهما الله تعالىٰ بشَّر به قبل وجوده ، فكان يقول : ( سيخرج بعدي في هٰذا البلد رجل اسمه كذا ، وصفته كذا بوصفه ؛ هو شمس هٰذا الإقليم ونوره )(١) .

واتصل المترجم له في أول نشأته بشيخ قريته وعالمها الحبيب عمر العطاس باعلوي الحضرمي ، فتربَّىٰ تحت أنظاره ، وعبَّ من نمير أنواره ، فقرأ القرآن الكريم علىٰ يديه ، وبعد ختمه للقرآن عنده اتخذه الشيخ مرافقاً وقائداً له في حلِّه وترحاله ؛ إذ كان الحبيب عمر العطاس كفيفاً ، وفي رحلاته الدعوية يدارسه القرآن ليلاً ونهاراً ، وانتدبه إلىٰ قرية ( قرن المال ) وقرىً أخرىٰ في وادي ( عمد ) يعلِّم أطفالها القرآن الكريم .

لازم شيخه ملازمة كاملة ، وقرأ عليه كثيراً من كتب العلم ، وحرص شيخه أن يزداد علمه ، فأرسله إلىٰ بلدة ( عمد ) عند الشيخ العالم الرباني الفقيه الشهير أحمد بن علي بابحير حتىٰ تفقه عليه ، وبرع في علم الفقه ، وبقي بعد ذٰلك ينهل من معين شيخه الصافي .

ومــا زال يربّيه التربية الراقية ، ويُدرِّبه علىٰ تحمُّل المشــاق بتكليفه ببعض الأعباء التي لا ينهض بها إلا الأســاطين مــن الرجال علىٰ صغر

---

(١) خلاصة الأثر ( ١٧٣/٣ ) .

سنِّه ، فيقوم بها بلا تردُّد أحسن القيام ؛ تعظيماً لشيخه .

وبلغ حبه لشيخه أن نذر له بما يملك من أراضٍ زراعية وهو فرحٌ مسرور ، وشيخه ينفق ريعها في أوجه البر ، وعندما اجتمع قومه به . . عابوا عليه ذلك ، فأقسم لهم : أنه لو كان يملك وادي ( نِسِم ) . . لأهداه لشيخه .

أحبَّ الحبيب عمر تلميذه ؛ لفضله وصلاحه وصدقه ، وكان يقدِّمه إماماً ويصلي خلفه مؤتماً به ، ويقول عنه : ( إنه هو المعين لي والمؤازر لي ) ويقول أيضاً : ( إنه لساني ، ومن فرَّقَ بين عمر وعلي . . لا يفلح ) .

وبعد أن أهَّله للقيام بأعباء الدعوة أمره بالسفر إلى ( دوعن ) والإقامة في بلدة الخريبة ، وألزمه بذلك ، ولم يقبل اعتذاره ، وأصحب معه ابنه الحسين بن عمر يقرأ عليه ويقوم بخدمته ، وكان ذلك بعد عودته من حج بيت الله الحرام ، وزيارة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وذكر المترجمون له : ( أنه مكث في المدينة المنورة أربعين يوماً ، وقرأ في المسجد النبوي في جمع كثير من الناس شيئاً من دروس السيرة النبوية . . . ) انتهى .

وصحبه في رحلة الحج العالم الرباني السيد عيدروس بن علوي بن الشيخ أحمد الحبشي .

## تديُّر الشيخ بلدة الخريبة

سكن الشيخ علي هذه البلدة المليئة بالعلماء ؛ التي هي مركز ( دوعن ) التجاري الذي يجلب التجار بضائعهم إليه من أنحاء البلاد ،

ودارُه التي كان يسكنها باقية قائمة إلى الآن ، وهي من التراث الذي يجب المحافظة عليه .

وقد نال الشيخ شيءٌ من الأذىٰ من بعض الحسَّاد ، لٰكنه تدرَّع له بالصبر وحسن الخلق وإلغاء حظ النفس ، فعاد إليه أولـٰئك القوم معتذرين ، وانضموا إلىٰ صفوف طلابه ومحبِّيه ، وقَصَدَه طلاب العلم من أنحاء الوادي يقرؤون عليه ، وكان بينه وبين علماء الخريبة ودٌّ ومحبة ، ومنهم قاضيها ومفتيها وابن مفتيها الفقيه محمد بن سليمان باحويرث .

تولى الشيخ علي الإمامةَ في جامع الشيخ سليمان بن عبد الله بامنيع تلميذ الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ، وكان صوته جهورياً ، وله طريقة في قراءة القرآن يخشع لسماعها المصلُّون والمستمعون ، وآئتمَّ به في هـٰذا المسجد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد عندما زار وادي دوعن .

لقد ذاع صيت الشيخ علي في دوعن ، واجتمع الناس حوله ، وكان يُقصَد لأخذ العلم ، وإذا ذهب لحضور بعض المناسبات في الوادي . . يسير معه عدد كبير من الناس .

ووضع الله له المحبة في قلوب الناس عامةً وخاصةً ، وقصده من سيئون السلطان علي بن بدر الكثيري ، وكان الشيخ حينها يزور حريضة في جمع من تلاميذه ومحبِّيه ، فسلَّم عليه السلطان وبادله التحية ، ثم وعظه وحذَّره من الظلم ، ونبَّهه علىٰ بعض المخالفات التي تقع من بعض ولاته ، فقبل نصيحته وشكره عليها ، وأهدىٰ إليه بعض الهدايا ، فاعتذر عن قَبولها .

## شيوخه

لقد أخذ المترجم له عن عدة من علماء عصره ، ولعل من أبرز شيوخه بلا نزاع :

ـ الإمام العلامة الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن العطاس ؛ وهو شيخه الأكبر ، قال في نعته في هٰذا الكتاب الذي بين أيدينا : ( وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن عبد الرحمٰن أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون ، وأجد له من التأثير ما لا أجده في كلام غيره من المصنفين )[1] .

وممن تلقىٰ عنهم مطلع طلبه للعلم أيضاً :

ـ العلامة الفقيه العارف بالله الشيخ العالم الرباني أحمد بن علي بابحير .

ـ والإمام العلامة الحبيب الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم بن عبد الله ، رحم الله الجميع ، وأجزل مثوبتهم .

## تلاميذه

انتظم حول الشيخ علي باراس عدد من طلاب العلم ينهلون من معينه ، ويتأدّبون بآدابه ، وكان يأمر تلاميذه أن يراجعوه وأن يبحثوا معه مسائل العلم ، ولا يمنعهم احتشامهم له من المراجعة ، ويشدِّد عليهم في ذٰلك .

وكان يعطف علىٰ تلاميذه ؛ فقد نقل الشيخ عبد الله بن محمد

(١) انظر ( ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩ ) في شرح الحكمة ( ١٨٢ ) ونقل أنه قرأ علىٰ شيخه المذكور كتاب « بداية الهداية » .

باسنده صاحب الرباط عن بعض تلاميذ الشيخ علي قال : ( لقد صحبتُ الشيخ علي قريباً من ثلاثين عاماً ، فكان أشفق عليّ وعلىٰ من يليه من الوالد الحفي ) .

ومن أشهر هـٰؤلاء التلاميذ :

١ ـ الحبيب الحسين بن عمر العطاس ؛ الذي أسكنه معه في بيته ، وزوّجه في بلد الخريبة .

٢ ـ الشيخ محمد بن محمد بامشموس .

٣ ـ الحبيب عيسى بن محمد الحبشي ، صاحب خنفر .

٤ ـ الحبيب علي بن محمد باهارون .

٥ ـ الشيخ عبد الله بن عمر باعباد ، صاحب الدوفة .

٦ ـ الشيخ عبد الله بن محمد باهرمز .

٧ ـ الشيخ سهل بن إسحاق .

## المترجمون له

١ ـ السيد عيسى بن محمد الحبشي ، جاء في ترجمته قوله : ( كان رضي الله عنه شيخاً عارفاً من أرباب الأحوال ، أحد مشايخ حضرموت وعظماء العارفين في وقته . . . ) ثم قال : ( وهو أحد أركان هـٰذا الشان ، وأعلام طريق الهدىٰ والعرفان ) .

٢ ـ الحبيب علي بن حسن العطاس ، أفرده بتأليف اعتمد فيه علىٰ ما كتبه السيد عيسى الحبشي وزاد عليه .

٣ ـ الشيخ الفقيه عبد الله بن عمر باعباد صاحب الدوفة ، أفرده بالترجمة .

٤ ـ وممن ترجمه ترجمةً مطولة الشيخ عبد الله باسودان في كتابه « فيض الأسرار » .

٥ ـ وترجمه المحبّي في كتابه « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » قائلاً : ( علي بن عبد الله باراس الدوعني الحضرمي ، أحد مشايخ الطريقة ، الجامعين بين الشريعة والحقيقة ، انفرد في ذٰلك الإقليم بالإرشاد والإمداد . . . ) .

ثم ذكر قراءته علىٰ مشايخه رحمهم الله ، ثم قال : ( وقصده الناس من نواحٍ شتىٰ ، وتخرَّج به خلقٌ كثير )[1] وذكر بعض تلاميذه رحمهم الله وقال : ( وله ـ نفع الله به ـ المصنفات النافعة الكثيرة الشهيرة ، التي تلقَّاها أهل ذٰلك الإقليم بالقَبول التام ) وذكر بعضها .

٦ ـ وترجمه السيد محمد بن محمد زبارة في كتابه « الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع » للعلامة محمد بن علي الشوكاني قال : ( الشيخ العلامة علي بن عبد الله باراس ، أخذ عن الشريف عمر العطاس باعلوي وغيره ، وانفرد في إقليمه بالإرشاد ، وفتح عليه بفتوحات كثيرة ، وله مؤلفات شهيرة ) وذكر منها شرحيه على الحِكَم .

## مؤلفاته

للشيخ العلامة باراس سمةٌ في تآليفه ، بادية لمن اطلع عليها ؛ وهي أنها مؤسَّسة علىٰ ما تجود به سحابة الوقت ؛ فلسانه فيضي ، ومداد قلمه غيبي ، هٰذا ما ستجده عند الحديث عن شرحه للحكم ؛ فمن آثاره :

---

(١) خلاصة الأثر ( ٣/١٧٢ ) .

١ ـ الروضة الخضرا والدرة الزهرا بكشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ؛ وهو شرح لقصيدة الإمام العارف بالله أبي مدين .

٢ ـ شرح راتب الحبيب عمر العطاس ؛ المسمىٰ « عزيز المنال وفتح باب الوصال » .

٣ ـ شرح أبيات للشيخ عمر بن عبد الله بامخرمة .

٤ ـ شرح أبيات للحبيب أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني .

٥ ـ شرح أبيات للشيخ عبد الهادي السودي .

٦ ـ شرحان لحكم ابن عطاء الله ؛ مختصر مفقود ، وشرح كبير سماه : « **شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم** » **وهو الذي شرفنا بخدمته** .

## أولاده وذريته

**خلف المترجم له من البنين** : أحمد وعبد الرحمٰن وعبد الله وعمر ، ولهم ذرية منتشرون في عدد من البلدان ، يُبيّنهم المشجَّرُ الملحق بهٰذه المقدمة ، وقد رتَّب هٰذا المشجَّر الابن المبارك **عبد القادر** بن عبد الله بن المنصب أحمد بن محمد باراس بارك الله فيه .

**وظهر فيهم** دعاة إلى الله وعلماء ، ومركزهم ومنصبهم الرئيس بلدة الخريبة ؛ **حيث مسجد جدِّهم وبيته الذي كان يسكن فيه** ، وقد سكن بعض ذريته في بلدان أخرىٰ من حضرموت ، **وهاجر بعضهم إلىٰ خارجها** ، حفظهم الله أجمعين ، وسلك بنا وبهم سبيل الصالحين .

**ومن ذرية الشيخ علي باراس** : والدتي الصالحة العابدة ، التقية النقية صفية بنت الجد حسن بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسين بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله باراس ، وكان والدها الشيخ

حسن بن عبد الله من أهل الفقه والأدب والصلاح ، وكان هو والمنصب الشيخ أحمد بن محمد نجمينِ لامعينِ فـي وادي دوعن ، رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

## وفاته

توفي الشيخ علي في بلدة الخريبة يوم الأربعاء شهر ربيع الأول ، عام ( ١٠٩٤ هـ ) .

رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار ، وأسكنه فسيح جنّاته

قاله وكتبه الفقير إلىٰ ربّه الغنيّ
عمر بن حامد بن عبد الهادي الجيلانيّ
مكّة المكرّمة (٣) ذي الحجّة (١٤٣٥هـ)

## مشجر ذرية الشيخ علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالى

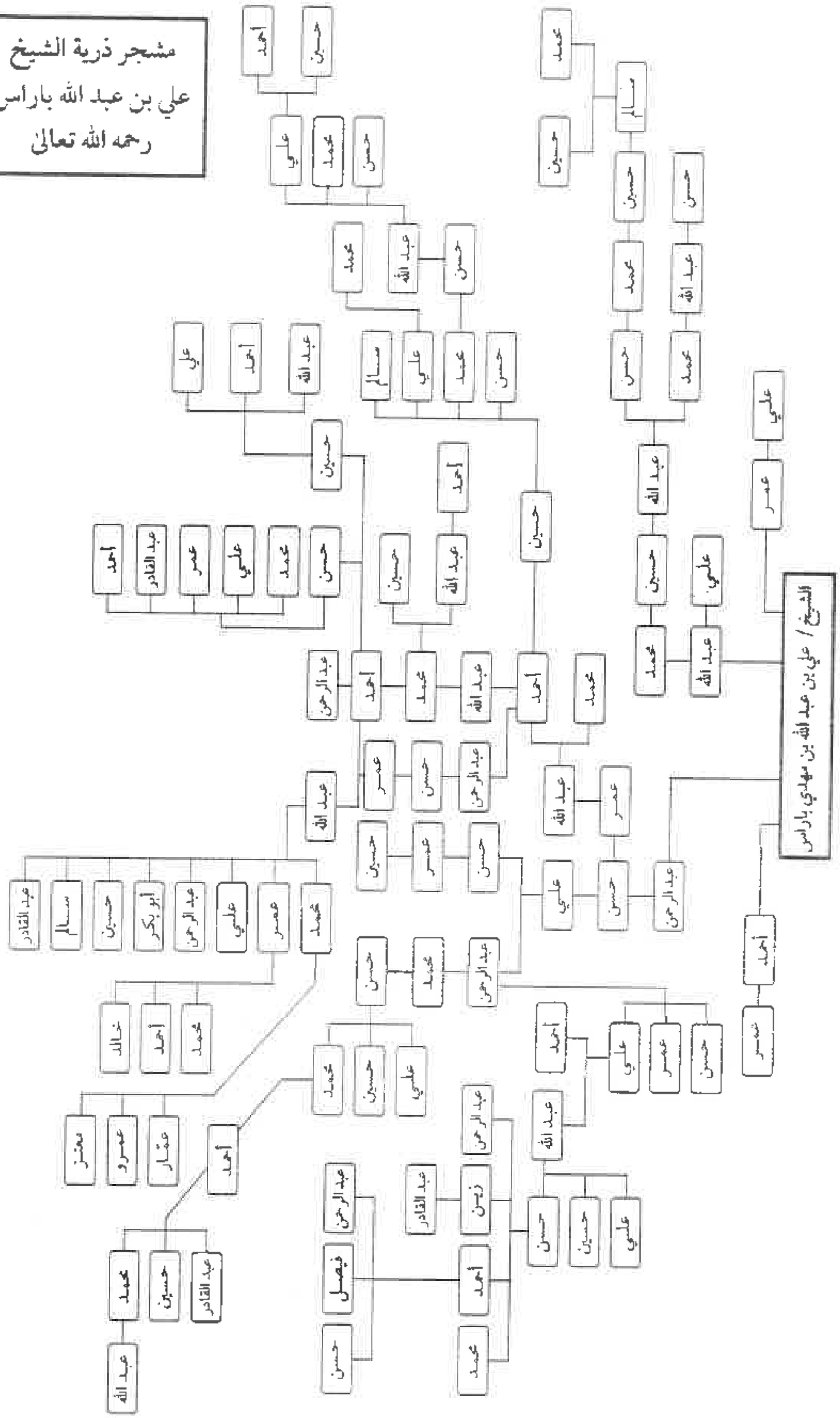

# وصف النسخ الخطية

تم اعتماد أربع نسخ خطية لهـٰذا الكتاب المبارك ؛ وهـٰذا وصفها :

**النسخة الأولىٰ** : نسخة مكتبة الأحقاف بتريم ، حضرموت اليمن ، ذات الرقم ( ١٧١٧ ) ، وهي نسخة تامة ، كتبت بخطٍّ نسخي معتاد ، وقع في الورقة الأولىٰ منها تسمية الكتاب بـ « **شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم** » مع خروم في ورقة العنوان .

وهي نسخة واضحة المعالم ، **خُتمت بقوله** : ( تمَّ الكتاب بعون الله الكريم الجواد ، والحمد لله رب العالمين ) ، **وأُلحقَ بها مجموعة من الأحاديث المرفوعة** من مجموع الحبيب أبو بكر بن محمد بافقيه قيدون باعلوي ( ت ١٠٥٣ هـ ) ، **كتبت بخط مغاير للكتاب** ، وأُلحق بها أيضاً رسالة بعنوان : « هداية الأصحاب من المتولِّين والنوَّاب إلى السير علىٰ شاكلة الصواب » للعلامة عبد الله بن سعد بن سُمَير ( ت ١٢٦٢ هـ ) ، **كتبت بخط مغاير لكل من الكتاب والمجموعة الملحقة** ، وعدد أوراق هـٰذه النسخة ( ٣٥٤ ) ورقة ، وليس فيها ذكر لسنة النسخ ، وظاهرٌ عَوْدها إلىٰ قريب من زمن مصنفها ، رحمه الله تعالىٰ .

**ورمز لهـٰذه النسخة بـ ( أ ) .**

❁ ❁ ❁

**النسخة الثانية** : نسخة مكتبة الأحقاف بتريم أيضاً ، **ذات الرقم** ( ١٧١٦ ) ، **وهي نسخة تامة كسابقتها** ، تتألف من ( ٣٥٥ ) ورقة ، كتبت بخطٍّ نسخي معتاد ، أوضح من أُختها ، تشاركها في المواطن التي وقع فيها الإشكال .

جاء في الورقة الأولىٰ منها : ( كتاب « شرح الحكم » لسيدنا الشيخ العلامة ، بركة السلف وعمدة الخلف ، شيخ الطريقة وبحر الحقيقة : الشيخ علي بن عبد الله باراس ، نفعنا الله به وسائر علومه ، آمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

من وقف السيد الحسين بن عبد الرحمٰن بن سهل علىٰ تريم ونواحيها إلىٰ مسيلة آل شيخ سنة « ١٢٧٥ هـ » ) .

وجاء في ختامها : ( تمَّ الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً .

وكان الفراغ من زبر هٰذا الكتاب صبح يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع ثاني ، أحد شهور عام « ١٢٦٦ » سنة ست وستين ومئتين وألف من الهجرة النبوية ، علىٰ مشرِّفها أفضل الصلاة والسلام ، بقلم الفقير الحقير عبد الرحيم بن عبد الله بن عمر باعبده ، سامحه الله تعالىٰ ) .

ورُمز لها بـ ( ب ) .

* * *

النسخة الثالثة : وهي نسخة مصورة في مركز النور بتريم ، تتضمن الجزء الأول من الكتاب .

وتتألف هٰذه النسخة مِن ( ١٣١ ) ورقة ، وخطها نسخي معتاد ، جعل الناسخ متن الحكم العطائية باللَّون الأحمر ، وختم الجزء بقوله : ( تم الجزء الأول من « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » بحمد الله ومنِّه وكرمه ، وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين ، علىٰ يد أفقر عباد الله وأحوجهم فيما لديه : عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمٰن باجابر ، عفا الله عنهم ، وفرغ من زبره ضحى السبت آخر شهور جماد

أول أحد شهور سنة ثلاث وسبعين ، تقبل الله ذٰلك بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين .

يتلوه **الجزء الثاني** : « الصلاة محل المناجاة » والله أعلم وأحكم بغيبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين ) .

وعلىٰ هٰذه النسخة تملكات باسم الفقير إلى الله **عبد الله بن عمر بن يحيىٰ باعباد بامُقعين** ، ثم انتقل ملك ذٰلك إلىٰ **عبد الله بن عمر باشَويه العمودي** تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ؛ بمنِّه وكرمه ، آمين .

**ورمزنا لهٰذه النسخة بـ ( ج ) .**

❋ ❋ ❋

النسخة الرابعة : نسخة مصورة في مركز النور بتريم ، وتتضمن الجزء الثاني من الكتاب ، كتب علىٰ طرتها : ( الجزء الثاني من كتاب « **شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم** » ، تأليف الشيخ الإمام الكامل العالم العلامة ، وحيد عصره وفريد دهره : **أبي الحسن الشيخ علي بن عبد الله بن أحمد باراس** ، نفع الله به وبعلومه آمين ، آمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً ) .

تتألف هٰذه النسخة من ( ١٨٩ ) ورقة ، **وخطها** نسخي معتاد ، وكتب متن الحكم العطائية والمناجاة باللون الأحمر ، وسقط من آخر النسخة بمقدار ورقة ، **فلم يتبين لنا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ** ، وعليها تملك : ( انتقل هٰذا الكتاب إلىٰ ملك الفقير إلى الله **عبد الله بن حمد باكدم** بمكة المشرفة ) .

**ورمز لها بـ ( د ) .**

❋ ❋ ❋

من قرابة عشر سنوات كان الشرح الذي بين أيدينا قد قُوبل بعد نسخه علىٰ نسختين تامَّتين من مخطوطات مكتبة الأحقاف ، وقد ثارت في طيَّاته الكثير من الإشكالات النسخية ؛ التي أومأت لبعض السقوطات أو التصحيفات التي تخلُّ ببهاء الكتاب .

وقد أشارت كتب الفهرسة لوجود مخطوطةٍ لهـٰذا الشرح في مكتبة قاريونس بليبيا[1] ، ليس لنا من وصفها إلا أنها موجودة وتامة ، ولـٰكن هل هي كأُختيها ؟ هـٰذا ما حملنا علىٰ إيقاف العمل طيلة هـٰذه المدة ؛ ليتسنَّى الوقوف عليها ، علَّها ترفع إصر تلك الإشكالات المتكاثرة .

وهـٰذا ما لم يكن والحمد لله علىٰ كل حال ، فكان خيارُ إخراج الكتاب ؛ ليرى النور بعد طول غياب مرجَّحاً علىٰ بقائه حبيس الأدراج .

نعم ؛ قد يرى القارئ ملحوظات لا يخفىٰ حلُّ ما فيها علىٰ ذي لبّ ، وهي متناثرة هنا وهناك ، ولـٰكنها لن تخلَّ بفحوى النص ، ولن ترمي به بعيداً عن الفهم ؛ كاستطراد المصنف في شرط تتطاول عبارته فيُنسىٰ جوابه ، أو مبتدأ غاب خبره ، وهـٰذا علىٰ وجوده إلا أنه لم يفشُ في الكتاب ، أو يرىٰ بعض القياسات الصرفية غير المألوفة وغير المنضبطة ؛ كقوله : ( استعزَّيت ، واستهونت ) مثلاً ، أو استعمال بعض الأدوات العاملة في غير مألوف من الكلام ؛ كاستكثاره من استعمال ( لا ) بمعنىٰ ( ليس ) نثراً ؛ كقوله : ( فلا للعبد فيما يرد من الله تعمُّل

---

(١) مكتبة قاريونس ذات الرقم ( ٩٣٠ ) .

ـ ومن لا له شـيخ ـ لا للعلم فيه مدخل ) ، أو استعمالها مكان ( ما ) ؛ كقوله : ( لا عبدتك لجنتك وإنما . . . ) ، أو بعض الاشتقاقات الغريبة ؛ كقوله : ( فيكون محجوباً بفعله مبعـوداً ) والقياس : ( مبعداً ) ، وإنما السجعة دعت لذلك .

ولو أن الشـيخ ممن يكثـر النقول والإحالات .. لكان هناك سـبيل للنظر والاستدراك ؛ ولكن قد ظهر لك أن المؤلف قد أسّس شرحه هذا بما تحمله له فيوضات الحق تعالىٰ .

ومع هٰذا بُذل من الجهد فيه وطول النظر ما يبعث على الطمأنينة لنشره ؛ لينتفع به أهلوه ، وتحيا أنفاس مؤلفه بين صفوف الناس .

ولما انتهينا من خدمة الكتاب وأُخرج وكاد أن يُرسـل إلى الطبع . . أكرمنا الله سـبحانه بنسـختين : الأولىٰ للجـزء الأول ، والثانية للجزء الثاني من الكتاب ، وقد تفضل السيد زيد بن يحيىٰ بإرسالهما جزاه الله عنا خير الجزاء ، فقابلنا عليهما ، واستفدنا منهما ، ولله الحمد والمنة .

وقد سار العمل فيه على النحو الآتي :

ـ تمَّ نسـخ الكتاب ، ومقابلته على النسـختين ( أ ، ب ) ، وإثبات الفروق المهمة .

ـ ثم أعدنا المقابلة على النسختين ( ج ، د ) كما سبقت الإشارة لذلك ، وأثبتنا منهما أيضاً الفروق المهمة ، وكان لهاتين النسختين الأثر الكبير في حل كثير من التصحيفات والسقوطات .

ـ وضع الحكم العطائية أول الصفحة ، مع اعتماد رواية العلامة باراس للحكم العطائية ، وربما تختلف مع ما هو مشهور من روايتها المنتشرة .

ـ تخريج الآثار والأخبار والأقوال والقصص ، وإحالتها إلى الأمات .

ـ التعليق على بعض المواطن النادرة التي تحتاج لذلك ، مع إيضاح بعض المبهمات .

ـ تسطير ترجمة لطيفة لصاحب الحكم العطائية الإمام ابن عطاء الله السكندري ، ولصاحب الشرح العلامة باراس رحمهما الله تعالى ، ووضع دراسة موجزة عن العناية بالحكم العطائية وعن شروحها ونظمها ، ومكانة هذا الشرح بين تلك الشروح وأهميته .

ـ اعتنينا بخدمة هذا الكتاب فنياً ؛ فميزنا متن الحكم العطائية ضمن إطارٍ مزخرف ، مع إثبات رقم الحكمة أعلى الصفحة .

والله تعالى نسأل ، وبمفتاح حضرته نتوسل : أن يرزقنا الفهم عنه ، والكسوة من نوره ، ومحبة أوليائه وأصفيائه ، وأن ينفعنا بما ورَّثوه ، ويحققنا بما آثروه ؛ إنه سبحانه القريب المجيب .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

لجنة إحياء التراث

بدار الحاوي

# صور من المخطوطات المعتمدة

ورقة العنوان للنّسخة ( أ )

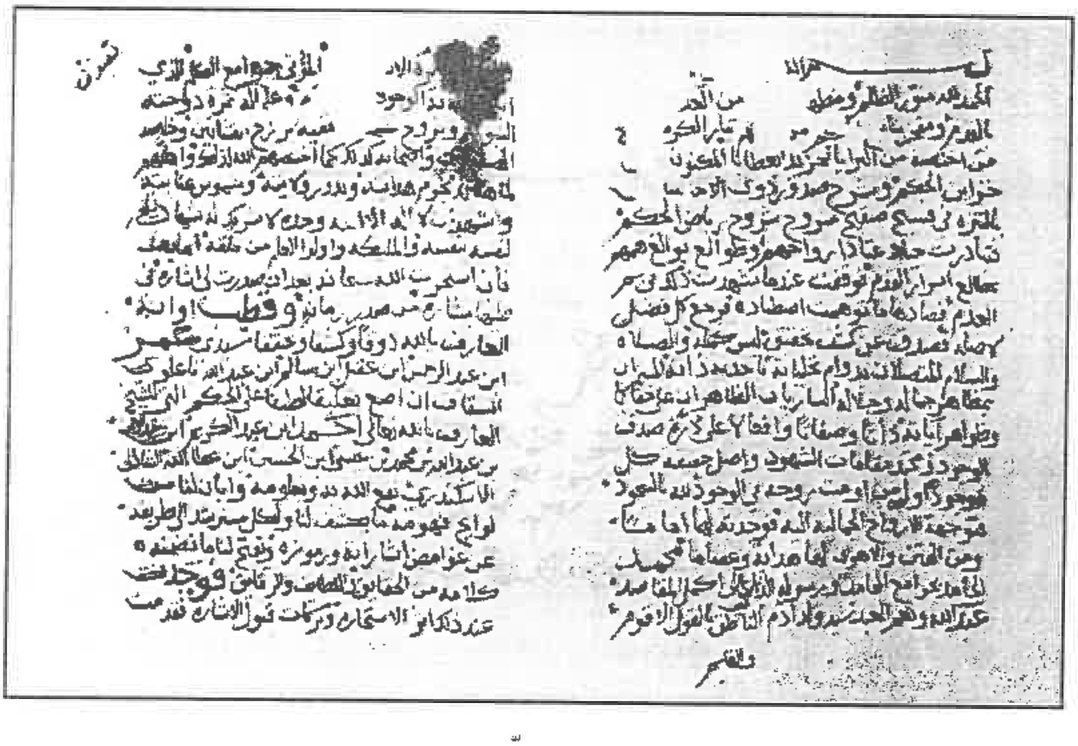

الورقة الأولى للنّسخة ( أ )

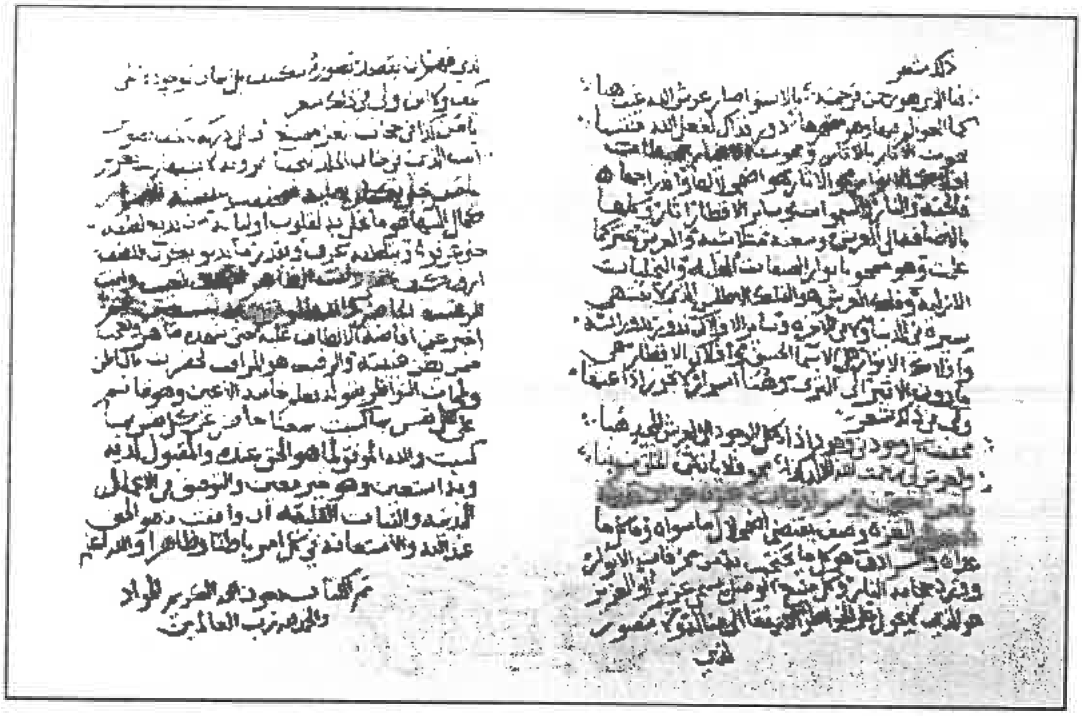

تم الكتاب بحمد الله العزيز الوهاب
والحمد لله رب العالمين

الورقة الأخيرة للنّسخة ( أ )

كتاب شرح الحكم
لسيدنا الشيخ العلامة بركة
السلف وعمدة الخلف
شيخ الطريقة وبحر التحقيق
الشيخ علي بن عبد الله
باراس نفعنا الله
به وسائر
علوم
آمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

ورقة العنوان للنّسخة ( ب )

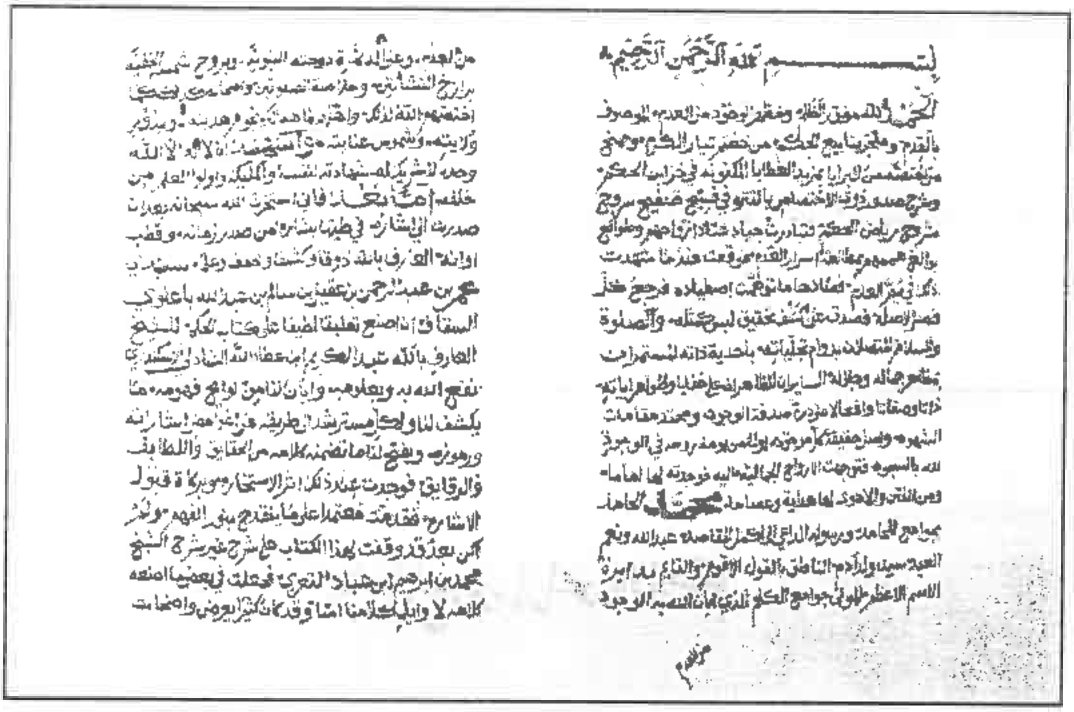

الورقة الأولى للنسخة (ب)

الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

ورقة العنوان للنّسخة (ج)

الورقة الأولى للنّسخة (ج)

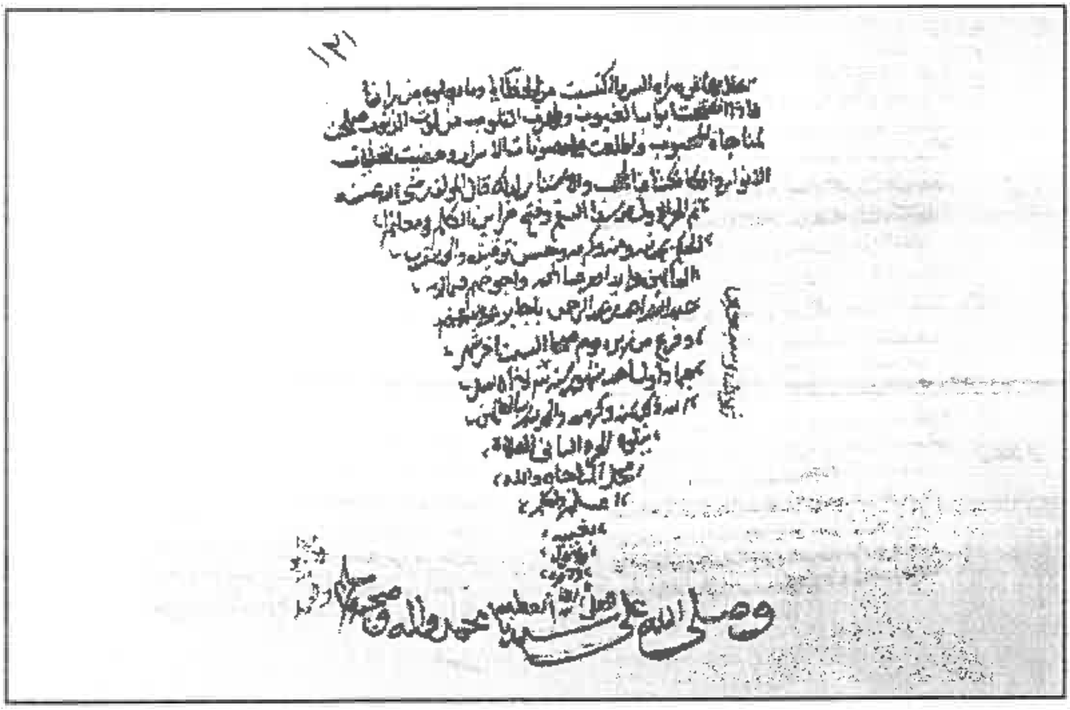

الورقة الأخيرة للنّسخة (ج)

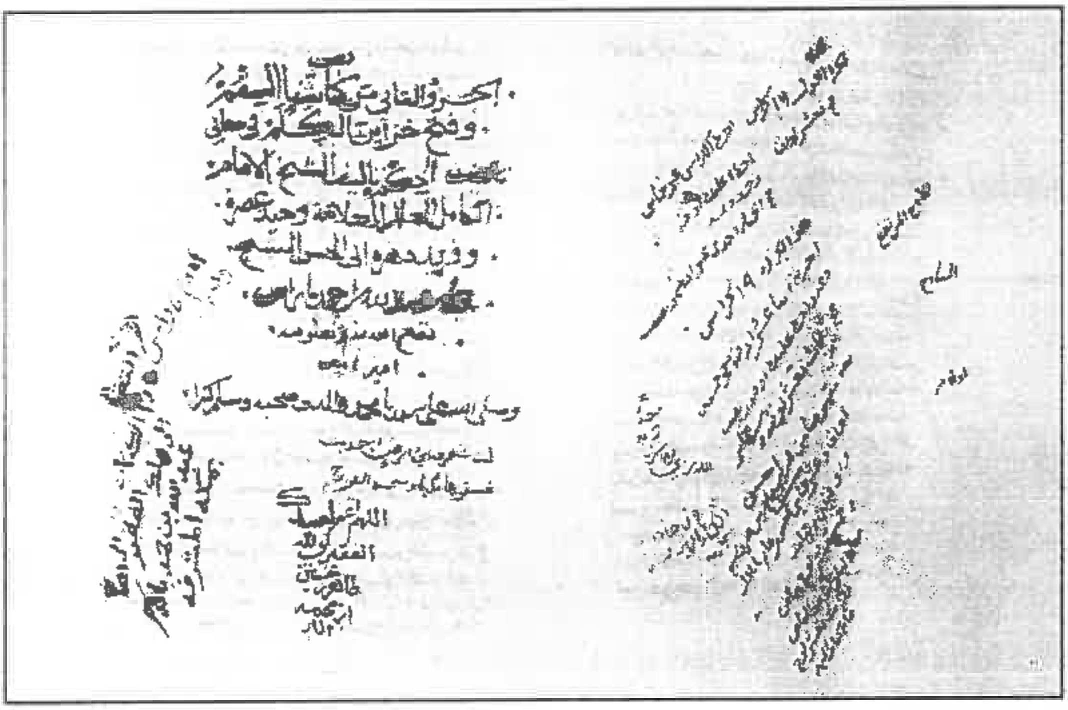

ورقة العنوان للنّسخة (د)

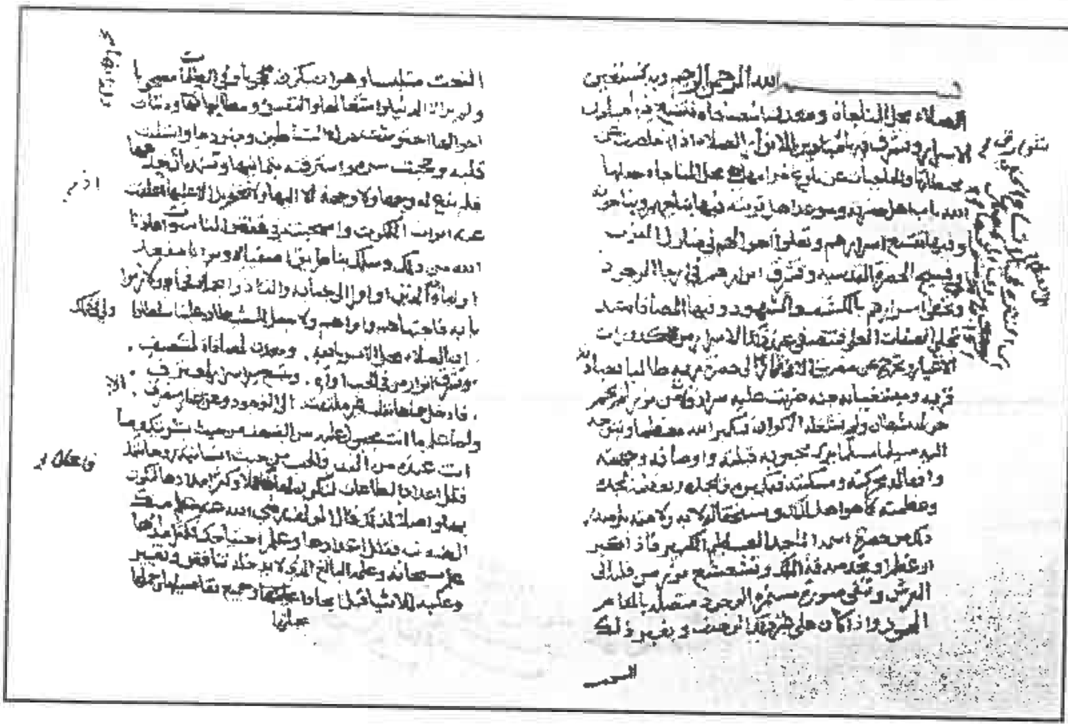
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الورقة الأولى للنسخة ( د )

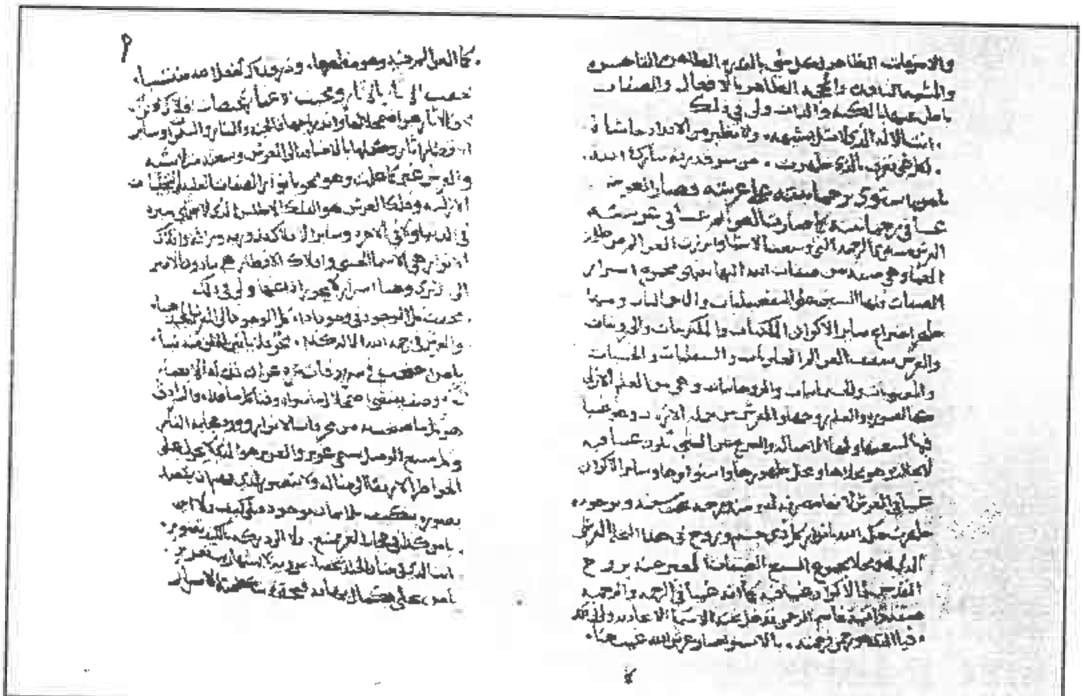

الورقة الأخيرة للنسخة ( د )

# الحِكَمُ العَطَائِيَّة

وَالمُكَاتَبَاتُ وَالمُنَاجَاةُ الإِلٰهِيَّة

لِلإِمَامِ ابنِ عَطَاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِيّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

# الحكم العطائية[1]

١ ـ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلِٱعْتِمَادِ عَلَى ٱلْعَمَلِ : نُقْصَانُ ٱلرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ ٱلزَّلَلِ .

٢ ـ إِرَادَتُكَ ٱلتَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلْأَسْبَابِ . . مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَإِرَادَتُكَ ٱلْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلتَّجْرِيدِ . . ٱنْحِطَاطٌ عَنِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلِيَّةِ .

٣ ـ سَوَابِقُ ٱلْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ ٱلْأَقْدَارِ .

٤ ـ أَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ هَمِّ ٱلتَّدْبِيرِ ؛ فَمَا قَامَ بِهِ عَنْكَ غَيْرُكَ . . لَا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لِنَفْسِكَ .

٥ ـ اِجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ . . دَلِيلٌ عَلَى ٱنْطِمَاسِ ٱلْبَصِيرَةِ مِنْكَ .

٦ ـ لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ إِمْدَادِ ٱلْعَطَاءِ مَعَ ٱلْإِلْحَاحِ فِي ٱلدُّعَاءِ . . مُوجِباً لِيَأْسِكَ ؛ فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ ٱلْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ، لَا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي تُرِيدُ .

٧ ـ لَا يُشَكِّكَنَّكَ فِي ٱلْوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ ٱلْمَوْعُودِ بِهِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَٰلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْمَاداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ .

---

(١) ملحوظة : سيرى القارئ رواية لـ « الحكم العطائية » مخالفة أحياناً للمألوف المعروف ؛ لأننا اعتمدنا رواية المؤلف لها رحمه الله تعالى .

٨ ـ إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ ٱلتَّعَرُّفِ . . فَلَا تُبَالِ مَعَهَا وَإِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ . . إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَٱلْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ؟! وَأَيْنَ مَا أَنْتَ مُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟!

٩ ـ تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ ٱلْأَعْمَالِ ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ ٱلْأَحْوَالِ .

١٠ ـ ٱلْأَعْمَالُ : صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا : وُجُودُ ٱلْإِخْلَاصِ فِيهَا .

١١ ـ اِدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ ٱلْخُمُولِ ؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ . . لَمْ يَتِمَّ نِتَاجُهُ .

١٢ ـ مَا نَفَعَ ٱلْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ ، يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ .

١٣ ـ كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ وَصُوَرُ ٱلْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى ٱللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَاتِ غَفَلَاتِهِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ ٱلْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟!

١٤ ـ ٱلْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ ٱلْحَقِّ فِيهِ ؛ فَمَنْ رَأَى ٱلْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ . . فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ ٱلْأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ ٱلْمَعَارِفِ بِسُحُبِ ٱلْآثَارِ .

١٥ ـ مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ مَوْجُوداً مَعَهُ .

١٦ ـ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ

يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْلَاهُ . . لَمَا كَانَ وُجُودُ شَيْءٍ ؟!

يَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ ٱلْوُجُودُ فِي ٱلْعَدَمِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ ٱلْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ ٱلْقِدَمِ ؟!

١٧ ـ مَا تَرَكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ شَيْئاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي ٱلْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَحْدَثَهُ ٱللهُ فِيهِ .

١٨ ـ إِحَالَتُكَ ٱلْأَعْمَالَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْفَرَاغِ . . مِنْ رُعُونَةِ ٱلنَّفْسِ .

١٩ ـ لَا تَطْلُبْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ؛ فَلَوْ أَرَادَ . . ٱسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ .

٢٠ ـ مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا . . إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ ٱلْحَقِيقَةِ : ٱلَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلَا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ ٱلْمُكَوَّنَاتِ . . إِلَّا نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

٢١ ـ طَلَبُكَ مِنْهُ ٱتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ .

٢٢ ـ مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ ، إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمْضِيهِ .

٢٣ ـ لَا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ ٱلْأَغْيَارِ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ ٱلْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ .

٢٤ ـ لَا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ ٱلْأَكْدَارِ ، مَا دُمْتَ مُقِيماً فِي هَٰذِهِ ٱلدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ لَكَ . . إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقُّ وَصْفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا .

٢٥ ـ مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ .

٢٦ ـ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلنُّجْحِ فِي ٱلنِّهَايَاتِ . . ٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱللهِ فِي ٱلْبِدَايَاتِ .

٢٧ ـ مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ . . أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ .

٢٨ ـ مَا ٱسْتُودِعَ فِي غَيْبِ ٱلسَّرَائِرِ . . ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ ٱلظَّوَاهِرِ .

٢٩ ـ شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ؛ فَٱلْمُسْتَدِلُّ بِهِ : عَرَفَ ٱلْحَقَّ لِأَهْلِهِ ، وَأَثْبَتَ ٱلْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وَٱلِٱسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ : مِنْ عَدَمِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا . . مَتَىٰ غَابَ حَتَّىٰ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلْآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟!

٣٠ ـ ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ : ٱلْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ : ٱلسَّائِرُونَ إِلَيْهِ .

٣١ ـ اِهْتَدَى ٱلرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ ٱلتَّوَجُّهِ ، وَٱلْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ ٱلْمُوَاجَهَةِ ؛ فَٱلْأَوَّلُونَ لِلْأَنْوَارِ ، وَهَٰؤُلَاءِ ٱلْأَنْوَارُ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

٣٢ ـ تَشَوُّفُكَ إِلَىٰ مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ ٱلْعُيُوبِ . . خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَىٰ مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ ٱلْغُيُوبِ .

٣٣ ـ اَلْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا ٱلْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ . . لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ . . لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ . . فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ .

٣٤ ـ أُخْرُجْ عَنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ ٱلْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً .

٣٥ ـ أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ . . ٱلرِّضَا عَنِ ٱلنَّفْسِ ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَعِفَّةٍ وَيَقَظَةٍ . . عَدَمُ ٱلرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا ، وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟!

٣٦ ـ شُعَاعُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ ، وَحَقُّ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ ؛ لَا عَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ .

٣٧ ـ كَانَ ٱللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ ٱلْآنَ عَلَىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ .

٣٨ ـ لَا تَتَعَدَّيَنَّ هِمَّتُكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَٱلْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ ٱلْآمَالُ .

٣٩ ـ لَا تَرْفَعَنَّ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟! مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ عَنْ نَفْسِهِ . . فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟!

٤٠ ـ إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ . . حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَناً ؟! وَهَلْ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ إِلَّا مِنَناً ؟!

٤١ ـ اَلْعَجَبُ كُلُّ ٱلْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا ٱنْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ،

وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ .

٤٢ ـ لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَىٰ كَوْنٍ ؛ فَتَكُونَ كَحِمَارِ ٱلرَّحَىٰ يَسِيرُ ، وَٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ ٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَـٰكِنِ ٱرْتَحِلْ مِنَ ٱلْأَكْوَانِ إِلَى ٱلْمُكَوِّنِ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ ، فَٱنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ . . **فَهِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ** ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا . . **فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ** » ، وَتَأَمَّلْ هَـٰذَا ٱلْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، وَٱلسَّلَامُ .

٤٣ ـ لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهِضُكَ حَالُهُ ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱللهِ مَقَالُهُ .

٤٤ ـ رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئاً فَأَرَاكَ ٱلْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ .

٤٥ ـ مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ .

٤٦ ـ حُسْنُ ٱلْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ ٱلْأَحْوَالِ ، وَحُسْنُ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلتَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ ٱلْإِنْزَالِ .

٤٧ ـ لَا تَتْرُكِ ٱلذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ ٱللهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَىٰ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى ٱلْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ .

٤٨ ـ مِـنْ عَلَامَاتِ مَـوْتِ ٱلْقَلْبِ : عَـدَمُ ٱلْحُزْنِ عَلَىٰ مَـا فَاتَكَ مِنَ ٱلْمُوَافَقَاتِ ، وَتَرْكُ ٱلنَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَهُ مِنَ ٱلْمُخَالَفَاتِ .

٤٩ ـ لَا يَعْظُمُ ٱلذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . ٱسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ .

٥٠ ـ لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ .

٥١ ـ لَا عَمَلَ أَرْجَىٰ لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَيُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ .

٥٢ ـ إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِتَكُونَ عَلَيْهِ بِهِ وَارِداً .

٥٣ ـ أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيَسْتَلِمَكَ مِنْ يَدِ ٱلْأَغْيَارِ ، وَيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ ٱلْآثَارِ .

٥٤ ـ أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ ، إِلَىٰ فَضَاءِ شُهُودِكَ .

٥٥ ـ ٱلْأَنْوَارُ : مَطَايَا ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْرَارِ .

٥٦ ـ ٱلنُّـورُ جُنْـدُ ٱلْقَلْـبِ ، كَمَـا أَنَّ ٱلظُّلْمَةَ جُنْـدُ ٱلنَّفْسِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَنْصُـرَ عَبْدَهُ . . أَمَدَّهُ بِجُنُودِ ٱلْأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ ٱلظُّلَمِ وَٱلْأَغْيَارِ .

٥٧ ـ ٱلنُّورُ لَهُ ٱلْكَشْفُ ، وَٱلْبَصِيرَةُ لَهَا ٱلْحُكْمُ ، وَٱلْقَلْبُ لَهُ ٱلْإِقْبَالُ وَٱلْإِدْبَارُ .

٥٨ ـ لَا تُفْرِحْكَ ٱلطَّاعَةُ ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ، وَٱفْرَحْ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ

مِنَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَيْكَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

٥٩ ـ قَطَعَ ٱلسَّائِرِينَ إِلَيْهِ وَٱلْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛ أَمَّا ٱلسَّائِرُون . . فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا ٱلصِّدْقَ مَعَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهَا ، وَأَمَّا ٱلْوَاصِلُونَ . . فَلِأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا .

٦٠ ـ مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ . . إِلَّا عَنْ بِذْرِ طَمَعٍ .

٦١ ـ مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْوَهْمِ .

٦٢ ـ أَنْتَ حُرٌّ عَمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ .

٦٣ ـ مَنْ لَمْ يُقْبِلْ إِلَى ٱللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ ٱلْإِحْسَانِ . . قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ ٱلِٱمْتِحَانِ .

٦٤ ـ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنِّعَمَ . . فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا . . فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا .

٦٥ ـ خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجاً : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

٦٦ ـ مِنْ جَهْلِ ٱلْمُرِيدِ : أَنْ يُسِيءَ ٱلْأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ ٱلْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَٰذَا سُوءَ أَدَبٍ . . لَقَطَعَ ٱلْإِمْدَادَ ، وَأَوْجَبَ ٱلْبِعَادَ ؛ فَقَدْ يُقْطَعُ ٱلْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعُ ٱلْمَزِيدِ ، وَقَدْ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ .

٦٧ ـ إِذَا رَأَيْتَ عَبْداً أَقَامَهُ ٱللَّهُ بِوُجُودِ ٱلْأَوْرَادِ ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ

طُولِ ٱلْإِمْدَادِ . . فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا ٱلْعَارِفِينَ ، وَلَا بَهْجَةَ ٱلْمُحِبِّينَ ؛ فَلَوْلَا وَارِدٌ . . مَا كَانَ وِرْدٌ .

٦٨ ـ قَوْمٌ أَقَامَهُمُ ٱلْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وَقَوْمٌ ٱخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

٦٩ ـ قَلَّمَا تَكُونُ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ؛ صِيَانَةً لَهَا أَنْ يَدَّعِيَهَا ٱلْعِبَادُ بِوُجُودِ ٱلِاسْتِعْدَادِ .

٧٠ ـ مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ، وَذَاكِراً كُلَّ مَا عَلِمَ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ جَهْلِهِ .

٧١ ـ إِنَّمَا جَعَلَ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ مَحَلّاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ ٱلدَّارَ لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا .

٧٢ ـ مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً . . فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْقَبُولِ آجِلاً .

٧٣ ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ . . فَٱنْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ .

٧٤ ـ مَتَىٰ رَزَقَكَ ٱلطَّاعَةَ وَٱلْغِنَىٰ بِهِ عَنْهَا . . فَٱعْلَمْ : أَنَّهُ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً .

٧٥ ـ خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ . . مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ .

٧٦ ـ اَلْحُزْنُ عَلَىٰ فُقْدَانِ ٱلطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ ٱلنُّهُوضِ إِلَيْهَا . . مِنْ عَلَامَةِ ٱلِاغْتِرَارِ .

٧٧ ـ لَيْسَ ٱلْعَارِفُ : مَنْ إِذَا أَشَارَ . . وَجَدَ ٱلْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ، بَلِ ٱلْعَارِفُ : مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَٱنْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ .

٧٨ ـ اَلرَّجَاءُ : مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلَّا . . فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ .

٧٩ ـ مَطْلَبُ ٱلْعَارِفِينَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى : ٱلصِّدْقُ فِي ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَٱلْقِيَامُ بِحَقِّ ٱلرُّبُوبِيَّةِ .

٨٠ ـ بَسَطَكَ ؛ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ ٱلْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ ؛ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ ٱلْبَسْطِ ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا ؛ كَيْ لَا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ .

٨١ ـ اَلْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا . . أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ، وَلَا يَقِفُ عَلَىٰ حُدُودِ ٱلْأَدَبِ فِي ٱلْبَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ .

٨٢ ـ اَلْبَسْطُ تَأْخُذُ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ ٱلْفَرَحِ ، وَٱلْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ .

٨٣ ـ رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ .

٨٤ ـ مَتَىٰ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْفَهْمِ فِي ٱلْمَنْعِ . . عَادَ ٱلْمَنْعُ هُوَ عَيْنَ ٱلْعَطَاءِ .

٨٥ ـ اَلْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَٱلنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَىٰ ظَاهِرِ غِرَّتِهَا ، وَٱلْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَاطِنِ عِبْرَتِهَا .

٨٦ ـ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَىٰ . . فَلَا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَىٰ .

٨٧ ـ اَلطَّيُّ ٱلْحَقِيقِيُّ : أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ ٱلدُّنْيَا عَنْكَ ، حَتَّىٰ تَرَى ٱلْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ .

٨٨ ـ اَلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْخَلْقِ حِرْمَانٌ ، وَٱلْمَنْعُ مِنَ ٱللهِ إِحْسَانٌ .

٨٩ ـ جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ ٱلْعَبْدُ نَقْداً ، فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً .

٩٠ ـ كَفَىٰ مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى ٱلطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً .

٩١ ـ كَفَى ٱلْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ .

٩٢ ـ مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ ٱلْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ .

٩٣ ـ مَتَىٰ أَعْطَاكَ . . أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، وَمَتَىٰ مَنَعَكَ . . أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ .

٩٤ ـ إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ ٱلْمَنْعُ ؛ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ ٱللهِ فِيهِ .

٩٥ ـ رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْقَبُولِ ، وَقَضَىٰ عَلَيْكَ بِٱلذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ ٱلْوُصُولِ .

٩٦ ـ مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلّاً وَٱفْتِقَاراً . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَٱسْتِكْبَاراً .

٩٧ ـ نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا : نِعْمَةُ ٱلْإِيجَادِ ، وَنِعْمَةُ ٱلْإِمْدَادِ .

٩٨ ـ أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلاً بِٱلْإِيجَادِ ، وَثَانِياً بِتَوَالِي ٱلْإِمْدَادِ .

٩٩ ـ فَاقَتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةٌ ، وَوُرُودُ ٱلْأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ؛ وَٱلْفَاقَةُ ٱلذَّاتِيَّةُ لَا تَدْفَعُهَا ٱلْعَوَارِضُ .

١٠٠ ـ خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَىٰ وُجُودِ ذِلَّتِكَ .

١٠١ ـ مَتَىٰ أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ . . فَٱعْلَمْ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْأُنْسِ بِهِ .

١٠٢ ـ مَتَىٰ أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِٱلطَّلَبِ . . فَٱعْلَمْ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ .

١٠٣ ـ اَلْعَارِفُ : لَا يَزُولُ ٱضْطِرَارُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ قَرَارُهُ .

١٠٤ ـ أَنَارَ ٱلظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأَنَارَ ٱلسَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ، أَفَلَتِ ٱلْأَنْوَارُ ٱلظَّاهِرَةُ ، وَلَمْ تَأْفُلِ ٱلْأَنْوَارُ ٱلسِّرِّيَّةُ .

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبَّ بِلَيْلٍ     فَٱسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ غُرُوبِ
إِنَّ شَمْسَ ٱلنَّهَارِ تَغْرُبُ بِٱللَّيْـ     ـلِ وَشَمْسُ ٱلْقُلُوبِ لَيْسَ تَغِيبُ

١٠٥ ـ لِيُخَفِّفْ أَلَمَ ٱلْبَلَاءِ عَنْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْمُبْتَلِي لَكَ ؛ فَٱلَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ ٱلْأَقْدَارُ . . هُوَ ٱلَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ ٱلِٱخْتِيَارِ .

١٠٦ ـ مَنْ ظَنَّ ٱنْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ . . فَذَٰلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ .

١٠٧ ـ لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ ٱلطُّرُقُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلْهَوَىٰ عَلَيْكَ .

١٠٨ ـ سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ ٱلْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ .

١٠٩ ـ لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ ، وَلَٰكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ .

١١٠ ـ مَتَىٰ جَعَلَكَ فِي ٱلظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي ٱلْبَاطِنِ ٱلِاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ . . فَقَدْ أَعْظَمَ ٱلْمِنَّةَ عَلَيْكَ .

١١١ ـ لَيْسَ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ .

١١٢ ـ لَا يَسْتَحْقِرُ ٱلْوِرْدَ إِلَّا جَهُولٌ ؛ ٱلْوَارِدُ : يُوجَدُ فِي ٱلدَّارِ ٱلْآخِرَةِ ، وَٱلْـوِرْدُ : يَنْطَوِي بِٱنْطِوَاءِ هَـٰذِهِ ٱلـدَّارِ ، وَأَوْلَىٰ مَا يُعْتَنَىٰ بِهِ : مَا لَا يُخْلَفُ عَنْكَ وُجُودُهُ ، ٱلْوِرْدُ : هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَٱلْوَارِدُ : أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ ؟!

١١٣ ـ وُرُودُ ٱلْأَمْدَادِ عَلَىٰ حَسَبِ ٱلِاسْتِعْدَادِ ، شُرُوقُ ٱلْأَنْوَارِ عَلَىٰ حَسَبِ صَفَاءِ ٱلْأَسْرَارِ .

١١٤ ـ اَلْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ . . نَظَرَ فِي مَاذَا يَفْعَلُ ، وَٱلْعَاقِلُ إِذَا أَصْبَحَ . . نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ ٱللهُ بِهِ .

١١٥ ـ إِنَّمَا ٱسْتَوْحَشَ ٱلْعُبَّادُ وَٱلزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ ٱللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . . لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ .

١١٦ ـ أَمَرَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ بِٱلنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ ٱلدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ .

١١٧ ـ عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ .

١١٨ ـ لَمَّا عَلِمَ ٱلْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ ٱلْمَلَلِ . . لَوَّنَ لَكَ ٱلطَّاعَاتِ ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ ٱلشَّرَهِ فَحَجَرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ ٱلْأَوْقَاتِ ؛ لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ ٱلصَّلَاةِ لَا وُجُودَ ٱلصَّلَاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ .

١١٩ ـ اَلصَّلَاةُ : طُهْرَةُ ٱلْقُلُوبِ ، وَٱسْتِفْتَاحٌ لِبَابِ ٱلْغُيُوبِ ، ٱلصَّلَاةُ :

مَحَلُّ ٱلْمُنَاجَاةِ ، وَمَعْدِنُ ٱلْمُصَافَاةِ ، تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ ٱلْأَسْرَارِ ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ ٱلْأَنْوَارِ ، عَلِمَ مِنْكَ ٱلضَّعْفَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ ٱحْتِيَاجَكَ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا .

١٢٠ ـ مَتَىٰ طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ .. طُولِبْتَ بِوُجُودِ ٱلصِّدْقِ فِيهِ ، وَيَكْفِي ٱلْمُرِيدَ وِجْدَانُ ٱلسَّلَامَةِ .

١٢١ ـ لَا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ؛ فَكَفَىٰ مِنَ ٱلْجَزَاءِ لَكَ عَلَى ٱلْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً .

١٢٢ ـ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ .. خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ .

١٢٣ ـ لَا نِهَايَةَ لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ .

١٢٤ ـ كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً ، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً .

١٢٥ ـ مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ؟!

١٢٦ ـ كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ ٱلْعَوَائِدُ ، وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْعَوَائِدَ ؟!

١٢٧ ـ مَا ٱلشَّأْنُ وُجُودَ ٱلطَّلَبِ ، وَإِنَّمَا ٱلشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ ٱلْأَدَبِ .

١٢٨ ـ مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلِاضْطِرَارِ ، وَلَا أَسْرَعَ بِٱلْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ ٱلذِّلَّةِ وَٱلِافْتِقَارِ .

١٢٩ ـ لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَحْوِ دَعَاوِيكَ ، وَفَنَاءِ مَسَاوِيكَ .. لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَداً ، وَلَـٰكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ .. غَطَّىٰ وَصْفَكَ

بِوَصْفِهِ ، وَغَطَّىٰ نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ .

١٣٠ ـ لَوْلَا جَمِيلُ سَتْرِهِ . . لَمْ يَكُنْ عَمَلُكَ أَهْلاً لِلْقَبُولِ .

١٣١ ـ أَنْتَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ . . أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ .

١٣٢ ـ اَلسَّتْرُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ : سَتْرٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ ، وَسَتْرٌ فِيهَا ؛ فَٱلْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ فِيهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرَاتِبِهِمْ عِنْدَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ .

١٣٣ ـ مَنْ أَكْرَمَكَ . . فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ ؛ فَٱلْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ ٱلْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ .

١٣٤ ـ مَا صَحِبَكَ إِلَّا مَنْ صَحِبَكَ وَهُوَ بِعَيْبِكَ عَلِيمٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ إِلَّا مَوْلَاكَ ٱلْكَرِيمَ .

خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ : مَنْ يَطْلُبُكَ لَكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ يَعُودُ عَلَيْهِ .

١٣٥ ـ لَوْ أَشْرَقَ نُورُ ٱلْيَقِينِ . . لَرَأَيْتَ ٱلْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا ، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ ٱلدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ ٱلْفَنَاءِ عَلَيْهَا .

١٣٦ ـ مَا حَجَبَكَ عَنِ ٱللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَلَـٰكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ وَهْمُ وُجُودِ شَيْءٍ مَعَهُ .

١٣٧ ـ لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ . . مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ ؛ لَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ . . ٱضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ .

١٣٨ ـ أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَطَوَىٰ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ ٱلظَّاهِرُ .

١٣٩ ـ أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَوَٰتِ ﴾ ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَوَٰتِ ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْإِفْهَامِ ، وَلَمْ يَقُلِ : ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ ؛ لِئَلَّا يَدُلَّكَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْأَجْرَامِ .

١٤٠ ـ ٱلْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ .

١٤١ ـ ٱلنَّاسُ يَمْدَحُونَكَ ؛ بِمَا يَظُنُّونَ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ ؛ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا .

١٤٢ ـ ٱلْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ . . ٱسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ .

١٤٣ ـ أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ : مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ .

١٤٤ ـ إِذَا أَطْلَقَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ . . فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ .

١٤٥ ـ ٱلزُّهَّادُ : إِذَا مُدِحُوا . . ٱنْقَبَضُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ ٱلثَّنَاءَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْعَارِفُونَ : إِذَا مُدِحُوا . . ٱنْبَسَطُوا ؛ لِشُهُودِهِمْ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ .

١٤٦ ـ مَتَىٰ كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ ٱلْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ ٱلْمَنْعُ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ .

١٤٧ ـ إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ . . فَلَا يَكُنْ سَبَبَ يَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ ٱلِٱسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَٰلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ .

١٤٨ ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلرَّجَاءِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْخَوْفِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ .

١٤٩ ـ رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ ٱلْقَبْضِ مَا لَمْ تَشْهَدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ ٱلْبَسْطِ : ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ .

١٥٠ ـ مَطَالِعُ ٱلْأَنْوَارِ . . ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَسْرَارُ .

١٥١ ـ نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي ٱلْقُلُوبِ ، مُمِدُّهُ ٱلنُّورُ ٱلْوَارِدُ مِنْ خَزَائِنِ ٱلْغُيُوبِ .

١٥٢ ـ نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ .

١٥٣ ـ رُبَّمَا وَقَفَتِ ٱلْقُلُوبُ مَعَ ٱلْأَنْوَارِ ؛ كَمَا حُجِبَتِ ٱلنُّفُوسُ بِكَثَائِفِ ٱلْأَغْيَارِ .

١٥٤ ـ سَتَرَ أَنْوَارَ ٱلسَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ ٱلظَّوَاهِرِ ؛ إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِٱلْإِظْهَارِ ، أَوْ يُنَادَىٰ عَلَيْهَا بِلِسَانِ ٱلِٱشْتِهَارِ .

١٥٥ ـ سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱلدَّلِيلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ حَيْثُ ٱلدَّلِيلُ عَلَيْهِ !! وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ !!

١٥٦ ـ رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَىٰ أَسْرَارِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ ٱلِٱسْتِشْرَافَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ .

١٥٧ ـ مَنِ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ . . كَانَ ٱطِّلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَباً لِجَرِّ ٱلْوَبَالِ عَلَيْهِ .

١٥٨ ـ حَظُّ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي ٱلطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ؛ وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَىٰ صَعْبٌ عِلَاجُهُ .

١٥٩ ـ رُبَّمَا دَخَلَ ٱلرِّيَاءُ عَلَيْكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ ٱلْخَلْقُ إِلَيْكَ .

١٦٠ ـ إِسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ . . دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ .

١٦١ ـ غَيِّبْ نَظَرَ ٱلْخَلْقِ إِلَيْكَ ، بِنَظَرِ ٱللهِ إِلَيْكَ ، وَغِبْ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ ، بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ إِلَيْكَ .

١٦٢ ـ مَنْ عَرَفَ ٱلْحَقَّ . . شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ . . غَابَ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ . . لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً .

١٦٣ ـ إِنَّمَا حَجَبَ ٱلْحَقَّ عَنْكَ . . شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ .

١٦٤ ـ إِنَّمَا ٱحْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَخَفِيَ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ .

١٦٥ ـ لَا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَباً إِلَى ٱلْعَطَاءِ مِنْهُ ؛ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَاماً بِحَقِّ ٱلرُّبُوبِيَّةِ .

١٦٦ ـ كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ ٱللَّاحِقُ سَبَباً فِي عَطَائِهِ ٱلسَّابِقِ ؟!

١٦٧ ـ جَلَّ حُكْمُ ٱلْأَزَلِ . . أَنْ يَنْضَافَ إِلَى ٱلْعِلَلِ .

١٦٨ ـ عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ ؛ وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ ؟! لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ ، وَلَا وُجُودُ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ ٱلْإِفْضَالِ ، وَعَظِيمُ ٱلنَّوَالِ .

١٦٩ ـ عَلِمَ أَنَّ ٱلْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَىٰ سِرِّ ٱلْعِنَايَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَٰلِكَ . . لَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَى ٱلْأَزَلِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

١٧٠ ـ إِلَى ٱلْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ .

١٧١ ـ رُبَّمَا دَلَّهُمُ ٱلْأَدَبُ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلطَّلَبِ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَىٰ قِسْمَتِهِ ، وَٱشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ .

١٧٢ ـ إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْإِغْفَالُ ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ ٱلْإِهْمَالُ .

١٧٣ ـ وُرُودُ ٱلْفَاقَاتِ . . أَعْيَادُ ٱلْمُرِيدِينَ .

١٧٤ ـ رُبَّمَا وَجَدَ ٱلْمُرِيدُ فِي ٱلْفَاقَاتِ ، مَا لَا يَجِدُهُ فِي ٱلصَّوْمِ وَٱلصَّلَوَاتِ .

١٧٥ ـ ٱلْفَاقَةُ : بُسُطُ ٱلْمَوَاهِبِ .

١٧٦ ـ إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ ٱلْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ . . صَحِّحِ ٱلْفَقْرَ وَٱلْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛ ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ .

١٧٧ ـ تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ . . يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ ، تَحَقَّقْ بِذُلِّكَ . . يُمِدُّكَ بِعِزَّتِهِ ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ . . يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ . . يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

١٧٨ ـ رُبَّمَا رُزِقَ ٱلْكَرَامَةَ . . مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ ٱلْاسْتِقَامَةُ .

١٧٩ ـ مِنْ عَلَامَةِ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ لَكَ فِي ٱلشَّيْءِ . . إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ ٱلنَّتَائِجِ .

١٨٠ ـ مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ . . أَصْمَتَتْهُ ٱلْإِسَاءَةُ مَعَ رَبِّهِ ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ ٱللهِ إِلَيْهِ . . لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ .

١٨١ ـ تَسْبِقُ أَنْوَارُ ٱلْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ؛ فَحَيْثُ صَارَ ٱلتَّنْوِيرُ . . وَصَلَ ٱلتَّعْبِيرُ .

١٨٢ ـ كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ ، وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي مِنْهُ بَرَزَ .

١٨٣ ـ مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ . . فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ ٱلْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ .

١٨٤ ـ رُبَّمَا بَرَزَتِ ٱلْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ ٱلْأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِٱلْإِظْهَارِ .

١٨٥ ـ **عِبَارَتُهُمْ** : إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ **فَٱلْأَوَّلُ** : حَالُ ٱلسَّالِكِينَ ، **وَٱلثَّانِي** : حَالُ أَرْبَابِ ٱلْمَكِنَةِ وَٱلْمُتَحَقِّقِينَ .

١٨٦ ـ **ٱلْعِبَارَةُ** : قُوتُ ٱلْعَائِلَةِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ .

١٨٧ ـ رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ ٱلْمَقَامِ مَنِ ٱسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَذَٰلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَىٰ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ .

١٨٨ ـ لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِمَّا يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ ٱلصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ .

١٨٩ ـ لَا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى ٱلْأَخْذِ مِنَ ٱلْخَلْقِ . . **إِلَّا أَنْ تَرَى ٱلْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلَاكَ** ؛ فَإِذَا كُنْتَ كَذَٰلِكَ . . فَخُذْ مَا وَافَقَ ٱلْعِلْمَ .

١٩٠ ـ رُبَّمَا ٱسْتَحْيَا ٱلْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ ٱكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ ؛ **فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَىٰ خَلِيقَتِهِ ؟!**

١٩١ ـ إِذَا ٱلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ . . فَٱنْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَٱتَّبِعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقّاً .

١٩٢ ـ مِنْ عَلَامَةِ ٱتِّبَاعِ ٱلْهَوَى : ٱلْمُسَارَعَةُ إِلَىٰ نَوَافِلِ ٱلْخَيْرَاتِ ، وَٱلتَّكَاسُلُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْوَاجِبَاتِ .

١٩٣ ـ قَيَّدَ ٱلطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ ٱلْأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لَا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ ٱلتَّسْوِيفِ ، وَوَسَّعَ لَكَ ٱلْوَقْتَ ؛ كَيْ يُبْقِيَ لَكَ حِصَّةً فِي ٱلِٱخْتِيَارِ .

١٩٤ ـ عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ ٱلْعِبَادِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ ٱلْإِيجَابِ « **عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلَاسِلِ** » .

١٩٥ ـ أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ .

١٩٦ ـ مَنِ ٱسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ ٱللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ . . فَقَدِ ٱسْتَعْجَزَ ٱلْقُدْرَةَ ٱلْإِلَـٰهِيَّةَ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .

١٩٧ ـ رُبَّمَا وَرَدَتِ ٱلظُّلَمُ عَلَيْكَ ؛ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ .

١٩٨ ـ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ ٱلنِّعَمَ بِوِجْدَانِهَا . . عَرَفَهَا بِوُجُودِ فِقْدَانِهَا .

١٩٩ ـ لَا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ ٱلنِّعَمِ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ .

٢٠٠ ـ تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ ٱلْهَوَىٰ مِنَ ٱلْقَلْبِ . . هُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعُضَالُ .

٢٠١ ـ لَا يُخْرِجُ ٱلشَّهْوَةَ مِنَ ٱلْقَلْبِ . . إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ .

٢٠٢ ـ كَمَا لَا يُحِبُّ ٱلْعَمَلَ ٱلْمُشْتَرَكَ . . كَذَٰلِكَ لَا يُحِبُّ ٱلْقَلْبَ ٱلْمُشْتَرَكَ ؛ ٱلْعَمَلُ ٱلْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ ، وَٱلْقَلْبُ ٱلْمُشْتَرَكُ لَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ .

٢٠٣ ـ أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلْوُصُولِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلدُّخُولِ .

٢٠٤ ـ رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ ٱلْأَنْوَارُ ، فَوَجَدَتِ ٱلْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ ٱلْآثَارِ ، فَٱرْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ .

٢٠٥ ـ فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْأَغْيَارِ . . يَمْلَأْهُ بِٱلْمَعَارِفِ وَٱلْأَسْرَارِ .

٢٠٦ ـ لَا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ ٱلنَّوَالَ ، وَلَٰكِنِ ٱسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْإِقْبَالَ .

٢٠٧ ـ حُقُوقٌ فِي ٱلْأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ ٱلْأَوْقَاتِ لَا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلّٰهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ ٱللهِ فِيهِ ؟!

٢٠٨ ـ مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ . . فَلَا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ . . لَا قِيمَةَ لَهُ .

٢٠٩ ـ مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً ؛ وَهُوَ لَا يَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً .

٢١٠ ـ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَٰذِهِ ، وَنَهَاكَ عَنْ هَٰذِهِ ؛ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ .

٢١١ ـ لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ .

٢١٢ ـ وُصُولُكَ إِلَيْهِ وُصُولُكَ إِلَى ٱلْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَإِلَّا .. فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ .

٢١٣ ـ قُرْبُكَ مِنْهُ : هُوَ أَنْ تَكُونَ شَاهِداً لِقُرْبِهِ ؛ وَإِلَّا .. فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودَ قُرْبِهِ ؟!

٢١٤ ـ ٱلْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ ٱلتَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، وَبَعْدَ ٱلْوَعْيِ يَكُونُ ٱلْبَيَانُ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

٢١٥ ـ مَتَىٰ وَرَدَتِ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ عَلَيْكَ .. هَدَمَتِ ٱلْعَوَائِدَ عَلَيْكَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

٢١٦ ـ ٱلْوَارِدَاتُ : تَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَٰلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَغَهُ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

٢١٧ ـ كَيْفَ يَحْتَجِبُ ٱلْحَقُّ بِشَيْءٍ ، وَٱلَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

٢١٨ ـ لَا تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ ٱلْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا قُبِلَ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً .

٢١٩ ـ لَا تُزَكِّيَنَّ وَارِداً لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ؛ فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلسَّحَابِ ٱلْأَمْطَارَ ، وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ مِنْهُ وُجُودُ ٱلثِّمَارِ .

٢٢٠ ـ لَا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ ٱلْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا ، وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا ؛ فَلَكَ فِي ٱللهِ غِنىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

٢٢١ ـ تَطَلُّعُكَ عَلَىٰ بَقَاءِ غَيْرِهِ .. دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وِجْدَانِكَ لَهُ ، ٱسْتِيحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ .. دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُصُولِكَ بِهِ .

٢٢٢ ـ اَلنَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ . . إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَٱقْتِرَابِهِ ، وَٱلْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ . . إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ ؛ فَسَبَبُ ٱلْعَذَابِ : وُجُودُ ٱلْحِجَابِ ، وَإِتْمَامُ ٱلنَّعِيمِ : بِٱلنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ .

٢٢٣ ـ مَا تَجِدُهُ ٱلْقُلُوبُ مِنَ ٱلْهُمُومِ وَٱلْأَحْزَانِ . . فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ وُجُودِ ٱلْعِيَانِ .

٢٢٤ ـ مِنْ تَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ .

٢٢٥ ـ لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ . . يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ .

٢٢٦ ـ إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تُعْزَلَ . . فَلَا تَتَوَلَّ وِلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ .

٢٢٧ ـ إِنْ رَغَّبَتْكَ ٱلْبِدَايَاتُ . . زَهَّدَتْكَ ٱلنِّهَايَاتُ ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ . . نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ .

٢٢٨ ـ إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلّاً لِلْأَغْيَارِ ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ ٱلْأَكْدَارِ ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا .

٢٢٩ ـ عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ ٱلنُّصْحَ ٱلْمُجَرَّدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا .

٢٣٠ ـ اَلْعِلْمُ ٱلنَّافِعُ : ٱلَّذِي يَنْبَسِطُ فِي ٱلصَّدْرِ شُعَاعُهُ ، وَيَكْشِفُ عَنِ ٱلْقَلْبِ قِنَاعَهُ .

٢٣١ ـ خَيْرُ ٱلْعِلْمِ : مَا كَانَتِ ٱلْخَشْيَةُ مَعَهُ .

٢٣٢ ـ اَلْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ ٱلْخَشْيَةُ . . فَلَكَ ، وَإِلَّا . . فَعَلَيْكَ .

٢٣٣ ـ مَتَىٰ آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ ٱلنَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ . . فَٱرْجِعْ إِلَىٰ عِلْمِ ٱللهِ فِيكَ ؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُكَ عِلْمُهُ . . فَمُصِيبَتُكَ لِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ ٱلْأَذَىٰ مِنْهُمْ .

٢٣٤ ـ إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأَذَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ؛ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِمْ ، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ حَتَّىٰ لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

٢٣٥ ـ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ . . فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتُكَ بِيَدِهِ .

٢٣٦ ـ إِنَّمَا جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً ؛ لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ ٱلنَّفْسَ ؛ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ .

٢٣٧ ـ مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً . . فَهُوَ ٱلْمُتَكَبِّرُ حَقّاً ؛ إِذْ لَيْسَ ٱلتَّوَاضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَىٰ أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً . . فَأَنْتَ ٱلْمُتَكَبِّرُ .

٢٣٨ ـ لَيْسَ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَـٰكِنِ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَىٰ نَفْسَهُ دُونَ مَا صَنَعَ .

٢٣٩ ـ اَلتَّوَاضُعُ ٱلْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ، وَتَجَلِّي صِفَتِهِ .

٢٤٠ ـ لَا يُخْرِجُكَ عَنِ ٱلْوَصْفِ . . إِلَّا شُهُودُ ٱلْوَصْفِ .

٢٤١ ـ اَلْمُؤْمِنُ : يَشْغَلُهُ ٱلثَّنَاءُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً ، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً .

٢٤٢ ـ لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ ٱلَّذِي يَرْجُو عَنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً ، وَلَا مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُ عَرَضاً ؛ فَإِنَّ ٱلْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ ، لَيْسَ ٱلْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ .

٢٤٣ ـ لَوْلَا مَيَادِينُ ٱلنُّفُوسِ .. مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ ٱلسَّائِرِينَ ؛ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ ، وَلَا قُطْعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ .

٢٤٤ ـ جَعَلَكَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَةَ قَدْرِكَ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ .

٢٤٥ ـ وَسِعَكَ ٱلْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتُكَ ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ رُوحَانِيَّتُكَ .

٢٤٦ ـ ٱلْكَائِنُ فِي ٱلْكَوْنِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ ٱلْغُيُوبِ .. مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ .

٢٤٧ ـ أَنْتَ مَعَ ٱلْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ ٱلْمُكَوِّنَ ؛ فَإِذَا شَهِدْتَهُ .. كَانَتِ ٱلْأَكْوَانُ مَعَكَ .

٢٤٨ ـ لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ ٱلْخُصُوصِيَّةِ ، عَدَمُ أَوْصَافِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ؛ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْخُصُوصِيَّةِ : كَإِشْرَاقِ شَمْسِ ٱلنَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي ٱلْأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ ؛ تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَتَارَةً يُقْبِضُ ذَٰلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَىٰ حُدُودِكَ ؛ فَٱلنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ .

٢٤٩ ـ دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَىٰ وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ ٱلْوَصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَأَرْبَابُ ٱلْجَذْبِ : يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى ٱلتَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ

إِلَىٰ شُهُودِ آثَارِهِ ، وَٱلسَّالِكُونَ : عَلَىٰ عَكْسِ هَـٰذَا ؛ فَنِهَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ بِدَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، وَبِدَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ نِهَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، لَـٰكِنْ لَا بِمَعْنَىً وَاحِدٍ ؛ فَرُبَّمَا ٱلْتَقَيَا فِي ٱلطَّرِيقِ ، هَـٰذَا فِي تَرَقِّيهِ ، وَهَـٰذَا فِي تَدَلِّيهِ .

٢٥٠ ـ لَا يُعْرَفُ قَدْرُ أَنْوَارِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ ٱلْمَلَكُوتِ ؛ كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ ٱلسَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ ٱلْمُلْكِ .

٢٥١ ـ وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ ٱلْأَعْمَالِ عَاجِلاً . . بَشَائِرُ ٱلْعَامِلِينَ بِوِجْدَانِ ٱلْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً .

٢٥٢ ـ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْعِوَضَ عَلَىٰ عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْجَزَاءَ عَلَىٰ صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟!

٢٥٣ ـ قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ .

٢٥٤ ـ ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ ٱسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً .

٢٥٥ ـ مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ ، إِلَّا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ .

٢٥٦ ـ أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنِ ٱسْتَشْهَدَكَ ، فَنَطَقَتْ بِأُلُوهِيَّتِهِ ٱلظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلسَّرَائِرُ .

٢٥٧ ـ أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ : جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ . . لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .

٢٥٨ ـ رُبَّ عُمُرٍ ٱتَّسَعَتْ آمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ .

٢٥٩ ـ مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ . . أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ ٱلْعِبَارَةِ ، وَلَا تَلْحَقُهُ ٱلْإِشَارَةُ .

٢٦٠ ـ اَلْخِذْلَانُ كُلُّ ٱلْخِذْلَانِ : أَنْ تَتَفَرَّغَ عَنِ ٱلشَّوَاغِلِ ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لَا تَرْحَلَ إِلَيْهِ .

٢٦١ ـ اَلْفِكْرَةُ : هِيَ سَيْرُ ٱلْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ ٱلْأَغْيَارِ .

٢٦٢ ـ اَلْفِكْرَةُ : سِرَاجُ ٱلْقَلْبِ ؛ فَإِذَا ذَهَبَتْ . . فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ .

٢٦٣ ـ اَلْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ ؛ فَٱلْأُولَىٰ : لِأَرْبَابِ ٱلِاعْتِبَارِ ، وَٱلثَّانِيَةُ : لِأَرْبَابِ ٱلشُّهُودِ وَٱلِاسْتِبْصَارِ .

* * *

وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ بِقَوْلِهِ :

**أما بعد :**

فَإِنَّ ٱلْبِدَايَاتِ مَجْلَاةُ ٱلنِّهَايَاتِ ، وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِٱللهِ بِدَايَتُهُ .. كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَايَتُهُ ، **وَٱلْمُشْتَغِلُ بِهِ** : هُوَ ٱلَّذِي أَحَبَّهُ وَسَارَعَ إِلَيْهِ ، **وَٱلْمُشْتَغِلُ عَنْهُ** : هُوَ ٱلْمُؤْثِرُ عَلَيْهِ .

وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ ٱللهَ يَطْلُبُهُ .. **صَدَقَ ٱلطَّلَبَ إِلَيْهِ** ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ بِيَدِ ٱللهِ .. **ٱجْتَمَعَ بِٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ** ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِبِنَاءِ هَٰذَا ٱلْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسْلَبَ كَرَائِمُهُ .

**فَٱلْعَاقِلُ** : مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَىٰ ، أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَىٰ ؛ قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ ، فَصَدَفَ عَنْ هَٰذِهِ ٱلدَّارِ مُغْضِياً ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِّياً ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَناً ، وَلَا جَعَلَهَا سَكَناً ، بَلْ **أَنْهَضَ ٱلْهِمَّةَ فِيهَا إِلَى ٱللهِ** ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي ٱلْقُدُومِ عَلَيْهِ .

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَقَرُّ قَرَارُهَا ، دَائِماً تَسْيَارُهَا ، **إِلَىٰ أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ** ، وَبِسَاطِ ٱلْأُنْسِ ، مَحَلِّ ٱلْمُفَاتَحَةِ وَٱلْمُوَاجَهَةِ ، وَٱلْمُجَالَسَةِ وَٱلْمُحَادَثَةِ ، وَٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْمُطَالَعَةِ ، **فَصَارَتِ ٱلْحَضْرَةُ مُعَشْعَشَ قُلُوبِهِمْ** ؛ إِلَيْهَا يَأْوُونَ ، وَإِلَيْهَا يَسْكُنُونَ .

فَإِنْ نَزَلُوا مِنْ سَمَاءِ ٱلْحُقُوقِ وَأَرْضِ ٱلْحُظُوظِ .. **فَبِٱلْإِذْنِ وَٱلتَّمْكِينِ** ،

وَٱلرُّسُوخِ فِي ٱلْيَقِينِ ؛ فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى ٱلْحُقُوقِ بِسُوءِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَلَا إِلَى ٱلْحُظُوظِ بِٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمُتْعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَٰلِكَ بِٱللهِ وَلِلهِ وَمِنَ ٱللهِ وَإِلَى ٱللهِ ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَىٰ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَٱسْتِسْلَامِي وَٱنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي ، ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ : يَنْصُرُنِي وَيَنْصُرُ بِي ، وَلَا تَنْصُرُ عَلَيَّ ، يَنْصُرُنِي عَلَىٰ شُهُودِ نَفْسِي ، وَيُفْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي .

* * *

## [ وممّا كتبه إلىٰ بعض إخوانه ]

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ ٱلْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَىٰ أَنَّ ٱللهَ وَاحِدٌ فِي مِنَّتِهِ .. فَٱلشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ .

وَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ذَٰلِكَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَٱنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَنَظَرَ ٱلْإِحْسَانَ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا ٱعْتِقَاداً . . فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا إِسْنَاداً . . فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ .

وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ ٱلْخَلْقِ ، بِشُهُودِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ ٱلْأَسْبَابِ ، بِشُهُودِ مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ ؛ فَهَـٰذَا عَبْدٌ مُوَاجَهٌ بِٱلْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدِ ٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ ٱلْأَنْوَارِ ، وَمَطْمُوسُ ٱلْآثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَىٰ صَحْوِهِ ، وَجَمْعُهُ عَلَىٰ فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتُهُ عَلَىٰ حُضُورِهِ .

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَٱزْدَادَ صَحْواً ، وَغَابَ فَٱزْدَادَ حُضُوراً ؛ فَلَا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ ، وَلَا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ ، وَلَا فَنَاؤُهُ يَصْرِفُهُ عَنْ بَقَائِهِ ، وَلَا بَقَاؤُهُ يَصْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ ٱلْإِفْكِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ؛ ٱشْكُرِي رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَٱللهِ ؛ لَا أَشْكُرُ إِلَّا ٱللهَ .

دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلْمَقَامِ ٱلْأَكْمَلِ ؛ مَقَامِ ٱلْبَقَاءِ ٱلْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ ٱلْآثَارِ ، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : « لَا يَشْكُرُ ٱللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ ٱلنَّاسَ » .

فَكَانَتْ هِيَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مُصْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً عَنِ ٱلْآثَارِ ، فَلَمْ تَشْهَدْ إِلَّا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّارَ .

❋ ❋ ❋

## [ جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه ]

وَهَـٰذَا سُؤَالٌ ، سَأَلَ ٱلشَّـيْخَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بَعْضُ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُتَعَرِّضِينَ لِنَفَحَاتِ ٱلْوِصَالِ ، فَسُـئِلَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَـوْلِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ » هَلْ ذَٰلِكَ خَاصٌّ بِهِ كَسَـائِرِ مَا ٱخْتُـصَّ بِهِ مِنَ ٱلْمَزَايَا وَٱلْفَضَائِلِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْ تَابِعِينَ هَدْيَهُ نَصِيبٌ مِنْهُ ؛ كَمَا لَهُمْ فِي أُمُورٍ مِنْ فَضَائِلِهِ ؟

فَأَجَـابَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْـهُ بِمَا هُوَ ٱلصَّوَابُ مِنْ رَائِـقِ ٱلْجَوَابِ وَفَصِيحِ ٱلْخِطَابِ :

إِنَّ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ بِٱلشُّهُودِ ، عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْمَشْهُودِ ؛ فَٱلرَّسُولُ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةُ أَحَدٍ كَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ .

وَإِنَّمَـا قُلْنَـا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ لِشُـهُودِهِ جَلَالَ مَشْـهُودِهِ ، لِأَنَّهُ قَـدْ أَشَـارَ إِلَـىٰ ذَٰلِكَ بِقَوْلِـهِ : « فِـي ٱلصَّلَاةِ » وَلَمْ يَقُـلْ : بِٱلصَّـلَاةِ ؛ إِذْ هُوَ صَلَـوَاتُ ٱللَّهِ وَسَـلَامُهُ عَلَيْـهِ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، فَكَيْـفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَقَـامِ وَيَأْمُـرُ بِـهِ مَنْ سِـوَاهُ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ وَسَـلَامُهُ عَلَيْـهِ : « ٱعْبُدِ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ، وَمُحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ !!

قَالَ لَهُ ٱلْقَائِلُ : قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِٱلصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ مِنَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مِنَّةِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ لَا يَفْرَحُ بِهَا ؟! وَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ ؟!

فَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلْآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ إِلَى ٱلْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ ٱلْخِطَابِ ؛ إِذْ قَالَ : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، وَمَا قَالَ : فَبِذَٰلِكَ فَٱفْرَحْ ، يَا مُحَمَّدُ ؛ قُلْ لَهُمْ : لِيَفْرَحُوا بِٱلْإِحْسَانِ وَٱلتَّفَضُّلِ ، وَلْيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِٱلْمُتَفَضِّلِ ؛ كَمَا قَالَ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

❋ ❋ ❋

## [ الناس ثلاثة أقسام في ورود المنن ]

فَقَالَ فِي بَعْضِ مَا كَتَبَ بِهِ لِبَعْضِ خَوَاصِّ ٱلْإِخْوَانِ :

ٱلنَّاسُ فِي وُرُودِ ٱلْمِنَنِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَـرِحٌ بِٱلْمِنَنِ لَا مِنْ حَيْـثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِـيهَا ، وَلَـٰكِنْ بِوُجُودِ مُتْعَتِهِ فِيهَا ، فَهَـٰذَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ .

وَفَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مِنَّةٌ مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةٌ مِمَّنْ أَوْصَلَهَا ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وَفَرِحٌ بِٱللهِ تَعَالَىٰ مَا شَغَلَهُ مِنَ ٱلْمِنَنِ ظَاهِرُ مُتْعَتِهَا ، وَلَا بَاطِنُ مِنَّتِهَا ، بَلْ شَغَلَهُ ٱلنَّظَرُ إِلَى ٱللهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَٱلْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ( قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ مِنْ عِبَادِي : بِي فَٱفْرَحُوا ، وَبِذِكْرِي فَتَنَعَّمُوا ) وَٱللهُ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَبِٱلرِّضَا مِنْهُ ، وَأَلَّا يَجْعَلَنَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ ٱلْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

❋ ❋ ❋

# المناجاة الإلهية

فَقَالَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فِي مُنَاجَاتِهِ :

إِلَـٰهِي ؛ أَنَا ٱلْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ أَنَا ٱلْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ ٱخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ، مَنَعَا عِبَادَكَ ٱلْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ ٱلسُّكُونِ إِلَىٰ عَطَاءٍ ، وَٱلْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ .

إِلَـٰهِي ؛ مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ .

إِلَـٰهِي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِٱللُّطْفِ وَٱلرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَحَاسِنُ مِنِّي . . فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ ٱلْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَسَاوِي مِنِّي . . فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتَ لِي ؟! وَكَيْفَ أُضَامُ وَأَنْتَ ٱلنَّاصِرُ لِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ ٱلْحَفِيُّ بِي ؟!

هَـٰأَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ أَشْكُو حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ إِلَيْكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ وَإِلَيْكَ ؟!

إِلَـٰهِي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!

إِلَـٰهِي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي !! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ !! مَا أَرْأَفَكَ بِي !! فَمَا ٱلَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟!

إِلَـٰهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِٱخْتِلَافِ ٱلْآثَارِ ، وَتَنَقُّلَاتِ ٱلْأَطْوَارِ : أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ .

إِلَـٰهِي ؛ كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي . . أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ ، وَكُلَّمَا آيَسَتْنِي أَوْصَافِي . . أَطْمَعَتْنِي أَوْصَافُكَ .

إِلَـٰهِي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِيَ . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِيَ ؟! وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِيَ . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِيَ ؟!

إِلَـٰهِي ؛ حُكْمُكَ ٱلنَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ ٱلْقَاهِرَةُ . . لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ، وَلَا لِذِي حَالٍ حَالاً .

كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا ، وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا ، هَدَمَ ٱعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ .

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمِ ٱلطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً وَجَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لَا أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْآمِرُ ؟!

إِلَـٰهِي ؛ تَرَدُّدِي فِي ٱلْآثَارِ ، يُوجِبُ بُعْدَ ٱلْمَزَارِ ، فَٱجْمَعْنِي عَلَيْكَ ، بِخِدْمَةٍ تُوَدِّينِي إِلَيْكَ .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ ٱلظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ، حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ ٱلْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَىٰ غِبْتَ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِلَىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدْتَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلْآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!

إِلَـٰهِي ؛ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً .

إِلَـٰهِي ؛ أَمَرْتَ بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْآثَارِ ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُسْوَةِ ٱلْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ ٱلِٱسْتِبْصَارِ ؛ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونَ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَمَرْفُوعَ ٱلْهِمَّةِ عَنِ ٱلِٱعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إِلَـٰهِي ؛ ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَحَالِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ ٱلْوُصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَٱهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ ٱلْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ .

إِلَـٰهِي ؛ عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ ٱلْمَخْزُونِ ، وَصُنِّي بِسِرِّ ٱسْمِكَ ٱلْمَصُونِ ؛ ٱلَّذِي إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ ﴾ . . فَيَكُونُ .

إِلَـٰهِي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ ٱلْقُرْبِ ، وَٱسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ ٱلْجَذْبِ .

إِلَـٰهِي ؛ أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ عَنْ تَدْبِيرِي ، وَبِٱخْتِيَارِكَ عَنِ ٱخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي عَلَىٰ مَرَاكِزِ ٱضْطِرَارِي .

إِلَـٰهِي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي .

بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَٱنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي .

إِلَـٰهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي ؟! أَنْتَ ٱلْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ٱلنَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيّاً عَنِّي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ ٱلْقَضَاءَ وَٱلْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ بِوَثَاقِ ٱلشَّهْوَةِ أَسَرَنِي ، فَكُنْ أَنْتَ ٱلنَّصِيرَ لِي حَتَّىٰ تَنْصُرَنِي وتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّىٰ أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبِي .

أَنْتَ ٱلَّذِي أَشْرَقْتَ ٱلْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّىٰ عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ .

وأَنْتَ ٱلَّذِي أَزَلْتَ ٱلْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّىٰ لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ .

أَنْتَ ٱلْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْعَوَالِمُ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ ٱسْتَبَانَتْ لَهُمُ ٱلْمَعَالِمُ .

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ عَنْكَ بَدَلاً ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوَّلاً ، وَخَيْبَتُهُ ظَاهِرَةٌ ، وَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ يُرْجَىٰ سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ ٱلْإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ ٱلْاِمْتِنَانِ ؟!

يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ ، وَيَا مَنْ

أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ .

أَنْتَ ٱلذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ ٱلذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَادِئُ بِٱلإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ ٱلْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِٱلْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ ٱلطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْوَهَّابُ لَنَا ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ ٱلْمُسْتَقْرِضِينَ !!

إِلَـٰهِي ؛ ٱطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَٱجْذِبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّىٰ أُقْبِلَ عَلَيْكَ .

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، وَإِنَّ خَوْفِي لَا يُزَايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ .

إِلَـٰهِي ؛ قَدْ دَفَعَتْنِي ٱلْعَوَالِمُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أُهِينُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَعِزُّ وَفِي ٱلذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟!

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَفِي ٱلْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

أَنْتَ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ .

يَا مَنِ ٱسْتَوَىٰ بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، فَصَارَ ٱلْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ ؛ كَمَا صَارَتِ ٱلْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ ، مَحَوْتَ ٱلْآثَارَ بِٱلْآثَارِ ، وَمَحَوْتَ ٱلْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ ٱلْأَنْوَارِ .

يَا مَنِ ٱحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ ٱلْأَبْصَارُ.

يَا مَنْ تَجَلَّىٰ بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتَهُ ٱلْأَسْرَارُ، كَيْفَ تَخْفَىٰ وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ ٱلرَّقِيبُ ٱلْحَاضِرُ ؟!

والله الموفق، وبه أستعين

# شرح الحكم العطائية

المسمى

## شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم


تأليف

الإمام العالم العلامة

أبي محمد علي بن عبد الله بن أحمد باراس

الكندي الدوعني الحضرمي الشافعي

رحمه الله تعالى

(١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ)

# خطبة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

**الحمد لله** منوِّر الظُّلَم ، ومُظهِر الوجود من العَدم ، **الموصوف بالقِدَم** ، ومفجِّرِ ينابيع الحكم ، من خضمِّ تيار الكرم ، **ومُمنح من اختصَّهُ من البرايا** بمزيد العطايا المكنونة في خزائن الحكم ، **وشرح صدور ذوي الاختصاص** بالتنزُّهِ في فسيح صفيح سروح شروح رياض الحكم[1] .

**فتبادرت جياد عتاد أرواحهم** ، وطوالعُ بوالغ هممهم **بمطالعة أسـرار القِدَم** ، فوقعت عندما شـهدت ذلك في يمِّ العـدم ، **فصادها ما توهَّمَتِ اصطيـاده** ، فرجع كل فصـلٍ لأصله ، **فصدق عن كشـفٍ تحقيقُ** ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ ﴾ .

**والصلاة والسلام المتصلان** بدوام تجلياته بأحدية ذاته ، **المستمرَّان** بمظاهر جماله وجلاله ، **الساريان الظاهران** على خفايا وظواهر آياته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ؛ **على دُرَّة صدف الوجود** ، ومَحْتِدِ مقامات الشهود[2] ، وأصل حقيقة كل موجود .

**أول من أومأت روحه في الوجود لله بالسجود** ، فتوجهت الأرواح الجمالية إليه فوجدته لها إماماً ، ومن الفتن والأهواء لها هدايةً وعصاماً ،

---

(1) **الصفيح** : جمع صفيحة ؛ الحجر العريض يسطرُ عليه ، **والسروح** : جمع سَرْح ؛ المال السائم .

(2) **المحتد** : الأصل .

محمدٍ الحامد بجوامع المحامد ، ورسوله الداعي إلىٰ أكمل المقاصد .

عبد الله ونِعْمَ العبد ، سيد ولد آدم الناطق بالقول الأقوم ، والقائم بدائرة الاسم الأعظم ، المؤتىٰ جوامع الكَلِمِ ، الذي أبان الله به الوجود من العدم .

وعلىٰ آله ثمرة دوحته النبوية ، وبروج شمسه الخفية ، برازخ النشأتين ، وخلاصة الصفوتين ، وأصحابه كذٰلك ، كما اختصَّهم الله لذٰلك ، وأهَّلهم لما هنالك ، نجومِ هدايته ، وبُدُور ولايته ، وشموس عنايته .

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادته لنفسه بنفسه ، والملائكة وأُولي العلم من خلقه .

أما بعد :

فإني استخرت الله سبحانه بعد أن صدرت لي إشارةٌ في طيِّها بشارةٌ ، من صدر زمانه ، وقطب أوانه ، العارفِ بالله ذوقاً وكشفاً ، وتحقُّقاً وعلماً ؛ سيدي عمر بن عبد الرحمٰن بن عقيل بن سالم بن عبد الله باعلوي السقاف . . أن أضعَ تعليقاً لطيفاً على كتاب « الحكم » للشيخ العارف بالله أحمد ابن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الشاذلي الإسكندري ، نفع الله به وبعلومه ، وأبان لنا من لوائح فهومه ، ما يكشف لنا ولكل مسترشدٍ إلىٰ طريقه عن غوامض إشاراته ورموزه ، ويفتح لنا ما تضمَّنه كلامه من الحقائق واللطائف والرقائق .

فوجدت عند ذٰلك أثر الاستخارة ، وبركات قَبول الإشارة ، فقدمت معتمداً علىٰ ما ينقدح بنور الفهم ، ولم أكن بعدُ قد وقفت لهٰذا الكتاب

علىٰ شــرح غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبَّــادٍ النِّفْزِيّ [1] ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامَهُ لأوائل كلامنا أسّاً ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحاتِ النقول وجلياتِ المعقول ، وأنا منتظر ما يُلْقىٰ في الفؤاد من لوائح الوداد ، فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد .

فتكلمنا بحسب ما يظهر لنا من لوائحه ، متيمِّنين ببركاتهم الشاملة [2] ، ومســتنزلين المواهب والفتوح من ســماء ساميات أســرارهم القدسية ، ومتهدِّفين للألطاف والمنوح بالانتماء إلىٰ مذاهبهم ، ومتمسِّكين بأذيال طرائقهم ، ومتعرِّضين لاستعطاف ألطاف مصونات حقائقهم ، مع اعترافنا بالقصور عن شَأْوهم وعزيز منالهم ، مستشفعين بهم إلى الله في أن ينيلنا عزيزَ وصالهم ، وطالبين من جدواهم كل منحة [3] .

ونستمطر التحقيق من سحب أقوالهم وشرائف أحوالهم ، ونستنشق الأنفاس العلوية في كل نفحة ، ونستهدي التوفيق في كل ما ينسب إلينا من قولٍ وفعلٍ ونية .

ونسأل الله أن يجعلنا ممن سمع الخطاب فوعىٰ ، وشهد التحقيق فدعا إلى الله علىٰ بصيرة ، وصفو سريرة ومحجة منيرة ، ويوفِّقنا لحسن الاتباع ، ويجنبنا الزيغ والابتداع ، وأن يجعلني مترجِماً عنه ، لا متحكِّماً بنفسي .

وأن ينفعَنــي والمســلمين بمــا أوردته في هـٰذا الكتــاب وغيره من كل

---

(١) النِّفْـزِي : نسـبة إلىٰ نفزة ، نقل العلامـة ياقوت في « معجمـه » ( ٥/٢٩٦ ) أنها بفتح النون ، وعن السلفي كسرها ؛ قبيلة كبيرة من البربر .

(٢) في ( ب ) : ( متيمِّمين ببركاتهم الشاملة ) .

(٣) الجدوى : العطية .

فعل وخطاب ، وأن يجعله لنا حجةً يوم الحساب ، ومحجةً إلىٰ كشف الحجاب ، وأن يجعلنا ناطقين بالصواب ، وأن يجمعنا مع الأحباب ؛ مع النبيّين وخواصِ المقرَّبين من الأقطاب ، والأئمة والأوتاد والبدلاء والأنجاب ، ومشايخنا في الدِّين ومن والانا فيك ووالِيناه والقرابات والأصهار والأَنساب ، وأن يعمَّ بنفعه كلَّ طالبٍ منيبٍ أوَّاب ، ولي في ذٰلك :

كل الوجود مشيرٌ إن رأيت إلىٰ ... نحو الأحبة دونكْ هٰذه الخيمِ

واسمَعْ خطابَ نِدا الحقِّ المبينِ ولا ... يدخلْكَ ريبٌ بما في مجمع الكلمِ

ففي الصدورِ سطورُ النور منه علىٰ ... صفائحِ النفس أسرار من القِدَمِ

إذا بدا ذاك نَارَ الكونُ منه فلا ... غَيْرٌ يرىٰ غيرَ عِزّهْ عزةً أممِ

* * *

وكان هٰذا أوان ابتدائنا في شرح كلام المؤلف رضي الله عنه ، مستعيناً بالله ومتوكِّلاً عليه ، ومستنداً في أموري إليه .

ومن وجد في كتابي هٰذا لفظاً أو معنىً مخالفاً لمَا عليه أهل السنة والجماعة . . فأنا بريءٌ عن ذٰلك المقال ، وهٰذا أَسَدُّ المقال ؛ إذ قال المؤلف رضي الله عنه :

هٰذه علامةٌ كافية ، ودلالةٌ وافية ، وهٰذه أحدُ علامات الاعتماد على العمل ، وله علاماتٌ ودلالات يطول تعدادها ، ومن جملتها : الإدلالُ وازدراءُ مَنْ لم يعمل بمثله . . . إلىٰ غير ذٰلك (١) .

والفرقُ بين من يعتمد على الله دون علمه وعمله : أنه لو باتَ قائماً وغيرُهُ نائماً إلى الصباح . . لم يرَ نفسه عليه بمزية .

وهي للواقف علىٰ عمله وعلمه وجميع ما منه دون الاعتماد على الله علامةُ حجابِهِ ووقوفِهِ دون محض العبودية علىٰ مقتضىٰ طبعه وطلب حظه ؛ من نيل ثواب ، والهرب من العذاب ، وهٰذه العلل تناقضُ العبوديةَ .

وأما العارفون والسادة المقرَّبون قصروا نظرهم ، وعكفوا بهممهم على امتثال أمر سيدهم ، دون حظٍّ عاجل ، أو جزاءٍ آجل . . فهم مع الله ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ، وفي جميع حركاتهم كائنة ما كانت .

فإن كان ما يصدر منهم من قبيل الموافقات . . استغرقهم جماله وحسن أفعاله ، ومع ذٰلك تصحبهم هيبةُ سطوات جلاله ؛ لأنه حيث ظهر وصف الجمال .. فالجلال باطن ، وحيث ظهر سلطان الجلال . . فالجمال باطن ؛ لذٰلك لا ينفكُّ خوف العارف من رجائه .

وإن ظهرت منه صورة زلَّةٍ أو مخالفة . . هذَّبهم سلطانُ جلاله ،

---

(١) وللعارف بالله تعالىٰ أبي يعقوب الرازي لسانٌ في هٰذا ؛ فقد روى السلمي في « طبقاته » ( ص ١٨٨ ) : ( يتولَّد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنَّة فيما يجري الله لك من الطاعات ) ، وانظر « غيث المواهب » ( ١/٥٣ ) .

فأورث لهم حالاتٍ سنيَّة ، ومقامات عليَّة ؛ كالحياء والرهبة ، والالتجاء والخشية ، والانطواء تحت سلطان الرهبوت .

وإن أقامهم في تجلي جماله .. أسكرهم شرابُ جماله ، وأذهلهم لذيذُ وصاله ، وأدهشهم كماله ؛ فانبعثت منهم القوى الباطنة والحركات الظاهرة بمقتضى الشكر ؛ من خالص ذكر ، وصافي فكر ؛ فهم بين رَوْحِ مشاهدة الجمال وتهذيبِ الجلال .

وحيث سمعتَ بزلةٍ أو هفوةٍ صدرت في عبارة (١) .. فاعلم : أن زلاتِ العارفين وهفواتهم غالباً في الرخص والمباحات ، وعلى الندور تكون في كبيرة ، وحيث كانت .. فهم يطالعون سابق العلم على علم منهم قبل وقوعها على يدهم أنها ستكون ولا بدَّ ؛ إما بأن يشهدوا ذلك في أمِّ الكتاب مسطَّراً ، أو يُحدَّثوا به بلا امترا (٢) ، ولكن الله يقرنُ لهم البشرى بقَبول توبتهم وغفران ذنوبهم ؛ فلذلك حجَّ آدمُ موسى كما

---

(١) وإنما عبَّر المصنف رحمه الله تعالى بالزلة والهفوة ولم يقل : معصية .. تشبيهاً لها بمخالفة الأنبياء ؛ كما ذهب إليه بعض المتكلمين .

(٢) قال العلامة المحقق عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى في « عينيته » المشهورة :

ولي نكتةٌ غرّا هنا سأقولها ... وحقٌّ لها أن ترعويها المسامعُ
هي الفرقُ ما بين الوليِّ وفاسقٍ ... تنبَّهْ لها فالأمرُ فيه بدائعُ
وما هو إلا أنه قبلَ وقعِهِ ... يخبِّرُ قلبي بالذي هو واقعُ
فأجني الذي يقضيه فيَّ مرادها ... وعيني لها قبل الفعالِ تطالعُ
فكنت أرى منها الإرادة قبل ما ... أرى الفعلَ منِّي والأسيرُ مطاوعُ
إذا كنت في أمرِ الشريعةِ عاصياً ... فإنِّيَ في حكم الحقيقة طائعُ

انظر « حاشية الصاوي على الخريدة » ( ص ٥٦ ) .

ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، ولو لم يكن ذلك . . لذابت أرواحهم ، وتلاشت أشباحهم ؛ حياءً وتعظيماً .

وحال وقوعهم فيها وصدورها عنهم يحجبون عن شهود العلم ، وإلا . . لم يتمكَّنوا من فعلها ؛ ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ، فمراتبهم تعطيهم التعظيم والإجلال ؛ كما يكون لغيرهم من الخوف والإذلال ، خارجين عن كونهم بأنفسهم قائمين ، وعن حولهم وقوتهم متبرِّئين في جميع ما يصدر منهم أو عنهم ، وكيف يشهدون ذواتهم وصفاتِهم ـ فضلاً عن أفعالهم ـ وهم متلاشون بين مشرقاتِ جماله ، ومضمحلُّون تحت محرقات جلاله ؟!

فإن أشهدهم ذاتَهُ . . غيَّبهم عن ذواتهم ؛ فيكون مقامهم الهيبة والأُنْس ، وإن أشهدهم صفاته . . أخذهم عن صفاتهم ؛ فحالهم القبض والبسط ، وإن أوقفهم تحت أحكام أسمائه [2] . . قاموا بحكم الخوف والرجاء ، هٰذه مقامات الرجال والسادات الأبدال .

وأما عامة الخلق . . فواقفون في مضيق الحجاب عندما يتوهَّمون صدوره عنهم أو كونه منهم ؛ من طاعة أو عصيان ، أو عطاء أو حرمان ، فلا يفارقون الشرك ؛ إما الخفي أو الجلي ، فإذا نظروا إلىٰ ما يبرز منهم في صورة طاعة . . عَدُّوه أرجىٰ بضاعتهم ، وعمدة نُفاعتهم [3] ، وغابوا عن معونة الله لهم ، وسابق هدايته لهم ، وعظيم منَّته عليهم ، وأجلُّها : إيجادهم بعد أن لم يكونوا ، وتوالي إمداده [4] ، وإرسال أنبيائه وإنزال

---

(١) رواه البخاري ( ٣٤٠٩ ) ، ومسلم ( ٢٦٥٢ ) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) وجلُّها دالٌّ علىٰ غلبات أفعاله .
(٣) النُّفاعة والمنفعة بمعنىً .
(٤) كما سيأتي ( ص ٤٢٢ ) في الحكمة ( ٩٨ ) .

كتبه ، وبسط أرضه ورفع سماواته ، وتسخير موجوداته ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

**ومن جملتها** : طاعتهم المنسوبة إليهم مجازاً[1] ، وإن وقعت منهم زلةٌ وحصلت منهم هفوةٌ . . سلبتهم ما كان عندهم من الرجاء ؛ لشهودهم صدورها عنهم ، واستنادهم إلىٰ حولهم وقوتهم ؛ **فرؤيتُهم حولَهم وقوتَهم في إيجاد شيءٍ أيِّ شيءٍ** . . أشدُّ من معصيتهم ، والحزنُ المطلوب للعباد لا لكونهم لهم فيها حقيقة إيجاد واختراع ، ولٰكن لكونها برزت علىٰ أيديهم ؛ **فهي من نوازل البلاء** ، وسطوات القضاء .

**فإذا فهمت ذٰلك . . تبيَّنَ لك حالات العامة ومقامات الخاصة** ، وما يعطيهم الحال من الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، وحالات العامة وما تُعطىٰ من الحجاب ، وما يقاسون من رؤية أنفسهم من النَّصَبِ والعذاب ؛ **فالعذاب** : فرعٌ عن ضرب الحجاب ، قال الله جل ذكره : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2] .

**والعارف** : إما متحقِّقٌ متمكِّن ، وإما مصطلَمٌ متلوِّن ؛ **فالمتمكِّنُ** : يعطي كل ذي حقٍّ حقه ، ويوفي كل مقامٍ مستحقه ؛ فمع كونه فانياً عن أفعاله وأوصافه وذاته . . فهو باقٍ بربِّه ، يأتمر لأمره ، وينتهي لنهيه ، ويعرف حكمة الله في إثبات العبد مع الله مع أن الله قال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ، وقال في مقامٍ آخر : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ .

**وهنا علومٌ تخرجنا عن شرح الكتاب** ، ولٰكن كُنْ وقايةً له فيما لا يليقُ إضافته إليه ، واجعله وقايتَكَ فيما يحسن أن يُضافَ إليه من

(١) كما سيأتي ( ص ٣٠٤ ) في الحكمة ( ٥٨ ) .

(٢) نبَّهَ بتقديم الحجاب على العذاب أنه فرع عنه .

المحامد[1] ، وكلُّ ما في إطلاقه ذمٌّ أو إشارة إلىٰ ذمٍّ ولو من بعض الوجوه . . فكن وقايته فيها ؛ فما كان من المحمودات . . **فإليه خلقاً وإيجاداً** ، وما كان فيه ذمٌّ أو يتوصل منه إلىٰ ذم ولو من بعض الوجوه . . **فإليك إضافةً واستناداً** ، وما كان فيه من وجهٍ مدحٌ ومن وجهٍ ذمٌّ . . **فوجهُ المدح إليه ، ووجهُ الذم إليك** . هـٰذا مشهدُ الأدباء .

وأما العامة . . **فإنهم بالضدِّ من ذٰلك** ؛ يضيفون ما كان ممدوحاً إليهم ، وما كان مذموماً تبرَّؤوا منه وأضافوه إلى الله !!

فهـٰذا بعض ما أبرزته إشارةُ الوقت ، **ووراء هـٰذا علومٌ وأسرار لا يسع كشفُها لغير أهلها ، ولي في ذٰلك** :

فكن علىٰ كرم الرحمـٰن معتمداً لا تستند لا إلىٰ علمٍ ولا عملِ
ففضل ربك لا تمنعه معصيةٌ ولا يضاف إلى الأغراض والعللِ

فنسأل الله هدايةً وتوفيقاً ، وصواباً وتحقيقاً .

* * *

قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(1) قال سبحانه في بيان هاتين الوقايتين : ﴿ مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ **فجعلته وقايتك** ، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ **فكنت أنت وقايته** ، جلَّ ربُّنا وعزَّ ، وإلى الله ترجع الأمور .

## إِرَادَتُكَ ٱلتَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلْأَسْبَابِ .. مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْخَفِيَّةِ ، وَإِرَادَتُكَ ٱلْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ ٱللهِ إِيَّاكَ فِي ٱلتَّجْرِيدِ .. ٱنْحِطَاطٌ عَنِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلِيَّةِ

الإرادةُ : حالةٌ من حـالاتِ القلب ، ووصفٌ من صفات العبد ، وهي جائزة كهو ، وهي بتخصيص الأمور وتدبيرها ، وقد علمت ما العبد عليه من القصور والعجـز ؛ لجهله بتقدير الأمور ، والعجـزُ من لوازم إرادته الأشياءَ واختيارها .

والمطلـوب مـن العبـد حيث كان كـذٰلك : أن يكـون بتدبير الله واختياره ، تاركاً لإرادته وسـائرِ أوصافه وأفعالـه ، ويبقىٰ بتدبيرِ مَنْ له الإرادةُ الكاملـة ، والقدرة النافذة في حركاته الظاهـرة والباطنة ، فعلىٰ ذٰلك : لـو أبيح له أن يختار .. لـكان من حقِّهِ تـركُ الاختيار ، فكيف والعبـد مأمورٌ بترك الاختيار ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ ؟!

وبعـض الأمـور أظهر من بعـض في ظهور الحكمـة ؛ فطلب التجريد مـع إقامة الله إياك في الأسـباب .. الشـهوةُ فيه خفيـةٌ غامضةٌ جداً ؛ من حيث إنه طاعة ، لٰكن بدقيق النظر في دقائق الحقائق : يتبيَّنُ لك شهوة النفس ومخادعة الشيطان .

أمـا شـهوة النفس .. فمـن حيث استعجال الراحة ، وأمـا مخادعة الشـيطان .. فمـن حيـث إخراجـك من تدبيـر الله [١] الذي لـم يقترن به مذموم شرعاً إلىٰ تدبيرك لنفسك المشوب بالحظوظ .

---

(١) في ( ب ، ج ) : ( عن تدبير الله ) بدل : ( من تدبير الله ) .

وأما طلب الخروج من التجريد إلى الأسباب . . فقبحه ظاهرٌ جلي .

واعلم : أن الأسباب هي كل ما يوصل إلىٰ غرضٍ دنيوي ، والتجريد : هو التفرغ عن كل شاغلٍ يشغل عن الله ، وعائقٍ يعوق عن طاعة الله .

واعلم : أن التجريد حال شريف ، ومقام منيف ، يقيم الله فيه خاصَّةَ أصفيائه ، وصفوة أوليائه ، وعلامةُ من أقامه الله فيه : كثرة الرضا ، وعدم الشكوىٰ ، وعدم الركون إلى المعلوم ، وتجنُّبُ كلِّ فعل ملوم ، وخلق مذموم ، والاستغناء بالله ، وإنزال جميع حاجاته ومهماته بالله ، والبذل عند الوجد ، والصبر عند الفقد ، والرأفة بعباد الله والشفقة ، ورفع الهمة عن التشوُّفِ إليهم في أمرٍ من الأمور ، إذا نزلت به الحاجة . . لم يتوجَّهْ في قضائها إلىٰ غير الله .

وهم في ذٰلك ثلاثة : منهم : من لا يسأل ولا يأخذ ، ومنهم : من لا يسأل ، وإذا أُعطي . . قَبِل ، ومنهم : من يسأل عندما تنزل به الحاجة [1] .

فالأول : روحاني ، والثاني : تارك للاختيار ، قائم مقام الافتقار ، والثالث : كفارة سؤاله صدقةُ في فاقته .

والمتجرد تجرَّدَ عن أسباب وتلبس بأحوال ، فما يتجرَّدون ليتفرغوا ، ولٰكن يتجردون عن أسبابٍ دنية لأحوالٍ سنية ؛ فمن لم يكن في حال تجريده ذا همةٍ عالية ، وعلوم وافية ، وأخلاق رضية ، وعلوم سنية ، وأذواق روحية . . فتجريدُهُ بطالة ، وطريقته ضلالة .

وإذا كان بهٰذه الشروط . . تولَّى الله رعايته ، ونشر عليه سرَّ ولايته ، وتوجهت إليه الكائنات بسرِّ التسخير ، وكُفي همَّ التدبير .

فإذا توجهت همته إلىٰ غير الله كائناً ما كان ذٰلك الغير . . فقد انحطَّ

---

(١) في ( ب ) : ( الفاقة ) بدل : ( الحاجة ) .

عن هٰذه الرتبة العلية ، ونزل عن هٰذه الهمة السامية العلوية ، وحُجب عن هٰذه الحالة السنية ، فما أعظم مصيبته ، وأشد عقوبته !! وما أقبح حماقته !! حيث عاد من اليقين إلى الوهم ، وتلبَّسَ بالجهل عوضاً عن الفهم ؛ إن لم يتداركه الله بتوبة ، وسرعة أوبة .

فإن لم يتدارك بذٰلك . . كان من لم يسلك أحمدَ حالاً منه ؛ لأن من لم يسلك . . لم يطلق عليه أنه سلك طريقاً ورجع عنها ، ولا يخفىٰ ضلالُ رأيِ مَنْ خُطب إلىٰ مقام الملك والأتراب ، ورجع إلىٰ سياسة الدوابِّ !! وفي مثل ذٰلك أقول :

كيف بالأسباب يقنع من ... لحمى التجريد قد طُلبا
مَنْ بمولاه توثُّقه ... ثم يرجعْ يطلب السببا
كانت الأسباب تطلبه ... وهو بالأنوار محتجبا
فترى التنزيل يُخبرنا ... بحديثِ العُمْيِ قومِ سبا
إن فيها آية ظهرت ... تُخبر الطلاب بالعجبا
برغيدِ العيش أنكده ... يطلبون البعد والتعبا (١)

إن في ذٰلك لآية وكفاية ، ولا تحسبن الله يقصُّ عليك هٰذا الحديث عبثاً ، ولٰكن أنت المراد ، فإياك ثم إياك والتصاممَ عن هٰذا الخطاب ؛ فيكون أيسرَ أحوالك العتابُ بشنيع الخطاب ، هٰذا الذي رجع عن

---

(١) إشارة لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ ۞ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۞ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

البــاب ، واســتخار البعدَ عن الاقتــراب ، وآثر مجالســة الأجناب علىٰ مشاهدة الأحباب ، وأشد حالاتك : الطرد والحجاب ، وأليم العذاب .

فــهٰذه بعض إشــارة إلىٰ تقبيح حــال من انحط عــن التجريد إلى الأسباب .

وأما المتسبِّب الذي أقيم في الأسباب وأريد بها .. فعلامة ذٰلك تيسيرُها ، وحصولُ النتائج فيها من المنافع الدينية ؛ من صلة أرحام ، وإرفاقِ ذوي الفاقات ، مع حفظ الأوقات ، وعدم الفرح بما أتىٰ ، والتأيُّسِ علىٰ ما فات (١) .

فإذا ظهرت هٰذه العلامات .. علم بأنه مرادٌ بالمقام فيها ، فليحسن في مقامه بتحليل حلاله وتحريم حرامه ، ولا يطلب الخروج عنها بنفسه ؛ حتىٰ يكون الحق هو الذي يتولىٰ إدخاله وإخراجه ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ علىٰ هواي وسائر أعدائي ؛ فالمدخل الصدْقُ والمخرج الصدْقُ : أن تدخلَ في الأشياء وتخرج عنها كما ذكرنا لك .

ومن آداب المتسبب بل وظائفه وعلامة صدقه : ألا يحتجب بالأسباب عن مسببها ، ويكون اعتماده علىٰ حول الله وقوته في جميع ما يأخذ ويدع .

ومن وظائفه : مراعاة القوانين الشرعية فيما يصحُّ له الإقدام عليه ، وما يطلب منه فيه الإحجام عنه ، ويأخذ من الفقه كلَّ ما يحتاج إليه من كل ما يريد الدخول فيه والتلبُّس به ؛ فما يقوم بوظائف الأسباب إلا الأقوياء الكُمَّلُ العالمون بدقائق المعاملات .

---

(١) التأيُّس والتأييس بمعنىً .

وإذا قام بما ذكرنا .. فقد أدىٰ حق السبب ووفىٰ بمقامه ، وهو أيضاً مقامٌ شريفٌ أُقيم فيه جماعة من أكابر الصحابة وجهابذة العلماء ، فإذا قام بما ذكرنا وتحقَّق بما وصفنا .. فلا يطلب الخروج منها ؛ حتىٰ تدفعه الأسباب إلى الله ؛ أي : تتركه .

والمتجرد إذا تركته الأسباب .. فلا تتيسَّر له أسبابها ، وتُغلَق دونه أبوابُها ، وتخطفه الحقائق ، وتنسلخ عنه العوائق ، فإذا كان كذٰلك .. الله يقيمه مقاماً حسناً ، ويكلؤه كلاءةً مريَّة ، ويُحييه حياة طيبة ، ويغذيه بعيشة هنية ؛ بأن يملأ قلبه نوراً ، وفرحاً وحبوراً ، ويوصل إليه ما قدره له ، ويكفيه همَّ ذٰلك ؛ بأن يُيسِّر له من يوصله إياه : إما من أبناء جنسه ، وإما أن تمدَّ له موائدُ الغيب ، فتكون له أرزاقاً معنوية ، وأقواتاً خلدية قُرْبيَّة ، تتلوَّنُ له كما تتلوَّنُ لأهل الجنة ، فقد يكون من ذٰلك في الدنيا لبعض المرادِينَ ؛ كما كان لابنة عمران ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ولا نَصَبٍ ولا عقاب ، فهٰكذا يعامل الأحباب .

مَنْ قامَ للهِ في الأحوالِ قامَ لهُ ... كلُّ الوجودِ بتسخيرٍ وتيسيرِ

* * *

ولنرجع إلىٰ شرح كلام المؤلف بلا تطويلٍ ولا إكثارٍ ، قال رضي الله عنه :

## سَوَابِقُ ٱلْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ ٱلْأَقْدَارِ

الهِمَّةُ : قوةٌ في النفس يتحصَّلُ عند توجُّهِها إلى الشيء بإذن الله تأثيرٌ .

وقد أشار بالسبق إلىٰ قوة التأثير وسرعته[١] ، وحيث أطلقت . . فتعلقها بالفضائل واستعمال كل وسيلة من وسائل الخيرات ؛ لطلب المنازل العالية ورفيع الدرجات ، وسنيِّ الحالات ، والنزوع عن مواطن الرذائل والغفلات ، إلىٰ فسيح المكارم ونيل المقامات ، وبواهر الكرامات .

وكل هِمَّةٍ إلىٰ غير ذٰلك . . فهي من المكر ، ولٰكن [ تدخل ] من حيث حدُّ الهمة .

ومع ذٰلك ـ أي : كونها مؤثرة سريعة التأثير ـ فهي موقوفةٌ علىٰ مشيئة الله وقدرته ، فمتىٰ لم تجد نفوذاً في سُورِ القَدَرِ الإلٰهي . . لم يكن لها تأثير في شيء ألبتة ؛ فالتخصيص الإرادي والإبراز القَدَري أصلُ بروز الممكنات ، والهمم السوابق والعزائم الخوارق آثارٌ وفروع عنهما ؛ فلا تتعدىٰ هِمَّةٌ دون قدرة الله وإرادته .

والهمة : قوتها وضعفُها علىٰ قَدْرِ ما عند الإنسان من الاستعداد ، والهِمَّةُ سفينة العارف في بحار الوجود ؛ بها يترقَّىٰ عن حضيض الحظوظ والشهوات ، وبها يخترق المنازل الروحانيات ، وهي بُراقُ السالكين ، وبرهان الواصلين ، وبها سار من سار علىٰ الماء ، وبها طار من طار في الهواء ؛ لٰكنْ قوّةُ نفوذها وسرعة تأثيرها علىٰ قَدْرِ ما عند السالك من

(١) في النسخ : ( وقد أشار بالسبق يشير إلىٰ قوة التأثير وسرعته ) .

الاستعداد ، فإذا توجَّهت في فعل شيء لم تبرزه القدرة . . **عادت كليلة ،** أو في دفع شيء وقد سبق في سابق العلم تقديره . . **ظهر في الوجود تأثيرُهُ** ، ولم تدفع عنك الهمَّةُ تقديره ، **ولي في ذٰلك :**

إنَّ الهِمَمْ تحت حكم الأمر دائرةٌ … فليسَ تنفذُ فيما صانه القدرُ

فهمة المرء ما لم تلقَ منفذها … في سور الأقدارِ لا يَظْهَرْ لها أثرُ

❊ ❊ ❊

**فحيث علمت** : أن لا لشيءٍ تأثيرٌ في شيءٍ دون إرادة الله وقدرته . . **فعلامَ العناء ؟!** وفيم الاعتناء ؟! **فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

## أَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ هَمِّ ٱلتَّدْبِيرِ ؛ فَمَا قَامَ بِهِ عَنْكَ غَيْرُكَ . . لَا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لِنَفْسِكَ

إراحةُ النفس في الكفِّ عما ليس من شأنها ، والتدبير من نعت الربوبية ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ، ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فالتدبير فيما كفيت ، والتعرُّضُ لما عنه نهيت . . **أشدُّ تعباً وأعنىٰ نصباً** .

فما لك ـ **أيُّها المسكين** ـ والتدبيرَ في أمورك وقد كفاكها عنك غيرُك ؟! ومع كونك تتعب وتنصب فلا يغني عنك تدبيرك ، ولم ينفذ تقديرك ، **فكن بتدبير الله لك** ، لا بتدبيرك لنفسك ؛ **فالتدبيرُ والاختيار** لمن له الإرادة والاقتدار ، وذٰلك الله الحكيم القهّار ، **فشأن العبد : ألَّا** يزاحمَ مولاه فيما انفرد به .

وكل تدبير ندبك الشرع إليه فليس يدخل تحت مطلق الذم على التدبير ؛ **فكل تدبيرات الشرع** لا منك ولا إليك ، فاسمع وأطع ، **وإنما التدبير المذموم** : أن تدبِّرَ في المقسوم ، أو تتَّهِم في المعلوم ، فما قُدِّر . . فلا بدَّ أن يكون ، وما لا . . فلا ، فماذا **يغني تدبيرك** ، وماذا يجدي اختيارك وتقديرك ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه من تدبيرهم واختيارهم ، **ولي في ذٰلك** :

يا من يدبِّرُ أمراً وهو ليسَ له ... في خِيرة الله تدبيرٌ ولا قدرُ
إن كنتَ لا بد مختاراً فخِيرةُ من ... بيَدِهِ الأمرُ والتدبيرُ والقدرُ
فَدَبِّرِ اَنْ لا تُدبِّرْ في الأمور وكُنْ ... كالميِّت الفانِ لا عينٌ ولا أثرُ

❁ ❁ ❁

**فشأنك أيها المسكين** : أن يكون فكرك وتدبيرك فيما ندبك إليه سيِّدُك من القربات ، ودعاك إليه من الموافقات ، وتدبَّر ما مضىٰ ، ولا تهتمَّ بما هو آت ؛ من الأسباب الدنيويات إن كنت ذا بصيرة ناظرة ، وسريرة صافية ، وروح حاضرة ؛ فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## اِجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ .. دَلِيلٌ عَلَى ٱنْطِمَاسِ ٱلْبَصِيرَةِ مِنْكَ

الاجتهاد : هو بذل المجهود في طلب المقصود ، وليس مقصوداً غيرُ الله أو ما يقرّب إلى الله ؛ فمن بذل مجهوده لمقصودٍ غيرِ الله .. فهو ذا بصرٍ مطموس ، وعقل معكوس .

والمضمون : هو الرزق المقسوم ، والنصيب المعلوم بقوله وقولُهُ الحقُّ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ... إلىٰ غير ذٰلك من الآيات .

وقال في المطلوب منك : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ، وقال : ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ... إلىٰ غير ذٰلك .

فتقصيرُكَ فيما خُلقت لأجله ، ونُدبت إلىٰ فعله ؛ وهو العبادة لله بالذلة والانكسار ، والمسكنة والافتقار ، وكثرة الأذكار ، وصفو الأفكار آناء الليل والنهار ، واجتهادُكَ فيما ضُمن لك ، واعتراضك على الأقدار ، ونظرك إلى الأغيار محجوباً بسحب الآثار عن النافع الضارّ ، المقدِّر المختار .. دليلٌ على انطماس البصيرة منك ؛ أي : غيبتِها واستتارِ نورها عنك .

والبصيرة : هي نظر القلب بنور الله ، فليس للبصيرة نظرٌ إلىٰ غير جمال الله وجلاله ، وكمال قدرته ، وحسن أفعاله ، فمن نوّرَ الله عين بصيرته ، وجلا صفو سريرته .. لم يؤثِرْ على اللهِ غيرَهُ ، ولم يترك فيه

لغيره بقية ، ورضي بالله ربّاً وحاكماً ، ومدبّراً ومقدِّراً ، وبذل وسعه في عبادته ، وسلك طريق هدايته ، ولم يجتهد إلا فيما يقرّبه لديه ، ولم يعوِّلْ إلا عليه ، فضلاً عن أن يتهمَهُ في ضمانه ، أو أن يقاومَهُ في مملكته وسلطانه .

وقد أحسن الأدب في عبارته وبديع إشارته ؛ فعبارته أقربُ للأدب ، وأوفق لنيل الأرب ؛ حيث عبَّر بـ ( طُلِبَ ) بصيغة ما لم يسمَّ فاعله ؛ إشعاراً منه بشرف الطالب ، فبين عبارة ( طُلِبَ ) و( طَلَبَ ) ما لا يخفىٰ لمن له أدنىٰ ذوقٍ في فن الأدب ؛ لأن طلبه علىٰ سبيل التعبُّد والملك والسلطان ، لا علىٰ سبيل التلقي والاسترفاد ، وطلبه لك لا لحاجته إليك ، ولٰكن من عظيم منَّتِهِ عليك ، وسبوغ نعمته لديك : أن عرَّفَكَ طريق نجاتك ، وما فيه سعادتُكَ في حياتك ومعادك .

وقوله : ( اجتهادك ) ليس تقبيح علىٰ طلب المضمون على الإطلاق ، ولٰكن إن اقترن به تقصير فيما طلب .

يا من سعىٰ في طلَبْ ما كان يطلبه ... ممَّا تَضَمَّنه الرَّزاقُ في القِدَمِ
يأتيك رزقك من لا حيثُ تحسُبه ... إن تتقِ اللهَ تُعْطَ من يد الكرمِ
فبادرَنَّ بما في الوقتِ يطلبه ... ولا تطالِبْ بما قد خطَّ بالقلمِ
فأكمَهُ القلب مَنْ يَطْلُبْ مآربَهُ ... ومُطْمَسُ النورِ محبوسٌ في الظلمِ

فحيث اجتهدت فيما ضمن لك ، وتركت ما طُلِبَ منك . . فحقيقٌ أن ينوه عليك بطمسِ البصيرة ، والازورار عن المحجَّة المنيرة ؛ فالمضمون : هو ما يقوِّم بالأَوَد[1] ، ولا يتقيد بوقت دون وقت ، ولا طعام دون طعام ،

---

(١) الأَود : الاعوجاج .

ولا يقــدر من كثــرة أو قلة ، وقد قــدر الله الأرزاق وأوقاتهــا وأقدارها وأوصافها ـ في أي وقتٍ وحالٍ ومكان وما هي ـ قبل بروز المرزوقين إلىٰ عالم الخلق .

* * *

وكذٰلك كل ما وعدك به من إجابة دعاء .. هو أعلم بوقته ومكانه ، فإياك واستبطاءَهُ ؛ فقد وعد عباده بإجابة دعائهم ؛ كما وعدهم بإيصال أرزاقهم .. فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ إِمْدَادِ ٱلْعَطَاءِ مَعَ ٱلْإِلْحَاحِ فِي ٱلدُّعَاءِ . . مُوجِباً لِيَأْسِكَ ؛ فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ ٱلْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ، لَا فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي تُرِيدُ**

**العطاء هنا** : هو ما رفعته إليه من حاجاتك ، أو أنزلته به من مهماتك ، فيما تزعم أنه عطاء ، أو تظنُّ أنه رفعُ بلاء ، فلا يكن همُّكَ من دعائك الظفَر بمطلوبك . . تكن متحكماً عليه ؛ **فالمنعُ منه عطاء** لمن كُشفَ عنه الغطاء ، **والبلايا** حيث أشهدك تعرُّفه إليك . . **هدايا** ، فلا يكن تأخُّرُ ما طلبت موجباً ليأسك .

قال صلى الله عليه وسلم : « **يستجابُ لأحدِكُمْ ما لم يعجلْ ؛ يقول : دعوتُ فلم يُستجَبْ لي** »[1] ؛ فالاستجابة إليه لا إليك ، وفيما يختار لا فيما تختار لنفسك ، فلا تختص بمرادك دون مراده ، بل مرادك إن وافقَ الدعاءُ وقتَهُ ، وخصصت الإرادةُ فعله . . برز علىٰ وَفْقِ مرادك ، وسُمِّيَ استجابة عاجلة .

وقد خاف الأكابر من سرعة ذلك ؛ لما روي : « أن الله سبحانه إذا دعا العبد . . يقول الله : أخِّروا حاجةَ عبدي ؛ فإني أحبُّ أنْ أسمعَ صوتَهُ ، ويقولُ لآخرَ : عجِّلوا حاجته ؛ إني أكره أن أسمع صوته »[2] ، وهٰذا على الندور .

وأما في غالب الأحوال . . فإن الله يكرم أولياءه بإجابة دعائهم ،

---

(١) رواه البخاري ( ٦٣٤٠ ) ، ومسلم ( ٢٧٣٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » ( ٨/١٦٦ ) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ( ٩٣٤٤ ) بنحوه عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وفي ( ب ، ج ) : ( أخروا إجابة عبدي . . . ) .

وتعجيل مرادهم ، ولكن موقوف على مراده ، فلا يتقدَّمُ وقته ، ولا يتعدى حدَّه ؛ فمتى استعجلت الإجابة . . فقد تحكَّمت عليه في ملكه ، ولم ترضَ بقضائه ، ولم تصبر على بلائه .

ولا تخفى عليك مضادَّةُ هذه الأحوال للعبودية ، ومنازعتها للربوبية ، واتهمتَ من لا يخلف الميعادَ في وعده ، فيعود وبال ذلك عليك ؛ فإنه قال : « أنا عند ظن عبدي بي »[1] ، وقد أيست من الإجابة ، فيخشى أن تُعامل بسوء ظنك ، حيث قطعت بعدم الإجابة ، فيقال لك : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ .

فالإجابة لها أوجه ومقاصد ، فمنها ما يؤخر لآخرتك ، وهو الأنفع لك ، وفي بعض الأخبار : « يبعث الله رجلاً ، فيقول الله له : يا عبدي ؛ لم لا تَدْعُني وقد أمرتك بدعائي ؟! فيقول : قد دعوتك ، فيقول : ألم آمرك برفع حوائجك إليّ ؟! فيقول : بلى ؛ وقد رفعتها إليك .

فيقول الله : ما سألتَ شيئاً إلا أجبتُك فيه ، لكن أنجزت لك البعض في الدنيا ، وما لم أنجزه في الدنيا . . فهو مدَّخر لك ، فخذه الآن ، فيقول ذلك العبد : ليته لم يقض لي حاجةً في الدنيا »[2] .

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من داعٍ يدعو إلا استجابَ الله دعوته ، أو صرف عنه من السوء مثلَها ، أو حطَّ عنه من ذنوبه بقدرها ؛ ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم »[3] .

---

(١) رواه البخاري ( ٧٤٠٥ ) ، ومسلم ( ٢٦٧٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ١/٤٩٤ ) بنحوه عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

(٣) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » ( ١٠/٤٤٣ ) ، وهو عند الترمذي ( ٣٥٧٣ ) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

فـإذا علمت ذٰلك . . فاعلـم : أن الدعاء أيضاً قـد يتلقّىٰ من البلايا ويدفع مـن الذنوب والخطايا ما لو تحقّقت بعـض ذٰلك . . لكنت تودُّ على الكشف أنها لم تقضَ لك حاجة ؛ كما يُرىٰ ذٰلك في الآخرة عِياناً .

ومـن الدعاء : ما يظهر أثره في المدعو فيه إلا أنه قد يكون عاجلاً ، وقد لا يأتي وقته إلا بعدُ ؛ كما في دعاء موسىٰ صلى الله عليه وسلم علىٰ آل فرعون حيث قـال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، قـال الله جل ذكـره : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ لٰكن لم يـأتِ إلا بعد إبّان وقـت نفوذها ، وظهور تأثيرهـا ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الذين يسـتعجلون الإجابة ؛ لجهلهم بالمقادير الإلـٰهية في الأزمنة والأحوال والأعمال ؛ هـٰذا في الإجابة .

أما في الدعاء . . فالخلق فيه ثلاث طبقات : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة .

فأما العامة . . فحالهم في دعائهم وغاية مقصدهم الظفر بحاجاتهم ، ونيل مراداتهم ، فلا يخفىٰ قصور هـٰذه الطبقة ، ودنو هممهم ، وقلّةُ أدبهم بين يدي سيدهم .

وأمـا الخاصة . . فهم فـي الدعاء بحكم العبودية ، حيث سـمعوا قوله جلَّ ذكـره : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ فسـمى الدعاء عبادة ، بـل محض العبادة ؛ كمـا ورد ذٰلك عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم[1] ، وذٰلك من

---

(١) روى الترمذي ( ٢٩٦٩ ) ، وأبو داوود ( ١٤٧٩ ) ، وابن ماجه ( ٣٨٢٨ ) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة » .

رحمته بعباده ؛ حيث ندبهم إلىٰ ما فيه غاية آمالهم ، وأقصىٰ رغباتهم ، وأشرف مقاماتهم ، وأيُّ شرفٍ أشرف من مناجاة الحبيب ، والدنو إلىٰ مقامات التقريب ؟!

وما اكتفىٰ لهم بمطلق الدعاء حتىٰ قال صلى الله عليه وسلم : « **إن الله يحبُّ المُلحِّين في الدعاء** »[1] ، فما أعظم فضل الله عليك ، وأجزل مواهبه لديك !! ومع الإلحاح أيضاً يقال : إن الله يقول : « **أخِّروا حاجة عبدي ؛ إني أحبُّ أن أسمعَ صوته** » كما قدمنا ذٰلك[2] ، فالحمد لله علىٰ ذٰلك .

فحاجةُ العبد إلى الله وإن قُضيت حاجة . . **تجدَّدت له إليه حوائجُ اضطرارية في دوام أنفاسه** ، وتوالي حالاته ، وكرور أوقاته وأيامه ، وشهوره وسنينه ، **وهٰذه من سوابغ نعمه ؛ حيث لم يقطعك عنه ، ولا** جعل حوائجك إلىٰ واسطة دونه ؛ لتكون له نجياً .

**وأما الطبقة الثالثة** ؛ وهم خاصة الخاصة . . **فالباعث لهم على الدعاء** منازلة سيّدِهم ، وتعطُّفُ مليكهم ؛ حيث يقول مولانا جلَّ ذكره : ( **لبيك يا عبدي** ) إذا قال العبد : ( يا رب ) كما روي ذٰلك في بعض الأخبار : ( أن موسىٰ صلى الله عليه وسلم قال : يا رب ؛ قال الله له : لبيك ، فقال : يا رب ؛ هٰذا لي خاصة ، أو لعبادك عامة ؟ قال : **بل لكل من دعاني بهٰذا الاسم** ) أو كما قال .

---

(١) رواه الطبراني في « الدعاء » ( ٢٠ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ١٠٧٣ ) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعند البخاري ( ٢٩١٥ ) من قول الصديق رضي الله عنه : ( حسبك يا رسول الله ؛ فقد ألححتَ علىٰ ربك ) .

(٢) انظر ما تقدَّم ( ص ١٣٠ ) ، وفي ( ج ) : ( أخروا إجابة عبدي . . . ) .

فهٰؤلاء ليس لهم غرض في مطلوب ، ولا خوف من مرهوب إلا حب تلبية ربهم ، وتعرُّضاً لمجاورته ، ولذيذ محاورته ، وصافي مواصلته ، فأيُّ عطاءٍ أفضل من ذٰلك ؟! وأي حاجة أنجح مما هنالك ؟! وفقنا الله لذٰلك ، وأتحفنا بما هنالك ، وسلك بنا أشرف المسالك ، وصرفنا عن المعاطب والمهالك ؛ إنه ولي ذٰلك .

فاليأس من رَوْحِ الله وصف الكفر ، ونعت الجاحدين ، حيث أخبرنا علىٰ لسان نبيه يعقوب حيث قال : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ وهو تفريج ما هم فيه من الكروب ، والظفر بالمطلوب ، ونيل المرغوب علىٰ أسرِّ حالٍ وأهناه ، وذٰلك ثمرة حسن ظنه بالله ، حيث أمر به من لم ينله ما ناله من الحزن والكرب[1] ، فهنا يتحقق حسن الظن أو اليأس والإبلاس ، فلم يوجب له ما ناله بأساً ، ولم يلحقه يأساً ، فعلىٰ مثل هٰذه الحالة فكن ، وأما مع مساعدتك بقضاء حوائجك ونيل مآربك . . فلم تتحقق لذٰلك إلا هنالك ، ولي في [ ذٰلك ] :

ففي دعا العبدِ ٱلىٰ مولاه مكرمة ونيل حاجته من كلِّ مرغوبِ
فكن طريحاً علىٰ أبواب عزَّته عَنِ اختيارِكْ وعَنْ حالَتْكَ مَسْلوب
لا ييئس العبدُ من تأخير حاجته فالعبد للرب بالتسليم مطلوب

* * *

فإياك والشكَّ ؛ فالشك أيضاً من صفات الكفر وشيم المُبعَدين ، قال الله جل ذكره : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ هٰذا في الشكِّ في الله ،

---

(١) إشارة لقول سيدنا يعقوب ـ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ـ لأولاده : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، فكان ما كان من أمر سيدنا يوسف عليه السلام .

والشكِّ فيما عند الله ، وما وعد الله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أعاذنا الله من الشك بعد اليقين ؛ فلذلك قال المؤلف بإثر هذه الحكمة مشيراً إلىٰ معناها ، وناصّاً لمبناها ، قال رضي الله عنه :

لَا يُشَكِّكَنَّكَ فِي ٱلْوَعْدِ عَدَمُ وُقُوعِ ٱلْمَوْعُودِ بِهِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَٰلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْمَاداً لِنُورِ سَرِيرَتِكَ

فحيث وعدك الحق وعداً . . فهو لا يخلف الميعاد ، فمتىٰ شككت في صدق وعده ، واستبطأت وجود عونه ونصره . . فذٰلك قدحٌ ؛ أي : نقصٌ في بصيرتك ، وهٰذا دون ما سبق من اليأس عند تأخر العطاء ؛ فإشارته في اليأس إلىٰ طمس البصيرة أبعد وأكثفُ من القدح فيها ؛ فإن القدح فيها مع وجودها أخفُّ من الطمس لأصلها .

فـإذا فهمتَ ما ذكرنا لك . . علمتَ أن الشـك هنا ليس من الشـك في الله ، ولا من الشـك فيما عند الله ، من حيـث التكذيبُ بما وعد ، ولٰكن مـن حيث تجويزُ عـدم وقوعه من حيث العدلُ ، وإن له أن يمنع ذٰلك أو يفعل مثلاً .

ومثل هٰذا التشكيك في عدم وقوع الموعود به قد يخالج قلوب بعض المؤمنين سيما إذا تعيَّنَ زمنه ، ولٰكن من علامات مباشرة الإيمان للقلوب ، وانكشاف أستار الغيوب بصريح الإيمان ، وإشراق أنوار الإيقان : أن يكون الإنسان حسنَ الظنِّ بالله ، ويقطع بصدق وعد الله ؛ ثقةً منه بأنه يفعل معه الفعل الحسن ، كما جرت به سنة الله بأنه يفي إذا وعد ، ويلوي ـ أي : يعفو ـ إذا أوعد .

فإذا عُدم وقوعُ الموعود به . . فليعلم العبد عند ذٰلك : أن لله في الأمور علماً استأثر به دون خلقه ، وليعلم أن هناك حكمةً اقتضت التأخير أو عدم الوقوع ؛ إما لتأخر شرطٍ قد قدر مقارنته له في سابق علمه ونافذ حكمه ، فلا تتغير الحكمة الإلٰهية لأجل حظك وتحقيق مرادك .

فمتىٰ شككت في وعد الله وأردت غير مراد الله . . كان ذٰلك قادحاً في بصيرتك ، مُخمِداً نور سريرتك ، والبصيرةُ هي للقلب كالبصر للقالب ، والسريرةُ : هي نور ذٰلك البصر القائم بذٰلك البصر ، والخمودُ : خبوُّ إضاءتها وانتشارها في أرجاء القلوب ، وكمونها تحت أستار كنائف الشهوات وظُلَم الذنوب مع بقاء أصلها .

فالشكُّ في الطرف الأقرب إلىٰ جانب اليقين من اليأس ، كما أن الظنَّ أقربُ أيضاً من الشك ، فكأنك تيقَّنت وعدَ الله ، لٰكن حيث لم يأتِ علىٰ ما ظننت سيما وقد وجدت مخايل إبَّان وقوعه ؛ كاضطرار ، ووجود إعسار ، واحتباس أمطار ، وصبر عند مقاتلة عدو لطلب الانتصار ، وغير ذٰلك مما وعد به من اليُسر مع العسر ، والنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ؛ فمع عدم وقوع ذٰلك عند تعين أزمانه . . فلا ينبغي لمن كان ذا بصيرة وصفو سريرة أن يشكَّ في وعد الله .

فالموعد صادق والوعدُ حقٌّ ، فلا يشك العبد في وعد سيده ومولاه ، وليطمئن إلىٰ وعده ، ويعلم يقيناً أنه واقعٌ ليس له مانع ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، فإياك أن تسيء الأدب . . فينالك التعب والنَّصَب ، ولي في ذٰلك :

فلا تشكنَّ في الموعود إن له ... وقتاً متىٰ حان جا بالفتحِ والفرجِ
لا تَخْمَدَنَّ لنورِ السِّرِ وٱعْزِلَهُ ... مِنْ هَمّك أَوْ شَكِّكَ المقرونِ بالحرجِ
كم ما تضيق أمر العسر كان له ... من الفَرَجْ مَخْرجٌ والضيقُ منفرجِ

❁ ❁ ❁

قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا فَتَحَ لَكَ وِجْهَةً مِنَ ٱلتَّعَرُّفِ . . فَلَا تُبَالِ مَعَهَا وَإِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ . . إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱلتَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَٱلْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ؟! وَأَيْنَ مَا أَنْتَ مُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟!

هٰذه الحكمة أصلٌ لما بعدها ، وهي تحتوي علىٰ معانيهما ، وإنما أتىٰ بهما زيادةَ إيضاح ، وتفصيلاً لما أجمله ، وتحقيقاً لما فصَّله ؛ فلذٰلك عبَّر بـ ( فتح ) .

فالفتح : أثرٌ من آثار اسمه الفتَّاح ، وهو لأعيان الوجود ومنازلات الشهود مفتاح ، فإذا اختص الله به عبده . . كان له من أخصِّ العطايا ، وأعظم المنن وأشرف الهدايا ؛ فلذٰلك كان آيةَ محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء ، وكان لخواصِّ أمته من ذٰلك نصيب : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والفتح : هو واردٌ رباني ، ونفسٌ رحماني ، تُفاجأ به القلوب من مصونات الغيوب ، وهو يعطي الكشف العرفاني ، والاختصاص الامتناني ، فإذا أُتحِفَ به عبد ، وكُشِفَ له عن مصونات الأسماء ، وقام لها بما تستحقه من آداب العبودية ، وتلقىٰ ما تعطيه من ذخائر العطاء تحت أستار الابتلاء . . فكلُّ ما واجهه منها عطيةٌ وافية ، وحكمة شافية ، ومرتبة قريبة ، فيكون معها العبد بحكم ما تعطيه ، لا بحكم طبعه وتمنِّيه ، فيكون بحكم ما أقيم فيه : إما شكراً أو صبراً ، أو شهودَ منَّةٍ أو توبة ؛ فهي لم تأتِ إليك إلا بما أودع فيها من أسرار تعرُّفه ، « لو لم يكن الذنب في بعض الأحيان خيراً للمؤمن من العجب . . ما

قُدِّرَ عليه . . . » الحديث[1] ، فإنه يريد أن يتعرَّف إليك في كلِّ شـيء حتىٰ لا تجهله في شيء .

ففرض العارف : الفناءُ في الأفعال ، ونوافله : الأسماء والصفات ، وغاية مطلبه ومَحْتِدُ همته : الذاتُ ، كما أن فرائض العموم : الصلوات والصيام والصدقات ، ونوافلهم : سائر طرق الخيرات .

فإذا تقرَّب الخلق بصيامٍ وصدقةٍ وصلاةٍ . . تقرَّب العارفون بمحو صفاتهم ، واستهلاك ذواتهم ؛ فمن كانت حالته الفناء والاضمحلال . . فلا يبالي وإن قلَّت منه الأعمال ، كيف يبالي بما فات وهو مطالعٌ لجمال الذات في جميع الذوات ، وتجلِّي الصفات علىٰ دوام الأوقات ، ووجدان المواصلات والصلات ، الموهبيات في الملائمات والمؤلمات ؟!

فإذا طالع حسن التدبير وبديع التصوير وعجائب التقدير . . علم أن تدبير الله واختياره له أتمُّ من تدبيره لنفسه ، وتحقَّق أن ما أورده الله عليه من صنوف البلاء متضمنٌ له علىٰ منن وألطاف وإسعاف بعطاء جزيل ، وعلم يقيناً أن المنع عين العطاء .

وتعبير المصنف رحمه الله بـ ( الفتح ) . . من بديع حكمته ، وذكاء فطنته ، وبـ ( الوجه ) وبـ ( التعرف ) ، فإن الفتح يعطي الشهود ، ومعرفة حقائق الوجود ؛ فلقد أحسن وأتقن .

---

(١) وهو ما رواه أبو الشيخ عن سيدنا كليب الجهني رضي الله عنه كما في « كنز العمال » ( ٧٦٧٢ ) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » ( ٤٤٧١ ) قال : « قال الله عز وجل : لولا أن الذنب خيرٌ لعبدي المؤمن من العُجْب . . ما خليتُ بين عبدي المؤمن وبين الذنب » . وقد روى البيهقي في « الشعب » ( ٦٨٦٢ ) عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ وقد سُئل : ما الذنب الذي لا يغفر ؟ قال : ( العجب ) .

وتعبيره أيضاً بـ ( فتح ) باستتار ضمير الفاعل . . ينبئ أيضاً أن ذٰلك من قبل الله ، لا للعبد فيه علة ، ولا يتوصل إليه بحيلة ، بل ذٰلك من باب المنة التي لا تترقب بوقت مخصوص أو عمل ، بل لا سبيل إلىٰ فتوح المعارف ، وإشراق وجوه اللطائف ، ومحو ظلمات الكثائف إلا بمساعدة عناية ربانية ، وجذبة اختصاصية ونفحة إلـٰهية ، وتعريضة وقتية ، ونفس رحمانية دُرِّية غيبية ، في الأيام الجمالية الأزلية .

والفتح يكون في كل مقامٍ بحسبه ؛ فيكون في أسرار الشرائع والأعمال ، وفي دقائق طرائق الأحوال ، وفي مطالعة صفاء الأسرار وفسيح تنزُّه الأرواح في مسارح الجمال ، ومنائح المعارف وروائح نفحات الوصال ، وفي مطالعات محرقات الجلال ، وقد يكون لأهل الوصال ، بالتلاشي والاضمحلال ، عند ظهور سلطان الكمال .

ووراء ذٰلك فتوح ومنوح لم تجر ولا يفي بها التعبير والمقال ، ولم تدخل تحت التكييف والمثال ، ولم تخطر بعدُ علىٰ بال ؛ مما لو بدت غبرةٌ من رمال بحورها الطافحة وأسرارها اللائحة . . لذابت لها صمُّ الجبال ، ولم يقوَ علىٰ سماعها سمع ، ولم يحتمل أثقال مقالها حال .

وفتوح وجهة التعرُّف لا يكون إلا عند مطالعة الجمال والجلال ، والجمال في الجلال ، والجلال في الجمال ؛ فهو موردُ ذٰلك عليك ، فافهم الإشارة في قوله : ( مورده عليك ) : أنه مما لا يلائم طبعك ، فهو مورد ذٰلك إليك ، ومع كونه مورِدَهُ عليك . . فهو متفضِّل ومتطوِّلٌ به عليك ، فاعرف قدره ، فذٰلك خارج عن وسعك ، وقاصر عنه فهمك حتىٰ فتح وجه تعرُّفه إليك فيه .

ووجه التعرُّف : هو أن يرزقك الفهم عنه فيما منَّ به عليك ؛ من رفع

درجات ، وزيادة حسنات ، وتكفير خطيئات ، مما لا يحصىٰ شكره من الفضائل والنعم والمِنن ، في بواطن البلايا والمحن ، وإليه الإشارة بقوله جلَّ ذكره : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ .

الظاهرة : ما ظهر من نعم الطاعات والموافقات ، والدلالات النبويات ، والطرق العلميات ، والأعمال البدنيات ، وغير ذٰلك من سائر النعم الحسيات ، وباطنة : من المثوبات والقربات ، والتعرُّفات الربانيات ، في بواطن المحن الدنيويات ، وما لك في ذٰلك من المصالح الدينيات والدنيويات ، مما يطول تعدادها ، وتكثر أعدادها ، وقد أومأت إلىٰ بعض ذٰلك الآياتُ القرآنية ، والأحاديث النبويات ، وشرحَتْ أبعاضاً منها أفاضلُ السادات ، وقد شوهدت بركاتها وبواهر آياتها عليهم ، وأينعت ثمراتُها لديهم .

وأين ما أورده إليك من ذٰلك مع غيبتك فيه عن حولك وقوتك ، وإدلالك بأعمالك وعلومك مما أنت مهديه إليه من أعمالك وطاعتك المشوبة بظلمة نفسك وإعجابك وطلب حظِّك من الجزاء ؟!

وماذا تطلب من جزاء علىٰ عملٍ هو متفضِّل به عليك ، ومقبل بهدايته إليك ، وما عسىٰ أن تخلص من مطالبة الإخلاص فيه من الرياء وآداب الاقتداء ، وما علمت أنك في عملك وطاعتك أحوج إلى الاعتذار مما اقترفته في حال تلبُّسك من الأوزار ، مما تستحق به دخول النار ، لولا تفضل الكريم الغفار ؟! فإذاً ؛ أنت فيه أحوج إلى الاستغفار .

وما هو مورده عليك سالمٌ من ذٰلك ، بل فيه من مضادة هوى النفس ما لا يخفىٰ علىٰ من تحقَّق بمجاهدة النفس ، فمن ذٰلك ضعف قوتها وسدُّ أبوابها ، سيما ومن ذٰلك الحمَّىٰ والفقر وغير ذٰلك من منغصاتها ؛

من وخيم مرعاها ، ومشؤومات هواها ، فإلىٰ ذٰلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إنها ـ أي : الحمىٰ ـ طهورٌ »[1] أي : عن الخطايا والأوزار ، وحديث : « يدخل فقراء أمتي الجنةَ قبل الأغنياءِ بنصف يومٍ ، وذٰلك خمسُ مئة عام »[2] ، وغير ذٰلك مما لو بسطناه . . لأدىٰ إلى الإكثار ، وقصدنا في ذٰلك الإشارة والاختصار .

فإذا علمت ذٰلك . . ظهر لك وجه استلذاذهم للبلاء ، ورؤيتهم لها أنها منح ؛ مثل ما يروىٰ في ذٰلك عن الحكيم الترمذي[3] ، وما يحكىٰ عن أبي العباس ابن العريف ، فيما حكاه عن السادة الأصفياء ، الذين اختصوا بطريق الابتلاء ، الذي [ هو ] ثَمَرُ شجرةِ الاصطفاء ، وتحقيق طريق الاجتباء ؛ إذ ذُكِرَ فيها أبو الخير رضي الله عنه ونفعنا به ومن والاه من البدلاء الأصفياء[4] ، والمقربين الأخفياء كمحمد الإسفنجي ، وما حكاه عن شيخ طرسوس ، حيث قال : أشرفنا علىٰ خزائن العطاء ، فلم نجد عند الله شيئاً أقرب ولا أشرف من البلاء ، فسألناه إياه .

ثم قال بإثر ذٰلك مستحقراً ما نزل به ، راوياً عمَّن هو أعظم منه حالاً ، وأعلىٰ مقاماً ، وأشد بلاءً : كيف بك لو رأيت سيد الزهاد ، وقطبِ العبَّاد ، وإمام الأولياء والأوتاد ، في غارٍ بأرض طَرَسوس

---

(١) رواه البخاري ( ٣٦١٦ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي ( ٢٣٥٣ ) ، وابن ماجه ( ٤١٢٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) انظر « غيث المواهب العلية » ( ١/٧٢ ) .

(٤) يعني : ذُكر في الحكاية أبو الخير . . . إلخ ، وفي « غيث المواهب » ( ١/٧٣ ) : ( أبو الخيار ) بدل : ( أبو الخير ) ، والخبر منقول عن كتاب « مفتاح السعادة » لابن العريف رضي الله عنه .

وجبالهـا ، لحمُـهُ يتناثر ، وجسـده يسـيل قيحاً وصديـداً ، وقد أحاط به الذبـاب والقمـل ، فـإذا كان الليل . . لم يقنع بذكر الله وشـكره علىٰ ما أعطـاه مـن الرحمة ، وأسـكن جسـده مـن العافية [١] حتىٰ يشـد نفسـه بالحبل ، فيسـتقبل القبلة ، فيصلي عامةَ ليله حتىٰ يطلع الفجر . انتهىٰ ما أردنا إيراده في هٰذه .

فهٰذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أشدُّ بلاء ، والأمثل فالأمثل » [٢] ، فانظر كيف استلذُّوا ما تألَّم منه غيرهم ، واستلانوا ما استوعره البطَّالون ، ولم يروا أن ذٰلك بلاء ، بل رأوه منَّةً وعطاء ، يجب عليهم القيام بالشكر عليه .

فهٰذا وجه التعرُّف فيما يأتي من المنغِّصات والمؤلمات ، علىٰ خلاف ما تطلبه النفس من السكون إلى الراحات والمستلذَّات ، فإذا أشهدهم ذٰلك وحقَّقهم به . . فحريٌّ ألَّا يبالي وإن قلَّت الأعمال البدنيات .

مـن بعدِ مـا يفتـح المولـىٰ تَعَرُّفَهُ فـلا تبـالِ إذا أقللـت فـي العمـلِ
فمـا مـنَ الله تظهـرْ فيـه منَّتـه وما من العبد منسوبٌ إلى الخطلِ
فـكل مـا منـه محفـوظٌ بـلا ريـب وكل مـا منـك لا ينفـكُّ عن خللِ

فلا فلاح ولا نجاح للعبد إلا في الخروج عن المرادات النفسانية ، والشهوات الحيوانية ، وذٰلك حاصل فيما يتعرَّفُ به إليك ، ومرادها أن

---

(١) فـي ( أ ، ب ) : ( من العاهة ) بـدل : ( من العافية ) ، والمثبت من ( ج ) ، وهو موافق لما في « غيث المواهب » ( ١/٧٤ ) ، وهو الأليق .
(٢) رواه الترمذي ( ٢٣٩٨ ) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » ( ٧٤٤٠ ) واللفظ مقارب عنده ، وابن ماجه ( ٤٠٢٣ ) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

تعيش عيش المترفين ، وتتوصل بصالح أعمالها إلىٰ سعادة الآخرة ، فقلَّ أن تصفوَ تلك الأعمال مع ما ذكر من الإتراف وإسعافها بمراداتها وحظوظها ، فكان اختيار الله لعبده أن يخرجَهُ عن مراده إلىٰ مرادِ سيِّده ومولاه ، وفي ذٰلك منتهى الصلاح وغاية الفلاح .

* * *

قال رضي الله عنه كالمفرِّع إلىٰ ما أشار إليه من التعرُّف ، وأن تلك التعرُّفات آثارٌ عن الأسماء ؛ فلذٰلك قال :

**فالأعمال** : فروع ، **والأحوال** : أصولُ تلك الفروع ، **والأسماء** : أصولُ فروع الأحوال ، **والصفات** : أصولٌ للأسماء ، **والأسماءُ** : فروع ، وآثار الأسماء تظهر على القلوب ، وآثار **الصفات** تتجلَّىٰ على الأسرار ، **والقلوب** تظهر آثارها على الأعمال الظاهرة ، **والأسرار** تظهر أنوارها على النفوس الطاهرة .

**فغاية الإفاضة القلبيةِ** الأعمالُ القالبية ، **ومنتهى التجلياتِ السريَّةِ** الأخلاقُ السَّنية والحالات السُّنية ؛ **فكل فرعٍ من الأعمال** بحسَبِ ما شاكله من الأحوال ، **والأحوال** بحسب ما تقتضيه مظاهر الأسماء ؛ **فمن ذٰلك تنوَّعت أجناس العبادة** ، فالعباداتُ أنواع ، وهي للأحوال أتباع ، كما أن الأحوال تحت حكم الأسماء ، **فكلُّ اسم يقتضي** ظهورَ عبادة ؛ **فالذكر** باللسان ، **والصلاة** بالأركان ، **والزكاة** في الأموال ، **والصيام** بكف الشهوات واجتناب الآثام ، **والحج** أيضاً بالأركان .

فهي عبادة ، واختلفت أنواعُها لما علمت من افتراق الأحوال بحسَبِ اختلاف ظهور الأسماء ؛ فالأحوال آثارٌ للأسماء ، وإن شئت قلت : أنوارُها ، فكل اسم يطلب مقتضىٰ مظهرٍ من العبادات غيرَ ما يطلبه غيره ؛ **فلذٰلك تنوعت** الأعمال بحسب تنوع الأحوال التي هي آثار الأسماء .

**فمن الأسماء** : ما يقتضي مظهر التعلق والتألُّه ؛ **فله من الأعمال** الذكر ، **ومن الأحوال** الفكر .

**ومنها** : ما يقتضي مظهره من العبد الذلة والخضوع والخشوع ،

والتمسكن والتملق ؛ فله من الأعمال الصلاة ، ومن الأحوال الهيبة والتعظيم .

ومنها : ما يقتضي ظهوره من العبد الصبر والكف ، والخروج عن الوصف والهيكل التجويفي إلى التعلُّق والتخلُّق بالاسم الصمداني [١] ؛ فله من العبادات الصوم ، ومن الأحوال الاستغناء .

ومنها : ما يقتضي ظهوره وإشراق نوره التوجُّه والإقبال ، والقصد والامتثال ؛ فله من العبادات الحج ، ومن الأحوال الاستغراق والإقبال بكليته إلى المعبود ، والانطماس تحت مظاهر الشهود .

فهٰذا تنوُّع تجليات الأسماء ، واختلاف أجناس الأحوال ، وافتراق أنواع الأعمال ، وحال ما تلقي الأسماء على القلوب آثارها ، وتتجلَّىٰ عليها أنوارُها . . تسمَّىٰ أحوالاً .

وحال بروزها بمقتضاها ؛ أي : ما تقتضيه من التعبُّد . . تسمَّىٰ أعمالاً ، وما يرد على الأرواح من أنوار الصفات . . فتسمَّىٰ مقاماتٍ من حيث العبد .

وما يتأثر به من آثارها . . فهي تقتضي قيام القلب بمقتضىٰ وارداتها ؛ كما قام القالب بمقتضىٰ تجلِّيات الأسماء .

فحالات القلب أيضاً متنوعة ، ومقامات الأرواح متمايزة وإن اجتمعت من حيث الشهود .

فحالاتُ القلب كالبسط وله أنواع من جنسه ، والقبض وله أنواع من جنسه ، ومقامات الأرواح كذٰلك متمايزة كالهيبة والأنس .

---

(١) إذ من معاني ( الصمد ) : مَن لا جوف له .

وما تتلقّاه الأرواح عن الأسرار .. فليس هٰذا محله ، وسيأتي إن شاء الله ، ولي في ذٰلك :

تنوع ٱجناس أعمال الورىٰ فَهُمُ ... بحَسْب ما تثمرُ ٱحْوَالٌ كذا ٱنْوَاعُ
إن الفروعَ على الآصال دائرةٌ ... بحكم ما تُعْطِيُ الأسْمَاءُ أتباعُ

* * *

**فالأعمال لها من التزكية واللطف بحسب المحل القابل لما يرد عليه ، والمحل له من الصفا والوفا بحسب ما يلقىٰ عليه ؛ فلذٰلك قال المصنف رضي الله عنه :**

فالأعمال تتفاوت بحسب العاملين ، فصورةُ كل عمل مشاكلةٌ لحالة مَنْ صدر عنه ذٰلك العمل ، ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ .

فمن العاملين : من أعوز وجود الأنوار ؛ فعمله صورةٌ بلا روح ، **ومن العاملين** : من يقتبس من المشكاة القلبية ، وهم الأبرار المستصبحون بمضيئات الأنوار .

**وإخلاص كلِّ عاملٍ** بحسب مقامه ؛ **فحالة الأبرار** تخليصُ الأعمال عن شوائب العلل ، وإخلاص العمل من غير تشوُّف إلىٰ جزاء آجل ، أو حظ عاجل ، **فهٰؤلاء عاملون لله** بصدق المعاملة ؛ فهم مطالَبون بتصفية الأعمال عمَّا يفسدها ويبطلها ؛ كالتخلُّص عن الرياء وحبِّ الثناء والعُجْب والسمعة ، والالتجاء إلى الله بحسن الإنابة في قبول ذٰلك .

وكل عمل بلا إخلاص صورةٌ بلا روح ، فلا يصلح للعَرْضِ ، ولا تقبله سماءٌ ولا تشهد به أرض ؛ **فهٰؤلاء مقامهم ووصفُ حالهم** : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

**وأما إخلاص المقرَّبين** . . فهو خلاصة الإخلاص ، وتحقيق الصدق ؛ **فإخلاصهم** بعدم رؤيتهم نفوسهم في جميع الأعمال والأحوال ، **فهم قائمون بالله** فانون عنهم ، **فوصف حالهم وتحقيق مقامهم** : ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فلما استوىٰ علىٰ قلوبهم مشهد الفردانية ، وسلطان الوحدانية . . **فبالحري** : ألَّا يشهدوا لهم فعلاً ولا وصفاً ، وعند شهود شمس الأحدية

أَلَّا يشهدوا لهم ذاتاً ولا نعتاً ولا مقاماً ؛ فكم بين العامل لله مع وجود نفسه ، وبين القائم بالله مع غيبته عن نفسه ؟!

فالأول : مطالب بالإخلاص ، يعمل على خروج الخلق عن رؤيته ، فهو يترقَّىٰ في مراقي الإخلاص .

والثاني : طالبُ الخلاصَ عن شهود نفسه ، يتنزَّه في رياض خلاصه .

فبان لك تنوُّعُ أنواع الأعمال بتنوُّعِ أجناس الأحوال ؛ إلىٰ أبرارٍ يتقرَّبون بأنواع القُرَب إلى الله ، وإلىٰ مقرَّبين يتوصَّلون بتحقيق الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم بالله .

فانظر ماذا ترىٰ في قومٍ فارِّين إلى الله عن الخلق ، وفي قومٍ لائذين بالله وعائذين به عن أن يشهدوا لأنفسهم مع الله وجوداً ، ولأفعالهم مع أفعاله شهود حسنات أو اقتراف سيئات ، ولي في ذٰلك :

| | |
|---|---|
| اَلْأَعْمالُ أشكالٌ والإخلاص حالاتُ | والسابقون لهم في القرب آياتُ |
| فكلُّ حالٍ له في العاملين به | تخليص أعمال أو تحقيق حالات |
| شواهدٌ ظهرت في العاملين كما | ترىٰ فيِ العالمِ الأعلىٰ دلالات |
| إخلاص حالات أرباب اليقين لها | في مشهد العلم تحقيق الهدايات |
| وأرواح أجساد أعمال العباد هنا | كما لأحوال أصحاب المقامات |

* * *

ثم لما كان في الخمول ما يُحمدُ كلُّ صاحب مقامٍ علىٰ مقامه ، ويثبت فيه أقدامه ، ويعينه علىٰ بغيته ، ويحصل به في أقصىٰ مُنْيَتِه . . قال بإثر ذٰلك :

اِدْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ ٱلْخُمُولِ ؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ . لَمْ يَتِمَّ نِتَاجُهُ

قوله : ( ادفن ) هنا فيه إشارة عجيبة ، وترشيحة بديعة ، بل نقول : غِبْ عن شهودك بوجود معبودك ، وتمثيله بالدفن يشير إلىٰ أن الأَولىٰ بالمريد إيثار الخمول على الاشتهار ؛ لكونه معيناً له على الإخلاص ، ووسيلةً إلى الخلاص ، وأزكىٰ لأخلاقه وأعماله ، وأصفىٰ لأحواله .

والاشتهار غالباً أبعد عن ذٰلك في حق المبتدئين ؛ فما يقوم ويثبت مع شهرة الحال إلا كُمَّلُ العلماء وسادات الأبدال ، الراسخين في المعارف ، المتمكنين من الأحوال ؛ فلذٰلك حثَّ المشايخ على الخمول ؛ لما فيه من السلامة من القواطع عن نهج الوصول ، مع ما يحصل من صفاء الوقت عن المكدرات والمحركات لكوامن الأخلاق المذمومة والأحوال الملومة ؛ فلذٰلك حذروا كل مريد وسالك ، وعملوا كتباً ورسائل ؛ نصحاً وشفقةً علىٰ عباد الله ، وحَذَوا في طريق الأكابر ؛ لما فيه من الراحة العاجلة والسلامة .

وحد الخمول : هو ضعة النفس في المنازل ، عندما يتكرَّع القلب في المناهل ، فيتحرَّونه ويستديمون التخلُّق به حتىٰ يكون لهم التواضعُ خلقاً وحالاً ، فلا يجدون ألمَ ضعة النفس ، بل يستمرئونه ، ويستحلون ذوق الذلة ، فتتغير حالاتهم لفقدها ووجود العزِّ والجاه ، حتىٰ رُويَتْ عنهم في ذٰلك أحوال ينكرها عليهم ظاهرُ العلم .

وجوّز لهم ذٰلك تداوياً لما آلَم قلوبهم ، وكدَّر حالاتهم ، وأمرض أحداق بصائرهم ؛ حتىٰ يتوجَّهَ إليهم الخلق بالذمِّ وعدم المنزلة عندهم ؛

فيعودوا حينئذ إلىٰ أحوالهم بالذم والإيذاء بمحو صفات النفس المذمومة ، بل بعدم رؤيتها بالكلية .

فتصفو لهم الأوقات ، وتتجلَّىٰ لهم أسرار الصفات ، مثل ما رأيت فيما يروىٰ عن السادات ؛ كأويس القرني وأبي تراب ، ممَّن جعلوا الفلواتِ والمفازات والخرابات لهم مأوىً ، فعاد ترابُها لهم حلوىٰ ، وصاروا للسالكين قادةً في محو الهوىٰ وقبيح العادة ، فيحنُّون إلى الخمول والخلوة ؛ لِمَا فاجأ قلوبهم من الجلوة ، فعَلَتْ منهم الأحوال ، وصَفَتْ منهم الأعمال ، من شوائب الرياء ، ومهاوي الضلال ؛ كالعجب والفخر والإدلال ، بعكس ما عليه أبناء الدنيا المغرورون الجهَّال ، المستدرجون الضُّلَّال ؛ من طلب العلو والظهور من غير نية لهم في ذٰلك إلا مجرد هوىً ومحض دعوىٰ ، فترىٰ نفوسهم اللئيمة تستروحُ إلىٰ رفع الصيت بالمنصب والمال ، ويخيل إليها أنها من أهل المقام والحال ، من العارفين والعلماء الأبطال ، وهو راكب للمحال ، مقتحم لُجَّةَ ضلال .

فانصح نفسك أيها المسكين ، ولا تذبحها بغير سكين ؛ ففي الخمول تحت أذيال الذلة غاية المأمول .

وفي دفن وجودك في تراب ذلة العبودية ، وسكونُكَ تحت سلطان السكينة ، وانطراحك في تراب فناك ، وترك دعواك . . فعند ذٰلك تتفتَّقُ الحبَّةُ القلبية ، المعبَّر عنها باللطيفة الربانية في الأرض القالبية ، فهي البذرة الأزلية في الفطرة الإنسانية ، فينفتح فيها بابان : باب يعلو ويسمو ، ويتسع وينمو ، وباب ينزلُ إلىٰ أرض العبودية في العوالم

الشهادية ، وتجري[1] في ذلك الباب أبواب نازلة تدور على الطرق السنية ، وإخراج الأخلاق النفسانية ، والدواعي الهوائية ، كما تدور العروق في الأرض .

فلا يزال الباب العالي يستقوي نموه وارتقاءه ، وتتفتق الأزهار ، وتشرق منه الأنوار ، وتينع ألوان الثمار ، وتكثر منه الشعب العرفانية ، والأوراق والأزهار الإيمانية ، وتتعالىٰ وتتسع في هوى الملكوت الحقّاني أغصانُهُ ، وتظهر في الفسيح الرباني أعيانه ، وتتلوّن في حقائق الأسماء أفنانه ، ولا تزال هٰذه الأبواب الملكية تتسع في طرق العبودية ، وتمتدُّ إلىٰ أصلها وتربتها ، فتنمو تلك الصاعدة بحسب تمكُّن هٰذه ورسوخها ، وتربو هٰذه النازلة بحسب صعود تلك وسُمُوِّها .

وكل نبْتٍ لم يدفن كذٰلك .. لم يتم نتاجه ؛ لأنها لم ينفتح [ له ] البابان ، فتبقىٰ في رتق الجهل والعدم وإن انفطرت أبوابها ، فلا تجد نزولاً إلىٰ أرض السنة ؛ لأنها لم تدفن فيها ، ولا ترقىٰ إلىٰ سماء الحقيقة ؛ لعدم نموها وقعود سيرها ، فلم تصعد في سماء الحقائق أغصان ، ولم تنفتح له في أرض الشريعة أعيان .

فانظر ما أبدعها من إشارة ، وأوضحها من عبارة ، وما أسناها من بشارة لمن ستر وجوده بوجوده ، وغاب عن شهوده بوجود معبوده !! وما أدري ذٰلك مراد للمؤلف أم لا ؟

وأما فضل الخمول قبل أوان التحقق بالأصول ، والتحلي بملابس الوصول .. فله فضائل ودلائل من الكتاب والسنة .

---

(١) وفي ( ب ، ج ) : ( وتجرُّ ) بدل : ( وتجري ) ، وكلاهما مناسب .

قال الله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ . . . إلىٰ غير ذٰلك من الآيات الدالة علىٰ فضيلة الخمول ، والتقلُّل من الدنيا والذبول عن رونق الشهرة قبل تحقق المأمول ، ولم يتحقق ذٰلك إلا بمفارقة الدنيا والعبور على الصراط وكل أمرٍ مهول .

وأما الدلائل من الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم . . فأكثر من أن تحصر ؛ فمن ذٰلك : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نوَّه فيه بأويس القرني رضي الله عنه ، وأشاد ذكره ، ونبَّه فيه علىٰ عظيم أمره ، رضي الله عنه أنه قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلقةٍ من أصحابه ؛ إذ قال : « ليصلينَّ غداً معكم رجلٌ من أهل الجنة » ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : فطمعت أن أكون أنا هو ذٰلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقمت في المسجد حتى انصرف الناس ، وبقيت أنا وهو ، فبينما نحن كذٰلك ؛ إذ أقبل رجلٌ أسود متَّزر بخرقة ومرتد برقعة ، فجاء حتىٰ وضع يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا نبي الله ؛ ادع الله لي بالشهادة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة ، وإنَّا لنجد منه ريح المسك الأذفر .

فقلت : يا رسول الله ؛ هو هو ؟ قال : « نعم ؛ وإنه لمملوك بني فلان » ، فقلت : أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله ؟

فقال : « وأنَّىٰ لي بذٰلك ؛ إن كان الله تعالىٰ يريد أن يجعله من ملوك الجنة وساداتهم ؟! يا أبا هريرة ؛ إن الله عزَّ وجلَّ يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء ، الشعثة رؤوسهم ، المُغبرَّة وجوههم ،

الخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المنعَّمات . . لم ينكحوا ، وإن غابوا . . لم يفقدوا ، وإن حضروا . . لم يدعَوا ، وإن طلعوا . . لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا . . لم يعادوا ، وإن ماتوا . . لم يشهدوا » .

قالوا : يا رسول الله ؛ كيف لنا برجلٍ منهم ؟ قال : « أويس القرني . . . » الحديث بطوله ، قال فيه : « وإنه لرجل أشعث ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين » أو كما قال[١] .

وحديث : « رب أشعث أغبر ذي طِمْرينِ ، تنبو عنه أعين الناس ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله . . لأبره . . . » الحديث[٢] .

وحديث أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله عز وجل : إن أغبط أوليائي عندي لَمؤمنٌ خفيف الحَاذِ ، ذو حظٍّ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذٰلك ، ثم نفض يده فقال : عجلت منيته ، قلَّتْ بواكيه ، قلَّ تراثه . . . » الحديثَ[٣] .

قلت ـ والله أعلم ـ : إن هٰذه حالة الملامتية من الأولياء ، وبذٰلك الاسم عند طائفة عرفوا[٤] ، وبذٰلك الرسم بين الأولياء وُسِمُوا .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » ( ٨١/٢ ) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » ( ٤٢٣/٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٣٢٨/٤ ) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » ( ٧/١ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي ( ٢٣٤٧ ) ، وابن ماجه ( ٤١١٧ ) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وخفيف الحاذ : كناية عن قلة ماله وعياله .

(٤) انظر « تهذيب الأسرار » للخركوشي ( ص ٦٥ ) .

فمن جملة ما يعرفون به : أن عباداتهم فيما بينهم وبين الله لم يطَّلع عليهم ، يحبُّون لو ظهرت عنهم ما يسقطهم عند الناس ، ولا يحبُّون الشهرة بالطاعات والورع ، فتراهم لا يسألون عن ورعهم ؛ لما عندهم من الشاهد القلبي ، فكلما حاك عندهم . . تركوه ، ولم يحتاجوا إلىٰ من يخبرهم جواز أخذه أم لا ؛ وذٰلك لما أُشربت قلوبهم من صِرْف الصدق ، فهم النيَّابيون باصطلاح القوم ، الذين تكشف بهم عن الخلق أزمات الأمور ، لا يظهرون خيراً ولا يبطنون شراً ، هم بين الناس وقلوبهم عاكفةٌ بين الرفيق الأعلىٰ ، صلاتهم في الأماكن المعطَّلة عن الخلق ، وفي أماكن غيبية تحت أكناف الغيرة وأستار الغيب ، لهم التصرُّف النافذ في الوجود بالروح والقلب والجسد ، قد نزع عنهم الغل والحسد ، محلهم : الصفيح الأيمن من العرش ، رضي الله عنهم ، ونفعنا بهم ، ولو شرحنا بعض حالاتهم . . لخرجنا عن مقصود الكتاب .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يسيرٌ من الرياء شرك ، وإن من عادىٰ أولياء الله . . فقد بارزَ اللهَ بالمحاربة ، وإن الله تعالىٰ ليحبُّ الأتقياءَ الأخفياء ، الذين إذا غابوا . . لم يفقدوا ، وإن حضروا . . لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبُهم مصابيح أهل الهدىٰ ، يخرجون من كل غبراء مظلمة . . . » الحديثَ(١) .

فيكفيك هٰذا القدر في مدح الخمول وإيثاره ، وطلبه بالتستر بأثواب الذلة والمسكنة ، هٰذا وما كاد أن يخرج عن الحصر من حكايات الصالحين في شأن ذٰلك .

واعلم : أن الخمول وما ورد فيه من الفضائل ، وما ورد في أفضليته

---

(١) رواه ابن ماجه ( ٣٩٨٩ ) .

على الشهرة . . **لا على الإطلاق** ، إلا إذا اقترن بالخمول فضيلة خلا عنها في الشهرة ، و[ كذٰلك ] ذم الشهرة إلا إذا اقترن بها مذموم ، **ولٰكن الخمول أقرب إلىٰ جانب السلامة** ، هٰذا في السالكين المبتدئين .

وأما **أهل التمكين والسادات الواصلون** . . فلا عليهم إن أقامهم الله في مقام الشهرة أو الخمول ، فليس لهم في شيء طلب وتعمد ؛ **لأنهم متحققون بالعبودية** ، مأخوذون عن أنفسهم تحت أحكام الربوبية ، فلا يعطيهم مقامهم أن يَتَّجِروا مع الله علىٰ مقتضىٰ إراداتهم واختيارهم ، **بل يكونون في قبضة مملكته** ، يجرون حيث أجراهم ، ويقومون حيث أقامهم ، **غابوا عن الخلق بل عن أنفسهم** ؛ فلم يروا من يختفون عنه غيرَ الله ، **وهٰؤلاء هم الصوفية حقاً** ، فلا يحبون دونه محبوباً ، ولا يطلبون غيرَ مراده مطلوباً .

**فعبد الله يكون مع الله** حيث ما تقلَّبت به الحالات واختلفت به الشؤون ؛ فمن أحب مع الله حالاً دون ما أقامه الله فيه . . فقد تحكَّم على الله ، ونقض عقد العبودية علىٰ مذهبهم ، **فهم المقرَّبون الذين حسناتُ قومٍ سيئاتٌ عندهم** .

**فعبد الله** لا يبالي أظهره الله أو أخفاه ، فلا أظهر ولا أشهر من مناصب الأنبياء والخلفاء ، **ولٰكن هنا غور بعيد المهوىٰ** ، زلَّتْ فيه أقدام كثير من المدَّعين ؛ لظنهم أنهم قائمون بالله لا بأنفسهم ، ولو تغيَّرت عليهم حالة من حالاتهم أو عادة من عاداتهم . . **افتضحوا بدعواهم القيامَ بالله** ، فلو كانوا بالله . . **لم تغيِّرهم الحادثات** ، ولم تنقض عزائمهم العادات .

**فليحذر الإنسان من ذٰلك** ، ولينصح نفسه ويعرف منزلته ، **ولا**

يدَّعي ما ليس له فيظن أنه اتصف بصفات الأكابر من الخلفاء والسادات الأولياء ، أو أنه ترقّىٰ في مقامهم وهيهات !! أين أنت من ظهورهم واشتهارهم ؟! فإنهم قائمون في الأمور بالله ، يعدُّون نفوسهم من جملة غمار خلق الله ، لا يتميَّزون عنهم بشهوة دنياوية ، بل يضيِّقون علىٰ أنفسهم ويوسِّعون علىٰ عباد الله ، ومَن تتبَّع أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وأخلاق الخلفاء الراشدين من بعده . . علم ما أشرنا إليه ، وتحقَّق ما أومأنا إليه .

ومن ذٰلك : ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يطوي الأيام المتتابعة ، حتىٰ قالت له بعض نسائه قبل أن يتوفَّاه الله بأيام : لو دعوت الله أن يوسع عليك ؟ فقال : « ما أحبُّ إلا أن يُلْحِقني بإخواني من أولي العزم » أو نحو ذٰلك [1] .

وما روي عن عمران بن الحصين : لما زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وكان معه عمران ، فاستأذن عليها ، فلما دخل هو وعمران . . فقالت : ( ما أجد ما أواري به جسدي ) فلفَّتْ علىٰ جسدها بعباءةٍ ، ووارت رأسها بملاءة خَلَقة [2] .

فانظر هٰذا التواضع مع شامخ عالي منصبه ، وشهرة مقامه ؛ فهٰذا [ حالهم ] [3] في عالي شهرتهم ، ورفعة منصبهم ، ومع ذٰلك : فهم في

(١) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » ( ٧٤٥٤ ) عن أبي عبيدة بن حذيفة : أنه صلى الله عليه وسلم ألمَّت به الحمَّىٰ ، فقالت له عمته ـ أي : عمة الراوي أبي عبيدة ـ فاطمة رضي الله عنها : لو دعوت الله فكشف عنك ؟ قال : « إن من أشد الناس بلاء الأنبياء . . . » الحديث .

(٢) رواه الآجري في « الشريعة » ( ١٦٠٧ ) .

(٣) في النسخ : ( فإنهم ) بدل : ( فهٰذا حالهم ) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله تعالىٰ أعلم .

غاية التواضع والذلة لله ، وغموض العين عن الدنيا وزهرتها ، ولي في ذلك :

اِدْفِنْ وجودَكْ وغِبْ في أرضِ مَسكنَةٍ مُنَكَّسَ الرأسِ باكي العين ذا حزنِ
وفارقِ الأهلَ والجيران منتزحاً عن التأنُّسِ بالمألوفِ والوطنِ
لا تلْوِ عن جيرة الوادي فإن به حورَ المعارف يَخْطُبُها ذوو الفطنِ

※ ※ ※

**فحيث عرفت شرف الخمول وإيثاره ، وضرورة طلب الاشتهار وآفاته . . قال :**

فاعلم : أنه لا أعون على الخمول من العزلة ؛ **فهي دواءُ مرض الخلطة المضرَّة** ، وهي خلطةُ من لم يتقيَّدْ بالأدب ، **وهم الأحداث المثبطون عزماتِ المريدين** ، الذين لم تحتنكهم الرياضة ، **والعوام الغافلون** المتهوِّرون في العادات ، المعرضون عن العبادات ، المنتهكون أعراضَ الخلق بالغيبة والشتم والتحقير والتخبيط في الأقوال والأفعال ، **فلا أضرَّ على القلب من مخالطتهم** ، ولا أقبح على المريد من مجالستهم ، **وغاية نصحهم وفرط حبهم** : أن يحرِّضوا مَنْ جالسهم علىٰ جمع الدنيا ، والحرصِ على الرئاسة والصلف وحب الثناء ؛ **فمخالطتهم أعظم ضرراً على القلوب** .

وأما من كان مساعداً وعوناً لك علىٰ ما أنت طالبه .. **فداء القلب** : مصارمته ومقاطعته ، ودواؤه : مجالسته ومصاحبته ؛ **فإن لمرايا الصادقين استشفاف بعضها من بعض** ؛ فلذٰلك إذا عُدم الشيخ المربي .. قام **الإخوان** مقامه ، كما يقوم التراب في استباحة الصلاة مقامَ الماء .

ونُفاعة القلب : سلامته عن أمراض الأعراض ، والانهماك في مهلكات الشهوات ، والوقوع في ورطات الهفوات ، ودواعي الأغراض البشريات .

**والقلب** : هو لطيفةٌ نورانية ، فمتىٰ أورَدْتَ عليها هٰذه الكثائف الظلمانية .. **أضررت بها لا محالة** ، وضرره طمس نوره ، وإخفاء مشرقات بدوره تحت سحب سجف ظلمات أسباب الدنيا ، وأراجيف الخلق ، وأباطيل تزوير الشيطان بترويجات الغرور ، وسفساف مذموم الهوى الطبيعي النفسي ، ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾ .

فهٰذه أمهات الحجب الكونية الظلمانية ، وبالعزلة ينقطع معظمها ، لٰكن بشرط كون المعتزل يعلم ما يلزمه فيها .

فمن ذٰلك : علم العين[1] ، والقيام بكل ما طلب الشرع منك القيام به ، واستصحاب الفكرة الصافية في بديع الصنع ؛ فمعظم الدواء في الحمية ، فعند القيام بحقها يرجىٰ له الشفاء من أمراضه ، والإقبال بعد إعراضه .

والعزلة من أحد أركان طريق أهل الله ، بل هي الركن الأعظم إذا صحبها الصدق ؛ فلذٰلك لم تزل دأب الصادقين ، وديدن أولي العزمات من الأنبياء والصالحين ، بل أفضلهم وأكملهم محمد سيد المرسلين كان يتخلَّىٰ في حراء الليالي ذوات العدد[2] ، حتىٰ قالت قريش : إن محمداً يخلو بربه في حراء ، حتىٰ فاجأه الوحي وهو فيه .

والعزلة عزلتان : عزلة بالأبدان ، وعزلة بالجَنان ؛ فأما عزلةُ الأبدان . فهي للعبَّاد السالكين والزهَّاد المريدين ، ولها شروط ظاهرة ؛ وهو ما قدمنا ، وأركان باطنة ؛ وهي تحقيق الإرادة بالصدق وصريح الإيمان .

واعلم : أن لله على الإنسان حقوقاً ، وللنفس وللخلق ؛ كما ورد الخبر[3] .

---

(١) أي : علم فرض العين .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه البخاري ( ٣ ) ، وأحمد ( ٦/٢٣٣ ) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) روى البخاري ( ١٩٦٨ ) ، والترمذي ( ٢٤١٣ ) عن سيدنا وهب بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه قال : آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأىٰ أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنكِ ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال : كلْ ، قال : فإني صائم ، ←

ومن الحقوق ما يمكن أن تُقضىٰ بدون مباشرة الإنسان ، وبعضها لا يُقضىٰ إلا بالمباشرة ، ولم تسقط عنه هٰذه الحقوق بوجهٍ ما دام بين أظهر الخلق إلا أن يغلبه حالٌ ويحكم عليه ، فلم يبقَ له تصرُّف من تصرُّفات نفسه ؛ لغيبته عن حسِّه ، وفنائه عن أنسه ، أو يكون صاحياً ، لٰكن جعل لديه منازلةً خفيةً[1] ، عرَّفه الله إياها بتعريف إلٰهي لا يدخله ريب في أنه من أمر الله الخاص ؛ فذٰلك بحكم حالته ، وموكول إلىٰ صدقه في مقالته .

فإن كان صادقاً . . فهو قائم لله بأتمِّ طاعة ، فلا يدانىٰ ، فذٰلك مما اختص الله به أنبياءه وخواصَّ خلاصة أصفيائه ، وإن كان علىٰ غير ذٰلك . . فليتق الله في دعواه ، ولينزع عن متابعة هواه إلىٰ متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ندبه إليه ودعاه ، وإن تغيرت حالته بمخالطة الناس في ذٰلك . . فطريقه : أن يخرج من بين أظهرهم إلىٰ محلٍ يسقط عنه ذٰلك .

ومن ذٰلك ـ والله أعلم ـ : ما حمل العُبَّاد والزهاد الصادقين على الخروج إلى الفلوات وسكون الجبال وبطون الأودية ، والفرار عن الأوطان ، ومهاجرة الأقران ، لٰكن ذٰلك يحتاج معه إلىٰ قوة يقين ، وحقيقة توكُّلٍ وتمكين ، وحسن تولٍّ من الله ، وإلا . . فالبادية ميدان

---

← قال : ما أنا بآكل حتىٰ تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل . . ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل . . قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ؛ فأعط كل ذي حقٍ حقه ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذٰلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق سلمان » .

(١) في ( ب ، ج ) : ( حقية ) بدل : ( خفية ) ، وكلاهما مناسب .

فرسـان الشـياطين ، فإن لم تكن معه قوة تعينه علىٰ ذٰلك ، وتدفع عنه شر ما هنالك ؛ وإلا . . خيف عليه أن تستوليَهُ بطغيانها ، وتخوفه بتلوُّن سـحرتها وتغوُّل غيلانها ، فالأولىٰ بضعيف اليقين : السكون في الديار لصحبة الأخيار ، وتجنُّب الأشرار ، وتحرِّي الاستغفار بالأسحار ، ودوام الأذكار آنـاء الليل والنهـار ، فيُلحقه الله بالصالحيـن ، وينيله مراتب الصادقين من البدلاء الأبرار ، وتتداركه العناية بحسـن الرعاية ، وتتولاه بالاختصاص والولاية ، فيُلحقُ إن شـاء الله بمن تفـرَّدَ ، وزيادة فوائد ؛ فمنها : رؤية التقصير ، واعتماده علىٰ فضل الله دون تدبيره واختياره .

ومـن علامـات دلالاتـه الباطنـة : أن يكـون متعلِّقـاً بـالله ، ومتحقِّقاً بأوصافه ، ومتخلِّقاً بأسمائه ، ولا يرىٰ نفسه في ذٰلك فضلاً عن أن يرىٰ لهـا ، ولا ينظـر إلى الخلـق بالمقـت والازدراء ، ولٰكن يشـكر الله علىٰ مـا أولاه مـن نِعَمـه ، وعافـاه مما يشـغله عنه مـن دواعي هـواه ، ويكون على الخلق مشفقاً ، ولهم راحماً ، وعليهم متحنِّناً لطيفاً عطوفاً ، ويكون ذا فكـرة صافيـة ، وبصيـرة وافيـة ، دائـم الذكر لله ، متوالي الشـكر علىٰ نعـم الله ، دقيـق النظـر في مواقـع الخطر ، غـاضَّ البصر عـن الدنيا وما فيهـا ومن فيها ، كثير السـهر والجوع ؛ ففي السـهر تنوير البصيرة ، وفي الجـوع صفـو السـريرة ، وبذٰلك بعد توفيـق الله ومعونته صـارت الأبدال أبدالاً ، فهٰذا من بعض شروط عزلة العبَّاد والزهَّاد السالكين ، والمريدين الصادقين .

وأما عزلة الأكابر العارفين ، وأفاضل الصِّدِّيقين . . فعزلتهم بالجَنان دون الأبدان ، مباينين الخلق بالقلوب والقوى القائمة بالأركان ، دون التغيُّب بالأبدان .

فمن كان مقامه الإحسان ، ولم يشهد معه ثانٍ . . فعمَّن يعتزل ، ولمن يبتذل ؟! فهو مع الله مستغرق الجَنان ، سامع عنه ناظر إليه بالعيان ، في كل حينٍ وأوان ، في الفطَر والأعيان ، متجلياً وعليها متولياً ، مشتغلاً بذكره باللسان ، وطاعته بالأركان .

كيفما تقلبت به الأحوال . . فهو جليسه ، ومن بين جلسائه أنيسه ؛ كما قالت رابعة رضي الله عنها في بعض ما يروىٰ عنها من الأقوال في طفحات الأحوال :

ولقدْ جعلتُكَ في الفؤادِ محدِّثي وأبحْتُ جسمي مؤنساً لجليسي[1]

فمن كان كذٰلك . . فخلطته عزلة ، وعزلته خلطة ، ومعنىٰ ذٰلك : أنه إذا خالط الخلق . . [ كان ] مباينهم بقلبه ، معتزلاً عنهم بوجوده لربه ، وإذا اعتزلهم . . كان مصاحبهم بربه ؛ لشهوده الكثرة الخلقية في الوحدة الحقية اضمحلالاً واندراجاً ، والوحدة في الكثرة الخلقية إحاطة وعلماً وشهوداً ، وحفظاً وقياماً ، وكلاءةً وتصرفاً واحتكاماً .

واعلم : أنه وإن كان كذٰلك . . فينبغي له ـ وإن بلغ من القُرب مبلغاً ـ [ ألّا يستغني ][2] عن ساعةٍ ووقت يخلو فيه ؛ لتعود بركة خلوته علىٰ متفرِّق جلوته ، فيكون في الخلوة ملحوظاً ، وفي الجلوة محفوظاً .

ومن ذٰلك ما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لي وقتٌ لا يسعني فيه غير ربي »[3] .

---

(١) انظر « عوارف المعارف » ( ١/٢٩٦ ) .
(٢) في النسخ : ( فلا غنىٰ له ) ولعل الصواب ما أثبت ، والله تعالىٰ أعلم .
(٣) ذكره الإمام القشيري في « رسالته » ( ص ٧٠ ) .

**وفي ذلك أقول :**

بعزلة المرء يسلَمْ من معاطبه ويبرأ القلب مِنْ الآمراضِ والعللِ

بصافي الفكر يدرِكْ من مآربه ويَبْلُغُ السؤلَ والمطلوبَ والأملِ (١)

* * *

فلما كان القلب لا يصفو بدون ما ذكره من العزلة عن مكدِّرات القلوب ، وموبقات الذنوب . . **قال كالمتعجب من حال مَنْ يطلب أن تشرقَ القلوبُ** ؛ وهي متلبّسةٌ بقبائح العادات ومشؤومات العيوب ، **قال رضي الله عنه :**

(١) أغلب الأبيات التي أوردها المؤلف رحمه الله تعالىٰ مستقيمة الوزن من البحر البسيط ، وأما الإعراب في القافية . . فهو من باب :

لحنُنا معربٌ وأغربُ من ذا أن إعراب غيرنا ملحونْ

مع أنه يمكن التكلف في توجيه ذلك .

## كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ وَصُوَرُ ٱلْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ ؟!

إذا علمت استحالة اجتماع الضدين ؟![1] والإشراق : هو وجود الحق ، والأكوان ظلمة إذا اعتبرت وجودها من حيث هي[2] ، **والنور والظلمة ضدان لا يجتمعان في آنٍ واحد** ، ولـٰكن لم يكن وجود أحدهما مانعاً من ورود الآخر عليه في ثاني الحال[3] ، **وإنما العجب ممَّن يظن أحدَهُما وسيلةً لوجود ضده** !! ولـٰكن الله ببالغ حكمته وسابق إرادته جعل لكلِّ مقصدٍ وسيلةً[4] ، ولكل عملٍ صناعة وحيلة .

وهـٰذه المقامات سردها المؤلف في هـٰذه المقالات ؛ **لقرب تناسبها** ، وإلا فإذا نظرت بدقيق الفهم . . **رأيت لكل مقامٍ منها عملاً ومقالاً** ، فجعله الإشراقَ للقلوب ؛ لأنها محتدُ النور والظلمة ، وهو معترك الجيشين ، فكلُّ ما قام به . . ظهرَ أثره في الجوارح ؛ فكل ما ظهر من الآثار الظلمانية الداعية إلى الإضلال والإغواء . . **فمن المادة الظلمانية واللمة الشيطانية**[5] ، وكل ما ظهر أثره من الشهوة الهوائية . . **فمن المادة النفسانية** ، وكل ما ظهر أثره من الأعمال السنية والأخلاق النبوية . . فمن المادة الروحانية واللمة الملكية ، وما كان من الأحوال العرفانية والمقامات القُربية . . **فمن الواردات الربانية والتنفُّسات الرحمانية** .

**ولكل أثرٍ بابٌ نافذٌ إلى القلب ، وعرقٌ متصلٌ من القلب إلى النفس** ،

---

(١) وسيأتي نهايةَ شرح الحكمة مزيد بيان عما يترتب على استحالة اجتماع الضدين .

(٢) فهي معدومة لنفسها ، موجودة بربِّها .

(٣) في النسخ : ( ولـٰكن لما لم يكن وجود . . . ) بدل : ( ولـٰكن لم يكن وجود . . . ) .

(٤) في النسخ : ( ولـٰكن الله ببالغ حكمته وسابق إرادته أن جعل لكل مقصد وسيلة ) .

(٥) في النسخ : ( فكلما ظهرت الآثار . . . ) بدل : ( فكل ما ظهر من الآثار . . . ) .

وحركة من النفس إلى القالب ، ونورٌ مشرقٌ من الرب إلى العبد ، ومن مراتب عالم الفضل ودركات عالم العدل ، وفي كل بابٍ من تلك الأبواب صورٌ شتىٰ ، وكل صورةٍ منها حجاب علىٰ وجه القلب ، كما أن كل خلقٍ حسنٍ له إشراق .

فجملة مادة عالم الفضل ومادته من لَمَّةِ الملك الروحاني ، والجانب الرحماني ، والتفضل الرباني ، واللطف الامتناني ؛ كما أن جملة مادة عالم العدل من اللمَّةِ الشيطانية ، والدواعي الهوائية ، والشهوات النفسانية ، ولا يمكن اجتماع هٰذين الضدين .

فإن أردت ورود هٰذه الأنوار ، وظهور تلك الأسرار .. فعليك بتخلية القلب عن ظلمات الأغيار ، وكشح غبار الآثار ، وكنس الأوساخ الشهوانية والأقذار ، ولذٰلك معاملةٌ ومعالجة ؛ فمن أنجح المعاملة ، وأوجز المعالجات عن كشفها عن[1] القلوب بالذكر التلقيني ، وهو ذكر النفي والإثبات المعهود عند أهله ، مع القيام بالوظائف الشرعية ، والسلوك في جميع ما يأخذ ويذر علىٰ يد شيخٍ بصيرٍ بآفات النفوس ، مؤيَّدٍ بأنوار القدُّوس .

وعندما تنجلي عنه هٰذه الظُّلَمُ .. يُرجىٰ له أن تُجلَىٰ له هٰذه الأنوار ، وتبدو له هٰذه الأسرار ، فيمحو عن مرآة قلبه بمصقلة ( لا إلٰه إلا الله ) طوابعَ المكوَّنات ، ويجلوها بصافي الفكر في بدائع المصنوعات ؛ فعند ذٰلك تقابل مرآة القلب الصقيلة العوالمَ العلويات ، والأسرار الملكوتيات ، فتبدو فيها عجائبه ، وتظهر عليها غرائبه ، وتمنح لديها مواهبه ، وتَحِقُّ بساحتها رغائبه ، فيفيض آثار ذٰلك علىٰ ظواهر الأعمال ، وزواكي الأخلاق ، وسوامي الأحوال .

---

(١) في ( ب ) : ( من ) بدل : ( عن ) .

ويبسطُ ما تضمنته عبارته ، وأومت إليه إشارته . . واسعُ الأنحاء ، غزير المعنىٰ ؛ فلنقتصر علىٰ ما يفهم مما أشار إليه ؛ فإشراقُ القلوب شموس المعارف ، وبدور اللطائف ، لا تجتمع مع ظلمات الكثائف الكونية ، وفي ذٰلك أقول :

لا يُشْرِقُ النُّورُ في قلبٍ إذا طبعَتْ بصورةٍ فيه طابعُ ظلمةِ العدمِ
إلا إذا زال ليل الطبع وانبعثت بصحبةِ الذكرِ ثم الفكرِ في الحِكَمِ

لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى ٱللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟!

يفهم من قوله هنا : ( يرحل إلى الله ) : أن الشهوات عوائق عن السير في منازل السلوك العلمية ، وعبارته في الأولىٰ تُفهم التعثُّرَ في البقايا الظلمانية عن الأسرار القلبية ، وعبارته دالةٌ على التنصُّل عن القيود العادية ، ومفارقة الأخلاق الأرضية والطبائع الحيوانية ، وهٰذا طريقٌ إلى المعاملة القلبية ؛ فالاختبال بالأسباب الدنياوية والمحبوبات الكونية قيدٌ عن السير [1] إلى الحضرة القُربية .

وهي معانٍ متقاربة ، لٰكن لكل شيءٍ منها ملحظ ؛ فطريق محو الظُّلَم : ما ذكرناه آنفاً من إخلاص الذكر وصفاء الفكر ، وطريق ذٰلك : في الرياضة النفسانية من باب التروك ، ولا أعون عليها من التفكُّر في انصرام الأجل ، وفوت الأمل ، وزوال الشهوات ، وحصول المصائب

(١) في ( ب ) : ( المسير ) بدل : ( السير ) .

والحسرات عند فراقها وندامة الفوات ، فنقنعُها بخوف القطيعة ، وننظر فيمن خوَّلته الدنيا نعيمها كيف تقشَّعَتْ عنه سحائب خُلَّبها [1] ، وسراب خُدَعِها ؛ فالرحيل إلى الله يقطع عقبات النفس ، وأُهْبَتُهُ الأخلاق السنية ، وطريقه : اتباع الآثار النبوية ، والأخذ بعزائم السنة .

ومخاوف تلك الطريقة : الشبه ، وقواطعها : الحظوظ الدنياوية ، والشهوات النفسانية ، والتغريرات الشيطانية ، والتزيينات الهوائية ، وزادها : التقوىٰ ، ومطيتها : الهمة ، وحادي تلك المطية : الشوق ، وسائقها : الخوف ، وزمامها : العزم ، وآلات رحيلها : العلم ، وقوتها : الحكمة ، ومراحلها : الأنفاس ، ومقصدها : الحضرة ، وضيافتها : الجنة ، وكرامتها : الرؤية ، وسرورها : الرضوان ، ومقيلها : الأمان ، وتحيتها : السلام ، وعرائسها : الحور الحسان ، وفي ذلك أقول :

إن القيودَ عن التَّرحال عائقةٌ [2] ... إن شئت فَأْرِمِ قيود الطبع واستَبِقِ
كُبُولُ شَهْواتكَ ٱلَّتِي فيكَ حاكمةٌ ... فبادِرَنْ واخرجَنْ عمَّا عليك بقي
فكلُّ ٱلْأَكوانِ عن مطلبْكَ قاطعةٌ ... واقطع عرى الكون واترك من بذاك بقي

**أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَاتِ [3] غَفَلَاتِهِ ؟!**

أم كيف يطمع بعدما علم بأن حضرة الله الخاصَّة بأنبيائه وأوليائه ـ

---

(١) الخلب : الخداع ، ويوصف به السحاب فيقال : سحابٌ خُلَّب ؛ لا غيث فيه .

(٢) لعله يشير إلىٰ ما ورد : أن الجوارح تخاطب اللسان كل يوم تقول له : ( اتقِ الله ؛ فإنما نحن بك ، فإن استقمت . . استقمنا ، وإن اعوججت . . اعوججنا ) .

(٣) في هامش ( أ ) : ( جنابة ) بدل : ( جنابات ) .

وهي حضرة الإحسان ، ومحلُّ تجلِّي العيان ، عند ذهاب صور الأكوان ، وفناء الأعيان ـ ألَّا يدخلها من لم تكمل طهارته من جنابات غفلاته ؟!

كأنـه لمـا اجتهد في تلطيف كثائف ظلماته ، وطرح شـهواته ، وترك مقعـدات عاداتـه . . ظهـر منه رائحـة طمع أنه بذٰلك دخـل حضرة الله ، وهو بعدُ لم يدخل ، وهو يرىٰ نفسه في ذٰلك ، حتىٰ يغيب عن كونيته ، ويتطهـر بمـاء التقديس ، مـن جنابات الدعوىٰ ونجاسـات التلبيس ؛ فلا يدخل تلك الحضرة وهو يرىٰ له من نفسه بقية ؛ فمتىٰ حصل علىٰ تلك الحضرة ، وحظي بتلك النظرة . . فحينئذٍ يرىٰ طهور جنابته .

وقـد منعك شـرعاً حضرته الحِسِّـية حـال قيام الجنابة الحسية بك ، فأولىٰ أن يمنعك عن الحضرة الخاصة حال تلبُّسـك بالجنابة الخاصة ؛ ففـي عبارته إشـارةٌ لطيفةٌ إلىٰ أن حضرة الإحسـان خاصـة في المقامات القُربية ، كاختصاص المسجد في الحضرات المكانية ؛ فالمسجد حضرة صورة العبادة ، والإحسان حضرة تجلِّي المعبود ، وأين هٰذه من تلك ؟!

وقد حظر الشرع دخول هٰذه الحضرة مع وجود الجنابة ، وما سُمِّيت جنابـة إلا لإجنابهـا بمن قامت به عن حضرة القُرْب ومستوى الاسـتقامة إلى البُعـد تحـت كثيـف غطاء الشـهوة علىٰ جميـع الجوارح ، فالغُسْـلُ حياتها ، وردها إلىٰ مواطن إقبالها ، فيعم بالماء جميع الجوارح لتحيا ؛ لأن فـي المـاء سـرَّ الحيـاة ، فتحيـا بالمـاء بعد موتهـا واحتراقهـا بنيران بعادها ، فالحمد لله الذي منَّ بلطفه ، وتفضَّل بعطفه .

فمـاء الحيـاة للجنابـة المعنويـة تجلِّـي اسـمه الحـيِّ علىٰ مـا أمات الحجـابُ مـن وجـود الشـهود ، فالماء أثرُ اسـمه الحي ، فالأثـر تحيا به أموات الصور ؛ كما تحيا الأرض بوابل المطر ، وبوجود المؤثِّر وشـهوده

يحيا المعنى القائم في الإنسان بصورة ذلك التجلِّي الذي الماء أثره ، وبحياة المعنىٰ يغيب عن شهود كونيته وظهور أَيِّيَّته[١] ؛ فجنابة الصورة الحسية التي هي أثرٌ عن ذلك المعنىٰ تحيا بالماء الذي هو أثر عنه أيضاً .

والمعنى المذكور : هو وجود الحق القائم بها ؛ فبالماء تحيا الصورة من أجناب جناباتها ، وبتجلِّي اسمه الحي يحيا ذلك المعنىٰ ، وحياته : رجوعُهُ إلىٰ أصله ، واجتماعه بعد فرقه ، واتحادُهُ بأصله بعد فصله ، وفي ذلك أقول :

فكيف تطمعُ أن تدخلْ لحضرته ... ولم تطهَّر عن الأعراض والجنبِ
وكيف تطلب أن تدنوْ لوصلته ... وأنت في غفلةٍ محفوفٌ بالحُجُبِ

ولما كانت ظلمات الجنابات والذنوب مانعةً عن إشراق القلوب ، وصادَّةً عن السلوك إلى المحبوب ، وحاجبةً عن نيل المراد والمطلوب ، حتىٰ تعود عن إعراضك وتتوب . . قال المؤلف رضي الله عنه :

**أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ ٱلْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟!**

الرجاء هنا : ضد القنوط ، وهو في أصله محمود حيث اقترن بالتقوىٰ عن المخالفات ، واجتناب المنهيات ، والإتيان بالمأمورات ، وإلا . . فهو أُمنيَّة[٢] ، وإذا صحح التوبة . . يرجىٰ أن تفتح له أبواب العلوم ، وتظهر من أكنَّتها دقائقُ أسرار الغيوب ، وتسري إليه الأحوال الوهبيَّات ، وتلقىٰ

---

(١) في ( ج ) : ( وظهور أينيَّته ) بدل : ( وظهور أَيِّيَّته ) .
(٢) كما سيأتي ( ص ٣٧٣ ) في الحكمة ( ٧٨ ) .

عليه العلوم الموهبيات ، ودقائق الحكم الغيبيات ، وتتراءىٰ له الأسرار الملكوتيات ، والحقائق الجبروتيات ، والشواهد الملكيات ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ .

**والتوبة عن الهفوات** : أوَّلُ مقامات التقوىٰ ، وله مراتب ، ولكل مقامٍ رتبةٌ في التقوىٰ[1] ، فلم يدرك دقائق العلوم في رقائق المقامات حتىٰ يتوب عن الخطرات فضلاً عن الهفوات الظاهرات ، وبعد ذٰلك مقامات ورتب .

**وأركان التوبة ثلاثةٌ إذا لم يتعلَّق بها حقٌّ للخلق ، وإلا . . فأربعة .**

ولكل أهل مقامٍ توبةٌ علىٰ حسب مقامه ؛ فكلما لطف المقام . . لطف سرُّ التوبة ، وظهرت له ذنوبٌ خفيَّات ، ولا يزال يلطف حتىٰ يتوب مما يصدر منه من سائر الأحوال والأقوال والحركات والسكنات ، ومما يُعدُّ من الطاعات ، وذٰلك يعرفه من تحقَّقَ به ؛ فالتوبة مفتاح الخيرات ، وكل أهل مقامٍ يفتح في توبتهم بحسب مقامهم وفهمهم عن الله .

**والتوبة** : هي الرجوع إلى الله ، فتنفتح فيها دقائقُ علوم ، ولطائف أسرار ، ولوائح أنوار ؛ فالعوام : يُعطون الفهمَ في الشرائع والأعمال ، **والخاصَّة** : يعطيهم مقامُهُم في التوبة الفهمَ في الحقائق والتمكُّن في الأحوال ، **وخاصَّةُ الخاصة** : يعطيهم مقامُهُم في توبتهم المعارفَ في لطائف الوجود والتحقق بالوصال ، **فهٰذا من ثمرات التوبة لأهل كل مقام في توبتهم** ، ووراء ذٰلك ما لم تمكن إذاعته من مكنونات العلوم

---

(١) وعليه : فلا تنفك التوبة عن مقام من المقامات ؛ ولذا عبَّروا عنها بأنها روح جميع المقامات ، قال جل ذكره : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

ومصونات الأسرار ، وبواهر مشرقات الأنوار ، ومحرقات الأغيار ، وأحوال عالية ، ومعارف سامية .

وفي ذٰلك أنشد وأقول :

دقائقُ أسرارِ مكنونِ العلومِ وما ... تحتَ الكثائفِ من محجوبةِ القدرِ
مفتاحُه التوبةُ الصِّدقُ النصوحُ كما ... يكون مفتاحُ فَلْقِ الحَبِّ بالمطرِ

* * *

فإذا علمت استحالة اجتماع الضدين ؛ وهو الظلمة والنور . . **فاعلم** : أن العبد ذاتاً ووصفاً وفعلاً دون الله عدمٌ محض ، **وهو المشار إليه بالظلمة** ، ورؤيته لذاته دون موجده . . **هو البعد الذي أشار إليه بالجنابة** ، وهو أيضاً الجهل ؛ فلقُرب هٰذه المعاني جمعَ المؤلف شملهُنَّ ، ونظم سلكهنَّ في سلك لفظه بالتواتر [1] ، **ثم قال كالشارح لذٰلك :**

(١) في ( ج ) : ( في سبك لفظه بالتراتر ) بدل : ( في سلك لفظه بالتواتر ) .

ٱلْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ ٱلْحَقِّ فِيهِ ؛ فَمَنْ رَأَى ٱلْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ .. فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ ٱلْأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ ٱلْمَعَارِفِ بِسُحُبِ ٱلْآثَارِ

الكـون : هـو كلُّ ما سـوى الله عز وجل ، وما هو صـادرٌ عن تكوينه ، وهـو بجملتـه وتفصيله دون مكوِّنه ظلمـة ، والظلمة ـ كما علمت ـ هي العدم ، والنور : هو الوجود .

فالكونُ كلُّه : من عرشٍ وكرسيّ ، وسماءٍ وأرضٍ ، وجنةٍ ونارٍ ، وإنسٍ وجـانّ ، ومعـدنٍ ونباتٍ وحيـوانٍ ، وهواءٍ وماءٍ ، وأمـلاكٍ وأفلاكٍ وجبالٍ ، وخيـال وعمـلٍ وحالٍ ، وحياةٍ ومـوتٍ ، وطمسٍ وظهورٍ وخمـولٍ ، وفروعٍ وأصـولٍ ، وظلمـةٍ ونورٍ ، وجنسٍ ونـوعٍ ، وليلٍ ونهارٍ ، وشـموسٍ وأقمارٍ ونجـومٍ ، وعلـومٍ ومعلـومٍ وموهـومٍ ، وغيـر ذٰلك مما يطـول تفصيله من جملـة الكائنـات وتفاصيلها ، واختـلاف أعيانها وألوانهـا . . عدمٌ باطلٌ دون وجود الحق .

فحقِّق أن كل ما كان وجوده لا بنفسه . . فهو عدم ، وحقيقةُ الوجود لمـن هـو موجود به ؛ وذٰلك الله الذي شـهدت بوجوده أعيان موجوداته ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والنـور هـو الوجـود ، كمـا قدمنـا أن النـور هو الوجود ، والظلمة هو العدم ؛ فهـٰذا من مقام من شهده فيه .

ومن شهده عنده . . يصدق عليه قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ومن شهده بعده . . فمشهده قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ والتذكير لا يكون إلا بعد سبق نسيان ؛

فمن لم يشهد المكوِّن قبل الكون، ولم يعثر على المصوِّن قبل الصون.. فلا يخلو:

إما أن يكون من الذين يشهدونه عند الأشياء عنديَّةً منزَّهةً عن الجهة، ولكن عندية استغراق وقيام.

وإما أن يشهده بعده، فيستدل بالأثر، ويتجسَّس الخبر، فيستدل بالأثر على المؤثر، وبالصنعة على الصانع، وهٰذه آخر مقامات الموحِّدين.

وأما من لا يشهده، بل يثبت الأكوانَ عريةً عن وجوده.. فقد طمس على عين بصيرته، وأظلمت عليه نور سريرته عن شهوده وحقيقة شهوده، فيبقىٰ تائهاً في ظلماته، غافلاً عن شهود آياته، مقهوراً عن شهود الأنوار، محجوباً عن شموس المعارف وبدور الأسرارِ، ونجوم العلوم بسحب العوائد وكثائف الآثار، فظهر عليه سلطان العدل وتجلِّي الجبار؛ كما ورد: أن «حجابه النار»[1].

وما ذكره مما يوهم الظرفية أو المثلية أو وجود زمان القبل أو البعد أو جهة.. فليس على ما يفهم من ذٰلك؛ فالزمان والمكان، والآن والأوان.. حادثٌ موسومٌ بوسم الحدثان، ولٰكنْ تجلِّياتٌ وتنزُّلات وتلطُّفات يعرف ذٰلك أربابُ الشهود والعيان، فليس له في ذاته ولا وصفه ولا فعله شريكٌ ولا نظيرٌ ولا ثانٍ.

فالذي يشهده قبل الأكوان مستهلكٌ في شهوده، غائبٌ عن شهوده بنفسه، مختطفٌ عن وجوده وحسِّه، متلاشٍ تحت تجليات الأوصاف،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٠١)، والطبراني في «الأوسط» (٦٠٢٢) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فناب عنه فتسمىٰ به ، وهٰذه رتبة في المحبة القُربية ، والنيابة الوصفية ، فقام عنه فأخبر عن شهوده لنفسه بنفسه .

وهٰذا الشهود له ديموميٌّ لا ينفك عنه ، مستمر الشهود لنفسه أزلاً ووجوداً وأبداً .

والذي شهده عند الكون شاهدَ ظهورَ صفاته من تحت أستار حكمته .

والذي شهده بعده يطلب الدليل علىٰ وجود المكوِّن ؛ لغلبة شهود المكوَّنات علىٰ قلبه ، فلا يتمكَّن من غيبتها عن نظره إلا بعد إمعان نظر .

فهٰذا ـ والله أعلم ـ مراد المؤلف بـ ( قبل ) و( بعد ) و( في ) لا علىٰ ما يفهم من ظاهر الكلام ؛ فالأولون : أرباب الكشف والعيان ، والذين يلونهم : أرباب النور والبيان ، والذين من بعدهم : أهل الدليل باللسان والإيمان بالجَنان .

ومن لم يشهده بعد ذٰلك . فقد أعوزه ـ أي : أعدمه ـ وجودُ الأنوار ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ فحُجب عن الأنوار العرفانية ، والهداية الإيمانية ، والدلالة البيانية ، وحُجبت عنه هٰذه الشموس الظاهرة ، والبدور الباهرة ، والنجوم الزاهرة ؛ فهو حائرٌ في ظلمات البشرية ، والعوائد الطبيعية .

والسحب الأرضية : هي الشهوات الحيوانية التي تنشأ عن أرض النفس الظلمانية الهوائية ؛ فكلما كان تمكُّنها من النفس أقوىٰ . . كانت سحب جهلها علىٰ شموس المعارف أكثف وأظلم ، فإذا ارتفع عنها سحائب طبائعها بعواصف هوائها . . حجبت المعارف القلبية ، والشموس الإيمانية ، والأخلاق الروحانية السماوية .

**وفي ذٰلك أنشد وأقول :**

من يشهد الحقَّ قبل الكون كان له | مـن المعـارف أعلـىٰ رتبـة فيهـا
ومن شَـهِدْ ذاك عنـد الكونِ عامله | من حالـة الصدق ما عزَّت مراقيها
مـن كان مشـهده بعـدُ فليس لـه | إلا الدلائـل والأقــوال يحكيهــا
ومَــنْ تخلّــف عــن هٰذا تقابلــه | سـحائب آثـار عـادات ثـوىٰ فيها

* * *

فإذا علمت أن الكون عدم ، وأَنْ لا موجود سواه ، ولا ظاهر في مظاهر الأكوان إلا إياه . . استشهدَ باسم القهر ، وعرَّفك أن ذٰلك مما لا يكون ؛ [ أي ] : أن الباطل [ لا ] يحجب الوجود الحق إلا من حيث تجلي قهره وغلبة أمره ، **فقال رضي الله عنه :**

## مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ مَوْجُوداً مَعَهُ

قد علمت ممَّا تقدَّم : أن الكون كلَّه ظلمة ؛ أي : عدم ، ومع ذٰلك ـ أي : كونه عدماً ـ إنك محجوبٌ به عن مكوِّنه ؛ فذٰلك دليلٌ علىٰ وجود قهره وغلبة أمره ، وإلا . . **فكيف يظهر العدم مع الوجود ؟! أم كيف يظهر الغيب في الشهود ؟! أم كيف يثبت الحَدَث مع القِدَم ؟!**

فإذا قارن الحدث القديم . . **اضمحل ولم يَبْقَ له أثر** ، والحجاب إنما هو أثر القهر علىٰ بصيرة المحجوب ، وإلا . . **جلَّ أن يحويه مكان** ، أو يحدَّه أوان ، أو يكيِّفَهُ عيان ، أو يتقدَّمه زمان .

والحجاب ينقسم إلىٰ : ما هو حجابٌ ظلماني كثيف ، وإلىٰ ما هو نورانيٌّ لطيف ، **والحجاب الظلماني** : يكون في توحيد الأفعال للعوامِّ الجهَّال ، والمبتدعة الضُّلَّال ، **والحجاب النوراني** : يكون للخواصِّ في توحيد الأسماء والصفات ، الآخذين في طريق الأعمال ، الشاهدين لما يصدر عنهم من حسن الأفعال ، وسنيَّات الأحوال .

ولكل حجابٍ علامةٌ علىٰ من قام به ؛ **فعلامةُ حجاب العوامِّ** برؤية الخلق وأفعالهم دون الله ، **وعلامةُ حجاب الخواصِّ** برؤية أعمالهم ، وأن لهم فيها حولاً وقوة ؛ **فالحجاب الظلماني** يقتضي العذاب وسوء الحساب ، **والثاني** يقتضي الالتفات إلى الأغيار وكثائف الأستار ، والتعوُّق عن اللحوق بأهل التحقُّق والعيان .

فمن كان مشهده أفعال الخلق دون الله . . **فهو بعدُ لم يخرج عن**

حيّز المبعدين ، ولم يعدَّ في أصحاب اليمين ؛ فضلاً عن أن يكون من المقربين السابقين .

ومن شهد أن لا فعل لهم دون الله . . فهو معدودٌ في غمار عامة المؤمنين ، ومن جملة أصحاب اليمين ، فهو موحِّدٌ في الأفعال ، وذٰلك متعيِّن علىٰ كل مسلم متديِّن ؛ فحيث صحَّ له ذٰلك . . فقد نجا بحمد الله من ورطة الجحود ، وانتظم في نظام الإيمان ، وتكفَّل له بالأمان ، من جملة عباد الرحمٰن .

ومن ترقَّىٰ عن ذٰلك بأن شهد أن لا حياةَ لهم . . فذٰلك رتبةٌ في التوحيد ، ومقامٌ في التفريد الخاص بالمقربين ، وهو أول رتبة في طريق الإرادة ، وشروق شمس السعادة ، وقد آن له في الدخول ، وأذن له بالوصول ، والظفر بالمأمول .

ورتبة القرب الخاص في الخاص : أن يشهدَ وجودَهم عينَ العدم ؛ لاستغراق روحه في شهود القِدَم ، بمطالعة أنوار الذات المحرقة ، وأسرار الصفات المشرقة ، فهٰذا هو الواصل والإمام الكامل ، فلو كُلِّف علىٰ رؤية الغير . . لم يستطع إلىٰ ذٰلك سبيلاً ، ولم يظهر له وجود ، فكيف يرى الأكوان مع شهود العيان ، أم كيف تحجبه الأعيان عن التحقُّق بكل مَنْ عليها فان ؟!

فلم تزل الأكوانُ في فنائها أزلاً ووجوداً وأبداً هالكةً من حيث نسبةُ غيريَّتِها ، باقيةً من حيث حقيقتُها ؛ فالوجه الحقيُّ هو الظاهر علىٰ صفحات الأكوان ، المشهودة به الأعيان ، القائمة به الذوات والأوصاف والأفعال والأبدان ، تنزَّهَ عن أن يحجبه كون ، أو يطلق عليه باتصالٍ أو بون ؛ فهو سبحانه مباين الأشياء من حيث ذاتُهُ ووصفه

وفعلـه[1] ، محيطٌ بها مـن حيث علمه ، مُدبِّرها بحكمه ، مسـتغرق بجميع أفعالها وصفاتها وذواتها من حيث قيوميتُهُ وشـهوده وقيامه .

مما يـدلُّ علىٰ قهـر الإلٰه بمـا حَجَبْـكَ عنـه بمـا هـوْ باطـلٌ عَدَمُ
أنَّ الحجابَ من المَحْجوبِ ليسَ كما يَظُنُّـه الجاهـلُ الغِـرُّ الغبـي الفَـدِمُ

* * *

فلما تحقق وجوده ، واسـتغرق الأشـياء بشـهوده . . قـال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) أي : مخالف للحوادث ، لا يشابهونه في شيء سبحانه وتعالىٰ ؛ كما قال شيخ الطائفة الجنيدُ : ( التوحيد : إفراد القدم من الحدث ) .

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟!

كيف يحجبه الشيء وهو الذي أظهره ، وبلطيف حكمته وبديع صنعته دبَّره وقدَّره ، ومن العدم أبرزه ، وبما أشرق عليه من نور وجوده أوجده ، وبالشبيه عرَّفه ، فكيف تحجبه الأشياء وليس من الوجود إلا ما أظهره فيها ؟!

مثلُ الزجاجة ينظر من تأملها أن ليس موجوداً ألا نور باريها

فلما كان الظاهر فيها نوره ، والحاكم عليها سلطان ظهوره .. **قال المؤلف رضي الله عنه :**

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

فكل شيء تراه ظهر به وجود موجده ، وكمال مبدعه ، وحكمة صانعه ، حتى استدل بها المستدلون عليه ، واهتدىٰ بها السالكون إليه ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ ، **وفي ذٰلك أقول :**

وجود الآشيا تدلُّ العاقلَ الفطن وتُوجِد الطالب المشتاق للوطنِ

فهٰذه الحكمة تدل علىٰ شهود تجلي وصفه ، والتي تليها تنبئ عن تصرفه في الأشياء بنافذ قدرته وبالغ حكمته ؛ **لذٰلك قال :**

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟!

قوله : ( كيف ) صيغة تعجب ، كيف يتصور ؟! **والتصوُّرُ** : هو ثبوت

صورة الأمر في الخارج أو في الذهن ، وقوله : ( **يحجبه** ) يستر وجوده ، وذلك الشيء من جملة أفراد حكمته ، وصورةٌ من بديع صنعته ، **فلا تخلو الأشياء** : إما أن تكون عن تجلِّي جماله ، أو ظهور جلاله ، أو تحت حكم اسمٍ من أسماء فضله ، أو قهر عدله ، وفي ذلك أقول :

ظهورُ أوصافِهِ في كلِّ كائنةٍ ... أو نور أسمائه الأفعالُ تحكيها
إن المظاهرَ في الأوصاف كامنةٌ ... كالماء في سائرِ الأشجارِ يُحْيِيها
تفرَّقَتْ حَسْبَ ما تعطيه من صفةٍ ... قامت به الكلُّ عَلْقَمُهَا وحَالِيها

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

في وجوده ، فأومأ له بالإقرار ، وسبَّحَ له بلا إنكار ؛ **وذلك لما شهد من الاقتدار** ، وتجلَّى له من الأنوار ، في مختلفات الأطوار ، وقامت له من الأسرار ، من وراء الحجب والأستار ، فَمِنْ مُشاهدٍ ظهرَ له في صمِّ الأحجار ، ومن مشاهدٍ شهده في الكواكب والشموس والأقمار ، أو من وراء حجاب النار . . . إلى غير ذلك ، ومن مشاهدٍ للحقائق متبرجةً بلا خمار ، وظاهرةً له بلا استتار ، فشهد صِرْفَ التوحيد ونعته بما أشهده من صريح تمجيده بلا ريبٍ ولا إنكار ، أولئك الصفوة الأخيار ، والسادة الأبرار ، الذين شاهدوا صرف اليقين ، وتحقَّقوا بحقائق التمكين ، الأميون المحمَّديون .

لقد عَمَّ الظهورُ لكل شيءٍ ... وسبَّحَ كلُّ موجودٍ بحمدِهْ
وأنقذ أمةً من زورِ غيٍّ ... وفَرَّجَ عنهمُ كُرَباً وشَدِّهْ
ونالت رحمتُهْ مَنْ كان حياً ... بأحمدَ صَفْوَتِهْ خِيرَتْهِ عَبْدِهْ

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

لثبوت أوّليته وتحقُّق أزليته ، وهو الظاهر لنفسه في أزله وأبده ، فلم يفده وجود الأشياء ظهوراً لم يكن له ، فكيف يحجب الحادثُ الجائزُ القديمَ الواجبَ ؟! أم كيف يحجب الصانعَ صنعتُهُ ؟!

فكيف يحجبُهُ مَنْ كانَ صنعَتَهُ وحادثٌ بعدما قد كانَ في العَدَمِ
قد كانَ موجودَ قَبْلَ ٱنشا بريَّتهِ فكيف يُحْجَبُ نورُ الحقِّ بالظُّلَمِ ؟!

فإذا كان ظاهراً قبل وجود الأشياء . . فهو أظهر منها بعد وجودها ؛ لذلك قال رضي الله عنه :

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

هٰذا إذا ثبت وجود الشيء . . فمُوجِدُ الشيء ومُخترِعُه أظهر منه ؛ من حيث سبق شهود الشاهد إلىٰ ذٰلك الشيء ، فالحق أظهر بالوجوب والقدرة والتخصيص والحكم ، والأشياء جائزة الوجود ، ناقصة القدرة ، عاجزة عن التخصيص ؛ فمن كان وجوده بغيره وقدرته عن غيره . . فحكمه كالعدم ، فقدرة العبد وإرادته محكومٌ عليها بالقهر تحت أحكامه الغالبة وأقداره النافذة ؛ فأصل العبد وقدرته : العدم ، وفصله : العجز والنقص ، هٰذا برهان ظهور الحق على الأشياء لمن كان تحت كِنِّ الحجاب .

وأما أهل الكشف . . فرؤيتهم للأشياء عينُ العدم ؛ كما قدمنا ذٰلك قريباً ، وفي معناه أقول :

اللهُ أظهـــر أن تُخْفِـــي مظاهِرَه     وُجودُ الآعيان أو شـــيءٌ مِنَ الغيَرِ
اللهُ أكبـــرُ أن يوجَـــدْ مناظـــره     وجلَّ عَنْ مثلِ ما يَخْطُرْ في الفِكَرِ

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟!

ثبوت وحدانيته لم تُبْقِ لغيره معه وجوداً ، وظهور تجلّيه لم يبقِ لغيره شهوداً ، فإذا قرنت الحادث بالقديم . . **اضمحلَّ وجوده وانطمس شهوده** ، فكيف يكون معه وقد وجب تنزيهه عن الثاني في ذاته وصفاته وأفعاله ؟! ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

والكلام على الوحدانية يقتضي البسط والتطويل ، **وفي الإشارة بذلك كفاية لمن شرح الله صدره بنور اليقين** .

اللهُ واحِـــدُ لا يَثْبُـــتْ لـــه ثاني     فليسَ لـــه جلَّ أمثـــالٌ وأقراني

## كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

كما نطق بذلك الكتاب ، وشهدت به السُّنة ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ .

**وأقربيته لا تشبه أقربية الأجسام** ، بل هو القائم على كل نفسٍ بما

كسبت ، بل قربه قربُ شهود وإحاطة ، وكلاءة وقدرة وعلم ، واستغراق جميع الأحوال والقوىٰ ، « لا حول ولا وقوة إلا بالله كنزٌ تحت العرش » أو كما قال صلى الله عليه وسلم [1] ، بل وبذاته ، وإنما عبَّرنا بالصفة ؛ لأن الصفة لا تفارق الموصوف ، وفي معناه أنشد :

لَلّهُ أقـرَبُ إلـىٰ [2] الأشـيا بقدرته ... فليس يشبهُ قربَ الخلـق بالصورِ

فهــو القريــب إلــىٰ كلِّ فقربتــه ... من كل شــيءٍ هــو التأثير في الأثرِ

**كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْلَاهُ .. لَمَا كَانَ وُجُودُ شَيْءٍ ؟!**

أي : لـولا وجـود ذاتـه .. لمـا ظهر تجلـي وصفه ، ولا بـرزت أعيان مخترعاته ، ولا وجدت أرضه وسماواته ؛ لأن الأشياء مخترعة ومبتدعة ، فـلا بـد لهـا مـن مختـرع ومبـدع ، ولا يكون كـذٰلك إلا عالم مريـد قادر حـي كامـل متنـزِّه عـن النقائـص ؛ إذ لـو لـم يكـن كـذٰلك .. للـزم ألا يوجـد شـيء ، أو يكون أكمـل من خالقه وموجده ، ولا يخفى اسـتحالة ذٰلك ؛ فوجـود الأشـياء صادر عن فعلـه ، ومقتضيات أحوالهـا بارزة عن أمره .

لـولاه مـا كانـت الأشـياء بـارزة ... ولا ظهَـرْ من عيـونِ الكونِ من أثرِ

قَـدْ كان ثَـمَّ ولا شـيءٌ ولا سِـمَةٌ ... وَهْـوَ كما كان جا هـٰذا فـي الخَبَرِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ( ١٥٩/٥ ) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) في ( ب ) : ( وعلم ، بل وبذاته ، وإنما عبرنا بالصفة ؛ لأن الصفة لا تفارق الموصوف واستغراق جميع الأحوال والقوىٰ ، « لاحول ولا قوة إلا بالله كنزٌ تحت العرش » أو كما قال : لله أقرب إلىٰ ) .

## يَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهَرُ ٱلْوُجُودُ فِي ٱلْعَدَمِ ؟!

لأن العـدم باطـل ، والوجود حق ، والباطل ظلمة ، والوجود نور ، ولا يخفـىٰ عـدم اجتمـاع الظلمة والنـور ؛ فكل ما سـوى الله عزَّ وجـلَّ عَدَمٌ باطل ، والله هو الموجود في الوجود ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، فكيف يظهر ليل العدم في صبح نهار الوجود ؟! وفي معناه أنشد :

فكيف يظهرُ في صبحِ الوجودِ عمىً     أم كيف يخفىٰ نهارُ الحقِّ بالعدمِ

## أَمْ كَيفَ يَثْبُتُ ٱلْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ ٱلْقِدَمِ ؟!

فإذا جاء الحق . . زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ؛ أي : بطل واضمحل وتلاشىٰ ، فإذا ظهر الوجود الحقيُّ . . ذهب التوهُّم الغيري ، وتلاشى العالم الخلق .

لـو لاحَ أدنـىٰ بـارقٍ مـن وجهها     صـارَ الوجودُ إلـى الفَنَـاء المفظَعِ

ولـزال الالتباس ، وذهب الباس ، ونطقت الحواس ، وبرزت مخدَّرات الحقائق ، لكل محب صادق ، من تحت أسـتار البشـر ، وتحقَّق الخبر ، وانطمس الأثر ، عند ظهور مؤثره ؛ فحقيقٌ أن يتزلزل ولا يثبت ، فتزلزل أراضي النفوس ، وتخرج أثقالَها ، وتحدِّث أخبارها ، وتكشف أستارها ، وتكون الناس أشتاتاً ؛ ليروا أعمالهم .

وفي هٰذه إشـارةٌ لطيفةٌ لذوي الأسـرار ، عند البروز من الآثار ، لله الواحد القهـار ، فعند ذٰلك تظهر لهم لطيفة المحبـة الكامنة في لباب

الحقائق ، الكائنة في لطائف الأعمال ، المودعة في أصداف المعاني : بأن ما سوى الواحد هالك فانٍ .

فكيف يثبت حادثٌ فانيٌ عدمُ إذا قرنته بالموصوف بالقِدَمِ

واعلم : أن عبارته هـٰذه بديعة ، وهي متعلقةٌ بعضها ببعض ، وبعضها ألطف من بعض ، وهي كلها من علوم الكشف الحقي ، والتجلي الوصفي ، والمظهر الاسمي ، فلا شيء منها متعلقٌ بالمعاملة القالبية ، وإنما هي حقائق مصونة ، وأسرار مضنونة ، ودررٌ مخزونة ، ولم نُبيِّنْ منها إلا ما يصلح بيانه علىٰ طريقة العلم .

فقوله في معظمها : ( كيف ) اعلم : أن علماء الكلام اختلفوا : هل يجوز إطلاق الكيف أم لا ؟ فعامة المحققين يجيزونه حيث لم يقترن باعتراض على الله ، ودليلهم من الكتاب والسنة قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ . . . إلىٰ غير ذٰلك من الآيات [١] .

و( الحجاب ) في عبارته كلُّ ذٰلك معروفٌ من الكتاب [٢] والسنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبعين حجاباً من الظلمة ، وسبعين حجاباً من النور » أو ما هـٰذا معناه [٣] .

فلما أنهى الكلام علىٰ ذٰلك . . أخذ يتكلم في حكم العبد مع الله فيما تقتضيه منه ربوبيته ، فقال رضي الله عنه :

---

(١) والكيف هنا للأفعال ، ولتعلقات القدرة الأزلية ، وكلها حوادث ، أما تكييف الذات والصفة . . فكما نبّه المصنف قبلُ بمنعه ، وما ورد مأثوراً . . فمؤوَّل إلى التنزيه باتفاق .

(٢) كقوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فأثبت الحجابية لهم عن الله تعالىٰ .

(٣) عند مسلم ( ١٧٩ ) مرفوعاً : « حجابه النور » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فكل من نازع الله في أحكامه ، واعترض عليه في أقداره . . فقد برز في حلّة الجهل التي هي أقبح لبسة ؛ كما روي : أن الله خلق الجهل في أقبح صورة ، فقال له : « وعزتي وجلالي ؛ ما خلقت خلقاً أحطَّ منزلةً عندي منك ، لأجعلنَّك في أبغض خلقي وأحطِّهم منزلة عندي »[١] ؛ فالكافرون ذوو نفوس وجهل ، والمؤمنون ذوو قلوب وعقل ؛ فكل من أراد غير مراد الله له . . فقد جمع الجهل ، ومن جهل بالله . . فهو بغيره أجهل ، وحكم العبد التسليم لأمر الله فيما قضىٰ ، والسكون فيما أبرز وأمضىٰ[٢] ؛ كما قال القائل :

خليليَّ لوْ دارَتْ علىٰ رأسيَ الرحىٰ      مِنَ الذلِّ لمْ أجزعْ ولمْ أتكلَّمِ

فحيث أقيم العبدُ في أمرٍ لم يكن للشرع عليه فيه اعتراض ، ولم يطالبه الحق بنقيضه . . فحقُّهُ الرضا بعلم الله دون علمه ؛ لأن الله عالمٌ من كل الوجوه ، والعبد جاهلٌ من كل الوجوه ؛ فاللائق به : ألا يطلب غيرَ ما أقامه فيه سيده ومولاه إن كان مرضياً .

وإلا يكن كذٰلك : بأن كان مما يخالفُ الأمر ؛ كأن رضي بالكسل والوقوع في المناهي . . فذٰلك من المكر الخفي ، وتلبيسٌ من الشيطان المغوي ؛ بأن يجعل القضاءَ حجةً له ويظن أنه بحكم مولاه ، وإنما هو

(١) أورد نحوه في « كشف الخفاء » ( ٧٢٣ ) وعزاه لداوود بن المحبر في كتاب « العقل » ولغيره .
(٢) في ( ب ، ج ) : ( والسكون تحت ما أبرز وأمضىٰ ) .

بحكم هواه ، فالرضا بالقضاء من حيث كونُهُ قضاءً ، والقضاء أيضاً من حيث كونُهُ قضاء دون المقضي من حيث كونُهُ عملاً .

فهنا أمورٌ غلط فيها جهلةٌ من ينتمي إلى التصوف دون علمٍ بمجرد الزيِّ دون التحقق بمقامه .

فتراهم يحتجُّون بالقضاء ويبرِّؤون نفوسَهم عن ذٰلك ، **فاللائق عكس ذٰلك** ، وبالأول الذي هو وقوفٌ على رؤية الأشياء دون الله ، **وبذٰلك هلك الجمُّ الغفير** باعتراضهم على الله فيما قضىٰ ، وتبرُّمِهم مما في مملكته أمضىٰ ؛ كمن أحال أفعاله الملومة على التقدير ، وجعله ذريعةً له إلى التقصير . . **فقد أخطأ الحكمة** .

**والوقت عند الصوفية له إطلاقات :**

**فمنهم** : من ذهب إلىٰ أنه ما طلبه الحق منك .

**ومنهم** : من ذهب إلىٰ أنه كل تجلٍّ فيه من الشؤون الإلـٰهية .

**والوقت أيضاً عندهم** : مراعاةُ الأنفاس وإعطاؤها ما تستحقه من عبادةٍ أو عبوديةٍ أو عُبودة ، فيستغرقهم ذٰلك عن الماضي والمستقبل ؛ لذٰلك يقال : **الصوفي ابن وقته** ؛ أي : كلُّ ما اقتضاه تجلِّي الوقت عليه كان نعته ذٰلك التجلي ؛ فكلُّ من لم يقطع الأنفاس فيما طلبه الحق منه . . **كانت عليه حسرة** ، فحريٌّ أن يندم علىٰ فواتها ، ويتحسَّر عند انكشاف خزائنها .

فالوقت إذا لم تقطعه بما طلبه الحقُّ منك . . **قطعك عن الطاعات بالموت** .

الوقــت دُرٌّ ثميــن لا مــردَّ لــه ... والمـوت يقطـع عنَّـا غاليَ الـدُّررِ
كُـنِ ابـنَ وقتـك إيـاكَ أن تصاولَـه ... فـلا تُـرِدْ غيـر مـا يبـرزُهُ مُقْتـدرِ

فسلِّمِ ٱن كنتَ ذا عقلٍ فليس له ... مَردٌّ يمنعُهُ مِنْ سائرِ البشرِ
فمَنْ يُرِدْ غيرَ ما قدَّرَهُ فاعلُهُ ... فوصْفُهُ الجهلُ يُحْكىٰ ذا عنِ الأثرِ

* * *

فإذا علمت أن الوقت سيفٌ قاطع سريع المرور، يفوِّت نفائس الأعمال[1]، وسنيات الأحوال.. قال المؤلف رضي الله عنه:

(١) في (ج): (يفوت يفوت نفائس الأعمال) بدل: (يفوت نفائس الأعمال).

## إِحَالَتُكَ ٱلْأَعْمَالَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْفَرَاغِ . . مِنْ رُعُونَةِ ٱلنَّفْسِ

العبد مركزه الجسماني في دار الدنيا ، ومحتِدُهُ الروحاني في دار الآخرة ، والمركز الجسماني فانٍ ومطالبُهُ شتىٰ ، والمحتدُ الروحاني باقٍ ومطلبُهُ واحد ؛ فالأعمال وإن كثرت أجناسُها وتعدَّدت أنواعها . . فمرجعها إلىٰ شيءٍ واحدٍ وهو الله عزَّ وجلَّ .

فإذا طالبه هٰذا العالم الروحاني بالعمل بسائر أنواعه ؛ سواء كان العمل بالأركان أو بالجَنان . . فالواجبُ عليه : إجابتُهُ وقطع دواعي أشغاله الجسمانية ؛ فإن أجاب العالمَ الروحاني ، وترك أشغال العالم الجسماني . . فذٰلك هو الكيِّس الفطن بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذٰلك ، وثناء الله عليه بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيِّس : من دانَ نفسَهُ ، وعمل لما بعد الموت » ، والرعونة : هي الحماقة ، قال صلى الله عليه وسلم في شطر الحديث : « والأحمق : مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنَّىٰ على الله الأمانيَّ »(١) .

ومن جملة ذٰلك : أنه منهمكٌ في أشغاله الدنياوية ، كيف وكلُّ شغلٍ منها تتولَّد منه أشغالٌ كثيرة ، فإذا لم ينهض عن فترته ، ويستيقظ من رقاد غفلته . . فجديرٌ أن تطول حسرته ، وتتوالىٰ عليه مدلهمَّاتُ ظلمته ؛ إما بأن يختطفه الموت علىٰ حين غفلته ، أو يركن إلى الدنيا وينسىٰ قُرْب نقلته .

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٤٥٩ ) ، وابن ماجه ( ٤٢٦٠ ) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله تعالىٰ عنهما .

# إِحَالَتُكَ ٱلْأَعْمَالَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْفَرَاغِ .. مِنْ رُعُونَةِ ٱلنَّفْسِ

العبد مركزه الجسماني في دار الدنيا ، ومحتِدُهُ الروحاني في دار الآخرة ، والمركز الجسماني فانٍ ومطالبُهُ شتىٰ ، والمحتدُ الروحاني باقٍ ومطلبُهُ واحد ؛ فالأعمال وإن كثرت أجناسُها وتعدَّدت أنواعها .. فمرجعها إلىٰ شيءٍ واحدٍ وهو الله عزَّ وجلَّ .

فإذا طالبه هٰذا العالم الروحاني بالعمل بسائر أنواعه ؛ سواء كان العمل بالأركان أو بالجَنان .. فالواجبُ عليه : إجابتُهُ وقطع دواعي أشغاله الجسمانية ؛ فإن أجاب العالمَ الروحاني ، وترك أشغال العالم الجسماني .. فذٰلك هو الكيّس الفطن بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذٰلك ، وثناء الله عليه بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيّس : من دانَ نفسَهُ ، وعمل لما بعد الموت » ، والرعونة : هي الحماقة ، قال صلى الله عليه وسلم في شطر الحديث : « والأحمق : مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنَّىٰ على الله الأمانيَّ »(١) .

ومن جملة ذٰلك : أنه منهمكٌ في أشغاله الدنياوية ، كيف وكلُّ شغلٍ منها تتولَّد منه أشغالٌ كثيرة ، فإذا لم ينهض عن فترته ، ويستيقظ من رقاد غفلته .. فجديرٌ أن تطول حسرته ، وتتوالىٰ عليه مدلهمّاتُ ظلمته ؛ إما بأن يختطفه الموت علىٰ حين غفلته ، أو يركن إلى الدنيا وينسىٰ قُرْب نقلته .

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٤٥٩ ) ، وابن ماجه ( ٤٢٦٠ ) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله تعالىٰ عنهما .

فسلِّمْ أن كنتَ ذا عقلٍ فليس له مَرَدٌّ يمنَعُهُ مِنْ سائرِ البشرِ
فمَنْ يُرِدْ غيرَ ما قدَّرَهُ فاعلُهُ فوصْفُهُ الجهلُ يُحْكى ذا عنِ الأثرِ

* * *

فإذا علمت أن الوقت سيفٌ قاطع سريع المرور، يفوِّت نفائس الأعمال[1]، وسنيات الأحوال.. **قال المؤلف رضي الله عنه:**

---

(1) في (ج): (يفوت بفوت نفائس الأعمال) بدل: (يفوت نفائس الأعمال).

والموفق الميمون : من استغنم فرصة الإمهال ، وقطع علائق الأشغال ، وبادر الأيام والليال ، ولم يلهه عن ذكر الله مالٌ ولا عيال ، وقام بعبادة الله علىٰ كل حال ؛ مرضاً أو صحة ، فقراً أو غنىً ، صيفاً أو شتاء ، سفراً أو حضراً . . . إلىٰ غير ذٰلك من تقلُّب الأحوال ، فلم يدرِ متىٰ تفجؤه قواصف الآجال ، وتغييرات الأحوال .

يا مَنْ يريدُ خُروجاً من مآربِهِ
عَلامَ تَطْلُبُ محالاً ليسَ تُدْرِكُهُ
فَٱنهَضْ علىٰ ضَعْفِكَ المَقدورِ فَأْتِ بِهِ
إن شِئْتَ تَفْرُغُ عَنْ شُغْلٍ فَأَتْرُكُهُ

غيره :

رعونةُ النَّفْسِ أَنْ تُوعِدْكَ بالعَمَلِ
وتَسْتَبِدَّ إلى الشَّهَوَاتِ والكَسَلِ
وتُنْسِيَ المرءَ مِنَّا سُرْعَةَ الأَجَلِ
ويعتريهِ بذاكَ الهمُّ والمللِ

فإذا أقامك الحق في عبادته ، واستعملك بأعمال طاعته . . فلم تتمَّ عبوديتك إلا بالتسليم له في أمر ربوبيته ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَطْلُبْ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمِلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ؛ فَلَوْ أَرَادَ .. اسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ

لا تطلب أيها المؤمن الراضي بتدبيره واختياره ، الخاضع تحت أمره واقتداره : أن يخرجَكَ من حالةٍ هو مرتضيها لك ، ومقدِّرها عليك ، وإن خالفت مرادك ، وناقضت طبعك ، ونافرت هواك ؛ **فهو أعلم بما فيه منفعتُكَ** ، فلا ينبغي لك أن تعرِّفَهُ بما يصلحك ، وتذكِّره بما ينفعك ، فإذا طلبت منه . . **فاطلب أن يرزقك حسنَ الأدب معه** ، وترك الاعتراض عليه ، فافهم ما على العبد من الأدب مع الله تعالىٰ ، سيما فيما استأثر بعلمه دون خلقه .

فإذا أقامك في حالةٍ دينية أو دنيوية لم يطالبك العلم بالخروج عنها ولم يذمها منك . . فالأدب : ألا تتحكَّمَ وتتخيَّرَ على الله بالخروج عنها ، فلو أراد ذٰلك . . **لاستعملك فيما طلبتَ من غير استعمال خروجٍ منك** ؛ كما أدخلك واستعملك فيما أنت فيه ولم تكن طلبت الدخول فيها قبلُ ، فطلب العبد لذٰلك لفرط غباوته وجهله بربه ؛ حيث استدرك عليه في علمه .

وإن كانت تلك الحالة غير ملائمةٍ له ومنغصة للذّته . . فحق العبودية : ألَّا يتعرَّض ولا يتبرَّم ، بل يقبل كلَّ ما أبرزته الربوبية ، وتكون حاله الرضا ، فإن لم يقوَ علىٰ ذٰلك . . فالصبرُ ؛ **فهو رخصة في العبودية** .

والحالةُ : هي كلُّ ما كان العبد فيه ، سواء كان من قبيل الحركات الجسمانيات ، أو من قبيل الخطرات والإرادات القلبيات .

وأما إذا كانت تلك مما فيه مناقضةٌ للعلم ، ومباينةٌ للأمر . . فينبغي

أن يتضرَّع إلى الله تعالىٰ ويبتهل في إخراجه ؛ فليس ذٰلك مما نهىٰ عن الطلب فيه المصنف ، بل ذٰلك مما يقتضيه كلامه ، أو في حالة قصور وفتور . فينبغي أن يطلب من الله المزيد ؛ كما ندب نبيه صلى الله عليه وسلم المتخلِّق بأعلىٰ مراتب العبودية ، الذي خُصَّ من الأدب بأكمله ، ومن العلم بأفضله ؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ في حقِّه وتنبيهاً لأدباء أمته : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، وقال في حق من طلب الخروج من المآثم : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ فالطلب المحظور : هو أن تطلبَ الخروج من حالة مرضية إلىٰ حالةٍ أخرىٰ لم ينصَّ الله ولا رسوله علىٰ تفضيلها علىٰ ما أنت عليها ، فتكون كالمستدرك عليه في علمه ، والمعترض في حكمه ؛ فلا يخفىٰ ما في ذٰلك من سوء الأدب ، وفي معناه أقول :

لا يطلبِ العبدُ أن يخرجَهُ سيِّدُه ... من حالةٍ يرتضيها قامه فيها
فلو أرادَكْ لأنَّ الحكم في يده ... لأستعملَكْ قبل أن تظهرْ مباديها

* * *

فنسأل الله حسن العافية وتمام العافية فيما قضىٰ ، والخيرة فيما استعمل وأمضىٰ ؛ فشأن العبد : أن يمضي في مراد سيده ، ولا تتشوَّفَ نفسه إلىٰ جزاء عاجل من قبيل الأحوال ، ولا ثواب آجل في الآخرة من قبيل الدرجات ، بل يكون عبداً محضاً ، أَمَرَهُ سيدُه فامتثلَ أمرَهُ ، ونهاه فاجتنب نهيه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا .. إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ ٱلْحَقِيقَةِ : ٱلَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ ، وَلَا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ ٱلْمُكَوَّنَاتِ .. إِلَّا نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

الإرادة : حالةٌ قلبيةٌ يتبعها العزم ، وهي أثر اسمه المريد ، وهي واجبةٌ في حق الله تعالىٰ ، أحد صفات المعاني ، وبرهانُها : التخصيص ، وفي حق العبد جائزةٌ ناقصة ، وهي أن نفوذ إرادة العبد متوقفةٌ علىٰ سبق إرادة الله ، فإن وافقتها .. عملت حسب ما قدر أن تعمله .

والهمة : هي العزيمة التي تصدر عن الإرادة ، وهي مبادئ الحركات القلبية ، ومنها تظهر على الحركات الأفعال المرادة ، وهمَّةُ السالك أبلغ الهمم ؛ لأن همته مجموعةٌ من متفرِّقات الأشغال ، فلذلك عند توجهها للأمر المهتم به .. تنفعل بها أمورٌ خارجةٌ عن اقتدار البشر .

وهمة السالك الصادق جادَّةٌ في سيرها في مفاوز المجاهدة ، وعاكفة بكليتها علىٰ إرادة المواجهة والمواصلة ، فإذا كُشفت لها الأنوار .. نادتها الأسرار من وراء الأستار : إياك والوقوفَ مع الأغيار .

والهاتف : يكون معنوياً علمياً ، وقد يكون حسياً جسمياً ، والهواتف الإلـٰهية تطرق طروقاً(١) ، وترمق رموقاً ، يفهمها من أيَّده الله بنور المعرفة الحقِّية ، فإذا أراد أن يقف يظن أنه وصل إلى المراد .. رمقته الأعين السرية ، وطرقته النفثات الروحية ، ونادته الألسن القُربية : إن

(١) في ( ج ) : ( والهواتف الإلهامية تطرق طروقاً ) .

الحقيقة المطلوبة أمامَكَ ؛ فجُدَّ في السير ، فعن قريب يرفع عنك حجب الغِيَر ، وتقول بعدُ : لا ضير .

وأين الوصول وأنت باقٍ بأوصافك ؟! فمتىٰ بقي لك وصف .. فأنت محجوب ، فعند تحقيق الوصول تفنىٰ إرادتك وتُمحىٰ نعوتك ، فإياك والوقوفَ مع وصفك ، فتكون محجوباً بما تظن أنه كشف ، ومبعَداً بما تظن أنه قرب ، فأمامك المقصد حتىٰ يكون أمامُكَ وراك ، وصباحُكَ مساك ؛ فأنت ما دمت بين جهاتك ، وفي مضيق صفاتك ، وتحت حجاب ذاتك .. فأنت بعدُ لم تصلْ إلىٰ بغيتك ، ولم تنل منيتك .

ولا تبرجت ظواهر المكونات .. إلا نادته حقائقها : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾

التبرج : هو التكشُّفُ عن الزينة ؛ أي : ما تكشفت للسالك الصادق ظواهر زينة المكوَّنات الدنيويات ، والدرجات الأخرويات ، والمقامات الملكوتيات ، والعوالم السماويات ، والكواكب العلويات ، والأفلاك الروحيات ، والصور الكرسيات ، والعلوم اللوحيات ، والأسرار العرشيات ، والكراسي الجبروتيات ... إلىٰ غير ذٰلك مما لا يسع كشفه لغير أهله .. إلا نادته حقائقها التي بها حسُنت وبها وجدت ، ومن بديع سناها اشتهرت ؛ لأنها لأهل الله ناطقة ، ولهم مفاوضة : ( إنما نحن ) دون موجدنا ، ومبدعِ حسننا ، ومظهر نورنا ، ومالك أمرنا ، ومدبِّر خلقنا ، ومعيرنا مِنْ باهي جماله جمالَنا .. ( فتنةٌ ) واختبارٌ لمن وقف دونه عند ظهورنا[1] ، فإياك والوقوف .

فهٰذه وما أشبهها من نصائح هواتف الحقائق لمن سبقت له

---

(١) في ( أ ، ج ) : ( فتنةً واختباراً لمن وقف دونه عند ظهورنا ) .

من الله هداية ، ومنَّ عليه بنور ولاية ؛ فكل مَنْ كان الله معه بالعون والتولّي . . كانت سائر الأكوان تناديه بأسرارها ، وتشرقُ عليه بأنوارها ، وتخبره بمنافعها ومضارِّها ؛ فلا يزال يترقَّىٰ في مراتب الوجود ، ومنازل الشهود ، وهي تكسوه علوماً ، وتمنحه فهوماً أبداً كذٰلك حتىٰ يخرج عن العوالم الكونية سالماً من فتنها ، معافىً من وبيل محنها ، ويلقىٰ في يمِّ التوحيد ، ولُجَّة التفريد ، وقضاء تفرقة التعديد ؛ **فمن وقف مع شيء دون الله . . فهو كافر** ؛ أي : ساتر ، بمعنىٰ : أنه ساتر وجود الحق بثبوت شيء معه ، **وقد علمت أنه لا يثبت مع ظهوره شيء** ، فما ثبت شيء إلا وقد ستر عنه وجود وحدانية الحق .

فلا تقفْ همةٌ من دون مقصدها ... إلا وخابَ لديها السعي والأمل
فكيف مِنْ وابلِ التحقيقِ يُقْنِعها ... شفانُ وهمٍ ومصُّ الظَّنِّ بالوشلِ (١)
يا من تبرَّجْ له الأكوان ظاهرُها ... هل لا تخاطبك الأسرار بالمقل (٢)
إن كنت تطلُبُ من الأقوال أحسنها ... فٱسْمَعْ نصائح لا تغترَّ بالكلل

فإن كانت الزينة دنيوية . . **ففتنتها ظاهرةٌ جلية** ، وإن كانت من قبيل الدرجات الأخروية والأحوال السنية . . **ففتنتها باطنةٌ خفية** ؛ فالوقوف مع زينة الدنيا غرور ، والتمسك بها قطيعة ، وإن كانت من قبيل الدرجات والأحوال . . **فالوقوف حجاب عن منازل الشهود والاقتراب** .

فالنظر إلىٰ زينة الدنيا . . **حال الضُّلال والجُهَّال** ، والنظر إلىٰ بهجة الأحوال والوقوف دون مراتب الكمال . . **شأن مَنْ لم يؤهَّل للوصال** ، ولم

---

(١) الشفَّان : بقية الماء في الإناء ، وآخر البيت فيه تضمين لبعض قول الطغرائي :

فيمَ اعتراضك لجَّ البحر تركبه ... وأنت تكفيك منه مصَّة الوشل

(٢) كذا في النسخ : ( هل لا ) ولعلها : ( هلَّا ) .

يطالع مشرقات الجمال ، ومحرقات الجلال ، ولم يجتلِ لروحه مخدرات الحقائق من أفق مشارق شموس الأسرار ، فنسأل الله هداية وتوفيقاً ، وصواباً وتحقيقاً .

**وفي معناه :**

فليس للسالك المحفوظ من أرب     إلا اقتناصُ صريح الكشفِ والأدبِ
إن الحقائق نادت كلَّ مكتسبٍ     إلىٰ سلوك طريق الحق بالسببِ
فلا تقِفْ فالذي تطلبُهُ مغتربٌ     ورا خبا الكونِ جُزْ الأكوانَ وٱقْتَرِبِ

❋ ❋ ❋

فإذا كان الأمر كذٰلك ؛ أي : **لم يصل رتبة الوصل الخاص إلا بمحو الأوصاف ، ومحو الأوصاف** يقتضي الحضور ، **ومع هٰذا** : فالعبد مطالبٌ بالأدب في الطلب ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

طَلَبُكَ مِنْهُ ٱتِّهَامٌ لَهُ ، وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ عَنْهُ ، وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ مِنْهُ ، وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لِوُجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ

فهٰذه أربعة أقسام : قسمان حُجُبٌ ظلمانيةٌ كثيفةٌ لأهل البعد والضلال ، وحجبٌ نورانيةٌ لطيفةٌ لأهل الوقوف مع الأسباب ، وكل حجابٍ أكثف من قسيمه ، فطلبك منه ما ضمنه لك ووعدَكَ إياه . . اتهامٌ له في وعده ، واستعجالٌ لما ضمنه ؛ فذٰلك ذنب عند العارفين ، وقلة أدبٍ عند الموحدين ، ولا يخفىٰ ما في ذٰلك من المناقضة لحالة العبودية ، فلا ينبغي للعبد : أن يعرِّفَ سيده الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر .

والذي تطلبه : إما أن يكون نفعاً أو دفعاً ، وكل صادر عن تجلي اسمه وظهور وصفه ، فكيف تطلبه رفع ما أنزله وهو لم يبرزه إلا وقد قدَّر وقته ومحلَّه وعينه وماهيته ووصفه ؟! اللهم إلا أن يكون طلبك لإظهار وصف ضعفك ، وتحقيق فقرك ، وتعلقاً بقوته وغناه ، وامتثالاً لأمره حيث ندبك إلىٰ دعائه ، لا كراهةً وتبرُّماً لقضائه .

وكذٰلك دعاؤك لجلب منافعك ، وإنزال مصالحك . . كذٰلك لا ينبغي أن تكون في دعائك له متحكِّماً عليه ، بل تدعوه مع تفويض الخيرة إليه فيما هو الأنفع لك من حصول غرضك أو عدمه ، وإظهاراً لفاقتك إليه وقلة حيلتك في إيصال منافعك ، ومنال مآربك .

فليكن العبد في دعائه مراعياً الأدب ؛ فلا يكون الباعث له غير امتثال الأمر ، لا لأغراضه ؛ فهو أعلم بوقت حصولها ، ففوِّض ذٰلك إلىٰ علمه ، وليكون اعترافاً وإظهاراً لفاقتك وتحقق ضعفك ، وعدم حولك

وقوتك ، وشهود وصفه ، ونفوذ قدرته ، وشمول حوله وقوته .

فمتىٰ كنت كـذٰلك . . كنت عبداً مصيباً ، مهذبـاً أديباً ، وإذا كنت تطلب منه ولا تطالب نفسـك له . . كنت بالجهل موصوفاً ، وبالحماقة معروفاً ، وقـد اتهمته فيما وعد ، واسـتبطأته فيما ضمن ، وذٰلك غاية الجهل بالله وبأوصافه .

وطلبك له لوجود حجابـك عنه ؛ فأي وجود لغيره معه ؟! فلو كنت ذا كشـف جلي ، وشـهود قلبي . . لم تَرَ لغيره وجوداً ، ولم يظهر لسواه شـهود ، فكيف تطلبه وبه قام وجودك ، وتحقق شهودك ، وبقيوميته قام الوجود بأجمعه ؟! فمتىٰ غاب حتىٰ يصدق عليه الفقد ؟!

**فالعارف** : يطلب وجود نفسه ؛ ليقضي بوجودها حق معبودها ، فلم يجد هناك إلا عبودية لمعبود في صورة عبد قام لمعبوده ، وفي معناه :

فكيـف يتَّهِـمُ المخلـوقُ خَالقَـهُ ... فيمـا وَعَدْ جَلَّ من قد قَدَّرَ القِسَم

فـلا يطالـبُ بالمضمـونِ رازقَـهُ ... الَاْلكَنُ القلبِ لم يَسْـتَنْتِجِ الحكم

غيره :

ما غاب مَنْ أبدَعَ الأعيانَ وأوجَدَها ... مِنْ قَبلِ مظهَرِهَا في عَالَمِ النسبِ

فكيـف يُطْلَـبُ والأكـوانُ أجمَعُها ... تشـهَدْ بمظهـرِهِ دَانٍ ومُقْتَـرِبِ

وطلبـك لغيره لقلـة حيائك منـه ؛ فكيف تؤثر عليـه . . وجميع المحاسـن والمآرب وعاليـات المطالب لديه ؟! وباهيات المحاسـن وغرائب طرائق الجمال صادرةٌ عن سـنا محاسـنه ، ومجتناةٌ من دوحة روض كماله ؟!

فكيف لا تستحيي منه وهو معك ـ كما ترىٰ ـ بجميل رأفته ولطفه ، ومحبته وعظم رحمته ، وحفظه وكلاءته وجميل مودته ، يرقبك حين

تغفُلُ عنك العيون ، ويحفظك إذا خلا عنك الأنيس ، ويؤنسك إذا أوحشك الجليس ؟!

فكيف تطلب غيره وهو يطلبك ، وترغب إلىٰ سواه وهو يقرّبك ؟!

ما هٰذا الجفاء وقلة الوفاء ؟! أتطلب من إذا رأىٰ لك عورة هتكها ، ولو بيده نعمة عنك أمسكها ، ومع ذٰلك هو عاجزٌ عن إيصال منافعه لنفسه ، وعن دفع مضارِّه ، وهو عن إيصال المنافع ودفع المضارِّ عن غيره أعجز ؟! فكيف تطلب وتدعو من هو عنك غافل ، ونجم وجوده آفل ؟!

أما يطرقك الحياء من الله : أنه يطلبك لحضرته ومحل رضوانه وشهوده في فسيح جنانه وأنت شاردٌ عنه شُرود البعير عن أهله ، وتطلب ما ليس ينفعك دونه ، وهو أيضاً غير غافلٍ عن دعائك ، في صباحك ومسائك .

وما تريد شيئاً دون وصاله ؟! وماذا يغيّبك عن شهود جماله وظهور كماله ؛ وهو يريدك أن تكون من الخدَّام ، وينزلك في داره دار السلام ، ويحيّيك فيها بالسلام ، ويتحفك بلذيذ الكلام ، ويجعلك من أهل حضرته ، وخواصِّ مُحبّيه [1] .

فإذا علمت ذٰلك . . فجديرٌ بك ألَّا تطلب سواه في أرضه وسماه ، وإلا . . نودي عليك بالملامة في عرصات القيامة ، وتوسم بالملامة حيث طلبت غيره .

يروىٰ عن الشيخ الجنيد رضي الله عنه : أنه كان جالساً في مسجد في أصحابه ؛ إذ أتته امرأة تخاصم زوجها إليه ، فقالت : يا شيخ ؛ أنا

---

(١) في ( ب ، ج ) : ( وخواص محبته ) بدل : ( وخواص محبيه ) .

زوجة هٰذا الرجل ، وقد تزوّج عليّ امرأة غيري ، فقال لها الشيخ : له ثلاث غيرك ـ أو كما قال ـ فقالت له : يا شيخ ؛ لو يجوز كشف وجه الأجنبية . . لكشفت لك عن وجهي ، فلو رأيتني . . لحكمت بأن مثلي لا يؤثر عليه ، فصاح الشيخ عند ذٰلك حتىٰ غشي عليه ، وفي معناه :

من طلب غيره باء منه بعتب ... ووبيل قبح وشين ملام

كل شيء دونه من قصور وعرب ... وفتوح ونيل مقام

فهو للواقفين غرورٌ وحجبٌ ... ومُنى العارفين هو والسلام

وطلبك من غيره لوجود بُعْدك عنه ، فأدل شيءٍ علىٰ بُعدك عنه : أن تطلب من غيره ، وهل لغيره من العطاء دون ما له حتىٰ تطلب منه ؟! فكيف تطلب من غيره ما هو موجده ، وبيده خزائنه ؟!

فهٰذا أبعد الحُجُب الظُّلْمانية ، وأكثف الأغشية القلبية ، وأقبح الحالات النفسية : أن تنزل حوائجَكَ بمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا عطاء ولا منعاً ؛ فحيث أنزلت حاجتك بمن هو كذٰلك . . فجديرٌ أن يخيب أملك ، وتُوكل إلىٰ من يسلمك أحوجَ ما تكون إليه ، ويتبرأ منك ، وتفتضح بين الأشهاد ، وتمقت عند العارفين ، وتهان عند الموحدين ، وتنسىٰ عند الذاكرين : « من أنزل حاجته بغير الله . . لم تقض حاجته . . . » الحديث[1] .

فلو أردت قضاءها . . لقصدت بابه ، وتعلّقت بجنابه ، وابتهلت في طِلابه ، وقل : ( اللهم ؛ إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف

(١) روىٰ أبو داوود ( ١٦٤٥ ) ، والترمذي ( ٢٣٢٦ ) مرفوعاً من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس . . لم تسدَّ فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله . . فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » .

عملي ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور )[1] .

فمن نزل عن هٰذه الرتبة . . فقد انكفأ به صراط الاستقامة في نار البعد عن الكرامة ، ويهان في الأعيان عن القاص والدان ؛ فلا يرىٰ له حرمة ، ويستعبده الأخساء اللئام ، ويحقر في أعين الكرام ، فهو أضلُّ من الأنعام سبيلاً .

وفي هٰذا المقام تظهر المعاصي والآثام القلبية ؛ كالنفاق وطرقه ، كالرياء والعجب والشح ، ونتائجه القالبية ؛ كالكذب والخلف للوعد والخيانة والفجور ولدادة الخصام ، وغير ذٰلك مما يطول تَعْداده من المعاصي الظاهرة والباطنة ، عافانا الله والمسلمين منها .

وفي معناه أقول :

فــــكل أمـــــر تحاولْــــهُ وتطلبُـــــهُ
فأنزلـــه بـــالله تَلْـــقَ العِـــزَّ والظفـــرِ
فمَـــنْ طلَـــبْ مِـــنْ ســـواهُ نَيْـــلَ مَطْلَبِـهِ
نأىٰ عَـنِ القُرْبِ بأقصى البعد في النظرِ

فإذا طلبت . . فاطلب من الله ، وإذا استعنت . . فاستعن بالله ، وأهم ذٰلك : أن تطلب منه أن ييسّر عليك ، ويقيمك فيما هو مطالبك به من أداء حق العبودية ، والقيام بالحقوق ، ونسيان الحظوظ ؛ لذٰلك قال المؤلف[2] رضي الله عنه :

---

(١) بعضه دعاء رواه الترمذي ( ٣٤١٩ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) سقطت من ( ب ، ج ) .

الأنفــاس : ظروفٌ ورســلٌ حاملة إلى العبد من الله مــا أودعه فيها من أســرار قدره ، وأصناف عِبَرِهِ ، والرسول راجعٌ إلىٰ مرسله إما مكرَّماً شاكراً لمن نزل به إذا أكرمه واحترمه ، وكرامتُهُ باستعماله فيما خُلق من أجله ، واحترامه صيانته عن اســتعماله فــي قاذوراتِ المعاصي ورذائل الشهوات .

فـإذا اسـتعمله بحسَـبِ مـا يعطيه الوقـت : إن تجلىٰ عليـه بالنِّعَم . . فبالشـكر ، أو بالطاعـة . . فبشـهود المنَّـة ، أو بالبليـة . . فبالصبـر ، أو بالمعصية . . فبالاستغفار ، فيعود بمقابلة ما أهداه بعملٍ مرضي أو خُلُقٍ سـني ، أو حال سُنِّي ، فيشـكرك بين الملأ الأعلىٰ ، ويكون ذٰلك العمل خزانـة مدَّخرة عند الله ، لا يتطـرق إليها تغيير ، ويصير ذٰلك النَّفَس حياً فـي صـورة نورانيـة ، قائماً لله إلـىٰ أن يعيده الله إليك فـي يوم الجمع ، فيعود إليك شـاكراً ، ولفضلك ذاكراً ، فيذكرك عند الله كذٰلك ، ويشـفع فيـك مـن جملة الشـفعاء ، ويثني عليـك غاية الثناء ؛ حيـث أكرمته في دار الدنيـا أن يكرمـك في كل موقـفٍ من مواقف الآخرة ، وحيث أحييته أن يحييك ، وحيث آنسـته أن يؤنسـك ، وحيث رفعته أن يرفعك كذٰلك جزاءً وفاقاً ، هـٰذا إن كان مما يقابل الشكر .

وإن كان من قبيل الصبر ، أو شــهود المنَّة ، أو الاســتغفار إذا قمت بها كذٰلك حيث اقتضاها وارد الوقت ؛ إن كان الصبر . . عاد مسبِّحاً ، أو شهود المنة . . عاد مشاهداً ، أو الاستغفار . . عاد مستغفراً ، ثم يعود في يوم الجزاء يؤدِّي إلىٰ صاحبه ما ائتمنه فيه من سرِّ ذٰلك العمل .

فحق العبد : ألَّا يشتغل إلا بأداء حقوق واردات الأقدار ؛ فللرسول حقٌّ على من نزل به أن يكرمه ويحترمه ؛ لكرامة مرسله وحرمته ، كيف وذلك عائد عليك ، وراجع سره إليك ؟!

فلا يهمل الأنفاس إلا الغافلون الأنجاس ، الذين يحويهم الإبلاس عند ظهور الياس[1] ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ أي : حذِّرهم ﴿ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ وهو يوم يعود عليك ما أسلفته ﴿ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وهو الموت المحتوم ، والأجل المعلوم ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عن الله وعن حقوق الله ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بما وعد الله وأوعد .

فإذا لم تكرمها ، وقتلتها بالغفلة ، وأهنتها باستعمالها في غير ما يحمد .. فترجع إلى الله وهي لك ذامَّة ، ولك مخاصمة ، وتعود عليك في يوم الجزاء بما أودعته عندها : إما حية أو عقرباً ، أو ناراً أو ظلمة ، أو غير ذلك من أصناف النكال حسب ذلك العمل الذي أودعتها إياه ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ .

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « ابنَ آدم ؛ إنما هي أعمالكم أُحصيها ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيراً .. فليحمد الله ـ يعني : الذي وفَّقه لها ، وحفظها له ، ونمَّاها عنده ، وأعانه على القيام بها ، ومدحه على ذلك ، وأجزاه وألهمه إياها بعد أن لم يكن يعرف مقاصدها ـ ومن وجد غير ذلك .. فلا يلومنَّ إلا نفسه »[2] ، فهو أمات أنفاسه بالغفلة ، وضيَّع أمانة الله لديه ، فأمات الأنفاس بالمعاصي ، وعطَّلها بالغفلة ، فما أجدره بالندامة حين أتته أمانة الله

(١) في ( ب ، ج ) : ( البأس ) بدل : ( الياس ) .

(٢) رواه مسلم ( ٢٥٧٧ ) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً .

وأضاعها ، وهدية الله ولم يكرمها بقبولها ، بل تركها خزائن فارغة عن متاعها !!

فالأنفاس [ القائمة ] بالعبد ثلاثة [1] :

إما جوهرةٌ لا قيمة لها لنفاستها ؛ وهو كل نَفَسٍ أحياه بذكر الله ، أو عمل من أعمال الطاعة ، وإما بعرةٌ لا قيمة لها لخستها ؛ وهو كل نَفَسٍ خرج مع غفلة ، وإما حسرةٌ لا آخر لها ؛ وهو كل نَفَسٍ استعمله في معصية .

فهٰذه الثلاثة الأحوال لازمةٌ لكل نفَسٍ من أنفاس الإنسان ، وله من الأنفاس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس ، فماذا ترىٰ حال من أضاع في يومه وليلته أربعاً وعشرين ألف جوهرة من جواهر الحقائق الإلٰهية ، والأسرار الربانية ، والدرجات الأخروية ، الذي انتهىٰ صاحبها إلىٰ دار السلام ، الذي موضع سَوْطٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها [2] ، فكيف حال من استبدل بها أربعة وعشرين ألف نوعٍ من أنواع النكال والدركات الظلمانية العدلية ؟!

وفي معناه أنشد :

| | |
|---|---|
| إن النفائسَ في الأنفاس مودعةٌ | فَلْيقتنِصْها أولو الألباب والفطنِ |
| فكم حَوَتْ من عجائِبْ سِرِّ مكرمةٍ | يذوقُها من تجافىٰ لذَّةَ الوسنِ |
| في طيِّها علمُ تكوينٍ ومعرفَةٍ | مَنْ نالها قامَ منهاجُهُ على السننِ |
| فمَنْ يرىٰ ذا يرى الأكوانَ مُحكمةً | علىٰ دوائرِ أنفاسٍ من المِنَنِ |

(١) في النسخ : ( فالأنفاس قيام بالعبد ثلاثة ) .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري ( ٢٨٩٢ ) ، وأحمد ( ٣/٤٣٣ ) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما .

فلا يقوِمُ الأنفاسَ إلا أقطابها الذين كُشف لهم عن مراد الله فيهم وبهم في كل نفس ، فيتلقَّونها بالإكرام قبل بروزها عنهم ، وعند بروزها يقومون بحق عبودية الحق ، فيكتسبون من علم التكوين والتعرُّف ما يرجح بأعمال الثقلين ، وذلك لهم في كل نَفَس ؛ كما يروى : أن شمَّة من عارف توازي عمل الثقلين ، وهو الذي رَجَحَ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه الأمة .

وهم أرباب الحقائق ، ولهم علاماتٌ يعرفون بها أقطاب هذا المقام ؛ فمن جملتها : أنهم في عالم البرزخ أحياء بحياة خاصة بهم ، يشهد بها أسرار الأعمال ، ويتلذَّذون بذلك ، لا يقطعها عليهم الموت كما يقطعها على غيرهم ممن كان يهمل الأنفاس ، ولا يعبأ بها ، ولا يعرف زيادته فيها من نقصانه منها ، فما يقوم بها غير من خرج عن أوصاف البشر ؛ كما يروى عن بعض سادتنا العلوية رضي الله عنهم ـ وذلك سيدنا ومولانا عمر بن عبد الرحمن السقاف رضي الله عنه ـ أنه قال : ( إن لي في كل نفسٍ ألفاً من « يا حفيظ » )[1] .

انظر كيف وسَّع الله له في نَفَسه حتى يقضي فيه حق الله الذي يقتضيه منه ، وأهم ما هناك : حفظ المقام على الدوام ؛ لذلك كان تعلُّقه بالاسم الحفيظ ، هذا لمن شهد دقة المقام على الأنفاس ونفاستها ، فأقل قائمٍ عندهم : من قام بشكر ظاهرها ؛ وهو أربعة وعشرون ألف حمد ، فأين

---

(١) وحكى الإمام اليافعي في « الإرشاد والتطريز » ( ص ٢٤١ ) عن العارف نجم الدين الأصبهاني أنه رأى إنساناً من أهل اليمن ختم القرآن في شوط ـ أو سبع ، شكَّ ـ ثم ختمه بين يديه في الحال ، ثم قال اليافعي رحمه الله تعالى : ( كما يطوى المكان لهم . . يطوى الزمان ، وكذا تطوى الحروف ، ويذهب جرمها تحت الأنوار الواردة عليهم ) .

من كان هٰذا مقامه وحاله من حالات المحتبلين بحبائل البشرية ، الذين شغلتهم الشهوات الحيوانية ، عن القيام بالوظائف الحقية ؟!

فنسأل الله أن يلحقنا بأوليائه ، وينظمنا في سلك أصفيائه ؛ إنه ولي ذلك ، والمأمول لما هنالك .

* * *

فلما كان المطلوب من العبد مراعاة الأنفاس في كل آن ، من غير انتظار زمانٍ ولا مكان .. **قال المؤلف رضي الله عنه :**

**لَا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ ٱلْأَغْيَارِ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ ٱلْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ**

وذٰلك لأن فراغ الأغيار ، وانقطاع الآثار . . لا ينقطع عنك ما دمت مقيماً في هٰذه الدار ، فمن راقب فراغها . . ضيَّعَ ما هو المطلوب منه ؛ وذٰلك مراقبةُ الله فيما يقيمك ، فلا تجتمع مراقبة الله ومراقبة غيره ؛ فالمراقبة لما يتحلَّىٰ به من الأوصاف والنعوت ، والمحاسبة علىٰ ما يظهر على العبد من الكلام والسكوت ، والأعمال في سائر الأحوال ، فمن فاته مقام المحاسبة . . **فاته حق العبادة ظاهراً** ، ومن فاتته المراقبة . . **فاتته العبودية باطناً** ، فمتىٰ يخلون عن المطالبة بالقيام بالعبادة والعبودية حتىٰ يترقبها في آنٍ ثان ؟!

وترقُّبُ فراغ الأغيار وانقطاع الآثار . . **حجابٌ عن شهود الأنوار** ، فالفقير الصادق يقطع كل ما عرض له من عوارض الأغيار ، ويزيل عن وجه قلبه كثيف الآثار بموالاة الأذكار وصافي الأفكار ، **فلا يترقَّب فراغ الأغيار** ، وليكن بحكم وقته ، فترقب العبد إلىٰ ما هو آت ، وضياع الحال . . ضلال .

فإذا لم تحكم الوقت الذي أنت فيه . . **فما تدري ما يأتي الوقت الآخر** وأنت باقٍ علىٰ ما أنت عليه ، أو قد خرجت عن الإمكان : إما بمفارقة الحياة ، أو عدم مساعدة الوقت الآخر بذٰلك العمل ، قال صلى الله عليه وسلم : « **بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا سبعاً . .** » ، وذكر منها : الموت ، والمرض ، والهرم ، والفقر ، والغنىٰ ، والدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أذهىٰ وأمر [١] .

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٣٠٦ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فعلى العاقــل : أن يبادر وقته قبل أن يبدرَهُ ، ويقطعه بالطاعة قبل أن يقطعه بالفوت ، فيقوم على حسَـبِ حالــه من صحةٍ أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حضرٍ أو ســفر ، فلا يدري ما يحدثه الله بالغد ، فإذا أحكم الحال .. لم يندم في المســتقبل ؛ لأنه إن أدركه ســالماً .. ازداد خيراً ، وإلا .. فقــد حصل على خير ؛ ولأن تدخل النار وأنت طائع .. خيرٌ من أن يُدخلــك الجنة وأنت عاصٍ ، فرحم الله ابــن الفارض حيث قال في ذلك المعنى :

فَقُــمْ زَمِنـاً وَانْهَـضْ كَسِيراً فَحَظُّـكَ الْـ
بَطالَــةُ مَــا أَخَّــرْتَ عَزْمــاً لِصِحَّــةِ
وَكُـنْ صارِمـاً كَالْوَقْـتِ فَالْمَقْتُ فِي عَسَى
وَإِيَّــاكَ عَــلَّ فَهْــيَ أَخْطَــرُ عِلَّــةِ (١)

فهٰذا وما شـاكله من الروايـات والنصائح ، والتحريض على المبادرة بالمقدور ، والإتيان بالميسور .

يــا مــن يريــد فــراغ القلــب عــن أربٍ
ذا لا يكــون فــإن شــئت ٱبــدَرِ المهــلِ
فــلا تقـف دون مـا تطلُـبْ علـى سـبب
إن الوقــوف عليهــا أصعــب العلــلِ

❋ ❋ ❋

فلما كانت شواغل الدنيا لا تنقضي ، وآفاتها لا تنتهي .. قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) ديوان ابن الفارض ( ص ٦٣ ) .

لَا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ ٱلْأَكْدَارِ ، مَا دُمْتَ مُقِيماً فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ لَكَ .. إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقُّ وَصْفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا

ولا يستغربُ وقوع المكدرات ، ووجود المنغصات للعيش ، المؤلمات للقلب والبدن ، ووقوع المصائب ، ونزول البلايا وحدوث المعاطب .. إلا مغرورٌ خبيل ، وذو عقلٍ قليل .

فالمكدرات للعيش في هـٰذه الدنيا من قبيل المصائب الدنياوية ، والحوادث الكونية ؛ وذٰلك إما بفراق محبوب ، أو نزول مرهوب ، أو قصورٍ عن مطلوبٍ حاصلٍ لعبد من المقاساة والتعب [1] إذا لم يعتدَّ له بعدَّة الرضا والتسليم ، وفوات الثواب والأجر إذا لم يتلقَّاه بالصبر ، ومع كونه يفوته ذٰلك الحال الشريف ؛ فلا مردَّ له عنه بحيلةٍ ولا تصريف .

فمن أعونِ الأسباب على حصول هـٰذه الأحوال ـ التي هي الرضا والتسليم ـ الفناءُ عن أوصافك والتعلُّق بأوصافه ؛ فعند فنائك عن وصفك والتعلُّق بوصفه .. تستلذُّ البلاء وتستحليه ؛ لأنك بوصفه لا بوصفك ، فلا تستبعد ذٰلك ، كيف ودلال الحبيب أعظم لذةٍ من إقباله ؛ كما يرىٰ ذٰلك من ذاق هـٰذا المشهد ، وتحقَّق بذٰلك المقصد ؟! وحكاياتهم في ذٰلك تكاد تخرج عن الحصر .

وفي معناه :

بلّا الحبيبِ إلى المحبّ عطيةٌ ... ودلاله عطف ولطف يشمل
لا يلهيُ المشغوفَ نيلُ هديةٍ ... تثنيه عن وجه الحبيب المقبل

---

(١) في ( أ ) : ( وحاصل العبد منه : المقاساة والتعب ) .

وأما الصبر . . فأحسن ما يستعان به على احتمال البلاء بذكر ما أعدَّ الله للصابرين من عظيم المدح ، وجزيل الحظ في الآجل ، والثناء في العاجل ، وتوطين القلب على نزول تلك المصائب قبل نزولها ، ويعطي هٰذا المقامُ الفناءَ في الأفعال ، والتحقّق من التمكُّن في الأحوال ، وانتظار اللطف من دقائق الأوقات ، وفي معناه أقول :

من كان من تحت القضاء أمره ... فليس سوى الصبر الجميل يعينه
إن المصاب وإن تشدَّد عسرُه ... فاليسر يتبعه بنور يقينه

هٰذا في المصائب الدنياوية .

وإما أن يكون ذٰلك التكدُّر من قبيل الأحوال ؛ مما يعرض للسالكين في طريقهم من العوائق عن مقاصدهم ونيل مطالبهم ، وذٰلك لما رُكِّبَ فيهم من الشهوات ، فيلحقهم من الغفلات ، فما داموا في هٰذه الدار . . فما تنفك عنهم هٰذه الحالات ، ولو على الندور في الأوقات ، ولٰكنها لهم سائقة إلى اللَّجَأ إليه ، الذي هو أشرف حالات العبودية .

لا توحشنَّ إذا ألمَّ بك البلا ... فالصبر يعقبه الهنا والمغنمُ
فاستصحبنَّ الصبر ما عشتَ أنَّهُ ... ما خاب ذو صبر ولا يتندَّمُ
هلا ترىٰ من عارف تسألنه ... عما هناك من المكارم تغنمُ
من علقم الصبر المرير لأنه ... صعبٌ على الغِرِّ الذي لا يعلمُ
فالْقَ البلاء بصبر ساعةٍ أنه ... لا بد يُجلىٰ ليله المتعتم
فلئن صبرت لتحمدَنْ في غبّه ... إن المصائب لا تهين المكرم

هٰذا في الصبر على البلاء الدنيوي المنقضي بعدما ذكر الله من كرامة الصابرين ، وما ورد من الأخبار والآثار في ذٰلك .

وأمـا علم ما الدنيـا محتوية من مكـدرات العيش ، وذٰلك حكمة ؛ لئلا يرغب فيها ، ويسكُنَ إليها عباده . . **فهي تضيق عما أعدَّ لهم** ، وما يريد أن يكرمهـم به من عظيم الكرامة التي لا تدخل تحت علم عالم ، ولم تخطر على قلب بشرٍ من خفي الألطاف ، وجزيل الإسعاف ، وصفو المواهب .

**وذٰلك التكديرُ** هـو مـا عجنهـا بـه مـن شـوب الشـهوات ، والدواعي البشـريات ، والأغـراض المختلفـات ، **فـلا ينفـكُّ ما دام فـي هـٰذه الدار إقامته** ، فلا تستغرب أيها المؤمن وقوعها ، ولا تستفزَّ طلوعها ؛ **فهي لم تأتك بغير حقيقة وصفها** .

**والدنيـا من حيث ما يطلق عليها من الذم** : هو كلُّ ما شـطَّ بك عن الطريـق ، وتعوّقـت به عن الرفيـق ، وهـٰذه هي بعينها شـهوات الدنيا المعتادة ، وأنىٰ لك بالخلوص عنها ما دمت مقيماً فيها ؟!

**ومـن مكدراتها أيضـاً** : لوازمها ؛ مـن وجوب زوالها ، وسـرعة ارتحالهـا ، وقرب انتقالها ، **فـلا تُنْعَت بغير ذٰلك** ؛ لأنه لا يوجد فيها غيره ، وكل ما كان فيها من لذةٍ وصفوٍ بطاعة ، أو ارتياح بروح وصلة . . **فمكـدرُهُ خوف سـلبه** ، وعدم تحقيقـه بكلية المقـام على التمام ؛ لأنـه يتخلَّف عنه من التحقيق بقدر مـا عليك من الأوصاف الطبيعية الترابية .

**ولا بد وإن قل ذٰلك . . فبحسبه** ؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب اللحوق بالرفيق الأعلىٰ(١) ، **فما ذاك إلا ليستكمل مقام التحقيق** ؛ وهو الكامل المكمَّل صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٩) ، ومسلم (٢١٩١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

**ولي في ذلك :**

فـي هـٰذه الدار لا يَستغربُ الكدرَ إلا جهـولٌ عـن التحقيـقِ والعبـرِ
فكيـف يطمـعُ ذو عقـلٍ وذو بصرٍ فـي أن يعيشَ فـيِ الدنيا بلا ضررِ
وقـد تنغَّـص فيهـا أشـرفُ البشـرِ وسـائرُ الأنبيـا والأوليـا الغـررِ

❋ ❋ ❋

فلما كان الرجوع إلى الله في جميع الأحوال أصوب ، والاتكال عليه أنسب . . **قال المؤلف رضي الله عنه :**

## مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ

أي : ما استصعب ولا تأخَّر مطلب ـ من المطالب الدينية والدنياوية المرادة لله بحسن النية وصدق الطوية ـ أنت طالبه وداخلٌ فيه بربك ، مُنخلعاً عن فعلك ووصفك ، متبرّياً فيه عن حولك وقوتك ، متمسكاً فيه بحول الله وقوته . . إلا أنجح الله لك ذٰلك المطلب ، ويسَّرَ عليك أسبابه ، وفتح لك مغلقات أبوابه .

ولا قمت في شيءٍ بحولك وقوتك ، معتمداً علىٰ علمك وعملك ، ملتفتاً إلىٰ حيلك وتدبيراتك . . إلا وُكِلْتَ إلىٰ ذٰلك ، ولم تنلْ بغيتك ، وخاب سعيك ، وبطل جهدك .

فأهم أحوال المريد : الاستعانةُ بالله في كل أمرٍ وحالٍ من فعلٍ أو ترك ، ويكون نظره واعتماده ، وعونه واستمداده إلى الله وبالله ، فإذا كان علىٰ ما ذكرنا . . قابلته الألطاف ، وساعدته العناية ، ومن ساعدته . . أدركَ من كل أمرٍ مراده .

فالتوكل على الله نعت المؤمنين ، والاعتماد عليه وصف الموحدين ، ولي في ذٰلك :

من كان بالله في الحاجات مطلبه ... فلا تشك بأن يُعطَى الذي سالا
ومن عطي ذاك فالتوفيق يصحَبُهُ ... وكلَّ ما حاولَهْ من أمره نالا
ولا تَيسَّرَ مَنْ بالنفسِ يطلبُهُ ... إن اعتمادَكْ على الأغيار إضلالا

❁ ❁ ❁

فلما كانت المطالب لا تقضىٰ بدون الاعتماد على الله ، وأعظمها : تيسير طريق السلوك إلى الله . . قال المؤلف رضي الله عنه :

فالرجوع إلى الله في بدايات الأمور ، وعدم رؤية النفس في شيء .. علامةٌ من علامات النُّجْحِ في نهايات المطالب .

والنُّجْـح : هو الظفـر بالمطلوب على التمـام ، والاعتماد على الله نعتُ المريدين الصادقين ، والسالكين المرادين المتداركين ، والاعتماد على غير الله علامةٌ على القطيعة ، والرجوع عن الرتبة الرفيعة (١) ، فما رجع من رجع عن الله إلا لعلَّةٍ مستصحبةٍ لـه في بدايته ، فحُرم نُجْحَ نهايته .

فمَنْ بالله تعلقه وحسن توكله .. كان إلى الله نهايته ، وتولاه بحسن ولايته ، ورعاه وكلأه في مصادره وموارده ، وكان مع الله بلا علاقة ، وفرَّ إليه من جميع أحواله وقواه ، وعلمه وعمله ، وخرج عن حوله وقوته ، ولم يستند إلىٰ سواه ، ولم يأوِ إلا إليه (٢) ، ولا يتوكَّل إلا عليه .

فجديرٌ أن ينال بغيته ، ويظفر بمُنيته ، ويحمل عنه كل ما يعبأ به غيره .

ومن كان علىٰ غير هـٰذا النعت ، ولم يتصف بهـٰذا الوصف .. خيف عليه أن يُوكل إلىٰ ما منه .

فلا يفلح إلا أن يتداركه الله ، فيفتح له بابَ الفهم عنه ، فيعود عن مشهده هـٰذا ، ويرجع عن زلته .

---

(١) في ( ب ) : ( المرتبة ) بدل : ( الرتبة ) .

(٢) في ( ب ، ج ) : ( ولا يأوي إلا إليه ) بدل : ( ولم يأوِ إلا إليه ) .

**ولي في ذلك:**

فارجع إلى الله فيما أنت طالبه تظفَرْ بغايات أقصى السُّؤلِ والأملِ

ولا ترى النفس في شيءٍ تقابله واترك دعاويك في علمٍ وفي عملِ

* * *

فإذا كان الرجوع إلى الله في البداية علامةً على النُّجْح في النهاية.. **عبر المؤلف رضي الله عنه بعبارةٍ أخرى لهذا المعنى فقال:**

## مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ . . أَشْرَقَتْ نِهَايَتُهُ

فإشراق البداية : بالفناء عن أفعالك وشهود فعله ، والتبرّي عن الحول والقوة في كل فعل ، والاعتماد على حول الله وقوته .

وإشراق النهاية : فناؤك عن وصفك بوصفه ، وذهاب ذاتك عند لوامع تجليات ذاته ، وفقد إنّيّتك عند توالي ظهور مشرقات جماله ، واحتراق أوصافك بمحرقات جلاله ، وذهابك وفقدك عند تجلي سلطان كماله ، فهٰذا وما شاكله من جملة إشراق النهايات ومبادئها ، وأما كلياتها ونهاياتها . . فلا تفي به العبارة ، ولم تومئ إليه الإشارة ؛ لقصر الأفهام عن ذٰلك .

فالفناء عن الأفعال : هو إشـراق البدايات ، والإشـراق : لا يكون إلا عبارةً عن النور الذي علمت فيما تقدم أنه الوجود ، والظلمة : هي العدم ، فما لم يشـرق نور أفعال الله تعالىٰ علىٰ ظلمـة أفعالك . . بقيت رؤية أفعالك حُجُباً ظلمانية ، وما لم تشـرق أوصافه علىٰ وجود أوصافك . . بقيت محجوباً بحُجُب كونية ، ولي في ذٰلك :

إشـراقُ أفعالـه نـورٌ يُشـابُ بـه ... وجود وصفِكَ فٱخرج عنه وٱرتحلِ
إلـىٰ شـهود كمـال الذاهبيـن بـه ... عن كل وصفٍ وعن ذاتٍ وعن عِلَلِ

❊ ❊ ❊

فلما كانـت النهايات غيباً ، والبدايات شـهادة . . ظهر في شـهادة البدايات ما اسـتودع في غيب النهايـات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

ما استُودع من نور الذكر ، وحقيقة الصدق ، وبذر الهداية ، وسِرّ الولاية ، ولطيفة الإيمان ، وتجلّي الإيقان ، وإشراق شموس الإحسان ، وشهود العيان في سريرة الإنسان وفطرته . . فلا بد وأن يلوح على هيكله آثارُهُ ، وتشرق عليه أنواره ، وتتزكّىٰ ظواهر أعماله ، وتصفو سرائر أحواله ، وتنغمر بنور القبول في مسامع الخلق أقواله ، وتجلىٰ لديهم إشارتُهُ ، وتفصح بالصواب عبارته .

ولذٰلك دلالات وظهور آيات ، يعرف بها من أودع الله نور الإيمان في سريرته ؛ كما سنذكره قريباً إن شاء الله تعالىٰ عند قوله : ( لو أشرق نور اليقين ) .

ومن جملتها : الطمأنينة بذكر الله ، والنفرة عن معاصي الله ، والتوكل على الله ، والرضا عن الله ، والصبر في مُمِرَّات الأمور لله ، والتعلُّق علىٰ دوام الأوقات بذكر الله ، والتولُّه في شهود جمال الله ، والتحير في جلال الله ، واستعمال الجوارح باستفراغ الجهد في طاعة الله ، واتباع محابِّ الله ، واحترام حرمات الله ، واتباع رسول الله ، وإجلال الله ، ومحبة أولياء الله ، ومناصرتهم وموادتهم وامتثال أوامرهم ، وبغض معاصي الله ، ومجانبة من ينتهك محارم الله وإن كان أقرب أحمائه ، وأحب أولاده ، وأحنىٰ إخوانه ، وخواص عشيرته ؛ لذٰلك قال جلَّ ذكره : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ .

فحُسْن أسرَّةِ المرء دليلٌ علىٰ حسن سريرته ، كما أن قبح الأسرَّةِ يدل علىٰ قبح السريرة ؛ لذٰلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو خشع قلب هٰذا .. لخشعت جوارحه » أو كما قال [١] .

فمن ادعىٰ أن سريرته حسنةٌ وهو مهملٌ لأوامر الله ، غير مكترثٍ بمعاصي الله .. لم يقبل ذٰلك منه ، بل يحمل علىٰ ما أظهرَهُ من أمره ، ونَكِلُ سريرتَهُ إلى الله .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ( إنَّا كنَّا نأخذ بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الوحي قد انقطع ـ يعني : وحي النبوة ـ وما بقي إلا أنَّا نأخذ ما ظهرَ لنا ، فمن أظهر لنا خيراً .. قبلناه وأَمِنَّاهُ ، ونكلُ سريرته إلى الله ، ومن أظهر لنا غير ذٰلك .. لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال : إن سريرته حسنة ) [٢] .

وأما وحي الإلهام والتحديث .. فهو باقٍ مستمرٌّ أبد الآباد ؛ كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف عمر نفسه : « إن يكن من أمتي مُحدَّثون .. فعُمَرُ منهم » [٣] .

وكل من غلبت علىٰ سريرته الآداب الإلٰهية ، وتوالت علىٰ سرِّه الأخلاق الربانية .. ظهرت عليه آثارها ، وسطعت علىٰ أفعاله أنوارها ، ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ في عالم الأرواح ، يظهر خشوعها

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ( ٨٢٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند ابن المبارك في « الزهد » ( ١١٨ ) من كلام سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ ، وفي ( ب ) : ( أسوة ) بدل : ( أسرة ) في الموضعين .

(٢) رواه البخاري ( ٢٦٤١ ) .

(٣) رواه البخاري ( ٣٤٦٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم ( ٢٣٩٨ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

في الأشباح ؛ فكل ما أكنَّته السرائر . . فلا بد وأن يلوح على صفائح الظواهر ، ولي في ذلك :

لَأشباحُ تحكي بما في السِّر منكتمٌ ... كما الزجاجةُ للأنوار تحكيها

فما بَطَنْ في مصونِ الغيب من حِكَمٍ ... لا بُدَّ أن يشهدَ التحقيقَ رائيها

* * *

فلما كان **الأمر** مبنياً على **غيبٍ وشهادة** ، وهو عالمُ الغيب والشهادة ، **ولكن الغيب** : شهود الحق مجرداً عن نسبة الأسباب [1] ، وظهوره في الشهادة مقرونٌ في نظر الخلق بوجود الأسباب . . **خطب من سرادقات الغيب قلوب الأحباب** ، واختطفت غيرة المحبة أسرار المجذوبين المحبوبين ، **واستخلصت حضرة الأزل أرواحَ المجذوبين المرادين** ، ويقيت قلوب السالكين تحت حكم سلطان اسمه الظاهر ، في متعددات المظاهر ، **قال المؤلف رضي الله عنه** :

(١) في النسخ : ( مجرد . . . ) بدل : ( مجرداً . . . ) .

شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ؛ فَٱلْمُسْتَدِلُّ بِهِ : عَرَفَ ٱلْحَقَّ لِأَهْلِهِ ، وَأَثْبَتَ ٱلْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وَٱلِٱسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ : مِنْ عَدَمِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا . . مَتَىٰ غَابَ حَتَّىٰ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلْآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟!

**شتَّان** ؛ أي : بَعُدَ ما بين الفريقين ، **وبون ما بين الطريقين** ؛ أي : طريق المستدلين به على وجود الأشياء ؛ لأنهم مأخوذون عن رقِّ الأغيار ، وشهود الآثار **بظهور وحدانية الواحد القهار** ، ومتلاشون في متلاطمات بحار الأنوار ، ومستغرقون في شهود الأسرار .

**فأنىٰ يثبت في مشاهدهم رؤيةٌ سوىٰ رؤية مليكهم** ، أو يلوح لهم غيره وهم عاكفون في حضرة القِدَم ، غائبون عن الحدوث والعدم ؟! **فأسرارهم علىٰ كراسي الولاية** ، لم تلوِ إلىٰ رؤية مرئي : حسِّي أو معنوي ، دنيوي أو أخروي ، ملكي أو ملكوتي .

وإن تعاقبت علىٰ ظواهرهم مختلفات العادات . . **فلأحكام سبقت** ، وأقسام قدرت ، يدخلون فيها قبل رؤيتها ، **فهم به وله** ، لا بأنفسهم ولا لأنفسهم ، فانونَ عنها حالَ وجود ظهورها في عالم الشهادة والملك ، **غائبون عنهم** لا تشعر أسرارهم بسواه ، ولا تنظر إلا إياه .

**فهٰؤلاء صفوة أوليائه** ، وخيرة أتقيائه ، لا يسلكون إليه إلا علىٰ طريقة المحو في وجود الصحو ، **يربحون من تابعهم** ، ويوصلون إليه به من واصلهم ؛ نعمةً من الله سابغة ، ورحمةً من الله بالغة .

**يألفون ويوالفون من والفهم في الله** ، لا تتدنَّس بواطنهم بلوث الغلِّ ، ولا تتغير بتغير الأحوال ، **نفوسهم طاهرة** ، وأنوارهم باهرة ، وأعمالهم

دائمة ، وهم في أمانٍ وعافية ، والخلق منهم في أمانٍ وعافية ، لا يؤذون جليسهم ، ولا يمارون نديمهم ، هيِّنون ليِّنون ، تحكُمُ أحوالهم علىٰ كل من رآهم بالاحترام لهم والإجلال ، ويثبت الحب لهم في قلوب أهل الإيمان ، تجِدُّ إليهم نجائب القلوب المجدَّةِ في طلب المحبوب ، ويلوح من أنفاسهم بوارق الغيوب ، يغنىٰ طالب القرب برؤيتهم ، وتوصله محبتُهم .

فلو ذهبنا نَصِفُ ما جلَّلَهم الله به من عظم المنَّة ، وما أتحفهم به من جزيل النعمة . . لطغىٰ علينا طوفان الألطاف ، وغطَّىٰ جبال أعلام وجودنا ، وفي الإشارة كفاية لمن أشمه الله نسيمَ قربهم ، وأذاقه حلاوة حبِّهم ، ولي في ذٰلك :

يغذيهم الحب من ألبان منَّتهِ ... شهدَ التجلِّي ونعتَ الذاتِ في الأزلِ
بغير تكييف يحكىٰ كيف كِنَّته ... فجلَّ عن كيفٍ يحويه ولا مثلِ
فكلُّ محبوبٍ يشهَدْ ذاك سنَّتهُ ... قد صار محفوظ عن عمدٍ وعن زللِ
مَنْ لاحظته عيون ألطاف رأفته ... لم يعتريه كريهُ الجبنِ والمللِ

فهٰذا في المجذوبين المحبوبين .

وأما السالكون المُحبُّون ، الذين غطت حقائق إيمانهم وجود أعيانهم . . فالإيمان والعلم فيهم مغيَّب تحت أسجاف القوالب البشرية ، والحُجُب الطبيعية ، والشهوات الحيوانية ؛ التي هي لأهل الكشف دلائل الكمال ، فخوطبوا بالرجوع إلىٰ أوطان الحقائق القدسية ، بعدما دنَّستهم الظلمات الأرضية ، فأمطرت أصلادَ أراضي نفوسهم السحائبُ النبوية ، والدلائل الرسالية ، والشواهد القرآنية ، بعدما أيبستها حرارة

نيران الجهل ، فوسمتها بوسميّ الحياة[1] ، فسمعت النداء ، فثارت البذرات الإيمانية الكامنة فيها ، فاهتزَّت بهزة خوف البُعْد والقطيعة ، وربت بالتربّي في طريق السلوك إلىٰ ملك الملوك ، وأنبتت من كل زوجٍ من أزواج الحقائق الأسمائية بهيجَ رائق .

فهٰكذا يتدرجون في مدارج العلوم ، ويعرجون في معارج الأحوال ، ويترقَّون في بروج المعارف ، وشرح ذٰلك يطول ، فليفهم ذٰلك من عرف هٰذه الطريق ، وحقَّق في سلوكه أتمَّ تحقيق .

ومن لم يحقق ذٰلك ولم يعلم ما هنالك . . فليلقِ نفسَهُ إلىٰ شيخ يعرِّفه حقائقها ، ويُفهِمه دقائقها ، ويرقيه في بروج معارفها ؛ فإن جلَّ هٰذا الأمر ما يحققه علىٰ كماله إلا صاحبُ كشفٍ دائم .

وأما من يأخذ علمه وطريقه لا عن شيخ . . فلا تتضح له الطريق غالباً ، بل يبقىٰ في حجاب نفسه ، وموضع حبسه ، لا ينفك عن قيد التلبيس ، ولو بلغ في ظنه ما بلغ ؛ لكثافة حجاب النفس ، فما يلطِّفُ حجابَها إلا مشاهدةُ من يستشف بصافي مرآته حقائق الغيوب ، وتنجذب بصفائه القلوب ، ومثل ذٰلك قلَّ في الأقطار ـ سيما في هٰذه الأعصار ـ وجودُهُ .

فالسالكون يهذِّبهم سلطان الجلال ، ويربِّيهم تربية الأطفال ، ويتقلَّبون في أطوار الأفعال ، فأخذوا أولاً يستدلون بوجود الأشياء علىٰ وجود موجدها ؛ وذٰلك لطمس أنوارهم الإيمانية تحت غياهب ظلمات الجهل الطبيعي ، وإلا ؛ لو لم تنطمس أنوارهم الإيمانية وشواهدهم الإحسانية . . فمتىٰ غاب عن الشهود وهو لم يزل موجوداً منعوتاً بنعوت

(١) الوسمي : مطر الربيع الأول ، سمِّي به لأنه يسمُ الأرض بالنبات .

كماله ؟! متىٰ تصدُقُ عليه الغيبة حتىٰ يحتاج أن يستدل عليه بما هو أثرٌ من آثار قدرته ، وعين من أعيان حكمته ؟!

فمن عرف الأشياء بالله ، واستدلَّ به على الأشياء . . فقد عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر من أصله ؛ إذ المعرفة وصريح العلم يعطي ألا ترى الصنعة دون صانعها ، والمبدعات قبل مبدعها ، وأن تعرف الفرع بالأصل ، لا العكس الذي هو دليل على العكس ، وهو شهود الأثر دون مؤثره ، والصنعة دون صانعها .

ومتىٰ بعُد حتىٰ تكون الآثار توصل إليه ؟! فلا يستدل عليه إلا به ، ولا يتوصَّل إلىٰ معرفته إلا بتعريفه ، ولا يعمل بطاعته إلا بتوفيقه ؛ فهو الموصل بإعانته ، والموفق بهدايته ، والحافظ بولايته ، وإليه يرجع الأمرُ كله .

وكلا الفريقين مجذوبون محبوبون ؛ إذ لولا سابق عنايته . . لم يُهدَ إليه السالكون ، ولا حقق شهودَهُ المحبوبون ، فإذا علمت أن الكل على الحقيقة مجذوبٌ ومخطوب . . علمت أن الاصطفاء قد شمل الفريقين ، فالحمد لله علىٰ ذٰلك .

قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ قيل : هو لا إلـه إلا الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « سابقُنا سابقٌ ، ومقتصدُنا ناجٍ ، وظالمُنا مغفورٌ له » أو كما قال (١) .

وعند أرباب الفهم فيما يعرفونه من طريق الإشارة والاقتباس : أن الظالم لنفسه هو الأكمل (٢) ، ولهم في ذٰلك معانٍ ورموز تظهر من كنوز

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » ( ٦١ ) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .
(٢) علىٰ أن الظلم للنفس بمنعها شهواتِها ، وإلجامها عن رغباتها ، ومحوِ صفاتها .

خزائن المعارف ، ولا سبيل إلىٰ ضرب بعض الأقوال ببعض وتناقضها ، بل فسيح المعرفة يعطي : أن لكلِّ مقامٍ كلاماً ، ولكل حالٍ رجالاً ، ولكل حالٍ مقالاً ، فلا مشاحَّةَ في اللفظ ؛ فاللفظ الواحد قد يوضع لمعانٍ كثيرة ، والمعاني الكثيرة قد تعبَّر بعبارة واحدة ، وقد يكون الكلام واحداً ويأخذ كلُّ إنسانٍ ما يناسب حاله ، ويليق بأفعاله .

وفي معناه :

فكيف يفقدُ مَنْ هوْ ظاهرٌ وبنا    قيومُ قائمُ لا يخفىٰ ولم يزلِ
هوْ أولٌ في بطونٍ قبلَ مظهرنا    وظاهرٌ آخرٌ بلا انتهاء يلي
ودائم كيفما كان الزمان بنا    لا زاد مظهرنا شيء ولا قلَّلِ

* * *

فلما كان المجذوبون المحبوبون أخذ بهم طريق المنَّة من غير اكتساب ولا ترقُّب واحتساب . . كان إنفاقهم من خزائن معارفهم على الطالبين كذلك حسَبَ ما أمدَّهم الله به .

والسالكون المحبُّون ليسوا كذلك ؛ لأنه سلك بهم طريق الكدِّ والتكليف ، فيكون إنفاقهم من وسع ما هم عليه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ : ٱلْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ : ٱلسَّائِرُونَ إِلَيْهِ

هٰذه إشارةٌ عجيبة ، وترشيحةٌ بديعة ، حيث عبَّر بالإنفاق ، والإنفاقُ لا يكون إلا في خير ، والخسارة ضدُّهُ ، وإنفاق الواصل من خزائن المنح الربانية ، والنفحات الرحمانية علىٰ أطفال التلقيات الفهمية ، والأركان العملية ، والمشاهدة العلمية التخلُّقية ، وأهل الاقتداء والتبعية .

فالأولون ـ وهم المجذوبون المحبوبون ـ ينفقون من سعة وسع المواهب ، والسالكون ينفقون من قِدْرِ المكاسب ، من وراء الفحص وتحري المذاهب .

فالأولون خارجون عن مضيق عقولهم المحصورة القاصرة عن درك الحقائق إلىٰ فضاء وسع التوحيد ، فينفقون من معارفهم بلا تعب ، ولا عناء ولا نصب ، فيريحون الجليس ، ويفسحون صدور الطالبين بالشرح المبين لما عندهم من الوسع لما هنالك .

والسالكون يشدِّدون المسالك ، ويخوِّفون المهالك ؛ لما عندهم من ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

مَنْ وسَّع اللهُ في التحقيقِ مشهدَهُ ... لا شك يُنفقْ بلا ضيقٍ ولا تعبِ
ومَنْ يكنْ في مضيقِ الكسبِ مقصدُه ... أن يحمِلَ أثقال أعبا الكدِّ والتعبِ

❊ ❊ ❊

ثم قال كالشارح لحالتي الفريقين بعبارةٍ أخرىٰ ؛ وهي تعبيره بالاهتداء للسالكين ، والاجتباء للواصلين :

اِهْتَدَى ٱلرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ ٱلتَّوَجُّهِ ، وَٱلْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ ٱلْمُوَاجَهَةِ ؛ فَٱلْأَوَّلُونَ لِلْأَنْوَارِ ، وَهَـٰؤُلَاءِ ٱلْأَنْوَارُ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ

فالاهتداء : هو تتبُّعُ الآثار ، والبحث عن الأخبار ، من وراء الحُجُب والأستار ، ومختلفات الآثار ، والرحلة : هي الأخذ في السير إلى المقصد ، والرحلة غالباً كثيرة الأخطار ، وشديدة الأوعار ، ومعرِّضة لفوات الأعمار ، ونكبات المخاوف والأضرار ؛ لذلك ورد : « السفر قطعةٌ من النار »[1] .

فإذا صدقت العزمة ، وقويت الهمّة ، وأخلصت العِمْلة[2] ، وأفردت النية . . أثمرَ لك صدقُ العزيمة ، وإخلاصُ العمل ، وتجرُّدُ النية أنوارَ الهداية لسبيل المشاهدة ، وتحقق الولاية ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ .

وأما الواصلون . . فلهم أنوار المواجهة ؛ وهي المشاهدة ، وهم المعنيُّون بآخر الآية ؛ وهو قوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ومقام الإحسان : هو الاستغراق بمشاهدة المحبوب ؛ كما فسّره صلى الله عليه وسلم بقوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه »[3] .

ومحالٌ أن تراه وترىٰ معه سواه[4] ، ومن كان الله معه . . كانت الأشياء معه وله ، لا هو معها ؛ إذ الله معه ، فلم يكن فيه معية أخرىٰ ،

---

(١) رواه البخاري ( ١٨٠٤ ) ، ومسلم ( ١٩٢٧ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) العِمْلَة : هيئة العمل وحالته ، وبضم العين : أجر العمل .

(٣) رواه البخاري ( ٥٠ ) ، ومسلم ( ٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) فقد روى البخاري ( ٣١٩١ ) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « كان الله ولم يكن شيء غيره » .

**فهو غائبٌ عن شهود وجوده فضلاً عن فعله مع فعل موجوده** ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

فمن لم يكن كذٰلك .. **فمن لازمِهِ شهودُ الأغيار** ، والتقيُّد في محابل الأخطار ، ويشهد الوسائط ، ويراعي الشرائط ، **فيطالب بمقتضىٰ** مشهده ، ويترقّىٰ إلىٰ مَحْتِدِهِ ، **وفي معناه :**

مَنْ كانَ مشهدُه الإحسانَ كانَ له ... كل الوجود بعون الله محتكم

ومَنْ تَعثَّرَ في أذيال ( إنَّ ) له[1] ... أن يحتكِمْ تحتَ ما يَشْهَدْه من علمِ

ثم استشهد المؤلف علىٰ مقام الواصلين الكُمَّل الموحدين بهٰذه الآية ؛ **لما فيها من التصريح الخالي عن التلويح** ببطلان ما سوى الله عزَّ وجلَّ بقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولمن فهم عنه سِرَّ خطابه ، من خواصِ أصفيائه ، ونجائب أحبائه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾

**ففي هٰذه الآية كفايةٌ لمن فهمها** ، وعلم سر ما أشارت إليه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فليس بعد الله ؛ **فهٰذا فيه مرتبة توحيد الإشارة** ، وهو مختصٌّ بنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وهو قوله : ﴿ قُلِ ﴾ فحارت الحقائق القربيّة ، واللطائف الحبّيّة في هٰذا البحر الذي لا ساحل له ولا منتهىٰ ، **ولا يعرف لأوليته ابتداء** ، ورأت تعدد مظاهره ، فقال لها هادياً لحيرتها ، وآخذاً بأزمّة بصائرها : ﴿ ٱللَّهُ ﴾ **كل ما رأيته فليس**

(١) أراد المقيّد بإنّيّته .

سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، ولا بعد ذلك إلا خوض ولعب ؛ لأنه إذا ظهر الحق . . **فما فائدة التطلب إلا الخوض في الباطل** .

**واللعب** : هو كثرة ترديد ما لا جدوىٰ له ، وهو كثرة ترديد بلا غرض ، ومن ذلك اللعاب ؛ وهو الريق الخالي عن الخليط ، وسمي كذلك ؛ لكثرة ترديده والله أعلم .

**والوقوف على الحق عند ظهوره** . . وصف الموحِّدين ، **والخوض واللعب** . . وصف الجاحدين الضالين عن سبيل الهداية ، والسالكين طريق الغواية .

اللهَ قُلْ فَهْوَ المقصودُ بالطلبِ ولا تَزِدْ بعدَ ذا في الخوضِ واللعبِ

❁ ❁ ❁

فإذا كان العبد منطوياً تحت عظمة أوّلية الحقِّ . . **كان حكمه ووصفه ترك الفضول** ، وإيثار الخمول ، فيتحقَّق بصِرْفِ العبودية لله تعالىٰ ، وإذا كان كذلك . . **كان أجل همِّهِ تصفية أوصافه** ، وتهذيب أخلاقه ؛ **لذلك قال المؤلف** رضي الله عنه :

تَشَوُّفُكَ إِلَىٰ مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ ٱلْعُيُوبِ . . خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَىٰ مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ ٱلْغُيُوبِ

لأن تشوُّفَكَ إلىٰ ما بطن فيك من العيوب حقُّ الحقِّ منك ؛ لأن الله مدح أهل تزكية النفوس عن الأخلاق اللئيمة بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، وذمَّ من تركها متدنِّسة بقبيح أوصافها وسفساف مركزها فقال : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي : دنَّسها .

ولأَنْ تخرجَ عن ذم الله وتدخلَ في مدحه . . خيرٌ وأحب من أن تتطلَّع إلىٰ فضول النقول ولمحات الوصول ؛ فمن لم يحقِّق الأصول . . لم ينل الوصول .

فالأصلُ : التزكية عن الرذائل ، ثم التحلية بأوثق الوسائل ؛ وهو التمسك باتباع ذوي الفضائل ، وهم الأنبياء وسادات الأولياء ، وفحول العلماء ، سيما أفضلهم وأجلُّهم وأكملهم ، وأتمهم خَلْقاً وخُلُقاً ، وأعلاهم مقاماً . . محمد صلى الله عليه وسلم .

فتحلية الأوصاف بحلية الاتِّباع هو قرع باب المحبة التي يكون بها التحلية ، قال الله منبِّهاً علىٰ ذٰلك : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ ووجدتم ذٰلك في مرايا إيمانكم ، وظننتم أن ذٰلك صادرٌ عنكم . . ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ بمحوِ أفعالكم ، وفناء أوصافكم . . يظهر لكم أصل محبَّتكم ، ويبين لكم من أين وجدتم ذٰلك ؛ فعند فنائكم عن أفعالكم وأوصافكم . . يتحقق لكم أنه الذي أحبكم ، وتبدو لكم ثمرةُ الاتباع ما أودع فيها من سر المحبة السابقة ، فيعود الأمر عوداً علىٰ بدوِه ، فهٰذا مقام التحلية .

وشاهد ذلك : الحديث القدسي ، حديث النوافل ؛ حيث قال : « لا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ »(١) ، ولا نافلة إلا ما صدرت عنه صلى الله عليه وسلم ؛ قولاً وفعلاً وأمراً صريحاً ، أو ضمناً وتلويحاً ، ولٰكن لم تصل إلىٰ صفاء النوافل عن الشوائب إلا بطهارة النفس عن رذائلها(٢) .

ولم تعثر علىٰ ذٰلك إلا إن عرضتها علىٰ بصيرٍ بعيوبها ، فتجري أمورها علىٰ يد عالمٍ بتهذيبها ، فارغٍ عن تهذيب نفسه ، متفرّغٍ لإصلاح غيره ؛ فحينئذٍ يعرِّفك بدسائس النفوس ، ومخادع الشيطان ، ومعاطب الهوىٰ ، وكوامن الشهوات ، وقبح الدنيا ، وبهجة الآخرة ، وحسن الأخلاق وسيئها .

وتكون حالتك بين يديه كحالة الميت بين يدي الغاسل ، مسلوب الاختيار ، مطموس الأعلام والآثار ، لا خبر لك عنك ، وما أعزَّ في هٰذا الزمان شيخ يوجد كذٰلك !! وما أعزَّ من المريدين من يطلب ذٰلك !! فالله المستعان ، وعليه التكلان .

وإذا صدق اللهَ المريدُ في إرادته . . كان الوجود كله له أستاذاً ؛ إن كان عدواً . . ساقه إلى الله باللَّجَأ [ إليه ] من شره ، ونبَّهه علىٰ دسائس خفايا عيوب لم يطَّلع هو عليها ، يرىٰ قبح الجهل فيجتنبه ، أو صديقاً محباً يثني . . فيشهد ثناء الله ؛ فيزداد لذٰلك شكره لله ؛ حيث أظهر جميله لذٰلك المثني ، وستر عنه قبيحه .

---

(١) رواه البخاري ( ٦٥٠٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ولعزَّة هٰذا المقام ـ صفاء النافلة عن الشائبة ـ ألمع البوصيري رضي الله عنه بقوله :

ولا تزوَّدتُ قبلَ الموتِ نافلةً ... ولمْ أصلِّ سوىٰ فرضٍ ولمْ أصمِ

وما أحسن من كانت نفسه أرضاً ، وقلبه سماء ، وأحواله نجوماً ، وروحه شمساً ، وعقله قلماً ، ونفسه لوحاً !!

**وفي معناه :**

تشوُّفُ المرءِ عيبٌ فيه مستترٌ      أتم له من ترقُّبُ غائبِ القدرِ
فرؤية النقص توقفُه على الحذر      وفي ظهور غيوب الحق يعتبر

* * *

فلما كان الحق ظاهراً ، وإنما حُجِبتَ عنه بما قام بك من الأوصاف الظلمانية والكثائف الأرضية . . **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

ٱلْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا ٱلْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ . لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ . لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ . . فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

هٰذه براهينُ عقلية ، وشواهدُ نقلية ، جمعها في هٰذه الألفاظ المتقاربة ، تحتوي علىٰ جملٍ من معاني التنزيه ، وتشير إلىٰ نفي التشبيه ، وتبطل اعتقادَ التجسيم والتحليل والجهة ، وتبيّنُ أن جميع حركات المكونات دائرةٌ علىٰ مقتضىٰ علمه ، وجاريةٌ تحت سلطان قهره .

فقوله : ( **الحق ليس بمحجوب** ) إذ ما سوى الله باطل ، والحق هو الله ، فهو ليس بمحجوب ؛ إذ الباطلُ لا يحجب الحقَّ ، وما سوى الله دون الله ؛ فهو باطل ، **وإنما المحجوب أنت** من حيث إنّيّتُكَ ووصفك وفعلك ، فلو فنيت عن إنّيّتِكَ ، وتبت عن تثنيتِكَ . لرأيت الحقَّ ظاهراً ، ورأيت الكائنات من حيث ذواتُها وأوصافها وأفعالها دونه لم تخرجْ عن العدم ، فالحجابُ عليه تعالىٰ محال .

فمن البراهين : أن الحاجب لشيءٍ قاهرُهُ ، وقد علمت وجْوب قهره سبحانه لما سواه .

وأيضاً : فالحجاب دلالةُ الانقهار ، وما سواه مقهور به ، فتحقّق أن الحجاب عن الله إنما هو في ذوات الكائنات ؛ إذ وصفُ العدم الحجابُ ، والكائنات من حيث ذواتُها عدم ، فلما أراد أن يكشف سرَّ وجوده ، ويظهِرَ تجلِّي شهوده . . رشَّ علىٰ عدم ذوات الكائنات من نور

ذاتــه وصفاته وأفعاله ما أظهر به وجــودَ ذواتها وأوصافها وأفعالها [١] ، فاســتعدَّت بذلك لتجلِّي الظهور ؛ فمن شــاهدٍ بنور الذات ، ومن شاهدٍ بأنوار الصفات ، ومن متحقِّقٍ في الأحوال والمقامات .

وبحسب هٰذه التنزُّلات تكون الدرجات ، والرؤية في الجنات ، وتظهر حقائق المعاملات ؛ رب رجلين يستويان في العمل ، وعملُ أحدهم إلىٰ جنب عمل الآخر كالذرَّة إلىٰ جنب أُحُدٍ كما ورد ذٰلك .

ومــا ورد : « إن لله ســبعينَ حجابــاً مــن الظلمة ، وســبعينَ من النــورِ » [٢] ، فالحجــب الظلمانية : هــي ما انطوىٰ عليــه تركيبك ، والسبعون التي من النور : ما حواه ترتيبك لا غير ، وتعدادُ هٰذه الحُجُب فــي التركيب والترتيب مما يطــول تعداده ، ويحتاج إلــىٰ معرفته ما احتويتَ عليه من مجموع السبع الأرضين ، وما انطوىٰ عليك من أنوار الســبع السماوات من كل واحد ، مجموع هٰذه عشرة حجب ، تحتوي علىٰ متعددات أنواع ، حتىٰ إن الســالك يســتعين فــي تلطيف بعض هٰذه ببعض .

فــكلُّ حجاب ظلمانــي يقابله بنورانــي حتىٰ تفنــىٰ عنه الحجب الظلمانيــة ، فيؤخذ في التوحيد في فناء الحجب النورانية حتىٰ يخلص عنها ، فيشــهد الحق بالحق ، وهو الشــاهد والشــهود والمشهود ؛ وهو قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

---

(١) روى الترمــذي ( ٢٦٤٢ ) عــن ســيدنا عبد الله بــن عمــرو رضــي الله عنهمــا مرفوعــاً : « إن الله عــز وجــل خلــق خلقه فــي ظلمة ، فألقىٰ عليهــم من نوره ، فمــن أصابه من ذٰلك النور . . اهتدىٰ ، ومن أخطأه . . ضلَّ ، فلذٰلك أقول : جفَّ القلم علىٰ علم الله » .

(٢) انظر « العظمة » لأبي الشيخ ( ٢/٦٧٥ ـ ٦٨٦ ) .

ومن البرهان على استحالة الحجاب عليه : أن الظرف قبل المظروف ، وقد علمت وجوب قدمه ، ووجوب حدوث ما سواه .

وبرهان وجوب القدم : بروز الممكنات ، وبرهان حدوثها : مشاهدة انعدامها[1] ؛ لأن ما وجب قدمه .. استحال عدمه ، وهـٰذا بحمد الله ظاهر لا يحتاج إلىٰ زيادة بسط .

وتلك الفوقية فوقية حكم وولاية وقهر ، ولاية الربِّ للمربوب ، والسيد للعبد ، [ والحاكم للمحكوم عليه ][2] ، والاستيلاء والاستعلاء والتولي ، ولي في ذٰلك :

الحق ظاهرٌ لا تحجُبْه صنعته والكون في غيبةٍ من ظلمةِ العَدَمِ
فكيف من بعد ما شهدت أدلته أن الحوادث لا تثبُتْ مع القِدَمِ

❊ ❊ ❊

فحيث علمت : أن الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت عنه .. علمنا أيضاً أن ليس هناك حجاب سوىٰ أوصافك ، وما أنت عليه من التركيب البشري ؛ فإن أردت كشفَ ذٰلك الحجاب .. فاخرجْ عن أوصافك ، وفارق مقتضياتِكَ ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) يعني : مشاهدة انعدام أعراضها ، فتكون حادثة للتلازم .
(٢) في النسخ : ( والمحكوم عليه للحاكم ) ولعل المثبت هو الأقرب .

أُخْرُجْ عَنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ لِنِدَاءِ ٱلْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

**الخروج عن الأوصاف البشرية المناقضة لوصف العبودية** من أنفع الوسائل لكشف الحقائق التي هي حلية الأسرار ، وبهجة الأرواح ، وروح القلوب ، وشرح الصدور ، **والخروج عن هاذه الأوصاف البشرية** أول مبادئ إرادة مريدي سلوك الطريق إلى الله .

**والأوصاف هاذه ؛ منها** : ما يكون ظاهراً في قوالب الأفعال ، **ومنها** : ما هو باطنٌ في القلوب .

**والظاهرة** : هي كلُّ فعلٍ أو قولٍ ندبك الشرع إلىٰ تركه ؛ من محرَّمٍ أو مكروهٍ بسائر أنواعه ، **ومجموعها سبعة أبواب** في ظاهر الجسم ؛ **فمنها** : اللسان وهو أشدُّها ضرراً ، والعينان ، والأذنان ، والفرج ، والبطن ، واليدان ، والرِّجلان ، **وحدُّ كل عضو من هاذه الأعضاء من المحرمات والمكروهات** معروفٌ عند مريدي سلوك طريق الله ، وهي مواضعُ ظهور المقدورات ، ومظهر ما انبهم في غيب القبضات ؛ قبضة اليمين والشمال .

**فهاذه علىٰ إجمالها** : قسمٌ ممَّا يجب على المريد الخروج منه من الأوصاف البشرية المناقضة للعبودية .

**والقسم الثاني** : هي أوصاف القلوب الحاجبة لها عن أسرار الغيوب ، **وهي أيضاً كثيرة** ، وصعبٌ علاجها إلا علىٰ ذي بصيرة ؛ **فمنها** : الكبر والحسد والرياء والعجب ، وما يتولَّد عن ذٰلك من رذائل الأخلاق ، **فالخروج عن ذٰلك** وصف العبودية ، وهو الذي يشير إليه الصوفية

بالتخلية ، والتحلِّي بأضداد هٰذه الظاهرة بصفو الأعمال الظاهرة عن الشوائب الهوائية ، وتصفية الأعمال الباطنة عن المكدرات الظلمانية .

والتصفيةُ الظاهرةُ والأخذ في الأعمال الظاهرة . . يسمَّىٰ شريعة وديناً ، والأخذ في الأعمال الباطنة وتصفيتها عن كدوراتها . . يسمَّىٰ طريقة وتصوفاً ، وعند صفاء الأعمال الظاهرة والأحوال الباطنة والأخذ في طريق المواهب والأحوال . . يسمَّىٰ حقيقة ومشاهدة ، والغيبة عن الإحساس . . يسمَّى استغراقاً وفناء ، والثبوت معه علىٰ مقتضى الأمر والنهي . . يسمَّىٰ صحواً وبقاء .

فإذا فني عن الأوصاف البشرية . . فقد صفا عن مناقضات العبودية ، وإذا صفت العبودية . . توالت عليه ألطاف الربوبية ، وإذا كان كذٰلك . . كان لنداء الحق مجيباً ؛ تحقيقاً بقوله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ ، فيقول الله تعالىٰ له : يا عبدي حقاً ، فيقول : لبيكَ يا ربِّي صدقاً ، وهٰذه غير عبودية القهر التي لعموم مَنْ في السماوات ومن في الأرض .

وإذا بعد عن أوصافه وعن نفسه . . كان قريباً إلىٰ حضرة ربِّه ، فكلما كان عن نفسه أبعد . . كان إلىٰ ربِّه أقرب ، وليس حضرة ربِّه إلا فناءه عن فعله ووصفه وذاته ، وبقاءه بوصف عبوديته .

فخرج عن هٰذا ما لا يطالبك الحق بالخروج عنه من أوصاف البشر ، فليس من ذٰلك في شيء ؛ لأنه أباح لك منها ما تتوصَّل به إليه : من كل فعلٍ أو قول ، أو نظرٍ أو سمع ، ورتبة المباح بين الأمر والحظر ، وتتجاذبها الحضرتان ، ويتناوبها المقامان ؛ فإن كان الغالب على الإنسان الأمر . . فلا بدَّ أن يسلك بمباحاته مسلكها .

**فمن الصادقين** : من يسلك بالمباحات البشرية طريقَ الواجبات الأمرية بحسن النية وصدق الطوية ، **ومن السالكين** : من يسلك بالمباحات طريق المندوبات ؛ لما هو عليه من المحافظة للمطلوب ، والتباعد عن ورطات الذنوب ، **ومن المتهوِّرين المنهمكين** : من يسلك بها مسلك كبائر الذنوب ؛ لما هو الغالب عليه من التهوُّر وعدم الحضور مع الله في الأمور .

ومن بدَّل المباحات والمحرَّمات بالواجبات والمندوبات . . **استحقَّ أن يسمىٰ بدلاً** ، ومن هنا سُمي الأبدال ؛ **لأنهم بدَّلوا الأوصاف البشرية بالنعوت الروحية** ، وهٰذه بعض إطلاقات اسم الأبدال .

**وأما اسم البدل الخاصّ** . . فهو مَنْ فني عن الذات الغيرية ، وبقي مستغرقَ السرِّ في المشاهد القُربيَّة ، والصفات الأزلية ، لا شعور له بسوى الواحد الحق ، لا نفسه ولا غيره ، **ولي في ذٰلك** :

يا مَنْ يريدُ دنوَّ القُربِ فابتدرِ ... اخلَعْ عذارَ قيودِ الحسِّ والبشرِ
وبادرَنْ تُدْرِكِ المأمولَ والظفر ... وكلُّ وصفٍ تُرِدْهُ صحةَ النظرِ
فاتركْ وسِرْ في طريق السادة الغُرَرِ ... تلقىٰ من اللطف فيها ألطف العِبَرِ

* * *

وأصل كل خُلُقٍ مذمومٍ وطبعٍ ملوم . . هو الرضا عن النفس ، ورؤيةُ الكمال لها ؛ فالرضا عن النفس أصلُ كل بليةٍ ديناً ودنيا ، **فما أهلك عامَّةَ الخلق إلا الرضا عن أنفسهم** ، واستحسان أفعالها ، ورؤيتها بعين التعظيم ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

## أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ . . الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَعِفَّةٍ وَيَقَظَةٍ . . عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا

هٰذا أصلٌ كلي ؛ إذ مجموعُ المعاصي الظاهرة والباطنة ، كبيرةً أو صغيرة . . رضا الإنسان عن نفسه بعد سبق تقدير الله وإرادته ، فإذا سبق على العبد أن تجري علىٰ يديه شؤم المعاصي ، وظلمة الغفلة ، ومحرقات نيران الشهوة . . حُجب عن رؤية نقص النفس وعيبها ، وضلالتها وغيِّها ، ورأىٰ حسنَ ما يصدر عنها وإن كان قبيحاً ؛ فعند ذٰلك : لا يفيد فيه نصح ، ولا يبينُ له من ليل غفلته صبح .

فإذا استحسن أفعالها . . غفَلَ عن تفقُّد أحوالها ، وعند غفلته عن أحواله . . تستولي عليه دواعي الشهوات في مواطن الغفلات وكبائر الضلالات ، فلا يُحقُّ حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، بل منقادٌ بقياد الهوىٰ ، تائهٌ في مهامه الجهل ، ومن أشكل عليه ذٰلك . . فلينظر إلىٰ أصفياء الله وخيرته من خلقه من الأنبياء وسادات العلماء وخواصِّ الأولياء : هل رضوا من أنفسهم فعلاً أو استحسنوا لها حالاً ؟!

فمن عرف نفسه . . لم يأمن أن تلقيه في مَهْلكة ، فلا يزال كثير التيقُّظ ، ومن كان حالته اليقظة . . رأىٰ ما يرد عليه من دواعي الهوىٰ وتسويلات الإغواء ، وسلِمَ قلبُهُ عن ورود ظلمات الشك ، واستنار بأنوار الإيمان ، وأشرقت عليه شموس الإحسان ، وطلعت علىٰ سرِّه طلائعُ الكشف والعيان .

وأصل ذٰلك : عدم رضاه عن نفسه ، حيث اتهمها ولم يرضَ عنها ، فأمعن التفقُّد في أحوالها ، وصفَّىٰ عند كدر الهوىٰ أعمالها ، فصار

يتعفَّفُ عن سفساف دواعيها ، ويجتنب وخيم مراعيها ، وألزمها ما فيه فلاحها ، وجرَّعها ما فيه نجاحها ، فأكرمها بكرامةٍ لا إهانةَ بعدها ، وطهَّرها طهارةً لا تدنس بعدها ، وذٰلك ينظر بنور الإيمان ؛ لأن نور الإيمان يريه الحقَّ حقاً فيتبعه ، والباطلَ باطلاً فيجتنبه .

ومرَّ أن النفس من حيث مركزها الجبليُّ ، وطبعُها الحيواني .. باطل ، ومن حيث محتِدُها القدسي ، ومظهرها الروحي ، وتجليها السري ، ووسعها الاسمي .. حقٌّ فيتبعه ، فالمسمَّىٰ بلسان الذم نفساً .. هو المركزُ الجبلِّيُّ الحيواني [1] ، فالرضا عن هٰذا المركز ، والهبوط إلىٰ هٰذا المحتد .. أصل كل معصية ؛ لأن المعاصي لا تظهر إلا فيه ، ولا تعرف الشهوات وظلمات الغفلات إلا به ؛ إذ العالم الهبوطي محلٌّ لمظهر الهوىٰ ، والعالم العلوي بطبعه لا يقبل ذٰلك كله ؛ لا المعصية ولا الغفلة ولا الشهوة ، ﴿ لَا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾ ، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ ، طعامهم التسبيح ، وشرابهم التهليل .

وجعل الله ببالغ حكمته الإنسان مجمع العالمين العلوي بقلبه ، والسفلي بنفسه ، فإلىٰ أيهما كان ميله ورضاه .. كان الحكم له والدولة علىٰ من سواه ؛ فإذا رضي عن النفس .. أمَّرَها على القلب ؛ فاستعملته في عالمها ، وقادته إلىٰ طبعها ، وحيث كان ساخطاً عليها .. لم يكن الحكم لها ، بل عليها ، وأمَّرَ القلب ؛ فاستعملها في محابِّهِ ، وقد علمت أن العالمَ العلوي ما هم عليه من الصفاء واليقظة والحذر من المخالفة .. فحينئذٍ تتَّصف بوصفه ، ويعود فرعها لأصله ، فتسمَّىٰ

(1) في النسخ : ( نفس ... ) بدل : ( نفساً ... ) .

مطمئنـةً ، وتدخل في جملة عبـاده الخاصِّين بحضرتـه ، الصالحين لخدمته ، ولي في ذٰلك :

لا تـرض عن نفسـك أن النفس مركزها
يحيـد بالقلـب عـن مشـهوده السـامي

وكـن عليهـا معينـاً كـي يكـون لهـا
مـن ربهـا مـن شـهود القـرب إنعامـي

وأكثر من يرضىٰ عن نفسه ويستحسن أحوالها : من انتمىٰ إلىٰ حالة مما يترفَّع به ؛ إما علمٌ أو نسبٌ أو حسب ، وهو إما ظاهرٌ جلي ، وإما باطنٌ ؛ فقلَّ من قام به شيء من ذٰلك أن يخلو عن الرضا عن النفس ولو في بعض الأحوال إلا من حفظ الله سرَّه ، وألبسه لباس الحفظ ، وحفَّه بكلاءة العناية ، وجلَّله بنور الولاية ، فلا يغترَّ بذٰلك ، ولم يخدع لما هنالك ، وصحبة المغرورين غرور ؛ لأن للصحبة في المصحوب أثراً ظاهراً ، لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِماً يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِه ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ؟!

فالصحبة عند المشايخ لها أصل أصيل ، بل هي عمدةُ الطريق ، وهي الركن الأعظم ؛ لأن للصحبة تأثيراً في الجماد والهواء ، فكيف في النفوس القابلة لما يلقىٰ إليها مشاهدة وفعلاً ونظراً وسمعاً ؟!

وفائدتها : ترقِّي الصاحب إلىٰ حالة المصحوب ، وانتقال أوصافه إلىٰ أوصافه ، وأفعاله كذٰلك إلىٰ أفعاله ، وأخلاقه وجميع هيئاته ؛ بواسطة المحبة ورابطة التألُّف الروحي ، حتىٰ يصير الذاتان والوصفان والفعلان والهيئتان كشيءٍ واحد ؛ لا ينفك أحدُهُما عن الآخر إلا من حيث استحالةُ كون الفردين فرداً (١) .

فإذا صحبت من يرضىٰ عن نفسه وقد علمت أن الرضا عن النفس أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ . . فأيُّ خيرٍ في صحبة من تأصَّلت فيه المعاصي ، وتحكَّمت عليه الغفلة ، ورسخت فيه الشهوة ؟!

واعلم : أن اسم العلم لمن هٰذا الوصفُ وصفُهُ . . مجازٌ لا حقيقة .

والعلم على الحقيقة : إنما هو من عرَفَ الطريق الموصل إلىٰ سعادة الأبد .

والجهل على الحقيقة : إنما هو كلُّ ما غرَّك بالله ، وصدَّك عن عبادة الله .

وقد علمت أن أصل كل طاعةٍ وعفَّةٍ ويقظةٍ : عدمُ الرضا عنها ، فأين الجهل لمن تأصَّلت فيه الطاعة ، وحكمت عليه العفَّة ، وغمرته اليقظة ؟!

فصحبةُ من هٰذا حاله أصل كلِّ الخيرات ، ومجمع المسرَّات ، ومفتاح البركات والسعادات ، وسلَّمُ القربات ؛ فهو حقيقٌ بأن يُتَّخذَ إماماً ، ويلازم شهوراً وأعواماً ؛ لتسريَ إلى المصحوب بركاتُ صحبته .

وأما من كان حالته الاغترارَ بالله ، والإعراض عن أوامر الله ، وانتهاك

---

(١) فلا اثنينية إلا بهٰذا المعنىٰ ، وهو مشهد هدر عندهم .

محارم الله .. فصحبتُهُ أضرُّ الأشياء ، سيما إذا كان مترسِّماً بمراسم العلماء ، ومتزيِّياً بزيِّ الحكماء ، وهو غافلٌ عن عيوب نفسه ، ومحجوب عن حضرة قدسه ، متطاولٌ في الكلام ، متكالبٌ على الحطام ؛ فضرورة صحبته أشدُّ من ضرورة صحبة من لم يترسَّم بذلك الرسم(١) ، ولم يعرف بذلك الاسم ؛ لأن من لم يدَّعِ ذلك .. ترجىٰ توبته ، وتعرف له ولغيره زلَّتُهُ ، فلا يُتَّبعُ فيها .

قال الإمام رضي الله عنه في « بدايته » : ( أضرُّ الأشياء : صحبةُ عالم غافل ، وصوفي جاهل )(٢) .

وأصل ضرر هٰؤلاء : رضاهم عن أنفسهم بما هم عليه ؛ هٰذا من العلم ، وهٰذا من المنصب ، والانتساب إلىٰ أولي الفضائل .

وعبارة المصنف في هٰذا الأسلوب عجيب ؛ إذ جعل الرضا عن النفس أصلاً للمعاصي الظاهرة والباطنة ، والمعاصي أصلاً للغفلة ؛ لأنها حصلت بسبب ظلمة المعاصي ، والغفلة أصلاً للشهوات ؛ لأنها نتيجة الغفلة ، فلقد أحسن في ذلك ، فجزاه الله خيراً .

ولي في ذلك :

معاصي الله يجمعها وينتجها ... رضاك عن نفسك الزوراء يا أنسان
لا تخدعنَّك في تزوير غرتها ... وكن ذكي الفهم إن الحر يقظان
إياك تصحب من لم يدر خبرتها ... فصحبة الغافل المغرور خسران
من لم يفتشُ عن أسرار سيرتها ... طاحت بصيرته والقلب حيران

❊ ❊ ❊

---

(١) الضرورة في العبارة بمعنى الضَّرَر ، لا بمعنى الحاجة .

(٢) انظر « بداية الهداية » ( ص ٢٤٣ ) وما بعدها ، ولم ينصَّ علىٰ ذلك بعينه .

**فلمّا ميّزَ حالةَ المحقِّ** ـ وهو الذي لا يرضىٰ عن نفسه لأمرين ؛ إما لظهور نور العقل فيرىٰ نقصها ، أو شهود العلم فيرىٰ عدم إخلاصها ، أو بنور الحق فيرىٰ مضادتها لوجود بارئها بادعائها : ( أنها ) ، و( أن لها ) ، و( منها ) ـ **من حالة المبطل** الذي عمي عن هٰذه المشاهد ، ولم تظهر عليه هٰذه الفوائد . . **أضرب عن المبطلين وباطلهم** ، وأخذ في تفصيل أحوال السالكين ومشاهدهم ، **فقال رضي الله عنه مشيراً لذٰلك المعنىٰ** :

**شُعَاعُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ ، وَحَقُّ ٱلْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ ؛ لَا عَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ**

عبارتُهُ **بالشعاع** تشير إلىٰ أثر نور الاسم الظاهر أثره علىٰ ظواهر الأركان ، ومحسوسات الأبدان ، **فتخرُّ للأذقان خضوعاً** ، وتجري وابلات سحائب الدموع ، وتهجر المضاجع والهجوع ، وتسلي عن الظمأ والجوع .

**فهٰذا ما ظهر من الشعاع** ، وذٰلك ثمرة رؤية الاطلاع ، رؤية العبد اطلاع الله علىٰ حركاته وسكناته ، **ويكون مشهده من الكتاب** : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ .

فهٰذا مشهد من شهد أقربية الحقِّ إليه من كل شيء ، **فيؤثر حبَّهُ علىٰ حبِّ كل شيء** ، وذكره علىٰ ذكر كل شيء ، وطاعته علىٰ كل شيء ، وصحبته والحياء منه علىٰ كل شيء ، وفي كل شيء .

**فلا يرىٰ شيئاً إلا ويراه أقرب إليه من ذٰلك الشيء** ، قرباً لا يكيَّفُ بكيف ، ولا يحدُّ بأين ، ويجاوز قربه قرب الاثنين ، فلا تُدركُ عنده رتبةُ البيْن ، **فهٰذا شعاع البصيرة** الفائض من إشراق نور السريرة .

**وأما عين البصيرة** . . **فهي عين القلب التي تدرك به المعارف** ، وتميزُ به اللطائف عن الكثائف .

**فتشهد اللطائف** : أنها أنوارٌ من أنوار الله ؛ إما من أنوار ذاته ، وإما من إشراق صفاته ، وإما من تجليات أسمائه ، **وأسماؤه وصفاته وذاته حقٌّ** .

والكثائف : ظلماتٌ عدمية ، وصورٌ وهمية ، فيتحقَّق عند ذٰلك ضرورةَ وجود الحق من حيث اللطيفةُ الوصفية أو الاسمية أو القبضة الذاتية ، وعدم هٰذه الصورة الوهمية ؛ وذٰلك ظاهر بالعيان ، ومشهود بالبيان ، ومتحقَّق بالدليل والبرهان .

وأما حق البصيرة ، وهو نور الحق الظاهر ، وسرُّهُ الباهر ، وصبح وجوده السافر . . فلا يشهدك سواه ، فإذا جاء الحق . . زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟! والضلال هو الباطل العدم ، فلا يشهد بنور الحق سواه ، فهو الشاهد والشهود والمشهود .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ ﴾ لأهل الشعاع ، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ لأهل العيان وظهور البيان ، ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ لأهل الحق ، فهنا يفنىٰ وجودُ وَهْمِ الثان ، ويخرس اللسان ، ويقبض العنان ، ويتحقَّق معنىٰ قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، فتستغرق هويته جزئياتِ الأعيان ، وينطمس عند وجوده المَلَوان (١) ، فإذا ظهرت الأحدية .. ذهبت ثنوية الثان .

والبصيرة من حيث هي : نورٌ وجودي ، تقبل الإفاضات الحقِّية ، وتشرق بشعاعها على العوالم الخلقية ، وهي تقابل عالم الشهود من الوجود ، وهي الأمانة المعنيَّة (٢) ، والله أعلم .

ولي في ذٰلك :

شعاع نور البصيرَةْ يستضيء به

من ظلمة الجهل مَنْ هوْ سالكُ السُّبُلِ

---

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ... ﴾ الآية .

بعيـــنِ مشـــهدِها يُعطَـــىٰ مآربـــه
ويغتنـــي عـــن عبـــورِ الشـــيءِ بالمثـــلِ
وحـــق ذاك وجـــود لا يشـــار بـــه
وتنطـــوي دونـــه الألبـــاب والمقـــل

* * *

فإذا تحققت ما هو عليه من صفات الكمال ، وأنه العالم بكل حال ، وأن لديه وعنده من صنوف الإفضال ما لا يدخل تحت حصر مقال ، وهو متَّصفٌ به من جميل الأفعال . . فلا تتعدَّاه المطالب ، ولا ترىٰ من غيره الرغائب [1] ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في ( أ ، ج ) : ( ولا ترام من غيره الرغائب ) وهما بمعنىً .

٣٧

كَانَ ٱللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ ٱلْآنَ عَلَىٰ مَا عَلَيْهِ كَانَ [١]

٣٨

لَا تَتَعَدَّيَنَّ هِمَّتُكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَٱلْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ ٱلْآمَالُ

الكريم : هو الذي يعطي من لم يَرجُ نفعه ، ولا يَخافُ شرَّه ، ولا يبال بمن أعطىٰ ولا بما أعطىٰ ؛ لثبوت غناه عن إيصال المنافع إليه ، وتعاليه عن أن يدرك كنهَهُ سواه ، أو يثنيَ عليه حقَّ ثناهُ إلا إيَّاه ؛ فهو الكريم المفضال ، الذي لا تتخطَّاه الآمال ، ولم تعتره مغيرات الأحوال .

فحيث علمت أنه كذٰلك . . فلا ينبغي لك أن تتعدَّىٰ بهمتك في حوائجك إلىٰ سواه ، ولا تقصد في مهماتك إلا إياه ، فلا لغيره حقيقة وجود في ذاته وصفاته ، فضلاً عن أن يكون عنده ما تطلب ، ولديه ما تقصد ؛ فهو لا يرضاك تقصد غيره ، ولا تعرض عن معروفه وخيره ، كيف وقد علَّمك ذٰلك ودلَّكَ عليه ، ونبَّهك علىٰ ما عنده من عظيم الفضل فقال : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

ودلَّكَ علىٰ أنك لا يوحشنك عظيم جِرمك ، وكثير ذنبك ؛ فهو الذي إذا قدر . . عفا ، وإذا اعتذر إليه . . قبل وما استقصىٰ ، فقال : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ، وقال : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ . . . إلىٰ غير ذٰلك .

---

(١) كذا في ( أ ) ملحق بهامشها ، ولم يتعرض المصنف لهٰذه الحكمة .

ومن لطفه بعبده : أن جعل لعباده من كل اسمٍ من أسمائه خُلُقاً ، فالحمد لله ، فقلَّ من تجد من أهل دائرة الإسلام لم يتخلَّق بواحدٍ من أسمائه ؛ فلك من اسمه الكريم أن تكرمَ نفسك وتصونها عن رذائل أخلاقها ، وتكرمها بالتقوىٰ ، وتتكرَّم علىٰ كل عضوٍ من أعضائك بإحيائه بالأعمال المقرِّبة إلى الله زلفىٰ ، ولي في ذٰلك :

إن كنتَ ترجو لديه الفضل والأمل ... فلا تعدَّاه للأسبابِ والحِيَلِ
إن الكريمَ إذا ما نِيلَ لم ينلْ[1] ... يعطي ويغضي عن الإجرام والزلل
فكيف تعرفه يوماً وتبتذل ... إلى الخلائق أو تلجأ إلى العلل

* * *

فلما كان هو الذي يورد الحاجات عليك ، كما أنه يهدي الزلفىٰ لديك ؛ نعمة منه ليردَّك إلىٰ بابه ، لتقرع بكفِّ الفقر والاضطرار باب الغنىٰ ، وخزائن العطاء المودوعة تحت وجود الانكسار والاضطرار . .
قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : ( ما نيل لم يزلِ ) .

لَا تَرْفَعَنَّ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟! مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ عَنْ نَفْسِهِ . . فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟!

الرفع : هو الطلب ، وعكوفُ الهمَّةِ علىٰ باب المرفوع إليه ؛ إما في رفع نازلةٍ في الحال ، أو خوفاً منها في المآل ، أو إرادة عطية ، أو دفع بلية .

فإذا علمت ذٰلك ، وأعطىٰ نور التوحيد أن لا فاعل إلا الله . . **علمت أن وجود المنافع ودفع المضارِّ آثارٌ لمؤثرات** ، وتلك المؤثرات : إما من مظاهر **الأفعال** الظاهر آثارُها في ظواهر الأعمال والأقوال ، وإما من آثار **تجلِّي الصفات** التي تظهر آثارها في الملكوتيات والمقامات الأخرويات .

وإذا تحقَّقت بأن لا فاعل ولا مؤثِّر ، ولا محرِّك ولا مسكِّن ، ولا نافع ولا ضارَّ ، ولا واضع ولا رافع إلا الله [١] ، ولا موصوف بصفات الكمال ، ولا ظاهر بالجمال والجلال إلا الله . . علمت يقيناً أنه لا يرفع ما نزل بك سواه ، وعلمت أن غيرك مثلُكَ في عجزه عن رفع ما أنزله ، أو تبديل ما قدَّره ؛ فما جاز عليك . . جازَ علىٰ غيرك ، فإذا لم تقدر علىٰ رفع ما نزل بك . . فغيرُكَ أعجز .

كيف تُنزلُ الحوائج أو تَرفعُ المطالب إلىٰ غيره ؟! أم كيف يجملُ بك أن تنضي مطايا الطلب إلىٰ سواه وقد علمت فقر غيره وثبوت غناه ؟! [٢]

(١) في ( أ ، ج ) : ( ولا دافع إلا الله ) بدل : ( ولا رافع إلا الله ) .
(٢) أنضىٰ بعيره : هَزَلَه من طول السفر .

وعجز غيره وثبوت عزِّه واقتداره ؟! أم كيف تنتصر بمن هو مفتقرٌ في وجود غناه ؟!

يا عجباً ؛ أترىٰ يرفع غيرُهُ ما أنزله ، أو يُطلَب من سواه ما لا يوجد إلا في خزائنه ؟! أترىٰ لغيره من القدرة ما ليس له ؟! أو يوجد معه مَنْ هو هالكٌ في وجوده ، وغائب في شهوده ؟!

ويكفيك من العتب : أن أثبتَّ الباطل مع الحق ؛ فكيف وقد أثبت الباطل وآمنت به وكفرت الحق ؟! أي : سترته ، قال الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

ومن أخسر حالاً ، وأخيب سؤالاً ممَّن رفع حوائجه بمن هو غافل عن دعائه ، ومتبرئ عن ولائه ؟![1] فإذا كانت الأمور صادرةً عنه وقد علمت كمالَ علمه وغناه ونفوذ حكمه ، وأنه لا رادَّ لأمره ، ولا معقِّبَ لحكمه . . فكيف تراك تقصد غيره وهو لا يرضىٰ ذٰلك لك ؟! أليس في ذٰلك غاية الجفاء وعدم الإنصاف ، وترك الوفاء ، وترك المبالاة بالجناب الإلٰهي ؟! فما ترجع إلىٰ بابه إلا وقد حاولت كل حيلة ، وتلوَّذت بكلِّ وسيلة .

أترىٰ للوسائل من جلب النفع ودفع الضرِّ ما ليس له ؟! أم تراه لا يسمع نداءك ويعلم ضرَّاءك إلا بتذكير المذكِّرين ؟! كيف وهو الذي نصبَ الدلائل ، وأبان الوسائل ؟!

هٰذا العتب إذا غفلت عنه ، وتعلَّقت بسواه ، ولم تشهد سرَّ الله في الوسائط والوسائل ، وإلا ؛ إذا كنت لذٰلك شاهداً ، وله في الأمور ذاكراً . . فلا حرج أن تتوسَّل إليه بوسائله ، وتتضرَّعَ إليه بأصفيائه

(١) في النسخ : ( متبرئاً . . . ) بدل : ( متبرئ . . . ) .

وخــواصِ أوليائه وشـعائره ، وما احتـرم لحرمته ؛ **فهـو الذي نصب الأسـباب ، وعرَّفك الأبـواب** ، فقـال : ﴿ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ فسمَّاه بِرّاً .

وقد علمت ما أمرك الله أن تتشفَّع إليه وتدعوه به من أسمائه ، وما **عرَّفك** في كتابه إذ قال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ .

وقد ثبت أن شفاعة الأنبياء والعلماء كلٌّ علىٰ حسب جاهه عنده ، لٰكن بعد الإذن في ذٰلك ، فقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، **وأحقُّهم بذٰلك المقام** : أخشاهم له ، فقال : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ ، **ولي في ذٰلك** :

يـا طالـبَ النُّجْحِ في الحاجـاتِ والظفرِ
اقصِـدْ هُدِيتَ إلىٰ ذي الجـودِ والكـرمِ
كـن عاكـفَ الهمِّ فـي الحـالاتِ بالنظرِ
إلــى الــذي خيـره جــمٌّ النــدا عَمِــمِ

* * *

**وأصل الاعتماد على الله** : حسنُ الظن بالله ، **وأصل الاعتماد علىٰ غير الله** : سوء الظن بالله أعاذنا الله منه ، **وحسن ظنك به يلزمك** ، إن لم تحسِّنْ ظنَّكَ به لكونه أهل الفضل ، ولأوصافه العلا ونعوته الفضلىٰ . . **فلِمَا يصلُ إليك من الآلاء والإحسان** ، وعظيم الامتنان ، فذٰلك ملازمك علىٰ ممرِّ الأزمان ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

**إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ . . حَسِّنْ ظَنَّكَ بِهِ لِأَجْلِ مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَناً ؟! وَهَلْ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ إِلَّا مِنَناً ؟!**

**حسن الظن بالله** : أصلُ كل خير ، ومنبع كل فضيلة ، وأنجح كلِّ وسيلة ، وبه نال ذوو الفضائل ، واعتمده كلُّ محقِّق واصل ، وعنده يكون لك كلُّ ما أنت آمل ، وتصلح معاملةُ كل عامل ، فإذا أراد الله أن ينيل عبده فضيلة ويوليه جميله . . **جعل حسن الظن بالله له إليه سُلَّماً** .

**والخَلق في حسن ظنهم بالله علىٰ قسمين** ـ بل أقسام كثيرة ـ : **فمن خاصة وعامة** ، وهم أيضاً صنوف وأقسام عديدة .

**فالخاصة** : لما عرفوا ما هو عليه سبحانه من النعوت العليَّة ، والصفات الجميلة . . **حسَّنوا ظنَّهم به** ؛ لما ترشَّح في مشاهد أسرارهم من أنوار صفاته ، وتجليات ألطاف ذاته ؛ **فلم تغيِّرهم اختلافاتُ العوارض الكونية** ، والآلام البدنية ؛ لما تمكَّن في أسرارهم من لطيف جماله ، وعليِّ كماله ، **فهٰؤلاء حسنُ ظنِّهم به لا لشيء ولا بشيء** ، بل هو عليه وبه ، لا بحدوث عرض .

**والعامة** : لما لم يشهدوا ذٰلك ، ولم يحظَوا بما هنالك . . **فحسنوا ظنَّهم به** ؛ لكون أيادي فضله عليهم متواصلة ، ومزايا برِّهِ لديهم متزايدة ، **ولم يعوِّدهم إلا لطفاً وإحساناً** ، وفضلاً وامتناناً .

**فالأولون مأمونو الانقلاب عما هم عليه**[1] ؛ لأنهم حسَّنوا ظنَّهم لا لعلة ولا بعلة[2] .

---

(١) في النسخ : ( مأمونون الانقلاب عما هم عليه ) .

(٢) في النسخ : ( ولٰكن حسنوا ظنهم لا لعلة ولا بعلة ) .

والعامة غير مأموني الانقلاب ؛ لتقلُّب الأحوال ، فلربما يضعف عن حسن الظن به مع وجود المؤلمات ، وحصول المنغِّصات ، والذين أحسنوا الظنَّ به لكونه أهلاً لذلك ومستحقاً له . . لا يتطرَّق إليهم سوء الظن لأجل حصول شيء مما ذكر ؛ لأنهم مستغرقون في شهود الأوصاف العلية ، والنعوت السنية .

والأحاديث والأخبار والآثار في حسن الظن : أكثر من أن تذكر ، وأظهر من أن تشهر :

منها : حديث قدسي : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي »[1] .

ومنها : « لا يموتنَّ أحدُكُمْ إلا وهو حسنُ الظنِّ بالله »[2] .

وأما الآثار . . فما روي عن أحدٍ من أهل الله إلا وكان أغلبَ أحواله في عموم أوقاته حسنُ الظن بالله ، فطرَّزوا به الكتب والدفاتر ، وزيَّنوا به الخطب والمنابر ، سيما من كان مقامه أرفع ، وعلمه أوسع ؛ فلا يكون جلُّ مقامهم وبالغ كلامهم إلا في حسن الظن بالله ، فهو من أجلِّ مقامات العبودية .

فلو كان عملٌ أرجىٰ منه ، أو حالٌ أشرف منه . . لكان ينبغي للعبد أن يتصف به عند خاتمة عمره .

فلما لم يكن أشرفَ منه حالٌ ، ولا أرفع منه من أحوال العبد كمالٌ . . دلَّنا عليه الناصح الشفيق ، فقال : « لا يموتنَّ أحدُكُم إلا وهو حسنُ الظنِّ بالله » .

فلا ينبغي للعبد أن يفارقه حسنُ الظن بالله لمحةَ ناظر ، ولا فلتة

(١) رواه البخاري ( ٧٤٠٥ ) ، ومسلم ( ٢٦٧٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم ( ٢٨٧٧ ) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

خاطر ؛ لأنه لا يأمن هجوم الموت عليه في حالٍ من أحواله ، ولا يناقض كونه خاشياً وخائفاً ؛ فإنك إذا قدمت علىٰ ملكٍ كريمٍ أوعدك بالعطاء وجميل الوفاء[1] . . تكون علىٰ ثقة من ذٰلك ، مع ما أنت عليه من هيبة المَلِكِ وخوف سطوته ؛ فذٰلك مشاهد .

ويتأكَّد حسن الظن بالله عند النوازل ؛ لأنه قال : « أنا عند حسنِ ظنِّ عبدي بـي » ، فإياك أن تخرج عن حضرة عنديَّتـه ؛ إن خيراً . . فخير ، وإن شراً . . فشر ، فالكل ظانٌّ بالله ظناً ، فكل ظن علىٰ حسَبِ ما حقيقةُ العبد عليه منطوية ، فلا أدلَّ علىٰ سابقة الحسنىٰ من الله للعبد من حسن الظنِّ بالله .

ولا يكون حسنَ الظنِّ وهو مخالفٌ للأمر ، ومنتهكٌ للمحارم ، وأما إذا كان كذٰلك ـ أي : منتهكاً للمحارم تاركاً للأوامر ـ . . فهو زندقة ، وخروجٌ عن الحد المطلوب ، فإن تمادىٰ وتديَّن به ونبذ أوامر الله . . فذٰلك دليلُ المكر ؛ فكلُّ من كان ظَنُّهُ بالله أحسن . . كان لأمره أحفظ ، وعلىٰ محابِّهِ أحرص ، ومن مكره واستدراجه أخوفَ ، وذٰلك دليل القرب ؛ إذ خاصَّةُ الملك أشدُّ خوفاً وهيبة له من أهل البوادي ، والقاصين في أباعد النواحي ، ومع كونهم أشد الخلق خوفاً منه . . هم أرجى الناس لفائضات عطاياه ، وأحراهم بمننه ومزاياه ، ولله المثل الأعلىٰ ، وهو العزيز الحكيم ، ولي في ذٰلك :

فحَسِّنِ الظنَّ كي تحظىٰ به فكذا ... يكونُ لَكْ كل ما ترجو وتحتسب
إن لم تنَلْ من شهودِ الواصلينَ فذا ... لِمَا إليك من الإنعامِ والنسب

(1) نقل العلامة الزبيدي في « تاج العروس » ( و ع د ) عن قطرب : إتيان ( أوعد ) للخير مثل ( وعد ) ، والغالب استعمالها في الشر .

فكيفَ ترجـعُ عن بابِ الكريمِ إذا     قصدتَهُ عندَ فَقْدِ الحولِ والسببِ

فإذا أردت حسن كمال الظن بالله . . فعليك في عامة ليلك ونهارك بتعلُّق قلبك بوحدانية الله ، واستعمال جوارحك جهدَكَ فيما يقرِّبُكَ إليه زلفىٰ ، وابذل الوسع فيما يبعدك من القواطع عنه بعداً .

فعندما تصفو لك المشارب ، وتتحقَّق لك المطالب . . ترىٰ يقيناً أن كل ما سوى الله عز وجل مفارقُكَ ، ومتخلِّفٌ عنك ، ومتبرِّئٌ منك ، وأن الذي لا يفارقك ولا يتخلَّفُ عنك . . هو سيِّدُك ومولاك عزَّ وجلَّ ، وذٰلك السوىٰ كائن ما كان ؛ من دنيا ، وأهل ، وأقرباء ، وأصدقاء .

فعندما يتحقَّق تخلُّفُ الكل عنه ، وانفكاك كل مقارن ، وغيبة كل معاين . . قال المؤلف رضي الله عنه متعجِّباً بعد تحقق ذٰلك :

اَلْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾

العَجَب : هو التعجُّب من حسن الشيء ومن قبحه .

فإذا بلغ غاية الحسن .. تعجب من بداعة الصنع وكرامة القابل ، ومن ذلك : « عجبَ ربُّكَ من شابٍّ ما صبا »(١) ، و« عجبَ ربُّكَ من قوم يُقادون إلى الجنةِ بالسلاسلِ »(٢) .

ومن قبح الشيء إذا بلغ الغاية في القبح والحماقة ، ومنه ذلك(٣) .

ثم لم يرضَ بالعجب مجرَّداً ، بل أكَّده بقوله : ( كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ) وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، لا انفكاك للعبد عنه ، فكيف ينفكُّ عمَّن لا يظهر وجوده في ممرِّ وجوده إلا به ، ولم تنفك عنه معيته أزلاً وأبداً ووجوداً ؟! فكلُّ ما سواه من سائر محبوباته من جميع شهواته وملذوذاته .. متخلف عنه ، ومنفكٌّ عنه بالموت وبعوارض أخرىٰ تعرض له ، وهو الذي أظهرها له من خُبُوِّ العدم ، ثم بعد ذلك يهرب عنه ويسكن إليها(٤) ؛ فذلك دليلٌ علىٰ عمىٰ قلبه ، وانطماس نوره .

---

(١) رواه أحمد ( ٤/١٥١ ) ، والطبراني في « المعجم الكبير » ( ١٧/٣٠٩ ) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ( ٣٠١٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والتعجُّب منه سبحانه تعظيم لشأن المتعجَّب منه .

(٣) يعني : الحكمة التي ساقها الإمام ابن عطاء هنا .

(٤) قال العلامة النِّفْزي في « غيث المواهب » ( ١/١٤٦ ) : ( هربُ العبد من مولاه بإقباله علىٰ شهواته ومتابعة هواه ) .

وقد علمت أن نظر القلب في عواقب الأمور ، ومكنونات المعاني ، ومشاهدة العجائب الملكوتية ، ولا تظهر عجائب الملكوت علىٰ من سكنت نفسه إلى الشهوات ، وحارت فكرته في مترادف الظلمات ، فإذا هربتَ عمّا لا انفكاك لك عنه ، واستوحشت وطلبت من أنت غني عنه وهو الذي يطلبك ، واستأنست بمن هو عين وحشتك وبريد فرقتك . . فذٰلك دليلٌ على انطماس النور ، وعمى القلوب بالفرار عن المحبوب ، والاستئناس بالمرهوب ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ؛ لأن عمى الأبصار مع نظر القلوب قُربةٌ وتحفة ؛ لأنها معينةٌ لك علىٰ جمعك علىٰ نظر القلب ، وأبعد عن التفرُّقات الشاغلة عن لذيذ الذكر وخفي الفكر ، مع ما ورد في ذٰلك من جزيل المواهب ونيل الرغائب ؛ كحديث : « من أخذت حبيبتيه ورضي عني . . فما جزاؤه إلا النظر إلىٰ وجهي »[1] ، هٰذا عمى الأبصار إذا استنارت القلوب .

والعمىٰ كل العمىٰ . . هو أن يعمى القلب عن الله ، وعن شهود مظاهر آياته ، وعجائب مصنوعاته ، ويستأنس ويستلذ نظرَ المحرَّمات ، ويستوطن مواطن الغفلات ، فإشارته بالقلوب التي في الصدور احترازٌ عن القلوب المدبِّرة لظواهر الأمور ، المحجوبة عن الأنوار ، التائهة في ظلمات الآثار ، التي هي مواضع التدبيرات الدنياوية ، والشهوات الحيوانية ؛ فإن الصدر هو المشكاة ، والقلوب المعنية التي المعوَّل عليها في كلام الله وكلام رسول الله وإشارات أولياء الله . . هي المصباح ، فهٰذه القلوب التي في الصدور ، فإذا فقد ذٰلك النور ، وأكسفت هٰذه

---

(١) روى الترمذي ( ٢٤٠١ ) حديثاً قدسياً : « يقول الله عز وجل : من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب . . لم أرضَ له ثواباً دون الجنة » .

البـدور . . نُـودي : بأنها لا تعمى الأبصـار ؛ ولـٰكن تعمى القلوب التي في الصدور ، ولي في ذٰلك :

إن العجَـبُ منـك أن تهـرب إلـى الغِيَرِ
مـن بـارئ الكـون والموجـود فـي الأثرِ
لو كنتَ شاهدتَ ما في الكونِ من عِبَرِ
غنيــتَ بالقلــبِ عــن منظَـرْكَ بالبصـرِ

فلو استأنست به . . لم توحشك المصائب ، ولـم تسترقَّكَ ملذوذات الرغائب ، ولغنيت عنها وافتقرَتْ إليك ، ولـٰكن لما استأنست بها واستلذذتها . . توحَّشت عليك واستوعرت ، ونفرت عنك الأشياء ؛ لأنها مع الله ، حيث كان الله مع عبده بالعون والنصرة والهداية . . كانت الأشياء كذٰلك ، وحيث استوحش من الله . . أوحشته الأشياء ونافرته وخذلته أحوج ما يكون إليها .

❊ ❊ ❊

فلما كانت الأشياء من حيث غيريَّتُها متساوية في أنه لا ينبغي للعبد أن يساكنها وأن يرضاها دون الله . . قبَّحَ حال مَنْ يرحل من كون إلىٰ كون ، فقال رضي الله عنه :

لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَىٰ كَوْنٍ ؛ فَتَكُونَ كَحِمَارِ ٱلرَّحَىٰ يَسِيرُ ، وَٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ ٱلَّذِي ٱرْتَحَلَ مِنْهُ (١) ، وَلَٰكِنِ ٱرْتَحِلْ مِنَ ٱلْأَكْوَانِ إِلَى ٱلْمُكَوِّنِ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

**الرحلة** : هي الإرادة والهمة والعزم على السير ؛ **إما ظاهراً** بالأركان القالبية ، **وإما باطناً** بالحركات المعنوية والجمعية القلبية ، ولا لنا إلى السفر بالأبدان حاجة ، ولا له نعني .

**ولٰكن المراد** : السفرُ إلى الله بالقلوب من مواطن الشهوات ، ومحالِّ الغفلات ، في ميدان النفس ، وبيداءِ مراحل العادات الحاجبات عن حضرة الاقتراب .

فلا ترحل أيها المريد الصادق من كونٍ من الأكوان وتُعلِّق همتك بنيل حال ، أو رفيع مقام ، أو مستلذِّ وصال ، **ولٰكن ارحل من الكون جملةً** ظلمانياً أو نورانياً من الظواهر والمعاني **إلى المكوِّن** ؛ فعند أول نظرةٍ هناك **يندرج فيه جميع ما في الأكوان** من الحسن والإحسان ، **وجميع ما في الجنان** من كل ما لا يوصف بلسان ويشاهد بعيان .

فهٰذا **بأول نظرة** ، وما وراء ذٰلك مما ادخره في خزائن الإحسان وذخائر الامتنان عند الشهود والعيان ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ . . **فهو منتهى الحسن والإحسان** ، ولقاه منيةُ القاصي والدان ؛ فلو لم يكن ذٰلك مأمولاً في الجنان ، ومحجوباً في النيران . . **لما طاب في الجنة المقيل** ، ولا ظهر في النار العويل .

**فمن رغب عن ذٰلك** ، وطلب شيئاً هالكاً ؛ إذ كل من سواه هالك . .

(١) في ( أ ، ج ) : ( ارتحل عنه ) بدل : ( ارتحل منه ) .

فهو حقيقٌ بأن يوصف بوصف الحمار من البلادة والانغمار في جملة الأشرار ، الذين حُجبوا عن الأنوار ، ولم يحظوا بمشاهدة الأسرار ، ولم يخرجوا عن ظلمة الإنكار ، وخبطة الانقهار .

وهٰذه غاية الجهل أن يرتحل إلىٰ ما عنه سار ، فلا يزال كذٰلك ولم ينفك عن حركة التدوار في الآثار ، وترقُّب الانتقال والخروج عن الآثار إلى الأطوار ، فلم تفتح له مطالبه ، ولم تواجهه رغائبه ، **ولو كان إلى الله سيره . . لرآه قريباً** ، ولدعائه مجيباً ، ولقاصده حبيباً .

وبعد السير إليه من الآثار ، واختراق الأطوار ، واحتراق الأسرار . . **تظهر له عقار جنة في صورة نار** ، فيطير له شرار ، وتبدو منها مبادي المحبة ، وتفتح في خزائن المحبة أسرارُ مفاتيح شهود المحبوب ، **وفيها يلاقي ما هو لاقٍ** ، وتلتف الساق بالساق ، إلىٰ ربك يومئذ المساق ، **وبعد ذٰلك** يفتح باب السباق للعتاق في السير فيه يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب .

**ولنرجع ونقتصر على الإشارة إلىٰ ذٰلك** ؛ فمن كانت همته في سيره نيل مقام ، أو حصول علىٰ حال ، دون أن يوفي الربوبية حقَّها . . **فذٰلك لبقايا خفيّات شهوات النفس** ، ودسائس غوامض كوامن الهوىٰ ، **ولي في ذٰلك** :

ارحَلْ إلى اللهِ لا تلوي علىٰ أربِ    وكُنْ كليلاً عَنِ الأكوانِ والغِيَرِ
فمنتهىٰ كلِّ مأمولٍ ومنقلبٍ    اللهَ قُلْ وكلا الأغيار عنك ذرِ

❋ ❋ ❋

**وأخذ في الاستشهاد علىٰ معنىٰ كلامه** بحديث جامع لفنون المعاني ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم ، **قال المؤلف رضي الله عنه** :

فَٱنْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ.. فَهِجْرَتُهُ إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا.. فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »، وَتَأَمَّلْ هَـٰذَا ٱلْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ، وَٱلسَّلَامُ

قوله: ( فانظر ) فالنظر في أسرار المعاني وبواطن الألفاظ دأب أولي الانتباه، وهو أول مبادئ الفتوح القلبية النظر والأخذ فيه بالأحسن، وأحسن ما ينبغي أن تدقِّق فيه النظر، وتحرر فيه العبر بعد كلام الله: كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، الجامع لأشتات المعاني، فلا أجمع منه بعد كلام الله كلاماً، ولا أبينَ منه برهاناً، كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم الذي أُوتي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً ؟!(١).

واستشهاده علىٰ كلامه بهـٰذا الحديث مرضي موافق لغاية المراد.

( فمن كانت هجرته ) الهجرة: هي مفارقة الوطن، وقد علمت ما النفوس مجبولة عليه من حب الوطن، والتلذُّذ بمؤانسة الجار والسكن، فما يُفارَقُ محبوبٌ إلا لنيل مطلوب.

والمطالب: إما مطلَبٌ سَنِيٌّ ومرادٌ عَلِيٌّ، وإما مطلبٌ دني؛ فالمطلب العلي: هو طلب الله ورسوله، ولا أعلىٰ من الله ورسوله، وما سوىٰ ذٰلك.. فهو دني، وصاحبه أدنىٰ منه، فمن فارق محبوباته، واجتنب شهواته.. فقد هاجر عنها؛ ولذٰلك قال صلى الله عليه وسلم: « المهاجر: من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد: من جاهد

(١) في ( ب، ج ): ( واختصر له الكون اختصاراً ) صلى الله عليه وسلم.

هواه »[1] ، فلا بعد فتح مكة هجرة إلا مهاجرة محارم الله ، وكلِّ عائق يَعُــوقُ عن الله ، فمن لم يفارق ذٰلك ولم يهاجر عما هنالك . . ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ .

فإذا علمت شرف الهجرة . . فشرفها بحسب المقصد ؛ فإن كان لله ورسوله ، لا لحظٍّ عاجل ولا لجزاء آجل . . فنعمَ الهجرة ، ومن كان لحظٍّ من حظوظه دون ذٰلك من شهواته . . فقد خسرت صفقته ، وخابت بيعته ، وتحقَّقت غبينتُه ؛ فمجمع الشهوات الدنياوية : مجموعُها ما ذكر في هٰذا الحديث ؛ وهي الدنيا والتنعُّم بمطاعمها ومشاربها وملابسها ومراكبها وجاهها ، وجميع المآرب العاجلة ، والحظوظ الفانية ، وخَصَّ لذةً من ملذوذاتها بالذكر ؛ إذ هي بمجموع الشهوات كالرأس من الجسد ، وهي حبُّ النكاح ، وجمعُ الهمِّ له ، هٰذا على السالك الطالب .

ومن جعل في عزمه إرادةً لشيءٍ دون الله ورسوله . . فهو حقيقٌ بالذم ؛ إذ المرادات : الشهوات الظاهرة ، أو المطالب المستأثرة .

وقوله : ( فافهم ) أي : افهم إشارة الحديث الباطنة التي نبَّهت أولي العزائم علىٰ تجريد الهمة في السلوك إلى الله ، لا إلىٰ شيءٍ دونه ، فما دون الله مقصد يصمد ، ولا مرام يعمد ، ( والسلام ) فما بعد هٰذا الكلام كلام ، ولا بعد هٰذا المطلوب مرام ، وعند السلام ينتهي الكلام .

وفي آخر الحديث إشارة ـ والله أعلم ـ تشير إلى المرادات الدنياوية والحظوظ النفسية : إذا أُريدت لله ورسوله من عارفٍ بتصحيح النية صادق الطوية . . أنها تكون لله إذا أُريدت له ؛ كأن يبتغي الدنيا ليتوصَّل

---

(١) صدره رواه البخاري ( ١٠ ) عن سيدنا ابن عمرو رضي الله عنهما ، وآخره رواه الترمذي ( ١٦٢١ ) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه بلفظ : « المجاهد : من جاهد نفسه » .

بها إلىٰ مقاصد مرضية ، والنكاح ليتحصَّن به عن الوقوع في المعاصي ، وإرادة ولدٍ صالح ، وغير ذٰلك من المقاصد المحمودة ، والذم إنما يتوجَّه حيث جردت عن هٰذه النيات ، بل بمقتضىٰ داعي الشهوة وقضاء النهمة ، فهٰذا ظاهرٌ كما سمعنا ذٰلك عن شيخنا وإمامنا العارف بالله عمر بن عبد الرحمٰن فسح الله في مدَّته ، وأفاض علينا من هواطل فتوحه وجزيل مواهبه ، وهو قوله في الحديث : « فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه » ، ولي في ذٰلك :

من هاجر السوء قاصِدٌ باب مولاهُ ولم يعرِّجْ إلىٰ دنيا ولا جاهُ
ولا لمطلوبِ دونَ اللهِ يهواهُ عليه من ربِّنا الرَّحْمَات تغشاهُ

* * *

فإذا أردت أن تسلك هٰذه المسالك ، وتصفي من كدورات الأغيار بالك ، وتنزِّهَ عن رؤية الأسباب حالك ، وتستقيم علىٰ سنن الاستقامة أعمالك وسائر أفعالك . . فعليك بصحبة من استقامت أعماله ، وصفت أحواله ، وحسنت أفعاله ، ومن لم يكن كذٰلك . . فإياك وصحبتَهُ ؛ فإن مخالطته ورؤيته واستحسان حالته أضرُّ علىٰ دين المريد من السم علىٰ ظاهر جسمه (١) ؛ إذ بالسم فناء الجسم الفاني ، وبصحبة مَنْ هٰذه حالته هلاكُ الدين ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في ( ب ) : ( علىٰ دين المرء من السم علىٰ ظاهر جسمه ) .

# لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهِضُكَ حَالُهُ ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱللهِ مَقَالُهُ

النهي عن الشيء أمرٌ بضده ، كما أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده ؛ فترك النهي سلامة ، وفعل الأمر غنيمة ، والسلامة مقدمةٌ على الغنيمة ؛ لذلك آثر جانب النهي بالذكر ، وضمَّنه بالأمر .

فصحبة المثبطين في حضيض الحظوظ التي لم تنهض هممهم إلى الأوج العلي ، ولم تَجُلْ قلوبهم في المنهج السوي ؛ فرؤيتهم قسوة ، وصحبتهم شقوة ، وأقوالهم في الخوض واللعب مستعملةٌ لا تنتج حكمة ، فالحِكَمُ عنها محجوبة ، والمعاصي لها مصحوبة .

فأيُّ فائدة في صحبة من لا تنهضُكَ أحواله ، ولم تدلك أقواله ، ولم تُهدَ بأفعاله ، ولم تصلحك أعماله ؟!

فالصحبة في طريق أهل الله أصلٌ كبير ، ومنهجٌ منير ؛ كما مضى عليه أئمة الطريق ، وعلماء التحقيق ، كيف وأوّلُ من شرع منهاجها ، وأعذب أُجاجها ، وأنار سراجها أصحابُ رسول الله ؟! إذ هم الأصحاب ، والسادة الأنجابِ ، والصاحب يشرف بشرف صاحبه ؛ لذلك لم تُوازَ فضائلُهم ، ولم تدرك وسائلهم ، مع أن غيرهم اجتهد أعظمَ من اجتهادهم في الأعمال ، ولم تُساوِ جبالُ غيرهم أقلَّ ذرَّات أعمالهم ، وما ذاك إلا لما فاض عليهم من آثار الصحبة ، وهواطل غوامر القربة .

والصحبة مع الله ، ومع رسول الله ، ومع أولياء الله ، ومع خواصِّ عباد الله ، ومع عموم خلق الله ، ولكل صحبةٍ أدبٌ وحدٌّ .

فالصحبة مع الله هي الأصل ، وعليها يبنىٰ أساس الدين وعماد اليقين ؛ إما أن تصحبه بامتثال الأمر واجتناب النهي ، ويكون نصب

عيانك ، وعند سمعك ولسانك ، فتحفظ ما استودعك ، وترعىٰ ما استرعاك في جميع أحوالك وأقوالك ؛ فهٰذا في صحبة العموم لله .

وأما صحبة الخصوص . . فهو أن تفنىٰ عن أفعالك ، وتغيب عن أوصافك ؛ فتكون لديه حاضراً ، وإليه ناظراً .

وأما صحبة خصوص الخصوص . . فأن تضمحل عن الأوصاف ، وتنمحق بقايا شعورك بذاتك وإِنِّيَّتك وظهور اثنينيَّتك ، مع ما أنت عليه من الصحو ، والقيام بوظائف العبودية ، والانطواء تحت تولِّيات الربوبية ، والغيبة عن ظهور الحدثية ، ومضادة الثنوية بظهور الأولية والآخرية ، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ .

والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ وصيته ، وتحكيم شريعته ، وحسن متابعته في جميع أخلاقه ، ومنوَّرات أفعاله ، وباهرات أقواله على التمام ، إلا ما اختص به دون غيره ، ولا تحكِّمْ رأيك علىٰ سنته ، بل يكون هواك تبعاً لما جاء به دون تعقُّلٍ أو تأمل ، وإجلاله ومحبته ، ومحبة أصحابه وأهل بيته وموادتهم ، وإجلال من قام بشريعته ، ومحبة الفقراء ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وإحياء مشاعر الدين ، والنصيحة لكافة المسلمين ، وعدم الغش وتبييت ما لا يرضىٰ من القول والعمل . . . إلىٰ غير ذٰلك مما لا يمكن حصره ولو كانت الخلق كتَّاباً ، والأشجار أقلاماً ، والبحار مداداً ؛ من كرائم أحواله ، وعظيم أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

وأن تحفظه في جميع ما وصل إليك من أمره ونهيه بعد مماته كما في حياته ؛ ليكون لك من الصحبة الخاصة حظٌّ ونصيب ، فمن حفظ ذٰلك . . أتىٰ في يوم الجمع بعد طول الاشتياق إلى التلاق

بمزيتين : مزية الصحبة على الغيب ، ومزية اشتياقه صلى الله عليه وسلم حيث قال : « واشوقاه إلى الإخوان مؤمني آخر الزمان »[1] ، فينال من الإكرام رتبة الحبيب القادم من الغيبة على أهل المكان ، فيا لها من بشارة لمن صحبه صلى الله عليه وسلم من أهل آخر الزمان ؛ لذلك ضاعف له المثوبة ، وخفَّف عليه العقوبة حيث قال : « العاملُ منهم كخمسين منكم » ، قالوا : بل منهم ، قال : « بل منكم »[2] ، وقال أيضاً في التخفيف : « من عمل بعُشر ما أُمر . . نجا »[3] ، فالحمد لله .

وأما صحبة أولياء الله . . فهي الموصلة إلى الله ، سيما من كمُلَتْ فيه مظاهر السنة ، وتوفرت فيه مكارم الأخلاق ، واستنارت بصيرته ، وطابت سريرته ، ونشرت دعوته ، وظهرت محبته ، وانتشرت في القوابل معرفته ، وغمرت حاضريه بركته ، وكان متجافٍ عن الدنيا ، عالماً بكوامن الأهواء ، فما أسرعَ تأثيره في القلوب ، وأكشفه لحقائق الغيوب ، وأوصله للمحب بالمحبوب !!

وما أعزَّ من يوجد قائماً على طريق الاستقامة قدمه ، وراسخاً في علوم الحقيقة ورسوم الطريقة ، يعطي كل طالبٍ وَفْقَ مزاج حقيقته ؛ فهم الأطباء ، الذين طالعوا علم الأزل بنور مَنْ لم يزل ؛ فينزلون كل

---

(١) رواه مسلم ( ٢٤٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « وددت أنّا قد رأينا إخواننا » ، قال الصحابة : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : « أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ . . . » الحديث .

(٢) رواه أبو داوود ( ٤٣٤١ ) ، والترمذي ( ٣٠٥٨ ) عن سيدنا أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي ( ٢٢٦٧ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

مـن أتاهـم منزلته ، ويقيمونه على حسَـبِ مقامه ، ويبلغونه فوق مرامه ، نصحبتهـم دواء لأمراض الهوىٰ نافـع ، ورؤيتهم درياق لأدواء القلوب ناجـع ، فـإذا تنفَّـسَ منهـم عـارفٌ فـي زمـانٍ . . فبشـارة أهلـه بالأمان ، والمغفرة والرضوان .

فصحبتـك معهم بعـدم الاعتراض عليهـم باطناً وظاهـراً ، وقبول مشـورتهم ، وتوقيرهم واحترامهم ، وتخرج عن عقلك ونقلك ، وفعلك وقولـك ، وتكون فانياً عنك ، مبادراً لمـا يأمرون ، محاذراً عمَّا ينهون ، فما أقـرب الفتوح إليـك ، وأجزل المواهب لديـك إذا كنت كذلك ، متصفاً بما هنالك !!

وإذا لـم تجد من هو علىٰ هٰذه الحالة ، ولـم يظهر بكمالها . . فلا تترك نفسـك تتبطل ، وهي في هواها تتعلَّل ، ولٰكن انظر إلى الإخوان من اتصف بوصف حسـن . . فلا تسـتقله ؛ فإنه ما أُعطي وصفاً مرضياً إلا وهو عنـد الله مرضي وإن لم يبلغ الكمال ، ولم تظهر عليه علامات الوصال ، ولم تلح عليه سـمات الأوليـاء وعلامات الأبدال ، فيكون لك علىٰ أمرك معينـاً ، وفي مهامك قريناً ، والخطـأ على الاثنين أبعد منه علىٰ الواحد ، لٰكن تراعي فيه : الدين والعقل ، والمروءة والزهد ، والأمانة وحفظ السر ، وألا يكون أحمق ولا فاسقاً ، ولا كذاباً ولا جاهلاً ، ولو أن يتصـف ببعض هٰؤلاء الأوَّلات ، ويجتنب بعض هٰذه المذكورات ؛ فما تـرك البعض إلا لما عنده من الإيمان ، ولا فعل البعض ـ أي : اتصف ـ إلا لما عنده من الإيمان .

وشـرطه : أن يتـرك المنهـي عنـد تيسُّـرِ فعله ، ويتصـف بالمأمور مع تيسر ضده ، وإلا . . كان عاجزاً ، لا تاركاً ولا متصفاً ؛ فهٰذا حدُّه .

وأدب صحبتك معه : إذا أشار بأمرٍ لا ينقضه عليك العلم . . أن تمتثل مشورته ؛ ففي المشورة بركة حيث كانت ممن كانت ، والحرص علىٰ حفظه وإيثاره في الأسباب الدنيوية ، وتنبهه على المعائب بالتلطف ، وترك مماراته ورعايته بعد موته في الدعاء له وبر أهل مودته . . . إلىٰ غير ذٰلك من وجوه البر .

وأما صحبة عامة الخلق . . فمع الجهّال بالتعليم ، وترك الدخول في مداخلهم ، وحفظ العين عن النظر إلىٰ أفعالهم ، وصون السمع عن سماع أراجيفهم ، وعدم الحضور في محافلهم إلا ما كان خيراً ، والتحرُّزِ عن الاجتماع بهم لغير ضرورة ، والدعاء لهم بظهر الغيب ، والاهتمام لمهامِّهم ، وستر مساويهم ، وعدم التكبُّر عليهم ، والتضجُّر لما يجري من سوء أخلاقهم ، وأن تنظرَهُمْ بعين الرحمة والشفقة ؛ فهٰذه صحبة عامة الخلق ، ولا نطيل في ذٰلك ، فلو ذهبنا نتتبَّع طبقات الخلق . . لطال بنا ، وقصدنا شرح كلام المصنف ، وفي ذٰلك كفاية .

وللصحبة شرائط وضوابط ؛ فمن الضوابط : أن تكون لله ، لا لعلةٍ ولا بعلة ، بل يكون الاجتماع عليه والتفرُّق عليه ، ومعنى التفرُّق عليه : أن يتفرّقا وهم مجتمعون عليه لم تغيِّرهم عمّا هم عليه الحوادث .

وأهمُّ الصحبة : صحبةُ من لم يُفارقك في حياتك وموتك ، وخلوتك وجلوتك ، ويقظتك ونومك ، لٰكن لَم تصل إلىٰ حسن الأدب معه إلا بصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو أعرف الخلق بالأدب معه ، ولم تصل إلىٰ حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتأدُّبِ بآداب أولياء الله الوارثين محاسنَ أخلاقه ، السادات العارفين ، والعلماء المحققين ؛ فبالتأدُّب بآدابهم . . تصل إلى التأدُّبِ بآداب رسول الله ،

وبالتأدُّب بآداب رسول الله ، واقتفاء آثاره ، والتخلُّق بشمائله . . تصلح للأدب مع الله ، وهٰذا تدريج في الوصول إلى الصحبة مع الله .

ولو كان الإنسان يدرك مقام الصحبة مع الله من ابتداء نشأته . . لما شرع صحبة نبي ولا ولي ، ولٰكن الله بلطيف حكمته جعل ودائع التربية الإلٰهية في الوسائط الخلقية ، وجعل الوسائط الخلقية كالحقيقة النبوية ؛ ظاهرُها من عالم المُلْك والخلق ، وباطنُها من عالم الملكوت والحق ؛ لذٰلك قبلت الحقائق بباطنها ، وأدَّتْها إلى الخلق بظاهرها ، فقبلت الخلق ما يلقىٰ إليها من الحقائق الملكوتية بواسطة ظواهر خلقية الأنبياء الرسالية(١) ؛ لأن الحقائق لو تجرَّدت لعالم الخلق من غير واسطة . . لم يكن فيها أهلية لقبولها ، فأدتها إليها ما هو ظاهر من جنسها ؛ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، وإعطاء كلِّ قابليةٍ ما يليق بها : « أُمرتُ أن أُكلِّمَ الناس علىٰ قدر عقولهم »(٢) .

وهٰذا حازه الأولياء بقدر أنصبتهم من الوراثة ؛ فالعلماء ورثة الأنبياء ، فتحقق أن الوارث من أخذ علمه من حيث أخذ مورِّثُهُ ، وهو من أخذ العلوم لا عن تعلُّم ، بل يأخذها عن الله ، وإن جرت له لسان معلم . . يكون أخذه عنه ؛ كأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل صلى الله عليه وسلم ما أدّىٰ إليه إلا ما قد علَّمه الله حقيقته ؛ لذٰلك كان صلى الله عليه وسلم يسابق جبريل في التلاوة حتىٰ أنزل الله عليه : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ وهنا سرٌّ دقيق ،

---

(١) في ( ب ) : ( خلقة . . . ) بدل : ( خلقية . . . ) .

(٢) روى البخاري ( ١٢٧ ) عن سيدنا علي رضي الله عنه موقوفاً : ( حدثوا الناس بما يعرفون ؛ أتحبُّون أن يكذب الله ورسوله ؟! » .

ومشهد رقيق ، يفهمه ذوو التحقيق من كل مقرَّب صدِّيق .

فلو أخذنا في كشف هٰذه الأنوار ، وتحقيق هٰذه الأسرار . . لثار ثائر الإنكار ، من طوائف الأغمار ، ولاستطار من ظلمات النفوس شررٌ وكثيف بخار ، ولٰكن الله حدَّ لكل قومٍ كلاماً ، ولكل ناسٍ مقاماً .

وأما شرائط الصحبة إذا كانت لله : ألا تزيد عندك بطاعة ، ولا تنقص بهفوة ؛ لأن هٰذه علل ، وقد علمت أن الصحبة لله لا لعلةٍ ولا بعلة ، ومن شرائطها ما أسلفناه في أول الكلام علىٰ هٰذه الحكمة ، ولي في ذٰلك :

مَـنْ لا تدلُّـكْ علـى اللهِ مقالتُـهُ ... وليسَ ينهضك منه الحال في الهِمَمِ

لا تَصْحَبَنْـهُ فـلا تُرجـىٰ سـلامته ... إن البلا صحبة الجافي الغبي الفدمِ

* * *

فلما كان فائدة الصحبة الخروج عن أوصاف البشرية ، والتدرُّع بملابس العبودية ، ولا تخرج عن أوصاف بشريتك إلا برؤية قصورك عن أحوال الرجال ، ولم تر قصورك وظهور فتورك وانطماس نورك إلا عند إشراق أنوار الأبدال ، الكارعين مناهلَ الحكمة ، المتبوِّئين منازل الوصال ، المتمكِّنين في المقامات والمتصرِّفين في الأحوال ؛ فعند رؤيتهم والتعلق بأذيال سيرتهم . . يتبين لك قبح ما أنت عليه من الاغترار ، وما أنت متلبِّس به من أخلاق الأشرار ؛ فصحبتهم تريك قصورك ، وترفع بك عن حضيض تعثرك بمحبطات بشريتك وكثائف ستورك .

وأما صحبة من هو دونك في المقام ، ولم يخرج عن رقِّ العادات ، ولم يحظَ بوصف العبادات . . فهو دليل البعد عن التأهُّل للإرادة ، وأبعد عن درك السعادة ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئاً فَأَرَاكَ ٱلْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالاً مِنْكَ

( رُبَّ ) تأتي للتعليل غالباً ، ربما كنتَ مسيئاً في حالك ، مخلِّطاً في أفعالك ، مقصِّراً في أعمالك ، فأراك إحسانَكَ ورفعةَ شأنك ، وعلوَّ مكانك على أقرانك ، وظهور نفسك في طول لسانك وبذل بنانك مَنْ هو أسوء حالاً منك ، فترىٰ قصورَهُ عن مقامك ، وجهله بكلامك ؛ فتغترُّ بذلك ، وتظنُّ أنك قد حصَّلت من الطريق علىٰ شيء ، فأكثر ما توقِفُ الطالبين وتعثر السالكين هذه الآفة الجامعة لآفاتٍ لا تُحصىٰ ، ومهالك لا تُستقصَىٰ .

ولو كان ميموناً ، وإلى النهاية مطلوباً . . لما سلط عليه الأشرار ، وحُجب عنه الأخيار ، وقنع بزُخْرُفِ هذه الدار ؛ من رفع الصيت وظهور المنصب والاشتهار ، ورضي عن صحبة المحقِّقين بمجالسة البطالين ، فما أعظم مصيبته ، وما أشد بليته !! أعاذنا الله من سوء القدر ، والوقوع في مصائد الحذر .

فنسأل الله أن يعافيَنا من هذه البلية وسائر البلايا في الدين ، ويلطف بنا ولنا في كلِّ حال ، ويوالينا بسائر أنواع المنن ، وتزايد النعم والإفضال ، ولي في ذلك :

فربَّما رَأيتَ ممَّن دونك الحسنا ... ولو صحبتَ الرجالَ السادةَ الأمنا
لما اغتررت بظنٍّ فيك قد كمنا ... يريك أنك فوق الدون حين ثنا

* * *

فلما كان الزهد عزوفَ القلب والتجافي عن المزهود فيه لما هو

أشرف منه حسّاً أو معنىً ، وكان منبع الأعمال وقطب رحاها هو القلب ؛ لأن عليه مدار النيات ، والأعمال بالنيات . . كان حقاً أن يُنزَّه ويُصفَّىٰ عن مكدرات الأشغال ؛ لتصلح الأعمال ، وتزكو الأحوال ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ زَاهِدٍ ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاغِبٍ

الأعمال مقاديرها بحسَبِ صفاء القلوب ، وطهارتها عن شوائب العيوب ؛ فقلوب الزهَّاد صافية ، وأحوالهم وافية ، فأعمالهم كثيرة ، وأحوالهم مستنيرة ، فأي قلة في عملٍ خرج محفوفاً بالأنوار ، سالماً عن الأكدار ، بنسبة قلب طاهر ، ذي نور ظاهر ؟!

وعمل الراغبين بحسب ما قلوبهم متلبِّسة من ظلمات الأشغال ، وتكدير الأحوال ، بمصائب المال والعيال ، فلا يكاد يصفو قلبه ساعة ، ولا تزكو له طاعة .

والزهد : منه واجبٌ ومندوب ، وزهدٌ ثالثٌ لأهل المقام الثالث ؛ فالواجب : في الحرام ، والمندوب : في الشبهة والفضول ، والثالث : هو الزهد في الزهد ؛ وهو أن يكون في الأشياء بلا اختيار ، ويدخل في الأسباب بمسبِّب الأسباب ، ولا يكون ذلك إلا لمن أحكمَ مقامَ البقاء بعد استيفاء مقام الفناء حقَّه ، فيرجع إلى الأشياء بالله بعد أن خرج عنها لله .

فالزهد على حسب تفاوت مقاماتهم يكون زكاة أعمالهم ، وصفاء أحوالهم ؛ فأعمالهم مأمونة عن دخول القوادح فيها والشوائب لديها ؛ لما هم عليه من الإعراض عن الأغيار ، والتعلُّق بالله في جميع حركاتهم وسكناتهم ، فلا تنزع قلوبهم إلى غيره ، ولا تسرح هممهم إلى سواه .

والراغبون لا ينفكون عن الشوائب ودخول الآفات عليهم ؛ لما هم عليه من التعلُّق بالأغيار ، وطلبِ الأعراض في سائر الحركات ؛ لذلك قلَّ ما يصدر عنهم لعدم الإخلاص فيه لله ، وكثر أعمال الزهاد وإن

كان قليلاً لخلوصه عن الشوائب التي هي سبب عدم قبول الأعمال ؛ كالرياء ، والسمعة ، وحب الثناء ، وطلب العلو ، والإعجاب ، وغير ذٰلك من رذائل الأوصاف وقبح الأحوال ، التي هي نتائج حب الدنيا .

فإذا كانت رغبة الدنيا في القلب . . قلَّ أن يسلم عمل ، وإذا خرج حب الدنيا عن القلب . . خلصت منه النيات ، وصفت الحالات ، وتزكَّت الأعمال ، وبورك في الأوقات .

فإذا حصل زهدٌ وعلمٌ وعملٌ . . فقد استكمل أنواع الخيرات ، وتوالت لديه صنوف المسرَّات والبركات ، فلو وزنت في جنب عمله أعمالُ سائر أهل العبادات . . لخفت في جنب عمله ، ولي في ذٰلك :

ما قلَّتَ أعمال ذي زهدٍ وذي ورعٍ ... ولا كثُرْ عَمَلٌ مقرونُ بالعِلَلِ

فليس راغبُ في الدنيا بمكترعٍ ... موارد القرب ذي هيْ خانه العمل

* * *

فلما كان متعلَّق الأحوال القلوب ، ومتعلَّق الأعمال الجوارح ، وقد علمت أن الأصالة للقلوب في ظهور الأعمال ؛ فالأعمال نتائج ، والأحوال أصول ، وبحسب الأصل تظهر النتيجة ، وحسن الحال بحسب ما ينازله الحق من المقامات في العلوم الوهبية . . قال المؤلف رضي الله عنه :

٤٦

## حُسْنُ ٱلْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ ٱلْأَحْوَالِ ، وَحُسْنُ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلتَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ ٱلْإِنْزَالِ (١)

٤٧

## لَا تَتْرُكِ ٱلذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ ٱللهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ

أخذ يتكلَّم في الذكر ؛ **لأنه أشرف العبادات** ، ومقدمها فرضاً ونفلاً ، وهي له وسيلة ، **وهو المقصود** ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ .

**والذكر هو ذكر الله** : إما باللسان ، وإما بالقلب ، وإما بهما معاً ، **وهو المقصود** .

**والذكر** : إما في الأفعال ؛ **وهو الواجب على الكافة** ، وإما بطريق الوصف وهو للخاصة ، وإما بطريق الذات ؛ **وهو لخاصة الخاصة** .

وكلُّ عملٍ أُريد به وجه الله . . نوع من أنواع الذكر ، لـٰكن بالوسيلة لا بالقصد ، **وأما الذكر المقصود** . . هو ذكر ( لا إلـٰه إلا الله ) ، أو ذكر ( الله ) ، أو ( هو ) أو غير ذٰلك من سائر أسماء الله الحسنىٰ ، **ولـٰكن يجمع سائر الأذكار في معارج الأفكار** ذكر ( لا إلـٰه إلا الله ) ، **وهو الاسم الأعظم بإجماع من يعتد بهم** ، وقال غيرهم : الاسم الأعظم : ( هو ) .

**وكل من مشىٰ على اسم . . كان عنده هو الاسم الأعظم** ؛ **فأسماء الله** كلُّها عظام ، ولـٰكن كل الأسماء مندرجة تحت هـٰذا الاسم ؛ كاندراج الكواكب تحت نور الشمس ، قال الله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾

(١) لم يتعرض المصنف لشرح هـٰذه الحكمة بالنصِّ .

فكل اسم ذكرت به كنت ذاكراً لله ، وإذا ذكرت باسمه ( الله ) . . كنت ذاكراً لله بأسمائه كلها ، فانظر ما أشرف هـٰذا الاسم وأعظم مقدار الذاكر به : أنه ذاكرٌ اللهَ بجميع أسمائه تعالىٰ !!

وفي بعض الأحاديث القدسية : « أنا جليسُ مَنْ ذكرني »[1] ، فناهيك أنك جليسُ الله إن كنت جالساً أو قائماً أو مضجعاً .

وفضائل الذكر وآدابه لا يحتمل هـٰذا الشرح استيعابها ، وفي الحديث : « كأنِّي بأهل لا إلـٰه إلا الله ينفضون رؤوسَهُمْ من التراب ـ بأجساد عليها نور البقاء مشرق ، رمى الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خِفافاً ـ قائلين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ » أو كما قال[2] .

ويقال : إن رفع الأصوات بالذكر . . يحلُّ ما عقدته الأفلاك الدائرة وغير ذٰلك .

فإذا عرفت فضيلة الذكر وعظم شأنه علىٰ سائر العبادات . . كأنك تقول : قلتم فيما تقدم : إن العمل باللسان دون القلب لا جدوىٰ له ولا طائل ، فماذا يغني عملٌ بلا جدوىٰ ؟! فأترك العمل رأساً !!

يقال لك : لا تترك العمل لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن الله يكون جليس جارحتك التي ذكرته بها ، فأولىٰ بك أن تكون لك مع الله مجالسة ببعض أعضائك وإن تخلَّفَتْ بقيةُ أعضائك من أن تسد سائر أبواب أعضائك وقواك .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » ( ٦٧٠ ) ، وأبو نعيم في « الحلية » ( ٤٢/٦ ) عن كعب رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الطبراني في « الدعاء » ( ١٤٨٤ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ٩٩ ) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » ( ٢٦٣/١٠ ) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

فإذا واظبتَ علىٰ ذٰلك ، وأدمتَ قرع الباب . . فحريٌّ أن تجاب ؛ لأن غفلتك عن الذكر بالكلية دليلٌ علىٰ طمس حقيقتك وقطع وثيقتك ، فهٰذا أشدُّ من كونك ذاكراً غيرَ حاضر ، فكونك غير ذاكرٍ أشد بُعداً من كونك ذاكراً غير حاضر .

فإذا كنت ذاكراً غير حاضر . . فقد ثبت لك اسم الذاكرين ، ودخلت في غمارهم ، وهم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم ؛ كما ورد : « أن الله يباهي الملائكة بالذاكرين ، فيقول : ما تركتم عبادي ؟ فيقولون : يذكرونك ويحمدونك ، فيقول : وماذا يخافون ، وماذا يرجون ، وما يريدون ؟ فيقولون : يخافون النار ، ويرجون الجنة ، ويريدونك ، فكلما قالوا خصلة . . قال : هل رأوها ، أو هل رأوني ؟ فيقولون : لا ، فيقول : أرأيتم لو رأوا ؟ قالوا : لكانوا أشد شوقاً إليك ، وخوفاً من النار ، وطمعاً في الجنة ، فيقول الله لهم : أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقولون : إن فيهم فلاناً لم يأتِ إلا لحاجةٍ ، فيقول الله : هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم » أو كما قال [١] .

لا تَتْرُكِ الذكرَ في الأوقاتِ يا ٱنسانُ لفَقد يَقْظَتْكَ في المعنىٰ وتبيان
فداوِمَنْ سوفَ تُدْرِكْ لُطْفَ منَّان من الحضور وفضل منه وٱحسان

وذكر اللسان أولاً مجرداً دون القلب غالباً تصحبه الغفلة ؛ لٰكن يظهر بكثرة ملابسته وإدامة مجالسته قدحٌ خفيٌّ يطير إلى الحرَّاقة اللطيفة القلبية ، فلا بد وأن يعلق بها شرره ، ويظهر فيها أثره ولو بعد أزمان ، بشرط الملازمة والإدمان ؛ إن أخطأت هٰذه . . لم تخطئ الأخرىٰ وهلم جراً ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه البخاري ( ٦٤٠٨ ) ، ومسلم ( ٢٦٨٩ ) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فَعَسَىٰ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقَظَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى ٱلْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ

( فعسىٰ ) من الله واجب ، ومن الخلق رجاءٌ وطمع ، ولٰكن يغلب الطمع مع وجود إدمان اللسان : أن يرفعَ الذاكر عن اسم الغفلة الذي هو وصف الذاكر باللسان دون القلب إلى اليقظة التي هي وصف القلب المتنبِّهِ عن نومة الجهل وجمود الطبع إلىٰ يقظة العلم ونور العقل ؛ فعند طلوع فجر الشموس العرفانية من المطالع الأزلية . . يكون يقظاناً .

وإذا علق الذكر بلطيفة القلب . . يكون شأنه تقويتَهُ وصونه عن عوارض تعرض له حتىٰ يتَّسع في أرجاء القلب ، ويستنير في النفس ، فيخنس عند ذٰلك الخنَّاس الكنَّاس في ليل الجهل ، فيتحقَّق بالإفلاس ، وتنزلُ علىٰ مشكاة القلب فيه مِثْمنةٌ عنوانها : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فتطلع بدوره ، ويدنو حضوره ، فينطق لسان الروح في كل صورة ، ويعطىٰ مسطوره ، فيقرأ سطوره سورة سورة ، فتتحقَّقُ حقيقته ، ويمحىٰ تزوير زوره ، فيستكمل الذكر كلَّ ذرَّةٍ من ذراته ، وحركةٍ وسكنةٍ من حركاته وسكناته .

فعند ذٰلك يحضر في حضرة الروحانيين ، حضرة الحضور والتطلُّع إلىٰ مشاهدة المذكور ، فلا يقر دونه قرارُهُ ، [ وتحلق ] في هواء الهوية

أطياره[1] ، ويرتفع من واسطة الجنود نورٌ ينادي : الرحيلَ معشرَ الرعيل ، فلا إلى القرار دون اللقاء سبيل ، فتدخل بعضها في بعض ، وتفنىٰ جهات الأمام والوراء ، واليمين والشمال ، والطول والعرض ، وتزلزل الأرض ، ويجتمع الفرق ، وتبدو شمس الشهود من سماء سمو الاسم ، فتدور دائرة الجمع ، فيذهب البصر والسمع ، وعند نزول هٰذا الذكر الهوي يكون الغيبة عما سوى المذكور وما ذٰلك على الله بعزيز ، ولا أعظم منه .

وعند ذٰلك تنفتح روزنة البقاء[2] ، ودوام اللقاء ، وذهاب الأكوان ، وطمس الأعيان ، وتتزايد علىٰ ممرِّ الزمان والأوان : ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ ، ولا لأيام الله انقضاء ، ولا لشؤونه انتهاء ، فانظر ما تعطيه هٰذه الكلمة ، وما يفتح بهٰذا المفتاح من مواهب الفتَّاح ، ولو بسطنا ذٰلك . . لخرجنا إلىٰ حدٍّ لم يتضمَّنْه الأصل من المقامات وأسرار الفتوح الموهبيات ، ولٰكن في الإشارة إلىٰ ذٰلك كفاية .

فلنقبض العنان عن جواد اللسان في ميدان الامتنان ، ولنرجع ونقول : ذكر اللسان تصحبه الغفلة ، وذكر القلب تصحبه اليقظة ، وذكر الروح يصحبه الحضور ، وذكر السرِّ يصحبه الشهود والغيبة عما سوى الموجود ، ووراء ذٰلك مقامات من مقامات الذاتيين ، وبعده استغراق المهيَّمين في الذات ، الفانين عن الأحوال والمقامات ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

ولي في ذٰلك :

ذكرُ اللسانِ بدونِ القلبِ يصحبُه آفات ما يعميْ البصرْ عن الخللِ

---

(١) في النسخ : ( وتحقق . . . ) بدل : ( وتحلق . . . ) .

(٢) الروزنة : الكُوَّة .

ويثقـل المـرء فحـواهُ ويُتعبـهُ ويعتريـه مريـرُ الكـدِّ والملـلِ
والقلـب يوقظُـهُ ذكـرٌ ويصحبُـهُ أنـسٌ يُعينُ ويُسْلِي عن عيا الثِّقَلِ
والروحُ يحضره في طيبِ مشـربِهِ ويكسـبُ القُـربَ ممَّـن لا له مثل
والسِّـر يفْنـي ويغنـي نيـل مطلبـه عن كلِّ مشـهودِ تنظرْ ذا بلا عللِ

ومن ثمرات الذكر وفوائده : معية الله الخاصة ، « وأنا معه حين يذكرني »[1] ، وهٰذا الذكر ـ أعني به ذكر الغيبة عما سوى المذكور ـ هو الذي هاج عن الوارد ، ولا للعبد فيه تعمُّلٌ ، ولا عليه فيه كلفة ، يجري عليه ، وتتوالىٰ تنزُّلاته لديه ؛ كتوالي المطر علىٰ بقاع الأرض ، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

* * *

فليحسـر عـن أوصاف البشـر عند نـزول المطر ، ومـن فقد هٰذه المواهب ، ولم يحظ بهٰذهِ الرغائب ، ولم يجد لذٰلك ألماً . . فليسـتدل بذٰلك علىٰ موت قلبه ، ووجود سـلبه ، أعاذنا الله من ذٰلك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري ( ٧٤٠٥ ) ، ومسلم ( ٢٦٧٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ ٱلْقَلْبِ : عَدَمُ ٱلْحُزْنِ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنَ ٱلْمُوَافَقَاتِ ، وَتَرْكُ ٱلنَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَهُ مِنَ ٱلْمُخَالَفَاتِ (١)

العلامة : هي الدلالة على الشيء وبيان كليته ؛ إذ هي بعض ، والدلالة : إما حسية أو معنوية ؛ وهي غالباً تكون فعلاً حسّياً علىٰ أمرٍ معنوي كهٰذا .

والقلب : هو لطيفةٌ نورانية ، وحقيقةٌ ربانية ، والقلب أرضٌ وهي له سماء ، والإيمان النازل من سماء السرِّ يسمىٰ إيماناً ، وبه حياة تلك الأرض واهتزازها ، وله علامات تظهر على الأركان القالبية والصفات النفسانية ؛ كما تظهر علىٰ وجه الأرض نتائج المطر ؛ من حياة الشجر ، وظهور الثمر .

وموته أيضاً له علامات ، فموته بخلوِّهِ عن الإيمان ، ومعنىٰ ( أنه ميت ) أو ( مُظْلم ) : معدوم ، فإذا خليَ عن الإيمان . . مات ، ومعنىٰ ( مات ) : عدم ؛ إذ حياته بالإيمان .

وعلامة موته : عدم الحزن ، وهو ضد الفرح ؛ إذ لو كان حياً . . لحزن علىٰ فوت الموافقات ؛ لأنها قوامه ، وفيها راحته وفرحته ؛ لأنها دليل الرضا من الله ، وذٰلك غاية مطالب المؤمنين ، ورضا رب العالمين .

وعدمُ الندم علىٰ فعل المخالفات دليلٌ علىٰ موته ؛ إذ هي من مؤلماته ؛ لأن فيها البعدَ عن الله ، والسخط من الله ، وأيُّ ألم أشد على الإيمان من ذٰلك ؟!

(١) في هامش ( أ ) : ( في نسخة : من وجود الزلات ) .

فـإذا لـم يتألَّمْ بـذلك . . دلَّ علىٰ موتـه ؛ لأن الميـت لا يجد ألم المؤلِمـات ، ولذة الملائمات ، وفي الفـرح بالموافقات من حيث دليل الرضـا من الله علىٰ عبده ووجود الروح بعدم اسـتعماله في المخالفات أيضاً . يسـتلزم ذٰلك ؛ لأن في الحديث : « من سـرَّتْهُ حسنتُهُ وساءتْهُ سيئتُهُ . . فهو مؤمنٌ »[1] دليلاً علىٰ وجود الإيمان وحياة القلب .

ومن فوائد الحزن علىٰ فوت الموافقات : الانبعاثُ في الإتيان بها ، وعلامة الندم علىٰ فعل المخالفات : شدَّةُ الحذر من الوقوع فيها ، والتباعد عن الأسباب الموصلة إليها ، وليس أنه يحزن ولم ينبعث في الطلب ، ولا أنه يندم ولا يتباعد عن العطب ، ولي في ذٰلك :

حيـاة قلبـك بالإيمـان تعرفهـا إذا سُرِرْتَ بفعل المُرْضيِ الحَسَنِ
وضـد ذٰلك لا تـدري تصرفهـا في أي فعلٍ يخالفُ واضح السُّنَنِ

❁ ❁ ❁

فـإذا عرفـت أن الحزن علىٰ فـوات الموافقات : هـو الانبعاث إلىٰ فعلهـا ، والنـدم على الذنب : تركه لا الأمـن ولا القنوط . . لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه الترمذي ( ٢١٦٥ ) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » ( ٩١٨١ ) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

**لَا يَعْظُمُ ٱلذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . ٱسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ**

لا يعظم عند **العارف شيءٌ** وإن اتسع ظهوره ؛ لأن الله سبحانه هو الظاهر بأوصافه وبواهر آياته ، **والذنبُ أثرٌ من آثار قدرته** ، وحكمٌ من أحكام مشيئته .

والذنب إذا قرنته بعظيم فضله وعميم كرمه . . رأيته كلا شيءَ ، وإذا عرفت ذٰلك . . **فاعلم أن استعظام الذنب علىٰ وجهين :**

**أحدهما** : استعظامُ حياء وهيبة من عظمة الله ، وخوفِ وبيل عقاب الله ، ولٰكن الله بعميم فضله قد وعد ـ ووعده الحق ـ التائبين بالمغفرة ، وأتحفهم بالمحبة ، وبيَّنَ لهم طرق ذٰلك ، وأن ذٰلك إذا رجعوا إليه بالتوبة والانكسار . . لا يضرُّهم ؛ **فإذن العظمة الحاملة للعبد على التوبة والرجوع إلى الله محمودةٌ** ، وهي دأب المؤمنين وأكابر العلماء وخواصِّ المقربين ، **واستعظامُ الذنب شرطٌ من شرائطها** ؛ إذ هو الحامل لها على الندم ، والعزم علىٰ ألَّا يعود إلىٰ مثله .

وأما استعظامٌ يفضي بصاحبه إلى القنوط واليأس من رحمة الله . . **فهٰذا استعظام مذموم** (١) ، وصاحبه ملوم ؛ لأنه بجهله استعظم الأثر على المؤثِّر ، **فكيف تستعظم ذنباً أو غيره مع وصْفِ الله سبحانه** ؛ إذ وصفه الكرم والفضل ؟! فكيف وقد علمت أن الذنب مظهَرُ أوصاف فضله ، وشمول رحمته وعفوه ، فإذا لم يُعْصَ . . **فعلىٰ مَنْ يظهَرُ آثار**

---

(١) هٰذا بيان للوجه الثاني لاستعظام الذنب ، وهو استعظام ناشئ عن الجهل بصفات الله تعالىٰ .

الكرم[1] ، وشمول الرحمة ، وعظيم العفو ؟! وفي الحديث : « لو لم تذنبوا . . لذهبَ الله بكم ، ولجاءَ بقومٍ يذنبون فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم »[2] .

وفي الحديث أيضاً : « إذا أذنب العبد ذنباً ، فقال : يا ربِّ ؛ اغفر لي . . يقول الله تبارك وتعالىٰ : عبدي أذنب ذنباً ، **علم أن له رباً يغفرُ الذنب ويأخذُ بالذنب** ، اذهبْ فقد غفرتُ لك ، فافعل ما شئت »[3] أي : ما دمت تذنب فتستغفرني . . فأنا أغفر لك .

وفي الحديث القدسي : « ابنَ آدم ؛ **لو أتيتني بقُراب الأرضِ خطايا ولم تشركْ بي شيئاً . لأتيتُك بقُرابها مغفرة** »[4] وقرابها : ملؤها ، أو ما يقارب ملأها .

والتائب راجعٌ إلىٰ ربه ، مُدْبِرٌ عن نفسه ، منكسر مفتقر ، **وهاذه أَخصُّ أوصاف العبودية** .

وأما إذا لم يحمله على الرجوع إلى الله ، بل بقي مصرّاً عليه غير منزجرٍ عنه ، ومستخفّاً بالذنب ومحتقره ، ومستكثراً ما يظهر عليه من الطاعة ، ومعجباً بها . . **فهاذه من أوصاف المنافقين** ؛ لأن المؤمن يرىٰ ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، **والمنافق يراه كالذباب قال به هاكذا عن وجهه** ، كما ورد ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه[5] .

---

(١) في ( ب ، ج ) : ( أوصاف الكرم ) بدل : ( آثار الكرم ) .
(٢) رواه مسلم ( ٢٧٤٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري ( ٧٥٠٧ ) ، ومسلم ( ٢٧٥٨ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه مسلم ( ٢٦٨٧ ) ، والترمذي ( ٣٥٤٠ ) عن سيدنا أبي ذر وأنس رضي الله عنهما .
(٥) رواه البخاري ( ٦٣٠٨ ) .

وما يعامل الله به أهل الانكسار من الكرم . . أعظم من طاعاتهم ، وما يعامل به أهل اليأس والقنوط . . أعظم من سيئاتهم ، فحسْنُ الظن بالله وإن كثرت الخطايا وعظمت البلايا . . شأن أهل الإيمان ، وضده شأن أهل الكفر والطغيان .

يروىٰ أن بعض الخطائين لما حضرته الوفاة . . أوصىٰ إلىٰ أمه : إذا أنا مت . . فلا تعلمي بي الجيران ؛ فإنهم يشمتون بموتي ، وهٰذا خاتم مكتوب عليه : لا إلٰه إلا الله ، إذا مت . . فاجعليه في ناحية قبري ؛ لعل الله يرحمني ، وإذا مت . . فضعي رجلك علىٰ خدي ، وقولي : هٰذا جزاء من عصى الله ، وإذا متُّ . . فابتهلي إلى الله وقولي : اللهم ؛ إني رضيت عنه ، فارض عنه .

قال الراوي : فخرجت من عند أنس بن مالك بالبصرة ؛ فإذا بجنازة يحملها أربعة من الزنج وامرأة تتبعها ، فقلت : سبحان الله !! جنازة في البصرة يحملها أربعة من الزنج ، لأكوننَّ خامسهم ، فدنوت ، فقلت لهم : تقدموا وصلُّوا عليها ، قالوا : كلنا فيها سواء ، إنما نحن استأجرتنا هٰذه المرأة ، فتقدَّمت فصليت عليه ، فلما فرغنا من دفنه . . إذ بهٰذه المرأة قد ضحكت وحمدت الله وأرادت الانصراف ، فقلت لها : لا ينجيك إلا الصدق ، ممَّ تضحكين ؟ فأخبرتني الخبر ، قالت : ففعلت جميع ما أوصاني به ، فلما دفن . . سمعت صوتاً لا أشك فيه أنه صوته يقول : اذهبي يا أماه ، قدمتُ علىٰ ربٍّ كريم راضٍ غير غضبان [1] .

فانظر ـ رحمك الله ـ معاملته مع أهل الانكسار ، الذين لم تصدهم

---

(١) الرسالة القشيرية ( ص ٣٦٠ ) .

عنه كثير الجرائم والأوزار ، بل كان اعتمادهم على كرمه وعظيم عفوه ، وقاموا مقام الأذلاء البائسين بين يدي المولى الغني الكريم ، المحسن البر الرحيم ، فماذا ترى ما يكرم به من أتاه بذلته وانكساره ، وخضوعه واستكانته وافتقاره ؟! ولي في ذلك :

فلا يصدَّكَ عن بابِ الكريمِ وإنْ كثُرْنَ منك خطيئاتٌ وأوزارُ
فليس يعظم عند العفو ذنب وإن كانت عظامٌ فإنَّ الربَّ غفارُ

* * *

فإذا تجلى بفضله . . صغرت الكبائر ، وإن واجهك بعدله . . عظمت الصغائر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه كالمفسّر لما أسلفه في هذه الحكمة :

## لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ

الصغيرة من الذنب : كل ما كُفِّرَ بالطاعات عند أهل الفروع ، والكبيرة : كل ما أوجبت حداً ، أو نصَّ عليها الشارع ، وبينهما أوساط للنظر فيها مجال .

وعند بعض أهل الأصول : أنك إذا نظرت إلىٰ كبرياء من عصيت . . كانت كلها كبائر ، والأدلة الشرعية تفصِّل وتحدُّ لكلٍّ حدّاً .

وحيث علمت أن الصغائر هي التي تكفَّر بفعل الطاعات ، وبالتوبة المجملة ، وعلمت أيضاً أنه إذا حصل الإصرار على الصغائر . . لحقت بالكبائر ، وأنه أيضاً إذا قابلك بعدله . . كانت صغائرك كبائر ؛ علىٰ ما قاله مَنْ قال : عند نظرك كبرياء من عصيته . . تصير كبائر ، وإذا تفضَّل عليك بالتوبة وإحسان العمل وإصلاح الخلل ، وتجلَّىٰ عليك بوصف الفضل . . صغرت الكبائر ، وصارت في جنب العفو كغبرةٍ في رمال ، وقطرةٍ في جنب بحار ، بل أقل من ذٰلك وأحقر ، بل لا شيءَ .

وعبَّر في العدل بالمقابلةِ ؛ لأنه إذا قابلك بالعدل . . كفاك ، وأوبقك أقلُّ شيء من الذنوب ، واستغرق طاعاتك أقلُّ شيء من النِّعَم ، والمواجهة من الإكرام ، ومن قبيل الإنعام ، فإذا أحب الله عبداً . . تقبَّل حسناته وادَّخرها ، ومحا سيئاته وغفرها ، وإذا أبغضه وناقشه . . أحصىٰ قبائحه ، وعدَّد عليه فضائحه ، وفتَّشَ عليه في العمل ، وبيَّن من حسناته مواضعَ الخلل ، فيستقيل منها كما يستقيل من بقية السيئات ، ويستغفر منها كما يستغفر من الهفوات .

ولي في ذٰلك :

إن واجهَ الفضل صارت كلُّ معصيةٍ صغيرة مثل شفَّانٍ على حَدَبِ
أو قابلَ العدل عادت كلُّ معصيةٍ صغيرة مثل أعظَمْها في النسبِ

* * *

فإذا كان اعتماد العبد علىٰ فضل الله تعالىٰ وكرمه . . صغر عنده كلُّ شيءٍ دون ذٰلك ، بل إذا استحكم رؤية الفضل . . أثمر رؤية المفضل الكريم .

وعند رؤية الأوصاف الأزلية . . تضمحل الصفات البشرية ؛ فضلاً عن أن يكون لها عمل أو علم أو وصف ؛ فعند ذٰلك : تزكو أعمال العبد ، وتفيض على القلوب أنوارها ، وتكسى الأحوال أسرارها ، وتنشط الجوارح والقوىٰ ، ويصحو من سكر الهوىٰ ، وذٰلك ثمرة غيبة العبد عن كونه عاملاً ، فيكون كالآلة في يد الصانع يحرِّكها ويسكِّنها كيف شاء ، وعلىٰ ذٰلك المعنىٰ صح أن النسخة علىٰ ما هي عليه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## لَا عَمَلَ أَرْجَىٰ لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَيُحْتَقَرُ عِنْدَكَ وُجُودُهُ

( لا عمل أنفع للقلوب ) ونفع القلوب بالعمل : ما يفيض عليها من أنوار القَبول ، وخِلَع أسرار الوصول ، والأعمال إذا غاب العامل لها عن كونه عاملاً . . تزكَّتْ عن ظلمات القوادح ، وسلمت من آفات الرياء والإعجاب ، ولا يكون كذٰلك إلا من قد انمحقت بقاياه ، وتلاشت أوصافه ، ومحيت ذاته تحت مشرقات أنوار التوحيد ، وسحقت تحت عظمة التفريد ، وإلا يكون كذٰلك . . فلا ينفكُّ غالباً عن محبطات الأعمال ، من رذائل الأوصاف وشوائب الأحوال .

والمجاهدة وإن كان لها أثرٌ في الظواهر بعد مزيد المجاهدة ، وتحرّي طرق الإخلاص والصدق ، لٰكن لا كمن كان مأخوذاً عن نفسه (١) ، غائباً عن حسّه ، مع بقاء الصحو في الأعمال ، والحفظ في الأحوال ، فسبحان من رفع شأن قوم وأعلىٰ مقامهم ، وتمّمَ عليهم سابغات فضله ، وجنّبهم ما ابتلىٰ به غيرهم من الآفات .

فرجاء العمل للقلب ـ أي : لصلاحه وحصول نجاحه ـ بالغيبة عن رؤية النفس ؛ فكل عملٍ تظهر فيه . . لا يعتدُّ به وإن كان خطيراً ، وكلما غابت عن رؤيتها فيه . . فهو العظيم وإن كان حقيراً ، ولي في ذٰلك :

فلا شيءٌ من الأعمال أرجىٰ ... لجلب الخير والقدر الخطير
من أعمالٍ تغيب النفسُ فيها ... ولا يقدرْ لها وزنٌ نظيرِ

❁ ❁ ❁

(١) في ( ب ) : ( لٰكن لا يكن كمن كان مأخوذاً عن نفسه ) .

فلما كانت الواردات تبعث على النهوض ، وتعين على أداء النوافل والفروض . . كان إيرادها عليك من الله ؛ لتكون عليه بها وارداً ، لا لتكون عنه شارداً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِتَكُونَ عَلَيْهِ بِهِ وَارِداً

( إنما ) كلمة حصر ، يريد : **إنما أورد عليك الوارد ؛ سواء كان** ذٰلك الوارد من قبيل الملائمات ، وضروب المسرَّات كالنعم وصنوف الطاعات ؛ لتكون عليه وارداً من طريق الشكر وشهود المنة ، **أو من المؤلمات والمنغِّصات** ، وسائر وجوه التعرُّفات ؛ لتكون عليه وارداً من طريق الصبر ، **أو أورد عليك وارداً من طريق الأحوال** كالرجاء والخوف ، والقبض والبسط ، والهيبة والأنس ؛ **لتكون عليه وارداً** .

**فالرجاء بزيادة الأعمال** ، وحسن الأخلاق ، وصفو الأحوال ، **والخوف** ؛ لتردَ عليه من طريق الفرار من المخالفات ، والحذر من الوقوع في الهفوات ، **أو أورد البسط** ؛ لتردَ عليه من باب الأدب والانكماش ، **أو أورد عليك وارد القبض** ؛ لتردَ عليه به من باب الالتجاء ، وصدق الافتقار ، ووجود الاضطرار ، **أو أورد عليك وارد الأنس** ؛ لتكون وارداً عليه من طريق الفناء تحت مشرقات الجمال ، فارغ السرِّ عن سائر الأشغال ، **أو أورد عليك وارد الهيبة** ؛ لتتلاشىٰ وتضمحل عند ظهور سلطان الجلال ، فانياً عن سائر المقامات والأحوال ، فقيراً عن الأعمال ، وغير ذٰلك من ضروب الواردات ؛ لترد عليه بها ، لا لتقف معها دونه ، **فالوقوف معها** : إما غرور ، وإما دعوىٰ وزور ، عافانا الله من الفتن في الدين .

**ومراد المؤلف رحمه الله** بـ ( الوارد ) : الوارد العرفاني ، والفيض اللدني الامتناني ، وما أورده عليك **إلا ليصحَّ لك دخولُ حضرته** ، وتتمشّىٰ لك أفعال خدمته ، ولم يورده عليك لتنصب نفسك ، وتظهر

به على الخلق ليستقيم الجاه ، وتنال به الحشمة والتقدمة ، **فهٰذه كلها وما نحا نحوها من محبطات الأعمال . . شاردة بك عن بابه** ، وجانحة بك عن جنابه .

فـكلُّ واردٍ لا يدخُـلْ بصاحبـه على الإلٰه فإن المكـرَ يصحبُـهُ
فـردْ عليـهِ بمـا اختصَّيـت جانبـه فـذاك لـمَّ بـه كيمـا يُقرِّبُـهُ

* * *

ومـا أورد عليـك من أخصِّ عطايـاه ، وأفضل مواهبـه وهداياه **إلا ليستخلصك ويستفديك من رقِّ الأغيار**(١) ، وظلمات الآثار ، فلا تعد إليها بعد أن أخرجك عنها . . تكن مستحقاً لأصناف العقوبات ، وأنواع النكال ؛ **لأنك رجعت إليها** بعد أن استخلصك منها ، **واستخرتها عليه** بعد أن استخارك ، ولا يخفىٰ ما في ذٰلك من قلة الأدب معه ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

---

(١) في هامش ( أ ) : ( لعله : ويستنقذك . . . ) .

## أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيَسْتَلِمَكَ مِنْ يَدِ ٱلْأَغْيَارِ ، وَيُحَرِّرَكَ مِنْ رِقِّ ٱلْآثَارِ

أورد عليك مواهب قدسية ؛ ليخرجك من مضائق حسّية ، أورد عليك عطاءه ؛ ليشهدك كرمه ووفاءه ، أورد عليك الواردات ؛ ليستلمك من رقِّ العادات .

فالأغيار استأسرتك عن سعة التوحيد وروح التفريد ، وسجنتك في مضيق التعديد ، وقهرتك الآثار عن شهود الأنوار ، فاسترقَّتك واستعبدتك بما فيك من الطمع فيها ، والركون إليها ، والإقبال عليها ، فتداركك بلطيف فضله وعميم كرمه ، فأورد عليك من أنواره ، وأنزل عليك أسراره ، واستخلصك لخدمته ، ومَنَّ عليك بمحبته ، فجذبك من بين أعدائك ، وأولاك فضله وامتنانه .

وعرَّفك قبح الدنيا وفناء الأشياء ، فافتداك وجعلك له عبداً خالصاً بعد أن كنت بين تشاكس الدواعي الهوائية ، ومطالباتِ الشهوات الحيوانية ، والظلمات الأرضية ، والحظوظ العرضية .

وأشهدك الحضرة الربوبية ، وبوَّأكَ المنازل القدسية ، فأصبحت ذا ملكٍ كبير وعزٍّ خطير ، فله الحمد أهل الثناء والمجد ، ولي في ذٰلك :

قد كنتَ تحت حجابِ الغير مقهورا
وتحت رقٍّ من الآثار مأسورا
فاستسلمَكْ بلطيف الفضل مأثورا
وحررك فأظهَرَتْ منك التباشيرا

فلما كان قهرك واستئسارك هو وقوفك مع رؤية وجودك دون وجود موجدك . . فكان ما أورده عليك هو ظهور شهوده عند غيبةِ وجودك ، ولا يغيبُ عنك وجودك إلا بواردِ موهبي ، وفيضٍ امتناني ، وكشفٍ عياني .

قال المؤلف رضي الله عنه :

## أَوْرَدَ عَلَيْكَ ٱلْوَارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ ، إِلَىٰ فَضَاءِ شُهُودِكَ

عبارته لوجودك دون موجدك بالسجن ، ولشهودك لموجدك دون رؤية وجودك بالفضاء . . إشارة منه إلىٰ ضيق البشرية ، والعوالم الخلقية ، والحظوظ النفسية ، وإلىٰ سعة العوالم الحقية ، والأطوار الأمرية ، والتنزُّهات الروحية .

ولقد أحسن في ذٰلك ؛ فلا أضيق من الظلمة ، ولا أوسع من النور ؛ فالحق نور والأغيار ظلمة ، فأَنِّيَّتُك وظهور خلقيتك سجن ضنك ، وظلمة حلك .

فإذا أراد الله أن يمنَّ علىٰ عبدٍ من عباده . . أورد عليه واردات الشهود المفنية لسائر الوجود ، فاختطفته من يد الشهوات ، وأنقذته من مهالك الهفوات ، واستسلمته من ظلمات الجهل ومعاطب الغفلات .

فتتسلط الأنوار القلبية والقواهر الحقية ، على الدواعي الهوائية والحواجب النفسية ، فتستأسرها وتستعبدها ، وتحلُّها معها في رفيع محلِّها ، فتطئمن لربِّها ، وترجع بالإقبال إلىٰ خالقها .

فتصير من جملة الرفيق الأعلىٰ ، وتحلُّ في فسيح الملكوت الأنهىٰ ، فأكرِمْ بها مِنَّة !! وأعظِمْ بها نعمة !!

ولي في ذٰلك :

استخلصَكْ من يد الأغيار والصور ... إلىٰ فسيح كريم المشهد النضر

* * *

ثم اعلم : أن مفازة السلوك في ميادين النفوس أرض سحيق ، وطريق عميق ، لا تُسلَك إلا بمطايا وأزواد ، وجيدة الروايا .

ومطايـا هـٰذه الطريق الموصلة إلىٰ أعلـىٰ رفيق ، وأنزه فريق . . هي الأنوار القدسـية والأسـرار القُربية ؛ فالقلوب لا تقوىٰ علىٰ سـير هـٰذه الطريق الكثيرة التعويق . . إلا بورود هـٰذه الأنوار .

قال المؤلف رضي الله عنه :

## اَلْأَنْوَارُ : مَطَايَا ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْرَارِ

الأنوار الواردة هي : إما من تجلي الصفات ، وإما من تجلي الأفعال ، فالقلوب مطاياها الأنوار الواردات من مظاهر الأفعال الحقية ، فتكون حاملة عن القلوب ، ما تجد من الآلام والكروب ، والأنوار الوصفية الغيبية تحمل عن الأسرار ، ما تجد من ألم الأغيار ، والوقوف في محيطات الآثار ، فيظهر سر الاقتدار وحسن الاختيار ، فيحمل عنها ثقل ظلماتها .

فعندما تستمطي القلوب مطايا الغيوب ، وتجدُّ في السير إلى المحبوب . . يشرع لها أنبوب ماء من أنابيب ميازيب المشارب الفهمية ، وعندما تركب الأسرار نجائب الأنوار . . تجري لها أنهار العلوم اللدنية الغيبية ، والأسرار الملكوتية ، والأعيان العلمية ، والأزهار الحقية ، والثمرات المطوية في غيب الكلمات الأزلية .

فالحمد لله الذي هدانا لهٰذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولي في ذٰلك :

مطايا القلوب النازلةْ من سما العلا
تنيخ بها في موطن الوصل والقربِ
ونوق رحيل السرِّ تسري بها إلىٰ
رياض الحِكَمْ في موطن القدس والحبِّ

❋ ❋ ❋

فهٰذا الكلام يشير إلىٰ معنىً واحد ، ثم أخذ في تعبيره بقوله :

اَلنُّورُ جُنْدُ ٱلْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ ٱلظُّلْمَةَ جُنْدُ ٱلنَّفْسِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ .. أَمَدَّهُ بِجُنُودِ ٱلْأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ ٱلظُّلَمِ وَٱلْأَغْيَارِ

النـــور هنا : عبـــارةٌ عن وجدان الحق ؛ إما بعلـــم اليقين ، أو بعين اليقين ، أو بحق اليقين ؛ لذٰلك وحّدَ اسمَ النور[1] ، ثم عدَّدَ مظاهره ، فقـــال : ( جنود ) جمع جند ؛ فمـــن تلك الجنود : الـــوارد من طريق العلـــم ؛ وهـــو أضعفها تأثيراً فـــي قهر العدو وقمع الهـــوىٰ ، ومنها : الوارد بطريق العين ؛ وهو أقوىٰ من الوارد بطريق العلم في التأثير في ذٰلك ، وأضعف بالنســبة إلى الحق ، فالحق لا يبقي للباطل وجوداً ، والعين لا تبقي للشكِّ مجالاً ، والعلم ينفي الشرك والجحود ، والعين تكســب الفناء في الشـــهود ، والحقُ يُلحقُ بالبقاءِ الســـرمدي ، فهٰذه جنـــود ، وفـــي كل مرتبةٍ مـــن هٰذه المراتب تعداد مقاماتٍ ، وســـنيُّ حالات .

والجنود هي ركن المملكة الأعظم ، فلا ينتظم أمر المملكة الإنسانية بدونه ؛ فالمملكة الإنسانية قصرُها الأعظم : القلب ، وسلطان تلك المملكة : الإيمان ، ووزيرها الأعظم : العقل ، وبوابه : العلمُ ، ورئيس الجيش : الذِّكرُ .

ولا تغايـــر بيـــن تعبيرنا بالإيمـــان عن القلب وبين عبـــارة المصنف رحمـــه الله تعالىٰ بالقلـــب ، وعبَّر بالقلب إذ هو الملـــك إذا اعتبر كون القلب المعني هنا نوراً من نور الله ، والقلب اللحمي قصرُ ذٰلك الملك ؛

---

(١) ووقع في النسخ في متن الحكمة : ( الأنوار جند . . . ) بدل : ( النور جند . . . ) ، وذكر في هامش ( أ ) : ( النور ) ورمز لها بنسخة ، وهنا رجَّح الإفراد .

فلذٰلك عبَّرنا بالقلب المعني النور الرباني بالإيمان ؛ ليتميز عن القلب اللحمي ، وعبَّرنا بالقلب اللحمي بأنه قصر الملك ؛ لتعرف القلب الذي نسبته إلى الله ، والقلب الذي نسبته إلى العبد .

ووزيره الأعظم : النور ، وسلاحه : الزهد ، وترسه : التقوىٰ ، ودرعه : الورع ، وحاكمه : السنة ، وخدَّامه : الحواس ، ومطاياه : العزائم ، وخيوله : الهمم .

كما أن جند النفس : الظلمة ، ووزيرها الأعظم : الهوىٰ ، وقائدها : الشيطان ، وحاكمها : الجهل ، وسلاحها : الحرص ، وملاك جيوشها : الطمع ، ورئيس جيشها : طول الأمل .

فالظلمة اسم لهٰذه الجيوش ، كما أن النور يشمل جنود القلب المتقدم ذكرهم .

فإذا أراد الله أن ينصر عبده .. أنزل سلطان الإيمان في سويداء الجنان ، وثبَّته بالشهود والعيان ، وأيَّده بنصرة العقل ، وتدبير العلم ، وقوة الذكر ، وسلاح الزهد ، ودرع الورع ، وثواقب البصائر ، وصلاح الضمائر .

وحكَّمَ عليه السنة فيما يأخذ ويذر ، وأخدمَهُ الحواسَّ ، وأصلحه عن الأشر والبطر ، وسدَّده بصواب النظر في معاني الصور ، وحسم عنه مواد الظلمة ، وقهر له جنودها ، ومكَّنه من سلطانها ، وعرَّفه مخادع مكامن قطَّاعها ، وكفاه همَّ عوارض الطريق ، والقوادح في التحقيق .

وكفاه همَّ الأغيار ، والاغترار بوجود أنوار دون تحقق بحقائق الشهود والاستبصار .

وإذا أراد أن يخذله .. كان الأمر بالعكس من ذلك والعياذ بالله ، فلا أجدر بالعبد من اللجأ إلى الله ، واللياذ به في أن يكفيه هذه الأعداء والقطّاع عن طريق المولى .

**ولي في ذلك :**

النورُ جندٌ لقلب العبد ينصرُهُ ... وَيَهْدِيْ الحائرَ المسجونَ في الظُّلَمِ

كما ترى العكس جند النفس تخذله ... ويسلمه كل موعودٍ من الألمِ

* * *

**ثم بَيَّنَ حالات القلب وصفات كشفه ، فقال رضي الله عنه :**

النور كما علمت أنه العلم ابتداء والحق انتهاء ؛ فابتداؤه يكشفُ عن وجه القلب حجابه ، ويؤذنُهُ باقترابه ، وتنفتح به إلى العلا أبوابه ، والبصيرة كما علمت أنها عين القلب . . إذا كانت العين صحيحة [1] ، ولٰكن لا بد لها في حصول النظر من نور ، فلو كانت العين صحيحة ، ولٰكنها في ظلمة لم تَرَ ضوءَ نارٍ ولا نجم ولا قمر ولا شمس ولا شفق ولا فجر . . لم تدرك بمجرد العين نظراً ؛ فالعلم هو نجوم ليل هٰذا القلب ، والعين قمره ، والحق شمسه .

وإن شئت . . قلت : النجوم شريعته ، والقمر طريقته ، والشمس حقيقته .

فإذا كشف عن عين القلب ظلمة الجهل بأي نورٍ من هٰذه الأنوار . . أبصر ما انطوىٰ عليه المقام من الأسرار ؛ فلذٰلك يحكم به ، فلا يدخله شك ولا يمتريه تردُّد ، فإذا كان كذٰلك . . كان للقلب الإقبال علىٰ ما حكم بصحته ، والإدبار عمَّا تحقَّق بطلانه وتبيَّن ضلالته ، فالقلب كشخصٍ قائمٍ وله أوصافٌ شتىٰ ، فالموصوف بتصرف الأوصاف هو الشخص بجملته ، لا الصفة مجردة عن ذاتها .

وللقلب أيضاً : سمع وحياة ، وقدرة وإرادة ، وعلم وكلام [2] ، فهو الواسطة بين الملك والملكوت .

---

(١) في النسخ : ( فإذا كانت العين صحيحة ) بدل : ( إذا كانت العين صحيحة ) .

(٢) ولو زاد البصر . . لتمَّ وصفه ، وبانت المقابلة بتمامها للصفات الأزلية ، وقد أشار لهٰذه الصفة فيما مضىٰ من الحكم ، انظر ( ص ٢٤٥ ) .

فالصفات الخلقية تستشف من وراء هٰذه الصفات القلبية ، والصفات القلبية مواجهة ومقابلةٌ الصفاتِ الأزلية ؛ لذٰلك كان له الإقبال على الله والإدبار من حيث ما يفيض عنه إلىٰ عالم الخلق .

ولو أخذنا نبيِّنُ مقابلة كل صفة وما تقبله ، وما يفيض عنها على الصفات الخلقية القالبية . . لانكشف سرٌّ نحن بصدد صونه عن الإذاعة ؛ لأن القوابل لا تطيقُ سماعه ، وفي الإشارة إلىٰ ذٰلك كفاية لمن فتح عين بصيرته ، وأطلع شمس سريرته ، ولي في ذٰلك :

النور يفتح باب القلب بالمدد وفي البصيرة يظهرْ سرّه الصمد

❀ ❀ ❀

فلما كانت الطاعاتُ بارزةً على الظواهر ما استشفته القلوب من السرائر يفرح بها من وجهين : وجه من حيث كونُها من الله ، ووجه من حيث كونُها منك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**لَا تُفْرِحْكَ ٱلطَّاعَةُ ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ، وَٱفْرَحْ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ إِلَيْكَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾**

الفرح : هو ابتهاج القلب بأمرٍ محمودٍ ؛ عاجلٍ أو آجل .

وفرح الجهَّال بالأمور العاجِلة ليس هو من هٰذا القبيل ، لٰكن الفرح هنا بالطاعة علىٰ ضربين :

إمـا بوجودها من حيث هي طاعة ومثوبة ، وسـلامة من عقوبة ، لا من حيث إنه أبرزهـا من خزائن فضله ، **فذٰلك فرح المحجوبين ، والعامَّة الجهَّـال الغافلين** ؛ لذٰلك نهى المؤلف رحمه الله عن الفرح بهـا من حيـث كونُها برزت منك ؛ **لأنـك لا تفرح إلا بمـا تيقَّنت** بقـاءه ، ومتىٰ تتيقن بـراءةَ أعمالك من مفسـداتها والقـوادح فيها وإخلاصها ؟!

وأعظم من ذٰلك : أنك حُجبت بها عمن أبرزها ؛ فلو كنت ذا كشفٍ واهتدا . . لرأيت من ألهم ذٰلك وهدىٰ ، وأعان عليه ووعد بالجزا ، فإذا كنـت كـذٰلك ؛ أي : علمت من أين صدرت ، ولمـاذا أتت . . علمت أنهـا مـن جملة عنايته بك ، وأنـت بعدُ لم تهتدِ إليهـا إلا بهدايته ، ولـم تقوَ عليها إلا بإعانته ، فعنـد ذٰلك تفرح بها ؛ لكونها دليلة علىٰ عناية سـيدك بك ، فيكـون فرحك بفضله ، وقد أمر بذٰلك : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ وهدايتُـهُ من أعظم الفضائـل عليك ﴿ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ وهي إعانتُهُ من أتحـف الهدايا لديك ، وفرحـك بفضله ورحمته ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ممَّا يصدر منهم من مجموع أعمال ، وتحسين أحوال ، **فأين ما تجمعه ممَّا تُمنحُهُ ؟!**

فلو كان علىٰ عدد أنفاس العالم زواكي أعمال ، وسنيات أحوال ، وأنت فرح بها معتمدٌ عليها . . لم تغنِ عنك من الله شيئاً ؛ فذرَّةٌ من عارف بالله ، معتمدٍ علىٰ فضل الله ، فرحٍ بنعمة الله . . **لا توازيها أعمال العاملين وأحوال السالكين مع رؤيتهم لها دون موجدها .**

**ولي في ذلك :**

فافرَحْ بفضلِهْ فإنَّ الفضلَ مقصودُ لمن له المنُّ والإحسانُ والجودُ
ولا تكن بـه دون الله مردود يكن بلا شَيْءٍ إن الغير مفقودُ

❋ ❋ ❋

فلمَّا كان الغيبة عن رؤية الأعمال دأب السالكين الأنجاب ، والواصلين الأحباب . . **قال المؤلف رضي الله عنه :**

قَطَعَ ٱلسَّائِرِينَ إِلَيْهِ وَٱلْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛ أَمَّا ٱلسَّائِرُون .. فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا ٱلصِّدْقَ مَعَ ٱللهِ تَعَالَىٰ فِيهَا ، وَأَمَّا ٱلْوَاصِلُونَ .. فَلِأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا

( قطع ) : لم يمكِّنهم ، ( السائرون ) : هم السالكون علىٰ قدم الصدق في بيداء الإرادة وميادين الأعمال ، علىٰ نجائب الأحوال ، وقد قطعهم عن رؤية أعمالهم وصفو أحوالهم عدمُ تحقُّقِ الصدق ؛ إذ هو شرط في قَبولها ، وهم بعد لم يخرجوا عن رؤية نفوسهم في الأشياء ، ولا تصفو الأعمال مع رؤية النفس فيها ؛ فلذٰلك لم يعتدُّوا بها ، ولم يعتمدوا عليها ؛ وذٰلك أنك لا ترىٰ إلا ما خلص عن شوائبه ، وتطهَّرَ من معايبه ، ولم تأمن دخولَ الآفات ما دامت النفس ظاهرة .

وأما الواصلون .. فحجبهم عن رؤيتها شهوده ، وإذا تحقق شهوده .. لم يبقَ لغيره فعلٌ ولا وصف ؛ فالأعمال مصادر الأفعال ، والأحوال مصادر الأوصاف ، فلم يبقَ لغيره فعلٌ فيرىٰ له عمل ، ولا بقي لغيره وصفٌ فيرىٰ له حال ، فهٰذا يعطيه مقام الشهود ، والتحقق بالوجود لا يرىٰ معه موجود .

فصحَّ أن رؤية الأعمال دون الله حالُ المحجوبين الذين لم يحظَوا بعزيز الصدق ، ولم يَشَمُّوا رائحة نسيم الوصل ، فالواصل : الذي يشهد مجري الأعمال ومنشئها ، والصادق : الذي يتَّهم نفسه فيما يصدر عنها ، ويرىٰ عدم الإخلاص ، وشهود النقص والتقصير عن الجد والتشمير ، حتىٰ لو رأىٰ ما رأىٰ من الأعمال والأحوال .. لم يرها إلا بعين الدعوىٰ .

وفي ذٰلك المعنىٰ كثُرت حكاياتُهُمْ ؛ كما روي عن الواسطي مع

أصحاب أبي عثمان ، حيث قال لهم : إنما أمركم بالمجوسـيَّةِ المحضة حيث قالوا : كان يأمرنا بالأعمالِ ورؤيةِ التقصير فيها ، وقال : هلَّا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها [1] .

هٰذا في مقام الواصلين ، وأما ما يروىٰ في ذٰلك المعنىٰ في طريق السالكين . . فكثير ، يروىٰ عن بعض ساداتنا العلوية ـ وهو سيدنا عمر المحضار بن عبد الرحمٰن السقاف رضي الله عنه ـ : أنه قال : لو تُقبِّلت لي تسبيحة . . لفعلت لجميع أهل بلدي دعوة ، أو كما قال .

وآفة السالكين رؤية أعمالهم ، والاعتماد في سلوكهم علىٰ ما يصدر من أفعالهم ، ومنه ينتج الإدلالُ والإعجاب وضروب من الآفات سَلِمَ منها الموفَّقون ، وتحصَّن عنها المتقون .

فالواصلون قطعْ عن عين رؤيتهم ... شـهودُ سـيدهم عـن كل منظـور
والسالكون سبيلَ الصدق منهجُهم ... ألا يـروا صـورَ الأعمـال مسـطور

* * *

فلما أنهى الكلام علىٰ ذٰلك . . أخذ يتكلَّم علىٰ ما يعتور المريدين من مقاطع الطريق ، وما يلتبس على الجهَّال المغرورين ، فقال رضي الله عنه :

(١) الرسالة القشيرية ( ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ) وقال : ( إنما أراد الواسطي بهٰذا صيانتهم عن محل الإعجاب ؛ لا تعريجاً في أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب ) .

## مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ . . إِلَّا عَنْ بِذْرِ طَمَعٍ

**عبَّر بحالة الذلِّ للمخلوقين** كشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم ، طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين ، **وبالبسوق** إلى الطول في العالم الهبوطي ؛ **فإن طولها معنوي** ، تتصل ثمرته بالرعيل الظلماني ، والمحتد القاصي عن الله .

**والأغصان** : هي ما يتشعَّبُ من أصل هاذه الشجرة من الأخلاق اللئيمة ، والصفات المشؤومة ؛ التي هي أصول النفاق ، ومنبع طرق الفسَّاق ، **ولا تبسق هاذه الأغصان** ، وتمتد هاذه الأفنان ، وتخر عزيزات الأذقان . . **إلا على بذر طمع** .

**والبذرُ** : هو الحب الذي يراد للاستنبات ، ويطلب منه النبات ، **والطمعُ في المخلوقين** دليل الحجاب عن ربِّ العالمين ومالك الدارين ، وهو علامة المنافقين ، وسيما المبعدين .

**والعزة بالله** من أشرف أخلاق المؤمنين ، وأعز أحوال الموقنين ، **والعزة بالله** لا تكون لمن في قلبه قبح الطمع المباين لحالة الورع ، وقد وصف الله الفريقين ونعت الطريقين بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فلو كان لهم في غيره طمع ، أو إلى غيره مطمح نظر . . **لتخلف بهم عن هاذا المقام** ، ولقام الكرام مقام اللئام ؛ **حيث قال في الفريق الآخر** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ والفرقة الأقلين يوم القيامة .

**والطامع أبداً** في عناء وقلة غناء ؛ إذ منشؤه الشك في الله ، واليأس من روح الله ، **والطامع لا يشبع** ، والحريص لا يقنع كيف ما تقلبت به الأحوال .

والطمع على ضربين :

طمـع ظاهر جلي يعرفه كل أحـد ؛ كالطمع في الأغراض الفانية ، فـلا يخفى قبحـه ، والإعراض عنه محمـودٌ لكلِّ أحـد ، والتنزُّه عنه مطلـوب عنـد كل أحد ، حتى عند من يتعاطاه مـن الجهّال ، والغواةِ الضلّال .

وطمـع باطن خفـي لا يعرفه أكثـر الخلق ؛ كالطمع في المسـتلذِّ الأخـروي ، فلا يترك الطمع فيه إلا محجوبٌ دنيـوي ، أو مقرَّبٌ بمقام الشهود حظي ، فلا يطمع في شيء دون سيده ، والقربِ منه والشهودِ له ، ولا يتـرك الطمع في الفضل الأخروي احتقاراً ، ولكن لما ظهر له وبادر قلبه من الامتلاء بشهود المولى ، وبدا له من الجمال الذي حسن به كل مستحسن ما أخذه عن الأكوان ، وشـغله عن التلذُّذ بالجنان ، وما فيها من الحور الحسـان ، وبان له من العرفان ما استغرق الأركان ، واستملك الجنان والعين واللسان .

فالخاصة يوصفون بترك الطمع في الأغراض الفانية الدنيوية دون الفضائل والدرجات الأخروية ، وخاصة الخاصة يوصفون بترك الطمع فيما سوى سيدهم ، ومنتهى مطلبهم ، وغايةُ آمالهم شهودُ الواحد الحق ورضوانُهُ عنهم ، لا يلتفتون إلى غرضٍ فانٍ ، ولا يعرِّجون على حظٍّ كائناً ما كان ذلك الحظ ؛ دنيوي أو أخروي .

ويقابل الطمعَ الورعُ ، والورع أيضاً على درجاتٍ شتى ؛ فورع العامة ، وورع الخاصة ، وورع خاصة الخاصة ، وورع ظاهر ، وورع باطن ، وورع فرض ، وورع فضل ؛ وهو يتفاوت بحسب تفاوت الأحوال .

والورع في الأفعال والأقوال والأحوال .

فورعُ الفرض في الحرام الصِّرْفِ في الأفعال والأقوال ، وهو ورعُ العامة ، وهو في الظاهر لا بالباطن .

وورعٌ في دقائــق الأعمال وخفيات الأفعال ، تظهر لأهلها بشــواهد السنة ، والتطلُّعِ على خفيات الآثار ، والفحص عن أحوال الأخيار ، وورع خاصــة الخاصة ؛ وهو فــي الأحوال بمراعاة التعظيــم والإجلال ، وورع خاصة خاصة الخاصة بالفناء والاضمحلال .

وورعُ العامة عن الحرام ، وورعُ الخاصة عن الشــبهات ، وورعُ خاصة الخاصة عن الفضول من الحــلال ، وما زال بهم الورع يترقَّىٰ في مدارج الأحــوال حتىٰ وقف بهم وأشــرف بهم على الســرِّ المصــون ، والعلم المخزون ، تحت حيطة : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

فيكون ما أرادوا من غير تكلُّفٍ وتحرٍّ في إقدام علىٰ شيء أو إحجام ، فيأخذون بالله ، ويتركون لا بأنفسهم ، فوقعوا علىٰ حقيقة الأمر ، ونزلوا علىٰ بصيرة ، تتراءىٰ لهم في كل شيءٍ علامةٌ تدلُّهم علىٰ أخذه أو تركه ؛ لأن الله وليهم ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ، لا يهجمــون بالظنــون ، ولا يحجمــون كما يكون لأصحــاب الظواهر الذين لم تســتنرْ منهم القلوب ، ولم تصفُ الضمائر ، بل واقفون مع ما يتوهَّمــون ، ومتَّبعون مــا يظنون ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ وقصروا عــن الهدى الذي جاءهم من ربهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ ومن الدلالات القرآنية والمعجزات النبوية ، فوقفوا عند رسمهم المحصور وحدِّهم المقصور ، ولم يحظَوا بالشاهد القلبي الذي أرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وســلم ؛ حيث قال : « استفتِ قلبَكَ وإن

أفتوك »[١] ، فالفتوى القلبية هي الهدى الذي جاءهم من ربهم ، هٰذا في حال من يتحرى الورع .

وأما المنهمكون الذين لم يبالوا من أيِّ شيء أخذوا ، ولا بأيِّ شيء فعلوا . . فلا يتوجَّهُ إليهم هٰذا الخطاب ، ولم يعنهم في هٰذا الجواب ، بل نقول كما قال ربنا فيهم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ .

وأحوال السلف في الورع مشهورة ، وهي أكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تشهر ، ويكفيك في ترك الحرام زاجراً قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ ، وأموال غيرهم كأموالهم ، وكالأكل غيرُهُ من الشرب واللبس والمسكن ، وغيره من وجوه الانتفاعات ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يبالِ من أين أكل . . لم يبالِ الله به في أيِّ وادٍ من أودية النارِ هلكَ » أو كما قال[٢] .

والذي يتعبَّد من غير ورعٍ كالذي يبني على السرجين ، وقالوا : إن الغذاء بذر ، والأعمال نتيجة ؛ فمن أكل الحلال الصرف . . خرجت منه الأعمال الخالصة الصرف ، ومن أكل الشبهات . . خرجت منه الأعمال المشبوهة ، ومن أكل الحرام . . نتجت منه الأعمال المحرمة ، ولو أخذنا في تبيين أحوال الناس في ذٰلك . . لطال ، ويحتاج إلىٰ إفراد كتاب .

وأما تنوير القلب . . ففي أدقَّ من ذٰلك من دقائق اللحظات ، ولطائف الخطرات ، فأثر ذٰلك يظهر في القلوب تنويراً وظلمة ، وثقلاً وخفة ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ( ٢٢٨/٤ ) عن سيدنا وابصة بن معبد رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » ( ٣٩٩/١ ) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

فـورع الخاصـة في تتبُّع ذٰلك ، والبحث عما هنالك ، ويظهر ورع خاصة الخاصـة فـي أدق مـن ذٰلك ؛ من تضييع حقوق الله فـي الأنفاس ودقائق الأوقـات ، أو عـدم الصدق فـي ذٰلك ، وأدقُّ مـن ذٰلك : الالتفات إلىٰ ما منك ، أو رؤية وجود لسوى الواحد المعبود .

قالـوا : وكل رتبـة أدنـىٰ من ذٰلك تعمُّ سـائر المراتب زيـادةً ونقصاً ؛ فأمـا في العامـة . . فما ذكرنا من نتيجة الأعمال الخالصة بأكل الطيب ، وضدُّها بضدِّها ، وتؤثر في أصحاب الأحوال ثقلاً وقلة انشراح ، أو ضدها مـن خفة وانشـراح إن كان الضد ، وأما في أهـل المقامات والمعارف . . فكثرة الخواطر من غير جدوىٰ ، واختلاط المعارف واشـتباهها ، وضدُّها بضـده[1] ـ أي : بالطيـب ـ : ضبـط الخواطـر ، وحفـظ الوقـت ، وتمييز المعارف .

فانظر اتصال هٰذا الدين ، وعمل ما يعمل في الأصاغر والأكابر ، لٰكن بحسب الحال ، ففرقٌ بين من يكون في الحرمان وبين من تشتبهُ عليه صنوف الأعيان ، ولي في ذٰلك :

إن الطمع حرفه التجويف يعرفه مـن يقتريـه ويـدري ما هـو الخبر
فاجعـل بـدَلْ ذاك واواً ورا تصرفـه عيـن بهـا قام نـور الله فـي الصور

فمبنى الطمع : الوهم ، وغايتُهُ : الذل والعبودية لمن لم يستحقها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في ( أ ) : ( وضدها ذٰلك بضده ) بدل : ( وضدها بضده ) .

## مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْوَهْمِ

القـود : هو القهر من القائـد ، والانقهار من المنقاد ، والحكم من القائد ، والاستسـلام مـن المنقاد ، وما أقبح حالة مـن انقهر للوهم وانقاد للشـكِّ المعدومين في أنفسهما !! فالطمع في الخلق طمع في وهـم لا حقيقة له ؛ إذ من كان عدم في ذاته دون الله . . فكيف يطمع فيه ؟!

ولٰكن النفس من حيث مركزُها الجبلي خلقت من الظلمة ، فلم تعرف غيرَها ؛ فلذٰلك ناسبت حالَها أفعالُها .

وأمـا نفـوس أهـل العرفـان . . لـم تلتفت إلىٰ ثـانٍ ؛ لثبـوت أن كلَّ موجـود دون الله فـان ـ أي : معـدومُ الأصـل ـ فلـم يطمـح نظرهم ولم تحـول هممهـم إلىٰ غِيَرٍ ؛ لفناء الأغيـار ، وانطماس الآثار تحت أحدية الواحـد القهـار ، فقنعوا بـه عوضـاً عمَّـا سـواه ، فأورثهـم الرضـا عنه ، وعوَّضهـم لذة المشـاهدة وطيب المؤانسة .

فعرفـوا مـا جهـل الأغبياء ، ونظـروا ما عمي عنه الأشـقياء ، فحَيَوا حياةً طيبة ؛ لفراغ بواطنهم عن التعلُّق بالأوهام ، وسـلامتهم عن ورود الظلم ومقارفة الآثام ، ونعتهم الأحرار عن استرقاق الأغيار ، وخلصوا عـن نـار الطمع والإذلال ، إلىٰ جنة الورع والاتصال ، واسـتظلوا تحت شـجرة الحكمـة ، فأينعت عن ثمـار العلوم اللدنيـة ، « إذا رأيتم زهد الرجـل . . فادنـوا منـه ؛ فـإن الحكمـة تلقـىٰ عليـه ، والمواهـب تدنو إليه »(١) .

---

(١) رواه ابن ماجه ( ٤١٠١ ) بنحوه عن سيدنا أبي خلاد رضي الله عنه .

ولي في ذٰلك :

الوهم أكذب ما يلقىٰ إليك فكن　　علىٰ يقين فإن الوهم معدوم

مَنْ نازلهْ صرف أنوار اليقين يكن　　بربِّه لا بحبلِ الوهمِ مخطومُ

***

وانقياد المنقاد إما علىٰ سبيل الرغبة في المنقاد له ، أو علىٰ سبيل الرهبة ، وكلا الأمرين يقتضي العبودية من المنقاد للمنقاد له ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## أَنْتَ حُرٌّ عَمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ

ذكر الحرية أولاً لأنها الأصل ؛ إذ الأصل : أنك حرٌّ من الأغيار ، ومنطلق من وثاق الآثار ، فإذا عدت إلىٰ أصلك . . علمت أن الأشياء طالبةٌ لك ، ومتوجهةٌ بالإقبال عليك ، وذٰلك قبل طروء الجهل الجبلي ؛ لكونك متَّصفاً بالعلم ومتحلّياً بالشهود ، فأنت في ذٰلك المشهد آيسٌ عما سوى الواحد الحق ؛ لأن الوهم الظلماني لم يظهر بعدُ ، فلم تتوجه ناصيةُ العبودية لغيره .

فإذا عاد السالك إلىٰ ذٰلك ، وتحقق بما هنالك . . وُصِفَ بالحرية عن الغيرية ، وعبوديته للأغيار متوهمةٌ لا حقيقة كهي[١] ؛ إذ لم تكن العبودية لغيره في أي معبود ، ولم يشهد سواه في كل مشهود ، وإنما سبب العتب في ذٰلك[٢] . . توهم الغيرية بكثيف حجاب البشرية ، عافانا الله والمسلمين من التوجُّه إلىٰ غيره والعبادة لسواه .

فالموحِّدون عن الأغيار آيسون ، وبالله مستأنسون ، وعليه متوكِّلون ، قد سقط عن قلوبهم الطمع ، وأصحبها صفو الورع ؛ وذٰلك لما كشف عن قلوبهم ظلمة الأوهام والشكوك ، بصدق المجاهدة في فيافي السلوك ، فرأوا عجزَ مَن سواه عن إيصال ما يُرجىٰ ، ودَفع ما يُخشىٰ ، وتعلَّقت مطامعهم فيمن بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجِع مصادر الأمور ، وبه تطمئن وجلات القلوب ، وعنده خزائن الخيرات ، ومفاتيح المسرَّات ،

(١) كذا في النسخ : ( لا حقيقة ) ، والمعنىٰ : عبوديته للأغيار والأغيارُ كلاهما لا حقيقة له في ذاته .

(٢) في ( ب ) : ( سبب الغيث في ذٰلك ) ولعل الأقرب للمعنىٰ : سبب العيب .

ودفع المضرَّات ؛ دنيا وأخرىٰ ، **فأيسوا عن الأغيار** ، وتحرَّروا عن رقِّ الآثار ، **وكانوا له عبيداً** ، **فوجدوه واجداً مجيداً** ، لطيفاً حليماً ، غافراً متفضِّلاً كريماً . . . إلىٰ غير ذٰلك من صفات جماله ، وفضائل نعوته ومننه ، وسوابغ نعمه وغوامر رحماته .

**ومن آيس عن الله** ، وتعلَّق طمعه بالأغيار ، وسأل مآربه ، وعلَّق رغائبه ، وأنزل حوائجه بالخيالات المتوهَّمة ، والآراء المتخيلة ، **واستولىٰ عليه رؤية الأعراض الكونية** ، والظلمات الهوائية . . ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ، **ولي في ذٰلك** :

إن الطمَعْ يملك الحرَّ الكريمَ إذا ... رام التوصُّل منه انحاز وامتنعا

ومن يكن آيساً يأتي إليه كذا ... كل الذي كان في الأوهام ممتنعا

❁ ❁ ❁

فلما نظر العارفون إلى الأغيار بنور اليقين **تحقَّقَ زوال نعيمها** ، وذهاب طراوتها ، واستمرار حلاوتها (١) ، وواجههم الله بعظيم فضله ، وتجلَّىٰ لهم بجميل نعته . . **لم تسترقهم الأكوان** ، ولم تحكم عليهم الشهوات ، بل **تحرَّروا عنها** ، وأعرضوا عنها ، وركبوا الفلوات ، وأنسوا بذكره ، **وجعلوه عوضاً عن كل محبوب** ، ونسوا في دونه كل مطلوب .

إذا سترتهم الغياهب . . **افترشوا له الأقدام** ، وتملَّقوا له تملُّقَ مؤانسةٍ وإكرام ، وإجلالٍ وإعظام ، **فأفاض علىٰ قلوبهم مواهب الإنعام** ، وخاطبهم من أسرارهم خطاب حبيبٍ لحبيبه ، ودنو قريب إلىٰ قريبه ،

---

(١) يقال : **استمرَّ المريضُ** ؛ وجده مرّاً .

فعـادَوا **الأكـوان لذلك** ، وخرجوا عن كل مـا يَعُوقُهم عن خدمته ، ويعثر عن نيل محبته .

**وأخبارهـم مأثــورة** ، وحكاياتهم فــي ذلك مشــهورة ، وأعلامهم منشــورة ، **فأقبلوا إليــه بطريق المحبة والمنَّة** ، لا مــن طريق الاضطرار والمحنة ، والله سبحانه يريد توجه عباده الذين سبقت لهم منه الرحمة ، وأفيضــت عليهم المنة ، **فلا بد وأن يوصلهم إليه** : إما بطريق الاختيار ، وإما بطريق الاضطرار ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

فهٰذا خطابٌ لفريقين ، وبيان طريقين .

أما الطريق الأول : هم أهل الإقبال ، الذين أقبلوا إليه بطريق الطوع والفرح ، وهم الذين استجابوا لله من غير توقفٍ ولا تعوُّقٍ ولا تعثُّر ، كما أشار إليه بالإقبال ، والإقبال لا يكون إلا عن رضاً وفرح ، واستئناس وطرب ؛ وذٰلك لما أراهم من جميل وصفه ، وعميم فضله ، وسابق منِّته ، وتوالي نعمته ؛ فهم الشاكرون لله الذين تعرَّضوا لزيادة إنعامه ، وتوالي أفضاله .

وقوم آخرون لم يرجعوا إليه كذٰلك ولم يقبلوا ، وقد سبقت لهم من الله عناية ، قِيدوا إليه بسلاسل الامتحان ، والقود لا يقع إلا عن قهر ، سيما بالسلاسل ؛ فإنها أبلغ في ظهور القهر ؛ إذ القود بالسلاسل أبلغ ما يقهر به المستعصي عن الانقياد ، فعبَّرَ بالمصائب وضروب المتاعب للمؤمن في الدنيا بالسلاسل ؛ ليردَّهُ إلىٰ حضرته ، وليختصَّه برحمته ، « عجباً للمؤمن !! أمرُهُ كله خير له ، وليس ذٰلك لأحدٍ إلا للمؤمن »(١) .

وتلك السلاسل هي ما يبتلىٰ به المؤمن في هٰذه الدنيا من المصائب في الأهلِ والمال ، والعرض وتغير الأحوال ، فتردُّهُ إلى الله بالتضرُّع والابتهال ، وانكسار النفس بذٰلك ، وما ينالها من التعب ، ممَّا يُقِلُّ رغبتها ويزعجها عن الركون والطمأنينة في الدنيا ، وفي ذٰلك غاية السعادة وجزيل الزيادة .

---

(١) رواه مسلم ( ٢٩٩٩ ) بنحوه عن سيدنا صهيب رضي الله عنه .

**فعادَوا الأكوان لذٰلك** ، وخرجوا عن كل ما يَعُوقُهم عن خدمته ، ويعثر عن نيل محبته.

**وأخبارهم مأثورة** ، وحكاياتهم في ذٰلك مشهورة ، وأعلامهم منشورة ، **فأقبلوا إليه بطريق المحبة والمنَّة** ، لا من طريق الاضطرار والمحنة ، والله سبحانه يريد توجه عباده الذين سبقت لهم منه الرحمة ، وأفيضت عليهم المنة ، **فلا بد وأن يوصلهم إليه** : إما بطريق الاختيار ، وإما بطريق الاضطرار ؛ **لذٰلك قال المؤلف** رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ يُقْبِلْ إِلَى ٱللهِ بِمُلَاطَفَاتِ ٱلْإِحْسَانِ .. قِيدَ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ ٱلْاِمْتِحَانِ

فهٰذا خطابٌ لفريقين ، وبيان طريقين .

أما الطريق الأول : هم أهل الإقبال ، الذين أقبلوا إليه بطريق الطوع والفرح ، وهم الذين استجابوا لله من غير توقفٍ ولا تعوُّقٍ ولا تعثُّر ، كما أشار إليه بالإقبال ، والإقبال لا يكون إلا عن رضاً وفرح ، واستئناس وطرب ؛ وذٰلك لما أراهم من جميل وصفه ، وعميم فضله ، وسابق منَّته ، وتوالي نعمته ؛ فهم الشاكرون لله الذين تعرَّضوا لزيادة إنعامه ، وتوالي أفضاله .

وقوم آخرون لم يرجعوا إليه كذٰلك ولم يقبلوا ، وقد سبقت لهم من الله عناية ، قِيدوا إليه بسلاسل الامتحان ، والقود لا يقع إلا عن قهر ، سيما بالسلاسل ؛ فإنها أبلغ في ظهور القهر ؛ إذ القود بالسلاسل أبلغ ما يقهر به المستعصي عن الانقياد ، فعبَّرَ بالمصائب وضروب المتاعب للمؤمن في الدنيا بالسلاسل ؛ ليردَّهُ إلىٰ حضرته ، وليختصَّه برحمته ، « عجباً للمؤمن !! أمرُهُ كله خير له ، وليس ذٰلك لأحدٍ إلا للمؤمن »(١) .

وتلك السلاسل هي ما يبتلىٰ به المؤمن في هٰذه الدنيا من المصائب في الأهل والمال ، والعرض وتغير الأحوال ، فتردُّهُ إلى الله بالتضرُّع والابتهال ، وانكسار النفس بذٰلك ، وما ينالها من التعب ، ممَّا يُقِلُّ رغبتها ويزعجها عن الركون والطمأنينة في الدنيا ، وفي ذٰلك غاية السعادة وجزيل الزيادة .

---

(١) رواه مسلم ( ٢٩٩٩ ) بنحوه عن سيدنا صهيب رضي الله عنه .

فسبحانه من كريمٍ ما ألطفه بعباده وأرحمه بهم !! فلو تركهم وما يحبونه . . لهلكوا هلاكَ الأبد ، كما يكون ذلك لأهل البعد ، حيث قال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ .

فالحق سبحانه يستدعي عباده إلىٰ عبادته ومحبته بدرور النعم والأرزاق والعافية وملاطفات الأحوال ؛ فإن لم يجيبوا بذلك . . دُعُوا من طريق الابتلاء ، ﴿ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ أعقب ما ابتلوا به مع وجود الصبر بالبشرىٰ والمدح من الله عزَّ وجلَّ ؛ كما مدح من قام بصنوف الطاعات ، ووظائف الأوقات .

ثم بيَّنَ قولَهُمْ ما هو الحال ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ ملكاً وخلقاً وعبودية ، ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ في جميع الأحوال والأقوال والأفعال حقيقة .

فانظر ماذا حصل عليه مَن قِيدَ إلى الله بسلاسل الامتحان ، كيف صاروا في مرجعهم إليه محواً ؛ لا قولاً ولا فعلاً ولا وصفاً !!

وهٰذه مرتبة العبودية الخاصة ، فوصلوا إلىٰ مقام الشكر ؛ وهو رجوعهم إليه في جميع ما منهم ، وهٰذه طريقة السالكين طريق الترقي في مدارج السلوك ، ومعارج الأحوال في بروج الوصال ، في سماوات الأوصاف ، وكرسي القرب ، وعرش المستوى الرحموتي .

❊ ❊ ❊

فإذا علمت أن ابتداء السلوك الصبر علىٰ مُمِرَّات كؤوس المجاهدة ، وانتهاؤه الشكر على الكشف والمشاهدة .. عقَّبَ ذٰلك بقوله شارحاً لما أسلفه في الحكمة قبلُ ، ومبيناً لأحوال الشاكرين ، وحاثّاً علىٰ ما هو المطلوب الأعز ؛ وهو الشكر على النِّعَم المُؤْذن بدوامها ، والجالب لشتاتها ، فقال رضي الله عنه :

مَـنْ لَـمْ يَشْـكُرِ ٱلنِّعَـمَ . . فَقَـدْ تَعَـرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَـنْ شَـكَرَهَا . . فَقَدْ قَيَّدَهَـا بِعِقَالِهَا

الشـكر : هـو الثناء ، إلا أنـه أعم من ذٰلك ؛ إذ هو : الثناء باللسـان ، والاعتـراف بالجنـان ، واستعمال الأركان فيمـا هـو المطلـوب من خلق الإنسـان ؛ إذ قـال عـزَّ مـن قائـل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والشـكر : مـوردُهُ عام ، ومتعلَّقه خاص ، فالحمـد بذٰلك الاعتبار فردٌ من أفـراده [١] ، وهـو ـ أي : الحمـد ـ بالضد من ذٰلك ، خـاصُّ المورد ، عامُّ المتعلَّق [٢] .

والشكر بحسب أحوال الخلق له ثلاث مراتب : شكر العموم ، وشكر الخصوص ، وشكر خصوص الخصوص .

فالمرتبة الأولىٰ : ألَّا تعصيَهُ بنعمةٍ أنعم بها عليك .

والرتبة الثانية : أن تصرفَ جميع نعمه فيما خُلقت لأجله .

والرتبة الثالثة : أن يشغلك شهودُ المنعِمِ عن رؤية النعمة .

والنعـم : إمـا خاصـة ، وإمـا عامـة ، وإما ظاهـرة ، وإما باطنـة ، وإما دينية ، وإما دنيوية ، وإما حسية ، وإما معنوية .

---

(١) وخصوصه : أنه لا يكون إلا في مقابلة نعمة ، وعمومُ موردِهِ : أنه غير مختص باللسان كالحمد ، بل زاد عليه بالأركان ـ الجوارح ـ والجنان ، عرفاً لا لغة .

(٢) خاص المورد ؛ لأنه لا يكون إلا باللسان ، وعام المتعلق ؛ لعدم اختصاصه بالنعمة ومقابلتها .

وبهٰذا يظهر : أن الحمد أعم من الشكر باعتبار المتعلَّق ، وأخص منه باعتبار المورد ، والشكر أعم من الحمد باعتبار المورد ، وأخص منه باعتبار المتعلق ، فبينهما عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان في صورة ، وينفرد كل منهما بصورة .

فأما النعمة العامة . . فنعمتان لم يخرج عنهما موجود ؛ وهي :

نعمة الإيجاد أولاً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، فذكرك ، ومن ذا يقوم بنعمة مَنْ ذكره قبل أن يذكر ؟! وأي عقل يقوم بشكر ذكر الحقِّ له وهو لم يكن ؟! وفي هٰذا الذكر دخل كل موجود توجَّهَ إليه الإيجاد ، بمجموع العلم البالغ والإرادة النافذة والقدرة الكاملة ، فأي نقص في هٰذه الأوصاف ؟! ومن أنت حتىٰ تتوجَّهَ إليك هٰذه الصفات الكمالية بعد ذكر الذات لك ؟! ولو أخذنا فيما انطوت عليه هٰذه النعمة . . لاستغرق الوقت .

والنعمة الأخرىٰ : نعمة الإمداد ؛ أي : الإمداد بالقيام علىٰ ممرِّ الأنفاس ؛ فما من نَفَسٍ إلا والحق سبحانه يمدُّ العالم ـ حسية ومعنوية ـ بإمداد بحسب مراتب الوجود ؛ فللروحانيين إمدادٌ ، ولأطوار الخلق : من إنس وجن ، وحيوان ونبات ، ومعادن وجماد . . إمدادٌ .

وتلك الأمداد : هي ما تلقيه الأملاك علىٰ دوائر الأفلاك ، وتتصل من الأفلاك بحسب اختلافها علىٰ مراتب عالم الملك ، والأركان الأربعة فلها أرواح أربعة ، علىٰ أربع مراتب من مراتب العالم الخلقي ، وكل عينٍ من أعيان الحيوانات تلقىٰ مجموع الأربع المراتب ، وهٰذه النعم العامة يكثر تعداد مراتبها ، ونسب استنادها ، وكل من وصل إليه شيء من هٰذه الأمداد ما عدا الثقلين . . فهو شاكر ؛ لأنه لم يضع ما وصل إليه في غير المراد منه ، فبقي مطالباً بالشكر هٰذا النوعُ الإنساني ؛ لأنه الذي أعطي التصرُّفَ في الأشياء كيف شاء ، ورُكِّبت فيه طبائع أرضية ولطائف سماوية ؛ فالسماء من شأنها الطوع والتمكُّن ، والأرض من شأنها الكره والتلوُّن ، فما كان من الأفعال بالوضع السماوي . . فهو

الشكر ، وما كان من الأفعال بالوضع الأرضي الظلماني . . فهو الكفر .

وأما النعم الظاهرة : فما يعجز عن عدِّها الحصر ؛ فمنها : ما هو في تركيبك ، ومنها : ما هو في ترتيبك .

فمن جملة ما هو في التركيب : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، وتسوية الخلقة علىٰ أعدل هيئة وأتم بُنية ، والحركة ، والسكون ، والنطق ، وسائر نعم الجسم القائم بتركيبه ، وإيصال الأغذية ، وسائر المنافع المختصة بالجسم .

وأما النعم الترتيبية . . فكالعقل ، والعلم ، والقابلية ، والأوصاف القلبية ، والمقامات الروحانية ، والمراتب الملكوتية .

وأما الباطنة . . فما ادَّخره واستأثر به مما هو الأصلح ، وما اختص به روحانيتك من بين الذرات في عمى الجهل وظلمة العدم ؛ من إلباسها وتحليتها بفيض تجلِّي أوصافه ، وأودع في تلك اللبسة سائر المقامات الدينية ، وقابلها بجميع أسمائه ، فعرفته بكلِّ مظهرٍ من مظاهر مراتب الوجود ، فلم تجهلْهُ في كل مُعاين مشهود ، فتكون في كل ما تجلىٰ عليها من الأسماء بحكمه ، لا بما يعطيها الطبع الحيواني والمشهد الظلماني .

وهٰذه النعم لا مطمع في إحصائها ؛ لأن تجليات الحقِّ في مراتب الوجود لا نهاية لها ، وقد علمت أن في كلِّ تجلٍّ نعمةً : إما ظاهرة وإما باطنة .

وتعبيره بالقيد : هو إشارة إلىٰ إدامة النعمة بوجود الشكر والمزيد منها ، قال الله جل ذكره : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ؛ إذ ثوابُ كل طاعةٍ غير ما وعد به من التضعيف والتنمية . . طاعةٌ أعظم منها ، فيكون تضعيف في الظاهر بذٰلك ، وتضعيف في الباطن ما ادَّخره عنده ، حيث

يربيها كما يربي أحدُكم فَلُوَّهُ[1] ؛ إذ القيد : هو ما يمسك به الشيء المغتبط به ، ولكل شيء قيد ، وقيد النعم بالشكر لله ؛ لأن الملك إذا أهدىٰ إلىٰ أحد خاصته هديته ، وقبلها علىٰ أحسن وجه ، وعمل بها فيما يرضىٰ منه الملك عمله . . فحريٌّ أن يزيده من نعمه ، ويسدي إليه من مِننه ، وإن لم يقبلها كذلك ، ولم يصرفها فيما هنالك . . فما أجدره بالعقوبة !! وما أبعد عطايا الملك عنه !!

**والعقال** : هو أبلغ في الحفظ من القيد أو زيادة عليه ؛ فحيث لم يعصه بنعمه . . فقد **قيَّدَها** ، وحيث أطاعه بها وصرفها في محابِّ سيده . . **فقد عَقَلَها** ، **فهو أحرىٰ بالزيادة** ، وأجدر بعدم الانفلات وسوء الانقلاب .

والشكر علىٰ كل نعمةٍ دينية أو دنيوية ، وإذا كان [ علىٰ ] النعم الدينية . . فالشكر من أجلِّ النعم ، فلعمري ؛ لقد عجز العبد عن شكر الله إذا كان شكره لله نعمةً تقتضي بانفرادها شكراً ، **فغاية الشكر من العبد** : أن يعترف بأن ما به من نعمةٍ فمن الله .

وفي أخبار داوود عليه السلام : ( يا رب ؛ **كيف أشكرك وشكري لك نعمةٌ منك** ؟! قال : يا داوود ؛ إذا عرفت ذٰلك . . فقد شكرتني )[2] .

فأبلغ الشكر : شكرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « لا أحصي ثناءً عليك ؛ **أنت كما أثنيت علىٰ نفسك** »[3] .

---

(١) روى البخاري ( ١٤١٠ ) ، ومسلم ( ١٠١٤ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من تصدَّق بعدلِ تمرةٍ من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ وإن الله ليتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه ، حتىٰ تكون مثل الجبل » ، **والفلو** : المُهْر ؛ وهو الصغير من الخيل .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ٦/٥٦ ) عن أبي الجلد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه مسلم ( ٤٨٦ ) ، وأبو داوود ( ٨٧٩ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

والكف عن استعمال الجوارح ؛ إذ هي من جملة النعم ، بل من أعظمها ، وصرف النعم في معاصي الله . . أول مراتب الكفر ؛ كما قررنا ذلك .

وشكر الوسائط أيضاً من الشكر ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر القليل . . لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس . . لم يشكر الله »[1] .

وشكر الناس ؛ بأن تدعو لهم في مقابلة ما أوصله الله من النعم على أيديهم ، أو دفع من الأذى على أيديهم كذلك ، وتراهم أسباباً نصبَها الله ، لا لهم ولا منهم ولا بهم .

والعبد : إما ينسب الأشياء إليهم نفعاً ودفعاً ويغيب عن الله . . فهٰذا شركٌ ظاهرٌ جلي ، ومن ثمرته : الذلة لهم ، وتحسين أفعالهم وإن كانت قبيحة ، فهٰذا نفاقٌ لا مرية فيه .

وإما رجلٌ مصطلمٌ لا يرىٰ للوسائط أثراً ، ولا يشهد لها عيناً ، ولا يسمع لها خبراً ، غاب عن الأكوان ، ورأىٰ أن ليس معه ثان ، فحجب عن الأكوان ، ولم يطلع علىٰ ما أودع الله في الموجودات من سرِّ القدرة ، وأبدع فيها من غرائب الحكمة .

والكمال يعطي هٰذا المقام على التمام ، فيرى انفراد الله في الأمر في سائر الأعيان ، فيشهد الوحدةَ في الكثرة ، والكثرةَ في الوحدة ، فلا تطفئ حقيقتُهُ شريعتَهُ ، ولا تحجب شريعتُهُ ظهورَ حقيقته ، فالحمد لله علىٰ ما ألهم ، ونشكره علىٰ ما أنعم .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ( ٢٧٨/٤ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ٨٦٩٨ ) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

ولي في ذٰلك :

الشكرُ قيدٌ ويجلبُ غائبَ النِّعمِ ... من لم يُقَيِّدْهَا فليقبلِ النقمَ

* * *

إذا علمت : أن الشكر قَيْدُ النعمة ، والكفران مفتاح النقمة . . كأنك تقول : إنَّا نرىٰ من يتعاطى المعاصيَ ولا يعمل الطاعاتِ تتزايدُ عليه سوابغ النعمة !!

فاعلم : أن ذٰلك من علامات المكر ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ اسْتِدْرَاجاً : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الخوف : من أحوال المؤمنين ، والأمن : من صفات الغافلين ؛ فأرباب العقول يخافون من الاستدراج بالنعم أكثَرَ ممَّا يخافونه بغيرها ، كما عرفوا ذٰلك من أحوال المبعدين ، وسِيَّما المطرودين ؛ حيث قال الله فيهم مخوِّفاً لعباده ، وزاجراً عن التشبُّه بأفعالهم ، ومحذِّراً عن الاقتداء بأحوالهم من الفرح بالأعراض الفانية الدنياوية ، والانهماك في الملاذِّ البشرية : ( فلما فرحوا بما أوتوا )[1] من النعم والحظوظ العاجلة ، ونسوا الحقوق الربانية ، ونسوا بها الأقسام الآجلة . . ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من المطالب الشاغلة عنَّا وعن أداء حقِّنا ، التي توصلهم إلينا ، ويؤدُّون بها حقَّ شكرنا ، فاغتروا بذٰلك ، وأَنِسُوا إلىٰ ما هنالك من الملاذِّ الفانية ، وقالوا : إن الله ما أعطانا هٰذا إلا وسيعطينا إن كان رجعنا إليه .

فاستطالوا بذٰلك على الفقراء ، وظنوا أن الله ما أعطاهم وزوى الفقراء إلا لحظِّهم وهوان الفقراء ، فرغبوا عن طريق العبودية ؛ التي قطب دائرتها الافتقارُ إلى الله في جميع الأحوال ، والذلَّة التي هي مقتضىٰ حال العبيد ، ونازعوا في أوصافه من الاستغناء والعظمة والكبرياء ؛ فبذٰلك سُلِّطت عليهم دواعي الأهواء ، وانفتحت طرائق الإغواء ، فأُخذوا أخذَ ذي قوة متين بغتة من حيث لا يظنون ذٰلك ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

فانظر واعتبر ؛ فلو كان الذي يُعطىٰ حظوظه الدنياوية أحظىٰ ممَّن

---

(١) كذا في النسخ ، والمراد : قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ .

يُمنعُها . . لانعكس الحكم ؛ بأن تكون أحوال المبعدين من الفجَّار والطغاة الكافرين أحسن من أحوال الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ؛ لأن أحوالَهم في الأغلب العزوف عن الملاذِ الدنياوية ، والابتلاء بالمحن في عموم الأوقات .

ولم يفعل ذلك معهم هواناً لهم ولا احتقاراً ؛ بل ليوفِّر لهم ما لديه ، وجبراً لقلوب الفقراء ؛ حيث سلك بأنبيائه وخيرته وأصفيائه مسلَكَهُمْ ، سيما أعظمهم وأكملهم وأرفعهم لديه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « الحياةُ حياتكم ، والمماتُ مماتكم »(١) أي : حياتي حياتكم ، ومماتي مماتكم ؛ ليظهر عدله في كافة خلقه ؛ لئلا يظن ذو فهمٍ سقيمٍ أن الأنبياء والأولياء ليسوا بشراً ، كما وقع لبعضٍ من قوم عيسىٰ ، فردَّ الله عليهم ما قالوا ، وأبطل ما حكموا ؛ بأن قال جلَّ ذكره : ﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ .

فهٰذا ما يلقىٰ في الفهم من حكمة ما يصاب به الأنبياء وأكابر الأولياء ، مع ما يريد أن يدَّخره لهم عنده ، ويزلفهم به من جزيل الكرامات ورفيع المقامات ، وهو يقدر علىٰ أن يعطيهم من غير ابتلاء ، ولٰكن يتعرَّف إليهم من سائر الأسماء ؛ ليشهدوه بكل مشهد ، فلا يجهلونه في شيء ، فيصير في حقِّهم بهٰذه المثابة عطاء .

وأما المُستدرَجون ـ والعياذ بالله من وبيل استدراجه ومكره ـ فإنهم إذا عملوا سيئةً . . جُدِّدَ لهم حظٌّ دنيوي ، وإذا عملوا حسنةً . . ظهرت بلية ، فيرون أن هٰذه البلية عقوبةٌ علىٰ هٰذه الحسنة ، وأن ذٰلك الحظَّ

---

(١) رواه مسلم ( ١٧٨٠/٨٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الـذي نالـوه ثـوابُ تلـك السـيئة ، فيخيـل إليهـم أن المثوبة فـي مقابلة السـيئات ، والعقوبة في مقابلة الحسـنات ، فيثبـت عندهم ذٰلك ، فهٰذا من أشد وجوه الاستدراج والمكر ، أعاذنا الله من ذٰلك .

فمـن هنا : اشتدَّ خـوفُ الأكابر عند تجـدُّد النعـم الدنياوية عليهم ، ودوام العوافـي البدنية لديهم ، وعظم فرحهم بوجود المصائب وضروب المتاعـب ؛ وذٰلك لا مـن النقـم مـن حيـث هي نقـم ، ولا للمصائب من حيث هي مصائب ، ولٰكن لِمَا ترتَّبَ عليهن من العواقب ، فإذا لاحَ لهم مـن هٰذا لائح . . طاشـت العقول ، وانزعجت القلـوب من خوف المقام المرهوب ، ولي في ذٰلك :

خَفْ كلَّ إحسانٍ يسديهِ إليك علىٰ ... ما أنـت مجترحٌ من فعلـك الزللِ
وكل مكـروهٍ نـال العبـد منـه فـلا ... يجـزع لـذٰلك إن المثـل بالمثـل

* * *

فإذا عرفت ذٰلك . . فاعلم : أن الإحسان الذي قد يكون به الاستدراج والمكر : إما أن يكون من قبيل النعم الظاهرة ، فذٰلك ظاهرٌ قد يُبتلىٰ به عموم الخلق ، ويعرفه كلُّ أحد ، وإما أن يكون من قبيل الآيات والعلوم والكرامات ، فهٰذا ممَّا يبتلىٰ به المريدون وطوائفُ السالكين المبتدئين ، وهٰذا أشدُّ من كلِ بليةٍ غيره ، وأخفىٰ مما ذكر من الابتلاء بالنعم الظاهرة ؛ لذٰلك عقَّبَ بذكر هٰذا الصنف ، وأبلغ في كشفه ، وحقَّق في وصفه ، فقال رضي الله عنه :

مِنْ جَهْلِ ٱلْمُرِيدِ : أَنْ يُسِيءَ ٱلْأَدَبَ ، فَتُؤَخَّرَ ٱلْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَـٰذَا سُوءَ أَدَبٍ . . لَقَطَعَ ٱلْإِمْدَادَ ، وَأَوْجَبَ ٱلْبِعَادَ ؛ فَقَدْ يُقْطَعُ ٱلْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعُ ٱلْمَزِيدِ ، وَقَدْ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيَكَ وَمَا تُرِيدُ

( مِن ) هنا تبعيضية ، والجهل له وجوهٌ ظاهرة ووجوهٌ باطنة ، والجهل بمجموعه أقبحُ حالات العبد ؛ فظاهره حالاتُ الكفار والعتاة الفجار ، وباطنه سِيما المنافقين والضُّلَّال المغرورين .

والمريد : هو كلُّ طالبٍ لمقصدٍ أو مأرب ، وأشرف المقاصد وأحسن المآرب وأتحف الرغائب . . هي إرادةُ الله مجرداً من غير تعلُّق بمطلب أو تشوُّف لمأرب ، وقد يكون مريداً لما عند الله من الفضل ، وكلهم يشملهم اسم الإرادة ، وأحاطت بهم دائرة السعادة .

وخفاء الجهل في تحقيق الإرادة أولاً ، ثم تحقيق المراد ممَّا يصعب ، إلا علىٰ أفراد المجذوبين ، وجهابذة السالكين المحقِّقين .

والجهل : ظن الأمر علىٰ حقيقته واستقامة طريقته ، والتحقيقُ فيه علىٰ خلاف ما ظنه ، فجهلُ الكفار ظاهر ؛ حيث آمنوا بالطاغوت وكفروا بالله ، وجهل المنافقين حيث خادعوا الله بإظهار الإسلام والبواطنُ علىٰ خلاف الظواهر ، فجهلوا عمومَ العلم ، وأنه لا يعلم مَن خلق ، وعلىٰ هـٰذا المنوال مَن حذا حذوَهم ممن يُظهر خلاف ما يبطن .

وأتىٰ هنا ببعض أحوال المريد في جهله ، والمريد يعزُّ عليه أن ينخرط من سلك الإرادة جملة ، ولـٰكن يسيء الأدب ويَرِدُ موارد العطب ، وسوء الأدب : هو إتيانُهُ فعلاً حظرَهُ الله عليه تحريماً أو كراهة ، أو تركُ

أمرٍ ندبه إلىٰ فعله وجوباً أو استحباباً .

والمريد إذا أينعت له شجرة الأعمال ، وأشرقت عليه أزهار العلوم ، وبرزت عليه مخدَّرات الأحوال من كمائم الوجود . . ربما يطول عند ذٰلك ، ويصول بوجود ما هنالك ، فيستفزُّهُ الحرص علىٰ إظهار ما أودعه ، وإذاعة ما استودعه ، فيبرزُ قبل أوان بروزه ، فتجفُّ عن وابل المريد أشجاره [1] ، وتأفل عن مَشاهد اليقين أنواره ، وتبقىٰ عنده آثارٌ مِن تغنِّي تلك الأطيار ، ويأنس بما يجده من نسيم الأسحار .

فلا يزال يتمادىٰ به ذٰلك ، ويمتاز عن مواطن القرب ، ويدخل في مداخل السوء ، ويبعد عن لذيذ الأنس شيئاً شيئاً من حيث لا يشعر ؛ فحيث لم يحجب جملةً واحدة . . فالحجاب شيئاً بعد شيء ، كما أن الكشف شيئاً بعد شيء ، كما جرت بذٰلك سنة الله ، إلا على الندور يكون الكشف في أقرب وقت ، كما يكون كذٰلك أيضاً السلب ، كما كان من الكشف لجماعة من المجذوبين ، وكان أيضاً من السلب لجملة من المحرومين ، وتسبَّب انجرار بعض الحجب إلىٰ بعض : حتىٰ تستولي جنودُ الظلمة ، فينقادَ بقياد الهوىٰ ، ويتبذخ بفظيع تقبيح الدعوىٰ [2] ، واستحسن من حاله وأعماله ما يستوجب به البعد ، وكلما انكفأ عن رتبةٍ . . وقع في ظلمة ، فثار دخانُ الهوىٰ ، وشهد مقاله باستحسان أفعاله ، ورضي عن نفسه بعد أن كان لها متهماً ، وقام لها بعد أن كان قائماً عليها .

ويقول عند تعاطيه سوء الآداب المقصية له عن الباب : ( لو كان

---

(١) في ( أ ، ج ) : ( عن وابل المزيد أشجاره ) بدل : ( عن وابل المريد أشجاره ) .

(٢) البذخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره .

هٰذا سوء أدبٍ . . لقطع الإمداد ) وقد انقطعت الأمداد التأييدية والنصرة الروحانية ؛ فلولا الجهل وانطماس نور العقل . . لم يَخْفَ قطعُ المدد علىٰ مثل ذٰلك ؛ فالمددُ إذا توالت وارداته ، وأشرقت أنوار آياته . . اضمحلت عنه دواعي شهواته ، وانمحت مظاهر صفاته ، وتلاشت مظاهر ذاته ، فكيف يخفىٰ ذٰلك علىٰ مَنْ له أدنىٰ مُسْكة بصيرة ؟!

وتأخير العقوبة مع نسيان التوبة ، والتمادي على الأخلاق اللئيمة والأفعال الملومة . . من دلائل شدة الانتقام ، والطرد عن المقام ، وقد أوجب البُعادَ أيضاً ؛ فالبعدُ عن الله بانتهاك محارمه ، والجرأةِ علىٰ جرائمه ، فليس من بعد المسافة بشيء ، والبعد عن منازل الاقتراب ، والوسم بسمة الأجناب ، ومنازل الاقتراب أيضاً ليست حسِّية ، وإنما هي مقامات وأحوال معنوية ؛ مثل مقام التوبة والصبر ، والورع والتوكل ، والرضا والتسليم ، وأحوال المواجيد ؛ كالبسط والقبض ، والهيبة والأنس ، والمحبة والخلة ، والمعرفة والقربة ، وغير ذٰلك من الأحوال الشريفة ، والمقامات المنيفة .

فما أبعد مَنْ يسيءُ الأدب مع الله عن ذٰلك !! وما أقصاه وما أجدره بضدِّه من طرق الهوىٰ ، ودركات البعد ومهاوي الإغوا !!

قال : ( فقدْ يقطع المدد من حيث لا يشعر ) ولٰكن الغالب شعوره ، ولٰكن حلاوة الهوىٰ تحكمُ عليه ، ولا تفلته من يديه ، فيتحسَّرُ ، ويسخر به أعداؤه ، فلا هو يقدر علىٰ ترك ما هو ملابسه ، ولا ينسىٰ ما كان مؤانسه ، وترجىٰ من الله التوبة لمثل هٰذا .

والمصيبة : أن ينقطع عنه وهو لا يشعر ؛ كما عبَّر به المؤلف رضي الله عنه ، فيصدق عليه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ، **عافانا الله وأحبابنا والمسلمين** من مكره واستدراجه ، **ولطفَ بنا وبهم كذٰلك** فيما جرت به مقاديره وقضاؤه ، ووفَّقنا لما فيه رضاه ، وأذاقنا حلاوة محبته ، **وأراحنا من مكابدة الهوىٰ** بجذبةٍ وهبية ، ونفحةٍ لطفية .

روى الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراوي في كتابه المعروف بـ « العهود » : بأنه سمع منادياً يقول : إذا أردت ألا يمكرَ بك . . **فقل بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من المكر والاستدراج من حيث لا أشعر ، إنك جواد كريم » ثلاث مرات .**

**قلت** : ويحسن أن يقول في قوله : ( من حيث لا أشعر ) أن يقول أيضاً : **( ومن حيث أشعر ؛ إنك جوادٌ كريم )** .

**ولو لم يكن من عقوبة مسيء الأدب إلا منع المزيد** ، والتخلُّفُ في زمرة أهل التقليد وأهل العدد من العبيد . . **لكفىٰ بذٰلك له زاجراً** ، فكيف وهو لم يقطع عنه المزيد إلا ويخلد إلىٰ مألوف عاداته واتباع شهواته ؟! **فلا يبقىٰ للعبد نفس إلا وهو في** قُربٍ وازدياد ، **وإما في** تقاص وابتعاد .

وبيَّنَ أنه إذا أخذ بالاستدراج . . **يقام مقام البعد** ؛ وهو ما وصفنا من اتباع الشهوات ، والتشرُّبِ في قلبه بحب العادات ، **وينسى الترقِّي في المقامات** ، والتلذذ بالواردات الموهوبات من حيث لا يدري ذٰلك ، ولٰكن على الندور ؛ **كما في حال من قطع عنه المدد من حيث لا يشعر** .

**ومقام البعد** : هو قطع المدد الرباني والفتح الامتناني نفسه ، وعبَّر في قطع المدد بـ : ( حيث لا يشعر ) ، وهنا في مقام البعد بـ : ( لا يدري ) ، **وفرقٌ ما بين الشعور والدرية ؛** فالشعور أبعد عن الدرية **؛ لأن الشعور** يعم الحسَّ والمعنىٰ ، والدرية لا تكون إلا في المعنىٰ **؛ فالشعور**

قد يشعر بالشيء ولا يدريه ، ولا عكس ؛ أي : لا يدري الشيء ولا يشعر ، فكان عدم الشعور بقطع المدد أظهرَ علىٰ بُعد مَنْ قام به من عدم الدرية .

والتخليـةُ والنفسَ من أعظم المصائب ، فلو كان له عند الله قدم . . لم يخل وما يريد ، ولكان بمراد الله لا بمراد نفسه ؛ **فعلامات المقرَّبين** : فـراغ قلوبهم عن جميـع إراداتهم في حركاتهم وسـكناتهم ، **إلا عند** كل مـراد ندبهم الحق إليه ، واجتناب منهـي زجرهم الحق عن الإقدام عليه ، فهم أشدُّ الناس اعتناء ، وأكثرهم اهتماماً بذٰلك ، **فالأدب** : أساس مبنـى الإرادة ، ومفتاح أبواب السـعادة ، **وكل اهتمام أهل الله وخاصَّته بتحقيق النظر في طريقه** .

ولا أوفر حظاً وأعظم قسـماً في ذٰلك من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ إذ الذي تولىٰ تأديبه وأحسـن تهذيبه هو سـيده ومولاه ؛ لذٰلك قال صلى الله عليه وسـلم : « **أدَّبني ربي فأحسـن تأديبي** ، فقال : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ »(١) ، كسـائر الأنبيـاء ؛ **فإن الله** مؤدِّبُهم وولي تربيتهم ومهذبهم ، لـكن لا كتأديب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ لأن الله جمع له أدبَ جميعهم ، وخصَّهُ بمزايا من الآداب ، ولطائف من التربية ، فقال عزَّ من قائلٍ بعدما عدَّ أجلَّاء الرسـل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ ، ولا يؤمر بشيءٍ إلا ويقوم بما أمره به سيده .

والمجذوبون والواصلون أيضاً من الأولياء قد يتولَّى الله تربيتهم من غير واسطة ؛ كما كان الخضر حيث قال الله فيه : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا

---

(١) رواه ابن السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » فاتحة كتابه من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

عِلْمًا ﴾ ، وبواسطة كما السادات الصحابة وسائر [ الأئمة ][1] .

فالشيخ للجميع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأودع أسرار الآداب النبوية يوم برز للأرواح قبل ظهور الأشباح في ذرَّات مخصوصة ، ألبسها حلَّةً من السرِّ الرسالي ، وحلَّةً من السرِّ النبوي ، وحلَّةً من السرِّ الإيماني ، وحلةً من العلم الإلقائي ، وحلةً من العلم النقلي والفهمي ، وحلاها بحلية الهيبة ، وزيَّنها بزينة الأُنس ، ودرَّعها بشعار الخشية ، وتوَّجها بتاج المعرفة ، وبهَّاها ببهجة الجمال . . . إلىٰ غير ذٰلك من مصونات النفائس ، وفاخرات الملابس .

فلما برز صلى الله عليه وسلم إلىٰ عالم الأشباح . . خرج متحلِّياً بكل حليةٍ نفيسة ، ومتلبساً بكل لبسةٍ أنيقة أريسة[2] ، فلما نظرت الذرات إلىٰ هٰذه الصورة الجامعة لمحاسن الجمال ، والمتدرعة بمدرعة الجلال ، وعليها من كل زينةٍ[3] من مراتب الوصال لطيفة . . تعشَّقت تلك الملابس والنفائس إلىٰ أصلها ، فعرفَتْ بعدما جهلت ، ووجدت بعدما فُقدت ، فتعشقت إلىٰ أصلها تعشق الحديد إلى المغناطيس ، فتعطَّفَتْ هٰذه الروحُ الكاملة عليها تعطف الوالد الشفيق على الوليد ، فشكَتْ إليه فرطَ البعد عن تلك المرابع ، والتنائي عن الأوطان ، فقال لها : عندي لكم الدلالة والرجوع إلىٰ أوجكم العلوي ، والتنزُّهِ في مشهدكم الأقدس والمحل الأنفس ، وفتح لهم في كل رتبةٍ باباً ، وأفصح لهم في كل مسؤولٍ عنه جواباً ، وقال لهم : اتبعوا هٰذه المقالة ، واقتدوا

---

(١) في النسخ : ( الأمة ) بدل : ( الأئمة ) .

(٢) الإرس : الأصل الطيب .

(٣) في ( ج ) : ( من كل رتبة ) بدل : ( من كل زينة ) .

بهٰذه الدلالة ، فقالوا : ومن لنا بعد أُفول هٰذه الشمس المحمدية دليلاً ، ولما نطلبه منيلاً ؟

فأبرز تلك الحقائق المودوعة من خباء أرض النفوس الطاهرة ، وأشهدهم : أني قد استخلفتُ فيكم من يدلُّكُمْ علىٰ طريقتي ، ويهديكم علىٰ محجتي ؛ « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل »(١) ، ومن قام بالدعوة . . قام بالرسالة نائباً ، فكان الاقتداء بمن تحلَّىٰ بتلك النفائس ، وتلبس بتلك الملابس . . اقتداءً بالمستخلف .

وإذا نظرت علاماتها ، وطلبت دلالاتها . . وجدتها علىٰ أئمة الصوفية لائحة ، وعلىٰ ألسنتهم الآداب فائحة ، وبأحوالهم يترقَّىٰ كل سالكٍ أواب .

فكل من لم يأخذ من المؤدِّبين بقي بطَّالاً ؛ وذٰلك لأن جلَّ آدابهم في التفتيش عن أخلاق النفس واتهامها ، ومَن صدَّقها في دعواها ، وانقاد بقيادها . . دعته ـ لا محالة ـ إلىٰ مرادها ، فلا يقف علىٰ غوائلها ، ولا يستكسب فضائلها إلا بالاقتداء بإمامٍ بصيرٍ بعيوب النفس ، ينظر بنظر أولي البصائر ، المطَّلعين من الله ما تكنُّ الضمائر .

فإن لم تجد مَن هٰذا وصفه . . فاجعل لك صديقاً ديِّناً ، وأديباً مشفقاً هيناً ليناً ، فإذا وجدت فارغاً عن تهذيب نفسه ، متفرغاً لإصلاح غيره . . فقد عثرت علىٰ كنزٍ جزيل ، ونعمةٍ سابغة ، ورحمةٍ صابغة ، فاشدد عليه يديك ؛ فما أعز مَن هٰذا وصفه ، وأغرب مَن هٰذا نعته !!

---

(١) انظر « المقاصد الحسنة » ( ص ٢٨٦ ) ، و« شرح الزرقاني على المواهب » ( ٧/٣٩٠ ) ، وفي « سنن أبي داوود » ( ٣٦٤١ ) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه : « العلماء ورثة الأنبياء » .

فلا تغتر بكثرة الأعمال من غير آداب ؛ فإنها لا طائل لها دون التأدُّب في الأحوال والأقوال والأعمال [1] ، فمن اغترَّ بحالةٍ صدرت منه من غير اقتداء فيها بشيخٍ من مشايخ الطريق ، وإمامٍ من أئمة التحقيق . . فقد عدم التوفيق ، فكل من لم تجر أفعاله على يد غيره . . فهو مردودٌ من حيث يظن الوصول ، ومن لا له شيخ . . فشيخُهُ الشيطان .

وإياك وصحبةَ من ينتمي إلى الطريق من غير تحقق بآداب السلف ، والسلوك على منوالهم ، واقتفاء آثارهم .

ومن سوء أدب المريد عذر النفس فيما يصدر عنها ، ومعاداة الأقران لأجل استحقارهم إياها ، ومنه : اتباع شهواتها ، وإجابتها إلى ما دعت إليه من شهواتها ، وطلب المعاذير لها من الرخص في تناول مباحات الشهوات ، وترك العزيمة ، والركون إلى الدعة والراحات ، والانهماك في الحظوظ العاجلة من غير مبالاة ؛ فمن تتبع أحوال السلف ، ونظر في سيرهم ، وشاهد أحوالهم . . علم يقيناً : أن كل مريد يطلب الدعة والراحة ، ويترك الجد والاجتهاد ، ويؤثر الملاذَّ الدنياوية . . أنه لم يجئ منه شيء في طريق الإرادة ، وإن بقي على الطلب . . فعلى رسم العادة .

فأول قَدَمٍ يخطوه المريد : الدنيا وما حوته ، والقدم الثاني : الآخرة ، حتى يكون معشعش طائر روحه الحضرة الوصفية ، وفضاء طيران سِرّه في فضاء الوسع الذاتي ، فمتى يكون له إلى هذا العالم الضنك التفاتٌ فضلاً عن أن ينافس فيه ويطمئنَّ إليه ؟!

وعوارض المريد في طريق إرادته كثيرة ، ومهالكه ومعاطبه أكثر

---

(١) الطائل : الفضل والغنى والسعة والعلو .

وأخطر ، سيما إذا كان مقيماً بين أظهر الخلق ، فمنها : الافتتان بطلب القبول عندهم ، والحشمة ، وقبول القول ، وارتفاع الصيت ، والإكرام ، والتبرُّك ، وقضاء الأوطار ، والاعتراض على الأقدار ، بل هي أعظمها ؛ لأنه استدراك على الجناب الإلـٰهي ، ومنازعة في السرِّ الرباني .

ومنها : التسخُّطُ في الأقضية الجارية ؛ لأنه مناقضٌ للعبودية التي من أجلها أنزلت الكتب ودُوِّنت الصحف ، والركون إلىٰ أبناء الدنيا الراغبين الأنتان ، والأحداث والنسوان ، الذين نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم فقال صلى الله عليه وسلم : « إياك ومجالسةَ الأنتان » ؛ فإن صحبتهم مبدأ البعد والهجران ، ومباينة لأحوال الإخوان ، أهل الصفاء واليقين والصدق والإيمان ، وقد انعزل عن ميدان فرسان المجاهدة في طريق العرفان ، وركن إلىٰ أوهامٍ وآراء تخذله في مجالس أهل الصدق ، وتحقره عند مواجهة أهل الحق ؛ فما أقبح حال من استبدل بصحبة الصادقين والسادات المقربين صحبة البطالين ، والأغبياء المغرورين !!

وحالات الصادقين لا تعود من الصفاء في الأحوال ، والإخلاص في الأعمال ، ومباينة مرادات النفس إلى الظُّلْمة والتخليط ، واتباع هوى النفس . . إلا لطردٍ وعدمِ أهلية أزلية لمقام القرب ، وعدم إخلاص في ابتداء الطلب .

وكان من أحوال السلف : أنهم إذا وقفوا فيما يناقض العزيمة . . استأنفوا الإرادة ، وعدُّوا ذلك من أعظم ذنوبهم ، فيجدِّدون له توبة ، ويتوسَّلون إلىٰ رجوعهم إلىٰ مواطن العزائم بمجاهدات وأعمال ، وتبدو لهم عقوبة الاسترسال مع الشهوات المباحة ، كما يعاقب

غيرهم على الذنــوب المحظورة ؛ فالزلة في القرب تعدل ســبعين زلةً مع الحجـاب[١] ، وكانوا يؤاخذون نفوســهم على الخطرات ، وخفايا الخطيئات ، ودقائق النظرات ، ويحاسبونها على خفيات الشهوات .

فهٰؤلاء لا يَقرِنُ الله عليهم حسابينِ ، ولا يجمع عليهم عتابين ؛ لأنهم حاسبوا نفوسهم وأوقفوها بين يديه بالاختيار ، فلم يقم عليهم الحساب في مقام الاضطرار ، فلم يجمع الله على عبده حسابين ولا موتتين ؛ فمن مات عن الشهوات ، وطوىٰ بساط اللذات . . لم تكن عليه إلا الموتة الأولىٰ ، والوقاية من عذاب الجحيم ؛ كما وَقَوا الجنابَ الإلـٰهي بنفوسهم ، وآثروه عليها . . وقاهم عذاب الجحيم ، فانظر قوله صلى الله عليه وسلم : « موتوا قبل أن تموتوا »[٢] .

فمن لم يفهم دقائق الخطاب ، ورقائق فحوى المعاني . . فليس من الإرادة في شيء ، فهَّمنا الله عنه ، ورزقنا حسن التلقِّي عنه ، وجعل لقلوبنا في كل بابٍ من أبواب التنزيل مفتاحاً ؛ إنه المفضل الفتَّاح ، ولي في ذٰلك :

الجهل أقبح حال العبد يعرف من ... شـم الوجـود بنـور العلم يـا فطن

ولي أيضاً في ذٰلك :

إن الأديــبَ بنــور الله مقتبــسٌ ... يدركُــهُ تأييـد عـون الله والمنـنِ
ومَــنْ يكـن ذا يقينٍ فهـو محترسٌ ... في حصنِ أمنٍ من الأخطار والفتنِ
مَــنْ ســاء تأديبـهُ فالنـور مختلَسٌ ... منـه كما يختلَسُ ثـوبٌ عن البدنِ

---

(١) في هامش ( ب ، ج ) : ( « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد . . . » الحديث ) .

(٢) انظر « المقاصد الحسنة » ( ١٢١٣ ) .

قد كان محفوفَ ألطافٍ ومحتبساً عنه العنا الضائر المفضي عن الوطنِ
فأَصبَحْ كما يصبح الحيران مبتلساً ناءٍ عن الحي بعد الأُنس بالخدنِ

* * *

فهٰذا كله في حال المريد السالك ، وهٰذه الآداب من وظائفه ، والسلوك والترقِّي حالة أكثر أهل هٰذه الطريق ؛ فلذٰلك لما عرف العارفون ذٰلك . . نزلوا عن أعلىٰ مقامهم الذي يعطي فناءَهم عن أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وذواتهم إلىٰ مقام المعاملة ، وتهذيب الأخلاق ، وراثة محمدية ، تشريع لعامة السالكين مناهج الطريق ، وتبيين لمعالم التحقيق .

ومقام المقربين لا يسوغ للمبتدئ الأخذ فيه إلا بعد إحكام أساس طريقته ؛ لأن مقام الأبرار مقامٌ شريف ، وهو عمدة السالكين ، ومقام المقرَّبين يقتضي أن ذٰلك سيئةٌ حيث رأىٰ نفسه ، فربما تقف علىٰ أحوال أجلَّاء المقربين ، وأئمة العارفين والمخطوبين المحبوبين ، من سيما أحوالهم ما يقلِّلُ عندك هٰذه المعاملة ، ويصغِّرُ في عينيك ما أقام الله فيه عامَّةَ هٰذه الطائفة .

فاعلم : أن الكلَّ محبوبون ، فلولا محبته وسابق منَّته . . ما استعملهم في أصناف خدمته ، وأدام لديهم واردات موارد القربات ، ووعدهم عليها جزيل المثوبات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا رَأَيْتَ عَبْداً أَقَامَهُ ٱللهُ بِوُجُودِ ٱلْأَوْرَادِ ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ ٱلْإِمْدَادِ . . فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا ٱلْعَارِفِينَ ، وَلَا بَهْجَةَ ٱلْمُحِبِّينَ ؛ فَلَوْلَا وَارِدٌ . . مَا كَانَ وِرْدٌ

إذا رأيت أيها المتفرِّسُ في أحوال القوم ، ومتحرِّي الأحسنِ من مسالكهم **فلا تخلو إما أن تكون من المقربين** ، مسلوكاً بك طريق المحبوبين ، مخطوباً لمواهب العارفين ، متنزهاً في حظائر المجذوبين . . **فلا جرم أنك إذا رأيت ما هم عليه** من البقاء بربهم ، وموافقة إرادته ، والسكون تحت جريان مقاديره ، وما يفاض عليهم من غير طلب منهم ، ولا مزيد تعب ، وطول نصب . . **أنك تستحقر أحوال من يتحرَّون في طريق الأعمال بالتخلُّص عن رؤية الناس** ، والتحرُّز عن ورطة الإعجاب ؛ وذلك لِمَا أبقىٰ عليهم من رؤيتهم ورؤية ما منهم ؛ **فلا ينبغي لك أن تستحقر ما منحوا من دوام الأوراد وورود الإمداد** ، فلو لم يكن وارد من الله اختصاصي . . **ما كان ورد** .

وفي تلك الحكمة تسكينٌ وتطمينٌ لقلوب المريدين ممَّا أزعجها من عظيم العتب ، وخوف وبيل المكر ، فلا يكاد سالك إلا ويوجد منه سوء أدب ، **ومن الذي وفَّى الأدب مع الله حقه ؟!**

فتنزعج القلوب لذلك ، وربما تستحقر الأعمال ، فلا تلتفت إليها ؛ **لأنها لا تُؤمن من دخول الآفات عليها** ، فعقَّبها بهٰذه الحكمة ؛ تسكيناً لانزعاجها ، وتقويماً لميلها واعوجاجها ؛ **فاستحقار الأعمال جهلٌ واغترار** ، وما يوجد به في طريق العارفين والمقربين ، والمحبوبين المجذوبين إلا القليل ، وانتهاءُ سير السالكين ، ومحتد مقصد المريدين ،

هٰذا المقصدُ الشريف ، فلا بدَّ وأن يوصل كل سالكٍ مقصده ، وكل صادقٍ محتده .

وأقل حالاتهم : الأجر الجزيل ؛ حيث قال الله فيهم : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، فقد غمر الجميع بعميم فضله ، وأحاطت بهم دائرة إحسانه وامتنانه .

والأوراد : هي أصناف وظائف العبادات ؛ من صلاة وتلاوة وذكر وسرد وهو الصوم ، وأفضل الأوراد البدنية : الصلاة ، وأفضل الأوراد القولية ذكر : ( لا إلـٰه إلا الله ) ، أو : ( الله الله ) ، أو : ( هو هو ) ، وهٰذا في طريق الفتح والترقِّي في المعارج الروحية ، والبروج السماوية ، والمدارج النفسية .

وأما في طريق الكسب والتضعيف . . فيجمع فضائلها ويلمُّ متفرقها مجموعُ الباقيات الصالحات ؛ وهو عند العلماء : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها فتحٌ أيضاً ، وتقوية على الواردات الحقِّية ، يستعين بها من غلبته وقهرته ، وفيها من الفضائل الدينية والدنيوية والحالية والبرزخية والحشرية وللجواز ما لا يحصىٰ كثرة ؛ فمن ذٰلك : كفاية الهموم ، وتفريج الكروب ، ودفع الغموم ، ومنها : الشفاعة ، ومنها : المحبة في القلوب ، ومنها : قضاء الحوائج الدينية والدنيوية والأخروية ، ومنها : البركة في الرزق ، وقرب المناسبة النبوية في المجالس العلوية ، والدرجات الفردوسية ، وغير ذٰلك كما صحت به الأحاديث ، وتركنا إيراد الأحاديث الواردة في ذٰلك ؛ لطول إسنادها ، وتعديد وجوهها ،

وعدِ رجالها ، وليس هٰذا الشرح موضوعاً لذٰلك .

والاستغفار ، وقد ورد فيه أيضاً أحاديث منها : « منْ لزمَ الاستغفارَ . . جعلَ الله له من كل همٍّ فرجاً ، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً »[1] ، وغير ذٰلك .

وأما الصوم . . ففيه من تنوير القلب ، وضعف حجاب النفس ، وإرغام الشيطان ، ومجازفة الأجر ممَّا لا يرغبُ عنه إلا كلُّ بطَّالٍ متهاونٍ في الطلب لطريق الآخرة .

وأما الأوراد القلبية . . فكالفكر في باهر صنع الله ، ومحاسبة النفس علىٰ دقائق الخطرات ، والمراقبة علىٰ ممر الأوقات ، والمشاهدة للأرواح ، والاستغراق للأسرار .

والإمداد : هي هٰذه الوظائف القلبية ، والمشاهد الروحية ، والتنزُّلات الوصفية ، فهٰذه هي الإمداد الواردة علىٰ أسرار العارفين وأرواحهم وقلوبهم من الله تعالىٰ بلا علَّةٍ في ذٰلك ؛ لأن هٰذه من باب الأحوال ، والأحوال وهبيةٌ لا كسبية ، والأوراد من طرق الكسب ، والعبد مخاطبٌ بالسعي فيها ، فتنسب إليه بحسب ورود الخطاب إليه ، وإلا . . فالكلُّ حقيقة من باب الوهب .

وعلامة أنه مرادٌ من الله بها ـ أي : الأوراد ـ إدامته عليها ، وحصول النتيجة ، ومن أقامه في خدمته . . فقد أظهر عليه آثار عنايته ، ومنحه سرَّ ولايته ، فلولا أنه من الله بمكانة . . ما أقامه في خدمته ؛ إذا أردت أن تعرف ما أنت عند الله . . فانظر إلىٰ ما أقامك فيه[2] ؛ فإنه لا يختصُّ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » ( ١٠٢١٧ ) ، وابن ماجه ( ٣٨١٩ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) كما سيأتي ( ص ٣٦٣ ) في الحكمة ( ٧٣ ) .

لخدمته إلا صفوة بريَّته ، وأهل تقيته ؛ وهم أولو التقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض ، ولا نطيل في ذٰلك ؛ ففي الإشارة إلى بيان كلام المصنف كفاية ، ولي في ذٰلك :

إقامة الله لَكْ في الورد يا ٱنسانِ ... فضلٌ ومكرمةٌ من جُودِ منَّانِ
لا تحقرَنْ ما مَنَحْ من برٍّ وإحسانِ ... لولا العنايةُ ما أُهِّلْ لذا الشَّانِ

* * *

ثم أخذ في بيان حال الفريقين المسلوك بهم سبيل التعريف ، والمسلوك بهم طريق التكليف ؛ وهم العبَّاد ، وعامة السالكين الزهاد ، فقال رضي الله عنه :

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ ٱلْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ ، وَقَوْمٌ ٱخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ :
﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

( قوم ) أي : جماعةٌ كثيرة ، وهم : مَنْ قاموا من غير مقوِّمٍ لهم من جنسهم ؛ لكثرتهم وغلبتهم ، وشدة استقامتهم علىٰ محجتهم ، ( أقامهم الحقُّ ) وهو الله ، وإشارته بالحق لينفي الوسائط والأسباب ؛ لأن الحق : ما لا يبقىٰ للباطل معه ذكرٌ في إيجادٍ ولا إعدام ، ولا إحجامٍ ولا إقدام ؛ بل يذهب ويضمحل ؛ قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ .

وأتىٰ بلفظ الإقامة ؛ لأن القائمين في مقامات الخدمة لا يكاشفون بعدُ بطريق الاختصاص والمنَّة ، والإقامة فيها إشارةٌ إلىٰ رائحة قهرية ، وبقية أرضية ، فهم السالكون طريقَ التكليف ، يهذِّبهم بخوف سلطان جلاله ، ويربِّيهم بلطيف تعطف جماله .

( وقوم اختصهم بمحبته ومعرفته ) فالاختصاص من غير استحقاق وتقدُّمِ سبق طلب ، وهو من باب المنة واللطف والضِّنَّة ، ولا وسيلة لهم إلىٰ ما اختصوا به إلا محضُ تكرُّمٍ بسابق المشيئة .

والمحبة أشرف خلة ، وأرفع رتبة يختصُّ بها أفراد الرجال ؛ لذٰلك كانت نصيبَ الحبيب صاحبِ المقام المحمدي ، والمحبة لها مقام عظيم عند أرباب الكشف ، ومحبة الله فردانية ، لا مناسبة بينها وبين محبة الخلق ، كما لا مناسبة بين الله وبين خلقه ، ولا يزال يترقَّىٰ إلى الله والله يقرِّبه إليه ، ويوالي الحق والله يتولاه ؛ فالحق نائبٌ عنه في عالم خلقته ، والعبد نائبٌ عن الله في ظهور حقيقته ، وهٰكذا .

والمعرفة : فرع المحبة للمحبوبين ، والمحبة : فرع المعرفة

للســــالكين ، وبين علماء هٰذا الشأن خلاف في أن الأصل المعرفة ، والمحبة متفرعةٌ عنها ، وعند قوم : المحبة أصل ، والمعرفة فرعٌ عنها ، والحق ـ والله أعلم ـ : أنه ينظر في ذٰلك إلىٰ ما أشـــــرنا إليه من حالة السالك والمجذوب ، والمحب والمحبوب .

والمحبة من الحُب ؛ وهو الإناء الذي يجتمع فيه الماء .

والمحبة تشير إلىٰ رتبة الجمع ، وذهاب الأوصاف الحدثانية من البصر والسمع ، وكلا الفريقين القائمين بعمارة تَينِكَ الطريقين ممدودون بالعطاء الرباني ، ومجموعون تحت تجلي اسم المعطي الصادر عنه كل عطاءٍ وهبي أو كسبي ، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ، فكلُّ مربوبٍ له عطاء مخصوص ، ونصيبٌ غير منقوص ، فلا حصرَ لعطائه ، كما لا حصر لوصفه ، كما لا حصر لذاته ، لٰكن التفاوت من حيث المعطَوْن لا من حيث المعطي ولا من حيث العطاء بالنسبة إليه ، فالكثير كالقليل إليه ؛ لأن الوصف توجَّهَ إلى الكل الحقير والخطير ، ولا تفاوت في وصفه ، وإنما التفاوت من حيث مراتبُ المخلوقين من حيث نسبتُهُ إليهم ، وهنا لوائح تلوح ، وروائح تفوح ، تشم من قوله عزَّ من قائلٍ : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ من حيث نسبتها إلى الوصف وقيام الرحمة بها ، فأضاف العطاء إليه وأتىٰ بنون الجمع ؛ ليفهم ما رمزنا إليه ، ويتحقق ما أشرنا إليه ، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

فصدور مدد المجذوبين المحبوبين بتجلٍّ وصفي ، وصدور عطاء السالكين بتجلٍّ فعلي ممزوج بمظهر خَلْقي ، علم ذٰلك من علمه ، وجهله من جهله ، ولي في ذٰلك :

مَنْ خصَّهُ اللهُ بالتعريفِ قامَ له ... كلُّ الوجودِ بتعظيمٍ وإكرامِ

ونـال مـن ربّـه مـا لا ينـالُ لـه إلا بتوفيـــقِ مَحْفـــوفٍ بإنعـــامِ
ومَـنْ يكن فـي مقامِ الكـدِّ كان له إلـىٰ مقـامِ الرضـا والصـدقِ إقدامِ
فالـكلُّ مشـمولُ والتوفيـقُ نائلـه مِـنْ رتبةِ آحسـانِ وآيمانِ وإسـلامِ

وذٰلك لحكمةٍ منه بالغة ، لا لعلةٍ ولا بعلة ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ ، فلا للعبد فيما يرد من الله تعمُّل ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## قَلَّمَا تَكُونُ ٱلْوَارِدَاتُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ؛ صِيَانَةً لَهَا أَنْ يَدَّعِيَهَا ٱلْعِبَادُ بِوُجُودِ ٱلِٱسْتِعْدَادِ

قلَّما تكون ـ على الموجودين المحجوبين بالكون ـ الوارداتُ إلا بغتة ؛ **يعني غالباً إتيانُها بغتةً** من غير تربُّصٍ وترقُّب .

**والواردات :** هي ما يردُ على القلوب والأرواح والأسرار من الله من الألطاف والفتوح الوهبية ، والمنوح الوقتية .

**وهي :** إما من طريق تجلِّي الأفعال ، أو من طريق الصفات ، أو من تجلِّي الذات .

**وهي أيضاً** مختلفة التأثير ، واحدة المورد ، **فمن الوارد عليه :** من يتجلَّىٰ له الاسم البصير ، أو السميع ، أو العالم ، أو القادر ، أو الحي ، أو المتكلم ، أو المريد ، أو من بقية الأسماء ؛ إما أسماء النعوت ، أو أسماء الأفعال .

**فإذا ورد وارد الاسم البصير . . نفذت بصيرته** لسائر المدركات والمتخيَّلات ، والمعاني المتجسِّدات المتشكِّلات بالصور الحسِّيات .

أو ورد **وارد تجلي الاسم السميع . .** فيسمع كلَّ المسموعات بالحسِّ والمعنىٰ بسمعٍ لا يشك فيه ولا يمتري ، **بل يسمع نطقَ الجمادات ،** بفصيح التسبيح ناطقات ، وصريرَ الأقلام العلويات ، على الألواح السفليات ، **ويفهم سائرَ اللغات الكونيات ،** والإشارات **الغيبيات ،** وهـٰكذا يسمع الخطاب الأزلي بسمعٍ ثابتٍ من غير أصوات حرفيات .

**وكذا ورود تجلي الاسم القادر والمريد . .** فتنفعل له سائر المقدورات ، وتمتثل إرادتَهُ سائرُ المرادات المكونات .

وإذا ورد وارد تجلي الاسم العالم . . يعلم كلَّ المعلومات من حيث القَدْرُ اللائق علمُهُ بالإنسان ، وهو علم كليات العالم لا جزئياتها ، والله أعلم ، فلا تعزب عنه علوم المكوَّنات الملكيات والملكوتيات والجبروتيات ، ويعلم سرَّ الكلمات التي ينفد البحر لو كان لها مداداً ، والشجرُ لو كانت أقلاماً دون إحصائها ، والوقوف على غايات نهاياتها ومبادئها .

وكذا المتكلم يفصح عن غرائب الكلم ومجموعها بتعبير قدسي ، ولسان أزلي .

وكذا الحي إذا ورد من تجلي الاسم الحي . . يحيي مواتَ النفوس والجهل ، وكذا كلُّ ما توجَّهَ إليه . . حَيِيَ ، فتحيا به العباد والبلاد .

وهٰكذا اختلاف مواجيدهم باختلاف هٰذه التأثيرات ، وقد تتعاقب على الواحد هٰذه الواردات ، ويطلق له التصرُّفُ بسائر هٰذه الصفات ، وكذا إذا ورد وارد اسم نعت أو اسم فعل . . كان حالة مَنْ وردَ عليه ذٰلك الاسم .

ولا تحصى الواردات ؛ لعدم حصر الأسماء التوقيفيات ، وما استأثر به على عالم الغيب والشهادات ، فلا تُحصى متعلَّقاتها ، ولا تنتهي آياتها ، ﴿ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ .

ومن استُودعَ سرّاً من هٰذه الأسرار ، وحظي بهٰذه الأنوار . . فعليه أن يصونَها كما صانها الله عن دعوى العباد ، والصيانة : هي ستر الشيء النفيس الغالي ، ولا أنفسَ من مواهب الله ، ولا أعلى ولا أغلى من أسرار الله عند عباد الله العارفين ، فهي حَرِيةٌ أن تُصان ، وتُكرمَ ولا تُهان .

والدعوىٰ من جهل النفس المفطورة عليه ، فإذا وافق فعلٌ من الله إليها فعلاً آخر من أفعال الله قد ظهر عليها .. فتجهلُ كونَ الفعل الأول من الله ، وتضيفه إليها .

وإذا وافق الفعلُ المتأخرُ وجودُه الفعلَ المتقدِّم .. نسبت الفعل المتأخِّر إلى الفعل المتقدم ، ونسبت المتقدم إليها ، وجعلته أصلها ، وأضافت بعض الأفعال إلىٰ بعض ، وهٰكذا تنسب الأول إليها ، وتنسب الثاني للأول ، فتظنُّ لغباوتها وجهلها أن الأفعال بها ومنها ، وهٰذا من الجهل المركَّب من جهلين :

فالأول : نسيانُها بروز الفعل الأول من الله وهي بعدُ لم تكن شيئاً مذكوراً .

والجهل الثاني : حيث ظنَّتْ أن الفعل الثاني مستندٌ غير مستمد .

والاستعداد : هو ما خلقه الله في كل فطرةٍ لما فطرها عليه من خير وشر ، فأعدَّ أفعال الخيرات وطهارة الأخلاق لظهور السعادات ، ورذائلَ الأخلاق وقبائح الأعمال لما سبق من الشقاوة .

وبالإشارة إلىٰ ذٰلك يقال : الطيبون للطيبات ، والخبيثون للخبيثات ، فلما قد جعل الله ذٰلك الاستعداد في سائر الذرَّات .. لطف بعباده ، وتلطَّف لهم في إيصال ما منَّ به عليهم ؛ لئلا يوافق فعلُ الله الذي لم يلابسه المظهر الخلقي واللبس البشري ما قد لابسه ذٰلك واستتر به ، وامتزج صريح بروزه من الله صرفاً بظهور الخلق المتوهَّم ، فيقوم الجهلُ الكامن فيدَّعي أنه وجدَ ذٰلك باستعداده .

فأوردها الله بغتةً رحمةً منه بعباده ؛ ليعرفوا بذٰلك عنايةَ الله بهم ، وتمام نعمته عليهم ، وورود منَّته إليهم ، فيفزعون إلى الله بالشكر علىٰ

ذٰلك ، فيزدادون من الألطاف المتوالية ما لا يتناهىٰ من الأضعاف ، ولي في ذٰلك :

الـواردات علـىٰ حَسْـبِ المواجيدِ    لهـا مظاهـر والمجمـوع توحيـدِ
فـلا تـرد فـي مظاهِرْهـا بتوريـدِ    لأنهـا من خزيـنِ الفضـلِ والجودِ
فليس فيها سـوى المنـان محمودِ    وكل غيـرِ سـوى المِفْضـال مفقودِ

* * *

فإذا علمت أن المواهب النفيسة تُصان ولا تُذاع ؛ لأنها من أسرار القدر والإبداع . . لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ، وَذَاكِراً كُلَّ مَا عَلِمَ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ جَهْلِهِ

إذا أردت أن تعرف حالَكَ أين أنت من أهل العلم والأمانة ، أم أنت من أرباب الجهل والخيانة . . فاعرض نفسك علىٰ مثل هٰذه العبارة ؛ فالإجابة عن مصونات العلوم ، ونفائس المعارف ، ولطائف الحقائق ، وجواهر الدقائق ، وغوالي الرقائق . . لا يسمح بالإجابة بها لكلِّ مَنْ سأل عنها من غير أهلها ، إلا إذا أُريد التشويقُ إليها ، والدعوة بها بجواب يليق بالسائل ، ويحسن عنده طلبها ، ولا يجيب علىٰ غير هٰذه النية كلَّ سائل إلا جاهلٌ بها ؛ إذ لو عرف قدرها ، وتحقَّق سرَّها . . لضنَّ بها ، وغار علىٰ ظهورها ، فكل من عرف نفاسة شيءٍ . . لا يسمح بظهوره ، بل يغيِّبُهُ ما أمكنه بتورية وتغييب وإن كان عند من يجهله ، فترى الوحوش وسائر الحيوان يغيِّبُ ولده ما أمكنه ؛ لأنه أنفس ما عنده ، وأحبُّ ما لديه .

( ومعبراً عن كل ما شهد ) فالإجابة عن العلم علىٰ حقيقة ماهيته ، والتعبير عن الحقائق المشهودة ؛ لأنها لا يمكن تفهيمها علىٰ ما هي عليه إلا أن يعبر عنها إلىٰ مشهود في الحسِّ ، والاعتبار من صفات أولي البصائر والاستبصار ، ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ؛ فالعبور عن مشهودٍ حسي إلىٰ كل غائبٍ معنوي . . شأنُ أولي النهىٰ من كُمَّل العلماء ، والتعبير عن المغيبات بالحسيات غير منكور ؛ كما عبَّر صلى الله عليه وسلم باللبن الذي رأىٰ أنه شربه : أنه العلم [1] .

(١) رواه البخاري ( ٨٢ ) ، ومسلم ( ٢٣٩١ ) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

ذٰلك ، فيزدادون من الألطاف المتوالية ما لا يتناهىٰ من الأضعاف ، ولي في ذٰلك :

الـواردات علـىٰ حَسْـبِ المواجيدِ ... لهـا مظاهـر والمجمـوع توحيـدِ
فـلا تـرد فـي مظاهِرِهـا بتوريـدِ ... لأنهـا من خزيـنِ الفضـلِ والجودِ
فليس فيها سـوى المنـان محمودِ ... وكل غيـرٍ سـوى المِفْضـال مفقودِ

* * *

**فإذا علمت** أن المواهب النفيسة تُصان ولا تُذاع ؛ لأنها من أسرار القدر والإبداع . . **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ، وَذَاكِراً كُلَّ مَا عَلِمَ .. فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ وُجُودِ جَهْلِهِ

إذا أردت أن تعرف حالَكَ أين أنت من أهل العلم والأمانة ، أم أنت من أرباب الجهل والخيانة .. فاعرض نفسك علىٰ مثل هٰذه العبارة ؛ فالإجابة عن مصونات العلوم ، ونفائس المعارف ، ولطائف الحقائق ، وجواهر الدقائق ، وغوالي الرقائق .. لا يسمح بالإجابة بها لكلِّ مَنْ سأل عنها من غير أهلها ، إلا إذا أُريد التشويقُ إليها ، والدعوة بها بجواب يليق بالسائل ، ويحسن عنده طلبها ، ولا يجيب علىٰ غير هٰذه النية كلَّ سائل إلا جاهلٌ بها ؛ إذ لو عرف قدرها ، وتحقَّق سرَّها .. لضنَّ بها ، وغار علىٰ ظهورها ، فكل من عرف نفاسة شيء .. لا يسمح بظهوره ، بل يغيِّبُهُ ما أمكنه بتورية وتغييب وإن كان عند من يجهله ، فترى الوحوش وسائر الحيوان يغيِّبُ ولده ما أمكنه ؛ لأنه أنفس ما عنده ، وأحبُّ ما لديه .

( ومعبراً عن كل ما شهد ) فالإجابة عن العلم علىٰ حقيقة ماهيته ، والتعبير عن الحقائق المشهودة ؛ لأنها لا يمكن تفهيمها علىٰ ما هي عليه إلا أن يعبر عنها إلىٰ مشهود في الحسِّ ، والاعتبار من صفات أولي البصائر والاستبصار ، ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ؛ فالعبور عن مشهودٍ حسي إلىٰ كل غائبٍ معنوي .. شأنُ أولي النهىٰ من كُمَّل العلماء ، والتعبير عن المغيبات بالحسيات غير منكور ؛ كما عبَّر صلى الله عليه وسلم باللبن الذي رأىٰ أنه شربه : أنه العلم[1] .

(١) رواه البخاري ( ٨٢ ) ، ومسلم ( ٢٣٩١ ) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

والتعبير سيما كل عالم بصير ، وهو من شواهد التنوير على حاسة الضمير ، فإذا عبر عن كلِّ مشهود من أسرار الوجود . . فقد تنطمس الحدود ، وترفع الستائر ، فتنكشف الأسرار المأمور بصيانتها ، المندوب إلىٰ حفظها عن إذاعتها ، ولٰكن التعبير فيما يحسن عنه التعبير ، والسكوت عما يحسن فيه السكوت . . شيمةُ الأكياس ، ودليلٌ علىٰ وفور العقل والأمانة والحفظ ، وضد ذٰلك بضده [1] .

( وذاكراً كلما علم ) يتبذخ ويتمدَّح بما علمه ، ويطول بكل ما فهمه ، فيذكره في معرض الفخر بزيادة الفطنة ، وكمال القريحة ، وصحة الحافظة ، وتمام العقل ؛ فهٰذه صفات الجهَّال ، وطريق الضُّلَّال ، وأحوال العلماء بالضد من ذٰلك كله ؛ فإنهم كانوا يراعون فيها أحوال السائلين ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي أحوال السائلين ، ويفصح لكلٍّ عما يليق به ، فكذٰلك العالم ينبغي له أن يتفرَّس أحوال السائلين ، ولا يفشي الأسرار ، بل يكون في الأمور الذوقية اعتماده فيها الإشارة ؛ لأنها لا تفهم إلا بها ، ولا يدعي على الله الإحاطة بجميع المعلومات ، وأنىٰ لك فيما سبق من قولنا : ( إذا تجلىٰ عليه بوصف العلم . . علم سائر المعلومات الداخلة تحت حيطة الكون ، لا الخارجة عنه ؟! ) [2] ، فالعالَمُ بأجمعه معلومٌ من معلوماته .

---

(١) وفي « منهاج العابدين » ( ص ٣٧ ) عن زين العابدين رضي الله عنه :

إنـي لأكتـم مـن علمـي جواهـره ... كـي لا يرى الحق ذو جهـل فيفتتنا
وقـد تقـدم فـي هـٰذا أبـو حسـن ... إلى الحسين وأوصىٰ قبله الحسنا
يـا رُبَّ جوهـر علـم لـو أبـوح بـه ... لقيـل لـي أنـت ممـن يعبـد الوثنـا
ولاسـتحلَّ رجـال مسـلمون دمـي ... يـرون أقبـح مـا يأتونـه حسـنا

(٢) تقدم قريباً ( ص ٣٤٩ ) في الحكمة السابقة .

وأيضاً فالعلم بذلك لا من حيث هو ولكن من حيث ما تجلَّىٰ عليه واستغرقه عن وجوده ؛ فالعلم باقٍ علىٰ وصفيته لله عزَّ وجلَّ لا لغيره ، وإنما ظهر علىٰ من تجلَّىٰ عليه إلا من حيث المقابلة والاستشفاف[١] ، كما يقابل الصورة المرآة الصقيلة ، فتحكي الصورة من غير انتقالٍ للصورة عن ماهيتها ، ولا خروج للمرآة عن كونيتها ، وكلما ازدادت المرآة صفاء . . اختفىٰ جرمها ، وظهرت الصورة ، حتىٰ يظن من لا علم له أن الظاهرة الصورة مجردة من غير واسطة ، ويظن انعدامَ المرآة فلا وجودَ لها ، وكلَّا ؛ إن المرآة علىٰ صورتها ، والصورة علىٰ ماهيتها ، وهنا قال من قال من أهل الشطح والاصطلام بما قال ، وفاه بما فاه ، وعلم من علم من أهل الكمال والتمكين ، فأعطىٰ كلَّ شيء حقه ، ووفىٰ كل مستحقٍ مستحَقَّهُ[٢] ، ولي في ذلك :

ما كل مسؤولٍ يُحْسِنْ أن يجيبَ بهِ ... نعَمْ ولا كل تعبيرٍ بمشهودِ
وكل معلومٍ فأذكره لطالبه ... وامنعْهُ عن غيره أن الفضلَ محسودِ

* * *

وإذا رأيت أنك لم تظهر لك الكرامات ، ولم تسامحك المقدورات ، ولم تواتك المسرَّات الدنياوية ، ووردت عليك صنوف المصائب وأنواع المتاعب والضرورات . . فلا تحزن لذلك ، ولا تهن لما هنالك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) الاستشفاف : الإبصار من خلال الغير ، وفي النسخ : ( الاستشفاق ) .

(٢) وللصاحب بن عباد كما في « من غاب عنه المطرب » ( ص ١٦٨ ) :

رقَّ الزجاجُ ورقَّت الخمرُ ... فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنه خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنه قدحٌ ولا خمرُ

إِنَّمَا جَعَلَ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ مَحَلّاً لِجَزَاءِ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَٰذِهِ ٱلدَّارَ لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَّ أَقْدَارَهُمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا

( إنما ) هٰذه يؤتىٰ بها للحصر ، والحكمة في تأخير الآخرة الصافية عن المكدِّرات ، والسالمة عن التغييرات ، الدائمة المأمونة الانقطاع والفناء ، وأخَّرها عن هٰذه الدار الموصوفة بهٰذه الصفات . . إلا ليجازيَ بها عباده الخاصّين به دون غيرهم ، الذين لم تستعبدهم الأهواء ، ويجعلها محلاًّ لما ادَّخره لهم من الكرامة ، وأخفاه من قرة الأعين ممّا لا تسمعه أذن ، ولا تراه الأعين .

وذٰلك من أجلِّ كراماته ، وأعظمِ عطياته : أنْ أخَّرَ المستحسَن وقدَّمَ الكريه ؛ لتزول كراهته بوجود إراحته ، فكأنه لم تمسَّهُ الضراء حيث عقَّبها بالسراء ، ومن عظيم عذابه ووبيل عقابه : أنْ يقدِّمَ المستحسَن المستلَذَّ ويعقب المؤلم المستقبَح ، فكأنْ لم يكن ؛ لِمَا تقدم وجودٌ بالنسبة إلى المتأخر عنه [1] ، كما ورد ذٰلك : « إن أشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة يغمس في الجنة غمسة ، فيقال له : ابنَ آدم ؛ هل مرَّ بك بؤس قط ؟ هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا ، وعزَّتك وجلالك ما مرَّ بي بؤسٌ قط ، ولا رأيت بؤساً قط ، وإن أَنْعَمَ أهلِ الدنيا من أهل النار يغمس في النار غمسة ، فيقال له : يا بنَ آدم ؛ هل مرَّ بك خيرٌ قط ؟ هل رأيت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، وعزَّتك وجلالك ما مرَّ بي خيرٌ

(١) يعني : تقدُّم المستقبح على المستحسن صيَّره كأنْ لم يوجد أصلاً .

قـط ، ولا رأيت خيراً قط . . . » الحديث ، أو كما قال [١] .

وسُميت الدار ـ والله أعلم ـ لأنها دورةٌ من دورات الفلك الأطلس ؛ فله دورات عرشية ، ودورات سماوية وملكوتية ، ودورات أرضية شهادية ملكية دنياوية ، ودورات برزخية خيالية ، ودورات أخراوية نشرية حشرية تحقيقية ، ودورات حسابية ، ودورات صراطية جوازية ، ودورات ديمومية : خلدية فضلية ، أو نارية عدلية ، ودارات جمالية ، وتجليات كشفية ، لا تتناهىٰ دوراتها في العوالم الوصفية ، والخزائن الرحموتية ، وإليها الانتهاء : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ .

ولو أخذنا في بيان تَدْوار هـٰذه الفُلُكِ في الأطوار . . لانقضت دون الوصول إلىٰ بيانه الأعمار ؛ لأنه لا حدَّ لمبتدعات الأقدار ، من ابتداء نقطة هـٰذا البيكار ، إلىٰ منتهىٰ ما إليه استدار ؛ لأن منه دورات ظلمات ، ودورات أنوار ، ودورات أرزاق ، ودورات أعمار ، ودورات سعادات ، ودورات شقاوات ، ودورات هواء ، ودورات ماء ، ودورات ضياء ، ودورات شتاء .

والدار واحدة في الكثير والقليل ، والكبير والصغير ، والحقير والخطير ، حتىٰ رأيناها مستغرقة جميع الذرّات ، والحركات والسكنات ، والخطرات والنظرات ، ابتداءً وانتهاءً ، ورأينا في ذٰلك الفلك أن الحركة الواحدة كسائر حركات الوجود من ابتدائه إلى انتهائه علىٰ حد سواء ، وأصغر الموجودات كأكبرها ، وأحقرها كأخطرها من حيث النسبةُ الدورية ؛ وهو سرُّ قوله عزَّ من قائل : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ .

ولم أقف علىٰ من أفصح بعلم هـٰذا التدوار ، ولا من أظهر منه هـٰذا

---

(١) رواه مسلم ( ٢٨٠٧ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

المقدار ، إلا أن إشارات الإمام الطائي الحاتمي تشير إليه ، وتومئ بطريق الإشارة ، وكذٰلك أكابر الأولياء عند إمعان النظر في إشاراتهم تَشَمُّ عبيره ، وتظهر تباشيره ، وترفع أساريره ، وعندما ظهر لي لمحة بارقة من علم ذٰلك . . كاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، وعند انتهاء كل دارة تظهر عجائبها ، وتبدو محاسنها من قبائحها بصورة الدارة التي تليها ، ثم بصورة الدارة التي تلي التي تليها ، وهٰكذا حتىٰ تنتهي إلىٰ نهاية محتدها ، وابتداء دارتها .

وسمي جزاء لإجازة ذٰلك العمل علىٰ وَفْقِهِ كائناً ما كان ؛ لأن كل دورة تدور في مجرتها ، وتسعىٰ في مجرتها ، وأصول الدارات : دارتان صادرة عن دارة ، وتشعبت من الدوائر دوائر ، وخلق دارة فضلية نورانية جمالية ، وخلق أعمال مرضية ، وأرواح جمالية لُطْفية ، وخلق دارة برزخية جامعة للراحة والتعب ، والوسع والضيق ، والظلمة والنور ، والصفاء والتكدير ، وغير ذٰلك من الأضداد ، وخلق محل تمييز يميز فيه الخبيث من الطيب .

وخلق دار فضل ونعمة ، ودار عدل ونقمة ، فأجرى الأرواح الجمالية الصافية السماوية في مجرة الفضل في الأعمال المرضية والراحة البرزخية ، وميزتها في المحالِّ الطيبية في دار الفضل والنعمة ، وجرت الأرواح الأرضية الظلمانية بالعكس من ذٰلك ؛ إنما هي أعمالكم تردُّ عليكم فتجوزون تلك المجرَّات ، فتجزون هٰذه المسرَّات ، وإما أن تجوزوا في مفاوز الهلكات ، في بروج النحوس والشقاوات ، فتجزون هٰذه العقوبات ، والنكال وسائر المؤلمات الجلاليات ، ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

فكل يجازىٰ بوفقه في المقام الأخروي ، ويظهر عليه تعبير المثال الدنيوي بالعكس مما كان عليه في الدنيا ؛ فالكبر جعله بالهوان ، والذل بالعز ، وقس علىٰ ذٰلك سائر الأفعال في الدنيا يعبر عنها إلىٰ تأويلها في الدار الآخرة .

وقد جرَّ سفينة الخضر طوفان المظهر الحقي ، في بحر العلم الإلـٰهي ، الذي لا ساحل له ولا غاية يوصل إليها ، فلنرجع إلىٰ شرح كلام المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

( [ إنما جعل ] الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هـٰذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ) لضيقها وكدرها ، وما هي عليه من التغيير والانقلاب ؛ لأنه ورد : أن آحاد المؤمنين في ملكٍ واحدٍ منهم مسيرة سبع مئة عام ؛ هـٰذا لآحادهم ، وأما ساداتهم . . فما لا يصفه الواصفون ، ولا يحيط بعجائبه المعبِّرون .

( ولأنه أجلَّ أقدارَهُمْ عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها ) إذ لم يجازِ فيها إلا أعداءه ، ويزوي عنها أولياءه إكراماً لهم ، وإدامة لنعيمهم ؛ لأن الدار الآخرة هي مستقر النعيم ، وفيها دوامه ، وبها تمامه ، ولأنها مأمونة الانقلاب ، بل متزايدة المسرّات ، ومتواترة البركات ؛ لذٰلك ادَّخرها لجزاء عباده ، وصرف عنها أعداءه ، وجعل جزاءهم في الدار الفانية الحقيرة قليلة الجدوىٰ ، كثيرة البلوىٰ ، ولي في ذٰلك :

جزا العباد في الأخرىٰ يُسرُّ به مَنْ كان لله في الطاعات مجتهدا
ينال من ربِّه الإكرام مطلبه أن يشهد الله جل الواحد الصمدا
أخَّرْ جزا عبده كيما ينال به في جنة الخلد جار السادة الشهدا

وأكبر الكرامات وأرفع المقامات : النظر إلىٰ وجه الله ، وتعظيم الله ،

حيث يسميه باسمه ، ويرسم إليه رسمه ؛ كما ورد : أن العبد المؤمن يأتيه مكتوب من الله عنوانه : من الحي الذي لا يموت ، إلى الحي الذي لا يموت ، فإذا فتح الكتاب .. وجد فيه : عبدي ؛ اشتقت إليك فزرني ، فيقول : هل جئت بالبراق ؟ فإذا ركب البراق .. غلبه الشوق ، فيحمله الشوق ويتخلف عنه البراق إلى بساط اللقاء[1] ، ولي في ذلك :

إن البراقَ براقُ الشوقِ يحملُ مَنْ ... نـأىٰ عن القُـرْب فاستدعاه مولاهُ

ومن يكن دأبه الكأس اللذيذ فمن ... دنـوه يدنـو ويدنـو منـه إيـاهُ

يدار لَهُ خمرة السَّاقي العقار إذاً ... من غير مزجٍ شهيّ الوَصْلِ يهواهُ

فكأسه الوصل إن حقَّقتَ ذاك لمن ... حظيْ به فيه والمشروب معناهُ

يا رائداً للحِمَى المعهود صوب حياً ... استمطرت من سحاب الإسم محياهُ

※ ※ ※

فالعمل شجرةٌ طيبة ، وثمرته وجدان سرِّ ذلك العمل ؛ إما من طريق الإيمان ، وإما من طريق العيان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) تفسير القرطبي ( ١٤٤/١٩ ـ ١٤٥ ) ، غيث المواهب ( ٢١٦/١ ) .

الوجدان مختلفة ؛ فمن وِجدان في الأعمال بطريق الإيمان علىٰ صدق الوعد بالموعود ، فيسهل لديه عسيره ، وتهون عليه وعوره ، ويتحقَّقُ لديه ظهوره ، ويشرق عليه نوره ، وإما بطريق الشهود والعيان ؛ فتنكشف له ستوره ، وتستولي عليه تباشيره ، وتزفُّ إلى العامل عرائسُهُ وحوره ، وتتغشاه أنوار القرب ، وتشوِّقه لوامع الحب .

**وأول ذٰلك** : مكابدة ومجاهدة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ، وهو طريق الفناء فينا ، ونعوضهم بما ذهب منهم معيَّتنا ، ونشهدهم حسننا وإحساننا ، فنصفهم به ، ونجعله لهم نعتاً ، فنعتهم محسنون ؛ وذٰلك لما ظهر عليهم من حسن معيَّتنا التي لم تبقِ عليهم من أوصافهم وصفاً ، ولم تدعْ فيهم من رؤية نعوتهم نعتاً .

**وورد في ذٰلك** : إذا أخلص العمل لله ، ولا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً ، مثل قوله في الحديث : « من أخلص لله أربعين يوماً .. جالت روحه في الملكوت الأعلىٰ ، وعادت بطرائف الحكم ، فنطق بها قلبه علىٰ لسانه »(١) .

فهٰذا من ثمرات العمل المقبول ، ولا يقبل الله إلا من المتقين ؛ لذٰلك قال : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فهٰذا من ثمرات التقوىٰ ، والتقوىٰ : منها ما هو عمل ، ومنها ما هو علم ، والكل عمل ، وقوله صلى الله عليه

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » ( ١٠١٤ ) ، وأبو نعيم في « الحلية » ( ٥/١٨٩ ) عن سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

وسلم : « من عمل بما علم . . ورَّثه الله علم ما لم يعلم »[1] ، وإذا علمت أن ليس ثَمّ ثمرة للعمل إلا العلم اللدني ، الذي يظهر لك به وجه الصواب في كل عملٍ وحالٍ من الله بلا تعلُّم ولا تعمل ، بل يكون الحق لصاحبه يداً ومؤيداً ، وقلباً وعقلاً . . فهٰذا وما شاكله من ثمرات العمل المقبول .

ولا بدَّ لكل سالكٍ في ابتدائه في الأخذ في العمل من كلفة ، وتجشم تعب ومشقة ، ثم تعقبه الراحة والمسرَّة ، والثمر لا يُوصلُ إليه إلا بعد حركات حسّية ، وتدبيرات معنوية ، يعجز عن الوصول إلى الثمرة من لم يتحمَّل العناء في غراس الشجرة ، وهٰذا معروفٌ لا يمتري فيه ذو قلبٍ سليم ، وعقلٍ سالم ، بل شواهده في الحسِّ ظاهرة ، وأمثاله على الأعمال في المحسوسات متظاهرة .

ومن عمل ولم يجد لذٰلك ثمرة ، ولا للإقبال على الأعمال مسرَّة ، ووجد ضد ما يطلبه ، ولم يصابر الأعمال علىٰ ممرِّ الأحوال . . فليفتش عن إخلاصه في عمله ، ولينظر فيما يقتضي الرد عليه من أحواله ؛ فإنه منه أُتِيَ ، وليجتهد في التفتيش علىٰ دسائس الأعمال ؛ فإنه ربما كان ذٰلك في اعتقاد في الله غير موافق لما هو الصواب عند أهل الحق ، أو في شيءٍ مما يوجب رد عمله عليه ، أو في الأعمال مما يحبط الأعمال ؛ كالقيام علىٰ حالة من أحوال الضلال في الأعمال والأقوال ، فإن رذائل الأحوال واجتراح الأوزار ترتدُّ به الأعمال ؛ كما ورد في حديث معاذ : « إن عمل العبد يعرض علىٰ أهل كل سماء ، فيرد بذنب ؛ حتىٰ يعرض على الله ، فيرد بعدم إرادته به وجه الله »[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ١٠/١٤ ـ ١٥ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » كما في « إتحاف السادة المتقين » ( ٨/٢٦٦ ) .

فانظر ذلك وأمعن النظر فيما يردُّ عملك عن القبول الذي توجد به ثمرات الأعمال ، وتزكية الأخلاق ونمو الأحوال ؛ فإنه رُبَّ ذنبٍ يحرمُ قيامَ ليلة ، وربَّ ذنبٍ يحرم قيامَ سنة ، وربَّ كلمةٍ تقلِّدُ عنه باباً لم ينفتح ذلك الباب إلا بالنزوع عنها(٣) ، وتبديلها بضدها ، ولربما لم يعد إلىٰ ما كان عليه قبل ذلك ؛ فإن الكتاب على البياض قبلُ أوقع من الكتاب فيه بعد المحو من السواد ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .

ولا أعظم من الافتتان بالأكوان ونسيان مكوِّنها ، والحجاب بالأعيان عن مبدعها ومعيِّنها ، وأول الفتنة ـ أعاذنا الله وأحبابنا وسائر المسلمين منها ـ مخالفة الأمر .

فيا إخواني ؛ إياكم وإياها ، فمخالفة الأمر مصارمةٌ ومقاطعةٌ للآمر ، فماذا يجد مَنْ قاطعَ الله وصارمه ؟! فهـٰذه نفثةٌ إلقائيةٌ ألقاها المفضل الوهاب علىٰ قلب عبده ، وأبداها علىٰ شهادته وأجراها علىٰ يده ، ولي في ذلك :

فمَنْ وجدْ ثَمْرةَ الأعمال عاجلةً ... فليحمد الله أهل الفضل والمِنَنِ

عنايةُ الله في الإنسان حاصلةٌ ... فيما تقبله من سرٍّ ومن عَلَنِ

ومن جملة ثمرات الأعمال : إدامتُها عليك ، والاغتباط بها ، والمسارعة إليها ، والنشاط فيها ، وإذا كنت كذلك . . فاعلم : أنك عند الله بمكانة ، وأنه قد رضيك لخدمته ، واصطنعك لنفسه ، واصطفاك لمحبته ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(٣) قوله : ( تقلد عنه ) أي : تغلق .

## إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ .. فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ

إن أردت أيها المريد ، والطالب المستفيد أن تعرفَ قدرك عند الله ؛ هل أنت ممَّن اصطفاه وأحبَّهُ وقرَّبه ، ورفع ذكره وأكرمه وأعزَّه ، أم أنت ممَّن أذلَّهُ وأهانه ، وحرمه وطرده ، ورسمه في جريدة أعدائه ؟ .. فانظر ؛ فإن لكلِّ فريقٍ علامة ، ولكل قوم مَقَامَه ؛ فعلامة فريق الكرامة طريقُ السعادة ، وعلامة فريق الإهانة والبعد طريقُ الشقاوة ، والطريقتان معلومتان .

فالسعادة : هي الأعمال الموافقة للأمر المرضي ، واجتناب النهي المفضي ، وقد ورد في الحديث : « من أرادَ أن يعرفَ منزلتَهُ عند الله .. فلينظرْ منزلةَ الله عنده »(١) .

فإن كان لله معظِماً ومكرِماً ، ولأوليائه محبّاً وموالياً ، ولأعدائه مجانباً ، وعن مناهيه متباعداً ، ولنعمائه شاكراً ، وبمنَّته معترفاً ، وعلىٰ صروف قضائه صابراً ، وعلىٰ كل ما يقرِّبه منه مثابراً .. فليعلم أن الله له معظم ، ولقدومه مكرم ، وعن كل ما يكرهه صارف ؛ فإن الله يوفي عبده بما عامله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ .

والكل حقيقةً من الله ابتداء ، وإليه يعود انتهاء ؛ فهو المتفضِّل بما عامله به عبده ، إذ هو الذي أوجده ووفَّقه وأعانه ، وتقبَّله وأهَّله ، ومنه جزاه في دنياه وأخراه .

وإذا كان العبد عن طاعات الله متباطئاً ، وإلىٰ معاصيه مسارعاً ،

---

(١) رواه الحاكم ( ١/٤٩٤ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ٥٢٥ ) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

ولمحارمه منتهــكاً ، وبأوليائه مســتهيناً ، ولأعدائه مواليــاً ومكرماً . . فليســتدل بذٰلك علىٰ أنه عند الله مهان ، وبعلامة البعد موســوم ، وعن الخيرات محروم ، مــا لم يتداركه بتوبة وعفو وغفران ، وهو المرجو من فضلــه أن يهديَنا ويعفو عمَّا نحن عليه من الجرائم ، وانتهاك المحارم ، وأن يوفقنا لمرضاته ، ويســلك بنا طريق خواصِّ أهل تقاته ؛ إنه الجواد الكريم ، البر الرحيم ، وكذٰلك سائر أحبابنا ومشايخنا وسائر المسلمين ، ويجنبنــا وإيَّاهم مضــلَّاتِ الفتن ، ويقينا من شــؤم المعاصي وضروب المحن ، ولي في ذٰلك :

إذا أردتَ أنْ تقــف يومــاً علــىٰ قــدرٍ
هــل أنــت من أهــلِ قُرْبِ الله فــي الأزلِ
فانظــر إلــىٰ مــا يقيمَــكَ فيــه مقتــدراً
مــن فعــل مكــروه أو من خالــص العملِ
إن العلامــــة تُظْهِــــرْ كلَّ مســــتترٍ
فــي طــي مكنــونِ ما قــد كان فــي الأزلِ
فمــن يكــن فــي طريــق الخيــر منتشــراً
فــذاك محبــوبُ مثــل المثــلِ بالمثــلِ

❁ ❁ ❁

ثم قال متمماً لما قدَّمه ؛ لئلا يغترَّ ذو رأيٍ ضعيفٍ بالطاعة دون الله تعالىٰ ، فلذٰلك قال :

مَتَىٰ رَزَقَكَ ٱلطَّاعَةَ وَٱلْغِنَىٰ بِهِ عَنْهَا .. فَٱعْلَمْ أَنَّهُ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِراً وَبَاطِناً

متـىٰ رزقك أيهـا الطالب والمتعبِّـد الآيب الطاعـةَ ؛ وهي كل أمرٍ محبوب موافق مرضي ، **والطاعة** : رزقُ القلوب ، **ورزقُ الأرواح** : مشاهدة المحبوب ، **ورزق الأسرار** : الاستغراقُ في متلاطمات بحار الأنوار ، **ورزق النفوس** : بمستلذَّات الأطعمة .

**والطاعة** : هي رزق القلوب السماوية ، والنفوس الزكية ، **والطعام** : رزق النفوس الأرضية الحيوانية ، ومتىٰ رزقها ورزقك الاستغناء به ـ **وهو رزق الأرواح** ـ هو الاستغناء به عن كل شيء ؛ **لإقبالها عليه دون كل شيء** ، وهو الفناء به عن الأشياء ، **وهـٰذا هو العبادة الظاهرة** ؛ أي : الطاعة ، والاستغناء به هي العبودية باطناً ، **وهـٰذا المطلوب من العبد** ؛ أن يكون قائماً لله ظاهره بما يقتضيه الأمر ظاهراً ، فانياً عنه باطنه بما يقتضيه الحق باطناً ؛ فإذا كان كذٰلك .. **فقد أكمل الله عليه نعمته وأسبغها** ، وأفاض عليه منَّته وأوسعها ، **ومع العلم بذٰلك يكون** له شاكراً ، ولآلائه ذاكراً ، فيستحقُّ المزيد مما لديه ، **ومع الجهل بذٰلك** ربما ينسى الشكر علىٰ هـٰذه النعم الجليلة ، ولا يذكر هـٰذه المنن النبيلة ، فيتعرض لسلبها ، **ولي في ذٰلك** :

رزق القلوب في الطاعات يعرف ذا ... من كان ذا قلبٍ للعلياء مخطوبا

متـىٰ رُزِقْ ذاك فليعلـم بـأن إذا (١) ... ما قام بالشكر صار الخير مجلوبا

* * *

(١) في ( ب ) : ( بأن ذا ) بدل : ( بأن إذا ) .

وهـٰذه من أجلِّ نعم الله علىٰ عبده ؛ حيث أقامه في عبادته ، واختاره لخدمته ، وشغله به عن رؤيته ، فكان لله ظاهراً وبالله باطناً ، وهـٰذا هو مطلبُ الصفوة الأخيار ، والنجباء الأبرار ؛ لأن خير ما عندهم أن يقيمهم في خدمته ، ويسلمها عن الآفات القادحة فيها .

ومن كان حاله الاستغناء بالله عن الأشياء . . فقد سلمت عبادته ، وتمَّت استقامته ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ . . مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

خير مطلبٍ للعبد من الله : أنْ ينالَ رضا سيِّده ، ورضاه متعلِّق بطاعته بشرط سلامته عن محبطاتها ، فليكن العبد لذٰلك مراعياً في جميع أحواله وأعماله وأقواله ؛ لينال رضا ربه ، ورتبة القرب منه ، التي إليها تطاولت أكابر الأنبياء ، وساداتُ المقربين الأصفياء ، وكل مطلوب دون ذٰلك فهو مشوب وموسوم بالحظ ، ولأن يطلب العبد حق مولاه الذي هو العبادة ظاهراً والفناء عن الأوصاف والأحوال والأعمال باطناً . . أولىٰ به ، وأتم له من أن يطلب ما لا يدري عاقبةَ أمره ، ومصدر ورده ، أفيه الخير أم لا ؟

وإذا كان فانياً عن اختياره ، قائماً بأمر الله . . تولَّى الله رعايته ، واختار له ما هو الأصلح في أفضل الأمور ، فلا تعلمه بما يصلحُكَ ، وقم له بما أمرك .

واعلم : متىٰ كنت كذٰلك . . كنت من العبيد الأدباء ، فيصلح من يكون حاله ذٰلك أن يكون من أخصِّ الوزراء ، فيدعىٰ لذٰلك المقام ، ويخطب ويحظىٰ ، ويزداد في الملأ الأعلىٰ ذكراً .

ومن كانَ مشتغلاً بحظه ، غافلاً عن سيده ، منازعاً له في تقديراته ، ومشاركاً له في تدبيراته . . فيوشك أن يُبعَدَ عن الحضرة ، ولا يثبت له في ديوان الوزراء اسم ، ولا يرفع له هناك ذكر ، بل يدخل في غمار العوام ، والجهال الطَّغام ، إلا أن يستأنف المقام ، ويعود يقتدي بإمامٍ ذي مقام تام ، فيرجىٰ أن تستقيم أحواله ، وتُهذَّب أخلاقه ، وتصفو أعماله .

فأحســـن ما طلب الأدباء ، واشتغل به النجباء : قصرُ الطلب على ما هو مطلوب الحق منهم ، فكانوا يستعيذون من أن يكون طلبهم لمقتضى حظوظهـــم العاجلة ، بـــل كلُّ هممهم متعلقة بتصفيـــة عبوديتهم لله ، وخائفـــون من كل قادحٍ يقدح فيها ؛ خوفاً منهم أَلَّا يتقبَّلَ منهم ، فأكبر مثوبـــة لديهم قبولُها منهم ، وغيبتهم عـــن رؤية ما منهم ، فهم مطالبون نفوســـهم لله على ممرِّ الأنفاس ، متبرِّئون عن الحول والقوة في الأفعال والأقوال وســـائر الأحوال ، لا يشـــغلهم همُّ ما هـــو آتٍ ، ولا تدبير ما لا يؤمـــرون بالتدبيـــر فيه ، بل هم وقـــوف على مقتضى ما أبـــرزه الوقت ، يقومون بمقتضى ذٰلك من العبادة ، لا يلتفتون إلى ماضٍ ولا مســـتقبل ، ولي في ذٰلك :

اطلُـــبْ مِـــن الله توفيقـــاً لخدمتِـــهِ فخيرُ مـــا يطلـــب آن يرضـــاهُ مولاهُ
وكـــن بحقِّـــهْ وأشـــهد ســـبقَ مِنَّتـــهِ ولا تـــرىٰ فـــي جميـــع الكـــون إلَّاهُ

* * *

فإذا علمت شرف القيام بالخدمة ، وانقطاعها عنك بعوارض الأقدار . . فدليل الصدق : الحزنُ على فواتها ، كما يحزن كل محب على فوات محبوبه ، وعلامة الحزن : الحثُّ على النهوض ، وتلافي بقية الوقت ما أمكن ، وإذا لم ينهض الحزن على النهوض ويحثَّ على التلافي . . فهو الحزن الكاذب ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

## اَلْحُزْنُ عَلَىٰ فُقْدَانِ ٱلطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ ٱلنُّهُوضِ إِلَيْهَا . . مِنْ عَلَامَةِ ٱلِاغْتِرَارِ

**الحــزن** : هو تألُّــمُ القلب إما لفوات محبــوب ، أو خوف مرهوب ، والحزن علىٰ فوات المحبوب أظهر .

وكل مــا يوصل إلى المحبوب ويرضــي المحبوب . . **فهو محبوب** ، والطاعة أقرب وســيلة إلىٰ رضا الله ســبحانه فكانــت محبوبة ؛ إذ هي وســيلةٌ إلىٰ رضــا المحبوب ؛ **فلذٰلك يحــزن المحبُّون علــىٰ فواتها** ، ويغتبطون بوجودها ، فإذا وجد الحزن ولم ينهض إلى الإتيان بها . . **فدلَّ ذٰلك علىٰ أنه حزنٌ كاذب** ، ولو كان صادقاً . . **لبادر المَهَلَ** ، وشــمر في تلافي المطلوب .

وإذا كان حزن وبكىٰ من غيــر نهوض إلى الإتيان بالأوامر والانزجار عــن النهي . . **فذٰلك علامة الاغترار** ، ودليــل المكر من الله ، وهو حزن كاذب ، وهو بكاء المغرورين ، فــإذا منع ما ينفعه وأعطىٰ ما يغتر به . . فلا مرية أنه محروم .

وأمــا الحزن الذي يبعــث على النهوض . . **فهو من أشــرف أحوال السالكين** ، وأحسن سمات المريدين ، كيف والقلب إذا خرج منه الحزن خرب ؟!

**والحزن مــن علامات الخائفين** ، وشــعار العلمــاء والزهَّاد ، ودثار الناســكين والعبَّــاد ، **ولليلةٌ من حزين تعدل قيــام أعوام من الفرحين** ، أهل الرفاهــة المترفين ، **المطمئنين إلىٰ زهرة الدنيــا** ، الراغبين فيها ، المشتغلين بها عن التعلُّق برب العالمين ؛ إلٰه الأولين والآخرين .

**وحكاياتهم في ذٰلك كثيرة** ، وأحوالهم فيها شهيرة ؛ كما يروىٰ عن

بعض زهاد هـٰذه الأمة وأحبارها ؛ كالفضيل بن عياض ، ومن حذا حذوه ، ونحا نحوه ، يقال : إنه لم يُرَ ضاحكاً أربعين سنة (١) .

ولا أحق بالاتباع ، وأوصل لمريد الانتفاع ، من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن شمائله : أنه متواصلُ الأحزان ، دائم الفكر (٢) ، ويقال : إنه إذا أحبَّ الله عبداً . . نصب في قلبه نائحة من الحزن ، وإذا أبغضه . . نصب في قلبه مزماراً من الضحك (٣) ، ويروىٰ أن الله يحب كلَّ قلب حزين (٤) ، ولي في ذٰلك :

الحزنُ حالةُ أربابِ السلوكِ ومَنْ ... خلي عن الحزن يحرمْ كل مطلوبِ

إن قارن الحزن عزمٌ فهْو بغية مَنْ ... يَطْلُبْ إلى الله في الأحوال مرغوب

❊ ❊ ❊

فلما أنهى الكلام علىٰ ما تقدَّم . . أخذ في تبيين حالة العارف المحقق من غيره ؛ ممن ينتمي إلى المعرفة دون حقيقتها ، فقال رضي الله عنه :

---

(١) الرسالة القشيرية ( ص ١٠٢ ) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » ( ٢٣١ ) عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٣) الرسالة القشيرية ( ص ٣٦٢ ) ونسبه للتوراة .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٣١٥/٤ ) مرفوعاً من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

لَيْسَ ٱلْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ . . وَجَدَ ٱلْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ، بَلِ ٱلْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَٱنْطِوَائِهِ فِي شُهُودِهِ

ليس العارف المحقق ، والعارف باسم التعريف هو هٰذا ، وهو الذي ينطق عن وجود ، ويشير عن شهود ، قد انطوىٰ في مشهده أعيان الوجود ، واضمحلت لديه تعديدات الحدود ؛ إذ الإشارة : حجابٌ عن الجمع الذي يذهب فيه ظهور الأغيار ؛ لأن الإشارة والمشير والمشار إليه فلا يخفىٰ ما في ذٰلك من ظهور التفرقة [1] ، والبعد عن مقام الجمع الذي هو نعت العارف المحقق ، والواصل المقرب .

**كيف تكون له إشارة ، أو إفصاح عبارة ، وقد غاب عن وجوده ، وفني عن شهوده ، فانطوىٰ واندرج ليل أفعاله ، ونجوم علومه ، وسائر أفعاله وأعماله وأوصافه ، فتلاشت ذاته بظهور شموس المعارف من أفق الإحسان ، الذي تنطوي تحت ظهوره مقامات الإيمان ، ومعالم الإسلام ، انطواء النجوم والأقمار عند ظهور النهار ؟! فمن التحق ذاتاً ووصفاً وفعلاً بالعدم عند تجلي أسرار القدم . . فأين له الإشارة ، والإفصاح بالعبارة ؟!**

وفي اصطلاح الطائفة : أن الإشارة الإفصاحُ عمَّا يتضمَّنه الوجد ؛ قولاً في الأقوال ، وفعلاً في الأفعال ، وحالاً في الأحوال ، ومقاماً في المقامات ؛ **فمنهم من يجد المشار [ إليه ] قبل الإشارة ؛ وهم العارفون ، ومنهم من يجده مع الإشارة ؛ وهم الواصلون إلىٰ مبادئ المعرفة ، ومنهم من يجده بعدها ؛ وهم السالكون الآخذون في طريق**

---

(١) كذا العبارة في النسخ ، ولا يخفىٰ مراد المصنف .

السلوك ولم يصلوا بعدُ ، ولي في ذلك :

إن الإشـــارة تفصِـــحُ كلَّ منبهـــمِ   مـن المعانـيَ مكنـون عـن الغِيَـرِ
والعارفـون لهـم من فـوق ذا همم   نالـوا مقامـاً خلي عـن ذلك النظرِ
ومَـنْ يكُـنْ دون ما قلنـاه محتكماً   في حيطة العلم محبوسٌ فِي الصورِ

والإشارة على ضربين : إشارة حق ؛ وهي : الإشارة إلى الحق بالحق .

وإشارةٌ مردودةٌ غير مقبولة ؛ وهي : إشارة الخلق إلى الحق ؛ لأنه يتعالىٰ عما يقولون علواً كبيراً ؛ إذ لا أين ولا كيف ولا لِمَ .

❋ ❋ ❋

ثم أخذ في بيان الرجاء الحق من الرجاء الباطل الصادق عليه بالأُمنيَّة ، فقال رضي الله عنه :

## اَلرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلَّا . . فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ

الرجاء مقامٌ شريفٌ من مقامات السالكين ، **وحالٌ مرضيٌّ من** أحوال الأبرار ، والعلماء الأخيار ، **وتلتبس به حالة غارّةٌ وخصلة ضارّة** تسمى الأُمنيَّة ، وهي تلبيسٌ علىٰ من لا علمَ عنده بطريق الرجال ، ولا تحقيق بسنيات الأخلاق ورفيعات الأحوال[١] ، **فيظن بجهله ويتخيَّلُ** : أن الرجاء المحمود ، والخير الموعود . . **هو الأُمنيَّةُ الكاذبة** ، التي يتخذونها المفاليسُ من الأعمال عُدَّة ، فيعِدُون نفوسَهُم الأمارة بوسع الرحمة وعظمِ العفو مع ما هم مقارفوه من انتهاك المحارم ، والتبذُّخ بالمآثم ، والتظاهر بالجرائم ، من غير مبالاةٍ بالجناب الإلـٰهي ، **فيجعلون جنابه أهون الأشياء عندهم** ، ويقولون : نرجو حيث لم يؤاخذنا في الدنيا ، ولا قطع عنا الرزق ، وأنعم علينا بأصناف النعم ، وألبسنا العوافي في الدنيا . . **أن يكون لنا في الآخرة أحسن من ذٰلك** ، ونحن عبيده ، وهو يعطي الآخرة كما يعطي الدنيا ، وما شاكل ذٰلك من الأمانِيّ والتغريرات الكاذبة ، **وما علموا أن الدنيا محلُّ التكديرات** ، والآخرة مستقرُّ الراحات ، وأصناف النعيم ، **فلم ينعَّم في دار التكدير غالباً إلا من لم يؤهَّل للنعيم الأخروي** ، والسرور السرمدي .

**والرجاء على الحقيقة** : هو أن تمتثل الأمر ائتماراً وانتهاء[٢] ، **وترجو أن يتقبَّلَ ذٰلك منك ، وأنِ يثيبك عليه كما وعدك بذٰلك ووعدُهُ الحق ، وليتك إذا امتثلت كما أُمرتَ . . تُقُبِّلَ منك .**

---

(١) في ( أ ) : ( وهي تلتبس علىٰ من لا علم عنده بطرق الرجاء ، ولا تحقق . . . ) .

(٢) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : ( ابتداءً وانتهاءً ) .

ولك في حـرث الدنيا مثل ، يعرف ذٰلك من أرسـل نظرَ الاعتبار ، وحقَّق الاستبصار ؛ فلم تجد الأثمار ، ومفتَّقات كمائم الأزهار إلا عند من اتخذ الجهد صاحباً علىٰ ممرِّ الأيام .

فإذا حان إبَّان أوقات الأمطار . . رجا أن يصيب أراضيه ، فإذا أصابها . . رجا أن يخرج له صنوف الأثمار .

وأما من اتخذ البطالة له ديدناً ثم رجا ما رجا صاحب الجهد في طول سنته . . فلا مرية أن ذٰلك اغترار ، واستهانة بجناب الواحد القهار ، أَوَلم يعلم المغرور أنه إذا لم يُجازَ في هٰذه الدار ببطالته إلا حسـرةً وندامة ، أيرى الآخـرة أقـل منها حتىٰ يجازىٰ فيها علـىٰ بطالته غنىً ؟! أو يرىٰ أن الـذي يجزي في الدنيا غيرُ الذي يجزي في الآخرة ؟! والله سـبحانه يقول : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ، فهٰهنا يحسن الرجاء .

وقد أطلق الذمَّ علىٰ قومٍ اغترُّوا بالأعراض الدنياوية ، وتمنَّوا المغفرة ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم في وصف من أتبع نفسه هواها حيث قال صلى الله عليه وسلم : « الكيِّسُ : مَنْ دانَ نفسَهُ وعمل لما بعد الموت ، والأحمقُ : من أتبع نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على الله الأمانيَّ »[1] .

وقال عزَّ من قائلٍ في وصف قومٍ جهَّال ، توهَّموا أن العطاء الدنيوي دفع عنهم ما سيحل بهم من العقاب وأليم العذاب : ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٤٥٩ ) ، وابن ماجه ( ٤٢٦٠ ) ، وزيادة ( الأماني ) عند الديلمي في « مسند الفردوس » ( ٤٩٣٠ ) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ، فقال سبحانه رداً عليهم خطأهم ، ورادعاً جهلهم وسوء رأيهم : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ .

ثم بيَّنَ أن نيل الكرامة والزلفىٰ بالإيمان الجازم ، والرأي الحازم ، والعمل الصالح ، فقال جلَّ ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ ، ولم يثبت الجزاء إلا في مقابلة الأعمال ، وتصفية الأحوال بالإيمان ، وتهذيب الأخلاق والأقوال والأعمال ، فبيَّنَ لكل عاملٍ جزاء ، ولكل عملٍ من جنسه رداً ، ولي في ذٰلك :

إن الرجا يبعث الطالِبَ على العملِ
ويزعج السالك الصادقْ عن الكسلِ
فلا تظن الرجا تزوير مختدعٍ
يدعو إلىٰ فعل محظور من العملِ

* * *

وربما يقول : إني حسن الظن بربي ، ولو كان به حسن الظن .. لكان له حسن المعاملة ، ومعه مهذَّبَ الأخلاق ، صفيَّ الآداب ، متبعاً ما هو له آمر ، ومجتنباً ما هو له عنه ناهٍ .

وهٰذا مقامٌ في اليقين ، وقَدَمٌ في التحقيق ، ولٰكن العارف له كلام رفيع ، ومثال منيع ، فوق ذٰلك ، وعنده يحصل حسن الظن على التمام ، ويراه على الكشف والعيان ، بلا تلبيس فيه ولا غرور ، بل على المحجة البيضاء (١) ، يعطي الأمور حقها ، قد خرج عن الحظوظ والأغراض ، وقام بالحقوق ، لا يعتريه فتور ، ولا يمازجه اعتراض ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) المحجة : جادة الطريق .

المطلب : هو المقصود من الفعل ، والمطالِبُ شتىٰ بحسب الأفعال والفاعلين ؛ فلكل فاعلٍ مطلبٌ يطلبه ، ومحتد يقصده ، والمطالب : إما طلب نفع وجلب ، أو طلب دفع مؤلمِ قالبٍ أو قلب ، وهو أيضاً : إما دنيوي ، أو أخروي .

**فالخلق ثلاثة أصناف من حيث إجمال المطالب** : إما عارفين مقربين ، وإما علماء أبرار ، وزهاد أخيار ، وعباد أحرار ، وإما جهال أشرار ، وغافلين أغرار ، لا يميزون بين ظلمة الليل وضوء النهار ؛ **فهٰؤلاء مطالبهم المنافع الدنياوية** ، ودفع الضرائر الجسمانية ، فلا نرفع لهم ذكراً ، ولا نشغلُ الوقتَ بالخوض في تفاصيل أصنافهم .

**وأما العبّاد والزهّاد .. فمطلبهم في الحال** : سلامتهم عن ملاحظة الخلق ؛ كي لا يبطل ثوابهم ، ويحق بهم عقابهم ، **وعند انبعاثهم على العمل** يكون الداعي لهم رجاء ما يعود عليهم من الثواب والسلامة عن العقاب ، وأليم العذاب .

**فهٰؤلاء وإن كان مطلبهم محموداً** ، ومقامهم مشهوداً ، وهم الأكياس من حيث إنهم عملوا لله كي ينالوا ذٰلك ، ويسلموا من محذورات الذنوب .

وأما من عمل للجنة دون الله ، أو من النار دونه .. **فلا خفاء في أن ذٰلك باطل** ؛ كما أفتىٰ به الفخر الرازي [١] .

---

(١) أشار إلىٰ ذٰلك في « تفسيره » ( ٣٢/٤٤ ) .

وكلامنا فيمن يعمل لله لينال الثواب ، ويسلم من العقاب ، ومن كان كذٰلك . . فمقامه محمود ، ومطلبه عزيز بالنسبة إلىٰ من دونه .

وأما العارفون ، والسادات الموحدون ، والخواصُّ المقربون . . فإنهم يعملون علىٰ غيبة نفوسهم عن العمل ، وإخراج رؤيتهم عن شهود صدوره عنهم .

فلا يشهدون لهم ولا منهم ، وجلُّ مطلبهم وكل بغيتهم القيام بحقِّ سيدهم ، والمثول علىٰ بابه ، والإقبال علىٰ جنابه ، لا يلتفتون إلىٰ عاجل حظ ، ولا آجل جزاء .

والعارفون هم الحكماء ، والمعرفة هي الحكمة ، وهم المهذبون الأدباء ، والميامينُ الأمناء ، غرباء الأوقات ، محيون من السنة ما مات ، والمتداركون من الأوقات ما فات .

والمعرفة هي الخير الكثير ، والحيا المطير ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ ، والذكرىٰ : هي فهم الأسرار ، وتحقيق المعارف بزوال الأستار الكونية ، وفناء مظاهر الأغيار ، وانطماس معالم الآثار ، فمن خلص عن رؤية ذٰلك ، وتخلَّفت عنه مقاطع الاغترار . . فقد قام التذكار ، وحصل من كل شيء علىٰ لبابه ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

فشتان بين من همَّتُهُ القيام بحقوق ربه ، وبين من يريد حظَّهُ من ربه .

همومُ العارفين كذا وقوفٌ علىٰ ما يرضيُ المولىٰ تعالىٰ
ومطلبُ غيرهم دائِمْ عكوفٌ علىٰ نيل الثوابَ وصفو حالا
وهم في نيلِ مطلبهم صنوفٌ ولٰكنَّ الشهودَ له رجالا

ثم أخذ كالمفسِّر لأحوال الأبرار ، ومشيراً إلىٰ حالات الموحدين ، وخواصِّ العارفين ؛ فالقبض والبسط أحوالٌ ترد علىٰ قلوب الواجدين من الله تعالىٰ ، وله في كل واردٍ حكمةٌ يترقَّىٰ في سُلَّمها السالك ، والقبض : أثرٌ من آثار جلاله ، والبسط : أثرٌ من آثار جماله ، وهو المسمىٰ بالقابض والباسط ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

بَسَطَكَ ؛ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ ٱلْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ ؛ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ ٱلْبَسْطِ ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا ؛ كَيْ لَا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ

بسطك أولاً من قبض الجهل وظلمة الحجاب ؛ بأن كشف عنك غطاء الطبع ، وأشهدك فسيحَ الجمع ، وأخرجك من ظلمة الهوىٰ إلىٰ نور العلم ، ووسيع المشهد الرفيع ، ثم قبضك بشهود الآثار الجلالية ، والسطوات الانتقامية ، والزواجر الحجابية ، المُؤْذنة بالبعد والطرد والمكر ؛ وذٰلك كي لا يبقيك مع البسط ، فيفوتك من المعرفة به حسب ما يفوتك من هٰذه المظاهر .

فكمال المعرفة يقتضي ألَّا تجهله في شيء ، بل تعرفه بجميع أوصافه ، ولا نهاية لها ، فلا نهايةَ لترقِّي العارف في الدنيا والآخرة ، وما أظهرها عليهم في هٰذه الدار . . إلا رحمة بهم في دار القرار ، فبانقضاء هٰذه الدار تنقضي عنهم هٰذه المظاهر ، وتندرج معارفها لهم ، وتنفتح عليهم الخزائن الرحموتية ، وتزفُّ إليهم المواهب الامتنانية ، ويظهر سرُّ التضعيف السرمدي .

والقبض والبسط : حالان يردان علىٰ قلوب السالكين ، يتولد عنهما الخوف والرجاء ، وعندما ترد على السالك بسط المواهب . . يخاف عليه من برد الأمن ، المفضي بصاحبه إلىٰ أن يُدِلَّ على الله ، ويصول علىٰ عباده ، وينزل عن علو العزيمة إلىٰ حطيط الرخصة ، فيتداركه الله بأن يورد عليه واردَ القبض ، فلا يبقيه مع البسط ، بل يفنيه عن الوجود ، وتنطمس معالمه ، فلا يرىٰ له بقية ، ولا يشهد لنفسه قدراً ، ولا يسمع لها خبراً ، بل يكون حاله الانطماس والانكماش في الأعمال ، وترك

الدعاوي ؛ لما يرد على قلبه من محرقات الجلال ، المزعجة له عن الركون إلى الدعة ، فهٰذه من نعم الله على عبده .

وأشار بقوله : ( كي لا يبقيك ) وتعبيره بقوله : ( بسطك كي لا يبقيك مع القبض ) **لأن القبض يقتضي بقاءك ومعرفتك** ، وبقوله : ( كي لا يتركك مع البسط ) **لأن البسط يقتضي فناءك وجمعك** .

فإذا تركك كذٰلك .. **فاتك من مقام العبودية حظٌّ وافٍ** ، فعبَّر بـ : ( كي لا يتركك ) فانياً عنك ، وعبَّر بقوله : ( كي لا يبقيك ) **ليزيحك عن ظلمة حجابك** ، وغمة عِتابك ، في إيابك ومآبك ، ثم قال : ( وأخرجك عنهما ) أي : القبض والبسط ؛ **لأنهما من مقتضى التغيير** ، والبقاء معهما حبس عن مقام عدم التقييد بالأغيار ، وقيد عن الذهاب فيه والوصول إليه .

**فالتمكين رتبة العارفين** ، وسمة الموحدين ، **والتلوين حالة السالكين** ، وسمة المريدين المبتدئين ، فالخروج عن مضيق الوجود إلى فضاء الشهود لا يكون للعبد فيه مدخل ، ولا منهُ فيه تعمُّل ، بل محض منَّة ، وظهور عناية على من بدورك به ، واختص به لأن العطايا الوهبية والمنازل القربيَّة لم يكن للعبد بها شعور ، ولا لها في مخيلته ظهور ، وإن كان لا يسمع بها لٰكنه يسمع بذٰلك ، فإذا ظهر له .. **تحقَّقَ بعد أنه لم يكن ذٰلك ما يحتسبه** ، ونظر ما لا يتخيله ، فالقبض والبسط آثار ومظاهر أسماء الأفعال ، والخروج عنهما إلى فضاء الوصف الذي لا حصر له ولا نهاية .

**وتكون حالته الهيبة** بدل القبض ، **والأنس** بدل البسط ، والهيبة تكون لا لشيءٍ من الأسباب ، ولا بشيءٍ من الأعراض ، **ولٰكن يكون**

مقتضى المقام من غير شيءٍ يزيد على ذٰلك ، والأنس أيضاً كذٰلك ؛ لا بشيء من الأسباب ، ولا بجنسٍ من الأجناس ، ونوع من الأنواع ، بل لمقتضى المقام ، فلا يعطيك غيره في حالة تجلِّيه عليك ، وتدليه إليك ؛ لأن الجمال مأنوس ، والجلال مهاب .

وإن ظهر في الجلال ما يقتضي الأنس ، وفي الجمال ما يقتضي الهيبة . . فلا يكون حال العبد في ذٰلك المقام إلا مقتضى المقام ، ولا حكم بعد لما يظهر من الآثار ؛ إذ الحكم لله العلي الكبير .

ومن كان كذٰلك . . لا يكون تحت حكم الآثار ، ولا يتغير بتعاقب الأطوار ، ولا يتكدَّر برؤية الأغيار ، ولا ينبسط بجنةٍ ولا ينقبض من نار ، بل يكون مع ربه فانياً عن الأغيار .

كما يروىٰ في مثل ذٰلك المعنىٰ عن إبراهيم بن أدهم لما رُئِيَ منقبضاً ، فجعل يقول له السائل : أمن كذا ؟ أمن كذا ؟ وهو يقول : ما كذا ، ما كذا .

والهيبة والأنس أصل القبض والبسط ، إلا أن القبض والبسط يظهر أثره في عالم الأفعال ، والهيبة والأنس غيبٌ يظهر عن تجلي الأوصاف القدسية ، والنعوت الأزلية في عوالم الإجمال .

وبالنظر إلىٰ تفاوت هٰذين المشهدين يكوِّن الجمع والفرق ؛ فالنظرُ في عالم التفصيل يقتضي الفرق والتغاير لا محالة ، والنظر في عالم الإجمال يقتضي الجمع لا محالة ؛ فلذٰلك لم يكن للأغيار ظهورٌ في عالم الإجمال ، بل لم يكن ثَمَّ إلا موصوف بوصف ، ومنعوت بنعت ، وذٰلك لا يقتضي التعدُّد ؛ فلذٰلك قال : ( أخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه ) .

ومتىٰ نظرت لسبب وجود في إيجاد شيء أو إعدامه ، أيّ سبب في أيِّ شيء . . فأنت له حتىٰ تتخلَّص عن رؤيته ، إن له أو منه أو به ، فعند ذٰلك تنظر انفراد الحق بالاختراع والإبداع ، فتكون له ؛ لأنك لم تر لغيره شهوداً ولا حقيقة وجود ، ولي في ذٰلك :

القبض والبسط غيْرٌ إن وقفتَ به ... دون الحقيقة إن حققت يا ٱنسان

جُزِ المقامات والحالات وٱفنَ به ... فثَمَّ تشهد بعد الحالة الشان

فإن تفرقتَ في التفصيلِ كنتَ به ... أعشى البصيرة في الأكوان حيران

فجائلُ الطَّرْفِ تَحْكُمْ إن نظرت به ... أنَّكْ ترىٰ منه أن الواحد اثنان

ثم لما كان القبض والبسط حالين ، ولكل حالٍ في العبد أثر يقتضي أن يكون العبد متصفاً به ؛ فحالة القبض تظهر على العبد أثراً بالانكسار ، والانقهار تحت أحكام القهار ، وهٰذا هو حالة العبد القائم بين يدي السيد الجبار ، ومن هنا كان خوف العلماء علىٰ حسب قربهم ، وصفاء مشهدهم .

والبسط حال انبساط في فسيح متسع الجمال ، يظهر أثره علىٰ العبد بصولة الفرح ، والتردُّد بين رياض الحكم ، وتغنِّي أطيار السرور علىٰ أرائك سُرُرِ المقامات ، وتدلِّي أشجار الكَلِمِ ، فلا يشك أن العبد عند ذٰلك يُخشىٰ عليه صولةُ الإدلال ، فتنقطع عنه أمداد الوصال ، وتُسَدُّ عنه أبواب الاتصال ؛ فلذٰلك اشتدَّ خوف العارفين عند البسط .

والقبض حقُّ الحق من العبد ، والبسط حظُّ العبد من الحق ، ولَأَنْ يكون بحق سيده . . أولىٰ من أن يكون بحظ نفسه ، فإذا كانوا بالبسط . . كانوا أخوف منهم إذا كانوا بحالة القبض .

والقبض أسلم لحالة العبد الضعيف ؛ إذ لم يقف على الأدب مع البسط إلا القليلُ من كُمَّلِ العارفين ، الذين ملكوا أزمة الأحوال ، وضبطوا الأفعال والأقوال على تغاير الأحوال .

* * *

ثم قال كالمفسِّر لحالتي البسط والقبض ، وحكماً عند أرباب المواجيد العارفين بأسباب الحقائق ، السائرين على أوفق الطرائق ، فقال :

ٱلْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا . أَخْوَفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ، وَلَا يَقِفُ عَلَىٰ حُدُودِ ٱلْأَدَبِ فِي ٱلْبَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ

العارفون بالله ، وبأوصافه ونعوته ، وتجليات أسمائه ، ولا يكون عارفٌ إلا كذٰلك ، والمعرفة أخصُّ من العلم ، وترادفُها الحكمة ، بل غالباً ما يطلق عليهم بأنهم الحكماء ، وأنها المعرفة ، وهي من أجلِّ منح الله علىٰ من قامت به ، والعارف يكون له التمكن ، والعالم له التلون .

وهم خواصُّ أهل هٰذه الطريق ، وسادات سائر الطوائف ، وهم درجات عند الله ؛ فمنهم الفاضل ، ومنهم الأفضل ، ومنهم المحققون ؛ وهم المتمكِّنون الذين يعرفون الله في سائر المظاهر ، فيعطونه الأدبَ في كلِّ مُعايَن ، وكل متخيَّل ، وهم الأدباء ، الخواصُّ الغرباء ، محيون ما أمات الناس من السنن ، الناجون عند ظهور الفتن ، المصلحون من الدين ما أفسده الناس ، الذين يحيون في عافية ، ويموتون في عافية ، ويُبعثون في عافية .

يمشون بين الناس بالنصيحة بأجسامٍ ميتةٍ عن الدنيا ، وقلوبٍ عاكفة في الصفيحِ الأعلىٰ ، يأوون إلىٰ جناب الحق كما تأوي الطير إلىٰ أوكارها ، ويحنُّون إلىٰ لقائه حنين الثكلىٰ ، لا يكنُّهم مأوىً ، ولا تقلُّهم أرض ، ولا تظلُّهم سماء ، تتقلَّبُ قلوبهم في الملأ الأعلىٰ ، تُخلع عليهم ملابس الرحمة العرشية ، وتنزل عليهم السكينة الكرسية ، ويحيون من الله بالسلام بين الأنام ، فقليل ما تراهم الأعين ، بل هم تحت القباب ، مخدَّرون تحت أسجاف

الحجـاب ، لا يُطْلِـع الله عليهم إلا من اختصَّـه بقربه ، وأتحفه بحبّه ، فيعرفه إياهـم ، ويحبّبه إليهم .

وقد أشار المؤلف في هـٰذه الحكمة إلىٰ بعض علاماتهم ، وأنهم إذا بُسِطوا أخوفُ منهم إذا قبضوا ، وهـٰذه من جملة سماتهم ؛ وذٰلك لخوفهم الوقوع في سوء الأدب مع سيدهم ، والسقوط من عين مليكهم ، وغاية سرورهم ومنتهىٰ حبورهم في كلِّ فعل يكونون فيه بحق الله ، ومنتهىٰ شرفهم ومطمع نظرهم الانكماشُ في خدمته ، والدؤوب علىٰ إتيان محابّهِ ، وغاية حذرهم من ضد ذٰلك ، أو الوقوع في محذور سوء أدب معه .

ويخافون ذٰلك الوقوع فيه مع البسط أكثر منه في القبض ، والقيام بالحقوق الشرعية بحالة القبض أقرب ؛ فلذٰلك يكونون أخوف في البسط منهم في القبض لذٰلك المعنىٰ ، وخوفهم في البسط من الوقوع في حالة تضادُّ حالةَ العبودية والأدب ، فيخاف الوقوع في العطب ، وكيف لا وهو لم يقف على الأدب مع البسط إلا قليل ؟! فيخافون ـ لا محالة ـ أن يبدر منهم ما هو خلاف الأدب مع الله ؛ كما هو مشاهد أن أكثر الهفوات تكون مع الانبساط ، ولذٰلك قالوا : قف على البساط ، وإياك والانبساط ، ولي في ذٰلك :

البَسـط أخـوف عنـد العارفين إذا ... كانوا مع الله يطلبْ منهم الأدب
والقبض حالٌ يكون العبد فيه كذا ... بحـق سـيده فـي مشـهد السـبب
لأن تكـونَ بحـقِ اللهِ مُجتهـداً ... أحب منك بحظ النفس في النسب
والعارفـون بنـو يُسْـرٍ تـراه إذا ... ما لمّ بالبسط ضاعَفْ عنده الأدب

فالبسط تأخذ منه النفس حظَّها ، وحظَّها بل أجل حظوظها : تبخترُها واختيالهـــا ، وادعاء ما ليس لها مما هو حـــقٌّ موجدها ، ونعت باريها ، والقبض عن ذٰلك بمعزل ؛ لذٰلك قال المؤلف هٰذا المعنىٰ وهو قوله :

## اَلْبَسْطُ تَأْخُذُ ٱلنَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ ٱلْفَرَحِ ، وَٱلْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ

البسـط : هو ما علمته أنه حالةٌ تَرِدُ على القلب من الله تعالىٰ ، وهو حالة في القرب ؛ لأنه من الله وبالله ، لا من غيره ولا بغيره ، وكل بسـط بشيء من الأسباب الدنياوية والمثوبات الأخراوية . . فليس من ذٰلك في شـيء ، وكل بسط ورد بسببٍ . . فهو بحسـب ما أورده ، وليس هو من البسـط الذي قلنا : ( وارد يورده الله على القلب بتجلٍّ وصفي ) ، وهٰذا هو الذي يشير إليه الطائفة في اصطلاحهم بالبسط .

وإذا أردت أن تعرف البسطَ الوارد عليك : أهو واردٌ من الله ، أم مورده بسبب . . فاعرض عليه سائر الأسباب الدنياوية والأخراوية ؛ فإن لم تجده صادف شيئاً منها . . فاعلم : أنه من الله ، فاشكر الله حيث وجَّهَ إليك عنايته ، وساق إليك وارداتِ مواهبه ، وحالك فيه مع الله الأدب ، ومع الخلق الإرشاد ، واللطف بهم ، وعدم الترفُّع عليهم .

وأن ما أوردَ ذٰلك البسـطَ إلا بسـببٍ من الأسباب ، فلا يكون لك به اعتداد من حيث الأحوال ، بل يكون من جملة النعم التي يجب الشـكر عليها .

والفـرح لازم البسـط ، وقـد ذمَّ الله الفرحيـن ؛ بغيـره والأغيـار كيفما كانـت ، سـواء كانت من الأعراض أم من الأحـوال ، قال الله جلَّ [ من ] قائـل : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ ، وقـال أيضـاً : ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، فالفـرح بالأغيـار ولو من الأحـوال والكرامات فضلاً عن الأعراض الفانية . . من علامات الاغترار ، والجهل بما تحت مسـتورات الأقدار ، ولٰكن الفرح بالله هو المطلوب ، ولا يعرف مقام الفرح بالله إلا

الصدِّيقـون الخـواصُّ المقرَّبون ، وأما غيرهم . . فقد يلتبس عليه المقام ، ولا يوفيه على التمام .

والقبـض سـالم عـن هـٰذه المخـاوف ، لا حـظَّ للنفس فيـه ، ولا فيه الفـرح ، ولا يصحبـه المـرح ، بـل هـو أسـلمُ أحـوال السـالكين ، وآمنُ مقامات الواصلين .

وحالة العبد مع الله في البسط الضبطُ والأدب ، وفي القبض السكونُ حتىٰ يمضيَ وقته ، وتستوفي دولته دورها ، ويكمل طورها ، ولا يطلب الخروجَ منه قبل إبَّان وقت انقضاء ذٰلك ؛ فلربما يكون ذٰلك سوءَ أدب ، منافياً للاستسلام والسكون تحت جريان الأحكام ، ولا يخفىٰ ما في ذٰلك من سوء الأدب ، ولي في ذٰلك :

قد تأخذ النفسُ حظَّ العبدِ إن وردت ... موارد البسـط واستولت على البشرِ

والقبضُ لا حظَّ فيه أصلاً إذا نظرت ... في مشهدِ القبضِ يرجِعْ خاسئَ النظر

* * *

فـإذا ورد عليك ما يوجب البسـط من الأسـباب . . فـلا ينبغي لك أن تفرح به ؛ لجهلك بعاقبته ، واندماج سرِّ خاتمته ؛ فربما كان ما تفرح به مما يكون فيه الترح ، وضده كذٰلك ، قال المؤلف رضي الله عنه :

## رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

( رب ) تأتي للتقليل ، وقد تأتي للكثرة ، وهنا المراد بها أكثرية ؛ لأنه إذا أعطاك مراداتك وساعدك على نيل شهواتك . . منعك أسباب العطايا الهنية ، والمشتهيات المَرِية ، التي لا يعقبها زوال ، ولا يعتريها تغيُّر ، ولا يعتورها كدر ، فالمنع في مثل ذلك العطاء ظاهر .

وربما منعك من شهواتك ، ونغَّصَ عليك مستلذاتك ، وعوَّقَ عليك أسباب دنياك ، فأعطاك الجزاء الأوفى ، وأنالك المقام الأعلى ، وأدخلك في زمرة الكرماء ، ونظمك في سلك الأصفياء ، فأعطاك أعاليَ الكرامات ، وأيُّ عطاء أوفى من ذلك ؟! وأي زلفى أعلى مما هنالك ؟!

فكان العطاء الذي باختيارك وبذلت [ له ] كل تدبيرك منعاً ، ويكون كل منع خالف هواك وباين إرادتك عطاءً ، فاختر عطاءً يكون حقيقته منعاً ، أو منعاً يكون حقيقته عطاء ، ولي في ذلك :

إن العطا خيرُ ما تُعطى بخيرته إن كان منعاً فذاك أقْرَبُ إلى الظفرِ
وكلَّما اخترتَ أن تُعطى فخيرته فذاك منعاً بلا ريبٍ به الضرر

* * *

ولا يُعرفُ وجهُ المنع في العطاء ، والعطاء في المنع إلا بفتح لدني ، وفهم اختصاصي ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## مَتَىٰ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْفَهْمِ فِي ٱلْمَنْعِ . . عَادَ ٱلْمَنْعُ هُوَ عَيْنَ ٱلْعَطَاءِ

متىٰ فتح لك من خزائن الفهم المكنون ، واطلعت علىٰ دقائق العلم المصون ، فرأيت ما في المنع من عظيم النفع دنيا وأخرىٰ . . علمت ـ لا محالة ـ أن المنع عن مراداتك فيها ذخائر سعاداتك ، فلا جرم أن يعطيَكَ نورُ الفهم أن المنعَ عن إراداتك الفانية ، وحظوظك العاجلة . . عطاءٌ لا ينفد ، وذخر لا يفقد .

ومن أمدَّهُ الله بالفهم عنه . . أراه عواقب الأمور قبل أن يغترَّ بأوائلها ، وكشف له عن باطنها قبل أن يختدع بظواهرها ، والفهمُ من أعزِّ علوم الصوفية ؛ لأنه نورٌ خلقه الله في القلب يدرك به الأشياء إصابة وخطأً ، فيعطيه ألا يأخذ ولا يذر ، ولا يسمع ولا ينظر ، ولا يتحرَّك ولا يسكن ، إلا بما كان محبوباً موافقاً لما في باطن الأمر عند الله .

وإن ظهر في ظاهر الأمر أنه موافق أو مذموم ، وفي الباطن على العكس من ذٰلك . . فيأخذ صاحبُ ذٰلك المشهد ما هو الحقُّ عند الله ، ويذر ما سواه وإن أُفتيَ بضده ، ولا يدرك ذٰلك المشهد من كان قياده بيد هواه ، وسياسته بنفسه ، دون اقتداء بمن يطلعه علىٰ كوامن الهوىٰ ، ويخرجه عن زين محبة الدنيا ؛ لأن الفهم في الأمور لا يكون إلا عن صفاء سريرة ، ولا تصفىٰ وهي ملوثة بكثائف الهوىٰ ، ومدنَّسة بمحبة الدنيا ، ولي في ذٰلك :

الفهـمُ يعطيـكَ فـي الأشـياء أحسـنها
ويخرجُـكَ عـن مضيـق الجهـل بالخبر

إذا علمــتَ أنَّ ذاكَ الفهــم يعلــم مــن
ينظـر بـه أن العطـا فـي المنـع منتظـر

﴾ ﴾ ﴾

فلما كان الفهم يعطي مَنْ قام به أن ينظر إلىٰ بواطن الأمور ، ولا يغترَّ بظواهرها ، وينظر عواقبها ، ولا ينخدع بأوائلها . . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**ٱلْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَٱلنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَىٰ ظَاهِرِ غِرَّتِهَا ، وَٱلْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَاطِنِ عِبْرَتِهَا**

الكون : هو ما عدا المكوِّن ؛ وهو كل ما دخل تحت ( كن ) من سائر أصناف المكوَّنات الحسيَّات والمعنويات ، والمراد هنا : كل ما يمكن أن يكونَ للنفس إليه نظرٌ وحظ ، والنفس من حيث الطبع والجبلة مجبولةٌ ومطبوعة على الجهل ؛ وهي النفس الحيوانية .

والقلب : هو عبارةٌ عن لطيفةٍ نورانية ربانية ، ألبسها الحقُّ من نور أوصافه ما أخرجها عن وصف النفس ، وحلاها بنور أوصافه ، وأفاض عليها من تجلِّيات أسمائه ؛ فهي أبداً تتقلَّب في حلل تجليات الأسماء ، وتتنزَّهُ في فسيح الأوصاف الأزلية ، تتلقَّىٰ من صفة العلم ، ومن صفة الكلام ، ومن صفة البصر والسمع والحياة والقدرة والإرادة بقدر ما أعطاها وقسم لها ، ويظهر عليها من تجلِّي كل اسمٍ ما يظهر به من سلطان ظهوره ؛ فهي لأوصاف الحق وأسمائه كالمرآة الصقيلة ، تحكي ما تتجلَّىٰ به عليها ، وتفيض ما تلقيه إليها ، والقلب الصنوبري اللحمي كالعود الكثيف الذي تلصق به المرآة مجاورة لا ممازجة ، ومظهره في الجهة اليسرى الإنسانية ، ومشهده في الجهة اليمنىٰ مواجهة ، والنفس من حيث هي حيوانيةٌ أرضيةٌ أمَّاريَّةٌ في الجهة اليمنىٰ ، وهي مواجهة لجهة الشمال .

ولو أخذنا في تبيين ذٰلك .. لخرجنا عن مقصود الشرح ، فلنرجع ونأخذ في بيان قوله : ( الأكوان ظاهرها ) وهو محل الحظ النفساني ، والطبع الحيواني ، ( غرة ) يغتر به من أعوزه الفهم في بواطن الأمور ،

ولم يحظ من النور القلبي بما يخرجه عن صفة الجهل ، وبنعته بنعت العلم الفهمي ، بل كان جهلاً نفسياً وجسمياً أرضياً ، يتصفح ظواهر الأكوان في مستحسنات الألوان ، ومصقلات الأبدان فتفتنه بحسنها ، وتملكه وتستسخره تحت خدمتها ، وتستعبده بمحبتها ، ويكون كما قلت في ذلك :

إذا لم ترىٰ ما تحت أثواب حسنها بقيت بها مفتون ولهان حائرا
ولو كنت ذا قلبٍ بصير بقُبْحها نظرت إلىٰ ما الأمر في ذاك صائرا

( **وباطنها عبرة** ) يعتبر بها ذوو البصائر ، **فيرون فناءَها في حال وجودها** رؤية كشف وبصيرة ، وحجة منيرة ، بتحقيق قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ، **ووجهه في كل شيء** سرُّ وجوده في الأشياء ، فيعتبر أولو القلوب بما هي عليه من الانعدام في حال وجودها عاريةً عن وجه الحق ، فلا يكونون مع الأكوان ، بل مع **مكوِّنها** ، فيرون وجود الحق في كل قطرة ، فيكونون مع الأكوان ظاهراً ، ومع **الحق باطناً** ، فإن خاطبوا . . فمعه ، وإن نظروا . . **فإليه** ، وإن سمعوا . . **فعنه** ، **فتخاطبهم** الأسرار الحقية ، من وراء كشف الأستار الخلقية ؛ كما يروىٰ في مثل هٰذا المعنىٰ عن معروف الكرخي رضي الله عنه حيث قال : **لي نحوٌ من عشرين سنة أخاطب الحق والخلق يظنون أني أخاطبُهم** ، أو كما قال .

هٰذا للعارفين ومشهد المحققين ، وأما الأبرار والمريدون وعامة السالكين . . **فعبرتها أن يروا تغيُّرَ أحوالها** ، وسرعةَ انتقالها ، وكثرة عنائها ، وقلة غنائها ، وخسَّة شركائها ، فيكسوهم العزوفَ عنها ، والتنزُّه منها ، فمتىٰ دعت إليها النفس بظاهر غرتها . . **صرفهم عنها القلبُ بباطن عبرتها** .

فسبحان من أوصل قوماً بما قطع به آخرين ؛ فعبرة المريدين بالقلوب بأن ينظروا إليها بالاستحقار ، والتجافي والاستصغار ، وعبرة الأسرار للعارفين بأن يشاهدوا وجود موجدها عند رؤيتها ، فهم الذين يوفون الحقوق ، ويكملون في الآداب ، ولا يذمون شيئاً ، ولا يستصغرونه ، ولا يحقرونه ، روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذمَّ طعاماً (١) ، ولا استحقرَ عطاءً ، ولا جفا ، بل وفىٰ وعفا ؛ وذٰلك لما أعطاه المشهد الحقِّي في المظهر الخلقي .

وبالجملة : فالعبرة شأن ذوي البصائر ، والعبرة : هي العبور من الصور إلى المعاني ، فما من صورة خلقية إلا وهي تشير إلىٰ لطيفة حقية ، فمظاهر التركيب مشيرة إلىٰ حقائق الترتيب ، ولي في ذٰلك :

إن الشهود يريك الحق موجودا ... فـي كلِّ مظهرِ في الأكوان والصورِ
فالسِّـر خاطِـبْ مَنْ لَهْ سـرٌّ موجود ... فِي الحقيقة ما يخفىٰ ذوي العبرِ

* * *

وكل شيء دون الله هالك ، والهالك لا وجود له ، فمن استند واعتزَّ بالعدم . فلا جرم أن عزَّه به خذلان ، واستناده إليه حرمان ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه البخاري ( ٣٥٦٣ ) ، ومسلم ( ٢٠٦٤ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

## إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَىٰ . . فَلَا تَسْتَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفْنَىٰ

إن أردت أيها المسترشد والطالب المسترفد عزاً ـ وهو رفعة وثناء ـ لا يفنىٰ ؛ وهو العز بالله ، إذ لم يستحق سلب هٰذا الوصف ـ وهو الغنىٰ ـ غير الله سبحانه ، وكل من سواه فذٰلك من لازمه ، فكل عز بفانٍ فانٍ ، وكل عز بباقٍ باقٍ .

وإذا أردت العز الباقي المخلد ، والفضل الدائم المؤبد . . فلا تتوصَّل إليه بضده ؛ إذ تطلب الباقي بالفاني ، ولٰكن إن أردْتَ ذٰلك . . فاستعزن بالباقي ، والعز بالباقي : هو دوام التعلُّق به ، واليأس من غيره ، ودوام الالتجاء إليه ، والانكماش في خدمته ، وانتظاره في كل أزمة ، وكشفِ كل غمة ، فلا يكون إلىٰ فانٍ له استناد ، ولا علىٰ مخلوقٍ دونه اعتماد .

ومن أنزل مهماته بسواه . . فقد أعوزه ما أراده ، وفاته ما قصده ، فإذا استعزيت بالأكوان وصُلْتَ بها ، واعتمدت عليها . . أسلمتك أحوجَ ما تكون إليها ؛ فإنها مع مليكها ، وتحت حكمه ، وطائعة لأمره ، فمن أعزَّه الله . . أعزَّته ، ومن أهانه . . أهانته ، ومن أكرمه . . أكرمته ، ومن خذله . . خذلته ، فعليك بالتعزُّز به ، والتعلُّق بجنابه ، ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أُنزل بك حاجتي »[1] ، ولي في ذٰلك :

العز بالله شيمةُ كلِّ ذي أدبِ ... يُغني عن الكونِ في الأحوالِ ذا بصرِ
ومن تعزَّز بالأكوان كان له ... ذلٌّ طويلٌ كما جا ذاك في الخبر

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي ( ٣٤١٩ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

فإذا كان عزُّك بالله عن كل شيء . . لم يقدر أن يذلَّكَ شيء ، وإن استعزيت بغيره ، واستهونت بجنابه . . أذلَّـكَ كل شيء ، وسلط عليك كل شيء .

واعتـزاز المؤمنيـن بصـدق عبوديتهم لسـيدهم ، وصـدق العبودية لا يكـون مـع وجـود حظ النفـس ، فلما نظـر العارفون إلـىٰ ذٰلك . . كانت جـلُّ أشـغالهم في الخروج عن أوصـاف النفس ؛ لتصفىٰ لهـم العبودية من شـوب الحظوظ النفسـانية ، فيطلبون الانطـواء والانطماس عن رؤية نفوسـهم وأوصافهـم ، ولـم يطلبـوا أن تطوىٰ لهـم المسـافات البعيدة ؛ لغناهم عن ذٰلك الطي ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

اَلطَّيُّ ٱلْحَقِيقِيُّ : أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ ٱلدُّنْيَا عَنْكَ ، حَتَّىٰ تَرَى ٱلْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ

طي مسافة الدنيا هنا طيٌّ معنوي لا طي حسِّي ، وطي مسافة الدنيا برؤية فَنائها ، وسرعة انقلابها ، وقرب الآخرة ، فتضمحل الأسباب الدنياوية ، وتزول المستحسنات الكونية ، فتنطوي بفكره ساعة جميع الدنيا ولذاتها ومحبوباتها بشروق نور اليقين في القلب ، وهو الذي يعطيك رؤية الأشياء علىٰ ما هي عليه من الحسن والقبح ، فعند شروقه في القلب ينظر الآخرة وبقاءها ، وحسنها ودوام نفعها ، والدنيا وخستها ، وقرب فنائها ، وسرعة زوالها ، وكثرة عنائها ، وقلة جدواها ، وكثرة بلواها ، فتنطوي ـ لا محالة ـ وتنزوي ، وتتحقق الآخرة وتتراءىٰ ، فيغيب الباطل الفاني ، ويتحقق الحق الباقي .

وعند تمكن اليقين من القلب يظهر له الجمال الأزلي ، والمشهد الأقدس العلي ، فتنطوي الآخرة عنده كما انطوت مسافة الدنيا عند شروقه في ابتدائه ، لٰكن طي الدنيا طيُّ حُجُب ظلمانية ، وفي مسافة الآخرة طيُّ حُجُب نورانية ، فهٰذا عندهم هو الطي حقيقة ، لا طي المسافة في لحظة ، فقد يكون لٰكن على الندور من باب المكر ، ولا طي الأيام بوصال الصوم ، فليس هو المراد مع ترك القلب مكبَّلاً في مضيق الدنيا وأسبابها ومراداتها ، بل يكون ذٰلك محموداً إذا أخلص لله ، وكان لمحض العبودية ، وأعطاها حقَّها وكان ذٰلك مشكوراً ، وفضله مشهوراً .

ولٰكن أين السير بالأحوال من السير بالأعمال ؟! فالسير بالأحوال

سير المرادين الواصلين ، والسير بالأعمال سير المريدين السالكين ، وشتان ما بين الفريقين ، ولي في ذٰلك :

الطـيُّ طيُّ مسـافاتِ النفـوسِ إلىٰ    حظائـرِ القُـدسِ واسـتعلا مراقيها
ليَهْنَ ركبٌ سـرىٰ شـوقاً يسيرُ إلىٰ    منـازلِ السِّـرِ واسـتنزَهْ بواديهـا

* * *

فإذا طُويت المسافات الخلقية ، وبانت لك الفتوحات الوهبية .. بان لك يقيناً أن ما أشار إليه المؤلف هٰهنا من قوله :

## ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْخَلْقِ حِرْمَانٌ ، وَٱلْمَنْعُ مِنَ ٱللهِ إِحْسَانٌ

وذٰلك أن رؤية العطاء منهم حجابٌ عن الله كثيف ، ورؤيتهم دون أن منهم أو لهم حجابٌ ، لكنه ألطفُ من إضافة أن لهم فعلاً معه ، فإذا رأيت العطاء منهم . . فقد حُرمت من اليقين بقدر ما أضفت إليهم ، ولذرةٌ من اليقين ما تقوم لها الدنيا وما حوته من جميع نعيمها ومحبوباتها ، وذٰلك يتولد منه ـ أي : عدم اليقين ـ تقلُّدُ مننهم ، واستعبادهم إياك ، وسقوط منزلتك وابتذالك .

وأيُّ منعٍ أعظم من منع العطاء ؛ الذي إذا نلته . . أتت جميع خيرات الدنيا والآخرة ، والعز السرمدي الذي لا يعقبه ذلٌّ ، وهو اليقين ، فإذا فقدت اليقين . . فقد حُرمت خير الدنيا والآخرة .

والمنع من الله إحسان ؛ لأنه يوقفك على الله ، واللجأ إليه ، والافتقار لديه ، والذلة والانكسار بين يديه ، وأيُّ عطاءٍ أفضل من ذٰلك ؟! وأيُّ فضلٍ أعظم مما هنالك ؟! فأعياد الصادقين ومواسمهم وجودُ فاقاتهم إليه (١) ، ووقوفهم بين يديه ، فأيُّ إحسانٍ يزيد علىٰ ذٰلك ؟!

وإذا أحببته . . كان كل ما يصدر منه محبوباً عندك ، وإذا أعدمك اليقين . . كنت بالضد من ذٰلك ؛ أنك تؤثر محبة الأغيار ، والوقوف علىٰ الخلق عند ورود الحاجات ، وحصول نوازل المهمات ، فتقف علىٰ من لا يغنيك ، وتستند إلىٰ من لا يأويك ، ولي في ذٰلك :

إنَّ العطا حيث لم يصدر من الله ... حرمانُ يحرمُ ما هوْ صِرْفُ إحسان

(١) كما سيأتي ( ص ٤٢٩ ) في الحكمة ( ١٠٠ ) .

وكلُّ منعٍ مـن المولـىٰ فـإنَّ بـه    كل العطـاء وكل الفضل يا ٱنسـان

* * *

وإذا علمت ما أرشدناك إليه من أن العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان . . علمت أن الله سبحانه يجازي عباده في الدنيا والآخرة علىٰ أعمالهم ، فجزاؤهم في الدنيا ما يجدونه من اليقين والانشراح ، والترقي في سني الحالات ورفيع المقامات ، وما يوصله إليهم من صنوف النعم وضروب المنن التي لا تحصىٰ ، مع ما يدخره لهم في العقبىٰ ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ ٱلْعَبْدُ نَقْداً ، فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً

أي : ترفَّع وتعالىٰ وتعظَّم عن ذٰلك الوصف ؛ لأن ذٰلك ينبع عن العجز والعدم ، وهو منزَّهٌ عن أن يعجزه ذٰلك ، بل له ـ وهو الأغلب ـ أن يفيض علىٰ عباده جزاءهم في الدنيا ، ويثيبهم في العقبىٰ ؛ **لأن خزائن جوده لا تتوقَّف علىٰ محلٍ** دون محل ، بل فائضة الجود ، مستمرة الوجود ، كيف ما كانت الأحوال ، أو تغايرت الأزمان والآوان .

**فهو الذي يجازي عباده في الدنيا بأعمالهم** بما يجدونه من ثمرات الأعمال ؛ من تضعيف الطاعات على الطاعة ، وزيادة اليقين ، والترقي في مراتب الإيمان ، ومقامات الإحسان ، وما لا يقدر قدره غيره من فواضل المِنَن ، وفوائد الامتنان ، **مع ما يدَّخره لهم من الثواب في العقبىٰ** وما أعدَّ لهم من ضروب النعم والإحسان ، وما أعدَّه لهم في الجنان ، مما لا يخطر علىٰ جَنَان ، ولم تفصح به لسان ، ولا تحده عيان ، وسوف يعلم ويرىٰ وتشاهده الأعين ، ويعلمه الجَنَان ، ولي في ذٰلك :

فجلَّ ذو الجودِ والإفضالِ والشانِ ... ألَّا يجازيَ في الدَّارينِ بإحسان
هو الكريمُ إذا ما سُئِلْ يا أنسان ... يَجِدْهُ طالبُه فردٌ ومنَّان

* * *

فمن جملة جزائه وفيض عطائه : أن رضيك لخدمته ، وأهَّلك لطاعته ؛ **كما قال المؤلف رضي الله عنه :**

## كَفَىٰ مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى ٱلطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلاً

أي : يكفيك من جزاء الطاعة من الله لو لم يكن غير أنه رضيك لها أهلاً ، كيف وهٰذا جزءٌ من جملة أصناف الجزاء العاجلة والآجلة ؟! وهٰذا من أعظم النعم ، وأوفر القسم ؛ أن أهَّلك لها قبل ظهور وجودك ، وأنت بعد لم يأتِ إبَّانُ ظهورك ، وقد جعلك من أهل طاعته ، وكتبك في جريدة أهل محبته ، ورسمك في مرسوم خاصَّته ، وزيَّنك بنور خدمته .

فماذا بعد ذٰلك تطلب ولم يكن لك هناك إخلاصُ عمل ، ولا وسيلة ، ولا تضرُّع ولا طلب ، بل ابتدأك بالنعم ابتداء ، وخوَّلك الممالك انتهاء ، وأمدَّك بالإمداد قبل ظهورك في الإيجاد ؟!

فكيف تطلب جزاءً علىٰ عملٍ هو ممتنٌّ به عليك ، وفضلٍ هو موصله إليك ؟!

ولٰكن بوعده الصدق ، وقوله الحق أنه كما ابتدأك بالإحسان من غير سؤال .. أن يثيب عباده بعظيم الأفضال ، وجزيل النوال ، فمن أنت وما أنت حتىٰ تكون أهلاً لخدمته ، أو محلاًّ لمحبته ؟!

فاعرف قدرك ، والزم شكرك .. تكن لفضله مستزيداً ، ولإحسانه عتيداً ، ولي في ذٰلك :

كفاكَ إنْ كنتَ ذا عقلٍ وإيمان ... أن الإلٰه رضيكَ أهْلاً لذا الشَّان
لطاعتِهِ فكفىٰ ذا منهُ إحسان ... فالكل آلاؤه حق وتبيان

❋ ❋ ❋

ثم بيَّنَ من جملة ما يورده الحق علىٰ عباده صنوف الجزاء في الدنيا دون ما يدَّخره في العقبىٰ ، فقال رضي الله عنه :

## كَفَى ٱلْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ

فلما كان النظر فيما تقدَّم من كون رضاه العبد أهلاً لطاعته جزاء أخفىٰ .. أخذ في بيان ما **يظهر أثرُهُ عند كل عاملٍ صادقٍ من وجود الفتوح** ، وورود المنوح ، في أصناف الأعمال ؛ من وجود صفاء الأحوال ، والتمتُّع بلذيذ الوصال ، **واللطف بمؤانسة تدلِّيات الجمال** ، مما يصغر في جنبه كل جزاء ، ويتضاءل عنده كل عطاء ؛ فذكرُ الثمراتِ العملية بوصف الفتوح ، وذكر المؤانسة بإيراد المنوح .. **يشير إلىٰ أن المؤانسة والمشاهدة لا تدخل تحت أحكام المجاهدة** ، ولٰكن المجاهدة طريقٌ إليها ، وتعرُّضٌ لديها .

وأما الفتوح التي يريهم إياها [ إما ] من طريق الدليل والبرهان ، وإما من طريق الكشف والعيان .. **فتتشكَّلُ لهم صور الأعمال صوراً نورانية** ، ومقامات أخروية ، **ونعائم خلدية** ، وسرر وأرائك ملكية ، **وأنهار مائية** لبنية ، وأنهار عسلية ذوقية ، وأنهار خمرية لطفية كشفية ... إلىٰ غير ذٰلك ممَّا يفتح علىٰ قلوبهم في كل سورة ، وفي كل كلمة ، وفي كل حرف ؛ **من منائح الفتوح** ، ومما يندرج فيه نعيم الجنان ، **وتختفي عند ظهوره حسيس النيران** ، ولا يقدر أحدٌ أن يصف ما يفاتح به قلوب العاملين على البصيرة البيضاء ، والمحجة السمحاء .

وما لم يجد العامل شيئاً مما وصفنا ، بل فوق ما أشرنا .. **فهو بعدُ لم يخرج عن مضيق الهوىٰ** ، ودهليز الدعوىٰ ، ولم تخلص طاعته عن شوب الحظوظ .

وأما ما يورده من المؤانسة . . **فلا يقدر أحدٌ على وصفه ؛ لأنه لا** تكون غاية كماله وكلية وصاله إلا بعد استقرار أهل الدارين حين يسألهم الحق سبحانه : **اسألوني عبادي** ، فيقولون : ماذا نسألك وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً ؟! فيقول : رضاي عنكم **فلا أسخط عليكم بعده أبداً**[1] .

فهٰذا وما شاكله من لذيذ الخطاب وشهي الجواب . . من المؤانسة ، **وقد يجد أهل الله في الدنيا طرفاً من ذٰلك** ، ونسيم لطف مما هنالك ، فيتلذَّذون به ، ويتروَّحون من عناء البعد ؛ ولذٰلك يقولون : **ليس شيء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده المحبُّون من التملُّق مع الحبيب** ، وتدلي القريب ، **ولي في ذٰلك** :

إنَّ الجزا في قلوبِ العاملينَ لهُ ... فتحٌ يَجِدْهُ أولو الألباب والفطن
ولذَّة الحبِّ في الدُّنيا يحاولُهُ ... مَنْ كان ذا شغفٍ في السِّرِّ والعلن

* * *

ثم بيَّنَ أن **عبادة المحجوبين معلولة** ، ونيَّاتهم مدخولة ، **فقال** :

---

(١) رواه البخاري ( ٦٥٤٩ ) ، ومسلم ( ١٨٣ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وُرُودَ ٱلْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ

من عبده وقام بعبوديته علىٰ حسب امتثال الأمر ، واجتناب النهي ، والعبادةُ هي هٰذه ؛ لأن الله سبحانه تعبَّد عبادَه علىٰ أن يعبدوه لا يشركون به شيئاً ، ومن أشرك حظَّ نفسه في انبعاثه على العبادة . . فما أدَّىٰ حقَّ وصف الحق ؛ لأن حقه الطاعة على العباد مجرداً من غير جزاء ؛ لأنه خالقهم وسيدهم ومالكهم .

ولا يستحق المملوك علىٰ مالكه جزاء ، وإنْ جزاه . . فمحضُ تكرُّم ، وإذا طلب العبد علىٰ عبادته جزاء أو سلامةً من عقاب . . فما وفَّىٰ بحق العبودية ، ومنشأ ذٰلك الجهل بأوصاف الله وما هو عليه من الغنىٰ ، وما العبد عليه من الافتقار .

وقد وردت أحاديث دالَّة علىٰ أن العبد لا يكون باعثه على العبادة إلا محض المحبة لله ؛ كحديث : ( لا يكون أحدكم كأجير السوء ؛ إن أُعطي . . عمل ، وإن لم يُعْطَ . . لم يعمل ، ولا كعبد السوء ؛ إن خاف . . عمل ، وإن لم يخف . . لم يعمل )[1] .

والقلب إذا امتلأ بمحبة الله . . لم يبقَ فيه متسعٌ لذكر الجزاء .

فغاية مطلب العارفين ، ومنتهىٰ نظر المحققين إلىٰ تخليص العبادة لله لا لشيءٍ من الحظوظ العاجلة ولا الآجلة .

وما ورد من طلب الجنة والاستعاذة من النار . . فليس يناقض هٰذا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ٣/٢٤٢ ) من كلام سلمة بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

المعنىٰ ؛ لأن طلب الفضل من جملة وظائف العبودية ، والفرار من الانتقام أيضاً من جملتها ؛ فالطلب يحقِّق مقام الفقر والفاقة ، والفرار من الانتقام يحقِّق مقام الضعف ، ويظهر الذلة وقلة الطاقة ؛ لمقاومة أوصاف الجلال ، وهـٰذا لا يخفىٰ أنه من جملة مقامات الرجال ، في مقامات الأحوال .

وأما عند خلوصهم عن رؤية الأغيار ، وارتفاع الأستار عن مصونات الأوصاف العلية . . فلا يكون للعبد شعورٌ بالأغيار ، ولا طلبٌ لجنةٍ ولا هرب من نار ؛ لاندراج كل ذٰلك تحت أوصاف جماله وجلاله ، فلذٰلك قال قائل منهم في حال الخطاب ومراجعة الجواب : لا عبدتك لجنتك ، ولا لخوف من نارك ، بل حباً لك ، وقياماً بربوبيتك ، ووفاء بما أنت له أهل ؛ فأنت أهلٌ بأن تُطاع ولا تُعصىٰ ، وتُشكَر ولا تُكفَر ، وتُذكَر ولا تُنسَىٰ [1] .

فمن أُقيم في مقام المحبة . . وفَّىٰ هـٰذا المقام حقَّهُ على الذوق الصريح ، والكشف الصحيح ، ومن لم يحظَ من مقام المحبة بحاله . . فلا يمكنه الوفاءُ بذٰلك ، بل لا بد من علة تبعثه ، وخوف ينشطه ، والعلل سواء ؛ سواء كانت دنيوية أو أخروية .

ومن كان باعثه الجزاء والحظ . . فلا يخلو : إما أن ينبعث لله لينيله ذٰلك ؛ فالمرجُوُّ من فضل الله : أن يجزيه الجزاء الأوفىٰ ، ويقيَهُ ما هو خائفٌ منه ، وإما ألَّا يخطر له غير ذٰلك الحظ المرغوب ، والعقاب المرهوب ، فلا تصح عبادته على الفتوىٰ عند العلماء .

---

(١) انظر « غيث المواهب العلية » ( ١/٢٤٤ ) ، وثَمَّ أثر رواه الخطيب في « تاريخه » ( ٦/٣١٢ ) بهـٰذا المعنىٰ .

والذين قاموا لله متفاوتون ؛ فمنهم : القريب ، والأقرب ، ومنهم : من يرغب إلى الله ويفزع إليه في تحقيق مطلوبه والأمان من مرهوبه ؛ فهٰذا من الأبرار .

ومنهم : من يرغب في تحقيق الصدق في عبادته له لا لشيء ، ومنهم : من يفزع إليه ويرغب ويضرع في فناء وصفه وغيبته عن رؤية عمله ، وإخراجه عن مضيق وجوده إلىٰ فضاء شهوده ، قد شغفه عشق الحبيب عن أن يرجوَ أو يخاف غيراً ، ويطمحَ نظره إلىٰ سواه ، أو يشهدَ إلا إياه ، فهٰذه رتبةٌ في القرب ؛ وهي أوائل مقامات المقرَّبين .

ومنهم : من لو كلف علىٰ رؤية الأغيار ونفسُهُ من جملتها .. لم يجدْ إلىٰ ذٰلك سبيلاً ؛ فهٰذا هو الذاهب في الله عن نفسه ، والمأخوذ عن حسِّه ، المفارق لحبِّه وأُنسه ، الغائب عن الوجود ، المختطف في الشهود ، ولا خفاء أن ذٰلك كلُّ الوجود له ؛ لأنه لله لا لشيء دونه ، تكلُّ عن وصفه الفهوم ، وتعجز عن تحقيق حالته الرسوم ، فلا يقدر قدره ، ولا يحقق أمره سوىٰ من بيده ملكوت الأشيا ، وتحت حكمه حقائق الآخرة والدنيا .

وأما من سوىٰ ذٰلك .. فهم الآخذون في التفاني ، الذين تتغاير فيهم الحقائقُ والمعاني ، والقيام لله لا يكون إلا بالله ؛ إذ لم يقم بحق وصفه من بقيت فيه من البقايا الغيرية ، والنعوت البشرية ، كيف والذين خلقوا من عالم الصفاء ، المجبولون على الوفاء ، من الأنبياء والأصفياء والعرفاء ، وأهل المحلِّ الرفيع ، والمنزل المنيع ، ملائكة القرب يقولون : ما عبدناك حقَّ عبادتك ، وسيد الأنبياء ، ومقدم الأصفياء ، أكرم أهل

الأرض والسماء يقول : « **سبحانك ؛ لا أحصي ثناء عليك** »[1] ، ولٰكن بحسب منازل القُرْب ، ونتائج الحب يكون بحسبها القيام ، فكلما كان منزلته أقرب ، وتحقيقه في المحبة أصوب . . كان قيامه بحقِّ العبودية أتمَّ ، ونتيجة محبَّته أعظم .

وكل مــن الصوفية في هٰذه المشــاهد تكلَّم ، وأعرب عمَّا سـنح له وترجــم عما منح ؛ فمنهم من قال : إني لأسـتحيي أن أعبدَهُ لشــيء ، ومنهم : من يقول : ما عبدتك لجنتك ، ولا خوف نارك ، بضمير الحاضر ، ومنهم : من جعل ذٰلك بضمير الغائب علىٰ مواجيدهم .

**وأما تحقيق هٰذا الأمر** . . فما قام بحقِّه سواه ، ولا قدر حقَّ قدره إلا إياه ، وللذاهبين عن رؤية وجودهم ، المستغرقين في حضرة شهوده ، والمتعلِّقين بوصف معبودهم . . نصيبٌ من ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

مَــنْ كانَ يعبــدُه لنيــلِ مطلبِــهِ ... من حظِّ عاجل أو مرغوبِ في الأجلِ
أو أمــنِ خوفٍ فذاك الحظُّ يحجبُهُ ... عن رتبة القرب منضاف إلى العللِ
كُنْ عبده لا تكن تطلُبْ سـواه ولا ... ترغَبْ ولا تجزعَنْ مِنْ صولةِ الأسلِ
فمــا وفــىٰ حــقَّ مــولاهُ وسـيده ... مَـنْ كان يطلب منه الحظ بالأصلِ
لٰـكن يكُنْ يطلبُ الفضلَ العميمَ فما ... فــي ذاك لــومٌ ولا عتــب ولا زلــلِ

* * *

فعندما يفتح للعارف الفهم عن الله في جميع ما يصدر من التعرُّفات . . يكون يشهد معروفه ، وينال بغيته ومطلوبه في كل ما برز عليه من تحت سجاف الحكمة ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٣٢٤ ) .

مَتَىٰ أَعْطَاكَ . . أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، وَمَتَىٰ مَنَعَكَ . . أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ ذَٰلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ

العطاء : محبوبٌ بالطبع ، ومستلَذٌّ بالجبلة ، والمنع : ثقيل على النفوس ؛ لأنه من تجلِّي القهر ، لٰكن إذا فتح للعارف باب الفهم عن الله . . ظهرَ له من تعرُّفِ الله إليه ما يخفِّف عنه ثقل القهر ، ويعرفُ فيه وجهَ الأمر ، ومطلوبه : أن يعرف الله بكل اسمٍ من أسمائه ، ووصفٍ من أوصافه ، ونعتٍ من نعوته .

فإذا كان كذٰلك . . فلا جرم أن يكون البر والقهر سيين ؛ لأنه إن كان طريقه الكشف . . استوىٰ ذٰلك لديه ذوقاً وحالاً ؛ لشهود أحدية الفاعل ، وواحدية أوصافه ، وفردانية نعوته ، وتقابل أفعاله .

وإن كان من أهل الحجاب لٰكن له بطريق العلم والإيمان نظر . . فلا جرم أيضاً ألا يجهلَهُ في ذٰلك ، وأن يشهد اللطف في القهر كما يشهده في البر ، لٰكن لا ذوق وحال ، بل علم وتصديق إيمان ، فهٰذا له من إقبال اللطف بحسب إيمانه ، ووفور علمه قوة وكثرة ، فهم أهل المثوبات والحسنات .

وأهل الكشف الذين يشهدون على الكشف والذوق . . هم أهل الدرجات الرفيعة ، والمقامات الشامخة المنيعة ، والمطلوب من العباد ـ والحكمة في خلقهم ـ معرفةُ سيِّدهم علىٰ ما هو عليه من الصفات والنعوت ، ولا طريق في الوصول إلىٰ ذٰلك إلا بما يتحلَّىٰ به من الأفعال الموافقة البِرِّيَّةِ ، أو المؤلمة القهرية ، والأسماء : إما أسماء جمال ، أو أسماء جلال ، ولا بد لكلٍّ من ظهور بمقتضىٰ تجليه يغاير غيره ،

فينبغي للعبد أن يكونَ طلبه لمعرفة ربه بجميع أسمائه وإن خالفَتْ طبعه وباينت جبلَّته ؛ ليكون لله لا لنفسه .

وإذا علمت أن الله تعالىٰ قد توجَّهَ إليك باللطف قبل وجودك وخزائنُ العطاء لديه ، ودفعُ البلاء موقوف عليه ، وأنت تعلم نفوذَ قدرته ، وبلوغ حكمته . . علمت أنه لم ينزل بك بلية ، ولا منعك عطيةً إلا لمصلحة تعود عليك ، وعلمت ـ لا محالة ـ وجودَ اللطف في كلا الحالين ؛ فقد يكون العطاء سبباً لمنع العطاء ، وقد يكون البلاء سبباً لدفع البلاء ، ولا يعرف ما قلنا إلا من مارسَ مطالعة كتب المحقِّقين ، ووقف علىٰ أحوال العارفين ، وما هم عليه من الثبات عند تغيُّرِ الأحوال ، وأما من استرقَّهُ الهوىٰ واستعبده . . فلا يكاد يصدق بذٰلك ؛ فضلاً عن أن يتحقَّقه .

فإن أردت أن تعرف لطفه بعباده في جميع ما يتجلَّىٰ به عليهم ، ويورده من صنوف التعرفات لديهم . . فاعمل علىٰ جلاء مرآتك ، واخرج عن مرادك ، وادفن وجودك تحت تراب الآثار الحقية . . تَرَ ذٰلك عياناً وتحقيقاً وبياناً ، وإلا . . فمن لازمك طلب الحظوظ ، وطلبُ الحظوظ حاجبة عن صفو العبودية ، ولي في ذٰلك :

إن العطا يشهد العبد اللبيب إذا ... رأىٰ من البر ما يورد من النعم
ومشهد القهر يهديه ويكشف عن ... وصف الإلٰه في الآزال والقدم
إذا شهدْ ذو تحققْ لا محالة أن ... اللطف في ذاك مصحوب فلا سأم

* * *

فإذا تحقَّقت أن العطاء نعمةٌ ظاهرة ، وفي المنع نعمةٌ باطنة . . لم تتأثر بتغايرهما ؛ إذ هما نعمتان من الله ، لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ ٱلْمَنْعُ ؛ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ ٱللهِ فِيهِ

قد تقدم في قوله : ( إذا فتح لك باب الفهم في المنع . . **عاد المنع هو عين العطاء** )[١] ، وإذا تألم العبد عند ورود صفات القهر ، وتجليه عليه بمثل المنع وسائر الآثار الجلالية . . **دلَّ ذٰلك علىٰ عدم فهمه عن الله فيه ذٰلك الوارد** ، ووجود حجابه عن أوصاف الله تعالىٰ وما هو عليه من الكمال ، **فليستأنف الإرادة إن كان مريداً** ، ويتخذ له في طريقته دليلاً ، وليعمل علىٰ تلطيف مرآة قلبه بأنواع الرياضات ، وأصناف المجاهدات ، **فعند ذٰلك يُرجَىٰ** له من الله أن يفتح عليه باب الهداية ، والفهم عنه في جميع ما يواجهه من تعاقب الأحوال .

**والفهم** ـ كما علمت ـ : أن يريك ما أعدَّ الله فيه للراضين ، وما ينيل الصابرين ، إن لم تكن من الموحدين ، الذين غاية مطلبهم من الله أن يعرفوه بجميع أوصافه ، وأن يحقِّقوا وجوده في جميع الآثار الصادرة في جميع الأحوال ؛ **لئلا يجهلوه في شيء** .

فإذا كان مراده المعرفة كما وصفنا . . كان كلُّ ما ظهر عليه له فيه الزيادة الكبرىٰ ، والمنزلة الزلفىٰ ، فلا شك أن تستويَ لديه الأحوال ، ولا يشمئزَّ من منع ، ولا يأخذه العطاء ، بل **يكون مع الله كيفما كانت الحالة** ، إن مُنع . . **كان مشهده الاسم المانع** ، وإن أُعطي . . **كان مشهده المعطي** ، وهو أحديُّ الذات ، واحديُّ الصفات .

والمريد لذٰلك السبيل دائماً يتصفَّحُ وجودَ الحق في أعيان الوجود ، فيراه موجوداً بكماله في كل موجود ، **فلا غروَ أن يعطي اللهَ الأدبَ في**

---

(١) انظر ما تقدم ( ص ٣٩٠ ) في الحكمة ( ٨٤ ) .

جميع مظاهر أسمائه ، ومبادئ آياته ، **ولي في ذلك :**

فـلا تألَّـمْ إن لـمّ البـلاء إذاً ... ولا تـرىٰ غيـره فـي كل مشـهودِ
فالفهم عنه فيِ الأشياء يكشف ما ... ستره عنك جمود الطبع محمود

* * *

**والفقيـر المعتمـد على الله** يكون جـلُّ مرمىٰ نظره إلىٰ عواقب الأمور ومصادر الأفعـال ، **والمغـرور الجاهـل** بالضدِّ مـن ذلك ؛ أي : ينظر إلىٰ حاصـل مـا يفعله ، ولا ينظر إلىٰ مـا تتضمَّنه العاقبة ؛ **لذلك نبَّهَ المؤلفُ علىٰ هـٰذه الخصلة بقوله :**

رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْقَبُولِ ، وَقَضَىٰ عَلَيْكَ بِٱلذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ ٱلْوُصُولِ

( رُبَّ ) تأتي للتقليل كما قدمنا الإشارة إليه ، وقد تأتي للتكثير ، فهـٰذا تنبيه منه للمريدين ، ونصيحة للطالبين ، وتحقيق لقصد العاملين ، فينبغي للبصير ألا ينظر إلىٰ صور الأعمال حسنِها وسيئها ؛ فلربما يصحب ما يفعله من الأعمال الحسنة ما يحجبه عن القبول ، مثل الخصال القادحة ؛ كالإعجاب والإدلال ، ورؤية أنه خير ممن لا يفعله ، فيوجب إحباطَه وردَّهُ وإحباط كل عملٍ يعمله ، وهو مستشعرٌ لما ذكرنا من إعجابه أو ريائه أو إدلاله ؛ فإن العامل حال عمله وهو مستشعر لذٰلك يكون باب القبول عنه مسدوداً ، وسبيل الوصول عنه مردوداً .

فلا تنظر إلىٰ عمل حتىٰ تعلم أنه قد قُبل ، وأنىٰ لك بذٰلك ؟! ومتىٰ أراك تقف علىٰ خفايا الرياء ، ودقائق الإعجاب ، ودقائق الحسد ، وبقايا المنازعات للأوصاف الربانية ؛ مثل التكبر والتعظُّم ؟!

فإذا علمت ذٰلك . . فاعمل واعتمد علىٰ فضله ، وخَفْ من اقتراف شيءٍ من هـٰذه المحبطات ؛ فإنها علىٰ من ظهرت عليه الأعمال ، واشتهرت عنه الأحوال . . أقربُ ممن لا يكون بهـٰذه المثابة ، لذٰلك اشتد خوف العاملين العبَّاد ، والمجاهدين والزهاد ، فإنها ترد في بعض الأحيان علىٰ حين غفلة منه عنها .

ولا يوحشك أيضاً وجود الذنب وحشة تفضي بصاحبها إلىٰ أن يقطع بالبعد بسبب ذٰلك ؛ فلربما كان أنفع له من طاعة يصحبها ما

ذكر ، ولم يتحقق خلوصها ، فالذنب يوصل صاحبه إلى الانكسار ، واستحقار نفسه واستصغارها ، وتعظيم غيره ممن لا يفعله ، ويوقفه في خضوع التائبين ، وخشوع الخائفين طولَ عمره ، كلما مرَّتْ عليه صورة ذٰلك الذنب . . تجدَّد عنده من الحزن والانكسار ، وتنفُّس الصعداء بالاستغفار ، ولوم نفسه واحتقارها ما لا يوازيه كثيرٌ من الأعمال في كثيرٍ من الأعصار .

فانظر إلىٰ عاقبة الفعل وباطنه ، ولا تنظر إلىٰ صورته في الحال ، قالوا : رب ذنب أدخل صاحبَهُ الجنة ، وهو مقتبسٌ من قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ .

فالأصلح للعبد : أن يعمل الطاعات ويجتنب المنهيات وهو غير حاكم بخيرية هٰذا ولا شرِّية هٰذا من هٰذه الحيثية ، لا من حيثية نفس الطاعة والمعصية ، وأما نفس الطاعة مع سلامتها من القوادح وقبولها . . فهي خير بلا شك ، وكذٰلك المعصية إذا لم تقترن بها التوبة منها ، والإتيان بضدها ، والحزن علىٰ فعلها ، وصحبها التمادي والإصرار عليها . . فهي شرٌّ بلا شك ، ولٰكن الكلام هنا فيما يترتَّبُ علىٰ وجود المعصية من شرائف الأخلاق والطاعة ، وما يترتَّبُ على الطاعة من سيئات الأخلاق والمعاصي ؛ كالإعجاب وما كان من قبيله ، فلذٰلك عبَّر بـ ( ربما ) .

وأما الغالب . . فالطاعات شهادةُ العناية بمن أقيم فيها ، والمعصية علامة الشقاء لمن أقام عليها ، بشرط سلامة الأول مما ذكر ، وبقاء هٰذا علىٰ ذٰلك ، ولم يبقَ إلا أنَّا لا نقطع علىٰ هٰذا بالشقاء ، ولا نحكم

لـلأول بالسـعادة ؛ للجهل بالسـابقة ومـا تكون الخاتمـة ، وذلك حكمة بالغة ؛ لئلا يطَّلع السعيد على سعادته فيتَّكل ويترك العمل ، ولئلا يطَّلع الشـقي فيزداد في غيِّهِ ويأتي الأشـياء من غير مبالاة ولا توقف ، أو لغير ذلك مما لا يُطلَّـع عليـه من خفـي الحكمة ؛ فقد ورد : « والذي نفسـي بيـده ؛ إن أحدكـم ليعمـل بعمـل أهل الجنة حتـىٰ ما يكون بينـه وبينها إلا ذراع ـ أو قال : شـبر ـ فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ـ أو قال : شبر ـ فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1] .

فمـن ذلك لـم يقطع بسـعادةٍ ولا شـقاوة ، ولكن لكل شـيءٍ دلالة ، ولكل رسمٍ علامة ، ولي في ذلك :

فربمـا يفتـح الأعمـالَ خالقُها ... وما فتَحْ بابَ ما يصلحْ به العملُ

وأيضًا المعاصي لا توجبْ لصاحبها ... بُعْداً إذا صلحَتْ ٱلْأحوال والخللُ

إذا صحبْ صاحبَ الأعمال رؤيتُها ... كانت كما جملة الأوزار والزلل

وصاحـبُ الذنـبِ لا يُقنِطْهُ رؤيتها ... إن سال من حزنه الأجفان والمقل

*

إذا علمت أن حكمة الطاعة إظهار العبودية ؛ وهي لزوم أوصافك ، ومعرفة نفسك ، والتعلُّق بأوصاف الله فيها .. تحصل معرفة الله عز وجل ، فإذا صحب الطاعة ما يناقض ذلك ، وصحب المعصية ذلك .. كان ما قاله المصنف هٰهنا ؛ وهو قوله رضي الله عنه :

---

(١) رواه البخاري ( ٣٢٠٨ ) ، ومسلم ( ٢٦٤٣ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

## مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلّاً وَٱفْتِقَاراً . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَٱسْتِكْبَاراً

هٰذه زيادة بيان لما أسلفه ، ( معصيةٌ ) جرت ، وقضيةٌ حكمت ، وهفوةٌ سبقت ، ثم صحبَها الندم والانكسار ، والذلة والافتقار ، واستصغار النفس ؛ فمعصيةٌ أعقبت هٰذه الأحوال ، وأثمرت هٰذه الآداب ، وأقامت صاحبها علىٰ جادة العبودية التي هي سـلَّمٌ إلىٰ تحقيق كمال الربوبية . . ( خيرٌ ) بلا شك ولا ريب من طاعةٍ باينت هٰذه الأخلاق ، ونازعت في أوصاف الخلَّاق ؛ وهي العزة والاستكبار ، فإذا صحبت الطاعة ذٰلك . . فلا شك أن معصيةً أثمرت لك صِرْفَ العبودية خيرٌ من طاعة نازعت بها أوصافَ الربوبية .

وكان ذوو البصائر الناظرون إلىٰ ما من الله من الفضل يكرمون الخلق علىٰ قدر ما هم عليه من الانكسار والذلة والافتقار ؛ فقد يأتي عاصٍ منكسر ، وناظر إلى الله بالحياء منه ، والخوف ، والخشية ، وتعظيم جنابه ، ومقت نفسه ، واحترام غيره ممَّن لا يكون علىٰ مثل حاله ، فيكونون معه كما يكون الله له ، فتزيد له الرحمة عندهم ، ويضعف له الكرامة ، ويأتي غيره علىٰ غير هٰذه الأخلاق ، فيكونون عليه كما يكون الله عليه بالمقت والإهانة ؛ لرؤية نفسه دون الله ، ويرىٰ أن له عند الله المنزلةَ بما هو عليه من الطاعة ، ولا يرىٰ لغيره ما يوجب له الرحمة ، فيعامل هو بذٰلك .

فإذا أتىٰ هٰذا المنكسر علىٰ مثل هٰذه الحالة . . نظر الله إليه بالمغفرة والرحمة ؛ لما هو عليه من اضطرار الحال ، وهو يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وقد يأتي المطيع بالضدِّ من ذٰلك ؛

العز ، والصولة ، والتكبر ، وازدراء عباد الله ، وتعظيم ما هو عليه ، واعتماده عليه دون فضل الله ، فيمقت ويبعد ؛ كما يروىٰ في مثل ذٰلك المعنىٰ في عابد بني إسرائيل وخليعهم ، حيث جلس الخليع إلىٰ جنب العابد وهو متشفع به إلى الله ، ومحترم لجنابه ، ومعظم لشأنه ، ومحتقر لنفسه وماقتها ، والعابد معظِّم لنفسه ، ومستصغر للخليع ، ومترفِّع عنه ، وعلىٰ رأس العابد غمامة تظلُّه ، فحولت الغمامة علىٰ رأس الخليع ، ومقت العابد علىٰ رؤيته أنه عند الله بمحل رفيع ؛ لما هو عليه من العبادة [1] . نعوذ بالله من سوء القدر .

هٰذا إذا صحب المعصية الندم والرجوع وعدم الإصرار ، وكانت منه علىٰ غير معاندة ، وأما أنه يرتكب المعاصي ، ويطلب التقرُّب . . فلا يقول بذٰلك قائل ، والطاعة أيضاً إذا صحبها العز والاستكبار المناقضة لها ، والمباينة لحكمتها التي لها أُقيمت ، ومن أجلها طُلبت ، وإلا . . فالطاعة لا يقول عاقل : إنها تكون دون المعصية ، أو إن صاحبها يهان ، بل هي التي بها الزلفىٰ والكرامة دنيا وأخرىٰ ، وتعظيم أهلها من أجلِّ القربات ، وإهانة أهل المعاصي المقيمين عليها ، والمصرِّين المتهورين في معاصي الله كذٰلك من أعظم الرتب .

فالود والحب لأهل الطاعة من صريح الإيمان ، والبغض والمنابذة لأهل المعاصي والطغيان دليلٌ علىٰ كمال الإيقان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، وقال في وصف أهل الإيمان : ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال فيهم أيضاً : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ .

---

(١) الرعاية ( ص ٣٨٨ ) ، ورواه مختصراً أبو نعيم في « الحلية » ( ٢/٢٢٦ ) .

فينبغي لمريد سلوك الإرادة أن يتحرَّىٰ أخلَّاء الصدق والوفاء ، ويجانب أهل الخيانة والجفاء ؛ فإن مؤانسة أهل الغفلة ظلمة ، ومباينة أهل الصدق وحشة وغمة ، فإياك ثم إياك والركون إلى الفسَّاق ، والفرار من أهل الحق وأهل التفرُّد والإشفاق ؛ فإن ذٰلك من الغرور ، وما ذكر ذٰلك إلا لئلا يركن مريدٌ إلىٰ نفسه وما يصدر عنه ، فيكون محجوباً بفعله ومبعوداً ، فلا يظن أن المقصود بذٰلك نفس الطاعة والمعصية ، ولٰكن الممدوح : ما يصدر من الأخلاق السنية ، والمذموم : ما يظهر من الأحوال المذمومة والأخلاق الملومة ، ولي في ذٰلك :

فالطاعةُ آن كان يصحبُها ويصحب من
قامت به فعلُ مذمومٍ هي العطب
ومعصيةٌ أورثتْ ذلاّ ومسكنةً
كانت لصاحبِها مِنْ جملة القربِ
فلا تكن تنظر الأشيا بصورتها
وانظر لما تثمرهْ من خالصِ الأدبِ

ولما كان العبد مطلوباً بالعبودية لله تعالىٰ على الدوام ، والقيام له على اللزام ؛ لدوام إنعامه ، وتوالي إحسانه . . عرَّفك بأنك لا تخلو عن نعمة نَفَساً ؛ فمن جملة تلك النعم : ما قاله المؤلف رضي الله عنه ؛ حيث قال :

نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا : نِعْمَةُ ٱلْإِيجَادِ ، وَنِعْمَةُ ٱلْإِمْدَادِ

النعمة : هي ما يحمد عاقبتها وإن كانت غير ملائمةٍ لطبع البشر من حيث مطلق اسم النعمة ، **والذي يستحق عليه الشكر** : هو المستلذُّ طبعاً ، ولا ألذَّ من الوجود ؛ إذ به تدرك سائرُ الملاذِّ الحسية والمعنوية ، **والعدم** : لا يوصف بلذَّةٍ ولا بألم ، **ونعمة الوجود** : هي التي أبرزت الموجود من العدم السابق [١] ، **ونعمةُ المدد** : هي التي يحفظ بها من العدم اللاحق .

**والممدُّ لهٰذه النعم وغيرها** مما يعجز عن حسبانها ولا تقف قرائح العقول إلى الوصول علىٰ عدِّ أصنافها . . **هو الله سبحانه وله الحمد** .

فلو كان فيما كان . . فلا انفكاك له عن هاتين النعمتين العظيمتين ، والمِنَّتين الجليلتين ، **ولٰكن نعمةٌ مستمرةٌ غير منقطعة** ؛ وهي التي تستحق بأن تسمىٰ نعمة حقيقة ، **ونعمةٌ منقطعةٌ منقضيةٌ معقوبةٌ** : إما بالعدم ، وإما بوجود الألم ؛ فمن هٰذا التقسيم تعرف النعمة من اللذة الاستدراجية .

**وهٰذا قدَّمه ليبين افتقار الكل إليه ابتداءً ودواماً** ؛ فلا غنىً عنه لشيء ، وانفراده بالغنى المطلق دون الأشياء ، فكل ما توجَّه إليه التكوين . . **فله هاتان النعمتان** ، ونبَّهَ عليهما ؛ **لأنهما أكثر ما يغفُلُ عنهما الجهَّال** ، فلذٰلك تراه يتقلَّب في نعم الله وهو لا يشعر بكونه في نعمة ، ولو خُلِّيَ

(١) في النسخ : ( أبرزت الوجود من العدم السابق ) .

عنه المدد الإلٰهي ، والقيام الرحموتي ، واللطف الرباني . . **لااضمحل ولاانعدم** .

فكم من الله أمدادٌ يجودُ بها ... على الوجودِ بفيضِ الفضلِ والكرمِ
فنعمةُ الله ما برحت يجودُ بها ... على البريَّة في الأشباحِ والنسمِ

* * *

**فنعمة الإيجاد** هي الأصل ، وهي التي قبلت الإمداد ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

أنعم وتفضَّلَ ومنَّ وتطوَّل بالإيجاد قبل أن تكون شيئاً مذكوراً ، بل كنت نسياً منسياً ، لم تكن أهلاً لإيراد مدد ، ولا لجزيل عدد[١] ، ثم أمدَّ بأمداد عظيمة ، وآلاء جسيمة ، وتفصيل أمداد النعم ، كل شيء علىٰ حدته . . مما لا مطمع فيه .

ولٰكن الإشارة إلى البعض منها تدلُّ على الكل ، والمعرفة بالجملة منها تُغني عن التفصيل .

فمن النعم : ما كانت نعماً أزلية سرِّية ، ومن النعم : ما هي نِعَمٌ روحية ملكوتية ، ومن النعم : ما هي نعمٌ قلبية علمية ، ومن النعم : ما هي نعمٌ مُلْكية حسية .

فالنعمة الأزلية : هي أن رشَّ من نور وجوده علىٰ ظلمة عدمك ، فوجدت وتهيَّأتْ فيك القابلية لكل ما يُلقىٰ إليك من الأسرار التوحيدية الحقية .

وأما النعمة الروحية . . فهو أنه توجَّهَ إليك بالخطاب ، وألهمك الصواب في الجواب .

وأما النعمة القلبية . . فهي أنه أنزل في قلبك نور الإيمان بما سبق من سرِّ خطابه ، وأنتج فيه نتائج الزينة ، والثبوت عليه من غير تردُّد ولا توقُّف ، وفتح فيه خزائن العلوم الغيبية ، وروازن الرحمات العرشية ، والصور النورانية اللوحية ، على الصفائح الكرسية ، وجعله مرآة تظهر

(١) في ( ب ، ج ) : ( ولا تحويل عدد ) بدل : ( ولا لجزيل عدد ) .

تجلياتِ الأسـماء الإلـٰهية ؛ ففيه تظهر هيولى الحقيقة [1] ، ومنه تفيض سـبل الطريقة ، وتجري أنهـار العلوم وخلجان الفهـوم ، وعليه يكون مستقر المملكة الإنسانية ، والسلطنة الإيمانية .

وأمـا النعم المُلْكية الحسـية . . فهو مـا منَّ به مـن القيام علىٰ ما أرشـدك إلى القيام به ، والقوة على القيام بالوظائف الشرعية ، والدوام عليها ، والصبر عن مناقضاتها ، واجتناب قوادحها ، وصرف النفس عن شـهواتها ، ودواعي تزويراتها ، وهي لا تنحصـر ، ومع كونه منَّ عليك بـذٰلك وأنعم . . مدحك عليـه وأثابك ، ووعدك عليـه جزيل العطاء ، وعظيم الفضل ، ووجَّه إليك جميع الأسباب ، وجعلها لك بسرِّ التسخير متوجِّهة ، وإليك مقبلة .

فلا تحصىٰ نِعَمه ، ولا تنحصر أيادي جوده ، فمن لم يتفقَّدها . . لم يشكرها ، ومن لم يشـكرها . . فقد تعرَّضَ لزوالها وانتقالها عنه ، فمن أين للقوى البشـرية الترابية أن تتأهَّلَ لشيء من هـٰذه النعم لولا فضله ، وعميـم جوده ، وحفظها ، والثبوت عليها . . مما لا يقدر ضعف البشـر عليه ؟!

فإن الأحوال معرضةٌ للتغيير والزوال ، وسرعة الانتقال ، فينبغي للعبد أن يضرع إلى الله ، ويديم الملجأ بين يديه في حفظ ذٰلك عليه ، ودوام توجُّهه إليه ، وصرفه عن ضده ونفرته منه .

ولو أخذنا في عدِّ ما في صورة الإنسان من النعم الإمدادية علىٰ ممر الأنفاس ، في سائر الحواس . . لاستدعىٰ إلىٰ طول في تقسيم أصنافها ، وتعديد أنواعها .

---

(١) الهيولىٰ : أصل الشيء ومادته .

ولي في ذٰلك :

أنعـمْ عليـكَ بإيجـادٍ وتصويـر ... ومـدَّ مـن فضلـه أيمـان وتنويـر
فلـم تـزلْ تتوالـى أصنـافُ نعمتِهِ ... مقـدَّر الـكُلِّ مـنْ الأشـيا بتدبيـر

* * *

فإذا عرفت هاتين النعمتين : نعمةَ الإيجاد أولاً ، ونعمةَ الإمداد ثانياً ودواماً . . تبيَّنَ عندك حقيقة افتقارك ، وظهر لك وجود اضطرارك إليه أبداً سرمداً ؛ إذ لا يستغني وجود عن المدد الذي به يكون موجوداً دنيا وأخرىٰ ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فَاقَتُكَ لَهُ ذَاتِيَّةٌ ، وَوُرُودُ ٱلْأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ؛ وَٱلْفَاقَةُ ٱلذَّاتِيَّةُ لَا تَدْفَعُهَا ٱلْعَوَارِضُ

فاقتك - أيها الإنسان - ذاتية لك ، والفاقة : هي شدة الاحتياج إلىٰ مدد يدفع عنه ما يناقض حالة الوجود ؛ **وهو ما يدفع عنه العدم** .

فاقتك أيها الإنسان ، إلىٰ وجود اللطف والإحسان ، من المحسن المنَّان . . ذاتية ؛ أي : **أصل ذاتك تطلبُ ذٰلك** ، ولا انفكاك لها عنه ؛ فذاتك أبداً طالبة مستمِدَّةٌ لا غنىً لها ، وإن وجدت لديها الأسباب العرضية . . فلا ترفع هٰذه الفاقة الذاتية ؛ إذ الأسباب خارجةٌ عنها لا تغني عنها .

**لأنها أيضاً** - أي : الأسباب - مفتقرة ومستمِدَّةٌ ، **فكيف ترفع عن غيرها أو تمد غيرها ما هي محتاجةٌ إلىٰ من يدفع عنها ويمدها ؟!**

فثبت عموم افتقار جميع المسببات ، وأسبابها ، في ذواتها ، وأوصافها ، وسائر أفعالها ؛ من حركاتها وسكناتها ، دنيا وأخرىٰ ، وبرزخاً ومقرّاً ، والغنىٰ لله ذاتي في أوصافه ، وأفعاله ، وجميع مقدوراته ومراداته .

**وعلىٰ هٰذا الأسلوب** فاعرف مباينةَ الله لمكوَّناته في جميع أوصافه وأفعاله ؛ **فله الوجوب** ولها الجواز ، **وله الكمال** ولها النقص ، **وله الغنىٰ** ولها الافتقار ، **وله القِدَم** ولها الحدوث ، **وأوصاف الحق لا تفارقه** ، فلا تتغير بتغير الأحوال ، ولا تختلف باختلاف المظاهر ، **وأفعاله أيضاً لا تحتاج ولا تفتقر إلى الآلات والارتباطات** ؛ كما تكون أفعال الخلق بذٰلك موصوفة .

فإذا علمت أن الفاقة لك ذاتية لا تفارق وجودك علىٰ أي حالة كنت . . فلا تزايلك هٰذه الفاقة ؛ وهي ـ كما قدمنا ـ : افتقارك في نفس وجودك إلىٰ من يقيمه ويديم بقاءه .

ثم هٰذا لا يكون مفهوماً لكل أحد ، بل أكثر الناس لا يعلمون هٰذا الافتقار الذاتي لهم ، فرحم الله عباده بورود الأسباب المناقضة لما هم عليه من الوجود ؛ ليرجعوا إليه في كشف ما نزل بهم ، وإيصال ما هم إليه محتاجون ، فذكَّرهم ذٰلك وصفَهم الذي هو لهم بحكم الأصالة ، فيكونون في جميع أوقاتهم وتغاير أحوالهم شاهدين لوصفهم من الافتقار والاضطرار ، ومستمدِّين من الله فضله ، شاهدين لما هو عليه من صفات الكمال ، فيقومون لله بحق عبوديته ، ويعرفون له سرَّ ربوبيته ، فلا ينازعونه في صفاته ، ولا يدَّعون نعوتَ كماله .

فكلما ورد عليهم سببٌ يناقض ما هم عليه من وجود الغنىٰ . . ردَّهم إليه بقهره ، فكان القهر يردُّ إلى الله خلقه بالطوع والخضوع ، ودوام الخشوع ؛ لأن النفس من شأنها ادعاء الأوصاف الربانية .

فرحم الله نفوس المؤمنين فلم يتركها وما هي عليه من الاستطالة ، فأظهر لها سرَّ قهره ، فأجابته خاضعةً لسلطان جلاله ، معترفةً بوحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله ، معترفةً بافتقارها ، ومقرَّةً بعجزها واحتقارها ، فإيراد الأسباب لهٰذه الحكمة ظاهر .

ولو تركها وما هي عليه من دوام مساعداتها في أغراضها وانهماكها في حظوظها . . لبقيت علىٰ دعواها ، ولقيت الله وهي له معاندة ، وفي حلل دعواها ووخيم مرعاها ساذجة ، فأخذها بقهره الذي لا يطاق ، وبطشه الذي لا يغلب ، ولا يفلت منه من أوثق ، ولا يتخلَّصُ منه من

فيه علق ؛ كما يفعل بأعدائه فيما يروىٰ عن أشد الناس عتواً ، وأكثرهم على الجناب الإلـٰهي تكبراً وتجبراً ؛ تركهم وما هم فيه ، فلم يزعجهم بما يعرفهم وجود افتقارهم ، ويوقفهم علىٰ وصف اضطرارهم ، بل تركهم يتقلَّبون في العوافي ، وساق إليهم من الدنيا ما ينسيهم الرجوع إليه ، والوقوف بين يديه ، حتى انقضىٰ أمرهم ، وانتهىٰ عددهم ، فسلَّط عليهم من سرِّ القهر ما لا يقدرون علىٰ دفعه ، ولم يتفرَّغوا إلىٰ معرفة من أورده عليهم وسلطه ، بل أخذ على القلوب أن تفقه ، وعلى الألسن أن تنطق ، والأعين أن تبصر ، والآذان أن تسمع ، فوردوا الآخرةَ بهـٰذا الوصف صمّاً بكماً عمياً .

فانظر إلىٰ حكمة الله في إيراد الأسباب على العباد أنها لهم نعمة ، ووجودها لديهم رحمة لهم ، ولـٰكن الخلق في وجودها يتفاوتون بتفاوت أحوالهم ؛ فمنهم : من يتلقَّاها بالرضا والفرح ورؤية المنَّةِ لله فيها ، كما يرىٰ غيره ذٰلك في الملائمات ، ومنهم : من يتلقَّاها بالصبر والتجمُّل لله ، ومنهم : من يتلقَّاها بالتبرُّم والتضجر ؛ فللأول : الرضا ، وللثاني : العطاء ، وللثالث : نفوذ القضاء .

ولـٰكن إذا نظرت في فاقتك الذاتية . . علمت أن الأسباب العرضية لا تدفعها ، فلا تستغنِ وإن أعطاك ووقاك ؛ فلا يفارقك وصفك ، ولا يزايلك نعتك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولـٰكن قد يفيض علىٰ وجودك فائضات الامتنان ، فيغمرك وجود الإحسان ، فتضمحل أوصافك ، وتبقىٰ هـٰذه الملابس الإحسانية ، والخلع الامتنانية ، فلا تكاد تظهر أوصافك إلا بالعلم بها ؛ وذٰلك في العالم الأخروي حين يلبسهم ملابس فضله وامتنانه في محلِّ رضوانه ، وتجلي إحسانه في أرجاء جنانه .

**ولي في ذٰلك :**

الفقـر للعبـد ذاتـيٌّ وإن بلغـت منـه العطايـا إلـىٰ أقصـىٰ نهايتها
قـد يورد أسـباب تؤلِمْ مـن تلمُّ به لـٰكن بهـا يَعـرِفُ الإنسـانُ غايتها
وترجعُـهُ لأَصْـلِ فاقَتْـهِ وحاجتِـهِ ويذكـر أوصـاف فـي ذاتِـهْ بدايتها

※ ※ ※

**فإذا علمت أن خير أوقاتك** وقت تعرف فيه مقام عبوديتك لسيدك ، وتشهد فيه كمال ربوبيته . . **سلَّطَ عليك من الأسباب** ما يثير ذٰلك منك من الأوصاف القهرية ؛ ليقيمك في خير مقاماتك ، **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

## خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَىٰ وُجُودِ ذِلَّتِكَ

**خيـــر أوقات العبد** : مثوله بين يدي ســيده ممتلئاً بمحبته ، مبتهجاً بقربه ، راضياً عنه في قضائه ، ســاكناً خاضعــاً تحت جريان أحكامه ، منطرحــاً في أرض ذلِّ عبوديته ، **يرى الخير فيما يختار له لا فيما يختار هو لنفسه** ، **خارجاً من حوله وقوته** ، واثقاً بحول الله وقوته .

**فهـٰذا وما شاكله** من كل ما يكون خارجاً عن ملائمة طبعه ، ومقتضىٰ هواه ، ومبايناً لمراده من مطلوباته النفسانية ، وشهواته الحيوانية ، **واثقاً بربه** ، **معتمداً عليه** ، وناظراً إليه ، ومستكيناً بين يديه . . **فهـٰذه أعياده ومواسمه** ، وغاية رغبته فيما يعامل به ربه من نفسه ، **فلا أحسن من حالة العبد إذا كان فرحه بقرب سيده** ، والدخول في غمار أهل حضرته الأدباء ، وخاصَّته الأمناء .

**فخيـر أوقاتهـم أوقـات الضـرورات** ؛ لأنهـا تخرجهـم عـن الاعتماد على الأغيـار ، وتبايـن لهـم الأسـباب الحاجبة لهم عن شـهود مليكهم ؛ فمتـىٰ زالـت عنهم ، ووقعوا فـي ضرورة الالتجـاء إلى الجناب الإلـٰهي ، وصمدت بهم الفاقات ، وملمات الحاجات إلىٰ من لا يصمد في الحوائج إلا إليـه ، ولا تطلـب المواهـب إلا منـه . . **فـأي وقـتٍ أحسـن من هـٰذا** وقـد **أوقفهـم مع الله** ، وردَّهـم من بعد الأسـباب الغيرية والأوهام العدمية إلى اليقين ، **والتحقُّق بمقامات القُرب والتمكين ؟!**

**وكان السلف الصالح يشكرون الله تعالىٰ على الفاقات** ، وإلمام الحاجات والضرورات ، كما يشكر غيرهم على الظفر بنيل الحاجات ، وقضاء الأوطار ودفع المهمات ، حتىٰ إنهم يقومون لله بحق الشكر في

ذٰلك ، ويرون أنه ما يفعل ذٰلك بهم إلا لعنايته بهم ، وحسن تربيته لهم ، ويرون ضد ذٰلك مِنْ قِلِّ الحظِّ عنده إلا على الندور ؛ لأنه مسلك خواصِّ أنبيائه وخير أصفيائه ، يسلك بهم مسلك الاضطرار إليه ، ووقوف الحاجات عليه ، حتىٰ إن بعضهم يقبضه وحاجته تتلجلج في صدره لم تقضَ له في الدنيا ، وعدَّ ذٰلك من خير عباده ؛ لوقوفه بين يديه ، واعتماده في ذٰلك عليه ، ورضاه بعلمه به ونظره إليه ، ولي في ذٰلك :

فخيرُ أوقات سلَّاك الطريق إلىٰ جنابه العالي السَّامي ذوي الهممِ
أن يشهدوا فيه فاقَتْهم وذلَّتهم لديه ذلَّة محتاجٍ إلى الكرمِ
فنازلٌ بجناب الله حاجته لم يخشَ همّاً ومكروهاً من الألمِ

❊ ❊ ❊

ولم ينفِّرْ عنك الخلق ، ويعسِّر عليك الأسباب . . إلا وهو يريد أن يصافيك ويستخلصك من يديها ، ويعتقك من رقِّها ، ويطلقك من وثاقها ، فتكون عبده صدقاً ، وطالبه حقاً ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَىٰ أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ . . فَٱعْلَمْ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْأُنْسِ بِهِ

الوحشــة : هي انقباضٌ فــي القلب يوجد عند مواجهــة مبايِنٍ ؛ إما في الحسّ وإما في المعنىٰ ، وإذا أوحشــك مــن الأغيار . فذٰلك دليلٌ علىٰ مباينة قلبك من الأغيار ، ورفع الحجب عنه والأســتار ، وقد نزلت منــازل الأخيار ، فــي حظائر القرب والأنس ، وتبوأت فســيح القدس ، ومنبــع التمتع بالوصال ، وباينت الانفصال ، وترقيت أعالي المقامات ، وسنيات الأحوال ، فلا جرم أن تستوحش من الأغيار ، وتهرب من التعثُّر في كثائف الآثار .

ولــه علامــةٌ فــي النفس وفي الخلق وسـائر الأسـباب ؛ فمـن علامات الأنـس بـالله : الانقطـاع إليـه ، والتعلُّق في جميـع الأحوال بـه ، والتولُّه بذكـره ، والهـرب من النفـس ودواعيهـا ، وعدم الاعتماد على الأشـياء ، وسـقوطها عن القلـب بالكلية ، فلا يلتفت إلىٰ محبوبها ، ولا يخاف من مكروههـا ، بـل هي عنده في عيـن عدمها لـم تخرج عنه ، ولـم تبرز منه ، فيرىٰ أسباباً متحركات بتحريك أقضية قدريات ، تحت أستار غيبيات ، بيـد قـادرٍ مريدٍ لجميـع المقضيـات ، ويرىٰ هٰذه الأسـرار تحت أسـتار عدميات ، حُجب بها مَن حجب ، وعبدها مَنْ عبد ، وعرفها من عرف ، فيسـتأنس بالوجود الظاهر الذي باشـر قلبه ، ويستوحش من العدم الذي باينه ولم يجتمع معه ؛ إذ الوجود مباين العدم ، والنور ينافي الظُّلَم .

والخلق : كل موجودٍ غير الله ، سواء كان من الصور الحسية ، أو من العجائب الغيبية ، فلا تسكن قلوب المشتاقين إلىٰ غيره ، ولم تطمئن نفوس المحبين إلىٰ سواه كائناً ما كان ذٰلك الغير والسوىٰ .

والأنس مقامٌ من مقامات الوصال ، وحالٌ عالٍ من سنيات الأحوال ؛ فمن حالة الأنس : ألا يوحشه شيء ، وأن يستأنس بوجوده كل شيء ، حتى الجماد وسائر الحيوان ، فلا تنفرُ منه البهائم والطيور الوحشية ، بل تستأنس به وتسكن إليه .

وكان بعض سادتنا العلوية رضي الله عنهم يقول : **بلغت من الأنس** أن لو وُضِعت المنشار علىٰ مفرقي وأُنشقُّ نصفين . . لم أُحسَّ بذٰلك ، ولو أُلقيت في النار . . لم أجد لذٰلك ألماً .

**والحكايات في مقام الأنس أكثر من أن تحصر** ، وكان يروىٰ عن الجنيد رضي الله عنه أنه قال : كنت أسمع من السريّ كلاماً في هٰذا المعنىٰ وكان في باطني منه شيء ، **حتىٰ بلغت ذٰلك** ، فوجدت الأمر علىٰ ما ذكر ؛ أي : لو وضع المنشار علىٰ مفرقي ما حسستُ به ، أو ما هٰذا معناه ، ولي في ذٰلك :

الأنس بالله حالٌ ما يُقاس به ... حالٌ ولم يعتري صاحبَهُ تغيير
يستوحش الخلق سر لا يقالُ به ... إلا لمن بان عن شاهدْهِ تصويرُ
هٰذِهْ رموزٌ خفيّاتٌ يُشار بها ... إلىٰ معانٍ بلا كيفٍ وتقدير

إذا استغنى الإنسان عن الله بوجود الأعيان . . **صمت عن إطلاق اللسان عن الطلب** ، وإذا أطلق اللسان ، وأيقظ الجَنَان ، واستعمل الأركان . . **فليعلم العبد** أن ذٰلك دليلٌ علىٰ فتح باب العطا ، وإقبال عليه بوجه الرضا ؛ **كما قال المؤلف رضي الله عنه** :

## مَتَىٰ أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِٱلطَّلَبِ . . فَٱعْلَمْ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ

متىٰ **أطلق لسانك** ، وحلَّ قيد جَنانك ، وحرَّكَ في خدمته أركانك ، وجعل لك الهمة مطيةَ سفرك ، والصدق في الطلب حالتك . . فاعلم : أنه لم يبعث ذٰلك فيك ، ولم يحرِّكْ به عزمتك . . إلا وهو يريد أن **يعطيك** ، وما فتح لك باب السلوك إليه . . إلا وهو يريد أن يواليك ، ولا ألهمك تصفية أحوالك وسائر أفعالك . . **إلا وهو يريد أن يصافيك** .

وإطلاق اللسان بالتضرُّع إليه والثناء بجميل أوصافه من علامة توجُّهِ الإرادة إلى العبد بنيل مطلوبه ، وإسعاف مرغوبه .

فمتىٰ وجد العبد ذٰلك . . **فليعلم يقيناً أنه قد توجَّهت إليه العطايا الإلـٰهية** ، والمنوح الربانية ، علم ذٰلك أو لم يعلم ؛ لذٰلك قال الصديق رضي الله عنه :

لَوْ لَمْ تُرِدْنِي لِمَـا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ ... مِنْ نَيْلِ فَضْلِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا

أو كما قال .

والطلب بصدق النية من أشرف أخلاق العبودية ، وأجل مقامات القرب ؛ إذ لم يلهمه إلا من توجَّهت إليه العناية ، واللسان يطلقه في ميدان الدعاء باعث قلبي تترجم عنه بما هو عليه من الالتجاء ، وصدق الرغبة إلى الله فيما عنده من الفضل ، والهرب إليه من سطوات العدل ، **ويعقله غفلة القلب عن ذٰلك** ، واستغناؤه بالأسباب ، والركون إلىٰ ما يظن أنه به مستغن ، وإلىٰ ما يظن أنه يدفع عنه ، **فيعقل اللسان** ، ويخرس الجَنان ، **ويعمى الروح** ، وتلهو النفس ، **وتتعطَّلُ الأركان** ، وتظهر منه الجرائم والطغيان ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

وبوجود ما يناقض ذٰلك من ورود الفاقة ، ونزول الحاجة .. ينبعث بلا شك في الدعاء ، ويرغب في الطلب ؛ وذٰلك علامة عناية الله بعباده ، وإرادة إيصال فضله وعطاياه إليهم ، وتوالي إحسانه وامتنانه لديهم ، فالحمد لله رب العالمين ، فما ألطف الله بعباده !! إنه يحسن إليهم ، ويتقرَّبُ منهم فيما تنفر عنه طباعهم ، وتأباه نفوسهم من مُمِرَّات القضاء ، وورود ما يناقض أغراضهم ، وذٰلك من أتحف ما منحهم ، وأعظم ما خوَّلهم ، ولي في ذٰلك :

أورَدْ عليك صنوف الضُّرِّ والألم ... كيما تكون به من جملةِ الخدمِ
وأطلقْ لسانَكْ لنيل الفضل والكرم ... سبحان ذي الحكمة المنَّان بالنِّعمِ
من ظنَّ شيئاً سوىٰ هٰذا فلا جَرَمْ ... أن يبرمَهْ كلَّما وافىٰ من الألمِ

❊ ❊ ❊

فإذا علم العبد دوام افتقاره إلى الله ، وأنه لا غنىٰ له عنه لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، ولا يصدر هٰذا الشهود إلا عن صاحب وجود ، مستغرقاً في حضرة المشهود ، وهٰؤلاء هم الحكماء العارفون .

وأما الجهَّال المغرورون .. فلا يتأتىٰ لهم ذٰلك ، ولا يصدر عنهم إلا ما وصفهم الله به ؛ حيث قال جلَّ ذكره : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

إذا تحقَّق أن العارف يشهد قيوميته إياه علىٰ ممرِّ أنفاسه ، ومختلفات أحواله .. فلا غروَ أن يقال :

اَلْعَارِفُ : لَا يَزُولُ ٱضْطِرَارُهُ(١) ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ قَرَارُهُ

العارف : هو من عرف الله ، وعرف حكمتَـــهُ في أقضيته ، وتحقَّق بأوصافه وأسمائه ، فأعطىٰ كل مشهدٍ حقَّهُ ، وأوفىٰ كل اسمٍ مستحقَّه ، وهو مع ذٰلك فـــانٍ عن ذاته بوحدانية الله ، وعن وصفه بفردانيته ، وعن فعله بقدرته ومشـــيئته ؛ لذٰلك يكون محواً عن ذاته ووصفه وفعله أزلاً ووجـــوداً وأبداً من كونيته وغيريته ، وجـــوداً من حيث وجود موجده ؛ لذٰلك لا يزول اضطراره في وجوده أزلاً ووجوداً وأبداً .

ولا يكون مع غير الله تعالىٰ قراره لانعدام الأغيار ، وانطماس ظُلَم الآثار ، بظهور تجلي الواحد القهار ، فأين تكون معية الأغيار ولا وجود لها ؟! وأين القرار إليها والعدم حاكمٌ عليها ؟! فأتىٰ بهٰذه الحكمة مبيِّنة لما تقدَّم في الحكمتين قبلها ؛ لأن الوحشة من العدم ، وعدم القرار لازم ، كذٰلك الطلب دائم ؛ لوجود دوام الافتقار .

فـهذانِ نعتانِ من نعوت العارفيـن ، وصفتان من صفات الموحِّدين ، فيعرفـون نفوسـهم بافتقارهـا لإدامة وجوده ، واضطرارهـا إلىٰ إمداده في حركاتها وسكونها ، فمن عرف نفسه بدوام الاضطرار ، ووجود الافتقار . . عـرف ربَّـه باختراع الإيجاد ، وتوالي الإمداد ، فلا يزالُ مفتقراً ، ولا يبرح مضطراً ، فهٰكذا حكم العارف .

وأما عامة الخلق وجمُّ العبيد . . عبيدُ التعديد ؛ فهم محبوسون في مضيق الحسِّ الغالب عليهم ؛ كونهم مع ما وافق محسوسهم ، ولاءم نفوسهم ، فإذا وجدوا ذٰلك . . أعرضوا عن الله ، وإن اضطروا . . رجعوا

---

(١) في ( أ ، ب ) : ( يزال اضطراره ) ، والمثبت من ( ج ) ، وستأتي في الشرح على الصواب .

إليه بالصراخ والعويل ، والاستشفاع إليه بالأسباب والوسائل ، فهم أبداً محجوبون في كلا الحالين ، بخلاف العارفين ؛ فهم مضطرون إليه أبداً سرمداً ، أغنياء عمن سواه ، لا يرجعون في مهامِّهم إلىٰ غيره [1] ، ولا ينزلون حوائجهم بسواه ، ولي في ذٰلك :

فلا يزال اضطرارُ العارفينَ وإن نالوا من الحظِّ ما يقضىٰ به الوطر
فلا يقربهمُ من دونه أربٌ ولا يروقُ لهم في غيره نظر
قد باينوا كل مألوفٍ كذاك فإنَّ المرء يفرق بين العين والأثر
فلا تزايلْ ذوي العرفان حاجتهم يروىٰ عن العارفين السادة الغرر

❊ ❊ ❊

ومن علامة العارف وبعض مشاهده : أن يكون مع الله باطناً وظاهراً ، فيرىٰ جميع القوى الظاهرة آثار نور الاسم الظاهر ، والقوى الباطنة آثار نور الاسم الباطن ، ومن لم يتحقَّق ذٰلك . . لم تصحَّ معرفته ، فلم يعرف نفسه ولم يشهد ربه ، فأرشد المؤلف إلىٰ أنه لم يتحقَّقْ بالاضطرار ما لم يعرف ذٰلك ، فيتحقق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الذي هو كنزٌ من كنوز العرش ، فقال :

(١) في ( ج ) : ( لا يرجعون في مقامهم إلىٰ غيره ) .

## أَنَارَ ٱلظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأَنَارَ ٱلسَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ

إنارة الظواهر المحسوسات الخلقيات بأنوار آثاره ؛ أي : أفعاله ؛ وهو كل ما توجَّهت إليه القدرة والإرادة والعلم[1] ، **فكل مقدور مراده معلوم** ، فهو أثر بمؤثر فيه ، وكل مؤثَّرٍ فيه . . **فهو حادث بمحدِثٍ** ، وما صحَّ حدوثه . . **جاز عدمه** ، وكل ما سوى الله . . **فهو محدَثٌ بإحداثه** ، وموجود بإيجاده ، **فالوجود كله أثر لمؤثره** ، ومدبر تحت حكم مُدبِّره ، ومصرف بتصريف مُصرِّفه ، **فالفناء والانعدام متطرِّقٌ إليه** ، وأوصاف الله قديمة بقدمه ، باقية ببقائه ، واجبة بوجوبه .

**وأنوار الظواهر** هو وجودها ، **وقد علمت** أنها من أنوار الآثار ، وموسومة بسمة الأغيار ، وأنوار السرائر من نور الأوصاف الأزلية ؛ **لذٰلك لم يتطرّق إليها تغيُّرٌ** ، ولا يتوجَّه إليها الانعدام ، بل هي أزليةٌ سرمدية الدوام .

**وأنوار الظواهر** : هي الحواس الظاهرة ؛ كالسمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، والحس ، وتعلُّقها بالظواهر وما يتعلَّقُ بها ؛ فلا تتعلَّقُ بالأمور الغيبية ، والصفات العلية ، وإنما هي قاصرةٌ عن إدراك الأمور الخلقية حسّاً ومعنىً .

**وأنوار السرائر** : هي من أنوار الصفات ، **فتعلُّقها بها** ، وهي باقيةٌ لا فناء لها ، ولا زوال ولا غيبة ولا ارتحال ، **بل هي دائمةٌ بدوام ما هي متعلِّقة به** ، وموجودة منه ، وهو الوصف الإلـٰهي .

---

(١) كشفاً وتخصيصاً وإيجاداً .

فالسرائر : هي اللطائف الإنسانية ؛ كالقلب والروح والسرّ ، وإنارتها بما أفاضه عليها من نور ذاته وصفاته وأسمائه ؛ فالسِّر بالاستغراق ، والروح بالشهود والاستبصار ، والقلب بإفاضات العلوم ولطائف الفهوم .

والظواهر إنما تتعلَّق بالتدبيرات الكونية ، والإدراكات الحسّية الخلقية ؛ لذٰلك تطرق إليها الزوال بزوال متعلَّقها وغيبته ، لذٰلك ؛ أي : لأجل أن تعلق أنوار الظواهر بالأعيان الظاهرة المحسوسة المحكوم عليها بالفناء والزوال :

## أَفَلَتِ ٱلْأَنْوَارُ ٱلظَّاهِرَةُ ، وَلَمْ تَأْفُلِ ٱلْأَنْوَارُ ٱلسِّرِّيَّةُ

( أفلَتِ الأنوارُ الظاهرةُ ) وغابت شموسها ؛ لتبدُّلِ أرضها ، وانكشاط سماها ، ( ولم تأفلِ الأنوارُ السريَّةُ ) والمشاهد الحقية ؛ لثبوت مشهدها ، ودوام حقيقتها .

ثم أنشد المؤلف لنفسه رضي الله عنه مشيراً إلىٰ هٰذا المعنىٰ ، ومؤيداً لهٰذا المبنىٰ فقال :

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ ... فَاسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ غُرُوبِ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْـ ... ـلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَ تَغِيبُ

وذٰلك أن شمس النهار من أنوار الظواهر ، فتطرق إليها الغيبوبة والأفول ؛ لأنها من جملة الأنوار الظاهرة ، فغيرها كذٰلك من سائر الأنوار

الظاهرة ؛ لذٰلك قال الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ .

وكل ما كان من الأنوار المحسوسات ، والصور الخلقيات . . فلا بد من أفوله كائناً ما كان ، فلا ينبغي أن تقصر عليه المحبة ؛ لأنها تزول بزواله ، وتذهب بفنائه .

وشمس القلوب ـ وهي المعارف والعلوم ، والأسرار اللدنية ، والإلقاءات الوحيية ـ ليس تغيب ؛ لأنها أنوار أزلية ، وأسرار حقِّية ، وواردات ربانية ، ولطائف سرية ، ونفحات وقتية ، ومواهب امتنانية ، وعطيات رحمانية ، وملابس قدسية ، ومشاهدات وصفية ، فأين تغيب هٰذه ؟! بل هي مستمرةٌ باستمرار ما عنه صدرت ، وبه تعلَّقت .

فعلى المريد الصادق الأديب الموافق : أن يكون كل همِّهِ التعلق بهٰذه الشموس التي لا تأفل ولا تغيب ، وكل طلبه لذٰلك ؛ عسىٰ أن يكون له نصيب مما هنالك ، ولا يشتغل بالأنوار الآفلة ، والحظوظ العاجلة ؛ فالإنسان من حيث شرفُهُ وعلو مقامه بالأنوار الباقية ، والحقائق الدائمة ، والمشاهدات الصافية ، والعلوم الوافية ، لا بالجسم الفاني ومتعلقاته ، ودنيَّات حظوظه ، ورذائل شهواته ، ودنيَّاتِ مطالبه ومآربه الفانية المتوهَّمة ، التي لا حقيقةَ لها ولا طائل ، ولا جدوىٰ ولا نائل ، ولي في ذٰلك :

إن كنت تخطبْ نعيماً لا بقاء له ... فبئس ما أنت مهتمٌّ به طلبا
الجسم فانٍ وإن جلَّت مكانته ... فعن قريبٍ تزول العين والسببا
فمطلب الروح أولىٰ أن يقام له ... بغاية الجهد والتشمير والطلبا
إن كنت إنسانَ فاْعلمْ ما تراد له ... فأنت بالروح معروفٌ لك النسبا
فكُنْ بشأنِهْ حريصاً كي تكون له ... حِباً لتجتمعَ الأحباب والقربا

فـكل ما كنت مـن معنـىً تحاوله    فٱعلـم بأنَّـكَ بذاك السِّـر مختطبا
كمـا تمكَّنـتَ فاطلبْ وٱسْـعَ بآلته    مـن قبـل تفتـرق[1] الآلات والنسـبا

* * *

فإذا كان حالة العبد النظر في الأوصاف العلية ، وكان الغالب على قلبه التعلُّق بها . . كان كل ما يصدر عنها له بغية ، ولديه منية ، وإن كان الغالب عليه شهود الأنوار الآفلة ، والحظوظ العاجلة . . كان بالعكس من ذلك ، فخاطب المؤلف مَنْ كان الغالب على قلبه التعلُّق بالأنوار الأزلية ، والصفات العلية ، فقال :

---

(١) في ( أ ) : ( تغترب ) بدل : ( تفترق ) .

لِيُخَفِّفْ أَلَمَ ٱلْبَلَاءِ عَنْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْمُبْتَلِي لَكَ ؛ فَٱلَّذِي وَاجَهَتْكَ مِنْهُ ٱلْأَقْدَارُ .. هُوَ ٱلَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ ٱلِاخْتِيَارِ

ليخففَنْ ويحملَنْ عنك ـ أيها المؤمن ـ بأن كل ما يصدر في الوجود من الأحكام صادرةٌ عن مشيئته ، ومعلومة له ، ومخترعة بقدرته ، وكنت محباً لمن هٰذه الأوصاف أوصافه ، وراضياً به ربّاً وحاكماً وقاضياً ، فلا جرم أن يخفف عنك الألم ، ويكون تألمك باعتراضك علىٰ محبوبك ، وعدم محبتك لما أحبَّ ألماً أشد مما ابتليت به[1] ؛ لأن ما ابتليت به سينقضي وينتهي ، واعتراضك عليه ألم دائم ، ولوم لازم ، يلزم صاحبه في الدار الآخرة عارَهُ .

فإذا علم ذٰلك .. خفف عنه ـ لا محالة ـ ما يجده ، فلا يتألم إلا الجسم والقلبُ ساكن ، بل قد ـ إذا غلبه الحب ـ يلتذُّ ، وإذا التذَّ القلب .. فلا عبرة بما يوجد في الجسم ، فإذا سرت محرقات البلايا من الجسم إلى القلب ؛ فإن كان راضياً سليماً .. سكنت تلك الحرارات ، ولانت خشونة الإلمامات ، وانعكست على الجسم لينها وبرودتها ، فيستريح لذٰلك وإن كان الألم باقياً ، فلا تستبعدْ ذٰلك ؛ فلقد تلذَّذَ بالبلاء ما لا يحصون من الصفوة الصوفية ، الذين باشر قلوبهم صِرْفُ اليقين ، وتحققوا بحقائق القرب والتمكين .

وإذا كان الأمـر بالضد من ذٰلك ؛ فإذا سـرت البلية بحرارات وهجها إلى القلـب ، ووجدتـه ممتلئـاً بالحزن لـذٰلك ، والتبرُّم ممَّـا هنالك والسخط .. تضاعفت آلامُها ، وانتشرت على الجسم احتراقاتُها .

---

(١) في النسخ : ( ألم أشد مما ابتليت به ) بدل : ( ألماً أشد مما ابتليت به ) .

فهٰذا من كان ممتلئاً بالشهوات ، ومكبلاً في قيود العادات ، قد ضربت علىٰ قلبه كثائف الظلمات ، الحاجبة عن التعلُّق بالأنوار القدسيات ، والمشاهد الروحيات ، وإلا : لو انكشفت عن قلوبهم هٰذه الأغطية الكونيات ، والحجب الظلمانيات ، فتعلقت قلوبهم بالأوصاف العلا ، وتقدّست أسرارهم بالامتلاء بشهود المولىٰ . . فلا تغيِّرهم العوارض ، ولا تزلزل مواجيدَهم عواصف القضا ، بل يكونون محفوظين عند ورود القضا ، موصوفين بالرضا ، وإن تعاقب علىٰ ظواهرهم التغييرات . . فالقلوب باقية علىٰ ما هي عليه ، فلا يختلجهم زيغ ، ولا يمتريهم ريب ، بل تخرجُ أرواحهم وهي مشتاقة ، وإلىٰ ما هي متعلقة به توّاقة ، فانظر ما يمنح الله عباده من صفو وداده .

فالحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ؛ فالذي واجهتك منه الأقدار المناقضة لمرادك . . هو الذي عوّدك حسن الاختيار ، فلا يكون ظنك به سبحانه إلا أن الخيرة في ذٰلك المختار كما عودك ؛ فالعبد قد يكون الاختيار له غالباً فيما يناقض مراده ، ويخالف هواه ، وذٰلك ظاهر ؛ لأن المصائبَ الدنياوية مناقضة لمراد الإنسان ، وهي خيرٌ له في العقبىٰ بلا شك ولا مرية في ذٰلك ؛ لأن الإنسان إذا أمعن النظر ، وحقق واستبصر . . رأىٰ كل محبوبٍ عنده مصيبة ، وكلما كان أشد حباً . . كانت المصيبة عنده أعظم ؛ فكل مصيبةٍ تصيبه في دنياه فهو عندها :

إما ذو فرحة لما يحتسبه عند الله من عظيم الأجر بوعده الصادق علىٰ ذٰلك ، وإما متخلص من وبيل وجعه وتفجُّعه كل حين بتوقُّع المصيبة بها .

ولي في ذٰلك :

يخفف آلام ما ينزلْ بذي الألم علمهْ بأن الإلٰه الحق مختارُ
فذا الذي أنزل المقدور واحتكم هو الذي أورد أسرار وأنوار
ليحملنَّ مرير الضرِّ والسقم حسن انتظارِ لفضلٍ منه مدرار

* * *

وإذا كان للعبد بصيرة ، وصفو سريرة .. **حمل عنه ما يشهده من لطف الله في قضاياه ؛ فلا قضية ينفك عنها اللطف ، واللطف** : هو وجود الحق في ذٰلك الوارد : **إما بطريق الجلال** إن كان مما لا يلائم البشر ، **وإما بطريق الجمال والعطف والإحسان** إن كان يلائم ، فكل من نظر بذٰلك النظر ، واستبصر بذٰلك المعتبر .. علم ما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله هنا رضي الله عنه :

## مَنْ ظَنَّ ٱنْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ . . فَذَٰلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ

مَن ظنَّ وحكَّمَ ظنه بأن اللطف لم يقترن بالمقدور ، وينفك عنه . . فذٰلك الظن الفاسد صادرٌ عن قصور النظر علىٰ ما هو الحالة الراهنة في الوقت ، دون أن يرمق عواقب الأمور ، أو يمعن النظر فيما قارنه من المصالح ، ودفع ما هو أعظم منه ضرراً ، وأكثر خطراً ، ولم يعطِ النظر في العواقب وخفيات الألطاف إلا ثواقب أنوار اليقين .

وإذا كان قاصر النظر عن ذٰلك . . فاستدلَّ به علىٰ ضعف يقينه ، بقدر ما يفوته من شهوده في المقدورات من الألطاف ؛ فلذٰلك لما كمل يقين الأنبياء ، وأكابر الصديقين وخواص المقربين الأصفياء . . استلانوا البلايا ، ورأوها من جملة الفضائل والعطايا ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « نحن ـ معاشرَ الأنبياء ـ أشدُّ بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل »(١) .

فمن البلاء : ما هو في العرض والبدن ، ومنها : ما يكون في المال والأهل والولد ، فإذا تتبعت أحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . . لقيتهم أشد الناس ابتلاء ، وأشد مصائبَ ، وأكثرهم علىٰ ذٰلك صبراً ، وأجملهم تجلُّداً وتحمُّلاً .

فمن العرض : ما رأيت ما ينسبونه إليهم من الجنون ، والسِّحر ، والتكذيب ، والتسفيه ، والسخرية ، وغير ذٰلك من أنواع الثلب . .

وفي المال : ما يُروىٰ أن منهم بل أكملهم وأعظمهم عصبَ الحجر

(١) رواه الترمذي ( ٢٣٩٨ ) ، وابن ماجه ( ٤٠٢٣ ) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

**علىٰ بطنه** [1] ، ومات ودرعه رهين [2] ، ويقال : إن سبعين نبياً ماتوا في السجود من الجوع ، ومنهم من قتله القمل .

**والولد** : ما ترىٰ أن أولاد نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم كلهم قبضوا في حياته [3] ، ولم يقل إلا خيراً ، ولم يحملهم **علىٰ تحمل ذٰلك إلا وفور اليقين** ، والثبوت في مقامات التمكين ، ورؤية ما أودع الله فيها من خفايا الألطاف .

**وأما أحوال الصحابة والتابعين** . . فأكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تشهر ، مع ما هم عليه من الصبر الجميل ، الذي يراهم من لا يعرف ما نزل بهم في زيِّ مَنْ ترد عليه صنوف النعم ؛ **بل نعم هي باطنة أودع فيها من ألطافه ما يستحقر إلىٰ جنبها كل نعمة** ، فكانوا لا يحبُّون زوال ما نزل بهم من البلايا ، كما لا يحب من نزل به الرخاء زواله عنه ، ولا تحويله منه ، وما صير البلاء عندهم بمنزلة الرخاء عند غيرهم . . **إلا ما يرد علىٰ قلوبهم من الألطاف** ، وما يباشرها من روح اليقين ، وما أمرَّها عند غيرهم . . إلا قصور النظر عن ذٰلك ، وخلو القلب مما هنالك .

فاللطف المقارن للبلايا : إما أن يكون من طريق الإيمان والعلم ، وإما أن يكون من طريق اليقين والكشف .

**فالأول** : إما أن يكون فيما وعد الله الصابرين من الجزاء ، وما أعدَّ لهم من المثوبة والمدحة علىٰ ذٰلك ، أو ما يدفعه عنهم مما هو أعظم مما هم فيه ، **فعند إرسال النظر في ذٰلك الميدان** يعلم ما لله عليه

(١) رواه الترمذي ( ٢٣٧١ ) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري ( ٢٩١٦ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٣) إلا الزهراء رضي الله عنها ، فكانت أول أهله لحاقاً به .

فيه من المِنَّة واللطف الذي لا يوازيه عمله ، ولا يبلغه مطمعه إلا بذٰلك الابتلاء ، فيتحمَّلُ ويصبر ، بل يشكر لما لله فيه عليه من عظيم الأجر ، وخفي اللطف ، فهٰذا وما شاكله من حسن النظر من نتائج العلم والإيمان .

وأما ما كان من طريق اليقين والكشف .. فهو ما يتعرَّفُ الله به إلىٰ قلوب أوليائه من خفيات آلائه ، وما يمنح به أسرارهم من لطيف ولائه ، فيكشف لهم خزائن القرب والعطاء ، فيخيرهم ما يختارون ، فيرون دنوَّه في حال اضطرارهم ، وعنديته عند انكسارهم ، فيختارون ذٰلك اختياراً ، وقد حملَ عنهم أثقالَ ما ينزل بهم من البلايا ما يرد علىٰ قلوبهم من المنح والعطايا ، فيتلذَّذون بذٰلك ، ويفرحون به فرح غيرهم بالنعم الظاهرة ، بل أعظم ؛ لأن هٰذه نِعَمٌ دائمةٌ ولا انقطاع لها ولا نفاد ، والنعم الظاهرة نافدةٌ منقطعة ، فأين ما بين النعمتين ، وفرق ما بين المنَّتين ؟!

ولا تظن أن ثواب المتحمِّلين وأجر الصابرين يفوت هٰذه الفرقة ؛ بل أعظم المثوبات مع ما نالوا من التعرُّفات وأنواع القربات ، وأعظم مثوبة ـ وأكرم بها من تحفة ـ أن الحق سبحانه يُنازلُ قلوبَهم بلذيذ الخطاب ، وشهي الجواب ، ويكرمهم ويبجِّلهم بين أهل حضرته ، ويباهي بهم أهل مملكته .

فانظر ما في واردات الأقدار من الألطاف ، ونيل الإسعاف ، فأهل العلم والإيمان يتذكرون ما أُصيب به ذوو المقامات العلية ، وما نزل بهم وما يصدر عنهم عند ذٰلك .. فلا يرون منهم إلا صبراً جميلاً ، فيكون لهم عزاء علىٰ ما أصابهم ، وجبراً لما آلم قلوبهم ؛ فهم أبداً يتتبعون

الآثار ، ويتحسَّسون الأخبار ؛ من نبي أو ولي أو صديق أو شهيد ، فتكون لهم أسوة وبهم عبرة ، فلا شك عند وقوفهم علىٰ أخبارهم وبيان آثارهم في ذٰلك أن يورثهم التحمُّلَ والصبر .

وأهل اليقين والشهود يكون مشهدهم علىٰ وصف سيدهم ، وحسن اختياره لهم ، ورضاه عنهم ، وإيقافهم علىٰ فقرهم واضطرارهم ، وما هو المطلوب منهم بين يدي مليكهم ، فلا شك يورثهم الرضا عنه فيما فعله ، واختيار ما اختاره لهم ، فلا يكون لهم معه اختيار ، ولم يتحسَّسوا على الآثار ، ويبحثون على الأخبار لما هم شاهدون من الأنوار ، وناظرون من الأسرار ، وحسن الاختيار لغيبة الآثار بظهور الواحد القهار ، وقل : الحمد لله وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ ، ولي في ذٰلك :

اللطفُ مقرونُ بالمقدور يعرِفُ ذا ... مَنْ حقَّقَ أنَّ الإلـٰهَ الحقَّ مختارُ
فلا يظنَّ انفكاكَ اللطفِ في نَفَسٍ ... تشـهد بـذاك أحاديـثٌ وآثـارُ
وكلُّ قاصـرٌ عـن هـٰذا فـذو نظـرٍ ... عن ظاهرِ الحق مطموسٌ ومحتارُ
إياك تقصرْ عن تحقيق مشهدِ من ... يشهدْ بعين الهدىٰ مستور أنوار

ومن جملة الألطاف المقترنة بالمؤلمات : العافيةُ مِنْ أعظمَ منها (١) ، وما وعد الله عليها من عظيم الجزاء للمؤمنين ، ومعرفة ضدِّها ؛ فلولا الألم . . لم تعرف نعمة العافية ، ولولا الموت . . لم تعرف الحياة ، ولولا النار . . لم يعرف نعيم الجنة ، ولم يظهر شرف المطيع والمؤمن على الكافر والعاصي ؛ فاللطف لم يخلُ عنه شيء ، ولولا اللطف . . لم يظهر سرُّ العدل ، ولولا الطَّوْل . . لم يعرف نعيم الفضل .

---

(١) فما من مؤلِمٍ إلا وهناك ما هو أعظم منه ؛ فمعافاته من الأعظم عافيةٌ ومنَّة .

فالميمون مَنْ عرف لطفه في سائر أقضيته ، فإن كنت لا تصادف من قلبك شهود اللطف في مبرّات القضاء وملائماته[1] ، وجميع الحركات والسكنات في سائر الأوقات . . فاعلم : أن نظر قلبك قد صَدِئَ ، وأظلم عليه غلبة الهوىٰ ، واستولت علىٰ منظره المُكدِّرات النفسانية ، والحاجبات الشيطانية ، والأسباب الدنياوية ، ورؤية الخلق ، وامتلاؤه بما فيه من فسيح العادة ، فاتخذ لنفسك بصيراً تهتدي بهديه ، وتقتدي بحسن أسوته ، وتتهذَّب بصافيات أحواله ، وتتأدَّب بصائبات أقواله ؛ لتعمل علىٰ جلاء بصيرتك ، وتنوير سريرتك ، ويزاح عنك الهوىٰ ، وتلبيسه الذي يعمي عن رؤية الحق وأهله .

* * *

ومتىٰ عملت علىٰ ما ذكرنا ، وانجلىٰ عن عين قلبك صدأ الهوىٰ وظلمة الجهل . . رأيت الطريق قد اتضح ، والباب قد انفتح ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في ( ب ، ج ) : ( في ممرات القضاء وملائماته ) .

لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ ٱلطُّرُقُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلْهَوَىٰ عَلَيْكَ

لا يخاف عليك ـ أيها السالك لطريق الحق ، والطالب منهج الهدىٰ ـ أن تلتبس وتشتبه عليك الطرق ؛ لوضوح الحق ، وبيان الهدىٰ ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ أنزل كتبه ، وأرسل رسله مبيِّنين ومبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وما ضلَّ مَنْ ضلَّ ، وغوىٰ من غوىٰ . . إلا باتباع الهوىٰ ، وغلبة الغفلة والجهل ، فرحم الله ابن الفارض حيث قال :

وَنَهْجُ سَبِيلِي واضِحٌ لِمَنِ اهْتَدَىٰ     وَلَـٰكِنَّمَا الأَهْـوَاءُ عَمَّـتْ فَأَعْمَـتِ (١)

والطرق : هي ما أنزل الله من الهدىٰ والبينات ، فكل إنسانٍ من لدن آدم إلىٰ آخر الخلق يجد فيه طريقاً موصلاً إلى الله ، إذا تمسك به . . أوصله وهداه سبل السلام .

ومـن هنـا قيـل على التحقيـق عن أهل الحـق : إن القـرآن كله ثابت لا يطلـق عليه النسـخ ؛ لأنها لم تنـزل قطرة من مـاء التنزيل إلا وجدت مـن أرض القلـوب لها موضعاً حال نزولهـا ، وجميع أصناف الخلق كل منهـم علـىٰ محجة منـه : إما لهم ، وإما عليهم ، فكل كلمةٍ منه وكل آيةٍ

(١) ديوان ابن الفارض ( ص ٥٥ ) ، والبيت من التائية الكبرىٰ المسماة بـ « نظم السلوك » .

وكل سورةٍ . . لها في الخلق كلمة وآية وسورة ، وكل حرف له طرف ، ومجموع القرآن بكماله يخاطب كل إنسانٍ على حدته بجميع أوامره ، ونواهيه ، ومواعظه ، وعجائبه ، وقصصه ، فيجده جميعه متوجِّهاً إليه بالخطاب ، وملاحظه بالمراقبة في جميع الحركات والسكنات ، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ .

فافهم هُديت ، وما أعمىٰ من عمي عن ذٰلك . . إلا غلبة الهوىٰ ، والإعراض عن ذكر المولىٰ ، وتحكيم الجهل ، ونبذ العلم ، واستحسان العادات ، واتباع الشهوات ، ونسيان الرجوع إلى الله ، وطول الأمل ، وتسويف العمل ، والوقوع في الهفوات ، وكثرة التخليط والزلل ، ولو انكشف عن القلوب غمرة أهوائها ، وظلمة شهواتها . . لَرَأَتِ الحق ظاهراً لا خفاءَ عليه ، والباطل باطلاً لا مريةَ فيه .

اللهم ؛ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولي في ذٰلك :

فـلا يخـافُ ٱلتبـاسَ الحـقِّ ذو نَظَـرٍ
صـافٍ عن الرَّان سـالِمْ عـن هوىً خطلِ

إن شـئْـتَ أن تهتـديْ سُبْلَ السـلامِ فلا
تسـلُكْ طريـق ذوي التخليـط والزَّلـلِ

واجعَـلْ أمامَـكَ خيـراً تسـتفيدُ بـهِ
علمـاً وحـالاً وهٰذا غايـةُ الأمـلِ

ومـا أعـز فتـىً فـي ذا الزمـانِ لـه
إلـى العـلا همَّـةٌ تأبىٰ عـن الكسـلِ

يـا طالبـاً مـن رغيـد العيـش أحسـنه

اِتْبَـعْ رجـالاً سَـمَوا عـن ثِقْلـةِ الأمـلِ

* * *

ثم لما كان الهوىٰ من مقتضى البشر وهو مضاد ظهوره لظهور الحق .. علمنا أن الله سبحانه ببديع حكمته وسابق كلمته سترَ الحقَّ بظهوره ، وقد علمت أن ما سوى الحق باطل عَدَم ، فكيف يستر الحق ؟!

فعلمنـا أن ذٰلك تجلِّـي سـرِّ قهـره وغلبة أمـره ؛ لذٰلك قـال المؤلف متعجباً لـذٰلك ، ومنزِّهاً أن يستره العـدم ، أو يدخل تحـت غلبةِ ظهورِ الباطـل ، فتحقـق أن الباطل لم يسـتر الحق ، وإنما سـتر الحقَّ بالحق ، وإنمـا حجب الباطل بالباطـل ؛ فالحق ظاهر لا غيبةَ له ، والباطل غائب لا ظهورَ له ؛ لذٰلك صدَّرَ هٰذه الحكمة بالتسبيح فقال :

## سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ ٱلْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ

**التسبيح** : هو تنزيه الحقِّ سبحانه عن أن يتصف بوصفٍ يناقض الكمال ، أو يجول في ماهيته المثال ، أو يحدَّ بالحدود ، أو تحويه أكناف الوجود ، أو يخلىٰ عنه موجود .

**والستر** : هو الصون والحفظ ، لا من القهر والإحاطة هنا .

**وسرُّ الخصوصية** : هو ما أودعه الله من سرِّ توحيده أسرارَ خواصِّ عبيده ، فكانوا بذٰلك الاختصاص عرفاء أدباء ، وأفادهم كل حال سني ، وخلق رضي ، ومقام علوي .

**والاختصاص** : هو امتنانٌ لا في مقابلة عملٍ ولا وسيلة ، ولا عملة ولا حيلة ، **بل لطيفة من نور كماله** ، فيها مجموعة تجليات جماله وجلاله ، ومجموع عليّات أوصافه ، **أهّلَ لها في سابق علمه وباطن أمره** قوابلَ استخرجها من ظلمة العدم ، ثم أودع تلك القوابل وعين تلك الأعيان ذٰلك السرَّ الاختصاصي ، والوهب الامتناني ، والفيض الرباني ، والنَّفَسَ الرحماني ، **ثم غار علىٰ سرِّه** أن يذاع ويبذل لمن ليس له أهلاً ، **فألبس تلك اللطائف** بمحيطات كثائف البشرية ، فافتقرت إلىٰ مقيمٍ يقيمها ، وربٍّ يربيها ، ورزّاق يطعمها ويسقيها ، **فظهر عظمة الربوبية في ظهور** سرِّ العبودية ، **وعظمة الربوبية** : هي أسماء القهر ، ولو لم يفتقر إليها . . **لم يظهر سلطان تلك الأسماء** ، ولَتَعيَّنَتْ مظاهرها (١) .

---

(١) في ( أ ، ب ) : ( ولا تغيبت مظاهرها ) والمثبت من ( ج ) ولعله الأوفق .

فسبحانه ما ألطفه في ظهور عظمته !! وما أعظمه في لطيف حكمته !!

فهٰذا سرُّ العبودية ، وكلما كانت أصفىٰ . . كان الظهورُ فيها أكمل ، فلا يرقىٰ إلىٰ مقامات الكمال ، ولم يعرج إلىٰ سنيّ الوصال إلا في سُلَّمِ العبودية ، وسُلَّمُها له إلى الكمال طريقان لا يتمُّ أحدهما إلا باستصحاب الآخر ؛ فأحدهما إلى العلو ، ويسمىٰ قَلْباً ، والآخر إلى الخمول والذبول والانكماش والانطماس ، ويسمىٰ نفساً ، فكلما نزلت النفس منزلاً . . صفا للقلب منهلٌ ، وعلا للروح مقام ، واكتسى السرُّ تجلياً . . فهٰكذا .

فالعبودية بالقلوب : وجودُ التعظيم والإجلال ، والانطواء تحت محرقات الجلال ، والعبودية بالأرواح : حسنُ التأدُّب والإطراق ، والحياء وصيانة الجناب الإلٰهي .

وعبودية الأسرار : بالاحتراق بنيران التجلِّي ، والذهاب في صفات الحق .

وعبودية النفوس : بالذلة والافتقار ، ودوام الانكسار والاستغفار ، وصفو الخدمة عن شائبات الاغترار ، وغير ذٰلك ممَّا لا ينقضي بانقضاء الأعمار .

ولو ظهر سرُّ الربوبية . . لانحلَّ نظام العبودية ، فمن هنا : لا يجوز لمن انكشف له إظهارُهُ ، بل يصونه ويستره ؛ لبقاء هٰذا النظام ، والتحام هٰذا المقام ، ولي في ذٰلك :

ففي العبوديةِ أسْرارٌ ظهرْنَ بها ... أسما الإلٰه وشرع الدِّين والحكمِ
فلو ظهَرْ لم يقم دينٌ كذاك ولا ... تغيَّبت صورُ الأحكام والكلمِ
سِرُّ اختصاصاتٍ في الآزال مَنَّ بها ... علىٰ لطائفِ أعيانٍ في العدمِ

❊ ❊ ❊

وإذا علمت أن عظمة الربوبية لم يكمل ظهورها ، ولم يشرق نورها إلا في رفعة العبودية ، وهي البقعة المباركة ، والزيتونة المضيئة ، والخصلة الرضية . . فيكون حينئذٍ مَنْ أُقيم فيها وأحسن الاستقامة فيها قد تكمَّلت لديه المنَّة ، وعظمت عنده النعمة ، والعبودية كما علمت أن لها ظاهراً وباطناً ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

## لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ ، وَلَـٰكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ

لا تطالب ربَّك وتناجزْهُ في أمرٍ تطلبه منه [١] ، فلا تستحق عليه حقاً ؛ فالمربوب محكومٌ عليه ، والربُّ يتصرَّفُ من غير حَجْرٍ عليه ، ولا بينة فيما أمْره إليه ؛ فإنه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لكمال ربوبيته ، وقهر ألوهيته ، ﴿ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ عن أداء حق ربهم ، وتعظيم جناب إلـٰههم عن أن يشارَكَ في مملكته ، أو يعارض في أقضيته .

وليس جناب الربوبية محلّاً للمطالبة ، ومحل المطالبة مقام العبودية ؛ وهي النفس ، فمن عكس القضية . . فهو بالعقوبة أجدر ، ومن وبيل النكال أحذر ؛ حيث طالب من هو مستبدٌّ بالأمر والتقدير لمن هو محلُّ المطالبة بالقيام بحق ذٰلك المقدِّرِ الحكيم ، والسيد العليم ، فلا يخفىٰ ما في ذٰلك من سوء الأدب ، وفظيع الجهل من وجوه عديدة :

فمن الاعتراض في أحكام الله بما هو ممنوع عنه ، والآخر : التخير عليه بما لا يعلم فيه بوجه الخيرة ، والثالث : الاستعجال واتهام الله في وعده ؛ وذٰلك هو الظن السوء ، بل حق العبد : أن يطلب من الله مع التفويض بما هو الخير عنده ، والأصلح لديه ، ويكون طلبه عبوديَّةً لا لحظٍّ يطلبه ، بل إن نال ذٰلك المطلوب . . فقد ظهر له أثر الإجابة ، وحقَّقه بما لا يظهر ، فهو من العلم المستأثر به دون خلقه ، فليس له أن يطالبه بظهور ما هو مستأثرٌ به ، بل يسكن ويطمئن ويحسن ظنه ، ولا يقطع من فضل الله عزمه ، بل ينتظر علىٰ ممرِّ الساعات والأوقات

---

(١) المناجزة : هي طلب إنجاز أمرٍ حالاً ، أو قضاء حاجة ، وفي ( ب ) : ( وتتأخره في أمر تطلبه منه ) بدل : ( وتناجزه في أمر تطلبه منه ) .

والأنفاس ، فلها أوقات تظهر فيها آثارها ؛ فقد تظهر من حيث لا يحتسب الداعي أن ذٰلك من آثار الدعاء ، فالدعاء والمدعو به والداعي بأحكام أزلية مزمومة بيد قادر حكيم ، قد قدر الأوقات والأحوال ومقدار الأمور ، فلا شيء يتعدَّىٰ وقتَهُ ، ولا يتقاعد عنه .

فإذا علم العبد ذٰلك .. فأحسن أحواله مطالبته نفسه بالأدب ، فهو المطلوب منه لهٰذا الحاكم القادر ، وهو ربه وسيده ومليكه ، ولي في ذٰلك :

فـلا تطالِـبْ بالمطلـوبِ إنَّ لـهُ وقتـاً متىٰ حـان إبَّانُـهْ أتـىٰ عَجِلِ
وطالـبِ النفس بالحـق الذي طلبا منها فذاك مقام العبد في العملِ

* * *

ثم إذا أقامك الله فيما هو المطلوب منك ؛ وذٰلك بأن يقيم ظاهرك في خدمته وامتثال أوامره ، وباطنك مستسلماً لحكمه ومنقاداً لمشيئته ، يتلقىٰ مواقع القدر بالرضا والتسليم ، ويقيم نفسه في الأحكام علىٰ حدِّ الأمر لا يتعدَّاه ، ولا يطلب القيام في سواه ، بل يكون غاية مطلبه امتثال أمر سيده ؛ فإذا كان كذٰلك .. فلا مرية في أنه قد أكمل نعمته عليه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَىٰ جَعَلَكَ فِي ٱلظَّاهِرِ مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي ٱلْبَاطِنِ ٱلِاسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ . فَقَدْ أَعْظَمَ ٱلْمِنَّةَ عَلَيْكَ

متىٰ جعلك واستخلصك وثبّتك في الظاهر ؛ أي : في ظاهر الأفعال ، وسنيات الأحوال في الأقوال ، وسائر الأعمال ، سواء كانت من قبيل الأمر ، أو اجتناب النهي ، واجباً أو مستحباً ، محرماً أو مكروهاً ، ممتثلاً لأمره ، ومثابراً عليه ، ومجموعَ الهمّ ، وفارغ القلب إليه ، مبادراً إلىٰ ما ندبت إلىٰ فعله ، متباعداً عما نهيت عن الإقدام عليه ، حريصاً على اكتساب المحامد والمكارم ، مستصحب السنة في جميع ما تأخذ وتذر .

وقوله : ( جعلك ) يشير إلىٰ خلقك وفطرتك وإقامتك ؛ لأن الجعل بمعنى الخلق ؛ أي : أقامك في عالم خلقيتك ، وجبل خلقك وسجيتك ؛ إذ هو الذي طلب من العباد ، من غير التفات إلىٰ جزاء علىٰ ذٰلك ، بل محض تعبُّدٍ لمن هو أهل لذٰلك .

( ورزقك الاستسلام ) وهو الانقياد للأحكام باطناً ، وعدم التعرُّض في الأقضية القهرية ، بل كما انقدْتَ بالإسلام ظاهراً الذي هو امتثال الأوامر واجتناب المناهي من غير توقف . كذٰلك تكون منقاداً للأحكام القهرية باطناً ، فهو الإسلام الإبراهيمي الذي قال الله لنبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فافهم أنه لم يكن قبل ورود ذٰلك الخطاب غيرَ مسلم ظاهراً ، بل المراد من ذٰلك : الاستسلامُ للربوبية باطناً ، فوفّىٰ بما قال ظاهراً ؛ إذ قال ممتثلاً حيث أُخذ ليطرح في النار : حسبي الله ، فهٰذا امتثال الأمر

ظاهراً ، فوفَّىٰ بمعنىٰ قوله ذٰلك ؛ وهو الاستسلام باطناً لما تلقَّاه جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك . . فلا .

فهٰذا معنى الاستسلام للحكم في حال وروده عليه ، فامتُحن ليظهر صدق إسلامه في استسلامه ، مع ما هو عليه في تلك الساعة من الاحتياج إلى السلامة من التلف ، وأظهر سرَّ افتقاره إلى الله وعدم اغتنائه في وقت اضطراره إليه ، ولم يقطع طمعه عنه في هٰذا الوقت فقال : وأما إلى الله . . فبلىٰ ، فامتحن بألطف من ذٰلك وأخفىٰ ، سيما في حالة ورود الحكم ، فقال له : سَلْهُ أن ينجيك ، فقال مفصحاً عن تسليمه ، وانطوائه عن إرادته واختياره ، وانطراحه عن حوله وقوته ، وصدق لَجَئِهِ ، وتحقيق شهوده لمعبوده ، ورؤية قُرْبه الذي لا يدانىٰ ، واستغراق معيته في معية ربه ، وارتفاع الحجب الغيرية ، وذهاب المظاهر البشرية . . فقال : حسبي عن سؤالي علمُهُ بحالي [1] .

فقوله أولاً : ( حسبي الله ) فناء عن الخلق جملة ، وقوله : ( حسبي عن سؤالي ) فناء عن نفسه ، فهٰذا مظهر تحقيق مقام القرب ، وما دون ذٰلك مقامات في طريق اليقين .

فإذا رزق سرَّك هٰذا الشهود ، وحقَّقَ قلبك بهٰذا الوجود ، وأقام ظاهرك بالقيام بحق المعبود . . فقد أكمل منَّتَهُ عليك ظاهراً وباطناً ، وأسبغ نعمته عليك ، فلا تطلب بعد ذٰلك حالاً ، ولا تنتظر وراءه عطاء ؛ فكل من عبده لنيل مأرب ، أو حصول مطلب . . فعبادته مشوبة ، وأفعاله محجوبة [2] ؛ فالعبد لا ينتظر علىٰ خدمته لسيده جزاء ، بل يرى المنَّة

---

(١) انظر « تفسير البغوي » ( ٣/٢٥٠ ) ، و« تفسير القرطبي » ( ١١/٣٠٣ ) .

(٢) في ( ج ) : ( وأحوال محجوبة ) بدل : ( وأفعاله محجوبة ) .

لسيده حيث جعله لذٰلك أهلاً ، وإلا . . فمن أنت ؟! وما قيمة عملك فيما تظن ؟! وإلا . . فعملك مِنَّةٌ منه متىٰ تؤدي حق شكرها ؟! ومتىٰ تقوم بواجب حكمها ؟!

فما أجدرك بالحياء من الله في حال قيامك بها !! وما أحقَّكَ بالازدياد منها طلباً للقيام بشكرها !! فضلاً عن أن تطلب في مقابلة ذٰلك جزاء أو نيل عطاء ، فأعظم بوجودها عطاء ، واستخلاصك لها من بين خلقه جزاء !! ولي في ذٰلك :

متىٰ رُزِقْتَ امتثالَ الأمرِ فٱرضَ به ... فـذاكَ مـن أوفـرِ الأقسـام والمِنَـنِ
وأمَّا إذا كنتَ مُستسلِمْ لحكمته ... في باطن الأمر سالِمْ مِنْ هوى الفِتَنِ
فٱعلَـمْ بأنَّـهُ أتـمَّ أفضـالَ نعمتِـهِ ... لديك فٱعرف بحق الله في المننِ

* * *

فالتخصيص بالأقسام الظاهرة ، والأحوال والمقامات في الأفعال والأقوال والنيات أولاً ، ثم التخليص عن رؤيتها ثانياً .

فالتخلص منها مقام العرفان ، والتخصيص للعباد من الفضل والامتنان لذٰلك ، ولا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر ؛ فقد يخصُّ بالأقسام الظاهرة من لم يكمل في مقامات العرفان تخلُّصه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

# لَيْسَ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ

ليس من ثبت في مقام الأعمال ، واختصَّ منها بمزيد الفضل والامتنان ، وظهرت عليه آثار العناية ـ وآثار العناية : هي ما يقيم الله فيه عبده من صنوف الطاعات ، وأنواع الموافقات ، التي هي شأن أرباب العبادات ـ . يثبت لديه تكاملٌ في مقام التخليص عن رؤية النفس وما منها ولها .

**فالأول** : حال المريدين وفحول السالكين ، **والتخليص** : حال المرادِين والعارفين وأكابر الصديقين المقربين ، **فلهم التخصيص بطريق أولوي** ، حيث كان لهم التخليص ولا عكس .

**فالأولون مطالبون** بإخلاص الأعمال ، وتصفية الأحوال عن الشوائب القادحة في صدق العبودية ، **والعارفون يطلبون** الفناء عن رؤيتهم وشاهدهم ؛ وذلك لما هم مطالعون من سرِّ التوحيد المفني لمظاهر التعديد ، الموقف على ذروة التفريد ، **فشتان بين من يطلب تخليص** عمله ، وبين من يطلب غيبتَهُ عن رؤيته وفناء أثنيته .

فأهل التخصيص لهم الكرامات وخوارق العادات ، فبها يفرحون وإليها يسكنون ، ولا يؤمن عليهم في سكونهم إليها من الصولة بها ، والخروج عن حد العبودية ، فيكون من أدَّاه ثبوت التخصيص إلى حدٍّ يخرجه عن طور العبودية . . **أقرب إلى المكر إن لم يتداركه** بلطفه ، ويتولَّاه بعطفه ، فيرده عن استطالته ، ويوقفه على ذلَّته وفقره واضطراره .

وكانوا لا يكترثون بها اغتناءً بوجود الحقِّ عنها ، واكتفاءً بنظره

إليهم دونها ، فلا يستشرفون إليها ، وإن وقعت علىٰ أيديهم كفاحاً . . لم يزدادوا بها فرحاً ، ولا يُوجدُ منهم مرحاً ، بل يكونون عبيد المعبود ، ولا يتصرَّفون مقتاً لأنفسهم أن تكون معه مزاحمة ، أو في أحكامه مشاركة .

وأهل التخصيص الذين أُقيموا في الحال ، وساعدتهم العناية ، وتصرَّفت بتصرُّفهم القدرة . . لا يحكم بالإطلاق لهم بالتخلص ، بل حالهم ألا يأمنوا من أن يكون ذٰلك لهم اختباراً وامتحاناً لصدق عبوديتهم ، فهم مع بروزها عنهم غير مأمونٍ عليهم من فتنتها ، والركون إليها .

وأما العارفون وخواصُّ المقربين . . فلا يطلبونها تحدياً ، وإن وقعت علىٰ أيديهم . . فيرونها من جملة مقدورات الله ، وإن طلبوها في بعض الأحايين . . فلأمورٍ اقتضت منهم أن يظهروها ؛ وذٰلك :

إما أن تظهرَ لهم في أنفسهم . . فذٰلك أضعف عندهم ، أو منهم لغيرهم . . فذٰلك الغير إما أن يكون مريداً ضعيفَ الإرادة والنية . . فيطلبونها تثبيتاً لإرادته وتقوية لنيته ، وإما أن تظهر لهم من غير شعور منهم ، بل عنايةً من الله بهٰذا العبد الذي ظهرت له ، ولطفاً بوليِّه ، ويكون الحق يظهر بمثاله لهداية عباده ، وهٰذا يكون للخليفة ومن قرب مقامه من أهل الكمال .

وإما أن يظهروا الكرامة لدفع ضرورة دينية ناجزة عن خصوص الخلق أو عمومهم .

وقليلاً ما يتصرَّفون بها لما نزل بهم ، بل يكونون في النوازل الدنياوية كغيرهم ، بل أعظم تحمُّلاً وتجلداً ، ولا يلتفتون إلىٰ أن يجمعوا همتهم

في رفع ذٰلك ، بل يفرحون بنزول البلايا الدنياوية ، ويغتبطون بها ، ولمن لهم به عناية أيضاً من أصحابهم وخواصِّهم .

وأما عن عموم المسلمين . . فيبذلون وسعهم في إيصال المنافع ودفع المضارِّ عنهم ، فيدخل الواحد منهم خلوته فلا يخرج منها إلا وقد شفَّعه فيمن اجتمعت له همَّته ، وإذا أراد الحق ما أنزله به . . إما بأن يحجبه عنه ، أو يكشف له عن وجه الصواب له في ذٰلك .

وأكثر خوارق العادات تكون لمن خرق من نفسه العادات ، ومن البله الذي تجري عليهم من غير التفاتٍ منهم إليها .

وأما العارفون وأكابر الموحدين . . فقد أكرموا في أنفسهم بما فيه غنىً لهم عن ظهور خارقٍ لعادة ؛ فالأكوان لهم مهيع ، والحضرة لهم منيرة ومتسعة ، والآيات لهم ناطقة ، والبصائر منهم خارقة ، والأنوار عليهم شارقة .

فرؤيتهم أكبرُ الكرامات ، ومحبتهم أعظمُ المثوبات ، فينظرون من وراء أستار الكون أسرار القدر تتجلّىٰ لهم ، وتُناطِقهُمْ بما فيها من الأقدار ، فلا يكون عندهم فرق بينها وبين الأقدار الظاهرة ، بل يرونها من مظاهر الاسم الباطن ، ويرون ظواهر المقدورات مظاهر الاسم الظاهر ، وإحاطة الهوية الحقية قد أحاطت بكلا الاسمين ؛ لذٰلك لا يلتفتون إليها لغناهم عنها بهوية الظاهر فيها حيثما تقلبت الحالات .

وإلا . . فهي ـ أي : الكرامة ـ مرتبةُ الربَّانيين ، وسبيل الروحانيين ، فلا تُجهلُ ولا تُستقلُّ إلا إن قارنها الركونُ إليها ، والاغترار بها ، فعدمها عند خوف ذٰلك . . أتمُّ للمريد ، وأحسن وأكمل ؛ لأنه إذا لم تظهر عنه . . يبقىٰ في ذلة انكساره واضطراره ، لا يرىٰ لنفسه قدراً ، ولا يشهد

لها منــزلاً ولا خطراً ، وذلك أحمــد أحوال المريديـن ، وعمدة طريق السالكين .

ولي في ذلك :

مـا كلُّ مَنْ ثبـتَ التخصيص يكملُ في
تخليـصِ أحوالـه عـن شـائبِ الغِيَـرِ

فالمكرمـاتُ لذي التخصيصِ تظهرُ في
مَـنْ حالُـهُ ألَّا يَـرىٰ للكـون مِـنْ أثَـرِ

فـــلا تراهـــا تُـــرَّأىٰ غالبـــاً هدفـــاً
إلَّا علــى البُلْــهِ لا يــدري لهــا خبــر

والعارفــونَ لهــم مــن أعظــمِ الشــرفِ
يَحْظَـون بِـهْ فـي أعالـي المنظـرِ النضرِ

وأحوالهم في ظهور الكرامات وخوارق العادات خارجةٌ عن الحصر ، وكلٌّ علىٰ حسب حاله ومقامه :

فمنهم : من تظهر له التأثيرات الوصفية ؛ وهم العارفون وأكابر المقربين .

ومنهم : من تظهر له التأثيرات الفعلية ؛ وهم أهل الصدق من الزهاد ، وأهل الأخذ في طريق الأحوال ، فيتصرَّفون في الأكوان بالكلمة الجامعة التي بها تكون المكونات ، وظهرت عنها المبدعات .

وأما بالذات . . فيختصُّ به المقام النبوي ؛ وهو مجموع السبع الصفات ، وهو الروح القدسي الذي نفخ في الروع المحمدي (١) .

(١) في ( أ ، ج ) : ( في الروح المحمدي ) بدل : ( في الروع المحمدي ) .

والعارفون يكونون بمتفرّق هٰذا المجموع : فمنهم بالبصير ، ومنهم بالسميع ، ومنهم بالحي ، ومنهم بالعالم ، ومنهم بالمتكلم ، ومنهم بالقادر ، ومنهم بالمريد .

وكل من انفتح له في وصفٍ . . كان مقامه أثر ذٰلك الوصف ، وهم بالتصرُّفِ بالأفعال أحرىٰ ، لٰكن الأفعال فروعٌ عن هٰذه الأوصاف ، فكل من كان مقامه أصلاً من هٰذه الأصول أو من غيرها من الأسماء المدَّخرة المستأثرة عنده . . فتصرفه بها وينسحب علىٰ ما تفرَّع عنها في الوجود من الأفعال ، والله أعلم بسرِّ ذٰلك وما عداه من الأسرار ، ومصونات الأسرار ، ومشرقات الأنوار .

فكل مقام من هٰذه لو أخذنا في بيانه في الأطوار الخلقية . . لأدَّىٰ إلىٰ طولٍ يخرج عن كونه شرحاً ؛ فالشرح حكمه أن يبيِّنَ المراد من الحكمة وما سمح من تفاصيل أحكامها ومتعلقاتها ، لا كل التفاصيل ؛ فإنك إن أردت ذٰلك . . لم تقف له علىٰ غايةٍ تنتهي إليه ؛ لأن الانتهاء إلى الله ، ولا غاية تنتهي إليه أوصافه ، بل كل وصفٍ بحر ، فلا ساحل له ولا قعر ، فلنرجع إلىٰ ما نحن بصدده من شرح كلام المصنف في ذٰلك .

وَالكرامات في البداية ربما تكون امتحاناً للمريد ؛ فإن وقف عند ظهورها ولم يطلب مقاماً غيرها . . فذٰلك لقلَّةِ حظِّه ، وعدم قسمه في مقام المعرفة .

ومن لم يقف عندها كذٰلك ولم يساكنها ، بل بقي مستمراً في طلبه ، مشمِّراً في سلوك إرادته . . ظفر بمراده ، والمراد هنا : الكرامات التي هي من طريق الأحوال في مظاهر الأفعال .

وأمـا الكرامـات التـي هي آثـار الصفات . . فهـي المعرفـة بعينها ، إلا أن مقاماتهـا مختلفـة باختـلاف متعلقاتهـا ، وكلما كان أوسـع في ذلك . . كان أكمـل فـي المعرفـة ؛ فمـن عرفه مـن كل صفاته . . ليس كمـن عرفه من بعضها .

ومن عرفه من بعضٍ أوسع وأعم . . ليس كمن عرفه من بعضٍ أخص من حيث خصوص الحصر لا من حيث خصوص التشريف .

فـإذا أطلـق الخصـوص في مقـام الخلق . . فهـو الأشـرف ، وإذا ذكر فـي مقـام الحقيقة . . فالعموم فيها أشـرف ؛ لأن عموم الحقيقة اتسـاع ، وخصوصهـا حصـر ، وخصوص الخلق تشـريف واختصـاص ، وعمومها إطلاق في عموم أكثرية الجهل والغفلة .

❊ ❊ ❊

وإذا عرفت أن طلب العارفين القيام بحق عبودية الله دون التفاتٍ إلى الحظوظ . . قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَسْتَحْقِرُ ٱلْوِرْدَ إِلَّا جَهُولٌ ؛ ٱلْوَارِدُ : يُوجَدُ فِي ٱلدَّارِ ٱلْآخِرَةِ ، وَٱلْوِرْدُ : يَنْطَوِي بِٱنْطِوَاءِ هَٰذِهِ ٱلدَّارِ ، وَأَوْلَىٰ مَا يُعْتَنَىٰ بِهِ : مَا لَا يُخْلَفُ عَنْكَ وُجُودُهُ ، ٱلْوِرْدُ : هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَٱلْوَارِدُ : أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ ؟!

الاستحقارُ : إسقاط النظر عن المستحقر ؛ لقلّته وعدم جدواه ، فيسقط عن القلب الاهتمام بشأن المستحقر ، ولا يراه بعين التعظيم ، ولا خفاء أن استحقار الأوراد التي هي الأعمال بالسنة ، والائتمار لأوامرها ظاهراً وباطناً . . نَبْذٌ للشريعة ، واستخفاف بشأنها ، واستهانة بمقامها ، وذٰلك جهلٌ فظيع ، ومنكر شنيع .

فالورد : ما يستعمل العبد من العبادات ، ووظائف الخيرات ، ومحل الاستعمال وآلتها : الجوارحُ ، والجوارح فرصةُ إمكانها : الحياة ؛ فعند فنائها ، وانطواء ظهورها ، وانكساف نورها ، وانهتاك ستورها ، بمحتوم الموت المحتوم ، وانخرام الأجل المعلوم . . تبطل وتنعدم ، فلا يبقىٰ للأعمال آلةٌ تظهر بها ، فلا شك أنها منطويةٌ بانطوائها ، ومنقضيةٌ بانقضائها ؛ فالعاقل الميمون أحق بأن يتلافىٰ ما يفوت بفوات حياته قبل هجوم مماته ، وفناء أوقاته .

والوارد : هو ما يرد على القلوب والأرواح والأسرار من الألطاف ، ويتجلّىٰ على الأرواح من أسرار الجمال ، ويغمرها من لذيذ الوصال ، ويستغرق الأسرار ويسبيها من بديع الجمال ، وما يغمرها تجلي الكمال ، وهٰذه المراتب ـ كما قدمنا ذٰلك ـ لا تفنىٰ ، ولا يتطرق إليها الانعدام ؛ لأنها آثار وأنوار .

وأسرار أسمائه وصفيةٌ ذاتية ، وهـٰذه الأوصاف الحقية ، والأسماء الإلـٰهية لا يتطرَّق إليها الفنا ، ولا يَعْتَوِرها التغير والبلىٰ ، فهي باقيةٌ متأهِّلةٌ لكل ما يرد عليها ، ومتلقيةٌ ما يصل إليها من الواردات وبديع الآيات ؛ فالعبد إنما يفوت بفوات حياته وينقضي بانقضائها ، فأولىٰ بأن يعتني بها[1] ، ويغتنم بما سنح له منها ، وهي حق الحق من العبد ، والواردُ حقُّ العبد من الحق ، وأولىٰ بالعبد أن يكون بحق سيده من أن يطالب سيده بحقه منه ؛ فلا يخفىٰ ما في ذٰلك من إساءة الأدب أن تطلب حظَّك منه ولا تطلب نفسك بحقه منك[2] ، فأين المطلبان ؟!

فالعارفون قائمون بحق معبودهم ، ومتمسِّكون بحبل عبوديته ، وإن تعاقبت عليهم واردات الألطاف ، وتوالت لديهم مزايا الإسعاف ؛ فكلما أورد عليهم من ألطافه . . تضاعفت أعمالهم ، وتزكت أحوالهم .

فكل واردٍ أوثقَ صاحبه عن العمل مع إمكان فعله . . فلا اعتدادَ به ، ولا التفات إليه ، بل ذٰلك نقص ، والعمل من العالم على التحقيق أليقُ من عِقْدٍ علىٰ جيد حسناء ، كما حكي ذٰلك عن الجنيد[3] .

وأعمال العارفين مأمونة ؛ لأخذهم لها عن الله ، وقيامهم بها بالله ، فلا يتطرَّق قادح ، ولا يداخلها محبِطٌ ؛ لفنائهم عن أنفسهم فيها ، وذهاب رؤية الأغيار ، بظهور تجلي الواحد القهار ، فالعُجب والرياء عنهم لا يصدران ، والحسد منهم لا يمكن ظهوره .

---

(١) في النسخ : ( أولىٰ بأن يعتني بها ) بدل : ( فأولىٰ بأن يعتني بها ) .

(٢) في النسخ : ( أن يطلبه حظ . . . ) بدل : ( أن تطلب حظك منه . . . ) .

(٣) وروى البيهقي في « الزهد الكبير » ( ٧٧٠ ) : أنه رُئي في يد الجنيد سبحة ، فقيل له : يا أبا القاسم ؛ أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة ؟! فقال : ( نعم ؛ سببٌ به وصلنا إلىٰ ما وصلنا لا نتركه أبداً ) .

وما لم يصل المريد إلىٰ صريح المعرفة . . لا يؤمن عليه ورود هٰذه المحبطات .

وما كان العارفون إلا أئمة للمتقين ، ومرشدين للطالبين ، فليس المعرفة تقتضي أن يترك الأعمال ويطمئن إلى البطالة والملالة ، فلا يظن ذو غباوة : أن العارفين وأكابر الصديقين شأنهم ترك الأعمال ، وعدم التفقُّد في تصفية الأحوال ؛ فذٰلك الظن بهم ميلٌ عن طريق الاعتدال ، وانهماك في أودية الضلال ؛ فقد يغترُّ ذو فهمٍ سقيم بظهور صورة كرامة ، أو إفصاح بصورة معرفة من تحقيق ، فيقف عند ذٰلك .

وقد قالوا : إن التعبير عن المقام قبل العبور عليه[(١)] ، والإفصاح عنه قبل وصوله . . مما يبتلىٰ به كثيرٌ من المدَّعين ، ويقف عنده جملةٌ من المغرورين ، فيظنون أن ليس وراء ما هم عليه مقام ، حيث تيسر لهم التشدُّق بالكلام ، وزخارف الخيالات ، من تحسين الحالات ، وذٰلك انهماك في بحور الضلالات ، ووقوع في حبائل المهلكات ، فالله لا يجعل حظَّنا عند الأقوال دون تحقيق الأحوال[(٢)] ، وتصفية الأعمال .

والذي يبقىٰ في الآخرة . . هو ما عاملت به الله سبحانه من الأعمال الحسنة ، والأخلاق المرضية ، والحالات السنية ، والأوراد كثيرة ، وكلها محمودة ، ولٰكن منها : ما يراد [ للكسب ، ومنها : ما يراد ] للفتح ، والتي للكسب : عليها تعويل ذوي الرغبات في نيل الدرجات في الجنات ، والتي للفتح هي التي عليها تعويل أهل الصدق والإرادات ، وكلٌّ عبَّرَ عما كان له منهجاً ، ولروحه معراجاً .

---

(١) في ( ب ، ج ) : ( قبل العثور عليه ) بدل : ( قبل العبور عليه ) .
(٢) في ( أ ) : ( حظّنا . . . ) بدل : ( حطّنا . . . ) ، وفي هامش ( ب ) : ( بالطاء المهملة شبيه وجد ) .

فواحد قائل : أفضل الأوراد الصلاة ، واستدل لذلك بدلالات واضحات ، ومنهم من قائل بتلاوة القرآن ، وله في ذلك أكبر دلالة ، وأفصح مقالة ، ومن قائل بأن أفضل الأوراد : لا إله إلا الله ؛ لأنها لنفي الأغيار ، وجلب الأنوار ، وتحقيق الأسرار معراجاً ، ولطريق المعرفة بالتوحيد الخاص منهاجاً .

ومنهم : في التسبيح والتحميد ؛ لاستغراق روحه في بحار التنزيه والآلاء (١) ، ومنهم : في الاستغفار ؛ لأنه لران الذنوب جلاء ، ولتفريج الهموم أصل .

ومنهم : في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها لكفاية الهموم دنيا وأخرى ، ونيل المطلوب برزخاً ومقرّاً ، وللمقام ثباتاً ، وعلى الحب برهاناً ، وللقرب في المنازل الروحية سُلَّماً ، ومن المعضلات أماناً ، وكل سالكٍ على طريق من هذه الأوراد محمود .

ومنهم : من اختار الجهر في الأذكار ، وحجته : أنه لجنود الهوى قاهر ، وعلى جنود الضلال ظاهر ، ومن اختار الإسرار ، وحجته : أنه أقرب إلى كونه عند المشاهدة أديباً ، ولخطاب السر مجيباً .

ومنهم من جعل هجّيراه أذكار الروحانيين الصرف (٢) ؛ وهو إثبات من غير نفي ، ومنهم : من جعل ذكر الـ ( هـو ) إمامه ، واندرجت في ظهور الهوية أعلامه ، ومنهم : من كان في أذكار الإشارات ؛ لاندراج العبارات ، ومنهم : من ورده مراعاة الأحوال القلبيات ، وتحقيق الواردات الغيبيات ، ولا يمكن استفصال أوراد جميع المقامات .

---

(١) في ( ج ) : ( ولا لا ) بدل : ( والآلاء ) .

(٢) هجيراه : دأبه وعادته .

فكيف تستحقر هٰذه المواهب الربانيات ؟! أو تستصغر هٰذه المنن الربانيات ؟! أم كيف لا يحافظ علىٰ فتح أبواب السعادات ، وأوراد العبادات ، أبواب الأسرار الملكوتيات ، والآيات الغيبيات ؟! فكيف يرغب عنها فضلاً عن أن يستحقرها ذو عقل ؟!

فلا يقول بترك الأعمال ، والركون إلى اللذات ، والانهماك في الشهوات إلا كل زائغ عن طريق الحق ، موسوم بسمة البعد والمكر ، أعاذنا الله من ذٰلك ، وعافانا مما هنالك ؛ فطريق المؤمنين ، وأهل التقوىٰ والدين . . القيام بطاعات الله ، والنفرة عن معاصيه ، واتباع مراضيه ، ولي في ذٰلك :

الـوردُ حـقُّ الإلٰـهِ الحـقِّ فاحفظـه ... ووارد اللطـف موهوبٌ مـن الكرمِ
فـلا يفـوتُ وإن طالـت مسـافته ... فكُـنْ بمـا ليس يدرَكْ بَعْـدُ بالعدمِ
فالجزم هٰذا وبعضُ الناسِ يجهلُه ... ويحتقرْ ما هو المطلوبُ في الأممِ
فقُـمْ بمـا يقتضيـه الحـقُّ واجعله ... بـدلاً لما فات من حظٍ ومن قسـمِ
ففتـحُ بابِ العـلا من حيث مطلبه ... فـي طاعةِ الله يـدري ذا ذوو الفهمِ

فالـواردات الحقية ، والأمداد اللطفية تكون كما جرت به سـنة الله علىٰ حسـب الاسـتعدادات ، ونعني بالاسـتعداد قوة القابلية ؛ بالتعلُّق بالأمور المعنوية ، والأسرار الغيبية .

فكلما كانت أعلىٰ وأقوىٰ في الأخذ في الأسباب الموصلة إلى المراد . . كان حظها أوفر من ورود الإمداد ؛ لذٰلك ترىٰ أرباب العزائم والأخذ في الحزم والقوة في الجهد أوفر الناس حظاً ، وأقربهم رتبة .

فلا أعلىٰ من مراتب الأنبياء ، وأعظمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لذٰلك ورمت قدماه ، وشدَّ من السغب أحشاءه ، حتىٰ أتاه النداء من الله : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ .

وكذٰلك كلما كانت المنزلة عند الله أقرب . . كان الأخذ في العزيمة أشد ، ولو كان بالعكس . . لادعىٰ مراتب المقربين الأغبياءُ البطَّالون ، ولٰكن حمتها عن أن تدعىٰ مرهفات حِدادِ المجاهدات ، وأُسُود المخالفات للأهواء ، فلا تختلج في صدر بطَّال ادعاها ؛ لما هو ملابسه من الشهوات ، والانغمار في البطالات ، فلا يستجرئ أن يدَّعيَ نيل أعلى المقامات ، وسني الدرجات ، فيحكم علىٰ نفسه إلا إذا تحكَّم عليه هوىً وقوة جهل ، فربما يقبح ادعاؤه ، ولٰكن لا يثبت له ما ادعاه ، بل يرد عليه ويفتضح ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## وُرُودُ ٱلْأَمْدَادِ عَلَىٰ حَسَبِ ٱلِٱسْتِعْدَادِ

**وورود الأمداد الربانية** ، والفتوح الرحمانية ، والمواهب الامتنانية ، والعطايا الإلـهية . . **علىٰ حسب الاستعداد** .

**والاستعداد** علىٰ حسب ما ناله من القسمة الأزلية ، والاختصاصات العلمية ، والأنوار الفطرية ؛ فكلما كان القسم الأزلي ، والاختصاص العلمي ، والنور الفطري أكمل . . **كان الاستعداد والأخذ في الوسائل والقرب أكمل** .

وكلمـا كان الاسـتعداد وقـوة العزيمـة أكمـل . . **كان ورود الأمـداد ومواهب الامتنان عليها أعظم** ، ولديها أتم ، ومنها أقرب ، وبها أحرىٰ .

**وعلى الندور** : من ترد عليه المواهب من غير شعور . . **ربما انطوىٰ في سرِّه عن الاستعداد** ، بل يروىٰ عن جماعةٍ من أهل الجذب من يجد فـي باطنـه الاسـتعداد وإن كان ملابساً لأمورٍ سـبق بهـا الحكم ، وجرىٰ بهـا القـدر ، فيكـون الاسـتعداد ثابتـاً لا يتغيـر وإن ورد على المحـل ما يناقض المقام .

وكان بعـض مشـايخ اليمـن يقال : إنه صاحـب المقام العيسـوي أبو الغيث ؛ إذ كان مقدَّماً في اللصوص والنهب ، فكان له أوراد من أصناف **الطاعـات** ، وحـالات من أنـواع المجاهـدات في حال ملابسته للفعل ، وكان في حال نهبه وتلصُّصه أحسـن حالاً من كثير من الناسـكين ، وأتم مقاماً من جملة السالكين ، **فلا يقدر أرباب المجاهدات وأهل السياحات علىٰ أقلِّ مجاهداته في ذٰلك الحال** .

**فانظر ما أُعطي [ من ] الاستعداد** ، وما أثمر له من حسن نتائج

الأعمال ، ثم كان ورودُ فتوحِهِ ومواهبُ منوحِهِ علىٰ حسب استعداده ؛ فما ألطف الله بعباده !! وما أعجب حكمته في أقداره ومراده !!

والاستعداد : هو الذي يعبَّر عنه بلسان أهل التحقيق بالوعاء الوجودي ؛ ويقولون : الفصُّ علىٰ حسب الخاتم ؛ إنِ الخاتم مثمناً أو مسدساً ، أو مربعاً أو مثلثاً . . فالفص بحسبه ولا يتعداه ، ولي في ذٰلك :

ورود أمداد سر الغيب يقبلها    بحَسْبِ ما عند مَنْ تأتيه مِنْ مثلِ
مَنْ كان ذا حسن إستعداد انزلها    من حيث ما تنزل الأسرار في الأزلِ

والأمداد مختلفة بحسب اختلاف الاستعدادات في أطوار الوجودات ؛ وكما تكون الأمداد بحسب الاستعداد . . **فكذٰلك تكون شروق الأنوار الربانيات على الأسرار الخلقيات بحسب ما هي عليه من الصفات من المكدرات** ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## شُرُوقُ ٱلْأَنْوَارِ عَلَىٰ حَسَبِ صَفَاءِ ٱلْأَسْرَارِ

هٰذه فرعٌ عما قبلها ، إلا أن هٰذه في سرِّ التخلية والتصفية عن المكدِّرات البشرية ، والعادات الطبيعية ، والملومات الهوائية ، والدواعي النفسية ، والتي قبلها في التخلية والتحلية ؛ فالتخلية : هو الاستعداد ، والتحلية : هو ورود الأمداد في تعبيره .

والتصفية والتخلية أولاً عند السالكين ، وما رتبوه في قانون المريدين ، فشروق الأنوار الخفية مثل نور الأسماء على القلوب ، ونور الأوصاف على الأرواح ، ونور الذات على الأسرار . . علىٰ حسب تخليتها عن الحاجبات الطبيعية ، والصفات الحيوانية ، والظلمات

الأرضيـة الترابيـة ، فبحسـب مـا تتخلَّـىٰ مـن هـٰذه . . تشـرق عليهـا ، وتتجلَّاهـا تلـك الأنـوار ، وتواجههـا تلـك الأسـرار ، ويطلـع فـي أفق النفـس قمـر الحـال ، فتزكَّـىٰ منهـا الأحـوال ، وتصلح منهـا الأفعال ، وتتضاعـف عليهـا الآداب ، ويكشـف لها عن مصون الجمال ، وتتيسَّـر لها طرق الوصال .

ثـم يطالـع الـروحَ شـمسُ الشـهود ، ويطالـع فجـر السـعود ، فيغيب لديـه فلـك النفـس ، وتبـزغ شـمس التوحيـد في سـماء السـر ، فيهتدي بعـد ضلالـه ، ويتوجَّه بوجهه للـذي فطر السـماوات وأبدعها ، والأرض واخترعها حنيفاً معتدلاً ، غير مائلٍ عن التعطيل [1] ، ولا قائلاً بالتشـبيه والتجسـيم والتحليـل ، ولا ملتفتـاً إلىٰ ما روعه من شـواهد الأغيار ، ولا واقفاً مع ما واجهه من الأنوار ، ولا مأسوراً مع ما ورد عليه من الأسرار ، بـل دخـل في جملة الأحرار عـن رقِ الأغيار ، وٱلتحقَ بالصفوة الأخيار ، مستسلماً للواحد القهار ، غير مشركٍ به أحداً من الأغيار .

فأَعجبْ لذٰلك من صفي ، وأكرم به من ولي !!

فـهـٰذا طـرفٌ مـن معنىٰ قولـه : ( شـروق الأنـوار ) ، والأنـوار جمعٌ ، والأسـرار كذٰلك ، فسـرُّ القلب ، وسرُّ الروح ، وسرُّ السر ، ونور الأسماء ، ونـور الصفـات ، ونور الذات ، فتتجلىٰ كل مرتبةٍ من هـٰذه علىٰ حسـب صفاء القابل ، فصفاء القلب عن الالتفات إلى النفس ودواعيها ، وصفاء الروح عن الوقوف مع ما يشاهده من بديع الآيات ، وغرائب المصنوعات دون المبدع الصانع ، وصفاء السـر عن النظر إلىٰ وجود سـوىً ، والتفات لغير ، وكل ما سوى الله فهو غير ، سواء نفسه وأفعالها وصفاتها ، فضلاً

---

(١) كذا في النسخ ، أراد أنه غير معطِّل .

عـن شـهود موجـود غير ، فهـو بالأحروية يكون عنه غائبـاً ، ومن وجوده فانياً ، ولي في ذٰلك :

ورود الأنـوار فـي الأسـرار تحكيهـا
بحَسْـبِ مـا هـيْ مـن التأهيـل تأتيهـا
شروق شـمس الصفاتِ ان كنت تدريها
علـىٰ قـدرْ مـا امحـىٰ من وصفنـا فيها

* * *

ولذٰلك شواهد في ظواهر الأفعال ، تدلُّ علىٰ قدر مقامه في التوحيد ، وقد علمت أن أول مراتب التوحيد التوحيدُ في الأفعال ، فإذا تحقَّق بها . . دلَّ ذٰلك علىٰ ثبوت مقامه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه ، آمين :

**ٱلْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ . . نَظَرَ فِي مَاذَا يَفْعَلُ ، وَٱلْعَاقِلُ إِذَا أَصْبَحَ . . نَظَرَ مَاذَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِهِ**

**الغافل** : هو المحجوبُ السابق إليه نظره ، الغالب علىٰ قلبه شهود الأغيار ، والمطموس في ظلمة كثائف الآثار ، ولم يَحْظَ من التوحيد الأفعالي الذي هو أول مرتبة في التوحيد ، فضلاً عن أن يتطلَّع إلىٰ مقام الفناء في الأوصاف ، فضلاً عما وراء ذٰلك من التلاشي في شروق شمس الذات .

**علامته وظاهر دلالة غفلته عمَّا يرد عليه عند أول مبادئ يقظته** ، وانتشار ظهور حركته ، وتأمُّل ثواقب فكرته ؛ **فالغافل** أول ما ينظر إلىٰ نفسه ، وظواهر حركته ، فينظر ماذا يفعل ، وماذا يدع ، **فتستغرقه الهموم** ، **وتعتريه الغموم** ، وترادف عليه مشؤومات الأحوال ، ويوكل إلىٰ نفسه ، وما يظهر من ظواهر جنسه من الأقوال والأفعال في سائر الأحوال ، **وتتشتَّتُ إرادته** ، **وتتشعب همومه** ، وتتضاعف غمومه ؛ ولذٰلك قال صلى الله عليه وسلم : « من أصبحَ والدنيا همُّهُ . . شتَّتَ الله همَّه »[(١)] .

وهٰذه أحوال الغافلين ، والحمقى المغرورين ، لا تنزع قلوبهم إلىٰ غير ما هو جلُّ أشغالهم ؛ **وهي الدنيا وأسبابها** ، ومشتتات أشغالها .

**وأما العاقل** وهو مَنْ عقل عن الله خطابه ، وتأمَّلَ محكم كتابه ، فرأىٰ أن للأشياء صانعاً قادراً ، عالماً مريداً ، سميعاً بصيراً ، حياً متكلماً ،

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٤٦٥ ) ، وابن ماجه ( ٤١٠٥ ) عن سيدنا عثمان وأنس رضي الله عنهما .

ورأىٰ كمـال تلك القدرة ، ونفوذ تلك الإرادة ، وكمـال ذٰلك العلم ، وشهود ذٰلك البصر ، وإدراك ذٰلك السمع ، ودوام تلك الحياة ، واستمرار الـكلام على الدوام . . **فلا جرم أن يذهل لكمال هٰذه الأوصاف** ، ويرىٰ صـدور جميع الكائنات عنها ، وفيضانها منها ، **ويرىٰ نفسـه من جملة المفعـولات** ، وخلقـاً من جملـة المخلوقات ، مصرفـة تحت أحكام الإرادة ، مقهورة تحت سـطوات هٰذه القدرة النافذة المقدرة ، **فلا يعطيه نظره إلا الانكماش** ، والطمس عن أفعاله ، وسائر إراداته واختياراته .

ولغلبـة نـور العقل في قلبه وإيقاده فـي أرجائه . . **تظهر** ـ لا محالة ـ **الأسباب المعنوية** ، والحركات العلوية ، والتدبيرات الحقية ، والاختيارات الإلـٰهية ، والتصرفات الغيبية ، **فيرىٰ أسـباباً سـماوية** ، بحركات لأجسام خلقية أرضية ، **ويريه نورُ العقل ما وراء ذٰلك من الأسرار** ، وما حملت به الأرض ، ومسكت به السماء من سر الاقتدار .

**فيرىٰ نفسه وغيره من سائر الآثار** ، تحت [ أحكام ] حاكم قهار ، جارية عليه ، ومتصرفة فيه ، فلا ينظر إلا إلىٰ ما يفعل به ذٰلك القادر الجبّار ، **فيكون فانياً عن التدبير والاختيار** ؛ وذٰلك أول مرتبةٍ في التوحيد يدركها العقلاء ، ويحظىٰ بها السادة النبلاء .

**فيسـتوي حينئذٍ** لديه الشدة والرخاء ، والنعمة والبلاء ، **ويكون ناظراً إلـىٰ محبوبـه** ، ومـا يتصـرَّفُ به فيه من الحـركات في سـائر اللحظات ، واستمرار الخطرات ، **فلا يعتب علىٰ أحد** ، ولا يلوي علىٰ أهلٍ ولا ولد ، بـل الكل منه فـي أمان ، وهو من الكل في أمان ، **وهٰذه علامة الإيمان** ، إن سـرىٰ منه الأمان إلىٰ سـائر الحيوان . . **فلا يستوحش منه الوحوش** ، ولا تفرُّ منه ؛ لما ترىٰ ما هو عليه من صريح الإيمان .

وبهٰذا التوحيد الأفعالي صحبوا البوادي والفيافي ، متطلّبين لظهور كماله ، إذا واجهتهم كرهيات الأقدار . . تلقَّوها بالرضا ، وصحبوها بجميل الصبر لمواقع القضا ، فلا ينال منهم ما ينال من غيرهم عند نزول القضا ، قال سيدنا عمر بن الخطاب : ( أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء )[1] ، ولي في ذٰلك :

الغافلونَ عن الحقِّ الصريحِ عموا ... وكان همهمُ الأكوان والغير

فلا قلوبَ ترىٰ حسن التصرُّفِ في ... كلِّ الوجودِ من الأرواحِ والصور

وَأَهْلُ العقولِ أولو الألباب مطلبهُمْ ... أن ينظروا فعلَ مختارٍ ومقتدر

لا يبرحون وقوفَ لإرادته ... لا يلمحون إلى الأغيار بالنظر

فلما لم يكن ظاهراً غيره في الوجود ، ولا حقيقة لسواه في الشهود ، فهو الظاهر في الوجود بأفعاله ، وتأثير أسمائه ، وشوارق أوصافه ، وهو الباطن بذاته ؛ لذٰلك لا يستوحش عن الأكوان إلا محجوبٌ بوهم وجود غيريتها ، ومثبت ثبوتها ، ومتىٰ لم تَرَ لها وجوداً ولا تأثيراً في كل موجود . . لم تستوحش منها ، ولم تطمئن إليها ؛ لأنسك بموجدها ، والمؤثر فيها ، وغناك عنها به ؛ لأنه مالك أزمتها ، لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) قوت القلوب ( ٢/٤٠ ) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .

إِنَّمَا ٱسْتَوْحَشَ ٱلْعُبَّادُ وَٱلزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ ٱللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .. لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

( إنما استوحش العبَّاد ) هم الذين أُقيموا في مقام التكليف ، ولم يحظَوا بعدُ بشهود التعريف ، وحاصل نظرهم : أن يُحْكِموا الأعمالَ بشرائطها ، ويقيموها بسائر وظائفها ، وتتبع آثارها ، والتمسك بالأخبار ، ويتخلَّصون من كثائف الأغيار بغاية جهدهم ، ووسع طاقتهم ؛ لأنها متحكِّمةٌ فيهم ، ومترشِّحة عندهم في شهودهم ، فطرقت أسماعهم الأخبار ، وشوَّقتهم لوامع الأنوار ، اللائحة لهم من غيب الأسرار ، فطلبوا الفرار من ظلمات الأغيار ، واستغاثوا إلى الله في كرور الليل والنهار ، واستأنسوا إلى البراري والقفار ، ودوام التضرُّع والاستغفار في الأسحار ، ومطلبهم : كشف هٰذه الأستار ، ومحو هٰذه الأغيار عن قلوبهم ، والمثول بين يدي محبوبهم .

والزهاد أيضاً أرفع حالاً ، وأخصُّ منزلةً ومقاماً ، قد زهدوا في الدنيا وأهلها رغبةً فيما عند الله من عظيم الكرامة ، وما وعدهم به في دار المقامة ، ولا يزال بهم الزهد حتىٰ يكشف عنهم الحجب الظلمانية ، ويفضي بهم إلى الأحوال النورانية ، حتىٰ يتخلَّصوا عن شؤم الظُّلَم ، فيلوح من وراء هٰذه الأحوال كلمات سنية .

فعند ذٰلك : تظهر لهم معالم العرفان ، وتضمحل في نظرهم وجود الأكوان ، فتشرق لهم في صفحات الوجود بواهر صفاته ، وتُجلَىٰ من وراء سجف الغيوب لوائح أنوار ذاته ، فلا يجهلونه في شيء ، ولا يعطلونه عن شيء ، كما ينزهونه عن أن يكون في شيء ، أو علىٰ

شـــيء ، أو يشبهونه بشيء ، بل قاموا على حدِّ قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ تنزيهاً له عن مشـــاكلة الأشياء ، أو مماثلة الأعيان والألوان ، ولم يعطلوه عن الأشـــياء ، بل هو السميع بسمعٍ لا يشـــبهه سمع ، والبصير ببصرٍ لا تماثله الأبصار ، بل هو بهويةٍ باطنةٍ لا تدركها الأبصار ، وألوهيةٍ ظاهرةٍ لا تخفى على أولي الأبصار .

فعندما يرون استغراق معيته لكل موجود بالإحاطة والشهود استغراقاً لا يدع للأشياء معه ظهوراً ؛ لأن الحادث إذا قُرن بالقديم . . اضمحل ، فلم يَبْقَ له عندهم وجود ، ولا في بصائرهم شهود ، فلذلك لم يستوحشوا عن الأشياء ؛ لانعدام غيرتها في شهودهم .

والعُبَّاد والزُّهَّـاد لما لـم يكن لهم ذلك المشـهد ، ولم يحظوا بذلك المحتـد . . استوحشـوا عنها ، وهربـوا منها ؛ لغيبتهم عن كـون قيوميته هي التي قامت بها أعيان الوجود ، وبحياته حيي كل ذي حياة ، وبسمعه سـمع كل سـامع ، وببصـره أبصـر كل مبصـر ، وبعلمه علـم كل عالم ، وبكلامـه تكلَّم كل متكلـم ، وبقدرته وإرادته تكوَّن كلُّ متكوِّن ، فكيف يغيـب الحاضـرُ الرقيـب ؟! أم كيـف يبعُـدُ الحافظ المجيـب ؟! أم كيف تستوحش عمن قام به وجودك ، وظهرت به من دمجة العدم حدودك ؟!

يروى في مثـل ذلك المعنى عن ذي النـون المصري رضي الله عنه قال : مررت ليلة في سواد الليل بوادي كنعان ، فسمعت صوتاً يقرأ هذه الآية : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، فوقفت حتى دنا مني ، فإذا هي امرأة ، فردت عليَّ السلام ، ثم قالت : من أنت ؟ قلت : غريب .

فقالت : ويحـك يا ذا النون ؛ هل معه غريـب ؟! فبكيت ، فقالت : إني أرى لك مع الله حالاً ، وما هذا شـأن الأقوياء ؛ إنما ذلك سَـمْتُ

الضعفاء ، إنما حال الأقوياء النحيب والزفير ـ تعني من غير بكاء ، فكأن البكاء ينفس بعض ما يجده المحزون الكئيب ـ ثم ولَّتْ عني في الوادي وتركتني[1] .

فانظر ، دلَّته على مقام المعرفة ، فقالت : وهل معه غريب ؟! حيث استغراق المعية لجميع أعيان الوجود ، ولي في ذٰلك :

يستوحشون من الأشيا لغيبتهِمْ     عن سِرِّ مَنْ قامَتِ الأشيا به عَلَنا
لو زال عنهم ظُلَمْ وَهْمِ الوجود لها[2]     رَأَوْا لمعناه سارٍ في الفؤاد دنا

* * *

فلما لم يكن إلىٰ رؤيته في هٰذه من غير النظر في مرآة الكون سبيلاً . . أمرك أن تنظر إليه في الدار الكثيفة الضيقة عن اتساع الرؤية التي لا يمارىٰ فيها ، أمرك أن تنظر إليه باطناً في بدائع المخترعات ، وظاهراً في مظاهر المصطنعات ؛ لترىٰ في الظواهر آثار الصفات ، وفي البواطن وحدة الذات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ٩/٣٤١ ) .

(٢) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : ( الوجود نما ) .

أَمۡرَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلدَّارِ بِٱلنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ ، وَسَيَكۡشِفُ لَكَ فِي تِلۡكَ ٱلدَّارِ عَنۡ كَمَالِ ذَاتِهِ

أمرك في هـٰذه الدار ـ أي : دار الدنيا ـ بالنظر ، والاستكشاف بالفكر ، علىٰ بواهـر العِبَـر ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ من ترتيب أمره ، وأسـرار قـدره ، ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ من عجائب اختراعه ولطائف حكمـه ، فتقلـع بكـم سـفينة هـٰذا النظر في لطائـف الآيـات والعبر إلىٰ سـاحل الشـهود والعيـان ، ولـٰكن فـي هـٰذه الـدار بالجَنـان ، وفـي الدار الآخرة يكون بالعِيان .

ورؤيـة العبـاد فـي الدار الآخرة علـىٰ قدر ما تجلَّـىٰ على القلوب في الدنيـا ؛ فـلا تدانـي رؤيةَ الأنبياء رؤيـةُ المؤمنين الأوليـاء ، كما لا تداني رؤيتهـم رؤيةَ المصطفىٰ صلـى الله عليه وعليهم أجمعين ؛ فلعدم أهلية الدنيـا لتلـك الرؤيـة ، وضيقهـا عـن أن تتسـع لعظيـم النعيـم . . أخَّرها للـدار الآخـرة لا عن بخل ، ولـٰكن لعدم اجتماع الفناء بالبقاء ، والظلمة والضياء ، والكدورة والصفاء .

فلذٰلك كان اختلاف العلماء في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، والثابت عندهم ـ بل الذي أجمع عليه أكابر العلماء ـ علىٰ وقوعها له صلى الله عليه وسلم ، وجواز وقوعها لغيره أيضاً ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ في تلك الليلة طوىٰ عالمَ خلقيته ، وأظهر شهود حقّيته ، وطوىٰ له عالم الملك والملكوت ، وتجلَّىٰ له في عالـم الجبروت ، وطوىٰ ظهور الناسوت ، وأبرز عالـم اللاهوت ، فشهده عِياناً ، وحقَّق رؤيته بياناً ، فلم يُمارَ فيما شهد ، ولـم يعارض فيما وجد ؛ فلذٰلك قال عزَّ من قائل : ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ .

وشاهده المقربون في هذه الدار بالأسرار ، ويشهدونه في الآخرة بالأبصار ؛ كما أجمع عليه أهل السنة ؛ بشاهد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « سترونَ ربَّكم كما ترون البدر لا تمارون في رؤيته »[1] .

فيتجلَّىٰ لعباده عن كمال ذاته ، كما تجلَّىٰ لهم في دار الدنيا بمحاسن صفاته وبواهر آياته ؛ ففي الدنيا الذات باطنة عن الإدراك ، والصفات ظاهرة ، وفي الدار الآخرة تبطن الصفات ، وتظهر الذات بكمالها .

ولا تظن أن الصفات تبطن وتنعدم وتغيب ، ولٰكن عن ظهور الموصوف وحضوره تستغني عن الاستيصاف ، وإلا . . فالموصوف لا يفارقه وصفُهُ ، ولٰكن عند احتجابه تظهر الأوصاف ، ويستدلُّ بها علىٰ كمال الموصوف بها .

وعندما يكشِفُ لأوليائه عن كمال ذاته . . يندرج فيها جميع المحاسن ، ويغيب عند ظهورها في لذاتها نعيمُ الجنان ؛ ففي أول نظرة يحظون بها تندرج جميعُ النعائم المحسوسات والمعنويات ، وكيف ما بعد ذلك ؛ وقد أخبر بالتضعيف عندما يكشف خزائن الصفات لأسرار معاني الذات ؟!

وإدراك التفاوت غير منكور ؛ كما ترى التفاوت بين من قدَّمهم الملك إلىٰ مجلسه وأحضرهم في محلته في مجمعٍ واحد ، كيف ترىٰ لذة الوزراء علىٰ من دونهم في المنزلة عنده من بقية الأمراء ، وأهل الوظائف علىٰ غيرهم من سائر الخدم ؟

(١) رواه البخاري ( ٥٥٤ ) ، ومسلم ( ٦٣٣ ) عن سيدنا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

**ولي في ذٰلك :**

أمـرْكَ بالفكـرِ فـي الدنيا لتشـهدَه ... في الكائناتِ بعينِ القلبِ يا ٱنسانُ

وسوف يظهر في الأخرىٰ بلا حجبٍ ... لسـادةٍ كان فـي العليـا لهـم شـانُ

يمشونَ في الناسِ ما يَدْرون ما حدثَتْ ... في الكائناتِ بروح القدسِ أحدانُ

لا يصبرون على الهجرانِ ما هجعَتْ ... عيونُهـم فـي ظـلامِ الليلِ وسـنانُ

* * *

**قلوب المشتاقين** إلىٰ محبوبهم توّاقة ، **وأرواحهم** إلىٰ لقائه مشتاقة ، فلما علم ذٰلك منهم وعلم ألا صبر لهم .. رحمهم ، **فأنزل نسمات من روح الوصال خفاقة** ، وأهمىٰ عليهم من سحاب الأسرار سيولاً دفّاقة ، وحملهم علىٰ نجائب الأنوار ، وتوّجهم بتيجان الوقار ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

## عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدَكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ

علم منك سبحانه ، وعلمه القديم الأزلي ، **وقد علم بعلمه ما هو الحال منك قبل بروز روحانيتك** ، وشخوص جسمانيتك ، قبل أن يتوجَّه خطاب التكوين إلى المكونات .

**وعلمه وصفٌ من صفاته** ، وقد علم سبحانه منك ومن سواك من كل كائنٍ ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان .. كيف يكون .

ومن أنكر سبق العلم بالأشياء ولوازمها ومتعلقاتها .. **فقد أتىٰ عظيمة ، وارتكب وصيمة** ؛ كالفلاسفة قبَّح الله رأيهم ، ومن قال بقدم الأشياء بلا بداية بتخليطٍ وتخبيط ، وعكَّرَ عليه رأيه شاهدُ الحدوث ، وطروُّ التغير ، وذٰلك لا يصح على القديم الأزلي .

**ولٰكن القول الفصل** : قدم علم الله بها دونها ، وذٰلك مما يدلُّكَ عليه من غير ضرب مَثَلٍ لله ولأوصافه ، **ولٰكن ليقرب فهمك الضعيف ، بمثلٍ فيك لطيف** : أنك تريد أن تبني داراً ، فتراها بجميع أجزائها مشهودة لك قبل بنائها ، فكن بما أرشدتك إليه في هٰذه في العلم خبيراً ، ولها متحقِّقاً وجديراً .

**وقد كسا الله سبحانه أعيان ذوات المشتاقين حلة الوجدان** ، وغذاهم بحلاوة الولوع به ، والتولُّه والتدلُّه في رياض جماله ، وحياض وصاله ، **وعلَّقَ طمع أسرارهم في شهود كماله** ، فلم تصبر عن شهود ذٰلك الجمال ، ومنال ذٰلك الوصال العال ، ولم يطفأ تعطُّشها بدون الكروع في ذٰلك الينبوع .

**وهٰذه الدار لا تصلح لظهور كمال المحبوب** ، ولم يكن فيها متسع

لعذوبة ذلك المشروب ، وقد حكم في علمه عليها أن تقيم فيها مدّةً يسيرة ، كما حكم لها بذلك ؛ وذلك ليتم لها كمال نعيمها ، لأنه لا يعرف الشيء إلا بضده ، فلم تستقرَّ أسرارُهم في هذه المدة ؛ حتى أظهر لهم أثراً من آثار قدرته يؤنسهم بوجود القادر ، ويتحفهم بلطيف قربه ، وذلك لطفٌ بهم إذا تلطَّفَ بهم ، ولطف بهم بوجود سره وجوده في الأشياء كما حجب به قوم[1] .

فسبحانه ما ألطفه في عظمته !! وما أعظمه في لطفه !! وما أقربه في علوه !! وما أعلاه في دنوه !! وما أظهره في بطونه !! وما أبطنه في ظهوره !! وما أجلاه في ستوره !! وما أغمضه في عُليّه !! وما ثم إلا أنه لطف بقوم فعرفوه ، ولو تلطَّف بآخرين .. لما جحدوه ، ولي في ذلك :

قد علم الله أنْ لا صبر عنه كذا
كما حكَمْ بظهور الكون والغير

فأبرزْ شواهد آلاءٍ ظهرن به
فاستأنسَ البائسُ المكروب في الصور

* * *

ولما كانت النفس هي المطية إلى نيل المطلوب ، وحصول المرغوب ، وهي بطبعها وجبلّتِها مجبولةٌ على الملل والسآمة ، والحدة والشآمة ؛ وذلك لما فيها من التركيب التربيعي ؛ من الحرارة واليبوسة تكون حدّتُها وشرهها ، وعن البرودة والرطوبة تتولد سآمتها ومللها ، وتلك الخصال كلها تحت خبطة الطبع الأرضي ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) كذا العبارة في النسخ ، ولعل الأقرب : ( إذ تلطف بهم بوجود سرّ وجوده ) .

لَمَّا عَلِمَ ٱلْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ ٱلْمَلَلِ . . لَوَّنَ لَكَ ٱلطَّاعَاتِ ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ ٱلشَّرَهِ فَحَجَرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ ٱلْأَوْقَاتِ ؛ لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ ٱلصَّلَاةِ لَا وُجُودَ ٱلصَّلَاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٌ

هٰذا تفصيلٌ للحكم العلمية ، وتبيينٌ للمعاني الأزلية ، ففصَّلَ القضايا علىٰ حسب المقتضيَّات ، ورتب المقضيات علىٰ حسب قيام الهياكل واستعداد الآلات ، فأشار بقوله : ( علم الحق ) إلىٰ علم الحق سبحانه للأشياء حقاً صرفاً قبل المزج بوسائط الخلقية ، وقد علم ما أنت عليه من التركيب الجبلي ، فوضع حكمته علىٰ حسب علمه ، فلا يأمرك بما لم يكن في وسعك ، ولم ينهك عما لم يكن في رسمك ، بل أمر ونهىٰ وأوعد ووعد علىٰ حسب ما أنت فاعل ، وما أنت إليه في مآلك واصل .

والملل : فتورٌ يوجد في الطبع ، سببُهُ : طول الأمل وقسوة القلب ، والشَّرَه : حِدَّةٌ توجد عند ابتداء الأخذ في العمل مع خوف فوت الأمل ، والقصور في العمل ، ومنشأ هاتين الصفتين ـ كما علمت ـ الطبعُ الجبلي ، والمعدن الترابي الأرضي .

والأرواح العلوية لما كان منشؤهم سالماً عن هاتين الصفتين . . لم تتلوّن لهم ، ولم تحجر عليهم ، بل كان كلٌّ منهم علىٰ عبادةٍ واحدةٍ لا ينتقل عنها ؛ فمنهم راكع ، ومنهم ساجد ، ومنهم قائم ، ومنهم في ذكرٍ واحدٍ لا يخرج عنه أبداً ، ولا يطرقهم الفتور ، ولم تعلُهم السآمة والملل ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ؛ وذٰلك لسلامة نشأتهم عن لوث الطبع الجبلي ، والثقل الأرضي الترابي .

وقد جعل الله سبحانه الإنسانَ جامعاً بين العالمين ، وذروة كمال النشأتين ، فكلَّفه من حيث نشأتُهُ الروحانية جميعَ وظائف الروحانيين ، فما منهم أحدٌ في وظيفةٍ إلا وعلى الإنسان كمالها ، ولوَّنَها له وحجَّرَها عليه في بعض الأوقات ؛ لما فيه من الجمادية الترابية ، لأن عبودية الجماد لله سكونها وخضوعها واستكانتها ، واطراحها في حضيض ذِلَّتِها ، وجعل الحركة في الماء ؛ لما فيه من الكونية ، فالماء بحركته ولينه وبرودته قوام عالم الأمر ، والتراب بسكونه ويبوسته وافتقاره وذلته قوام عالم الخلق .

والصلاةُ بصورتها تجمع الأمرين ؛ فجوارح الإنسان ، وخضوعها ، وخشوعها ، وإطراقها ، وركوعها ، وسجودها . . عبودية الحق من عالم الخلق ، ومن حيث ما فيها من المناجاة ، والتملُّق ، والتعلُّق ، والشهود ، والتولُّه في ذات المعبود ، وشهود أوصافه ، والتحقُّق بأسمائه من مشرقات أنوار جماله ، ومحرقات جلاله . . عبودية الحق من عالم الأمر .

فقد جمع الله في الصلاة كمالَ صورة العبودية ، وبحسب ما تكمل العبودية . . يكون عليها من كمال شهود ظهور الربوبية ، وعند القيام إليها ، والتحفظ على إكمالها بما ندبك إليه من الآداب الباطنة والظاهرة . . يكون عند الله أحظى ، وبمدحه لك أولى ؛ لإقامتك لعبادته .

فإذا أقمتها على حسب ما أمرك فيها ظاهراً ، وندبك إليه باطناً . . صارت كصورة من برزت عنه في حسن الهيئة ، وملاحة السمت والسيرة ، صورة قائمة وهوية دائمة بين يدي المعبود ، تشفع لمن برزت عنه ، ووجدت بسببه ، تصلِّي عليه وتثني إلى يوم يعيدُ الله الخلائق ، ويرد كل ناءٍ إلى وطنه ، وكل ظاعن إلى سكنه ، فتعود من حضرة الجود

مبشِّرةً بالفلاح ، مبوِّئةً لصاحبها منازل القرب ، وحظائر الحب والشهود .

ولا تكون كذلك حية إلا القائمة ، والقيام هو الحياة ، فإذا كانت حية بالإخلاص باطناً ، والآداب ظاهراً ، وانتصاب القلب بين يدي المعبود . . يقتضي منه ألا يكون له إلىٰ غيره التفات .

فإذا التفت عنه باطناً أو ظاهراً . . احتجب عنه جل جلاله ؛ كما ورد : أن العبد إذا التفت في صلاته . . يقول الله عز وجل : « أسدلوا الحجاب بيني وبين عبدي ؛ فقد أعرض عني »[1] .

وما دام القلب منتصباً قائماً . . فالحق قبلته ، والسر وجهته ، يناجي قريباً ، ويخاطب حبيباً في موطنٍ بما هو اللائق به ؛ ففي القيام بالثناء ، والاعتراف والدعاء ، والإجلال والقنوت والإقبال والكبرياء ، وفي الركوع بالتعظيم والخضوع ، وفي السجود بالاضمحلال عن الرسوم والخشوع ، وفي الجلوس بالتملُّق والترقِّي في مراتب الفضائل ، والتوسل بأعظم الوسائل ، فأعظم بها من رتبةٍ جمعت هاذه المراتب ، واحتوت علىٰ هاذه الرغائب !! فهي الوُصلة بين العبد والمعبود ، وهي سُلَّمٌ إلىٰ نيل المقصود ، جعلنا الله من القائمين بها ، الحافظين لأوامرها وآدابها ، الدائمين العكوفَ في مشهدها .

وكل وقتٍ يدعوك لها كانت مواجهة عديدة ، وهدية جديدة ، وكرامة القادم على الداعي جزيلة ، ليس كمن لم يخرج من مجلسه ، ولا فارق أسوته .

---

(١) روى البيهقي في « السنن الكبير » ( ٢/٢٨١ ) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا يزال جلَّ ثناؤه مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا التفت . . انصرف عنه » .

وأما من كانت صلاته بغير هٰذا الوصف ، وعلىٰ غير هٰذا النعت . . فلا يطلق عليه اسم المدح ، ولم يحظَ بشيءٍ من الكرامة ، وإنما يدخل في غمار من في خطر المشيئة وقسم المغفرة من هٰذه الأمة المحمدية ، ومن جملة أهل القبلة المحكوم عليهم بأنهم متبعون ، وإلا . . فالأمر في صلاتهم كسائر أعمالهم إلى الله ، إن شاء . . جعلها لهم قربة ، وكساها بكشف الكرم كأمثالنا ، وإن شاء . . ردَّها بحكم العدل ، ولٰكن الرجاء من فضله العميم ، وكرمه الجسيم أن يقبل منَّا من غير مناقشة ولا تفتيش .

هٰذا إذا قد بلغ فيها من الآداب الظاهرة والباطنة حدَّ طاقته ومنتهىٰ قدرته ، وإلا : إذا كان لا يكترث بها ولا بآدابها ، ولا يعتدُّ لها ، بل يقوم بحسب العادة المعتادة ، أو ليرائي بها ويقصد بها غير الله سبحانه . . فلا يشك في إحباطها ، ومقت صاحبها ، أعاذنا الله من أن تقصد بطاعته سواه ، وأن نريد مطلباً سواه ، ولي في ذٰلك :

لما علم جل ما فينا من الملل ... وما جمَعْنا من الآفات والعلل

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . ... وما في الطبع من طيشٍ ومن خطل (١)

لوَّنْ صنوفاً من الطاعات مَنَّ بها ... على النفوس من الإفراط والكلل

وذاك حكمة بارينا وقدرته ... ليجعل العبد في الحالات ممتثل

* * *

فالصلاة ذروة سنام الدين ، وعماد الإيمان ، وفيها جميع صنوف الطاعات مندرجة قولاً وفعلاً ؛ لذٰلك عبَّر بها من جملة الطاعات ، فقال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) كذا في النسخ ، ولعله سقط شطر بيت أو أكثر .

الصلاة صلة للمحب بالمحبوب ، ومكفِّرة لكبائر الذنوب ، ومطهِّرة من أدناس أرجاس العيوب ، وجالية كثائف الظلمات عن القلوب ، ومزيحة للحجب عن الأرواح ، ومبشرة بالفلاح ، ومؤذنة بالنجاح ، ومريحة عن أعباء أثقال مقاساة الأغيار ، وما يغان على القلوب من مختلفات الآثار ، « أرحنا بها يا بلال . . . » الحديث[١] .

وإشارته بالطهارة بالصلاة من الذنوب حسن ؛ فالصلاة رحمة من الله لعباده ، وتحفة من حضرة رأفته ووداده ، لمَّا علم سبحانه بأن هٰذا العالم الإنساني محفوف بصنوف المعاصي . . منَّ عليه بما يزيل قذرها ، ويمحو عن محل المناجاة أثرها ، وتلك هي الصلوات الخمس ؛ لحديث : « الصلاةُ إلى الصلاة ، والجمعةُ إلى الجمعة ، ورمضانُ إلىٰ رمضان . . مكفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائرُ »[٢] .

وفي الحديث أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلُ الصلواتِ الخمس كنهرٍ ببابِ أحدكم يقتحمُ فيه كلَّ يوم خمسَ مرات ، فما ترون ذٰلك يبقي من درنه شيئاً ؟! » الحديث[٣] ، وتمثيله صلى الله عليه وسلم بالنهر ؛ لجريانه من غير كلفةٍ في سَوْقه ، ولٰكن من تعرَّض له . . غمرته منَّته ، وعمَّته رحمته من غير أن يكون له فيه احتيال ، بل تعرَّض لنواله ، فكذٰلك الصلاة هي مجرى الواردات الوهبية ، والنفحات

---

(١) رواه أبو داوود ( ٤٩٨٥ ) عن رجل من خزاعة من الصحابة رضي الله عنهم .
(٢) رواه مسلم ( ٢٣٣ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري ( ٥٢٨ ) ، ومسلم ( ٦٦٧ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الوقتية ، **والاختصاصات القُربية** ، واستفتاح أبواب الغيوب الملكوتية ، **والأسرار الجبروتية** ، والرحمات العرشية .

فالغفلة عن الله والانهماك في العادات الأرضية والشهوات الحيوانية . . **حُجُبٌ عن تلك المشاهد** ، وأبوابٌ عن تلك المقاصد ، فجعل الله مفتاحها ومجلىٰ كثائف أستارها . . **في الصلاة** ؛ فاستفتاح صفة القيومية وانسحاب الديمومية . . **بالقيام** ، واستفتاح الخزائن الوصفية والذخائر العرشية . . **في الركوع** ، واستفتاح سرِّ الأحدية ، وانفراد الألوهية ، وفناء الموجودات ، واتحاد الذات ، وبطون الأسماء والصفات . . **في السجود** .

**فما أعظمها من قُربة !! وما أتمَّها من وُصلة !!**

**فسبحان المتفضل علىٰ عباده** بفواضل إحسانه ، **والمتطوِّل عليهم** بسوابغ امتنانه ، من غير طلبٍ منهم لذٰلك ، ولا علمٍ لهم بما هنالك ، **ولي في ذٰلك** :

إن الصلاة من الرحمٰن مكرمة ... خصَّ العباد بها فضل وإحسانُ

تزيل عنهم حجاب البعد مرحمة ... من قبل أن يعلموها الإنس والجانُّ

ويفتحون بها أبواب الغيوب فما ... بعد البلوغ إلىٰ غاياتها شانُ

يجلىٰ بها من مراة السر ما اكتسبت ... من الخطايا وما يعلوه من ران

فإذا انفتحت أبواب الغيوب ، وطهرت القلوب من لوث الذنوب . . **صلحت لمناجاة المحبوب** ، واطلعت علىٰ مصونات الأسرار ، **وحظيت بتجليات الأنوار** ، وانكشاف الحجب والأستار ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** [1] :

---

(١) هنا انتهت النسخة ( ج ) ، وبدأت النسخة ( د ) .

## ٱلصَّلَاةُ مَحَلُّ ٱلْمُنَاجَاةِ ، وَمَعْدِنُ ٱلْمُصَافَاةِ ، تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ ٱلْأَسْرَارِ ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ ٱلْأَنْوَارِ

الصلاة إذا خلصت عن محبطاتها ، والحاجبات عن بلوغ مرامها . . هي **محل المناجاة** ، جعلها الله باب أهل حضرته ، وموعد أهل قربته ، **فيها يناجيهم ويناجونه** ، وفيها تتَّسع أسرارهم ، **وتعلو أحوالهم في منازل القرب** ، وفسيح الحضرة القدسية ، وتشرق أنوارهم في أرجاءِ الوجود ، وتحظىٰ أسرارُهم بالكشف والشهود ، **وفيها المصافاة عند تجلي الصفات العلا** ، فتصفو عند ذٰلك الأسرارُ من كدورات الأغيار ، وتخرج عن مضيق الآثار إلى التنزُّهِ في الاتساع الحقي .

يروىٰ : أن المصلي إذا قام إلى الصلاة متوجِّهاً إلىٰ حضرة ربه ، طالباً بعبادته قُربَه ، ومبتغياً به حبَّه . . **ضُربت عليه سرادقات من نور** ، لم يحم حوله شيطان ، ولم تشغله الأكوان ، **فيكبِّر اللّهَ معظِّماً** ، ويتوجه إليه **مُسلِماً مسلِّماً** ، **يرىٰ** محبوبه قبلته ، وأوصافه وجهته ، **وأفعاله محركته** ومسكنته ، فيكبره ويمجده ويعظمه بمجده وعظمته كما هو أهلٌ لذٰلك ومستحق له ، **لا به ولا منه** ، **بل صدر ذٰلك من حضرة اسمه الماجد العظيم الكبير** .

فإذا كبَّر أو عظَّم أو مجَّد . . صدَّقه **الملك** ، وتشعشع نورٌ من قلبه إلى العرش ، **وتبقىٰ صورة مستمرة الوجود** ، متصلة بالمقام المحمود .

فإذا كان علىٰ غير ذٰلك الوصف ، وبغير ذٰلك النعت متلبساً ؛ **وهو أن يكون محجوباً** ، وبالظلمات مصحوباً ، **ولم يرَ إلا الدنيا وأشغالها** ،

والنفس ومطالباتها[1] ، ودنيّات أحوالها . . احتوشت حوله الشياطينُ وجنودها ، واستلبت قلبه ، وحجبت سرّه ، واسترقته بتمانيها وسندبات خدعها[2] ، فلم تدع له وجهاً ولا وجهةً إلا إليها ، ولا تعويلاً إلا عليها ؛ إذ أغلقت عنه أبواب الملكوت ، وأسجنته في قفص الناسوت ، أعاذنا الله من ذلك ، وسلك بنا طريق أصفيائه ، وبوّأنا مقعد أوليائه الذين أووا إلىٰ جنابه ، والتاذوا بحماه فحماهم ، ولازموا بابه فاجتباهم وآواهم ، ولا جعل للشيطان علينا سلطاناً ، ولي في ذلك :

إن الصلاة محل الأنس بالله ومعدنٌ لمصافاةٍ لمتصفِ

وتشرق أنوار من في الحب أواه ويتسع سر أسرار لمعترفِ

فادخل حماها بقلب غير ملتفت إلى الوجود وعن الأغيار منصرفِ

ولما علم ما أنت مجبولٌ عليه من الضعف من حيث بشريتُك ، وما أنت عنده من القدر والحب من حيث إنسانيةُ روحانيتك . . قلَّلَ أعدادَ الطاعات ؛ لتكون لها فاعلاً ، وكثَّر أمدادها ؛ لتكونَ بها واصلاً ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**عَلِمَ مِنْكَ ٱلضَّعْفَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ ٱحْتِيَاجَكَ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا**

علم سبحانه وعلمه البالغ الذي لا يدخله تناقض وتغيير ، وعلمه للأشياء قبل إيجاد أعيانها ، وجميع تفاصيلها وجملها ؛ فلذلك استوت

(١) في ( د ) : ( والنفس ومطالبها ولذاتها ) بدل : ( والنفس ومطالباتها ) .

(٢) كذا العبارة في النسخ ، ولعله أراد : ( سندباد خدعها ) وهو كناية ؛ كما يقال في المثل : ( مواعيد عرقوب أخاه بيترب ) .

في علمه الحالات المتضادات ، ولم تشغله عدة الأعيان المختلفات ، بل قدَّرها وأبرزها علىٰ وفق ما هو العلم فيها قبل إيجادها ، وسبق إليها ألطافه قبل استعدادها ، وإعداد آلاتها في جميع أطوارها ، وترتيب أحوالها وأفعالها ، وجميع سكناتها وحركاتها ، وسعاداتها وشقاواتها ، فخرجت كل ذرةٍ متهيئةً لما هو المراد منها .

وأكمل الله سبحانه علىٰ هٰذه الأمة منَّته ، وأسبغ عليهم نعمته ، فعلم ضعفها وما هي عليه من الثقل الترابي ، وما ركز فيها من الطبع الحيواني ، فلم تستطع أن تعم المراتب الروحانية وما ركز في آنٍ واحد ، فجمع جميع اللطائف ، ويسَّر عليها تلك المعارف ، فجعل لها خمس صلوات فيها أسرار خمسين ، وفي كل ركنٍ منها طور أمري ، وفعل خلقي ، فأكمل لها غاية مرامها ، ويسَّرَ لها طريق تمامها ، وسر جعلها وتراً في العدد الإجمالي (١) ، وشفعاً في العدد التفصيلي ، مشيراً إلىٰ رتبة الكمال ، واتصاف الواحد المتعال : بأنه واحدٌ في ذاته ، متكثرٌ في صفاته .

وإن كنت تقول : ما بالك تقول : ( إنها في العدد التفصيلي شفع ) وصلاةُ المغرب ثلاث ؟! فقد شفعت صلاة الليل بالوتر ؛ كما صحت بتلك النقول ، وطابق المنقول فيها المعقول ، ولنرجع عن ذٰلك ؛ فإن الدخول في أسرار الصلاة يطول فيه الجولان ، ويكثر فيه القول ، وهو حريٌّ بأن يرتع في ساحة الطرس القلم (٢) ، وتبدي ما أكنَّتْ في طيِّها : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾ ، ولٰكن المراد شرح هٰذا الكتاب علىٰ أوجز

---

(١) في ( أ ) : ( ويسَّر عددها وتراً في العدد الإجمالي ) .

(٢) الطرس : الصحيفة .

مقـال ، وأقرب مثال ، ولي في ذٰلك :

العبـد محتـاجٌ إلـىٰ وصـل الحبيـب ومـا
فيـه اتسـاعٌ لمَّـا كلَّفَـهُ مـن عمـلِ
فقربـت منـه الجـود الـذي علمـا
واسـتودعت ذاك كالألفـاظ فـي المثـلِ
فالخمس خمسين في المعنى الذي فهما
فـي سـر تضعيـف سـنبل نابـت العمـلِ

* * *

فمتـىٰ عقلـت عن منـة الله عليك في إقامته لك فـي العمل ، وعدت تطلـب الجـزاء . . لـم تكـن من مخلصي العمل ، ولـم تنل منتهى السـول والأمل ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## مَتَىٰ طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ . . طُولِبْتَ بِوُجُودِ ٱلصِّدْقِ فِيهِ ، وَيَكْفِي ٱلْمُرِيدَ وِجْدَانُ ٱلسَّلَامَةِ (١)

متىٰ طلبت علىٰ عمل عوضاً . . فقد فقدت الإخلاصَ الذي هو شرطٌ في قَبوله ، والإخلاص : هو ألا تقصدَ بعملك غيرَ وجه الله .

وفقْدُ الإخلاص ينافي طلب الأعواض في مقابلة ما أنت عامله ، فيكفي المريدَ من عدم الإخلاص ، وتقصير في مأمور ، واقتحام منهي ، أو فعل علىٰ غير أمر من الله وبصيرة . . السلامةُ من آفات القوادح في الإخلاص ، والنقائص في الأحوال ، والتقصير عن إكمال ظواهر الأعمال ، فضلاً عن الوصول إلى استقامة بواطنها .

فما أعظم جهل من يطالب سيده بجزاء أعماله التي برزت من حضرة الفضل الأزلي ، الذي ابتدأه به قبل أن يطلبه ، وخوَّله إياه قبل أن يسأله !! فالفضل له عليه حيث أباحه خدمته ، وأظهر عليه آثار عنايته ومنَّته ؛ فالأعواض قيدٌ عن النزوع عن مواطن القرب ، والدخول في حظائر الحب ، فما أعرفُ من قام لله لهٰذه المعاوضات إلا ناقصَ الهمة ، فاتر العزيمة ، ولي في ذٰلك :

إذا طلبت على الأعمال أعواضاً — طُولبت فيها بإخلاصٍ ولم تجدِ
إن الحريص على الخيرات معتاض — بها فلا شك أن يعطى الذي يردِ
لٰكن عن الرتبة العليا يقصِّر ذا — وعن حياض الهنا الفياض لم يردِ

❊ ❊ ❊

(١) في شروح الحكم عامة : ( المريب وجدان السلامة ) .

**فالأعمال إلىٰ طلب العفو . . أحوج منها لطلب العوض ؛ وذٰلك لما** يلزمها من القصور والآفات القادحة فيها كما قاله الشيوخ رضي الله عنهم ؛ **فارتجاء فضله وفيض فضله** . . خيرٌ من أن تطلب جزاءً علىٰ ما صدر علىٰ صورتك من النقص والتقصير .

وإذا نظرت بنور التوحيد . . **وجدت ما صدر عنك مجازاً لا حقيقة ،** فحقيقةُ صدور الأشياء : من اختراع مشيئته وإبداع قدرته ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

لَا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَىٰ عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ؛ فَكَفَىٰ مِنَ ٱلْجَزَاءِ لَكَ عَلَى ٱلْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً

فالحكمة الأولىٰ تشير إلىٰ إسقاط رؤية العمل من حيث التقصيرُ فيه ؛ وهو مشهد أهل الصدق في المعاملة من السالكين بظواهر العلم .

وهٰذه تشير إلىٰ إسقاط رؤية العمل بشهود التوحيد ، وبلسان الفناء في الأفعال ، وهي طريقة الأبدال الغائبين عن الأعمال وسائر الأفعال ؛ لتحققهم بالوصال ، والتولُّه في بديع الجمال ، والخضوع تحت خوف سطوات الجلال ، فتسمو بهم الأحوال ، وتزكو منهم الأعمال ؛ لخلوصهم عن رؤية أنفسهم فيها فضلاً عن أن يشركوا فيها غير معبودهم ، أو تتوجَّه قلوبهم إلىٰ غير مقصودهم ، فكيف يُتصوَّر ممن مشهده هٰذا الحال أن يطلبَ عوضاً وهو يرىٰ أنه ليس فاعلاً ؟!

فيكون جلُّ همّ الصادقين خوف ردِّ الأعمال وعدم صلاحيتها لِأَنْ تُعرض بين يدي الله ، فأعظِمْ به جزاء إذا ارتضىٰ ذٰلك منهم وقَبِله ، فقَبولُهُ أعظم جزاء ، ولولا محض كرمه وعفوه عن العاملين . . لَمَا صلحت أعمال البشر أن تذكر في متنزه حضرته ؛ لما عليها من القصور والتلوث بقاذورات الشهوات وظلمات الغفلات ، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

فكيف تطلب أن تُجزىٰ علىٰ عملٍ ... نزل من آثار قدرة منشئ الصورِ

كفىٰ جزاً أن يكون الله قابله ... وستر ما فيه من نقصٍ ومن ضررِ

❋ ❋ ❋

فنسبة العمل إلى العباد مجاز ، والحكمة في نسبتها إليهم : ظهور الفضل والكرم عليهم ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ .. خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ

إذا أراد أن يظهر فضله عليك أيها الإنسان ، والإرادة **متفرعة عن سبق علمه بذلك** ، فالإرادة هي التي تخصصت بها الأشياء ، وافترقت بها مجملات الأمور ، وبرز على وفقها كل كائن مقدور .

**والفضل** : هو ما قدره لعبده في سابقٍ من سابقة الحسنىٰ ؛ **بأن يخلق فيه الأفعال المحمودة** ، ويجنبه الخصالَ المذمومة ، **ويلبسه الألطاف** ، ويحليه بحلية جميل الأوصاف ، **فيُتوّجه بمكارم الأخلاق** ، ويعامل في جميع أحواله بمعاملة المحب المشفق بحبيبه ، **ويدنيه دنو متقرّب لقريبه** ، فإذا رفع بينه وبينه الحجاب فأذن في الخطاب ، وابتدأه بما يطلب منه فيه الجواب .. **انطلق لسانه في مسامرة حبيبه** ، فيقول له المولىٰ بمحكم كتابه ، المنزل علىٰ حبيبه بإثبات العباد وأفعالهم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ ، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلما قرع أسماعهم ذكر الجزاء علىٰ ما أجراه من صالح العمل .. **فهموا منه الإذن في نسبة ذٰلك إليهم** ، فبسطوا أكفَّ ضراعة القلوب فقالوا : تقبَّلْ منا ما حقَّقتَ نسبته إلينا ، وأجريتَ أسباب هدايتك علينا ، ثم لما علموا ما الله موصوفٌ به من جميل الصفات .. **غاروا علىٰ أن ينسبوا إلىٰ صفته ما لا يَليق بشرف رتبتها من نسبة ما لا يوصف به** ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ، فلو لم يطلق نسبة الأعمال إليهم .. **لم تحتو أسرارهم أن تختلج فيها أن لها ومنها** .

ولٰكن نسبة الفعل لم يختلف فيها القول بنسبته إليه ، وما كان

من قبيل تجلي العدل . . فعند أهل السنة : أنه مختارٌ لفعلها في حال إجباره ، ومجبر في حال اختياره ، فلسان الشرع لا تنطق بلسان الذم إلا على العبد في فعله للمعصية ، ولسان الحق لا تنطق إلا بالعدل : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وحق العبد : أن يضيف إلىٰ نفسه ما لا يليق نسبته إلىٰ ربه ، مع ما هو متحقِّقٌ به بأن الأشياء لا تخرج عن حكم إرادته واقتداره .

**والسنة في ذٰلك** : كاللبن بين دم القدر وفرث الجبر ، **فالعبد يقول عند بروز الطاعة عنه** : **أنت المقدِّر** والهادي والمعين والمادح والمثيب ، فهٰذه عدة نِعَم يقصر دونها ، ويعجز في جنبها شكر الشاكرين ، **وعند بروز المعصية عنه يقول** : يا رب عصيتُ وأخطأت فاغفر لي ؛ فأنت الغفور الرحيم ، **ولي في ذٰلك** :

إذا أراد إلٰه الخلق يظهر من ... فضائل في شخصٍ من البشرِ
خلق له كل محبوب ينال به ... ثناه عند إلٰهٍ جلَّ مقتدرِ
فنسبة الفعل في الأشيا وإن حسنت ... مجازة ليس للأغيار من أثرِ

* * *

فإذا علمتَ أن أصل العبد العدم ، وفصله العجز . . علمت أن العدم **ظلمة وليس عليه جلَّ** أن ينيرَها إلا أن يتكرَّم ويرحم ، قال جل من قائل : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ **إذ الظالم** : من تصرَّف في حق غيره ، ولم يصادف لغيره ملكاً ، وإذا لم يجعل لهم نوراً . . **فلا ظلمَ منه لهم** ، وإذا لم يجعل لهم نوراً ولم يهبهم من فضله . . **فمذامُّهم غير متناهية** ، وإذا ألبسهم من نور وجوده ، وأظهر عليهم عنايته وجوده . . **فلا جرم لا تفرغ مدائحهم** ، ولا تُسامىٰ مراتبهم ؛ **لذٰلك قال المؤلف** رضي الله عنه :

لَا نِهَايَةَ لِمَذَامِكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ

لا نهاية ـ يوصل إليها ؛ لبعد غايتها ، وغموض نهايتها ـ لمذامك ؛ لأنها متأصِّلة فيك ، ولا نهاية للعدم الذي هو ظاهر صورته الظلمة ، ومعناه عدم الحقيقة التي يرجع إليها ويعتمد عليها ، فالمذامُّ إن أرجعك إلىٰ أصالتك . . لا نهاية لها ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده ، وهو نور وجوده ، وتحقيق شهوده ؛ لأنه إذا ألبس ظلمة وجودك بنور وجوده ، وجلا قبائح صفاتك فائضُ فضله ، وعميم جوده . . اضمحل العدم ، وبقي الأصل الوجود ، والظاهر في الأعيان الشهود ، وكان هو الشاهد والمشهود ، فلا تفرغ لمدائح الصفات العلية ، والتجليات السنية .

فمن أرجعه الله لنفسه . . أرجعه إلىٰ ظلمةٍ ونقص ، وقد رسم عليه برسم البُعد ، وأظهر عليه علامة الطرد عن حضرة القُرب ، ومن كان من حضرة الله بعيداً ، ومن بابه طريداً . . فلا نهاية لمذامِّهِ ومخازيه .

ومن أتحفه وقرَّبه وجعله من خواصِّه وأهل حضرته . . فقد أسبغ نعمته عليه ، وأفاض فائض جوده لديه ، فمتىٰ يُفرَغ من مدحه وقد مدحه وقرَّبه خالقه ومالكه ؟! ولي في ذٰلك :

فلا نهاية لذم العبد إن بعدت ... به عن القرب من مولاه أسبابا
ومدحه ليس يفرغ منه إن قربت ... من ربه جلَّ مَنْ للفضل وهَّابا

❊ ❊ ❊

فإذا عرفت ذٰلك .. تحققت ـ لا محالة ـ أن الممدوح وجود الحق لا غير ، وإنْ وجودك [ لا يكون ] إلا بفنائك عن وجود إِنِّيَّتك ، ومحو ثنويتك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً ، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً

كـن بأوصـاف ربوبيتـه متعلّقـاً ؛ بـأن تكون شـاهداً لوجـوده وجميع أوصافـه ، غائبـاً عـن وهمية وجـودك ، فانياً عن مظهر شـهردك ، لا ترىٰ لـك برؤيـة حيـاةً ، ولا سـمعاً ولا بصـراً ، ولا قـدرةً ولا إرادةً ، ولا علماً ولا كلامـاً ، ولا حركـةً ولا سـكوناً . . إلا بـه ، وقائمـاً بقيوميتـه ، وحيـاً بحياته ، ومريداً وقادراً وعالماً ومتكلماً بإرادته وعلمه وكلامه ، ومتحرّكاً بتحريكه ، ومتصرّفاً بتصريفه .

فالتعلُّـق بألوهيـة الإلـٰه للمألوه ، وبربوبية الـرب للمربوب . . نعت ، وبها يظهر شرفه ، ويثمر له ظهور نسبته .

وحيـث تكـن القضيـة بـأن تعلـق بالأوصـاف العدميـة ، وغفـل عـن الصفات الأزلية العلية . . فهو الحقيق باسـم الجحود ، والمبعَد المطرود ـ أعاذنـا الله مـن البعـد والطـرد ـ فكلمـا كنـت متحققـاً بأوصافك ؛ من قصـورك وعجـزك وفقـرك ، وذُلِّـك وعـدم حولـك وقوتـك . . كنت من التعلق بأوصافه أتم وأمكن وأخص ، ولي في ذٰلك :

فكـن بأوصافـه العظمـىٰ منتسـباً ... وعـن قـواك عديـم الحـول منعدم
واشهد وجود الصفات الست معتمداً ... بـأنَّ خالقنـا موصـوف فـي القـدم
بتلـك والسـبع مبـدا كل كامنـةٍ ... وكل ما اسـتأثر فـي الغيب منكتم
مـن كل أوصافـه أو كل مـا نُعِتَتْ ... به منَ اسمائها الحسنىٰ بذاك سُمي
فاقطع بهٰذا وكن في القول مجتنباً ... عمَّـن تجـوَّل في الإلحـاد أو يَحُمِ

❊ ❊ ❊

فإذا فهمت معنى التخلُّق والتعلُّق الذي يشير إليه أهل الأذواق والعلماء الحذّاق .. علمت أن المطلوب من العبد أن يعترف بأوصافه ، ويكون متعلقاً بأوصاف الله ، ناظراً في بواطن مصنوعاته ، فالحكمة في العبادة : الاعتراف بذلك ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهَ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ؟!

منعك وحظر عليك وأوعدك على دعواك حقوق العباد المالية الدُّنياويَّة التي خوَّلهم إياها ، وأنزلهم عليها ؛ مع أن المُلْكَ فيها حقيقة لله ، ومع ذلك قال : ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ، والباطل : هو ادعاؤها بغير حق ، أفيبيح لك أن تدَّعي وصفه وهو رب العالمين ، ومالك الدارين ؟! هٰذا غاية الظلم والتعدي أن تنازع سيدك وخالقك في صفاته ، أو تشاركه في نعوت كماله ، أو تشرك معه غيره في عبادته ، أو تشهد معه سواه في مملكته .

فلو أباح لك ذٰلك . . لم تتجاسر على الإقدام عليه حياءً منه ، وإجلالاً وتعظيماً لجنابه العلي عن أن يُنازَعَ في صفاته ، أو يساهم في نعوت كماله ؛ كما يروىٰ عن سادات الصوفية رضي الله عنهم حكايات في ذٰلك عديدة وآثار ، ومتواترات أخبار : أن أحدهم يعرض له التصرُّفُ المطلق في الوجود بإذنٍ صريح ، وذوقٍ صحيح ، فيمتنع أدباً وهرباً منه فرقاً ، فيستعيذ بالله ويلوذ بجنابه من أن يكون له اختياراً ، ويغار علىٰ جنابه أن يكون لغيره ذكرٌ في نهيٍ أو أمرٍ ؛ لا نفسه ولا غيره ، ويغضي عند تبرج الآيات ، وظهور خوارق الكرامات ؛ خوفاً أن يساكنها أو يفرح بوجودها ، فيكون مشركاً في محبَّته غيره ، فيشتد نكيره .

فلهٰذا المرمى استعاذوا به مما سواه ؛ مما يتطرَّق إلى القلب محبته ، أو يخامر النفس مساكنته ؛ لذٰلك قال قائلهم :

أَشْتَاقُهُ فَإِذا بَدا ... أَطْرَقْتُ مِنْ إِجْلالِهِ

لَا خِيفَةً بَلْ هَيْبَةً وَصِيانَةً لِجَمالِهِ

وعند ظهور تجلي المحبوب على المحب مع فرط التعطُّش إلى اللقاء يشتدُّ عليهم الصبر مع هٰذه الحالة ، وهٰذا هو صبر الصيانة والإجلال لمظهر الجمال ، والغيرة علىٰ مخدرات غيد المعارف ، ومصونات حجال اللطائف والوصال ، فلا يطيق الصبر في هٰذا المشهد الرفيع مع إباحته إياه إلا نادر من محققي العارفين ، والمتمكِّنين من آحاد المقرَّبين ، وعندما يتحمل أعباءه . . يتضاعف عليه مظاهر ولائه ، وسوابغ آلائه .

فانظر كيف أدَّبهم الأدب لمقام الربوبية ، في صفو مقام العبودية ، إلىٰ أن صانوا شهودَ وجوده عن أنفسهم ، ونزَّهوا محلَّ محبته عن مقصودهم ، تعلُّقاً وتحقُّقاً ، فضلاً عن أن يدَّعوا لأنفسهم حالاً ، أو يثبتوا لها مقاماً ، فضلاً عن أن يشاركوه أو يشركوا معه .

فإذا رأيت شرف هٰذا المقصد ، ويُعْد مرماه وعلوَّ شأنه ، ورأيت ما الخلق عليه مكبُّون ، وله محبون ، وفيه يتنافسون ؛ من قاذورات الدنيا ، والتطاول في هٰذا العالم الأدنىٰ . . علمت أن هٰذا الطريق قد اندرس بالكلية ، إلا البقايا الذين تحت قباب الغيرة أولو البقية ، وليت شعري ؛ مَنْ لك بواحدٍ منهم ؟! أو هل ترىٰ مخبراً عنهم ؟! وإن يظهر في زيهم مَن يدَّعي شرائف أحوالهم ، ويمخرق بتزويق ألفاظ تحاكي ألفاظهم . . كذَّبَهُ شاهدُ حاله ، ونمَّ عليه قبيحُ فعاله ، فليتَّقِ اللهَ المتجاهلُ المتعامي ، العالم بما هو عليه من قبيح الحال ، وسوء الفعال ، وهو مع ذٰلك يدَّعي مقامات أبطال الرجال ، ويتبجَّح في بيداء الدعاوي ، وهو عن مقامات القرب نائي ، وفي سندبان الأهواء هاوي .

فبالله يا أخي وإياي ؛ **هل أحدٌ منَّا نال من لذيذ وصالهم ، أو تحلَّىٰ بصفيِّ أحوالهم ، أو تأدَّب بمكارم أخلاقهم ؟!**

فكيف وقد وعد الحق من نازعه في صفاته ، وأشرك غيره في عباداته بوبيل عذابه وأليم عقابه ، فقال عزَّ من قائل محذِّراً ، وعن الإشراك معه زاجراً : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ عن أن تشاركوني في صفاتي : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ عن أن تشركوا معي أحداً في عبادتي .

وعلىٰ لسان نبيه في القدسيات : « **الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني فيهما . . أدخلته النار** »(1) ، أشار إلى اختصاصه بهٰذه الأوصاف كاختصاص الشخص بالرداء والإزار ؟! فلا أبلغ من هٰذا إنذاراً ، ولا أعظم علىٰ من نازعه منه إنكاراً ، فإن مَنْ نازع شخصاً في ردائه وإزاره . . **فقد بارزه بأعظم إنكاره .**

فانظر واعتبر ، وإياك والكبر ؛ **فإنه المصيبة الكبرىٰ** ، فإن قليله مانعٌ من دخول الجنة ؛ كما ورد : أنه « **لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من الكِبْر** ، ولا يخلد في النار مَنْ كان في قلبه مثقال ذرةٍ أو حبَّةٍ من إيمان »(2) .

وشرح ذٰلك غامضٌ عن الأفهام عند النظر في أصله ومبدئه وغايته وانتهائه ، **فالكبر المنهي عنه** : خُلُقُ إبليس لعنه الله ، وهو خُلِقَ من نار ، والنار ما دامت متأصلة في القلب وإن قلَّت . . فهي تجذبه إلىٰ أصلها [ حتىٰ ] لا يتمكن من دخول الجنة ، **كذٰلك الإيمان** ؛ لا يزال

---

(1) رواه أبو داوود ( ٤٠٩٠ ) ، وابن ماجه ( ٤١٧٤ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(2) رواه أبو داوود ( ٤٠٩١ ) ، والترمذي ( ١٩٩٨ ) ، وابن ماجه ( ٥٩ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

يجـذب صاحبـه حتـىٰ يردَّه إلىٰ أصلـه ، **وأصله نور الجمـال الذي نعيم الجنـة منزلـه** ، وفيها سـلطانه ومظهره ، ولقد طال بنا الشـرح ، وانجذب البعض إلى البعض ، **ولي في ذٰلك** :

منعـك أن تدعـي حق العبـاد فما　　للعبـد أن يدعـي وصفـاً لمـولاهُ
فمـا لغيـره أن يعبـدْ سـواه ومـا　　معبود فـي الملك والملكوت إلاهُ
مـن نـازع الله فـي أوصافه قَسَـماً　　ألَّا يـذوق فـي الفـردوس أحـلاه

* * *

فـإذا سـمعت بمـن أظهـر الله عليـه مـن أوليائـه شيئاً ممَّـا هـو مـن مقتضى التصـرُّف الإلٰهي . . **فـلا يختلـج فـي عقلـك أن ذٰلك بطلـبٍ واختيـار** ، أو مـع بقـاء رؤيـة الأغيـار ، والتلطُّـخ بكثائف العوائـد وظُلَم الآثـار ، **وإنما ذاك بعـد تحقُّق مقام الفناء** ، وأما مع الإقامة على العوائد الطبيعيـة ، والشـهوات الحيوانيـة . . **لا تخرق أسـتار الغيـوب** ، ولا تبدو مخبَّـآت الأسـرار تحـت سـجف الحكمـة ، **وسـرُّ القَدَر لا يظهـر إلا بعد ذهاب وصف البشر** ؛ **لذٰلك قال المؤلف مُتعجِّباً** :

## كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ ٱلْعَوَائِدُ ، وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْعَوَائِدَ ؟!

كيف يتصور أن تخترق لك أستار الغيوب وأنت بعدُ لم تتب من هفوات الذنوب ؟! أم كيف تخترق لك العوائد والأقدار وأنت متَّصفٌ بالغفلة ومقيمٌ على الإصرار ؟!

أم كيف تشرق عليك شوارق الأنوار وأنت لم تَصْفُ منك الأسرار عن الظلم والأكدار ؟! أم كيف تطمع في نيل أقصى المرام ، والتحلِّي بأعلىٰ مقام وأنت لم تعرف الحقوق على التمام ، ولم تصح منك الإنابة على الدوام ؟!

فخرق العوائد : بأن تأتي ويظهر علىٰ يديه ما يستحيل في العادة الإتيان بمثله ؛ وذٰلك عند انكشاف سر القدر ، وذهاب ظلم العوائد وكثيف البشر ، وخرق العوائد النفسانية مفتاح الأبواب الروحانية ، وخرقها : بأن تأتي علىٰ خلاف المعتاد مما هي مقيمةٌ عليه ومطمئنةٌ إليه ؛ من الركون والسكون إلىٰ ما يلائمها ويوافقها من ملاذِّها ، بأن يزعجها عن سائر محبوباتها ، وينغِّص عليها ملذوذاتها ، ويحملها على الاجتهاد ما يخرجها عن معتاد طبعها .

فعند ردِّها عن مرادها ومقتضىٰ حظِّها ، وحملها علىٰ غاية الوسع ومنتهى الطاقة في عبادة ربِّها . . تخرج عن حيِّز النفوس ، وتلتحق بالعالم القدُّوس ، مع الأرواح العلوية ، واللطائف السماوية الصافية ، فعند ذٰلك ـ لا جرم ـ أن تخرق العادة البشرية ؛ بأن تطير في الهواء و[ تمشي ] على الماء ، ويستوي عندها البُعد المكاني ؛ إذ لا مسافة في العالم العلوي مكانية ، وتتجلَّىٰ عليها الصفات العلوية ، فتكون مظهراً

لهـا ومجليٰ لسرِّها ؛ لأن كل سـماء يتحكَّمُ فيها سـر وصفـي ، وروح قدسي ، روحانيته مستمدة ومستعدة لتنزُّلِ نور وصف إلـٰهي ، وهنا علمٌ يُطلَب ستره عن غير أهله ، فلا يذاع ، ولا يستودعه إلا كل قلب قدسي يشاكله ، فلا نطيل فيه ، ولي في ذٰلك :

فكيـف تطلـب مظهـرْ غائـب القـدر
وأنـت مكبـولٌ فـي سـجنٍ مـن البشـرِ ؟!
إن شـئت تختـرق السـبع الطبـاق علىٰ
بـراق عـزمٍ وحضـرةْ منتهـى النظـرِ
هـٰذا وبعـد انتهـا سـير الوفـود إلىٰ
عزيـز وصـل بجنـح أطيـار ذاك طـرِ
إنسـان عيني سـعدت إن حُزت ثَـمَّ علىٰ (١)
وجـهٍ جميـلٍ بـلا تكييـف منحصـرِ

وهـٰذه الخـوارق هـي ظهور الآيات ، ووجـود الكرامات ، وهي لا تظهر لمن بقيت عليه من نفسه بقية ، وإن ظهرت صورتها . . فهي عند الرضا بها ، والسكون إليها ، والفرح بوجودها خديعةٌ ، فعدم ظهورها علىٰ من فيه من بقية الهوىٰ ووجود الدعوىٰ أتمُّ ؛ لصلاح حاله ، فستر الكرامات ، وظهور الآيـات علىٰ يد من لم يتأهَّلْ للإرادة ، ولم تحتنكه رياضات السـالكين ، ولم يكشف له عن مقام المحقِّقين . . من رحمة الله به وعنايته .

والكرامـة تكـون : إمـا من قبيل الأفعال ، أو من حيّـز الأقوال ، أو من لطائف الأحوال .

---

(١) في ( ب ) : ( جرت ثَمَّ علىٰ ) بدل : ( حزت ثَمَّ علىٰ ) .

فالأفعال ؛ كأنْ يمشي في الهواء وعلى الماء ، وطي مسافات الأرض البعيدة ، وإحضار الطعام في غير أوان وجوده ، وإجراء الماء من غير أن يكون هناك ، أو زيادة في شيء منه بأن يكون القليل كثيراً ، وانقلاب الأحجار ذهباً ، وما شاكل ذٰلك مما هو من جائزات القدرة .

أو من الأقوال ؛ كإجابة الدعاء ، وتيسير العلوم الغريبة ، والمعارف العزيزة ، وإبراز العلم المكنون الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعرفه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به . . فلا ينكره عليهم إلا أهل الغرَّة بالله »[1] .

وأما من الأحوال . . كالاتصاف بصفة الأرواح في تشكُّلها وتنقُّلها من صورةٍ إلىٰ صورةٍ ، أو تكثر الصور ، أو الظهور بهيئة تخالف هيئة البشر ، وذٰلك من أعز ما يجده أهل المواجيد ، ولا يكون إلا بعد أن يذهب في التوحيد ، وينكمش في حضرة التفريد ، ويخرج عن حيِّز التعديد .

وأما الكرامات بالأقوال . . فعند جماعة من أرباب الكشف قالوا : ما يكون مجاباً فيما يدعو إلا من لم يكتب عليه ملك الشمال عشرين سنة أو أكثر خطيئة ، وهٰذا لا يبعد عن أرباب اليقظة ؛ سيما وقد ثبت أن ملك الشمال مطاع لملك اليمين ، فيقول : ( قف ولا تكتب ؛ لعله يستغفر بعد ساعة )[2] ، وقيل : ثلاث ساعات ، واختلف العلماء : هل الساعة هي الفلكية ، أو هي ساعةٌ لطيفةٌ كما هو العرف أن الزمان القريب يسميه الخلق ساعة ؛ كخلافهم في ساعة الجمعة ؟ والله أعلم بالمراد من ذٰلك .

---

(١) رواه السلمي في « الأربعين » ( ٣٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » ( ١٩١/٨ ) بنحوه عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

وأما **الأفعال** . . فطريق الواصلين إليها بعد توفيق الله ، وهدايته لهم وعونه ؛ بتصفية الرياضات ، وترك المألوفات والمعتادات ، فيها تنخرق لهم العادات .

وبالجملة : فالستر في حق الضعفاء أسلم ، والكشف في حق الأقوياء أقوم وأدوم ؛ فالأقوياء لا يعتمدون علىٰ ما يبرز علىٰ أيديهم ، ولا يرونه كثير جدوىٰ ، ولا يزيدهم يقيناً ، بل يرونه من جملة أقدار الله الجارية ؛ لثبوت يقينهم ، وتحقيق تمكينهم ، وجلُّ نظرهم واجتماع هممهم في الاستغراق في جلال الله وجماله ، ولي في ذٰلك :

العارفون لهم في القدس جَوْلان ... يزيد أرواحهم شوق وأشجانُ
فهم في العلا تدور بهم أحوال ... قربىٰ لهم في القرب ميدان
وفي مسامر أرجاء الوصال لهم ... مناقبُ آياتٍ في الأسما وعرفان
والسالكون علىٰ نهج السبيل فلا ... المطلوب منهم له إلا محو لأعيان
يلقون ثَمَّ جيوش النفس خائضة ... في غمرة الموت ركبان وفرسان

* * *

وكان خرق عوائد النفس بالطلب ؛ لأنها حق الحق من العبد ، فأولى الأحوال أن يكون في الطلب متَّصفاً بالأدب ، والأدب : هو أن يكون طَلَبَ امتثالاً وتعبُّداً ، لا لوجود حظه وموافقة مراده ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## مَا ٱلشَّأْنُ وُجُودَ ٱلطَّلَبِ ، وَإِنَّمَا ٱلشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ ٱلْأَدَبِ

ما الشأن المراد من العبد في حضرة سيده وإعطاء ربوبيته حقَّها بأن تكون طالباً لحوائجك منه ، ولٰكن الشأن المراد من العارفين والعلماء المحققين : أن تكون متأدِّباً بين يديه ، لا يكون لك مرادٌ غير مراده ، ولا مطلوب غير شهود ذاته ، والتحقُّق بأسمائه وصفاته ؛ بأن تدعوَهُ عبوديةً ، وتفوِّضَ الأمر إليه في كل ما تطلب .

فمن دعاه بلسان العبودية لا لينال شيئاً ، ولا يرىٰ نفسه أهلاً . . فحقيقٌ بأن يُجاب فيما سأله من المحابِّ ، وأن يَلِجَ الباب في زمرة الأحباب ، ومن كان مع الله علىٰ غير هٰذه الحالة في سؤاله وجميع أفعاله ؛ يسأل وحاجتُهُ أمامه حاجبةٌ لدعائه أن يلج . . فلا جرم أنه ما أوفى الربوبيةَ حقها ، ولا أعطى الحضرة مستحقَّها .

وحسن الأدب في الباطن : هو تفويض الأمر إلى المشيئة ، والانطماسُ في حضرة المعية ، لا يشهد في الوجود ثنوية ، والأدب ظاهراً : هو القيام بالوظائف الشرعية ، والحقوق الدينية ، وأفضلها : الآداب النبوية ، التي أدَّبَ الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم اتباع أخلاق الأئمة الصوفية ، والعُصبة المصطفوية أولي الأخلاق الرضية ، والشِّيم المرضية ، والأحوال السنية ، والهمم العلوية ، والمقامات العلية ، فبهم فٱقتدِ ، وبهداهم فٱهتدِ ، رضي الله عنهم .

ومن تأدَّب بغيرهم ممن هو محبوسٌ في مضيق الرسوم . . فلا يجيء منه شيء وإن طالت صحبته ، وعظمت أسوته ؛ لأن غاية علماء الرسوم أن يبينوا له ما عندهم مما هو مشاهد ، أو يصفون له وصف الطبيب الذي

يعرف اسم الدواء ولا يعرف عينَهُ ، فما زاد على الجاهل به إلا بمعرفة الاسم ، فلو احتاجه لنفسه . . لم يهتدِ إليه إلا بدلالة طبيبٍ عارفٍ بعينه ولو كان جاهلاً باسمه ، فكيف وهو لم يتخذ الله من ولي جاهل ، وإن اتخذه . . علّمه ؟!

والصوفية هم في عالم الأرواح أقرب الخَلْق إلى الروح المحمدي في عالم الخَلْق ؛ هم أحسن اتِّباعاً لدينه الحنيفي ، ولي في ذلك :

ما الشأن منك وجود اللفظ في الطلب
ولكن الشأن منك منتهى الأدب
فكل من كان بالأخيار مقتدياً
ينال من سرِّ ذلكَ منتهى الأرب

* * *

فالأدب : أن ترىٰ نفسك ولا ترىٰ لها ، بل تكون محواً في وجود سيدك ومولاك ، وتكون في دعائك مضطراً فقيراً حقيراً ذليلاً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ ٱلِاضْطِرَارِ[١] ، وَلَا أَسْرَعَ بِٱلْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ ٱلذِّلَّةِ وَٱلِافْتِقَارِ

ما طَلَبَ بلسان الحال ـ للعبد الذليل العاجز من سيده الكبير المتعال ، لك أيها الطالب الراغب فيما عند الله من المواهب ، وسني الرغائب ـ شيءٌ من الوسائل التي تكون بها سائل ، وترجو بها حصول ما أنت آمل وله محاول ، من الأوصاف التي تستحق بها نيل مطلوبك ، وغاية مقصودك ، مثلُ حالة اضطرارك وافتقارك ، وذلّتك لمعبودك .

والاضطرار قمينٌ بالإجابة[٢] ، ومقرون بها ؛ كما قال جلَّ ذكره : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ ﴾ قاله بلسان التمدُّح بذلك ، فماذا ترىٰ ما يواجه به المضطرين إليه من الألطاف ، وما ينيلهم من الإسعاف ؟!

والمضطر : الذي لا يرىٰ لكشف بلائه سبباً يستند إليه ، ولا حولاً يعتمد عليه ، بل يكون طريحاً في فقره واضطراره ، وبيداء التجائه ، متدرعاً ثياب ذلّته ومسكنته ، ناظراً في أرجاء رجائه ، غريقاً في لجّة افتقاره ، لا يجد غيراً يلتفت إليه ، ولا متوسلاً يلجأ [ إليه ] سوىٰ من بيده ملكوت كل شيء ، ومنه مبتدأ كل شيء ، وإليه منتهاه ، متوسلاً بكرم مولاه ، وناظراً إلىٰ جنابه ، ورامقاً إلىٰ فسيح بابه ، في ذهابه وإيابه .

فالذلـة : هـي خضوع العبد بين يدي المعبـود ، وهي روح العبادات ،

---

(١) قوله : ( ما طَلَبَ لك ) بالبناء للفاعل وهو ( شيء ) أي : إنَّ أحسنَ الطالبين لك هو الاضطرار ، فشبهه بشخص طالب ، ويحتمل بناء ( طُلب ) للمفعول ، والنائب قوله : ( شيء ) أي : إن اضطرار العبد هو أقصىٰ أوصاف عبوديته ؛ ولذلك لم يطلب من العبد شيء أجل منه . انظر « شرح الشيخ الشرقاوي » ( ص ٧١ ) .

(٢) قمين : جدير وخليق .

ومنتهى القُربات ، وبها يتدرعون ، وفي رياضها يتقلَّبون ؛ **لأن ألذَّ الأحوال عند المحب التملُّقُ لمحبوبه** ، وتمسكنه بين يديه .

**والافتقار** : يجلب العطف من الغني ؛ **بأن تترادف عليه مواهبه** ، وتجلب لديه ألطافه ، وتدنو عليه تعطُّفاته ، إنما تفتح أبواب العطايا الربانية ، والمنح الرحمانية لمن صحَّ افتقاره ، وتحقَّقت ذلَّته واضطراره ، **ومن احتجب بالعزة النفسية الهوائية** ، واستغنى بالأغراض العدمية الدنياوية ، والتجأ إلى ما منه وما لديه كائناً ما كان .. **رُدَّ إليه ، ووُكِلَ عليه** ، وهو يسلمه أحوج ما يكون إليه .

**فلك فيمن سلف أسوة** ، ولك في مشاهدة الغير عبرة ، **تدلُّك** على المقصود ، وتوضح لك طريق الهدىٰ ، **فاعتبر بمن هو المراد من القربة** ، ومن هو المعني بالشهوة ، فقال في أهل السعادة : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ، وقال في أهل الشقاوة والاستكبار : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ۝ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ **فانظر كيف لما كانوا بالله مستعينين** ، وعليه متوكلين ، وإليه ملتجئين .. **كيف أورثهم الأرض** ، وبوَّأهم نواحيها ، **ودمَّر من علىٰ نفسه عوَّل** ، وبأمواله ودولته صال وطال ، فقال : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ ، **ولي في ذلك** :

فما طلب شيء للراجين من سبب ... مثل اضطرار بصدق ينجح الطلبا

فكن فقيراً طريحاً لست منتسباً ... إلى احتيال ولا حال ولا نسبا

بذلَّةٍ تعتري المحزون في كثبٍ ... تأتي مواهب منَّان بما طلبا

في ضمن ذاك فنون طيها أدب ... بها انتصرْ من بها في بدرنا غلبا

❁ ❁ ❁

فـــإذا حقَّقتَ اضطـــرارك ، وصدقت في ذُلِّـــك وافتقـــارك . . **تولاك** بصنـــوف الألطاف والمواهب ، وبوّأك حظائـــرَ القرب والرغائب ، وذلك عند التجائك إلىٰ حوله وقوته ، ويأسِكَ من احتيالك وعملك ، وعلمك وحالك ، وسائر أفعالك ، فلا منك ولا لك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَحْوِ دَعَاوِيكَ ، وَفَنَاءِ مَسَاوِيكَ . . لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَداً

لـو أنـك أيها الطالب لحضرتـه ، والراغب في وصلتـه ، والمقبل في خدمتـه ، لا تصـل إليـه ، وتنـال مـا لديـه ، ووصولك إليـه وصولك إلىٰ حقيقـة العلـم بـه ، وإلا . . فجلَّ ربنـا أن يتصل به شـيء أو يمازجه ، أو يسامته أو يحاذيه ، أو يشاكله أو يماثله ، تعالى الله علواً كبيراً عن سائر ضروب الأشكال ، أو مضادة الأنداد والأمثال .

بل الوصول بلسـان الخاصة وصولُ شـهودٍ لا تكييف ، ومنازلةُ حقٍّ بـلا تمثُّل ولا تشبيه ، وعلـم بـلا ريـب ولا توقف ، وإيمـان بلا نكر ، وإسـلام بـلا كفـر ، ومعرفـة بلا نكـر ، ومعلـوم ذات وصفات وأسـماء وأفعـال بـلا أيـن ولا كيف ولا نـد ، ولا افتقار ولا احتيـاج إلى الآلات والأدوات ، وارتقاب الأوقات والساعات ، يفعل ما يشاء كما شاء كيف شـاء متىٰ شـاء ، موصـوف بصفـات الكمـال ، منعوت بنعـوت الجمال والجـلال ، ولا تضـرب فيه الأمثال ، ولا تختلف في ألوهيته الأقوال .

ولو كنت لا تصل إلىٰ هـٰذا المعتقد في الوصل إلا بعد فناء مساويك ؛ وهي كل فعْل تكون به مسيئاً في نظر العلم الحق . . لم تصلْ إليه أبداً ؛ لأن مساويك لا نهايةَ لها ، لأنك بكونك فعلت وبكونك أحسنت . . مسيءٌ في دعواك ؛ إذ لا فاعلَ على التحقيق إلا الله ، والإحسان أمرٌ يقتضي فناءَكَ عن كونك ؛ كما ورد الحديث بمعناه ، فأين الإحسان مع شهود وجود الثان ؟!

لذٰلك ما دمت متَّصفاً بوصف الغيرية ، محكوماً عليك تحت حكم

البشرية . . لم تزل مدّعياً في أفعالك ، محجوباً في سائر أحوالك ، وما لم ينفك عنك ذٰلك . . لم تصل ولم تحسن ذٰلك ، فلا تصلُ إليه أبداً ، دواماً سرمداً ، ولي في ذٰلك :

لـو كنتَ لا تحظ بالوصـل الذي علموا
إلا بمحـو دعـاوي النفـس لـم تصـلِ

أو كنـتَ لـم تنـل العليـا التـي نسبوا
مـا لـم تكـن فانيـاً فـي الله لـم تنـلِ

ولٰكن الله سبحانه بلطيف حكمته وبالغ أمره إذا أراد أن يوصل عبداً من عباده إلىٰ بغيته ومراده . . هيّأ له أسباباً مقرِّبة له من مطلوبه ، وميسِّرةً له أسباب مقصوده ، فأطلع له من عنايته نجوم سعوده ، وكبت له إبليس وجنوده ، وأعانه علىٰ جهاد النفس ، وصغَّرَ عنده الدنيا ، وقلَّل عنده أيامها ، وأراه من فنائها ، وإقبال الآخرة وما أعدَّ فيها لطلابها ، وغطَّىٰ وصفه بوصفه ؛ بأن يكون الله له سمعاً وبصراً ، ويداً ومؤيداً ، وهٰذا ثمرة المحبة الخاصة .

وسَتَر نعته الموصوف بالمعائب بنعته المنعوت به من جميل الثناء ، وحسن المعاملة والكمال والوفاء ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**وَلَٰكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ . . غَطَّىٰ وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ ، وَغَطَّىٰ نَعْتَكَ بِنَعْتِهِ ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ**

الوصول لا يكون ومع العبد منه بقيةٌ من حظٍّ أو شـهوة ، أو تدبير أو اختيار ، فإذا سـبقت له من الله عناية ، وقسـم له من فضله سِرٌّ ولاية . .

غطَّىٰ أوصافه الناقصة القاصرة الفانية التي هي لمن يعتمد عليها دون الله ، وما لم يفْنَ عن وجودها . . صارت له حجاباً .

ومعنىٰ ( غطىٰ ) ستر ، والستر هنا يشير إلىٰ بقائها ، إلا أنها كلا موجودة ، وهو كما قال ، وتغطية النعوت الناقصة الملوثة بضروب النقائص بالنعوت القدسية والصفات العلية . . هو عين ما سبق من العناية من مواهب الولاية .

وأول ما يقيم الله العبد به في هٰذا المقام بأداء الفرائض ، مع شهود التبرِّي من الحول والقوة ، ثم يرقِّيه في معارج النوافل مع الالتجاء إلى الله من الفتن العائقة والآفات القادحة ، حتىٰ توصله يد عناية الله له إلىٰ مقام المحبة الخاصِّ ومكنون العناية ؛ بأنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأَحِبَّه يا جبريل ، فيحبه الشاووش ، وينشر له الذكر الجميل ، والثناء الحسن في أهل حضرته ، ويؤذن بالقَبول في سائر مملكته ؛ وذٰلك بما تفضَّل به عليه ، وأوصله من مواهبه .

ولو كان بنفسه . . لم يتخلص له عمل ، ولم يصل إليه من هٰذه الفضائل مدد ، بل ما من العبد دون الله مشوب بضروب النقص والتقصير ، وأعظم خطيئة رؤيته أنه برز عنه ، أو صدر منه ، ولو نالته العناية الأزلية . . لرأىٰ تقدير الله ومشيئته بسابق علمه وهدايته هي التي خصَّصته بين أجناسه ، وهو معنىٰ تغطية النعت بالنعت ؛ بأن يغيب عن كونه عاملاً وفاعلاً ، ويرى انفراد سيده بذٰلك ، ويشهد منَّته عليه دون استحقاقٍ له في شيء ، فيرىٰ ما من الله ولا يشهد ما منه .

فبهٰذا الشهود تتخلَّصُ أعماله ، وتتزكَّىٰ أحواله ، وتنمو طاعاته ، ويثيبه الله مقام المحبة ، وينزله منزل القُرب ، ويلبسه ملابس الاتصال ،

ويثبته في المقام ، ويُسدِّده في الأقوال وسائر الأفعال ، فبذٰلك يتحقَّق له الاتصال ؛ لأنه شاهد ما من الله له من الحول والقوة والتأييد والنصرة .

فعندما يتجلَّىٰ عليه بنور أفعاله سبحانه . . يشهده الجزاء الموعود ؛ وهو أول مبادئ النور الإلٰهي ، يظهر للسالكين في الآفاق العلوية ، والأرجاء الروحية ، فيريه قبح الدنيا والركون إليها ، وحسن الآخرة والانزواء إليها ، ثم يشرق من وراء سجف فِطَر البشر ، ومرايا الصُّوَر ، فيتعلق طلبه بالحسن الأقدس ، والمحل الأنفس ، فيطالع نور القِدَم ، فيرى استحالة العدم ، وأن الكل منه من سائر مستحسن ، فيزهد في الآخرة طلباً للمشهد الرفيع ، والعالم الوسيع ، ويطلب المطلب الذي وحدت همم الأنبياء وأكابر الصديقين ومحققي المقربين العارفين إليه ، وهو طلب القرب من الله إليه لذاته وجميل صفاته لا لشيء .

فعند ذٰلك ينزل سرُّ الحبيب على المحب ، ويكسىٰ حلة الاصطفاء ، ويتوَّج بتاج الاجتباء ، وهٰذا ـ والله أعلم ـ هو معنىٰ قوله : ( غطَّىٰ نعتك بنعته ، ووصفك بوصفه ) ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

لو كنت لم تدن من قرب الحبيب سوىٰ
بمحو دعواك لم تخلص من العللِ

لٰكن إذا راد أن يوصل إليه فتىٰ
كساه وصف العلا الموصوف بالأزلِ

وفاض فيَّاض بحر الفضل منه علىٰ
قلب المحب فحقَّقْ غاية الأملِ

يشـهدك أنـه بمـا منـه إليـك بـدا

وأنـت محجـوب بالدعـوىٰ وبالحيـل

فاسـتنقذك مـن يـد الأغيـار مبتدئـاً

إليـك بالحـب قبـل الأخـذ فـي العمل

* * *

والنعت : هو ما يمدح به من عليِّ الوصف وحسـن الفعل ، فهو أعمُّ من الوصف .

ولما كان العبد كما علمت منعوتاً بالنقص ، وموصوفاً بالعجز . . لم تخرج أعماله إلا مشاكلةً لحاله ، فلولا أنه كساها بجميل عفوه وكثيف ستره . . لم يصلح أن يقابل بها حضرته ، ولم تعرض في ميادين خدمته ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## لَوْلَا جَمِيلُ سَتْرِهِ .. لَمْ يَكُنْ عَمَلُكَ أَهْلاً لِلْقَبُولِ

وجميل الستر : هو ما يكسىٰ به من نور جمال الله ، وتحسينه إياه علىٰ ما هو عليه من النقائص ، ومتلبس به من المعايب ؛ فلربما يغترُّ ذو علم ناقص وبصر عن مقام التحقيق ناكص ، فيفرح بما يصدر منه من الأعمال معتمداً عليها ، ناظراً بكليته إليها دون الله ، ولربما كان يُدِلُّ بها إذا كانت هـٰذه حالته ، ويرىٰ له على الله الفضل بها ، وينسىٰ فضل الله بتيسيرها عليه ، وإعانته عليها ، وهدايته إليها ، وما عليه من النقص والقوادح المانعة لها عن حضرة القَبول ، الحاجبة لها عن الوصول ، كما هو شأن المحجوبين والحمقى المغرورين ، فلا تخلو أعماله عن شوب شرك ؛ إما برؤية الخلق وسمعتهم ، أو برؤية النفس وحولها وقوتها ، وكل ذٰلك محبطٌ للعمل ، قادحٌ فيه .

فلذٰلك يكون اعتماد المريد على الله ، لا علىٰ علمه وعمله وكل صنائعه ، بل يعمل ويستحيي من الله من خفايا لا يعلمها ؛ فقد يظن أنه أحكمَ عملَهُ ، ولربما يُعرَض على الله وفيه شائبة مما يوجب مقته عنده ، ولـٰكنْ سترُ الله أعظم ، وحلمه أتمُّ وأجمل .

ويقال : إن لكل إنسان مشهداً في العالم العرشي ، يظهر فيه أعماله ، وتعرض فيه أحواله بين أهل ذٰلك العالم القدسي ، فإذا عمل عملاً صالحاً خالصاً .. أظهره الله في ذٰلك المشهد ، وأعلنه بين أهل الملأ الأعلىٰ ، فيرىٰ له نورٌ كنور الشمس ، فيغبطه أهل الملأ الأعلىٰ ، وإذا عمل سيئةً أو عملاً غير مقبول .. أسبل الله عليه ستره ، وأضفىٰ عليه وفور حلمه ، وأدخله في مكنون علمه ؛ إن شاء .. عاقب صاحبه ، وإن

شـاء . . غفر له ؛ لئلا ينكشـف سـتر عبده المؤمن بين أهل ذٰلك الملأ ، ويفتضح في أهل السماء .

**فما أعظم كرم الله علىٰ عباده المؤمنين !! وما أتم فضله علىٰ أوليائه المقربين !! وما أسبغ نعمته علىٰ خاصة صفوته العارفين !! وما أوسع عطاءه وأجزل وفاءه لخواصِّ عباده الموحِّدين !! وإلا . . فكيف يزكو عمل عبدٍ وهو متلبسٌ بالمعايب باطناً وظاهراً إلا بتزكية الله له ، ولا يخلص إلا بتخليصه ؟!**

**فنسـأل الله حسـن تولِّيه** ، وستر ما نُسِرُّهُ ونُبديه ؛ من فظيع جرائمنا وقبيح معايبنا بين يديه ، **وأن يتولانا فيما نأخذ ونذر** ، ونسر ونعلن ، ونتحرك ونسكن ، بل فيما لا اطلاع لنا عليه من خفايا الأحوال ودقائق الأعمال ، **وألا يخلينا عنه في جميع الأحوال** ؛ دنيا وأخرىٰ ، وبرزخاً ومحشراً ومقراً ، وفيما بعد ذٰلك ، وما بين ذٰلك ؛ إنه الجواد المفضال ، **ولي في ذٰلك :**

لـولا جميـل سـتور الله كائنـة ... للعبد لم تخلص الأعمال والحالا
ولـم يكـن فيـه أهـلاً للقَبـول وما ... لـم يسـتر الله أفعـالاً وأقـوالا
لـم يصف للعبد حـال بل يمازجه ... عيـب بصد ونقـص منه في الحالا

* * *

ولمـا كانـت الطاعة فيهـا ما لا يخفىٰ من الشـرف وعلـو المنزلة عنـد الله وعند الخلق . . كانت معرَّضة ـ لا محالة ـ **لأخطارٍ شـديدة** ، ومهالك عديدة ، وكانت المعصية لمن أراد الإقلاع عنها معرَّضة لأحوال محمـودة ؛ **لما يعتـري صاحبها من ذلَّتها** ، وقبيـح رؤيتها ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

أَنْتَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ . . أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَىٰ حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ

أنت في الطاعة إلىٰ حلمه وعفوه من جرائمك وملومات فضائحك . . أحوجُ منك وأجدرُ بطلب الإقالة من عملٍ أدخلت فيه شركاً لسواه ، أو غبت فيه عن شهود منّته ، وتقدُّم محبته ، وتيسير قدرته ، وتخصيص إرادته ، وتوفيق مشيئته ، وإبراز حكمته لذٰلك العمل ، وتسديد ذٰلك الخلل .

كيف لا ؛ وقد علمت ما يصحب الطاعة من معاصي القلوب ، وكبائر الذنوب إن لم يتولَّ الله حالة العبد فيخلِّصه من ورطاتها ، ومهاوي مهلكاتها ؛ كالرياء ، والإعجاب ، والسمعة ، وحب الثناء ، وارتفاع الصيت والشهرة ، والتصنُّع ، وغير ذٰلك مما يطول عدُّه ، ولا يوقف علىٰ حدِّه ؟!

فلذٰلك يكون العبد أحوج إلى الحلم ؛ لخوفه من أن يتلبس بخصلةٍ من هٰذه الخصال ظاهراً : بأن يغلبه هواه على الإصرار علىٰ فعلها ومحبتها ، والمُقام عليها حالة من انتصب لطلب المنزلة عند الخلق ؛ فإنه يعلم أنه غير مصيبٍ في ذٰلك . ولا يقدر على النزوع عنه ؛ لكونه مترشحاً في قلبه ، وغالباً علىٰ طبعه ، ومع ذٰلك هو عالم بما هو عليه من قبيح الحال ، وخسَّة الفعال .

وإما بأن يصحبه باطناً فلا يتفطَّنُ له ؛ وذٰلك لجهله بالتفتيش عن دقائق الأحوال ، ولطائف الأعمال ، وقلَّة تيقظه للزيادة والنقصان ، وخفاء أسرار علم المعاملة عليه ، وغفلته عن التطلُّع إلىٰ مبادئ تأسيس العمل ، وطرائق حقائق التقوىٰ ، فيقيم علىٰ حاله مستحسناً لفعاله ،

فيهلك من حيث يظن السلامة ، ويحصل على وبيل الحسرة ، ويحترق بنار الندامة عند معاينة حقائق عمله عند كشف الغطاء عن الأعمال ، ورفع الستور عن الأحوال ، بهتك أستار الحياة ، ومعاينة علامات الوفاة ، فكيف لا يكون إلى حلمه وعفوه أحوج ؛ لصحبته لهذه المهالك الخطيرة ، وسلوك هذه الطرق الوعيرة العميقة ؟!

والمعصية عند الإقلاع عنها والرجوع إلى الله منها . . **لا يصحبها إلا الذلة والندامة** ، والالتجاء والافتقار ، واللهوج بالاستغفار ، وطلب الاعتذار ؛ وذلك أن الله **جعل الذلَّ مقروناً بالعصيان** ؛ إن استقصاه في هذه الدار ، وأقام بالاعتذار مقرّاً بالخطأ معتذراً من الجفاء . . فقد برئ عنه في **الدار الآخرة** ، وأمن حلول كل بليةٍ وفاقرة ، وإن أصرَّ عليه وتمادى ، وبارز بالمعاصي وعاد . . **أظهرت عليه ذلتها** ، ونالته ندامتها ، وتعلّقت به بليتها في دار الدوام ، ومحل الانتقام ، واعتذر من حيث لم **تنفع المعذرة** ، وندم من حيث لا يجاب إلى الإقالة ، **فيخسر خسارةً** لا ربح فيها ، ويندم ندامة لا يُقالُ فيها .

فالمعصية عند الرجوع عنها في الدنيا أسلم من صحبة الآفات في الطاعات منها ؛ وذلك لئلا ييئس عاص ، ولا يأمن مطيع ، فما أعظمه في لطفه ، وما ألطفه في عظمته !! وما أقربه في علوِّه ، وما أبعده في دُنوِّه !!

فاعمل وكن على حذرٍ من هذه الآفات ، وارجع عن الذنوب وبادر من خوف الفوات ، ولي في ذلك :

| | |
|---|---|
| العبد يحتاجُ في طاعاته فمتى | لم يصحبه حلم من مولاه ذي الكرم |
| كانت جنايته تربو فتوبته | من ذلك أن يستقيل الله بالندمِ |

ومـن تقـادم فـي الأسـوا صناعتـه     فليرجعنَّ إلى الإحسان والسَّلمِ

والخلـق فـي طلب السـتر على قسـمين : خاصة وعامـة ، فالخاصة : جلُّ نظرهم وغاية حيائهم من سـيدهم ، والمشرف على خفي ضمائرهم ومكنون سـرائرهم ؛ لشـهودهم له ، والعامة : بالضد من ذٰلك ، فحياؤهم من الخلق ؛ لأن الغالب عليهم : شـهودهم وظهور وجودهم ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

اَلسَّتْرُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ : سَتْرٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ ، وَسَتْرٌ فِيهَا ؛ فَٱلْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ فِيهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرَاتِبِهِمْ عِنْدَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ ٱلسَّتْرَ مِنَ ٱللهِ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ

الستر ـ كما علمت ـ : هو تغطيةُ المعايب التي تورث حياء ، وتكسب ذلةً وخجلاً عند من يحتشم ويخشىٰ .

**والستر علىٰ قسمين** من حيث أحوالُ الخلق الطالبين ، لا من حيث كونه ستراً ، أما من حيث كونه [ ستراً ] . . **فهو لا ينقسم** .

**فالذي يطلبه العامة المحجوبون** ، والجهال المسلوبون عن نور العلم ، الموصوفون بالكثرة ، **الذين لا فقه في قلوبهم** ، ولا إبصار للاعتبار في أعينهم ، ولا سمع للآيات والأخبار في آذانهم . . **يرون قبحَ المعصية وشؤمها ومذلَّتها في أعين الخلق** ، وسقوطَ رتبة من اتصف بها في أعينهم وتوبيخهم إياه ، وعزَّ من لم يفعلها ، ورفعة من لم يتصف بها .

وغاية مطلبهم ومنتهىٰ مقصدهم : الرفعة عندهم ، والمنزلة في أعينهم ، وغابوا عن شهود الله لهم ، وإيعاده على المعاصي بوبيل العقاب ، وأليم العذاب ، وضرب الحجاب ؛ **فلذٰلك إذا بارزوه** . . **بارزوه بقبائح الأحوال** ، وخبائث الأفعال ، ولم يبالوا بنظره إليهم ، ولا باطلاعه عليهم ؛ **فلم يكترثوا بالوقوع فيها** ، والإكباب عليها ، **ولٰكن يطلبون السترَ فيها من أعين الخلق** ؛ لئلا يطلعوا عليهم فيها فيمقتونهم ، وتسقط منزلتهم عندهم ، **فغايةُ طلبهم : أن يُستروا فيها** وإن داموا عليها .

والخاصة الذين حظوا من الله بمحبته ، وكشف عن قلوبهم حجب الجهل والغفلة ، وأباحهم منازلَ القرب والوصلة . . لم يشهدوا سواه ، ولم يُعوِّلوا علىٰ غيره ، ولم يخافوا إلا إياه ، فكانت بصائر قلوبهم إليه ناظرة ، وأرواحهم في متنزَّه حضرته حاضرة ، أسرارهم في بحار شهوده غارقة ، وأنوار جماله علىٰ زوايا نفوسهم شارقة ، لم يلتفتوا إلى الأغيار ، ولم يحجبوا بالآثار ، سواء عندهم من الخلق الإقبال والإدبار ؛ يطلبون من الله الستر عنها بأن يحميهم عن الوقوع منها ، والحوم حول مراعيها ؛ لئلا تنال منهم فيراهم سيدهم ، وينظرهم مليكهم متلبِّسين ما زجرهم عنه ، ومواقعين ما نهاهم منه ، فتسقط مراتبهم عنده ، وتحجب مشاهدهم منه ، فتغيب عنهم شموس الأسرار ، وتحجب بدور الأحوال ، وتظلم منهم الأنوار ، وتستولي علىٰ قلوبهم ظُلَم الأغيار ، وكثائف الآثار ، ويستوجبون دخول النار ، وسخط الجبار .

فشتان بين الفريقين في طلب الستر !! فأين المطلوب من المطلوب ؟! فما أقبح حال من جعل اللهَ في غيره أهون الناظرين !! وما أسوء أفعال من غاب عن مراقبة أسرع الحاسبين !! وما أحسن حال من جعله كلَّ مطلوبه ، وفيما لديه جلَّ مرغوبه !! يصون عن جناب الحق قبائح عيوبه ، ويتباعد عن مصائدها وأسبابها ، ويهرب إليه من الوقوع في حبائلها ، فما أسعد حال من سَلِمَ من شؤمها وبلائها !! وما أحسن فعال من استمرأ طعم مألوف ضيرها ، واستنكر ما عرفه من طرائق مساكنها ، واشمأزَّ من حضورها علىٰ مخيلته ، واستبدل بها حلاوة الطاعات ، والتضرع في الخلوات ، واستلذ بمناجاة المحبوب

في غياهب الظلم حين يغفُلُ عنه النوّامُ البطّالون !! ولي في ذٰلك :

السـتر منه علىٰ قسمين في النظر — والخلق في ذاك حسبك أن تكن خبر
إلىٰ عمـوم ومحجوبيـن بالأثـر — ومن خصوص حظوا من خالق البشر
بنـور قـرب عليهـم يستضاء بـه — ويسـتدل بنـور الله فـي الصـور

فالطاعة شريفةٌ لشرف المطاع ، والمعصية قبيحة ومشؤومة عند الخلق ؛ وذٰلك أن الفِطَر فُطِرَتْ على الطاعة ، فلذٰلك تكون الطاعة محبوبة ، وصاحبها محترماً عند من لم يعملها ؛ وذٰلك لما في أصل الفطرة ، والمعصية مذمومة ، وصاحبها ملومٌ عند من يتعاطاها ؛ وذٰلك لما في النشأة الفطرية من النفرة عن المخالفة ، فلذٰلك يكرم ذو الطاعة ، ويهان أهل المخالفات والمعايب والزلات .

❊ ❊ ❊

وقد علمت استحالة خلوص أعمال العبد عن الآفات إلا بتوفيق الله وعونه وتأييده ، ولا يخلو عن العيوب المنفرات إلا بستر الله ، وجميل عطفه ، وإحاطة عنايته ولطفه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ أَكْرَمَكَ . . فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سَتْرِهِ ؛ فَٱلْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ ٱلْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ

من أكرمك من العباد ، واحترمك وبجَّلك ، ونظر إليك بعين التعظيم ، وتقرَّب إليك بأصناف التكريم . . فإنما ذٰلك الإكرام والتقرُّب بالتوقير والاحترام ؛ لما شهد فيك من مشاهد الإحسان ، وظهر عليك من مظاهر الامتنان ، فغطَّىٰ عيوبك ، وقبائح موبقات ذنوبك ، وما أكرم من أكرم إلا ذٰلك ، وما أعظم إلا بما تفضَّل به الإلٰه المفضال ، ذو الكبرياء والكمال ، والجلال والجمال .

فالإكرام علىٰ أصناف ؛ منها : إكرامٌ بالثناء والمدح ، وبالبذل بالمحبوب من أخص ما عنده من المال ، وبالاحترام والتعظيم ، وطلب الدعاء ، ورؤية المنزلة عند الله ، وأنه من خواص عباد الله ، وغير ذٰلك من صنوف الإكرام ، والإكرام نفسه : هو بَذْلُكَ لمن أكرمته من غير طلب مجازاة ، بل محبة وطلباً لحصول المنزلة عند من أكرمته .

ولولا جميل الستر الذي ظهر عليك جمالُهُ ، وتمَّمَ نقائصَك كمالُه ، وستر معايبك بإنعامه وإفضاله . . لما أُكرمت وما عُظِّمت ؛ فعلى الحقيقة : ما أكرم إلا ما أظهره الله عليك من لطيف فضله .

فالحمد ـ وهو الثناء ـ لمن سترك فأكرمك المُكرِم ، وما ذاك إلا لما أظهره عليك ، وأسبغه من كثيف ستره لديك ، فله الحمد .

فالحمد لله مستحقاً علىٰ كل حال ؛ لأن سائر الأحوال وكل مظاهر الأفعال صادرةٌ عن حضرةٍ واحدةٍ لا تغاير فيها من حيث كونها منسوبة

إليه ، ولكن من حيث ظهورها على صفائح الأغيار ، واكتسائها بملابس الآثار .

**والحمد والشكر** بينهما خصوصٌ وعمومٌ وجهي [١] ؛ **فحمد غيره سبحانه على المجاز** ، وكذا شكره ، ولم يكن مستحقاً إلا له ، **فالحمد** : ثناءٌ باللسان ، **والشكر** : عملٌ بالأركان ، واعترافٌ بالجَنان ، وثناءٌ باللسان ، وهي في مقابلة النعم وغيرها ، **فهاذا وجه عمومه وخصوصه** .

ولا يتصور الحمد من الخلق للخلق إلا بمعنى الشكر إلا عند غلبة المحبة ، **ولا يكون أيضاً عاماً** ، بل خاصاً من أفراد الخلق ببعض أفراد الحمد وهو أقلُّها ؛ **إذ كل ما يصدر من الناقص . . لا يكون إلا ناقصاً** ، وما الحمد الكامل **إلا ما كان من حضرة الكمال** ؛ وهو حمد الله نفسه بنفسه في أزله قبل ظهور أعيان خلقه ؛ وهو قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فأخبر سبحانه خلقه كيف يحمدونه ، **فحمدوه بما حمد به نفسه** ، فجمع لهم شتات متفرقات المحامد في هاذه اللفظة الوجيزة ؛ لينالوا بها كمال الرتبة العزيزة .

**فالحمد حقيقة لمن سترك وجمَّلك** ، لا لمن أثنىٰ عليك وأنعم ؛ لأنه لم يثنِ **إلا لما أشهده الله من الجمال** ، وأشعره من الكمال ، فالحمد لله ، وما أنعم وأسدىٰ وبذل **إلا لِمَا يرىٰ فيك من أهلية الإفضال** .

**وما أوصله أيضاً** ليس حقيقة وصوله ومنتهىٰ حصوله **إلا من حضرة فضله** ، وعميم كرمه ، وتتابع عطائه وفضله ، **فصار حمد الخلق ـ فيما يصل إليك من الإفضال** ، أو يتحدَّث به من الثناء والجمال ـ **حمدَ مجاز**

(١) تقدم ذلك تفصيلاً ( ص ٣٢١ ) في الهامش تعليقاً .

بحمدهم ؛ بحسب ما أمرت به من المكافأة بالدعاء ، وبذل الندىٰ ، وكفِّ الأذىٰ . . من جملة حمد الله وشكره مع ما أنت عاقدٌ عليه نفسك أنه آلةٌ مسخرة ، وحكمةٌ مدبرة ، ليس منه ولا إليه ، فلا يجمع بين حقيقة الحمد لله وإتيان حقوق الله إلا كُمَّلُ الصديقين ، وأكابر محقِّقي العارفين .

وغالب الخلق : إما محجوبٌ عن الله يرى الأشياء من الخلق فيجرِّدُ الحمد لهم ، ويوجِّه الثناء إليهم عند إيصال المنافع علىٰ أيديهم ، فلا تمتري في خطأ رأيه ، وقبح أفعاله ، وإذا وصل الذم منهم بوجه بالمعاداة وقبائح الأخلاق . . فهو واقع في إحدى المذمَّتين ، فلا يدري أيُّهما أقبح : أمدحُ الخلق وشكرهم علىٰ نعم الله مع قطع النظر عن الله ، كما هو شأن أهل الحجاب ؟(١) ويقع بسبب ذٰلك في معاصي القلوب ، وكبائر الذنوب ، أعاذنا الله منه .

وأما المصطلم في سكر الحال . . فلا يرىٰ للأغيار أثراً ، ولا يسمع منهم خبراً ، فلو كلف علىٰ إثبات الأغيار . . ما استطاع أن يرىٰ لهم فعلاً ولا وصفاً ولا ذاتاً ؛ حقيقةً ولا مجازاً ، ولٰكن قصرَ عن كونهم ثابتين بإثبات الله لهم ، وهو معذور ؛ لغيبته عن شاهده ، متلاشٍ تحت سلطان الجمال ، مأخوذ عن إحساسه في حظائر الوصال وشهود الكمال ، ومتىٰ عاد إلىٰ إحساسه ، وحضر معه أناسه . . فلا يكون إلا مثبتاً ما أثبته الله ، مؤتمراً بأوامره ، منتهياً عن زواجره .

فحمد الخلق مجاز ؛ كما أن ثناءهم مجاز ، وشكرهم أيضاً كذٰلك ، كما أنهم أوصلوه إليك علىٰ أيديهم حكمة مجازاً ، وحقيقة الحمد

---

(١) أو ذمُّهم علىٰ سوء فعالهم ومقالهم ؟

والشكر لمن ثناؤه وإنعامه عليك ثابت ، وفضله إليك واصل ، ولي في ذلك :

مــن أكرمك من عبــاد الله مبتغياً حمـداً فـلا يسـتحق الحمـد إلاهُ
كم من عيوبٍ في الإنسان خافية وظاهــرات تولّــىٰ سَــتْرها اللهُ
فليــس أهـلاً لحمد الخلـق قاطبة سـوى الـذي عمـت الأكـوانَ آلاه

* * *

فمن أدمن صحبتك ، وأظهر محبتك إذا برز منك ما يناقض الكمال . . نقصك عنده لا محالة ، والعبد أبداً لا ينفكُّ عن نقصٍ وعيب ، فصحبة الخلــق معك علىٰ ما ظهر من وصف الكمال ، واســتتر عنهم من قبيح الأفعال ، ولا ظهر ما ظهر من الجميل ، واســتتر ما اســتتر من العيوب ، وتغطــىٰ من فضائح الذنوب . . إلا بكثيف ســتره ، وجميل عفوه وبرّهِ ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَـا صَحِبَـكَ إِلَّا مَـنْ صَحِبَـكَ وَهُـوَ بِعَيْبِـكَ عَلِيـمٌ ، وَلَيْـسَ ذَاكَ إِلَّا مَـوْلَاكَ ٱلْكَرِيـمَ

مـا صحبـك حقيقـةً وتكرَّمَ عليك تطولاً منـه إلا مولاك ؛ إذ هو الذي لـم يقطـع عنـك إفضالـه ، ولم يحرمـك فضلـه ونواله ، مـا يعلمه منك مـن قبائح الأفعال ، ومذمومات الأخـلاق والأحوال ؛ فالصاحب مَنْ كان كـذٰلك صنيعه ، فلا أحق بإخلاص الوداد والحب بكلية الفؤاد منه ؛ لأنه لـم يَمَلَّـكْ علىٰ كثر جناياتك عليه ، ولم يبعدك لكثرة هفواتك وتهافت زلاتك لديه .

والخَلْق يَقْلونك ويَملُّونك ويمقتونك إذا اطلعوا علىٰ أقل فضيحة ، مع أنهم لـم يُكلَّفوا ولـم يُندَبوا إلىٰ ذٰلك ، بل مأمورون بعذر الخاطئ ، وعفو الجاني ، والجناية أيضاً ليست إليهم ، فكن متعلِّقاً بصحبته ، ومولعاً بجنابه ومؤثِراً لخدمته ، ومدمناً قرع أبواب وُصلته ، ومدانياً لمواضع محبته ، وخاصته من بريَّته .

والصحبة مع الله ليس هي الصحبة مع الخلق ؛ لأن صحبته مصحوبةٌ بالتنزيه عن الجنسية والمشاكلة وما في معناها ، إلا ما جاء في تقرير محبته لخَلقه ومحبتهم له ؛ بأن تشاهد القلوب الصفاتِ القدسية ، والنعوت الأزلية ، فيكون تعلُّقُها بها ، وتولُّهها فيها ، مغيباً لمشاهدته المشاهد المُتَولِّهَ عن غيرها ، وتُفنيه عن وجود سواها .

فعلىٰ هٰذا المثال يظهر وجه الصحبة مع الله والمحبة له ؛ فعيوب العباد ـ كسائر أفعالهم ـ معلومةٌ لله قبل إيجادهم ، وبعد وجودهم ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ، ومع ذٰلك هو

ربك وكالئك ، ومغذِّيك وحافظك ومعافيك ، ولا يكون ذٰلك لغيره ؛ إذ الخلق لا يصحبونك إذا اطلعوا منك على العيوب ، ولم يسبق لهم علم ، ولم يلحق لهم خبر فيما مضىٰ وما هو آتٍ وحاضر إلا بعد انكشاف ستر الله عن العبد ، فيعلمون بعض العيوب لا كليتها ، وليس ذٰلك إلا مولاك الكريم ؛ أي : ليس يصحبك مع العلم بالعيوب وقبائح الذنوب إلا مولاك الكريم ، الذي تكرَّم عليك بأصناف النعم وجلائل المنن ، مع ما يعلمه منك من جرائم الذنوب وعظائم الفواحش ؛ فالكريم لا يستقصي ، وعند الاعتراف له لا يستقضي .

فموالاته لعبده لا تنفكُّ عنه علىٰ ممرِّ الأنفاس ، وهو يواليك بجميل كرمه وإحسانه ، وعميم فضله وامتنانه ؛ فالموالاة خاصة وعامة ، وتطلق على الاستيلاء والقهر والسلطان ، وعلى النصرة والعون والعطف واللطف ، فقال جلَّ من قائلٍ في الولاية : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي : لا ناصر ولا معين ، وقال أيضاً : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، وقال في الولاية العامة : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ .

والسيد : هو المولىٰ ، ومراد المصنف هنا : ولايةُ التعطُّف واللطف والصفح والكرم ؛ لهٰذا عبَّر بـ ( مولاك الكريم ) ، وفي بعض الإخبارات عن الله عز وجل : ( لو يرى العاصي رحمتي به ، والمُدْبِر عني . . لتقطَّعَ إليَّ شوقاً ) ، ولي في ذٰلك :

فمـــا صحبْـــكَ وأظهـــرْ فيـــك منَّتـــه
إلا منَ اصحبك وهْو يعلم منك بالخطل

وليــــس يفعـــل إلا مـــن بنعمتـــه

علـــم الوجـــود فـــيِ الآبـــاد والأزل

وصحبة الخلق معلولة مدخولة ؛ فلا يصحبك إلا لعلة دنياوية أو أخروية ، فلا بد من ذلك ، وحال ينال مطلوبه أو أيس من وجوده على يديك . . قلاك وتركك .

فالصاحـب : مـن يصحبـك لا لشـيءٍ منـك يعـودُ إليـه ، وليس ذلك إلا الله عز وجل ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

خَيْرُ مَنْ تَصْحَبُ : مَنْ يَطْلُبُكَ لَكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ يَعُودُ عَلَيْهِ

خيـر من يُصحب ويُحبُّ ويؤثـر ويوالىٰ ويطاع ، ويصبر المتصبرون ، ويتحمَّـل فـي حبِّـه المتحملـون ، ويتنافس فـي قُربه المتنافسـون . . مَنْ يطلبـك لا لشـيءٍ مـن المنافـع ، ولا لدفـع مضـرَّةٍ عنـه ، وليس ذلك إلا مولاك كما علمت .

فالخلـق لا تخلـو صحبتهـم وطلبهم عن علَّة ؛ للـزوم فقرهم ، وهو سبحانه طلبك لك لا لشيءٍ يعود عليه منك ؛ لأنه الغني بذاته وصفاته وأفعالـه ، فـلا يكـون ناقصـاً فتكملـه ، ولا محتاجاً فتـؤازره وتظاهره ، يتعالـى الله عـن الافتقـار إلى الأغيـار ، أو أن تكملـه الآثـار ، فندبَـكَ لينيلَـكَ ، وزجـرك ليقيك ، وحذَّرك نفسَـهُ وشـدة بطشـه ؛ لعظـم رأفته عليك .

وإذا نظرت ما أسبغ عليك من الآلاء . . علمت أن جنابه لا يهملُ ، وذكـره لا يُغفل ، وعلمـت أن جميع تخويفه لك وزجـرك من جملة

نعمه الواصلة إليك ، ومننه الحاضرة لديك ، أما تسمعُ قوله سبحانه : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ ، ثم قال بإثر ذٰلك : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فعدَّ ذٰلك من جملة الآلاء ، ولي في ذٰلك :

فخير من يصحب الإنسان خالقه
ذي الطول والفضل والإحسان والكرمِ
فلو رأيت الذي هوْ منك طالبه
رأيت ذاك أجل الفضل والنعمِ

* * *

ومن أدام المجالسة مع الله ، وراقب الصحبة وآدابها . . فلا جرم أن ينكشف عن قلبه غطاء الغفلة ، وظلمة الجهل ، ويشرق فيه نور اليقين ، فعند ذٰلك : تزكو أعماله ، وتصلح أحواله ؛ فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**لَوْ أَشْرَقَ نُورُ ٱلْيَقِينِ . . لَرَأَيْتَ ٱلْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا ، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ ٱلدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ ٱلْفَنَاءِ عَلَيْهَا**

لو أشرق نور اليقين من أفق الفتح المبين ، والشروق : هو العلم الكشفي الذي لا يداخله لبس ، ولا يبقىٰ معه داعي شيطان ولا نفس ، وهو بمنزلة الإضاءة من الشمس الحاصلة بإزاء ما بسط عليه الشعاع ، فيبين لصاحبه الكائن فيه ـ لا محالة ـ الحق من الباطل ، ويتضح لديك العالي عن السافل ، والثابت والآفل ، فتختار الثابت ؛ كما قال الخليل صلى الله عليه وسلم عند شروق كوكب العلم في قلبه : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ .

وهـٰذا العلم اليقين أول مبادئ الكشف ، وعلامته وبيان حاله من قام به : العزوف عن الدنيا ؛ لفنائها واضمحلالها ، وزوال نعمها ، وذبول رونقها ، وسرعة تقلُّبها ؛ فعندما ينكشف عن قلبه هـٰذا الغطاء ، وينبسط في صدره أنوار هـٰذا الضياء . . ينفسح ويتسع منه الأرجاء ؛ لذٰلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن النورَ إذا دخلَ الصدرَ . . انشرحَ له وانفسح » قيل : يا رسول الله ؛ هل لذٰلك من علامة ؟ قال : « نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلىٰ دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] ؛ وذٰلك بالحرص علىٰ وظائف الطاعات في ممرِّ الأوقات خشية الفوات ، والتباعد عن الهفوات ، ومجانبة الغفلات ، ومبادرة الساعات بأربح البضاعات ، وأغبط التجارات عند عالم الخفيَّات .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٤/٣١١ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ١٠٠٦٨ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

فحكايات أهل هٰذا المشهد أكثرُ من أن تُحصر ، وأبينُ من أن تُشهر ؛ من اختيار النقلة إلى الأخرىٰ على البقاء في الحياة الدنيا ، وتقذر الدنيا واستقلالها في أعينهم ، ومجانبة المتلطِّخين بقاذوراتها ، والمتشبِّكين في حبائلها .

فمن إذا قيل له : ماذا تريد نشتريه لك إذا سافرنا ؟ فيقول : الموت إن وجدتموه لي ، ومن المستعدِّين من لم يأكل الخبز اليابس ، بل يسف السويق ويقول : بين ذٰلك ومضغ الخبز سبعين تسبيحة[1] .

وبين من يطلبه ويشتاق إليه اشتياق الغريب الكئيب إلىٰ وطنه ؛ كما في رواية حارثة الأنصاري وغيره من أجلَّاء الصحابة ؛ كأنس بن النضر في يوم أُحُد ، كان مقبلاً لمَّا أدبر الناس وهو يقول : ( يا سعد ؛ الجنة تنفح دون أُحد ) ويقول : ( اللهم ؛ إني أبرأ إليك مما صنع هٰؤلاء ـ يعني الكفار ـ وأعتذر إليك مما صنع هٰؤلاء ) يعني المسلمين ، فدخل العدوَّ ولم يردَّه ما رآه من شدة بأسهم ، حتىٰ وُجد قتيلاً ، أُصيب ببضع وثمانين بين طعنة برمحٍ أو نكتة سهم ؛ وذٰلك أنه لم يحضر بدراً ، فقال : ( أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحضرها ، لئن أشهدني الله غزوةً بعدها . . ليرى الله صدقي ) .

قالوا : وكانوا يرون أن هٰذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[2] .

فهٰذا ثمر شروق نور اليقين في صدور المتقين ، الذين صابروا

(١) وهو داوود بن نصير الطائي ، انظر « الرسالة القشيرية » ( ص ١١٦ ) .

(٢) رواه البخاري ( ٢٨٠٥ ) ، ومسلم ( ١٩٠٣ ) بنحوه عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

الأعــداء ، وناجزوا النفــوس ، وعمروا معانيَ التقــوىٰ ، وتجنَّبوا دواعي الأهــواء ، فأثمر لهم ذٰلك العلــم اليقيني ، ونازلهم الصدق في ســائر الأحوال والأقوال والأفعال .

وهٰذا العلم لا للكسب فيه مدخل ، بل يقذفه الله في قلوب أهل الصدق ، فيرون بواطن الأمور إذا رأى المحجوبون ظواهرها ، وينفذون ببصائرهم إلىٰ حقائقها إذا وقف المغرورون علىٰ صورها ، فيزهدون فيما رغب فيه البطَّالون ، ويعرفون ما جهله الأغبياء الغافلون ، فهم يعجبون لغيرهم كيف اغترَّ بهٰذا السراب ؟! والخلق يرونهم مجانين من سُكْر هٰذا الشراب ، فالجهَّال : إذا مرُّوا بهم . . يضحكون ، وهم عليهم من حسرة الموت مشفقون ، فاعجب لذٰلك المشهد المصون !! وأَعْظِمْ بذٰلك السِّر المكنون !!

وبعد ذٰلك : تنفتح لهم خزائن الأسرار ، وتلوح لهم لوائح الأنوار ، من سنا صفات الواحد القهار ، فيرجعون بالاعتذار ، ويبيحون للخلق الأعذار ، فتخترق لهم العوالم ، وتبين لهم المعالم ، فلا يختارون غير ما يختار ، والكون في ذٰلك العلم هو شراب الأبرار ، الممزوج من عقار تسنيم عين المقربين الأحرار ، من رق الأغيار ، ولي في ذٰلك :

نور اليقين يريك أسرار ما كمنت ... مـن الحقائـق في مسـتودع الصورِ
يريـك أن زهـرة الدنيـا فـي فنـاءٍ ... وغائـب في سـتور الكون محتَضرِ
مـن طهـر الله عـنِ الاَغيـار فطرته ... يشهد بلا لبس ما في الأفق من عبرِ

فإذا أحكم المريد هٰذه المرتبة ؛ أي : مرتبة العلم . . فليطلب المزيد مما هنالك : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، فليأخذ في الترقِّي إلىٰ رتبة العِيان ، وفناء رؤية الأعيان من سائر الحدثان ؛ فالدنيا حجاب المحرومين

والمبعدين ، والأغبياء الجهّال المغرورين ، وهي حجابٌ ظلماني ، تنشأ منه كبائر الذنوب ، والوقوع في ورطات البُعد والجحود .

والآخرة حجابٌ أيضاً عند أرباب الكشف والشهود ، والمشغوفين بحب الإلٰه المعبود ، فهي بالاعتبار عندهم للواقفين عندها النفوذ إلىٰ رفع الحجاب ، والدخول في زمرة الأحباب ، المخطوبين المرادين بشهود الاقتراب ، ولٰكن حجاب نوراني عنده ممتد سير أصحاب اليمين .

* * *

فلما كان النفورُ عن رؤية الأغيار ؛ من جنة أو نار مطلبَ المقربين الأحرار .. لذٰلك أشار المؤلف بقوله رضي الله عنه :

مَا حَجَبَكَ عَنِ ٱللهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ؛ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَلَـٰكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ وَهْمُ وُجُودِ شَيْءٍ مَعَهُ

ما حجبك عن الله ـ أي : عن وجوده وشهوده ذاتاً ووصفاً وفعلاً ـ وجودُ موجودٍ معه ؛ إذ لا موجودَ معه فيكون له نداً ، أو شريكاً فيكون له ضداً ، وإنما حجبك وَهْمٌ قام في مخيلتك ، وإلا . . فيتعالىٰ عن أن يحجبَهُ شيء ؛ إذ لو حجبه . . لستره ، ولو ستره . . لقهره ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، ولو حجبه . . لكان به محيطاً ، وهو بكل شيءٍ محيط ، ولسبق وجود ذٰلك لوجوده ، وقد علمتَ وجوب قدمه واستحالة عدمه .

ولو كان كما يظنه من يشبهه بالأجسام المحصورة في جهة . . لانعكس الحكم ؛ أي : لصار القديم حادثاً ، والواجب جائزاً ، والجائز واجباً ، ولا قائل به .

بل الحجاب : ما يقوم بالعبد من صفة القصور عن إدراك حقائق الأمور ، وعدم قابليته لقوة الظهور ، فكلما قويت قابليته لذٰلك ، ونما استعداده لما هنالك . . انكشف لها من ظهور الحق الظاهر ، والنور الباهر بحسب ما فيها من الاستعداد ، وذٰلك متوقِّف علىٰ ما وصلها من مواهب الإمداد ، ولا تزال هـٰذه الأمداد تتواصل ، ولا تزال هـٰذه الحجب تنكشف أبداً في عمر الآخرة الطويل ، وتتضاعف بحسب التضعيف الأخروي ، فكلما كشف لها عن تجلٍّ . . ترقَّت به إلىٰ أكمل ، فلا نهايةَ لكماله ، فكلما شرب كأساً . . زاد إلى الشراب شبقاً .

وثبوت ما سواه شرعاً لا يناقض كونه واحداً بلا ند ، بل إثباته أدلُّ علىٰ توحد موجده وقدرته وإرادته وباقي صفاته من قدم الصانع ، والظل

لا يحجب عن شخصه المنبسط عنه ، بل يدلُّ من له عقل ، اللهم إلا أن يكون أكمه البصيرة ، مطموس النور والسريرة ، أو كان خفَّاشاً لا يطيق فيضان نور الشمس ؛ فقد يفوته تحقيق وجود ذٰلك لا العلم به ، ولٰكن علم قهر وعلم أمر ؛ فعلم الأمر : هو ما نزل في القلوب ، وعلم القهر : هو شهادة أهل الجحود بنفس الوجود ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

ليس الحجاب وجود ثالث فلذا ... قلنا الحجاب توهم صورة الحجب
فلا نظير ولا ند يكون له ... ولا شبيه ولا مثل ولا نسب
فاعجب لمن ينكر ٱن الله خالقه ... أو غائب عنه هٰذا غاية العجب

* * *

فبظهوره ظهرت ، وبنوره عرفت ، وبحسب أسمائه تميَّزت ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ . . مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ ؛ لَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ . . ٱضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ

لولا ظهوره الباهر ، ونوره الظاهر في سائر المظاهر ، المحيط عليها بحيطة التكوين . . لما ظهرت جهات التأيين ؛ فالمكوَّنات فرعٌ عن تكوينه ، والمغيَّباتُ من العوالم الملكوتيات والجبروتيات ، وظواهر المشاهدات الملكيات الحسيات . . مظاهرُ وآيات ، وبيان دلالات تدلُّ على ما صدرت عنه من الأسماء والصفات .

فلولا قيامه بها في وجودها واختراعها في قدم أعيانها ، وإبداعه لصورها في فطرها وأجسامها . . لما ظهرت ولا تعيَّنت ولا تصوَّرت .

فبحكمته في احتجابه بها ظهرت ، وظهر منها ما هو مقتضى علمه فيها وبها ومنها ، فلو ظهرت الصفات . . لاندرجت آثارها ، وغابت مظاهر شموسها وأقمارها ؛ لانقهارها تحت سلطان ظهوره ، واحتراقها بإشراق نوره .

ولكنه سبحانه بحكمته البالغة ، وكلمته السابقة اتَّصف بالعلم ، والعلم يطلب ظهوره بمعلوم ، ولا بد من تخصيص معلومٍ من معلوم ، فاتصف بالإرادة ، ولا بد لنفوذها من قدرةٍ تامةٍ تمضي ما خصَّصته هذه ، فاتصف بكونه قادراً ، وكذلك بقية الصفات يطلب ظهورها بتأثيرٍ خاص ، فاقتضى الكمال الإلهي كمالَ كل وصفٍ من أوصافه ، وظهور كل نعتٍ من نعوته .

فأبدع الكائنات على حسب ما يقتضيه ظهور هذه الصفات ؛ فلو ظهرت الصفات بوحدتها وكمالها من لبس التغاير . . لذهب صورة

التكاثر الذي أُلْهِيَ به من تفرّقَ في وَهْم التغاير ، فلو ظهرت الصفات . . لذهبت الجهات ، واحترقت بنورها كل ما أدركته السُّبُحات ، بذٰلك جاءت الأخبار والدلالات (١) .

فأين البصر والإبصار والمبصر ؟! وأين التعدد في ظهور الوحدة ؟! فلم يبقَ إلا وصف الموصوف ، وعند تجلِّي الموصوف يندرج الوصف في ظهوره ، وتنطمس الأنوار في إشراق نوره ، ويكون هو الموصوف بوصفه لنفسه بنفسه ، ولي في ذٰلك :

لـولا ظهور وجود الحق في الصور ... مـا بـان للكـون مـن عيـنٍ ولا أثرِ
ظهرت حتىٰ جعلت الكل منعدماً ... وباطـن أنت محجـوب عن البصرِ
بحجـب عـزِّك حتىٰ ظنَّ ذو سـفهٍ ... أنْ ثَـمَّ غيـرٌ تعالـى الله ذو القـدرِ

❁ ❁ ❁

وعلى الحقيقة لم يكن ثَمَّ وجودٌ لموجود إلا ما أظهره تأثير اسمه الظاهر ، ولا بطون إلا حقيقة اسمه الباطن ، ولا أول إلا وهو من نور اسمه الأول ، ولا آخر إلا متوجِّه إلى اسمه الآخر ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) كما روىٰ مسلم ( ١٧٩ ) مثلاً عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « حجابه النور ، لو كشفه . . لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه » .

أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَطَوَىٰ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ ٱلظَّاهِرُ

أظهر وجود الأكوان ، وأبدع صور الأعيان ؛ **لأنه الباطن** ، فلا يكون معه بطونٌ لشيء ؛ **فهويته القائمة** وربوبيته الدائمة . . تقتضي ألَّا يكون معه شريكٌ في اختصاصه برتبة الربوبية .

وطوىٰ وجود كل شيءٍ بنور ظهوره ، وسلطان قهره ، وعظيم ألوهيته ؛ **لأنه الظاهر في أعيانها** بالحكم والقهر والتصرُّف والاقتدار ، **فكل الأشياء متصرفةٌ** تحت حيطة اسمه القهَّار الجبَّار ، **ومشرق وجودها** بقيومية الإلـٰه الستَّار ، الذي ستر وجوده بما أظهر من مخترعات وجوده ، وعمَّها بأفضاله وجوده ، **ولي في ذٰلك** :

أظهـرت الَاشـيا لكيـلا أن يكـون سـوا
بطونك السـاري المحجـوب في الصورِ
وأظهـرت قهـرك فيهـا كـي يكـون لهـا
ربـاً وتسـتوجب التنزيـه بالنظـرِ

* * *

فلذٰلك دلَّك وأحالك على النظر فيها ، وما ذٰلك لسبب غيريتها ، ولـٰكن لتعرف نسبةَ الحقائق فيها ، **قال المؤلف رضي الله عنه** :

أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي ٱلْمُكَوَّنَاتِ ، وَمَا أَذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْإِفْهَامِ ، وَلَمْ يَقُلِ : ٱنْظُرُوا ٱلسَّمَاوَاتِ ؛ لِئَلَّا يَدُلَّكَ عَلَىٰ وُجُودِ ٱلْأَجْرَامِ

أباح لك ـ أيها الناظر ـ في تحقيق اسمه الفاطر ؛ لتكون إلىٰ وصف قدرته ناظراً ، ولتعرف حقيقة اسمه القادر ، فقال : ﴿ قُلْ ﴾ أنت ؛ **ليفهموا خطابي من وراء سجف مخلوقاتي** ؛ إذ القوابل البشرية لم تقوَ على مكافحة الخطاب الإلٰهي من غير ترجمان تأنس به ، **ولم تقوَ أيضاً علىٰ شهود ذٰلك الجمال** من غير مرآة في الظاهر ، ومرآة في الباطن ؛ لتنظر إلىٰ ظهور كماله ، وتتعرف صفة جماله وجلاله .

**فجعل مرآة اسمه الباطن** القلوبَ والأسرار ، **وجعل مرآة اسمه الظاهر** السماواتِ والأرضَ والبحار ، والشموس والأقمار ، والجنة والنار ، **فأحب أن تشهد وتنظر إليه في هٰذه الدار** بالاستبصار ، **وبالأبصار في** دار القرار ، فخاطب الترجمان بسر الأسرار ، ونور الأنوار ، القائل عنه خطابه ، والمتلقِّي منه الأمر مجملاً ، والمخبر عنه به مفصلاً محمد صلى الله عليه وسلم ، الداعي من تشتيت الفَرْقِ إلىٰ موصلات الجَمْعِ ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ **ودلَّ علىٰ شهودنا** بما أعطيناك من أسرار خطابنا ، **وأوضحْ ظهورنا في** مسطور كتاب وجودنا ، **فهي رسائل منا** ، ووسائل إلينا لمن له عندنا سابقةٌ في علمنا أنه من خواصِّ عبادنا ، ومصطنع لخالص ودادنا (١) .

---

(١) ولسلطان العارفين : ←

قوله : ( أباح لك ) الإباحة لها معان ؛ ففي لسـان الفقهاء : أنها أمرٌ يستوي فعله وتركه من غير ترجيحٍ لأحد الجانبين .

وفي لسـان المحققين : هـو الإذن في الدخول فـي حظائر القرب ، والوصول والإغراء على كنزيَّةِ السرِّ المصون ، الغائب عن نواظر العيون ، ولم تحمْ حول شـهوده الظنون ، بـل أباح وفتح وأذن لك في الدخول ؛ وذلك بـأن تنظر ما فيها ، فلم تجد غير ظهور وإشـراق تجليات نوره ، سـبحانه من غير حلول ولا ملامسة ولا اسـتقرار ، بل ظاهرٌ بأوصافه ، وحاكـمٌ فيها بمقتضـى ظهور أسـمائه ، مباين الأشـياء بذاته وصفاته وأفعاله .

ومـا أذن لـك أن تقـف مـع المكوَّنات دون شـهود مكوِّنهـا ، فتكون محجوبـاً بهـا دون وجـود موجدها ، فقـال : ﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ : من الأنوار والأطوار والأسرار ، والأرض من الانقهار تحت أحكام الواحد القهار ، فتفهموا عنه أسـرار قدرته ، وتشـهدوا ثبوت حكمته ، فتروا في صفاء سماواته وتمكُّنها ثبوت أمره وتمكُّنه ، فتفهم سرَّ قوله : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ، وتـرى ما اسـتولى على الأرض من أسـر قبضته ، وأن لا انفـلات لموجـودٍ مـن هـٰذه القبضـة ، فتفهـم قولـه : ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ﴾ ، فتلج باب قوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ ، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ .

وقد أرشدناك إلى بابٍ عظيمٍ من أبواب العلم المكنون ، الذي قال فيه

---

← تأمَّـل سـطور الكائنـات فإنهـا ... مـن المـلأ الأعلـى إليـك رسـائل
وقـد خُـطَّ فيهـا لـو تأمَّلـت خطَّهـا ... ألا كل شـيء مـا خـلا الله باطـل

رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون »[1] ، فـإن كنـت ذا فهـم . . فإليـه ؛ فدونـك بحـاراً يحـار فيهـا ذوو الألباب ، ويتيـه فيهـا ذوو العقول ، وينكرهـا كل مغرورٍ جهول ، فلـو قال : انظروا السـماوات . . لكان دلالتـه على الأغيار ، وهدايتـه إلى الأجرام والآثار ، ولٰكن دلَّك علىٰ ما فيها من ظهور آياته ، ودلالات وجوده واقتداره ، وما أودع فيهـا مـن أنوار وجوده ، فلا تزال تسـير في بحر الوجود في سـفينة الأفـكار ، الجاريـة بريـاح الأذكار ، إلـىٰ أن تُلقىٰ في باحـات المعارف ، فتلتقط ثَمَّ من جواهر الأسرار ، ودُرَرِ اللطائف ، ولي في ذٰلك :

انظـر إلىٰ ما في الأكوان من حكم ... تـرى الوجـود بنـور الله موجـودا
فذاك من نوره يحكي الوجود كما ... يحكـي الظـلال بنـور الله ممدودا
فافتـح مـن القلـب أبواباً مقفَّلـة ... تريـك فـي ذاك سـر الله مشـهودا
وكل مـن كان ذا فهـمٍ يكـون لـه ... فـي كل شـيء دلالات وتمهيـدا

* * *

فالوجود كله ؛ من سـماء وأرض ، وكرسـي وعرش ، وما حواه اسم العالـم . . مخترَعٌ من قدرته ، ومبـدَعٌ ببالغ حكمته ، ولم يكن غير ذاته ظاهراً ، فأراد سـبحانه ظهور صفاته ، وثبوت أسمائه ، فبطنت الذات ، وظهرت الصفات ، فظهرت تلك الصفات ، فسُـمِّيت بالكائنات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه السلمي في « الأربعين » ( ٣٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

## اَلْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ ، وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ

فنعت الذات بالأحدية ، التي لم تبقَ ظهوراً للثنوية ؛ فهي مبالغةٌ في نعت الوحدة ، والأحدية : وصفُ الذات إذا ظهرت وبطنت الصفات ، والأكوان من حيث هي أصالةٌ معدومة لا وجود لها عند ظهور الذات ؛ لأن الأكوان آثار الصفات ، وقد علمت اندراج الصفات عند تجلِّي الذات (١) ، فالأكوان الآن معدومةٌ ممحوة .

فأحق ما هنا أن يقول : الصفات مندرجة ، والآثار ممحوة ، وحيث بطنت الذات ، وظهرت الصفات . . فالصفات مؤثرات ، ولا بد لظهورها من أثر يظهر فيه سلطانها ، وتتميَّزُ فيه أعيانها ، فهي ثابتةٌ بإثباته ، حيث توجَّهَ إليها بالإثبات . . ثبتت ، وحيث خصَّصَها بالتعيين . . تعيَّنت .

فالكلام في ذلك تابعٌ للنظر ؛ فإن نظرنا إلى الذات ونعتها . . انمحت الأكوان ، وذهبت الأعيان ، وفني المكان والزمان ، ولم يبقَ إلا الواحد الأحد ؛ فالواحد وصفه ، والأحد نعته .

وإن نظرنا إلى الصفات وتعدد مظاهرها . . قلنا بثبوت ما أثبته ، وتخصيص ما خصَّصته ، وإتقان ما علمته ، وتقدير ما قدَّرته هذه الأوصاف وغيرها مما أظهره من صفاته وأسمائه ، فلا يظهر وصفٌ ، ولا يتحقَّق اسمٌ ما لم يشهد أثره ، ولم يسمع خبره ، ولي في ذلك :

المحو نعتٌ لكل الكون إن نظرت ... إليه دون وجود الواحد الأحدِ
وثابتٌ إن رأيت الله مثبته ... فوحدة الذات تنفي كثرة العددِ

---

(١) فالذات من حيث هي هي . . توصف بالأحدية ، ومن حيث ظهورها وبطونها بالمظاهر . . توصف بالواحدية ؛ فمع الأحدية الفناء ، ومع الواحدية البقاء .

فكن حريصاً علىٰ تحقيق ذاك فما     في الكون موجود إلا الواحد الصمد

* * *

وحكمة ثبوت الكون : ظهورٌ فيما يظهر تجلِّي كمال الربوبية علىٰ رفعة العبودية ، فإذا أثبتك .. فمقام العبودية يقتضي المحاسبة وتصحيح المعاملة ، ومقتضىٰ ذٰلك : أن تكون متَّهماً لنفسك ، ومعاتباً لها في سائر أحوالك ، فلا ترضىٰ عنها ، فذٰلك مقتضى العبودية ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

اَلنَّاسُ يَمْدَحُونَكَ ؛ بِمَا يَظُنُّونَ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامّاً لِنَفْسِكَ ؛ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا

الناس : هم البشر المأنوس بهم بعضهم ببعض ، وواحدهم إنسان ، والناس بالضرورة يمدحون من ظنوا منه الأفعالَ الجميلة ، والخصال الحميدة ؛ فبالضرورة يثنون عليه ، ويمدحون مَنْ أنسوا منه ذٰلك ، وذٰلك كما علمت أنها نعمةٌ من الله أن ستر عيوبك ، وقبائح ذنوبك ، التي لو اطلع عليها أودُّ الناس إليك . . لمقتك عليها ، ولقلاك وهجرك من أجلها .

فإذا علمت أنَّ ذٰلك ستر الله هو الذي جمَّلَ أفعالك ، وسدَّدَ أقوالك ، وأصلح أعمالك . . فحقُّك أن تشكر الله بما أظهره عليك من الجميل وسَتَرَ من القبيح ، وأنت عليمٌ بما أنت عليه من العيوب ، ومقارفة الذنوب ، فكن ذامّاً لها علىٰ ما تعلمه من سوء أفعالها ، وقبح أحوالها .

ولا يغترُّ بظن الناس ويترك يقين ما عنده إلا جهولٌ ، لا يُميِّز بين محاسن الأحوال وقبائحها ، فلا يرىٰ ما هو عليه من النقص والإهمال ، لعظم ما نُدب إليه من الأعمال ، وارتكاب ما نهي عنه من الأفعال ، وبتقدير إحسانه فهو من فضل الله وسابغ نعمته وسابق منَّته ، فكيف يسنح إلىٰ مدح الخلق أو يطمئن إلىٰ ثنائهم ، ومدح المادح وبالٌ علىٰ ضعفاء اليقين ، الذين لم ترسخ أقدامهم في حقائق التمكين ؟!

وكان السلف الصالح يكرهون المدح ، وينكرون على المادح ، ويرون أن ذٰلك نقصٌ لأحوالهم ، وجالبٌ لمفسدات أعمالهم ؛ كالرياء والعجب

والتصنُّع وحب الشهرة ، وهٰذا إذا كان فيهم ما مُدِحوا به ، وأما إذا كان ما مُدِحوا به غير موجودٍ عندهم . . فذاك أعظم قبحاً ، وأشد حرباً .

وما نُقِل من المدح والثناء على أكابر الصديقين والعلماء . . فذٰلك بما فيهم مع ما هم عليه من اليقين ، ويرون أن ذٰلك من الله بارز ، ومنه واصل ؛ لفنائهم عن أنفسهم عن أن تستحق مدحاً ، ويرون الخلق وما يجري عليهم رسلاً من الله إليهم ، فلا يزيدهم المدح إلا نشاطاً ، ولا يورث عندهم إلا شكراً لمن وصل إليهم من حضرته وثناءً .

وأما ضعفاء اليقين . . فلم يحظوا بهٰذا المقام ، ولم يخرجوا عن رؤية نفوسهم ورؤية الأغيار ؛ فالمدح عليهم ضارٌّ ، ومقامهم يأبى ذٰلك ، بل الأنفع في حقهم : اجتناب الخلق عنهم ، وازدراؤهم لهم ، ورؤية ذلَّتهم وذبولهم وخمولهم .

ومن حقهم : أن يسكنوا إلى من يذمُّهم ، ويغضَّ من مقامهم ، أولى من سكونهم إلى من يمدحهم ويكرمهم ، اللهم إلا أن يفارقوا من تولَّعَ بذم الطائعين ؛ لعصيانه وانتهاكه لحرمات الله ، واستصغاره لشعائره ، فلا جرم أن يهجروه بهٰذه النية .

ولا يتحقق بهٰذا المقام على التمام ويحرز هٰذه النيات إلا مَنْ قد خامر اليقين قلبه ، وامتزج الإخلاص بلحمه ودمه ، وكذٰلك سكونه إلى من يكرمه ، ومحبته له ، إنما أحبه وواصله وخالَلَهُ لما عظم من شعائر الله ، وأكرم من انتسب إلى جناب الله ، فلا حرج في ذٰلك أيضاً عند صحة النية ، وصدق الطوية .

ويصدق ذٰلك : أنه لو أكرم أحد أقرانه ووقَّره أكثر منه . . لم تنقص منزلته عنده ، ولم تتغير عمَّا كان عليه ، وعلامة كونه هجر الأول : أنه لو

مدح واستصغر أحد أقرانه من أهل الدِّين . . أنه يهجره ويقلاه لذٰلك وإن كان به برّاً وله مساعداً ؛ فللصدق دلائل أحوال وقرائن تبيِّنُ ما كان لله مما كان لغيره .

فحقُّ المريد السالك : ألَّا يسكن إلى المدح ولا يرضاه ما دام لنفسه عنده وجود ، ويرىٰ مَنْ ذمَّه أنه أهدىٰ إليه معايبه التي غفل عنها ، ونبَّهه عليها ، ومناصراً له ومؤازراً ، ومن لم يجد ذٰلك ولم يقدر عليه . . فلا أقل من ألَّا يعاديه ، ولا يحقد عليه ؛ فذٰلك أقل مراتب الصادقين ، وأما إذا قام لها مخاصماً ، ومن أجلها معادياً . . فلا يخفىٰ أنه لم يشَمَّ رائحةَ الصدق .

فإياك والإنكار علىٰ من رأيته ممن ينسب إلى الطريق بهٰذه الحالة ؛ فقد تكون للصادقين مقاصد محمودة في كل ما يتعاطونه : إما رأفة به ـ أي : المعادي ـ لئلا يتجرَّأ علىٰ عباد الله ، أو ليدفعوا عنه بردِّهم عليه ما هو أعظم من انتقام الله وانتصاره لمن ترك مراده اكتفاء به ؛ فانتقام الله ونصره علىٰ من انتهك من التجأ إليه واكتفىٰ بنظره . . أسرعُ من السيل إلىٰ محلِّه ، فقد يخاصمون لهٰذه النية ، فلا اعتراضَ عليهم فيما تعاطوه ، فإذا ثبت اختصاص الله لهم وتوليه . . فلا يظن بهم أنهم ينتقمون لأنفسهم ، أو يخاصمون لأجلها ، فهم أجلُّ من ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

| | |
|---|---|
| الناس يثنون والتحقيق أنهمُ | أهدوا إليك غروراً لست تدريها |
| لا تتركن يقيناً منك ظنهم | ففيك عن مدحهم شغل بما فيها |
| ففي النفوس عيوبٌ فاحتقارهم | خيرٌ لمن في طريق الصدق يدريها |

❁ ❁ ❁

**ومقت النفس وعدم الالتفات إلىٰ رؤية الأوصاف منها : علامةُ** الإيمان ، والإيمان بما أخبر الله عنها واجب ، وقد أخبر سبحانه بقوله : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ ، وقال في وصف عدم براءتها عن الأسواء واتباع الأهواء : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ **لذلك كان المؤمن لا يزال متَّهِماً لها** ، وذامّاً لها في جميع أفعالها ، إلا ما مدحه الله ، **قال المؤلف رضي الله عنه :**

اَلْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ . . اُسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

المؤمن : الصادق ، والإيمان له إطلاقاتٌ كثيرة ؛ فقد يطلق بإزاء الكفر ، وقد يطلق مقابلاً للإسلام ، وقد يطلق مقابلاً لغيره من الأحوال الظاهرة ، وقد يراد به غاية الكمال ، وأعالي مراتب الوصال .

والإيمان : هو التصديق بالجنان تصديقاً لا يداخله ارتياب ، ولا يشوبه شك ، وعمل بمقتضىٰ ذٰلك التصديق مما هو واجبٌ في حق الحق سبحانه وجائزٌ ومستحيل ، وكذٰلك في حق الرسول صلى الله عليه وسلم كسائر الأنبياء والملائكة ، والكتب ، والإخبارات عن الأمور المغيبات عن العيان ؛ كإعادة الخَلْق ، وسؤال الملكين في القبر ، وتنعيمه فيه ، وتعذيبه فيه ، وبعث الأجسام ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والحوض ، والجنة ، والنار ، وكل ما جاء عن الله مما أخبرنا به علىٰ لسان أنبيائه ، وأنزله في كتبه ، وكل ما أخبر به الأنبياء كذٰلك ، فهٰذا حدُّ الإيمان ، وبهٰذا يسمىٰ مؤمناً ، ويخرج عن حيّز الجاحدين ، وزمرة المنكرين .

والمراد هنا : المؤمن الكامل ، الذي يتلقّىٰ علومَ اليقين كشفاً ، وهو إذا مُدِحَ . . استحيا ؛ لتحقُّقه بشهود صفاتِ سيده المستحقّ لكل المحامد ، ويرىٰ صدور كل المحاسن الممدوح عليها بارزةً من حضرة فضله ، فلا يرىٰ فيها استحقاقاً .

فرتبة الإيمان شعارُ صاحبها الحياءُ من الله والإجلال والتعظيم ، فإذا مُدح . . استحيا ؛ لمشاركته في رتبة الحمد التي هي مستحقةٌ لله ، ومن

إضافة الأفعال إليه ، وهو يراها من الله ، لا يرىٰ لغيره معه فعلاً ولا وصفاً يقتضي أن يثنىٰ عليه به ، أو يمدحه به ، فهٰكذا الإيمان .

والإيمان من صفات القلوب ، ومطالعاتها للمغيبات بنور الإيمان من وراء سجف الأكوان ، وهو بين رتبة الإسلام التي مقتضاها الوقوف علىٰ ظاهر الأفعال ، وبين رتبة الإحسان التي مقتضاها محوُ الأغيار ، وانطماس الآثار بالكلية ؛ كما أشار لذٰلك صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان[1] .

فصاحب الإيمان متلوِّن ؛ لبقاء شهود الغيرية ، وصاحب الإحسان متمكن ؛ لفنائها عنه بالكلية ، وصاحب الإسلام يتبع الأخبار ، ويطلب الدلائل والآثار ، يرجو الجنة ويخاف النار ، وهو بعدُ لم يصل إلىٰ مقام الأبرار ؛ فغاية حاله الوقوف لا يتعدَّىٰ ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

الإيمانُ يعطىٰ لمن كانت بصيرته تنظر غيوب بدائعْ صورة الحكم
إذا مُدِحْ ذاك تستحيي سريرته أن يثن عنه بما هو فيه منعدم

❊ ❊ ❊

وعندما تطلق عليه الألسن بالمدح وهو يعلم ما هو عليه من القصور . . فلا جرم يزداد شكره لربه ، ومقته لنفسه إذا كان ذا علمٍ وبصيرة ، وبضد ذٰلك تكون حالة الجهَّال والمغرورين ؛ أنهم [ لا ] يرون قصورهم ، فإذا أثنىٰ عليهم بحالة لم تكن فيهم . . فرحوا وطالت نفوسهم ، وشاركوا الحق في صفاته ، ونسوا ما ستره عليهم من قبائحهم وموابق فضائحم ، فكانوا لذٰلك أجهل الناس ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه البخاري ( ٥٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم ( ٨ ) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

وكان أجهل الناس لأنه اغترَّ مع ظهور اليقين ، والناس جهَّال بحاله ، حيث ظنوا ما مدحوا لأجله فيه ، فكانوا جهَّالاً بحاله ، وحاله غيبٌ عنهم ، وهو اغترَّ بمدحهم وهو متيقِّنٌ أنه ليس عنده ما مُدِحَ به وأُثني عليه به ، فكان أجهلهم لذٰلك .

ومن عظمِ جهله وشدة حماقته : أنه ينافح عن نفسه ، ويخاصم لها ، ويزكيها ، ويبرئها عن العيوب بعدما سمع من العالم بها قبل إبرائها ، والمطَّلع علىٰ خفايا عيوبها فقال : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، وأكثر خصام الجهال ومعاداتهم من أجل ما يلحقها من الذم والتنقيص من بعضهم بعضاً ، فإذا أردتَ أن تعرف أن أكثر الناس لا يعلمون كما وصفهم الله بذٰلك . . **فابحث عن هٰذا تجده عياناً بأوضح حجةٍ وبرهان** .

والمادح : إما أن يكون من أهل الدِّين . . فقد حصَّل خيراً بظنه ، لٰكن فاته قصم ظهر أخيه ؛ كما جاء في الحديث (١) ، وأما إن كان من العوام والأشرار . . فما مدحوا إلا ما وافقهم ، ولا يوافقهم إلا ما كان من جنس ما هم عليه من الأخلاق اللئيمة ، والخصال المذمومة ، فليكن المريد أشد خوفاً لذٰلك ، ولي في ذٰلك :

أشد الناس في الجهَّال جهلاً ... إذا أُثني عليه رضي واستبشرا

---

(١) رواه البخاري ( ٢٦٦٢ ) ، ومسلم ( ٣٠٠٠ ) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « ويحك ؛ قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك » مراراً .

ونسـي معايبـه وعظـم ذنوبـه وسـتر فضائـح والإلـه لهـا يـرىٰ

* * *

فإن قلت : أنا كارهٌ للمدح ولست أهلاً له ، **فما كفارة ذٰلك ؟ وما الذي يخرجني عند ربي ؟**

فإذا أطلق الخلقُ ألسنتهم بثنائك وأنت تعلم أنك لست أهلاً ولا قدرة لك في ردِّ مدحهم .. فاعلم : أن ذٰلك نعمةٌ من الله عليك أن سترك وجمّلك ، فاشكره علىٰ ذٰلك ، وأثنِ عليه بما هو أهله ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

# إِذَا أَطْلَقَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ . . فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

إذا أطلق وأثنىٰ بجميل الثناء عليك أيها المؤمن الكاره لمدح المخلوقين ، المبتغي رضا ربِّ العالمين ، المكتفي بنظره إليك ، الوجل من اجتراح المعاصي بين يديه ، وليس فيك أهلية الثناء لنظرك عيوب نفسك وسوء أحوالها ، وقبيح فعالها ، ورأيت عجزها وتقصيرها في القيام بما به يُثْنَىٰ وعليه يُمدَح . . فاعلم : أن هٰذه نعمةٌ من الله أسبغها ، وعافية جلَّلها ، فلا تغفُلْ عن شكرها ، فاشتغالك بالشكر لله عليها أولىٰ بك من مدافعتها وإبائها .

فكن له شاكراً ، ولآلائه ذاكراً ، وبنفسك غير مبالٍ ولا لها مصغياً ، وعن خدعها مجانباً ، ولها معاتباً .

فالمؤمن لا يزال لنعمه شاكراً ، ولآلائه ذاكراً ، ولنفسه متهماً ، ولا يرىٰ لنفسه أهليةً أن يُثنَىٰ عليها ، أو أن تُضاف المحامد إليها .

ويرىٰ أهلية الحمد ومنتهى المجد لله في كل حال ، ومصدر فعال ، فلا يتصوَّر منه أن يظلم أو ألا يتصف بصفات الكمال وخلال الجلال ؛ فهو المحمود في أفعاله ، وهو أهل كل نعمة ، ومنتهىٰ كل رغبة ، ومطلب كل منَّة .

كيف والعالم شاهدٌ بذٰلك حالاً ومقالاً ؟! كل له قانت ، وله ساجد ، وشاكر وحامد ، ومتىٰ [ كان ] لغيره وصفٌ أو صفةٌ من صفات الكمال ؟! فالكل مستمدٌّ وهو مستبد ، فله الحمد في كل حالٍ وعلىٰ كل حال ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

ولي في ذٰلك :

إذا أطلقت لك ألسن الخلق بالثنا		فكــن شــاكراً ربَّ البريــة حامــدا
وإن كنــت لــم تشــهد شــهود مزية		لنفســك زد مــا دون وســعك زائدا
فأهــل الثنا والمجــد حقاً هو الذي		بنعمائــه عــادت علينــا عوائــدا

* * *

وصاحب هٰذا المقام لم يخرج بعدُ عن رؤية نفسه ، وأهل الكشف والعيان بالضد من ذٰلك ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

**ٱلزُّهَّادُ : إِذَا مُدِحُوا . . ٱنْقَبَضُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ ٱلثَّنَاءَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْعَارِفُونَ : إِذَا مُدِحُوا . . ٱنْبَسَطُوا ؛ لِشُهُودِهِمْ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ**

**الزهَّـادُ** : هـم الذين أخذوا في تصفية قلوبهـم ، وإخلاص أعمالهم ، وإخـراج رؤيـة الخلـق عـن نظرهم ؛ **فهـم وإن كانوا أهل مقامٍ شـريف** ، وحـالٍ عـالٍ منيـف . . **لـم يخرجـوا بعـدُ مـن الحجـاب** برؤيـة الأغيار ، ومكابـدة الآثـار ، كمـا هـو حـال الموحِّديـن ، وكُمَّـلِ العارفيـن ، **وأهل الشـهود المقرَّبيـن** ، الذيـن غابـت عندهـم شـواهد الخليقة ، وأشـرقت عليهم شموس أنوار الحقيقة ، **فلا يرون ولا يسمعون** ، ولا يحادثون ولا يجالسـون سـواه ، **ولا يشـهدون إلا إياه** ، فعنه يأخذون الخطاب مجملاً ، ويميزونـه على الطالبيـن مفصلاً ، **فلا يسـمعون خطاباً** ، ولا ينظرون في البعد والاقتراب إلا عنه وإياه .

**فـإذا مُـدح الزهَّـاد . . انقبضوا** ؛ لشـهودهم له من الخلـق ، فيخافون انبساط نفوسـهم إليه ، واعتمادها عليه ، **فينقصهم ذٰلك من منزلتهم عند** سـيدهم ، ويوقفهـم دون مطالبهـم ، فـلا جرمَ أن ينقبضـوا لذٰلك ويهربوا منه .

**والعارفـون** : لمـا لـم يشـهدوا للخلق في ذٰلك وجـوداً ، ولم يروا لهم في الحقيقة شـهوداً . . **شـهدوا ذٰلك من سـيدهم** ، وفرحوا حيث مدحهم وأثنـىٰ عليهـم مليكهـم ، **فلا جـرمَ أن تتصدَّعَ القلوب سـروراً** ، وتمتلئ الآفـاق حُبـوراً ، ويعتريهـم مـن الوجد بذٰلك مـا لا يطاق ؛ كمـا روي أن النبي صلى الله عليه وسـلم لما استقرأ أبيَّ بن كعب سـورة ( لم يكن ) فقـال : **أقرؤهـا عليك وعليـك أنزل ؟!** فقـال : « إن الله أمرني أن : أقرئ

عليك أبياً » ، فقال : يا رسول الله ؛ آلله ذكر أُبَياً ؟ فقال : « نعم » ، فقام وحجلَ ، وما زال يردِّدُ قوله : آلله ذكر أبياً[1] .

فهٰذا وهو آخذٌ ذٰلك بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا أخذه صاحب الكشف على الكشف والعيان ؟! فلا ترىٰ ما يحصل لهم من الفرح .

وصاحب هٰذا الحال لا يزيد عنده من مدحه من الخلق علىٰ من ذمَّه ، فإذا ذمَّه ذامٌّ . . لم ينقبض عليه ، ورآه رسولاً من سيده واصلاً إليه ، فيرجع إلىٰ نفسه بالمعاتبة والمحاسبة والتأديب حيث قلَّلتِ الأدب على الله[2] ، فعاتبها الحق سبحانه علىٰ لسان من وصل إليها منه الذم .

وتحقيق ذٰلك : أن تعلم أن أولي الأحوال العلية ، والأخلاق السَّنية أثنوا علىٰ أنفسهم ، وأُثني عليهم ، ولم يحصل عندهم انقباض لذٰلك ، بل زادهم شكراً عليه ، وهم عالمون مضرة المدح علىٰ من بقيت فيه بقيةٌ من رؤية شهوده للخلق ، واحتجابه بالنفس ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك المدح ، وتركه علىٰ حسب أحوال الممدوحين ؛ فأهل كمال اليقين ، والواصلين إلىٰ أعالي أحوال التمكين . . أثنىٰ عليهم بحضورهم ؛ كالصِّدِّيق رضي الله عنه حيث قال له : « لستَ ممَّن يفعل ذٰلك خيلاء »[3] وغير ذٰلك مما أخبره به من مزايا الفضائل .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال له : « إن الشيطان يسلك

---

(١) رواه البخاري ( ٣٨٠٩ ) ، ومسلم ( ٧٩٩ ) بنحوه عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٢) في النسخ : ( قلّت الأدب على الله ) بدل : ( قلَّلت الأدب على الله ) .
(٣) رواه البخاري ( ٣٦٦٥ ) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

غير الفج الذي تسلكه »[1] وغير ذٰلك من فخام الفضائل.

ولعلي رضي الله عنه : « أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ »[2].

ولعثمان رضي الله عنه بشَّره بالجنة[3] وغير ذٰلك.

وجماعة من أكابر الصحابة كأُبَيٍّ بن كعب لمَّا قال له صلى الله عليه وسلم : « أي آية أعظم في كتاب الله ؟ » فقال : آية الكرسي ، قال له صلى الله عليه وسلم : « ليهنك العلم أبا المنذر »[4].

وما ذكر به أبو قتادة وسلمة بن الأكوع يوم أُغير علىٰ سرح المدينة[5] ، وغيرُهم لمَّا مدحه من مدحه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . . قال له : « قطعتَ ظهر أخيك »[6].

فهٰكذا يكون تنزيل المدح وتركه علىٰ حسب حالة الممدوح ، إن كان كاملاً متمكِّناً ، لم يؤثر عنده مدحُ الخلق ظهورَ نفسٍ واستشرافاً إلىٰ حظٍّ . . فلا عليه فيه نقص ، وما دام يجد به ظهوراً في النفس ولم تدعُ حاجةٌ إلىٰ ذٰلك . . فتركه وكراهته من شِيَم الزهَّاد والمريدين والعبَّاد ، ومع كونه لم يؤثر في الإنسان فتركه أولىٰ بكل حال ، إلا في مواطن يحتاج إليه يطول تعدادُها.

ولي في ذٰلك :

---

(١) رواه البخاري ( ٣٢٩٤ ) ، ومسلم ( ٢٣٩٦ ) بنحوه عن سيدنا سعد رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري ( ٣٧٠٦ ) ، ومسلم ( ٢٤٠٤ ) عن سيدنا سعد رضي الله عنه.
(٣) رواه أبو داوود ( ٤٦٤٩ ) ، والترمذي ( ٣٧٤٨ ) عن سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه.
(٤) رواه مسلم ( ٨١٠ ) عن سيدنا أُبي بن كعب رضي الله عنه.
(٥) روىٰ مسلم ( ١٨٠٧ ) عن سيدنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه مرفوعاً : « كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجَّالتنا سلمة ».
(٦) تقدم قريباً بلفظ مقارب.

الزاهـــدون لهـــم حـــالٌ ومنزلـــةٌ    تعطيهم القبض إن فاهت به الغير
والعارفون كذاك المدح يبسطهم    لكونهـم خرجـوا عن رؤية البشـر

* * *

وللموحِّدين علامات تُعرَف بها أحوالهم ، وتثبت بها مقاماتهم ، وبها يخرجون عن المدَّعين لمقامهم من غير تحقُّقٍ به ؛ فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَىٰ كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ ٱلْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ ٱلْمَنْعُ . . فَٱسْتَدِلَّ بِذَٰلِكَ عَلَىٰ طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

هـٰذا ميزانٌ تعرفُ به ما أنت عليه من الحال ، فمن نصح نفسه ولم يكابر . . أنصف عندما تشاهده الدلالة وتشاهده العلامة من نفسه (١) ، فمتىٰ كان بحظه لم يخرج عنه ولا انتزع منه . . فليتَّقِ الله في دعوى التوحيد وإخلاص العبودية ، فليسأل الله ويلجأ إليه أن يحقِّقه له ، ويلحقه بغمار أهله ، فإنه بعدُ لم يخرج عن حظ نفسه ، ولم يخلص العبودية لربه .

فمتىٰ أُعطِيتَ حظَّكَ ونلت مآرب نفسك . . بسطك العطاء لا المعطي ، فإذا مُنِعْتَ عن حظك ولم تنل حاجتك الناجزة . . قبضك المنع لا المانع ؛ فاستدلَّ بذٰلك ـ أي : بهـٰذه الحالة ـ علىٰ طفوليتك في أهل الله .

والطفيلي : هو الذي يتطفَّل في الولائم من غير أن يُدعىٰ إليها ، فينتسب أنه من أهلها وهو أجنبيٌّ عنها ، فيُترك تكرُّماً من أهلها أو حياء ، فالمستحيون منه نفوسُهُمْ تمقته ، والكرماء قلوبهم ترحمُهُ ؛ لما يرون من ضعف همته وسفاهته وقلة عقله ، وأول من تسمَّىٰ بذٰلك رجل كوفي كان يُدْعىٰ طفيليَّ الأعراس (٢) .

وذٰلك أيضاً دليلٌ علىٰ عدم الصدق في عبوديتك ؛ لأن صدق العبودية

(١) أنصف من نفسه : أخذها بالعدل .

(٢) وكان رجلاً من أهل الكوفة من بني غطفان ، وانظر « التطفيل » للخطيب ( ص ٦١ ) .

يعطي الصادق أن يكون مستغرق الهمّ في أوصاف معبوده ، ولا يفرق بين ما يصدر عنه من الأفعال ، فهو عنده في كل الأحوال ، فلا يكون إلا ناظراً إلىٰ حسن تدبيره واختياره ، فانياً عن سائر الحظوظ ، وقال : متىٰ بسط العطاء ؟

أما لو كنت في بسطك ـ لأنه برز من حضرة اسمه الباسط ـ . . فلا حرجَ عليك أن تنبسط بفعل ربك لا بالفعل مجرداً عن فاعله ، فكذٰلك بالقبض لو انقبض ـ لكونه أثر اسمه القابض ـ فلا حرجَ أيضاً أن ينقبض ؛ لما يعطيه الكشف من تجلِّي الاسم القابض ، فيكون مع الفاعل لا مع الفعل .

فليفهم الفرق بين البسط والقبض بالله ، أو هما بغيره ؛ فأكثر المنتسبين إلى الطريق قد يظنون صدقهم في عبودية ربهم ، فإذا طرقهم أمرٌ ممَّا يناقض مرادهم أو يخالف حظوظهم . . بان لهم غرورُ دعواهم ؛ فعبيد الحروف الواقفون مع الظروف خاسرون ، وعن مقاصد الصدق ناكبون ؛ كما وصفهم في كتابه بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بفوات مراده ، ﴿ وَٱلْأٓخِرَةَ ﴾ بعدم صدقه في عبوديته ، ولي في ذٰلك :

متىٰ تكون بما تُعْطاه منبسطاً ... وعند منعٍ تكن بالقبض موصوفا

فاعلم بأَنَّكَ طفيليٌّ بمذهبهم ... كما يُرىٰ ذاك بين القوم معروفا

وليس لك في طريق الصدق مشربهم ... فعبد حق تكن بالله مشغوفا

لا يوحشنك بلوىٰ في محبتهم ... ولا العطا بل لديه الكل مألوفا

❊ ❊ ❊

فإذا كان الكل فائضاً من حضرة فضله أو حضرة عدله . . فلا بد من تعاقب الأحوال على العبد بحسب ظهور هٰذه الأوصاف ؛ فلذٰلك لما علم الله أنه سيكون ظهور ما يناقض العبودية مما ضده الاستقامة عليها من المظاهر العدلية . . شرع التوبة ؛ لتنمحي آثار ذٰلك المظهر الطارئ على محل الفضل ، فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ . . فَلَا يَكُنْ سَبَبَ يَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَٰلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ

إذا وقع منك ـ أيها المؤمن السالك لطريق العبودية ، المتوجِّهُ بقلبك إلىٰ حضرة الربوبية ـ ذنبٌ مما يناقض استقامتك علىٰ سبيل الهفوة والفلتة ، والذنوب تختلف باختلاف أحوال الخلق ؛ فمنها : ما هو من ذنوب الخاصة ، وتدقُّ عن نظر العامة ، ومنها : ذنوب العموم ، وهو ظاهرٌ يعرفه كل أحد ، وهو إما ظاهرٌ من قبيل الأفعال الحسية ، وإما باطنٌ من قبيل الخطرات والنيات القلبية .

والذنوب حجابٌ عن مطالعات أسرار الغيوب ، وبها يكون التعوُّق عن نيل كل مطلوب ، وبسبب مقارفتها يكون البعد عن حضرة المحبوب .

والذنوب منها : ما يكون بين العبد وبين الله سبحانه وتعالىٰ ، ومنها : ما يكون بين العبد وبين العباد .

وما كان للعباد : إما أن يكون في دمٍ أو عرضٍ يدخل فيه كل ما يتألَّمُ منه الإنسان ولو في أهله وأصدقائه ، ولا سبيل للخروج من حقوق العباد إلا بالأداء أو بالاستحلال ، فبذٰلك يخرج عن الإصرار الذي ينافي وجوده صحة التوبة ، وما تعذَّر أداؤه ـ كأَنْ لم يوجد صاحب المال ، أو لم يعرف عينه ـ . . فينبغي أن يتصدَّقَ بقدره في وجوه الخير ، وينوي أنه إن ظهر صاحبه . . ردَّهُ إليه ، فبذٰلك يُرجىٰ له صحة التوبة ، أو كان الذنب في العرض مما يُورث الاستحلالُ منه زيادةَ نفرة . . فينبغي أن يستغفر لصاحبه ، ويكثر في مقابلته من الطاعات ، ويضرع إلى الله بصدق نية أن يرضيَهُ عنه ، فالمرجو أيضاً : أن يرضيَهُ وتصح توبته ،

هٰذا إذا لم يبلغه ، وأما إذا بلغه . . فلا بدَّ من استرضائه .

والدم : إما بالتمكين من استيفائه ، أو بالعفو على مال ، وعلى غير مال ، وبالكفارة إن كان قتلاً .

وأما ما بين العبد وبين الله . . فيكفي فيه التوبة بشرائطها ؛ وهو أن يعزم على ألَّا يعود إليه ولا إلى مثله ، فيقلع عنه حالاً ، ويندم على فعله .

ولا يترك التوبة لعظم الذنب عنده ؛ فما عند الله من المغفرة أعظم ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتائب حبيب الله ، ولا يتركها لخوف العود إليه(١) ؛ فهٰذه خدعةٌ من خدع الشيطان ، يخدع بها الجهَّال فيبقون على الإصرار خشيةَ العود عليها ، والإصرار أعظم من الذنب نفسه ، ولعل ذٰلك آخرُ ذنبٍ قدَّره الله عليك ؛ فالذنب مقدور وما بقي إلا تائبٌ نادم ، ومصرٌّ قادم ، وأما نفس الذنب . . فلا يُشقي مَنْ سبقت له من الله عناية ، ولاحظته رعاية ؛ فقد جعل لك من كل ضيقٍ مخرجاً ، فجعل مخرج التوبة من ضيق المعصية .

ووردت أحاديث في فضائل التوبة وآيات ، فمن الآيات قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ ، وناهيك بها رتبة أرفع المراتب ، ومنتهى المطالب ، وهي التي وجدت بها الأطوار والعوالم ، وإليها تنتهي همم العارفين ، وتقيم فيها أسرار المقربين ، فهي أول مبادئ الطريق ، وغايتها نهاية التحقيق .

ومن الأحاديث النبوية القدسية : أن العبد إذا أذنب فقال : رب ؛ اغفر لي . . يقول الله سبحانه وتعالى : عبدي أذنب ذنباً فعرف أن له رباً يغفر

---

(١) في النسخ : ( ولا يتركه لخوف العود إليه ) .

الذنب ويأخذ به ، اذهب فقد غفرت لك ، وثانياً وثالثاً كذلك حتىٰ قال : **فليفعل عبدي ما شاء**[1] ؛ أي : ما دام يذنب ويستغفر . . فأنا أغفر له حتىٰ يتولَّىٰ فيصرَّ ويستكبر ، **فعند ذلك يجازى العبد بصنيعه** .

فالاستقامة بعد التوبة علىٰ حدِّ العبودية غير مستبعدةٍ ولا مستنكرة ، والفزع والتوحش يحسن قبل فعلها ، وأما بعد الفعل . . **فلا أحسب ذلك إلا عقوبة فعلها** ؛ وهو أن يسلط على العبد خواطر تؤيسه من رحمة الله ، ويضيق صدره من محبة الله ، **فلا ينبغي إلا حسنُ الظن بالله** ، فهو بعدها شأن الموفَّقين من السالكين والعلماء بصفات الله ، الواقفين علىٰ نظر تقدير الله ، وغالب حكمه الذي لا رادَّ له ولا معقب .

وعبَّر المؤلف رضي الله عنه بقوله : ( **مع ربك** ) تأنيساً للعبد باسم الربوبية الذي هو أخص أسماء الجمال ، وفيه مجامع العطف والرأفة والرحمة .

**فالرب هو الذي يربُّ** ؛ أي : يرحم ويعطف ويرأف ، وهو سبحانه رب العالمين ؛ أي : مالك كل العوالم وما فيها ، **فهو ربُّ الأرباب** ، ولولا ربوبيته ، وسبوغ رحمته ، وشمول محبته لجميع خليقته . . **لهلك العاصي في ملابسة معصيته** ، وذلك عدل ، وليت شعري ؛ من الذي لم يبارزه بمعصيةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ غير المعصومين ؟ ومع ذلك لم يقطع عنهم إمداده ، ولا حرمهم إسعاف جوده وإرشاده ، **فسبحانه ما ألطفه وأعطفه !!** ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري ( ٧٥٠٧ ) ، ومسلم ( ٢٧٥٨ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فالذي لا يتصور منه الذنب لعدم تكليفه بمن حصل منه ، وإلا . . فالكل مكلَّفون بتكليف القيام بحق الربوبية ولا قائم به ، فما قدرَهُ غيره ؟! فسبحان اللطيف الخبير !! ولي في ذلك :

لا يؤيسنك ما قارفت من زلل ... من استقامتك فإن الله توَّاب
فشأننا دائماً نعصي ممارسة ... وشأنك الفضل منك الدوب سكَّاب

* * *

فالمطلوب من العبد : الاعتدال بين خوفه ورجائه ، وهما حالتان ينشأان عن سببين ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلرَّجَاءِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْخَوْفِ . . فَٱشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ

إذا أردت أيها السالك طريقَ الخوف أن يفتح . . تروِّح علىٰ قلبك بِرَوح الرجاء ؛ لئلا يستولي عليه الخوف فيخرجه إلى القنوط من رحمة الله ، واليأس من روحه ؛ فلفتح ذٰلك الملكوتي سبب .

وأعظم ذٰلك وأقواه : أن تشهد ما منه إليك من الفضل والإحسان ، وسوابغ الرحمة والامتنان ، من غير سبق طلب لذٰلك ولا تعرُّض ، وما يواليك بعد الوجود من الإمداد ، وما أنت عليه من التقصير فيما أمرك ، ومقارفة ما نهىٰ ، وقبول توبة الخطائين وإن عظمت عليهم ، وذٰلك من غير استحقاق لأحدٍ عليه ، ولا في مقابلة عمل ، ولا مستقبل أمل ، بل فضل من الإلٰه المفضال .

وتعبيره بالفتح ؛ لتعلم أنك لن تنال فتح أبواب الغيوب إلا بمعاملات أحوال القلوب ، والشهود لا يكون إلا بالاعتبار والإبصار القلبي ؛ فبالاعتبار يعبر من الشاهد إلى الغائب ، وعند فتح ذٰلك الباب تشرق فيه أسرار أنوار الجمال ، فلا يكاد يتماسك إليها ، ولا يعرج إلا إليها ، فهٰذه أول مبادئ الفتوح ؛ التي من أسرار الجمال تلوح .

وإذا أردت أن تفتح باب الحزن الذي هو علامة الخائفين ، إن خشيت الوقوع في الرجاء حتىٰ يخرجك إلى الأمن من مكر الله والإدلال على الله . . فاشهد ما منك من الذنوب ، والتلطُّخ بقاذورات قبائح العيوب ، وعند فتح ذٰلك الباب يغلب على المريد شهودُ آثار صفة الجلال ، من السلاسل والأغلال ، فيكسبه الذبولَ والاضمحلال ، تحت

محرقات مظاهر الجلال ، فلا يزال كذٰلك حتىٰ يقول لسان حاله منشداً :

فَدَهِشْتُ بَيْنَ جَلالِهِ وَجَمالِهِ وَغَدا لِسانُ الْحالِ عَنِّي مُخْبِرا (١)

فهٰذه دهشة الفناء الكلي عن الوصف الخلقي ، والتعلق بالكمال الحقي ، فيكون لسان الحال عنه مخبراً ؛ كما قال العبد في ذٰلك :

شاهد جمالك يورثني مخالجة تخامر القلب حتىٰ تذهب الفكر
وشاهدات جلالك لا تبين له من حاله شاهد يظهر ولا خبر
وناب عنه كمال الله فاسأله عما بدا لك مجلوٌّ له النظر
إن كنت تطلب أن تشهد جلالته تجد معانيه عمت سائر الفِطَر

* * *

والعبد لا يزال يتحرَّىٰ ما هو الأولىٰ به وأقرب إلى الأدب في حضرة ربه ، فالقبض أصل الحزن ، والبسط أصل الرجاء ، وعنه تظهر على العبد علائمه ، فارتفاعه عن هٰذين الحالين كان نعته ووصف مقامه القبض والبسط ؛ لذٰلك فرَّعَ المؤلف كلامه عليه فقال :

---

(١) البيت لابن الفارض رحمه الله تعالىٰ ، انظر « ديوانه » ( ص ١٧٠ ) .

رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ ٱلْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ ٱلْبَسْطِ :
﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

( ربما ) تأتي للتقليل ، وقد تزاد للتكثير ، وهنا المراد : بـ ( ربما ) للتقليل ، أفادك الظفر بمقصودك ومرادك ، وسكونك في ليل القبض الكفَّ عن مناقضات مقام العبودية ، وهو ـ أي : الكف ـ قسيمٌ للسعي في ابتغاء تحصيل الأوامر ، وقد يؤثرون الكفَّ عن المنهيات ، مع السلامة من الآفات ، على الإتيان بوظائف العبادات ، مع تطرق الآفات ، وتوقع مصائد المهلكات ، وهٰذا نادر ، حيث عبَّر بـ ( ربما ) ، والأغلب أن الابتغاء يصحبه مزيد البركات ، ومفاتح أبواب السعادات .

فالتعبير بـ ( الليل ) للقبض ، وبـ ( النهار ) للبسط .. من أبدع العبارات ، وأوضح الإشارات ؛ فالليل : نعمته السكون ، والنهار : نعمته الابتغاء ، و﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ ، فربما أفاد السكون من السلامة ما لم تستفده في الابتغاء من الغنيمة ، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ ، فهو المقدَّمُ في الرتبة الخلقية ؛ لأن الأصل السكون والكمون ، والأصل في الشؤون الحقية الإشراق والظهور ؛ فلذٰلك كان اعتماد طريق العبودية الكف ، وجلُّ الصفات الحقية الابتغاء والترقي في المعارج الوصفية ، وتعبيره بـ ( رب ) يحققه ما ذكرنا لك من تلك الحكمة المصونة ، والدرة المكنونة .

ومن فوائد القبض الذي يحصل للعبد : ما يورده الحقُّ علىٰ غير مقتضى الطبع وخلاف الهوىٰ من البلايا والمحن ، من عظيم الأجر ، وجزيل العطاء .

**ولي في ذلك :**

فربمـا يسـتفيد العبـد مكرمـةً في ليل قبـضٍ فكن عنِّي بذا خَبِرا

وفـي شـروق نهـار البسـط عافيـة لـم تـدر أيُّهمـا خيـر فتنتظـرا

فكلمـا جـا ففيـهَ ألطـاف خافيـة ونعمـة لـذوي التحقيـق والنظـرا

* * *

فأنـوار تجلـي الحـق سـبحانه غيـر محسوسـةٍ ولا مدركـةٍ بالحواس الظاهرة ؛ أعني أنوار ذاته وصفاته وأفعاله ، وإنما هـٰذه الأنوار التي ترىٰ آثارٌ ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

مطالع الأفلاك الحقية ، والصفات الأزلية ، والنعوت الذاتية . . القلوب المطهرة ، والأسرار المنورة ، التي لم تتلوّث بلوث الأغيار ، ولم تتدنَّسْ بدنس الآثار ، قلوب الأولياء المقربين ، والصفوة الأخيار .

فالقلوب تتلقىٰ واردات المواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، وتتقلَّب في حلل الأسماء الحقية ، والأسرار تتنزَّهُ في رياض الصفات العلية ، وتكرعُ في حياض المناهل الحُبيَّة ، واللطائف القربية ؛ فنجوم العلوم ، وأقمار الإيمان ، وشموس الإحسان والشهود والعيان . . مطالعها القلوب ، وليس لها غروب ، كما تغربُ الأفلاك الحسية ، ويطرأ عليها التغيير ، واختلاف التقدير بين كبير وصغير ، وإلى الفناء تصير .

وأنوار القلوب والأسرار ليس تتغير ، ولم تتلون ، بل هي متمكِّنةٌ في سماوات أعلى الصفات ، وباقيةٌ ليس لها انقطاع ، ولا لورودها امتناع ، تتجلىٰ كل حينٍ بكمالٍ لا يتصوَّر بمثال ، ولا يدخل تحت حيطة الإشكال ، وهـٰذه قلوب عرفت مقاصد الحقائق ، ودقائق الطرائق ، لا يوثقها عن مقصدها العوائق ، ولم تتشبَّث بها ظلم الشهوات وقيود العلائق ، بل سارحة في رياض الأنس ، ومتبوئة فسيح حضرة القدس ، قلوب الأولياء المقربين ، الذين اصطنعهم لنفسه ، فلو بدت أنوارهم ، وأشرقت مصونات أسرارهم . . لتعطَّلت هـٰذه الأنوار الظواهر ، ولولهت فيها العقول والنواظر (١) .

(١) قال الشاذلي قدس سره : ( لو كُشف عن نور المؤمن العاصي . . لطبّق ما بين السماء والأرض ، فما ظنك بنور المؤمن الطائع !! ) . « غيث المواهب العلية » ( ١/٣٣٥ ) .

فسبحان من ستر سِرَّ اختصاصه في خواصِّ عباده ، وأدرج مضيئات أنوارهم وحجبهم عن عباده في أكناف بلاده !! ولي في ذلك :

إن القلوب مطالع نور قدرته ... تطلع عليها طوالع نوره النضرا
كذلك السر يعطيه ويلبسه ... من وصفه العلم هو والسمع والبصرا
فلا تزول وإن زالت شواهدها ... على دوام وجود الله فاعتبرا

* * *

**فأنوار القلوب** مستمدها من أنوار الصفات ، كما تستمد النجوم الفلكية من نور الشمس الحِسِّية ؛ **كما قال المؤلف رضي الله عنه** :

## نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي ٱلْقُلُوبِ ، مُمِدُّهُ ٱلنُّورُ ٱلْوَارِدُ مِنْ خَزَائِنِ ٱلْغُيُوبِ

نورٌ من نور وجوده سبحانه ، هيَّأَهُ لما علم أنه يكون منه وله ، والنور : هو الوجود ، والظلمة : هي العدم ، وهـٰذا نورٌ استودعه القلوب ، وجعله محلَّ خطابه ، وأرضاً لنزول ألوهيته ، ومستقر رحمته ، وظهور منَّته ، وهو المعبَّر عنه بالقلب حقيقة .

والقلب له معانٍ كثيرة ؛ **فعند المحقِّقين** : هو ما ذكرنا من الوجود ، **وعند علماء الطريقة** : هو ما يظهر من آثار الأسماء ، وتنشأ عنه الحركات المدركات الحسية ، الدالة عليه هـٰذه اللحمة الصنوبرية الكائنة في الجهة اليسرىٰ من البِنْية البشرية ، والأطباء في علم التركيب يقفون عند هـٰذه ويسمونها قلباً .

**والكل راجعٌ إلىٰ ما ذكرناه** : أنه نورٌ وجوديٌّ يتلقىٰ ما تجلَّىٰ من أسرار الغيوب ، ويستمد من مجموع الصفات ، **وهو الرَّوعُ الذي يتلقى الأنفاس القدسية** . ويشهد به اللطائف الروحية السماوية ، والحقائق العرشية .

وبهـٰذا ظهر شرف الإنسان علىٰ سائر الأكوان ؛ **إذ لم يسع الحق سواه** ، ولذٰلك قال سبحانه في بعض الأحاديث القدسية : ( ما وسعني سماواتي ولا أرضي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي ) (١) ، فلا تزال الأنوار الوصفية عليه مشرقة ، وفي أرجائه مضيئة علىٰ دوام الديمومية الحقية .

(١) انظر « شرح المواهب » للزرقاني ( ٥/٤٦٧ ) ، وفيه خبر رواه أحمد في « الزهد » ( ٤٢٣ ) عن وهب بن منبه رحمه الله في خبر حزقيل النبي عليه السلام : ( إن السماوات والأرض ضعفن عن أن يسعنني ، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين ) ، **وهي سعة المعرفة** .

ولي في ذلك :

نـور اليقيـن بسـرِّ القلـب مودعـة　　　تمدها من ظهورَ أوصافها الحكم

فمجمـل الأمـر يقبلْـه مشـاهدة　　　بفضلـه فـي معاني أحـرف الكلم

فالنور من نورٍ باطنٍ في القلب تدرك به أسرار الغيوب ، ونور ظاهر من أثر اسمه الظاهر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ

نورٌ يكشف به عن آثاره في أرضه وسمائه ، وفي آفاق جهات مبتدعاته ، وهو من الأنوار العامة الفلكية ؛ كالشمس والقمر والنجوم والفجر والشفق ، وإما محصورة مخصوصة من جملة الحركات الأرضية كالنار ، ولا بد لهاذه الأنوار من نورٍ ظاهرٍ يقبلها ؛ كنور البصر الظاهر ، وهي ـ أي : هاذه الأنوار الظاهرة فيها اعتبار ودلائل للواقفين علىٰ مشاهد الضوء ـ تدلُّ علىٰ وجود موجدها ، وتدحض حجة المعاند لبارئها ؛ كما قال سبحانه في حجة خليله علىٰ من ادَّعى المشاركة في الألوهية حيث قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ وندب العباد إلى النظر في بديع حكمته ، وباهر قدرته في غير آية من كتابه ، هاذا في الأنوار الظاهرة المحسوسة .

ونور باطن مخصوص به ذوو الأسرار الظاهرة ، والأرواح الزاهرة ، والوجوه الناضرة ، التي إلىٰ ربها ناظرة ، وذلك النور هو نور وجوده ، وبه يكشف عن حقائق شهوده في دوام وجوده ، كما كشف بنور البصر الظاهر عن الأنوار الظاهرة ، فإذا لم يكن في الأعيان الظاهرة إبصار . . فماذا تغني عنه الشموس والأقمار ؟! وإذا لم يكن في البصائر الباطنة أنوار . . فماذا يدركه الاستبصار ؟! وماذا يغني عنه ظهور الحقائق والأسرار ؟! ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

فالنور المجعول هو الذي هيَّأه لقبول نور وجوده ، وأهَّله لتجلي

شهوده ، فما يقبل أسرار تجليه إلا حقائق أنوار توليه ، **ولي في ذٰلك** :

نـور الظواهـر يكشـف مـا يؤثـره ... في الكون من سائر الأجسام والصور

ونـور باطن يكشـف غيـب قدرته ... ويشـهد أوصافـه فـي باطـن القدر

* * *

فالأنوار الغيبية والأسرار القلبية آثار اسمه الباطن ؛ كما أن الآثار الخلقية أثر اسمه الظاهر ، فهما في الغيرية سواء لمن يتقيَّدُ بظواهر الآثار ، أو وقف عند مشرقات الأنوار ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** حاكياً عن الوقوف مع ما يظهر له من الأنوار :

رُبَّمَا وَقَفَتِ ٱلْقُلُوبُ مَعَ ٱلْأَنْوَارِ ؛ كَمَا حُجِبَتِ ٱلنُّفُوسُ بِكَثَائِفِ ٱلْأَغْيَارِ

( ربما ) للتقليل ، فقليلٌ من يقف مع غير الله بعدما يكشف له عن صريح العلم ووفور المعرفة ، والقلوب وقوفُها عندما يظهر لها من الآيات ، ويلوح من الكرامات . . حجابٌ ، لكنه حجابٌ نورانيٌّ لطيف .

ووقوف النفوس مع مقتضى الطبع والهوىٰ ، والانغماس في ظلمات الشهوات ، والانقياد للعادات . . **حجابٌ كثيف** ، والنفس من حيث طبعُها الحيواني الأرضي ظلمة ، **فكان حجابها مما يشاكلها** من الشهوات الحيوانية ، والعادات البشرية ، والقلبُ من حيث وضعه نوراني ، **فكان حجابه الوقوف مع الأغيار** ، وإن كانت من قبيل الملاطفات والأنوار .

والوقوف مع غير الله كائناً ما كان . . حجابٌ عنه ، ومطلب الصادقين الفناء عما سواه ، ومن أنفسهم وشهودهم (١) ، وأحوالهم ومعارفهم وعلومهم ، ومقاماتهم وكراماتهم ؛ فلا يقف بهم عن مرادهم مراد ، ولا يوثقهم دون محبوبهم وثاق ؛ **فالمريد سهمٌ خرج عن قوسٍ لا يقف دونَ غرضِهِ** ، وكل ما عارضه من المشغلات . . قطعه ، وكل ما بقي عليه من الحظوظ . . وضعه ، ولا يلتفت عن مقصده ، ولا يقرُّ دون مَحْتِده .

**والخلق في أصل إرادتهم مختلفون** بحسب اختلافهم فيما سبق لهم من الأقسام ؛ **فمنهم** : من لا يقسم له إلا في العمل بمقتضىٰ مقام الإسلام ، **ومنهم** : من يكون مستقر سيره إلىٰ حالة الإيمان .

**ومنهم** : من يكون له شهودُ حضرة الإحسان ، والتحلّي بحلي ملابس

(١) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : ( وعن أنفسهم وشهودهم ) أو بحذف واو العطف ، والله أعلم .

الشـهود والعرفان ، ومبتدأ سـلوك كلٍّ مِن سـرِّ مقامه يحذيه إليه ويزجِّيه فيـه ؛ فـلا يتعدَّىٰ به عنـه ، وكل مقامٍ أعلىٰ . . فقد أحـرز ما دونه ، وزاد بما اختصَّ به من الزلفىٰ .

وكثيـرٌ ممـن يقـف ثـم يتـدارك بعنايـة : إما بأن يكشـف له في سـرّه مـا يزيل التباسـه ، ويحققه بحجبيَّته ، فيأخذ فـي الطلب إلى المقصد ، ومنهم : من لم يكشـف له عن ذٰلك من نفسـه ، ولٰكن يُقيِّض الله له من يأخـذ بيـده مـن ورطته ، ويعرِّفـه أَنْ ثَمَّ مطلباً أرفع ممـا هو مقيمٌ عليه ، ويدنيه الله بواسـطته إليه ، ويرزقه القَبول لذٰلك ، ويقيِّضُ علىٰ يديه من ظهور سرِّ العناية ما يستدل به علىٰ علو مقامه ، وصحة كلامه .

ومنهـم : مـن يقـف ولا يأخـذ ممـن أتـاه ، ولا يهتـدي إلى المقصد المطلوب بنفسـه ، فيبقىٰ يتردَّد في مفازته ، ولم يظفر بمقتضىٰ إرادته ، ولي في ذٰلك :

فربمـا يقف القلب السـدوح علىٰ — مـا لاح لـه مِـنْ بَهَا الأنـوار والعبر
كمـا تقف ثَـمَّ نفسٌ عنـد مطلبها — من حظها الأرضي الموصوف بالغِيَرِ

* * *

فإذا تحققتَ أن أنوار القلوب والسرائر أبهىٰ وأعلىٰ من أنوار الظواهر ، وأجلُّ وأسنىٰ . . فلماذا ظهر الأدنىٰ واختفى الأعلىٰ ؟ كما قال المؤلف منبِّهاً علىٰ حكمةٍ سترها بكثائف الظواهر ، فقال رضي الله عنه :

سَتَرَ أَنْوَارَ ٱلسَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ ٱلظَّوَاهِرِ ؛ إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِٱلْإِظْهَارِ ، أَوْ يُنَادَىٰ عَلَيْهَا بِلِسَانِ ٱلِاشْتِهَارِ

( ستر ) أي : غطَّىٰ وحجب أنوار السرائر التي سبق ذكرها ، التي مطالعها القلوب ؛ كنور الأسماء والصفات ، وتجلي كمال الذات ، علىٰ قلوب الأنبياء والصِّديقين المقربين ، والسادات الأولياء العارفين ، أهل حقِّ اليقين وعينِهِ وعلمِهِ ؛ الذين لو كُشف نورُ أدناهم .. **لغطَّىٰ نور الشمس الذي هو أعظم الأنوار الظاهرة** ، وقد غطىٰ هٰذه الأسرار ، ومشرقاتِ الأنوار بكثيف البشرية تحت أصداف الغيرية[1] ، وحجبها عن النظر بمباني الصور ، **وذٰلك حكمةٌ منه وغيرةٌ علىٰ جنابها** ، وصوناً لحسنها وجمالها أن ينالَهُ غير أهله ، وبقاء علىٰ عرائسها العزيزة ، ومناصبها الحريزة أن يبتذلها الأجناب ، وينتهكها الأسقاب ، **فلا يكشف نقابها ، ويرقىٰ جنابها** إلا مَنْ كان من خُطَّابها ، **ولا يداني صبرها** إلا من كان من أحبابها ، ومرتضعين[2] بأمرِّ أصعابها ، فيغار علىٰ إظهار كل نفيس ، ويصرُّ علىٰ إشهار كل أريس[3] ، **فإشهار ذٰلك وإظهاره لغير أهله** نقصٌ من قدره ، وكل نفيسٍ لا بد له من صوان ، فسبحان العليم الحكيم ، **ولي في ذٰلك** :

سترت أنوار أسرار الوجود كما    يكون كل عزيز القدر محجوب
وذاك حكمة علام الغيوب فما    في حكمة الله في الأشياء معتوب

❁ ❁ ❁

(١) في ( أ ) : ( العبر ) بدل : ( الغيرية ) .
(٢) كذا في ( ب ، د ) ، وغير واضحة في ( أ ) .
(٣) في ( أ ) : ( عن إشهار كل أريس ) بدل : ( علىٰ إشهار كل أريس ) .

وأنــوار الســرائر مجلاهــا وكهف اكتنافهــا قلوبُ الأوليــاء المقربين ، والأبــدال المحبوبين ، أهل عين اليقين ، أهل الشــهود والتمكين ؛ لذٰلك نعتهــم بنعتــه ، ووصفهــم بوصفه لما توالــت عليهم الأنــوار ، وغمرتهم الأسرار ، فكانوا عن نعوتهم وأوصافهم الخلقية فانين ، وبأوصافه ونعوته الحقِّيــة باقيــن ، وبصفاء جمال حضرتــه متصنِّعين [1] ؛ لذٰلك أصفاهم ، قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) غير واضحة في ( أ ) ، وهٰكذا رُمت في ( ب ، د ) ولعل الأقرب : ( متَصفين ) .

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱلدَّلِيلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ حَيْثُ ٱلدَّلِيلُ عَلَيْهِ !! وَلَمْ يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ !!

( **سبحان من لم يجعل الدليل عليهم** ) أي : الأولياء والسادات البدلاء ، والعارفين الأصفياء ، والمقربين الأخفياء ، **تنزَّهَ وترفع أن يوصل إليه بغيره** ، أو يستدل عليه بسواه ، فلم يجعل لأحدٍ إلىٰ معرفته سبيلاً إلا بما تفضَّلَ به ، وتطوّلَ من إفاضة منَّته ، وأسبغ من عميم رحمته ، ما **دلَّ به من سبقت له منه عناية** ، وغمرته منه ولاية ، فأفاض عليه من أنوار ألطافه وأسرار أوصافه ما أشعر بوجوده ، **وحقَّقَ للعارفين شهوده** ، وأمدَّ قلوب أوليائه بأنواره وجنوده ، **فلاحت لهم كواكب العلوم** ، وأشرقت عليهم بدور الفهوم ، وطلعت عليهم شموس المعارف ، **وتجلَّت لهم الحقائق** ، وتنزَّلتْ عليهم من سماوات الأسرار المواهبُ واللطائف ، **فكانوا بها متَّصفين** ، **وبجمالها متمتِّعين** ، فذهلوا عن وجودهم عند تجلِّي شهودهم ؛ فلذٰلك اصطفاهم ، وبحبِّه وسابق لطفه تولَّاهم وأدناهم ، **فكان له من غيرته عليهم ستر** ، وفي ملكوته بين الملأ الأعلىٰ ذكر ، **فنزَّههم بتنزيهه عن أن يوصل إليهم بسبب دونه** ما أوصل به إليه من سابق عنايته وتلطُّفه وولايته ، فلم يوصل إليهم إلا بما يوصل به إليه من لطفه وعنايته .

( **ولم يوصل إليهم** ) أي : إلى التحقق بمقاماتهم ، والكروع في حياض معارفهم ، والدخول في غمار طوائفهم ( **إلا من أراد أن يوصله إليه** ) أي : بالتحقق لمعرفته ، والتمتع بشهوده ومحبَّته ، ويدخله في أهل وُدِّه ، والجذب إلى الترقِّي إلىٰ فسيح حضرته مع خاصته ،

الصالحين لخدمته ، العاكفين بقلوبهم على الإقبال بالغدو والآصال ، المخصوصين بالتولّي والإجلال في جميع الأحوال ، أهل الهمم العوال ، والأدباء في جميع الأحوال والأقوال والأفعال ؛ فمعرفتهم بمعرفته ، ومحبتهم بمحبته ، ووصلتهم بوصلته ، ولكنهم طبقات :

فمنهم : من يظهره الله رحمةً للعباد ، وغيثاً ومربعاً للبلاد ، ويصلح الله بهم الخليقة ، ويوضح بهم المحجة ، ويقيم بهم الحجة على من استكبر وتولىٰ عن الله وأدبر ، فيمشون بين الناس بالنصيحة الخالصة ، ويدعونهم بالكلمة الجامعة ، ويؤلفون العباد على الله ، ويحببونهم إليه ، ويحببونه إليهم ؛ كما ورد بذلك الخبر (١) ، فهم البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض .

ومنهم : من أظهره الله للخاصة دون العامة ، فيه تتعشق أسرارهم ، وإليه تدنو ، وحوله تطوف وتحنو ، وتستمدُّ من روائحه نسائم الوصال ، وتجني من دوحته ثمار الحكمة ، وتقتبس من جذوته الأنوار ، لا تعرفه الأغمار ، ولا تظفر به الأغيار ، ولم تستعبده العوائد ، يبدو لمن أذن الحق له بالتقريب ، وهو عن الأغيار غريب ، وللطالبين قريب ، قد جعل الحق عليه قباباً ، ونصب له في الملكوت محراباً ، وجعل جنود الأنوار له أحزاباً ، والقلوب مآباً ، يسوق الله إليه من أراد من عباده ، ويكتنفه بستر غيرته بين أكناف بلاده ، وهم الذين برؤيتهم يذكر ، وغيره بحضورهم ينكر ، يفرُّون منهم مطموسو البصائر ، كما يفرُّ الخفَّاش من إشراق الشموس البواهر ، لكل أحدٍ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » ( ١٣٠٣ ) في زيادات نعيم ، وبنحوه عند الحاكم في « المستدرك » ( ١/٥١ ) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

عنـد رؤيتهـم مثال ، يظهر عنهم حقيقته ، وتستبين به طريقته .

ولـو أخذنـا فـي وصفهم ، وبسـطنا الكلام في فسيح نعتهـم . . لما وجدنـا إلى الانتهـاء سـبيلاً ؛ لأنه سبحانه ألبسـهم من خلـع أوصافه ، وأفـاض عليهـم من أنـوار ذاته ، فمن الذي يقـدر علىٰ أن ينعت ذٰلك ؟! فمـا يعرفهـم حـق المعرفـة غيره ؛ كمـا أنه واهـب أسـرارهم ، وموضح أنوارهـم ، ومتولِّـي أفعالهـم فـي إقبالهـم وإدبارهم ؛ فهـم أصفياؤه من خليقتـه ، والمخصوصـون بمنَّتـه بيـن بريَّتـه ، أوجدهـم وأوجـد لهـم ، فسبحان المتفضِّل المنَّان ، والمتعطف الحنَّان .

وقـوم أظهرهـم لـه دون أن يظهر لخاصةٍ وعامةٍ ، فلـم يعلم ما بينهم وبينه غيره ، فيغيبون عن الملائكة الكرام ، ولم يعلم بهم أهل كل مقام ، يلقونه بما أودعهم مصوناً فيتولَّىٰ أمرهم ، فلم تظفر بهم الأكوان ، ولم يرهـم الزمـان ، قد سـتروا في كهوف الأمن والأمان ، معشـعش أرواحهم عرش الرحمـٰن ، غائبون عن الأكوان ، مهيَّمون في جمال ذاته ، لا إخبار لهم بسـواه ، ولا يشـهدون في الدارين إلا إياه ، لا تعدو عليهم الأغيار ، ولا تطمع فيهم جنة ولا نار ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر الرحمـٰن .

ومعرفة الأولياء لمن يريد سـلوك منهجهـم واتباع أثرهم من أخص مـا منح به المريد ؛ وذٰلك بأن تطوىٰ عنه الصفات البشـرية ، وتظهر له صفات الخصوصيـة ، وإذا أراد الله حجابه عمن أبعده عن بابه . . طوىٰ سـرَّ الخصوص في صفة البشـر ، كما عنه أخبر عمَّـن كفر وعن الحق استتر : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ ، فمعرفة سـر الخصوصية في الإنسـان غامضٌ عن العيان ، لم يدركه إلا نور إيمان ، وشروق عرفان ، وتحقيق بيان .

وأما معرفة الله . . فيعرفها الثقلان ؛ لما هو عليه من وضوح الظهور الذي لا ينكر ، والتحقيق الذي لا يستر ، الذي بهر عقل من لربوبيته أنكر ، ولألوهيته جحد واستكبر ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لما من سِرّه استأثر ، وطوىٰ من نور خصوصيته تحت سجف البشر ، الذي حجه به صاحب الحجة ، فلو هُدِيَ إلىٰ سرِّ ذٰلك . . لبهرته الشمس الإبراهيمية ، المحجوبة في الصورة الخلقية ؛ إذ لو ظهرت . . لعنت لها هٰذه الشمس الظاهرة ، ولخفيت عندها البدور الباهرة ، **فانظر إلىٰ عظيم قهره ، وعزيز أمره** ، كيف حجب هٰذه وبهت من هٰذه ، فما أعظم غباوة المنكرين لشموس الإنسانية ، والخصوصيات الحقانية ، والتنزلات الرحمانية ، التي تستمد منها سائر العوالم ، وتحيا بوجودها سائر العوالم !!

أرواحهم عمد السماوات العلوية ، وأشباحهم رواسي الأشباح الأرضية ، وأنفاسهم مجاري الأقدار ، وتمتدُّ عنها ساعات الليل والنهار ، وبها تدور الدوائر الفلكية ، وتجري الأرزاق المائية ، إلى الأرواح الهوائية والترابية والمعدنية والنبات والحيوان ، وتثبت بوجودهم الأديان ، وتقوم ظواهر الأبدان مظهر سرِّ رحْمانيته ، ومشهد سر أُنْسه ، **ولٰكنه سبحانه بحكمته ورحمته بخليقته سترهم** ؛ إذ لو أظهرهم وبسرِّه أشهرهم . . لَمَا كان لأحدٍ أن يأتي علىٰ خلاف ما أشاروا إليه ، ولو أتىٰ ذٰلك . . فقد باء بغضب من الله ، ولَمَا كان لأحدٍ عليهم نعمةٌ يتقرَّب بها إليهم ، ولهلك كل من احتقر ، وفي إجلالهم قصَّر في حال وقته ، ولم يؤجر من اصطنع إليهم معروفاً ؛ لأنهم مظهر ألوهيته ، وبواطنهم تجلي هويته .

فأين من تمده ومن أنت تخاطب ؟! وبين يدي من تحاور ، وإلىٰ من أنت ناظر ؟! ولٰكن ستر سرَّ الخصوص عن الأبصار والعيان ، ولم يظهر منه إلا قدر يحصل به الإيمان لمن اختصَّه من عباده .

وإلىٰ ما ذكرنا أشار الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال : ( لو ظهر سرُّ الولي .. لعُبِدَ )[1] فهم العرائس المخدرون في حجال الأنس ، ومخادع الحضرة ، ينظر الله بسرِّ عنايته ، وتوالي أنوار نظرات ، وينادون في الأقطار بالتحيات ، عليهم من الله أفضل السلام والبركات[2] ، تحفُّ بهم المنن والألطاف في السر والعلن ، وتشمل من حضر المواهب السنية ، والفتوحات الهنية ، ولي في ذٰلك :

قوم إلى الملأ الأعلىٰ تشوفهم ... تظهر لهم في رياض القرب آيات

إذا دجى الليل تلقىٰ حين تسمعهم ... إلىٰ مليك لهم في الذِّكر رنَّات

وفي القلوب لواعج شوق سيدهم ... والوجد يبدي ويجري فيض عبرات

تسمع زفيراً إذا أرخوا أعِنَّتهم ... من النحيب وفي أحيان أنَّات

فلهٰذا السِّرُّ العجيب ، والنازح القريب ، والأهل الغريب .. سبَّحَ المؤلف في ذٰلك متعجِّباً ، وله متطلِّباً ، مع أنه ما غاب فيطلب ، ولا ظهر فيعرب ، بل هو الموجود ، وما سواه مفقود .

❊ ❊ ❊

واعلم : أن الاطِّلاعَ علىٰ أضربٍ من حيث الكشف ؛ فمنه : ما هو على الآيات والمعاني ، ومنه : ما هو على الغيوب الخمسة : الغيب

(١) غيث المواهب العلية ( ١/٣٣٥ ) .

(٢) في قولك : ( السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين ) .

العرشي ، والغيب الكرسي ، والغيب الملكوتي ، والغيب الجبروتي ، والغيب السماوي ، وكل غيبٍ من هٰذه الغيوب يظهر شاهده في الدار الآخرة صورةً تشاكله ، وفي عالم الدنيا تظهر صورة ممزوجة بما لا يعطى كشفها على التمام ، فلذٰلك مظاهر في الإنسان والغيب الإنساني ، إذا انكشف . . أدركت فيه سائر العوالم ، وقد يكشف عن العوالم هٰذه ولم يدرك كُنْهَ عالم الإنسان ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَىٰ أَسْرَارِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ ٱلِاسْتِشْرَافَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ

ربما فتح لك وأطلعك وكشف غطاءك ، وفي رياض الملكوت بوَّأك ، وبأسرار تدلِّيه وتولِّيه أسعفك ووالاك ، **وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد** من سوابق الأقدار ، ولواحق الاقتدار ، فيذاع ما ستر(١) ، ويغيبه وعلمه استأثر .

**وأسرار العباد يحتمل أن تكون ما ستر فيهم** من سابقة القضاء المقدور ، والعلم المأثور ، وأن منهم تقياً وكفوراً ، وبراً وفجوراً ، وشاكراً وكفوراً ، ومقرَّباً محبوراً ، ومبعداً مثبوراً ، وقد أودع الله في غيب سرائرهم ومكنون ضمائرهم ذلك ، **فبالاستشراف عليها ينهتك هذا الحجاب** ، وينحلُّ نظام الشرائع ، ويظهر مستورات الودائع ، فينظر بالعلم الموضوع ، والأمر المشروع ، والخبر المسموع ، كما سيصرح بذلك .

**وإما أن يكون المراد بأسرار العباد** من تقدَّمَ ذكرهم ؛ لعزة ظهوره ، فذلك أيضاً جائز أن يراد ، كيف ولو **أطلعك على أسرارهم** ، وحقَّقك بشهود أنوارهم ، ثم غطَّىٰ أمرهم ؟! وكيف لو تحقَّق سرهم ، واستهان شأنهم ؟! لكان ظهورهم على من لم يتأهَّل لمقامهم حجة ، ولكن من رحمته جعل ليل بشريتهم ستراً لنهار ظهور نهار وجودهم ، وغطاءً كثيفاً على شمس شهودهم .

**وأسرار الملكوت** : ما في غيب السماوات ، وما حوته ألفاظ العبارات ،

---

(١) كذا في النسخ الثلاث ، ولعل الأقرب : ( فلا يذاع ما ستر ) .

وأومت إليه الإشارات ، وتصور في مرايا الخيالات ، من العجائب وصور المعاني ولطائف الأرواح ، فهـٰذا كله وغير ذٰلك مما لا يدخل تحت العبارة . . ملكوتٌ .

والأسرار : هي لطائف معانٍ تتشكل علىٰ حسب الأطوار من لطيف وألطف ، فمن الأطوار : النفس والقلب والروح والسر ، وهي تحكي سرَّ العرش ، وسر الكرسي ، وسر السماوات والأرض ، وأسرارُ العباد تتشكل بحسب ما سامتته من العوالم الغيبية ، والعوالم الغيبية تتلقَّىٰ عن الأسماء الحقية ، ولا بدَّ لكل اسمٍ من مشهدٍ في الأسرار ، وأثرٍ في الآثار ، فبحسب تغايرها تتغاير أسرار العباد ، ولي في ذٰلك :

فربما أطلع الله المريد علىٰ ... أسرار ملكوته المحجوب بالأثر

وستَّر الله أسرار العباد لكي ... يراع ما صانه من سابق القدر (١)

فلو بدا من علوم الغيب كامنةُ ... ما بان في الكون للأغيار من أثر

❊ ❊ ❊

فإذا تمكَّن العارف من معرفة الله ، وتحقَّق بصفات الله ، وأن الأشياء المقتضيات مراد الله ؛ لم يَجْرِ شيءٌ في الأكوان علىٰ خلاف إرادته . . علم أن له حكمة فيما قضىٰ ، وعلم فيما أمضىٰ ، فلا يكون معها إلا كما [ أراد ] الله لها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) في ( ب ) : ( يذاع ما صانه من سابق القدر ) .

مَنِ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَسْرَارِ ٱلْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلْإِلَـٰهِيَّةِ . . كَانَ ٱطِّلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَباً لِجَرِّ ٱلْوَبَالِ عَلَيْهِ

مَنِ اطَّلع وكُوشف بأسرار العباد ، وما هم عليه من الحكم المراد فيهم ، مما حتم فعله عليهم من كل فعلٍ يلام عليه العباد ، ويستحقُّ به العقاب والعتب والعذاب من معاصي الله ، التي جرت علىٰ أيديهم أسبابها ، وظهرت منهم اختياراً . . فربما يذهل عن سابق العلم فيهم ، وحكم المشيئة عليهم ، ويكون واقفاً عند ما منهم ، فيداخله عتب عليهم .

وكيف وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلُّق بأخلاق الله ؛ من الرحمة والعطف ، والرأفة والحنان ، بقدر ما عند الإنسان ؟! فمن حقه : أن يرحم المذنبين ، ويعفو عن الخاطئين ، ويكرم الخلق علىٰ قدر ما هم عند الله ؛ فإن الله سبحانه وله الحمد لم يقطع مدده عن العصاة المذنبين ، ولم يعاجل الفجَّار وعتاة الكفار ؛ حلماً منه وصفحاً ، بل يكون رحيماً بالمؤمنين ، راحماً للمذنبين ، يسعىٰ فيما يقرِّبُهم من ربهم ، ويُنفِّرهم عما يباعدهم عنه ، مع ما باطنه عاقد عليه أن الأمر ليس إليهم .

ومن ذلك : ما شوهد من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد علم بتعليم الله له ما كان وما هو كائن [1] ، وكان يكافح وينافح في الله إقامةً لدين الله ، وإحياءً لسنة الله ، ولم يمنعه ما علمه منهم من سوابقهم ، ولا تظنن أن من رضي بالمعاصي والفساد في الأرض أنه

(١) رواه الترمذي ( ٣٢٣٣ ) بنحوه عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

موافق فيه مراد الله ، كلا ، إن الله لا يرضىٰ لعباده الكفر والله لا يحب الفساد .

**وهنا حصل غلط القدرية** ـ قبَّح الله رأيهم ـ فجعلوا الأمر هو المراد ، ولم تكشف بصائرهم عن أن المراد قد يكون من آثاره الغضب كما تكون المحبة ، **فلا يكون عاصياً غير مريد له ، ولا يكون راضياً غير مريد ، فالإرادة كل ما تعلَّقت به . . سُمِّيت به**[١] .

ولله في المراد حِكَمٌ يختصُّ به دون خلقه ، ولهم أثر من ذٰلك ، **يكونون ببواطنهم شاهدين لوصفه وكمال نعته ، وبظواهرهم ممتثلين لأمره .**

**ومن لم يكن كذٰلك** ـ أي : متخلِّقاً بالأخلاق الإلٰهية ـ . . **فاطلاعه فتنةٌ عليه** ؛ لأنه إذا شهد ما من الخلق وغفل عما من الله كما مر . . **كان مدَّعياً ما ليس له من الكمال والعزة والكبرياء** ، فيرىٰ له عليهم فضلاً من غير نظر إلىٰ أن منَّة الله وعنايته هي التي خصصته ، كما أن مشيئة الله في ذٰلك العاصي . . هي التي حكمت عليه بما سبق وحقَّ من كلمته ، **فحقه** : أن يخاف أن يحكم عليه كما حكم عليه ، وأن يقع فيما جرى القدرية عليه ، **فحقه** : الرحمة واللجأ والاستغاثة في أن يحفظه من الوقوع في ذٰلك ، **ويترك الدخول فيما بين العباد وسيدهم** ؛ فحسابهم عليه ، وجزاؤهم عليه ، فله فيهم ودائع ، ولديهم صنائع ، لا يعلم العباد ما هي عليه لتخلُّقه من الرحمة والرأفة والحنان والعطف والامتنان ، ولو علموا ذٰلك . . **لما عصوه** ، ولكانوا لأمره طائعين ، ولجنابه مؤثرين ،

---

(١) **والحاصل** : أن المحبة والبغض والغضب والرضا هي أوصاف لتعلقات الإرادة ، لا للإرادة نفسها ، والتعلق حادث كما لا يخفىٰ خلافاً للصفة .

ولٰكن حجبوا عن ذٰلك بكثيف حجاب الجهل ، فهو يطلبهم وإن أدبروا ، ويرحمهم وإن جفوا ، ويتكرَّم عليهم وإن بخلوا ، وأي فتنةٍ أعظم على الإنسان من رؤية نفسه على خلق الله ؟! وأي بليةٍ ووبالٍ أشد من الدعوىٰ في فعل من الأفعال دون الكبير المتعال ؟!

فإذا لم يتمكن المريد في العرفان ، وكوشف بأسرار العباد .. فربما يكون كشفه سبب البعد والافتتان ، ولي في ذٰلك :

سر العباد مصون لم يشاهده إلا حفيظ على الأسرار يكتمها
ومن رآها ولم يرحم مُلابسها ففتنة ووبال الخزي أقربها

* * *

ولما كانت النفس هي الحجاب الأعظم فيما بين العبد وبين الله ، وما ذاك إلا بما ابتليت به من الحظوظ الظاهرة والباطنة ، فلها في كل شيء حظ .. لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

حَظُّ ٱلنَّفْسِ فِي ٱلْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي ٱلطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ؛ وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَىٰ صَعْبٌ عِلَاجُهُ

**الحظ** : من حيث هو كل ما اطمأنت إليه النفس وسكنت إليه ، وكل حظ مانع عن الوفاء بحق ؛ فالحقوق مطالبة بها النفس لله ، وهي من شأنها النفرة عنه ، والاستنكاف منه وإن كان في ظاهر الحس محبوباً والسعي فيه يسيراً ، والحظ يُستخَفُّ وإن كان مؤلماً ثقيلاً .

**وحظوظ النفس في المعاصي ظاهرةٌ** يعرفها كل أحد ، بل قد تعرف النفس قبحه في حال السعي فيه ؛ فمداواته يسيرةٌ يعرفه كل أحد ، فأي علاج واجهه . . رُجِيَ شفاؤه به من سقم المعصية ، **وحظُّها في الطاعة باطن خفي** لا يعرفه إلا السماسرة الحُذَّاق من أهل الأذواق ، الذين أحرقت كثائفَ ظلمات قلوبهم نيرانُ الأشواق ، فعندما يصفو القلب من لوث الهوىٰ ، ويتحلَّىٰ بحلية الوفاء ، وتعلق بالمولىٰ . . **ظهر له ما استكنَّ فيها من تلابيس الهوىٰ** ، فما يزال الصادقون يتفقدون أحوالهم في تلبُّسهم بأعمالهم ، فكلما رأوا النفس سكنت إلىٰ عمل . . **نقلوها إلىٰ غيره** ، فإن استوت عندها الطاعات وكانت لله . . **لم تستخفَّ أمراً علىٰ غيره إلا لزيادة تظهر لها** ؛ إما بإشارة خفية إلقائية ، وإما بنص بيان ودليل برهان .

**ومن مكايد النفس وخدعها** : المسارعة إلى النوافل قبل أداء ما وجب من الفرائض ، **وطلب أمر كثير** ، وترك أمر قليل ؛ وذلك لحظ يظهر فيه بحسب حظرية ظهورها ، وهٰذا **لأنه لا يظهر لها فيه براءتها** ، فتستخف الكثير الشديد ؛ **لما فيه من حظها الخفي** ، وتستثقل ذٰلك القليل ؛ **لخلوه**

عن الحظ ، ومَن تفقَّد أحوالها وصدق في البحث عن قبيح أفعالها . . وجد أعظم طاعة مشوبة بحظ ومدخولة بهوىً ، إلا ما تفضَّل المولىٰ وتطوَّل به من عفوه الواسع العظيم ، وفضله الفائض العميم .

وكلما كان الداء أخفىٰ وأعضل . . كان العلاج أصعب وأشكل ، ولـٰكن للصادقين عليها شواهد ، وفي سائر الأعمال مقاصد ، لا تزال معايير الحقيقة عليها منهم منصوبة ، ونواظرهم إليها مصبوبة ، فلا تميل عن صوب الحقيقة إلا ظهر لهم اعوجاجها ، وإن كانت فيما تدَّعيه طاعة فيردونها بحسن سياسة إلى الطريقة المثلىٰ ، ويُقوِّمونها على المحجة السمحاء ، فبذٰلك تزكت أحوالهم ، وصلحت أعمالهم ، واستقام لهم النهج القويم ، ومشوا علىٰ صراط الاستقامة سراعاً ، ونصب لهم في سفينة النجاة شراعاً .

وأما من كان مبتلىً بالحظوظ النفسانية ، ومقيداً بالشهوات الحيوانية . . فلا تستقيم لهم الأحوال ، بل ينفخ في غير ضرم ، ويستسمن منها كل ورم ، ولي في ذٰلك :

حظوظ نفسك في العصيان ظاهرة ... مشهورة لا مِرَا فيها ولا جدل

ويختفي عندما تمدح بمكرمة ... على الجهول بما في ذاك من علل

وأغمض من ذٰلك : أن تجتهد في دوائك من عضال دائك ، فتجهل الدواء ، فتنعت بالاسم دون تجربته ، فيكون لقصور فهمك وكلال علمك كما ظننت أنه دواء داء ما له دواء ؛ بأن تستأنف ما أنت فيه وتبتديه ، فتأتي إلىٰ طبيب لبيب أديب يعرف مقاصد الدواء ، وحمية الداء ، وهـٰذا أصعب مما قبله ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا دَخَلَ ٱلرِّيَاءُ عَلَيْكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ ٱلْخَلْقُ إِلَيْكَ

( ربما ) لقلة هٰذا النوع وخفائه ، وقلة من يتفطَّن له ويتيقَّظ ، ودخول الرياء في الأعمال دقيق ، والرياء محبطٌ للعمل ، وصادٌّ عن بلوغ الأمل ، وهـو أعضـل داء يبتلىٰ به المريدون ، ويمـزج العمل على العاملين [1] ، وهـو بقـدر مـا يدخل على الإنسـان منـه . . يدخله فـي النفـاق ، وصِرْفُهُ صرفُ النفاق الذي هو أشـد طرق الكفر والشـقاق ، ومزجُهُ سـيما العصاةِ والفساق .

**والرياء** : هو أن يعمل العملَ الذي يراد به وجه الله لغير الله ، فظاهره أنـه يبتغـي بـه وجـه الله ، وباطنـه يريـد به غيـره ، وهو يجري في سـائر الأعمال الظاهرة ؛ بأن يظهر مثلاً الخشوع وهو غير خاشع ، أو التكرم أو غيره من سائر أعمال البر ، فلا خفاء أن ذٰلك من أقبح الأحوال أن يرائي الناسَ بأعمالٍ هي لله .

**والرياء** : مأخوذٌ من الرأي ؛ وهو الذي يعمل بمرأىً من الخلق لتكون له المنزلة في قلوبهم ، فلا جرمَ يصدق عليه قوله تعالىٰ : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وقوله : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ بصورة العمل له ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بإظهار ما هم بخلافه ﴿ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

**ويضـاده الإخـلاص** ؛ أي : إخـلاص العمـل لله ، فالإخـلاصُ مـؤذن بقَبولـه ، وموصلٌ إلىٰ لقائه ، والرياء المحض محبطٌ ونازلٌ بصاحبه إلىٰ دركات البعد .

---

(١) يمزج : يخلطه فيتغير فيفسد ، ومنه في الحديث : « لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر . . لمزجته » .

وإذا تـوارد الأمـران . . فالأغلـب يكـون أقـرب بالعامل إليـه ، وأبعد عن صاحبه ، ولٰكن يحط في الترقي إلى الدرجات بحسـب ما لابسه ، ويرتفع عن الدركات بحسب ما خالطه ، وإذا استوى الأمران . . تساقطا ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة .

ولـكلِّ طبقـةٍ ريـاءٌ فيمـا هـي فيـه عند مَـنْ يعتـدُّ بـه ، ولٰكن أكثره دخـولاً على القـراء الذين يُكرَمون عنـد الناس ، ويُتبرَّك بهم ، ويسعىٰ لخدمتهم .

**وعلامات الرياء الجلي** . . ظاهر لا يحتاج إلىٰ كثرة بيان ، **وأما الرياء الخفي** . . فله علامات عند أرباب البصائر المنيرة .

**فمـن جملتهـا** : حبُّـه بـأن يعرفه الناس أنـه يحب ألا يعرفـه الناس ، واستشـعاره بتعظيمه عند الناس ، وأن له منزلة علىٰ غيره من خلق الله ، وأنـه مسـتوحشٌ مـن الخلق ، هـاربٌ من شرهم ، ومـا ذاك إلا لغموض عيـوب النفـس عليه ، فلو تفقَّـد غوائلها . . لوجد أن الخلق لم يسـلموا من شره .

فمن ذٰلك ـ وهو أعظمها ـ : سوءُ ظنِّه بعباد الله ، واستحسانه أحوالَهُ ، وقد كان الصادقون يفرحون بمذمة الناس لهم ، ونفرتهم عنهم ، واتخذوا لذٰلك أشياء مباحة تسقط منزلتهم عند العوام .

والسـلامة مـن دقائـق الريـاء عَسِـرٌ جـداً إلا علىٰ مَـن أيَّـده الله بنور التوحيـد ، فيرى الخلـق كالعدم ، لا يرجو منهم نفعـاً ، ولا يخاف منهم ضراً ، فعند إياسه منهم تصفو أعماله ، وتخلص من الشـوائب وإن كان بيـن أظهرهـم ، وما لم يتأيَّدْ بنور المعرفة ، ويشـاهد صـرف التوحيد . . فلا يخلو ، وإن دقَّق وأنصف . . وجده مقيماً علىٰ مقتضىٰ موافقة الطبع

والهوىٰ ، وناظراً إلىٰ حب المدح والثناء ، وطلب الأعواض والجزاء أحسن أحواله .

وقد علمت أن ذٰلك يقدح في إخلاص العبودية لله سبحانه ، حتىٰ يكتب قلمُ اليقين سطورَ الإيمان في دَسْتِ القلب ، فعند ذٰلك يحصل التأييد للروح ، فيخلص عن رؤية الأوهام ، ويوافي الأعمال على التمام ، ولي في ذٰلك :

فربما يدخل الشرك الخفي علىٰ ... مباين الخلق بالأشباح والصورِ
مخالط لهوىٰ حظ يقوم به ... يخامر القلب يطلب رؤية البشرِ

❁ ❁ ❁

**ومن دلائل الرياء الخفي ما سيذكره بعدُ ؛ حيث قال رضي الله عنه :**

## إِسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ .. دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

**استشراف القلب واستشعاره** : إعلام الخلق بخصوصيته ، **والخصوصية** : كل ما اختصَّ الله به عبده من المواهب والمنح ، وما يفتح به عليه من الفهم في العلوم ، وما تفضَّل به عليه من عطائه وإحسانه ، واجتبائه واصطفائه له وتقريبه في غمار أهل حضرته .

**وأصناف الاختصاص لا يحاط بها** ؛ لكثرة وجوهها ، فمتى اختص عبدٌ بخصوصية ، فأحبَّ أن يطلع الخلق عليها .. **فذٰلك دليلٌ علىٰ عدم صدقه في عبوديته لربه** ، ونقص توحيده ، وعدم مزيده ؛ حيث لم يكتفِ بنظر الله إليه ، وشهد الأغيار ، وأثبت الآثار ، وآثرها بالنظر ، واكتفىٰ بها دون الاكتفاء به ، **وكان من حقه أن يكتفي به دون غيره** ؛ فكيف وهو تعالىٰ يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ وهو أن يكتفي بنظر الله دون خلقه .

ومن لم يكن وافر المعرفة ، كامل التوحيد ، ولم يتفقَّد معاهد الإخلاص .. **خيف عليه الانخراط في سلك المبعدين** ، والانزواء في حيِّز الغافلين ، فيصانع الخلق بما ليس فيه ، ويدَّعي من الأحوال والأعمال ما لم يدريه ، ولم يخلص فيه ، فإذا لم يصدق الله في الأحوال .. **وقع في الكذب والتصنُّع** ، وإذا لم يخلص لله في الأعمال .. **وقع في الرياء واتباع الهوىٰ** .

وقد كان الصادقون يظهِرون ما يُحقِّرهم عند الخلق ، ومهما وجدوا إلىٰ إخفاء العمل سبيلاً .. **لم يعلنوه** ، ويبالغون في كتم أحوالهم قدر

إمكانهم ، حتىٰ كان أحدهم تمضي عليه أعصار لم يطلع عليه أهله ، ويبالغون في إسقاط محلهم عند الخلق ؛ هٰذا ما داموا في شهود الخلق .

وأما بعد تحقيق الفناء ؛ فإن أبقاهم . . تولَّاهم ، وإلىٰ كنف ولايته آواهم ، وجعل علىٰ قلوبهم سرادقات عنايته ، وعلىٰ أسرارهم قباب محبته ؛ كيلا يتطرق إلىٰ أسرارهم هوىً ، ولا يخامر قلوبهم رياء ، فأول ما تلمح أسرارهم سرُّ وجوده في الأشياء ، وأجلُّ ما تشهد أرواحهم بها حسنُهُ وبديع جماله ، وأعظم ما تنظر قلوبهم إلىٰ قيوميته ، وفيض اقتداره ، وبلوغ حكمته ، فلا تُرائي ما ليس له في نظرها وجودٌ عند تجلي الحق المشهود ، فيستوي الإخفاء والإظهار ، والإعلان والإسرار ، بل قد يكون بهم لغيرهم اقتداء ، وإلىٰ طريق الحق اهتداء ، فيكون إعلان أعمالهم لهم فيه الزلفىٰ ؛ كما كان للعمل المتعدِّي على القاصر على العامل ما لا يخفىٰ من تضعيفه أبداً ؛ ما عمل به واهتدىٰ .

ومن هنا : لا تنقطع أعمال الأنبياء ، وسادات العارفين ، وأكابر العلماء ، ومرادهم : إن كان ذٰلك إليهم أو لم يكن ؛ كقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ الخفاء ، ولٰكن لما تحقَّقوا بصفو العبودية . . لم يختاروا عليه ، بل هم وقوف على اختياره ، إن أظهرهم وأظهر علمهم . . فهم غائبون عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، شاهدون فعل سيدهم ووصفه ، وتجلِّي أنوار ذاته ، ولي في ذٰلك :

إذا طمعتَ بإظهارٍ تكون به ... عند الخلائق مشهوراً فذاك ريا
فلا دليل علىٰ أمرٍ تكون به ... أدلَّ من شمسِ ظهرٍ في وجود ضيا

**فالخلـق لا يخرجـون عن القلـب إلا بوارِدٍ إلـٰهي يشـهد الحق ويبطل** الباطـل ، ومـا سـواه باطل ، وما لـم يخـرج الخلق عن نظـر المريد . . لـم يتخلَّص من الآفات ، وإذا أظهر الله سرَّ العناية . . **أشـهد أَنْ لا نافع ولا ضارَّ ولا معطي ولا مانع إلا الله** ، فيكون معوَّله علىٰ من بيده ما يرجوه ، ولديه ما يؤمِّله ، ودفع ما يخشـاه ، وأنه عالمٌ بسـرِّه ونجواه ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

غَيِّبْ نَظَرَ ٱلْخَلْقِ إِلَيْكَ ، بِنَظَرِ ٱللهِ إِلَيْكَ ، وَغِبْ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ ، بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ إِلَيْكَ

غيّب شهود تحقيقك ، ودقة علمك ، ووفور فهمك . . نظرَ الخلقِ الذين أصالتهم العدم ، وفصلهم العجز ، وانظر إلىٰ كمال وصفه سبحانه ، وعظيم نعته ، وحقارة مَنْ دونه ؛ بشهود وحدانيته ، وانفراده في مملكته ، وصمدانيته في وحدته ، وكمال ألوهيته ، وإحاطة ربوبيته ، وكن علىٰ نظره إليك معوِّلاً ، ولوحدانيته مشاهداً ، وعلىٰ فضله معتمداً ، وبألوهيته متعلّقاً ، وبصمدانيته واثقاً ، ولربوبيته محتسباً ، ولما منه منتظراً ، وعن الأغيار غائباً ، وعن الحظوظ فانياً ، ولمصائد المهالك مجانباً ، وكن بنظره مكتفياً .

واعلم : بأن من نظر إلى الخلق وطلب رضاهم . . لم يصل إلىٰ غاية ، ولا يرجع إلىٰ نهاية ، فلن يفلح مَنْ ناظرهم ، ولم ينجح من عاملهم ؛ فإنَّ مَنْ طلب رضاهم وآثر جنابهم . . لم يرضوا عنه ، ولم ينصروه ، وأسلموه أحوجَ ما يكون إليهم ، ومن والى الله وناصره وناظره وعامله . . كفاه عنهم ، وصرف أعباء تكلُّفِ مراضيهم ، وأرضاهم عليه .

والصادق لا يبالي إذا صلح حاله ، وحسنت أفعاله بإقبالٍ من الخلق ولا إدبار ، ولا مدح ولا ذم ، بل قد يؤثر ذمَّهم علىٰ مدحهم ، ومباينتهم علىٰ مواصلتهم ، وخشونتهم علىٰ لطفهم ومحبتهم ؛ لما في ذٰلك له من المزيد ، وصفو الوقت عن المكدِّرات والآفات الداخلة علىٰ من انتصب بين الخلق ، وعرف لهم منه القبول ، فيرىٰ عليهم مع كل إنسانٍ حالةً تباين حالة الآخر ، فيحتاج إلىٰ أن يعامل كل إنسانٍ بما يناسب ،

يطـول فـي ذٰلك عناؤه وتعبه ، ويحتاج إلىٰ علم وافر يمشـي عليه يكون لـه صراطـاً علىٰ متن جهنم كل نَفَسٍ ، ويتحفظ عن شـوكها المتخطفة ، وآفاتها المتلقفة .

والغيبـة عـن الأعمـال ؛ فغـب عـن نظرهـم إلـىٰ أعمالـك بنظر الله إليها ، وما يعلمه منها ، فجردها عنده وحققها لديه ، وغِبْ عن إقبالهم وتعظيمهـم لـك علىٰ ما ظهر لهم من حسـن أحوالك بإقبال الله إليك ؛ فأيـن تعظيمهـم مـن تعظيمـه ؟! وما يضـرُّك إذا ذمَّك الخلـق ومدحك الخالق ؟! وما عسىٰ ينفعك إذا مدحك الخلق وذمَّك الخالق ؟! فمدحه لـك يجمع فيها سـائر المحامـد ، وذمُّهُ يجمع عليـك كل المذام ، ولي في ذٰلك :

غَيِّبْ شهود وجود الخلق عن نظرك ... بمشهد الواحد الحق الولي الصمدا

ولا يغـرك إقبـال يكـن خبـرك ... إن الخلائـق لا تسـدي إليـك يـدا

فالله يدنو إلىٰ نجواك في سحرك ... كفاك إن كنت تعقل عنه سرَّ هُدىٰ

* * *

ثـم أرشـد المؤلـف إلـىٰ برهان كلامـه غيبـة الخلق ، بوجـود الملك الحق ، فقال رضي الله عنه :

مَنْ عَرَفَ ٱلْحَقَّ . . شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ . . غَابَ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ . . لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً

هٰذه براهين العارفين ، ودلالات المقرَّبين ، وسيما المحبّين .

**فأما مـن عرف الحق** بالوجود الدائم ، والشـهود اللازم ، وعرفه من طريـق العلم بوجود ذاتـه وصفاته وأفعاله ، وغناه وافتقار الأشـياء إليه افتقاراً اضطرارياً في قيامه إلىٰ مقيم ، **وفي تحريكه وتسكينه** إلىٰ محرّك ومُسـكّن ، **وفي حياته** إلىٰ محيي ، **وفي مماته** إلىٰ مميت ، **وفي وجوده وبقائه** إلىٰ موجد ومبقٍ ، **وفي جموده وكل ما كان من أحواله** ، **لا شـك في أنه إذا حقَّق ذٰلك** العلم ، ونظر إليه بعين التحقيق . . **أن يرى الله في كل شـيء** بالتصريف والاقتدار كيف ما كانت الأحوال ، **وكلما اختلفت** الأطوار والأفعال ، وسر ألوهيته حاكمة ، واستمرار قيوميته دائمة .

**ومن ترقَّىٰ عن ذٰلك** ؛ ففني عن شهوده وأن غيره شهد ، **فيكون العبد محواً في** وجوده ، فيكون هو الشهود والشاهد والمشهود . . **غاب** ـ لا محالة ـ عن الأشياء ، فأين وجود الأشياء عند وضوح تجلِّي مُوجِدها ومُنشئها ؟! فلا يقوم العدم إذا تجلىٰ سِرُّ القدم ، فإذا قارنه . . اضمحل وانمحىٰ عن القلب وهمية وجوده ، وتصور شهوده .

**ومن أحبَّه . . لم يؤثر عليه شيئاً** ، فيعول علىٰ إقباله أو إدباره ، بل يكون بكلية همَّته مجموعاً علىٰ مرضاة محبوبه ، ومنكمشاً في إدراك منيته ومطلوبه ، **فلا يؤثر الأشياء بإقبالٍ أو شهودٍ على الإلٰه المعبود** ، **ولي في ذٰلك** :

مـن كان مشـهده العرفان يشـهده     فـي كل شـيءٍ بـلا حـدٍّ ومقـدار

بل ذاك علم وجود الحق فاقصده　　إن كنت تطلب فاكشف عنه أستار
ومن به قد فني عن كُنْهِ هِمَّته　　غيّب شهود السوىٰ في جنب قهار
ومن أحبَّ إله الخلق يُكسبه　　ألا يؤثر علىٰ حضرتِهِ أغيار

فإذا طلبت أن ترى الأغيار . . لم تَرَ لها وجوداً .

* * *

فإن قلت : إذا لم يكن للأشياء وجودٌ . . فلماذا حُجبت عن الحق بما ليس موجوداً ؟!

فنقول : إنما حجب الحق عنك شدةُ القرب ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

## إِنَّمَا حَجَبَ ٱلْحَقَّ عَنْكَ .. شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ

فما ثَـمَّ حجـابٌ إلا شـدة القُـرب ، كمـا احتجبت صـورة الهواء عن النظـر ؛ لشـدة قربـه ؛ فالبعـد حجابٌ عن الصـور المحسوسـة ، والقرب حجابٌ عن المشاهد ، والحقُّ أنْ ليس ثَمَّ سوى الحق ، فلا غيرَ يطلب ، ولا وجود ينسـب ، ولا بعد يقرب ، ولا قرب يبعد ، بل معيته استغرقت سـائر المشـاهد ، وفني الشهود والشاهد ، فلم يبقَ إلا الموجود الواحد ، فإلىٰ أين تطلب وجوداً زائداً فلا تجد .

فارجع عنك إليه تجده حاضراً ، وإليك ناظراً ، وفيك آمراً ، ولك زاجراً ، فأنت مصدر الحضرات ، وإليك انتهت حقائقها ، ومنك صعود عروج تكويناتها ، في بروج سمائها وأفلاكها ، في تنزيه صفاتها ، وتقديس ذاتها ؛ فلها الإحاطة ، ومنها دوائر المحيطات ، وارتفعت طباق السماوات ، وانفتحت أقفال صور المكونات ، ولي في ذلك :

الحـق حـقٌّ فـلا تخفـىٰ مظاهـره ... وأنـت تطلـب إدراكاً بـلا بصـر
قـد كَلَّ دون شـهود الـذات ناظره ... ففـي الجنـان يُـرىٰ حقاً بـلا صور
فكيـف يـدرك فـي دارٍ دوائرهـا ... تضيق عـن كنه ما يستودع النظر

* * *

فشدة الظهور قد تكون حجاباً في بصر الناظر إلى المنظور ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**إنما احتجب** ولم تدرك العقول كيف احتجب ، ولا يكيف كيفية الإدراك ، فذلك غير مستبعد كما تراه في تأثيره في دائرة الأفلاك ، فكلما كانت أشد ظهوراً ، وأعظم في الإشراق نوراً . . كانت عن التكييف أبعد ؛ وذلك لا لشيء في نفس فلكه ، ولكن لعدم احتمال الأبصار لفائضات نوره ، فلم يقوَ على النظر ، ولم يحتمل شدة الضياء ضعيف البصر ، ولي في ذلك :

فليس ثَمَّ حجابٌ فيه يعتبر ولا ستور محيطات ولا غِيَر
إلا ظهور على الآفاق مشتهر لاحت عجائبه في هيكل الصور

❋ ❋ ❋

فإذا عرفت كماله وكمال صفاته ، ونفوذ إرادته ، وأن علمه السابق ، وحكمه اللاحق . . علمت أن أفعال العباد كلها لا دخلَ لها في إيجادٍ ولا إعدام ، ولا إقدامٍ ولا إحجام ، وقد جعل الله بحكمته البالغة بعض الأمور تقارب بعضها في الوجود ، مثل الظفر بأمر يطلبه العبد ، أو يطلب مثلاً صرفه وقد سبق أنه سيعطيه عند ذلك أو يصرف عنه كذلك ؛ فالدعاء ليس سبباً لوجود عطائه الأزلي ، ولكنه عبادةٌ مستقلة جرت سنة الله أنه يعطىٰ عنده ، وقد يكون الدعاء لأمر ويعطى الداعي به غير ذلك مما هو أصلح له ، فإذا عرفت إنْ دعاؤك . . إلا محضُ عبودية ، فادعُهُ ؛ لأنه أمرك ، قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَباً إِلَى ٱلْعَطَاءِ مِنْهُ ؛ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ ٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَاماً بِحَقِّ ٱلرُّبُوبِيَّةِ

لا يكن طلبك أيها المريد الطالب من الله المزيد ، ففوِّضْ إليه الأمر فيما تريد ، وليكن طلبك ودعاؤك وتضرعك امتثالاً لأمره ؛ حيث ندبك لذٰلك وأمرك ، فقال : ﴿ ٱدْعُونِي ﴾ فكن داعياً له ، وقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ فكن مضطراً بائساً بين يديه ، فانياً عن حظوظك ، فارغاً عن مرادك ، مفوضاً إليه جميع حوائجك ، راضياً بما أنزله بك .

وعلامة من يدعوه كذٰلك : ألا ينتهي دعاؤه ووقوفه بباب سيده ومولاه بما نال من مآربه ، وظفر به من حوائجه ، فإن نقص اضطراره عند ذٰلك وانتهىٰ دعاؤه . . فهو داعٍ لحظه ، لا قائماً بعبودية سيده ، ولا مؤدياً لحق ربوبيته ؛ لأنه لم يزل لك رباً وأنت له عبداً ، ومتىٰ تنفكُّ عنك ربوبيته حتىٰ تترك أنت عبوديته ؟!

وأما من كان عبداً لله . . لا يزايله اضطراره إليه وإن أعطي كل فضيلة وبلغ منتهىٰ كل وسيلة ؛ فهو مضطرٌّ إليه ، ومحتاجٌ لِمَا لديه ؛ فهٰذا مشهد أهل الفهم عنه ، الذين أُيِّدوا بتأييده ، ووقفوا لهدايته وتسديده ، فلا يزالون وقوفاً ببابه ؛ لا يصرفهم عنه وجود عطاء ، ولا يوثقهم دونه ورود بلاء ؛ فعندهم أكبرُ العطايا ساعةَ يشهدون اضطرارهم بين يديه ، ويتحقَّقون بافتقارهم إليه ، فلا يتقيَّد بوجدٍ ولا فقدٍ .

ولقد نبَّهك علىٰ سوء أدبِ مَنْ يدعوه عند نزول بلائه ، ونسيانه عند

كشفه عنه ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

وقال في وصف من دعاه عبوديةً له ووفاءً : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ فذكره بوصف العبودية ، ولم يقل : دعا لكذا ولا من كذا ، بل قال : ﴿ قَامَ ﴾ إشارةً إلىٰ أنه قيام بحق ربوبية سيده ، وبقوله : ﴿ عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ وفاءً بحق عبوديته ؛ فهـٰذا مشهد الفهم عن الله في كلامه ، وتلقِّي ورود إلهامه .

وأما المحجوبون بالحظوظ ، الموسومون بالإعراض في جميع ما يعاملون به الخالق والخلق . . فهم بعدُ محبوسون في مضيق الجهل ، محجوبو العقل ، فنسأل الله حسن الفهم عنه ، ودوام التلقي منه ، ولي في ذٰلك :

إذا سألتَ فكن بالله مشتغلاً عن كل حظٍّ فهـٰذا موضع الأدبِ
وافزع إليه تكن لله ممتثلاً دون أن تنال الذي ترجوه من أربِ

* * *

فالعبد حادث ، وما منه حادثٌ موسومٌ بالحدوث ، والحق قديم ، وأوصافه وجميع أقضيته ومعلوماته . . معلومةٌ له قبل إيجاد أعيانها وبروز ألوانها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه مستشهداً بأن الأفعال الحادثة الخلقية لا توجد إلا وسببُها الأفعالُ القديمة الحقية (١) ، فقال متعجباً ممن يظن ذٰلك :

---

(١) أطلق الأفعال وأراد متعلَّقها من القدرة والإرادة والعلم ، وهي القديمة ، أو أنه نسب الفعل إلى الذات تمييزاً عن أفعال العباد ؛ يعني : أفعال الذات القديمة .

هٰذا مما لا يتصور في العقل ثبوته ؛ فلو كان كذٰلك . . لتصور وجود المتسبَّب عن السبب ، ولا قائل بذٰلك ، ولكان الحادث قديماً والقديم حادثاً ، وذٰلك هوسٌ منشؤه انطماس نور العقل ؛ فالعبد وما منه حادث ، والحق قديمٌ موجودٌ في علمه ؛ أي : معلوماته ، فهو أبداً وأزلاً حضرة علمه مشهودة له بجميع شرائطها وأسبابها ، وأنها ستكون كذا في حال إيجادها وإبراز صورها ، مقارنة لكذا وقتاً ومكاناً وحالاً ، فصح أن : ما الدعاء إلا امتثالاً للأمر .

وقد علم سبحانه أن بعض القضايا مقارن وجودها وجود ذٰلك الدعاء ، وقد يكون المراد من الدعاء عند الله غير المراد منه من العبد ، وما كان من مراد الله . . فهو الأصلح للداعي ، فعليه المثول بين يدي السيد الكريم ، وهو يفعل ما أراده ، لا يُرجِّح مراده علىٰ مراد ، بل يكون راضياً كما سبق ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

فكيف ما كان بالحدثان موسوم ... يكون موجد ما في العلم مرسومُ
هٰذا لعمري لا يحكم به أحدٌ ... إلا خبيلٌ عن التحقيق مزكومُ

* * *

فالأحكام الأزلية لا تنضاف إلى الأسباب الخلقية ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## جَلَّ حُكْمُ ٱلْأَزَلِ . . أَنْ يَنْضَافَ إِلَى ٱلْعِلَلِ

جلَّ وتعظَّم وتقدَّس حكم الأزل الحقِّي ، الذي تسميه الطائفة أزل الآزال ؛ وهو العلم القديم الذي برز من الذات ، فتعين للذات قبل بروز سائر الصفات [١] ، فعلم الحق نفسه ، وعلم أوصافه وأفعاله ، ومؤثرات صفاته وأفعاله قبل بروزها علماً لا يدخله نقص ، ولا مجموع عن فحص ، ولا يتبدَّل بزيادةٍ ولا نقص ، فهو القول الذي لا يبدَّل ، والحكم الذي لا يتحوَّل ، فكيف ينضاف إلى العلل الحادثة ، أو يستند إلى الآراء المتخالفة ؟! تقدَّس عن ذٰلك وتعالىٰ علواً كبيراً ، ولي في ذٰلك :

حكمٌ تقدَّم في الآزال مظهره ... فكيف ينضاف للأغراض والعللِ
فالحكم لله لا يُستَنَدْ إلىٰ سببٍ ... جلَّ الإلٰه عن الآلات والحيلِ
ذو الحول والطول والشأن الرفيع وما ... لا يدرك الخلق جلَّ الله عن مثلِ

❊ ❊ ❊

فالحق سبحانه وله الحمد يرىٰ مقادير الأمور وأحكامها قبل إيجادها ، وظهور أحوالها وأعمالها ، فكيف تستجلب بحيلةٍ أو تنال بوسيلة ؟! لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) قوله : ( سائر الصفات ) أي : من غير ذاته سبحانه وتعالىٰ ، أما ذاته وصفاته . . فقديمة أزلية ، والبروز والتعيُّن بمعنى التجلي ، لا أنها لم تكن ثم كانت ، تعالى القديم وصفاته عن الترتيب الدال على الحدوث ، فهو تقدُّم ذهني لا زمني .

عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ ؛ وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ ؟! لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ ، وَلَا وُجُودُ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ ٱلْإِفْضَالِ ، وَعَظِيمُ ٱلنَّوَالِ

( عنايته فيك ) التي خصصتك ودبَّرت أمورك ، وأظهرتك من محض العدم في سابق القدم ، ( لا لشيء منك ) مما تظن أنه لك موصلاً ، ولسعادتك محصلاً ؛ من أعمالك وصفو أحوالك ، ولا لشيءٍ يرجع إليه منك ، فلا يفتقر في غناه إلىٰ زيادة استكمال بوجود الأعمال ، بل ثبت غناه عن العالمين كلِّ ما يطلق عليه اسم عالم ؛ وهو ما سوى الله .

**فإن قلت** : إن مني إليه عمل زكي ، أو حال مرضي .

**قيل لك** : وأين كنت حين لا حين ؛[ حين ] واجهتك بالإيجاد عنايتُهُ ، وقابلتك بالتخصيص رعايته ، وأنت بعدُ لم تكن شيئاً مذكوراً ؟! فإياك والدعوىٰ علىٰ شيء يكون منك ؛ فذٰلك أقبح وجوه الجهل أنك تنسىٰ كونك عدماً ، واعتنىٰ بك فأوجدك وأوجد منك ولك ، ثم تقول : أنا ومني ولي .

وقد سمعت شاهد ذٰلك في غير آيةٍ من كتابه ؛ فمنها دليل عدميتك قوله عزَّ من قائل : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ بل لم يكن هناك ـ يعني : في الأزل ـ لا حال ولا عمل ، وما هناك إلا محضُ ـ أي : خالص ـ الإفضال ، من غير امتزاج بتوهم علة ، أو سبب سالم عن شوائب الدعاوىٰ ، وتلبس العلل ، فلا أبين من كونه تفضَّل عليك وأنت معدوم لا روح ولا سوح ، وعظيمُ نواله الذي لا يقابل .

ومن جملة ذٰلك : الإيجاد ، وصنوف النِّعم والمنن ، وتوالي الإمداد ،

التـي يعجـز عـن إحصائها غير مُنيلهـا والممتنّ بها ؛ مـن النِّعَم الظاهرة والباطنـة التـي سبقها عميـم كرمـه ، وأوجدها عظيـم طَوْله وإحسـانه ، وأبرزهـا ضافـي منَّتـه قبـل ظهور تركيـب خليقتـه ، بروز اليـوم الخلقي السـماوي والأرضي ، والكواكب والأقمـار ، وظلام الليل وإضاءة النهار ، بـل لـم يكـن في حضـرة العندية الأزليـة ليل ولا نهـار ، كما أشـار إليه الحديـث ؛ أشـار بقولـه : « ليس عنـد ربِّكم ليلٌ ولا نهـار »(١) ، ولي في ذٰلك :

عنايـة الله فـي الإنسـان سـابقةٌ قبـل البـروز ليـوم الخلـق فاعتبـرِ
قـد واجهتـك عنايـةٌ منـه واصلـة وقابلتك مزايا الفضل في السُّورِ

* * *

هٰذا سابقٌ قبل تكوُّنك ، فإذا التفت الخلق إلىٰ هٰذه العناية الحقية في الرقعة البشرية . . دلَّهم ذٰلك علىٰ تخصيص مشيئته ، وقد علم الله العباد قبل إيجادهم ، وعلم ما يكون منهم ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه الطبراني فـي « المعجـم الكبيـر » ( ١٧٩/٩ ) عـن سـيدنا عبد الله بـن مسـعود رضي الله عنه .

عَلِمَ أَنَّ ٱلْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَىٰ سِرِّ ٱلْعِنَايَةِ فَقَالَ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَٰلِكَ .. لَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَى ٱلْأَزَلِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

علم سبحانه بعلمٍ لا يدخله نقص ، غير مكتسب عن فحص نظر ، بل ذٰلك وصفٌ من أوصافه العلية ، ونعتٌ من نعوته الأزلية ، وحضرة العلم أوسع حضرات الصفات ؛ لأنه سبحانه علمه يشمل الواجب والجائز والمستحيل ، ويعلم الأشياء جملةً وتفصيلاً ، ولا يكون لغيره أن يعلم الأشياء على التفصيل .

وقد علم سبحانه أنه يخلق خلقاً ويسمهم بوسم العبودية العامة والعبودية الخاصة ؛ وهم إما روحانيون علويون ، وإما أرواح سماويون عنصريون ، وإما أرواح هوائيون وأرضيون ، وإما أشباح ذوات أرواح آدميون ؛ وهم المراد هنا ـ والله أعلم ـ من كلام المصنف .

فعلم أنهم يتشوَّفون إلىٰ ظهور هٰذه العناية الأزلية ، والرحمة السابقة بالحيل والأسباب ، والترتب بالأحساب والأنساب ، فقال سبحانه كاشفاً عن جهل من توهَّم حصولها بشيءٍ من ذٰلك : ﴿ يَخْتَصُّ ﴾ بمشيئته السابقة ، ومنَّته اللاحقة ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من غير علَّةٍ ولا سبب ؛ فلمشيئته التخصيص لما أتقنه العلم ، فبرزت علىٰ من اختصَّه مقترنة وملتبسة بسببٍ من مظاهر قدرته في أعيان خليقته ، وقد تظهر مجردةً عن التلبُّس الخلقي ، والمزج الوهمي ، فتسميه الخلق وهبياً ، وتسمي الأول كسبياً ، والكل تخصيص أزلي ، لا بعلةٍ ولا لعلة ، ولا لسببٍ ولا بسبب .

وعلم أيضاً سبحانه ما يكون منهم عند ارتفاع هٰذا الحجاب الجهلي

إذا نظروا لها ؛ أي : العناية الأزلية ، وتيقَّنوا أن **الحركات الخلقية لا دخل** لها في إيجاد ، ولا وصول إمداد ، فبقي عليهم من الجهل حجاب خلقي يعتريه من لم يتداركه تأييد ، فيتَّكل علىٰ ذٰلك ، **فيترك الأعمال المقربة التي شرعها الله لعباده** ، ويرفض الشرائع بالكلية ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ التي قسمها وخصَّص بها أسرار العباد ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لله أعمالَهم ، الفانين عن أحوالهم وأفعالهم ، **القائمين لله بالله في كل شيء** ، الشاهدين وجوده قبل وجود كل شيء ، ومع كل شيء ، **لا ينفكون عن ذٰلك المقام** ، يوفُّون العبودية على التمام ؛ **فهي أدلُّ دليلٍ** علىٰ وجود الاختصاص الأزلي ، **بل هي من أعظم ما اختص الله به عباده في سابق مراده** : أن هيَّأهم وأهَّلهم لخدمته ، وهداهم لطريق محبته ، **فلا يرغب عنها إلا كل ذي عقل ناقص** ، وعقب ناكص ، فظهور رحمته ، وعلامة محبته ، وأثر منَّته علىٰ من اختصه بها ، وأهَّله لها إقامته إياه في خدمته ، وتقريبه له في عبادته ؛ كما يشير إلىٰ ذٰلك قوله : ( إذا أردت أن تعرف منزلتك عنده . . **فانظر ماذا أقامك فيه** ) ، **ولي في ذٰلك** :

لما علم جل أن الخلق قائلة بأن ما منه بالأسباب يكتسب
فقال يختص فافهم سرَّ سابقة وهو قريب لذي الإحسان والأدب

* * *

فلو احتاج في انصباب عطاياه إلىٰ سبب . . **لكان ذٰلك نقصاً ؛ ولذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

## إِلَى ٱلْمَشِيئَةِ يَسْتَنِدُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا تَسْتَنِدُ هِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ

إلى المشيئة الأزلية والقدرة الغالبة يستند كل شيء في إيجاده ودوام قيامه ، وجميع ما يصدر إليه ومنه ؛ إذ لو استند شيء إلىٰ غيرها . . لكان لذٰلك الغير من الكمال ما لها ، ويتعالى الله عن أن يكون له ضدٌّ ، أو يماثله نِدٌّ ، أو يكون معه شريك ، أو يوجد له نظيرٌ في ذاتٍ أو صفاتٍ أو أفعال ، بل هو المنفرد بالخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، لا يشذُّ عن قدرته شيء ، فلو احتاج إلىٰ علةٍ أو سبب . . لكان مفتقراً إلىٰ ذٰلك ، وقد ثبت غناه واستحالة النقص عليه .

فكيف يكتسب ما عنده بالأسباب والحيل ، أو ينال ما لديه بعمل ؟! فلا يزيده في كمال وجوده موجودٌ ، ولا ينقص ظهورَ جماله فقْدُ مفقود ، بل لم يزل بنعوت الكمال وصنوف الإفضال مقصوداً .

فإذا تحقَّق العبد ذٰلك . . صحَّ افتقاره ، وحسن انتظاره ، وبرئ عن الدعاوي في جميع حركاته وسكناته ، فكان انتظاره لما عند الله بلا سبب ، فيعلم أن منَّته غير مشوبة بعلة ، ولا مدركة بعُملة ، فتتوالىٰ عليه عند ذٰلك مواهبه ، وتلقىٰ عليه رعايته ؛ وفاءً بقوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وأي شكرٍ يزيد علىٰ أن تعلم أن ما بك من نعمةٍ . . فمن الله بلا واسطة ؟!

ومن جملتها : ما أتحفك به من الطاعات ، وألهمك من صنوف العبادات ، وصرف عنك من قبائح العادات ، ورذائل الشهوات ، وأقالك من الهفوات ، وتاب عليك عند رجوعك إليه بعد اقتحام فظيع المعاصي ، وورود مناهل الهفوات ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

فـلا أهـمَّ للعبد من معرفـة صفات الله وما هو متَّصـفٌ به من نعوت كمالـه ، ومختـرعٌ مـن ظاهـر أفعالـه وقيامـه بذاتـه ، وذوات مبتدعـات خليقتـه ؛ ليعمل لله علىٰ وصـف العبودية المطلوبة لله من عباده ؛ وهي أن يعبـدوه لغيـر طلـب حظٍّ من الحظـوظ العاجلة والآجلـة ، بل لما هو أهلـه مـن الربوبية ، وعظم الألوهية ، ويكـون كلية نظره إلىٰ ما من الله ، هـٰذه أحوال الأدباء .

وأما من غفل عن ذٰلك . . فلا تصفو أحواله عن كدر شوب الحظوظ الجليـة والخفية ، حتىٰ يتداركه الله فيكشـف لـه عن ذٰلك ، فيجدد توبة عن طاعاته ؛ كما يتوب العاصي عن عصيانه ، ولي في ذٰلك :

إلـى المشيئة كل الخلـق يستند     فيمـا بـرزْ عنهمُ مـن ظاهـر القدرِ
ولا لهـا من سـواها فـي الفعال يدٌ     بل ذاك محض اختيار الله ذي القدرِ

❁ ❁ ❁

فإذا تحقَّق العبد أن الأسباب غير مؤثرة في إيجاد ولا إعدام . . فيتحقق أن دعاءه من جملة الأسباب ؛ فربما يستحيي من دعائه في استجلاب ما لا يكتسب بحيلة ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا دَلَّهُمُ ٱلْأَدَبُ عَلَىٰ تَرْكِ ٱلطَّلَبِ ؛ ٱعْتِمَاداً عَلَىٰ قِسْمَتِهِ ، وَٱشْتِغَالاً بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ

وهـٰذا لمن كَمُلَ في المعرفة مقامه ، وكرع من التحقيق تمامه ، فيكون عند تجلِّي السِّر العلي ، وشروق الصبح الأزلي منطوي السر والروح والسوح ، لا يشعر بغير مشهوده ، ولا يعرج علىٰ حظٍّ دون معبوده ، فهمَّتُهُ العيان عن اللسان ، وهـٰذا تحقيق حال من قام بمشهد : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

وأما من كان عاملاً علىٰ مقتضى العلم ، غائباً عن شهود باطن الحكم . . فلا يترك الدعاءَ ؛ كيف وقد ورد : أنه مخُّ العبادة ؟![١] لـٰكن يكون في دعائه فارغاً عن حظوظه ، مشتغلاً بوفاء الربوبية حقَّها ، وإعطاء الألوهية مستحقها ، وتحقُّقاً بافتقاره ، وإظهاراً بين يدي سيده لاستكانته واضطراره .

وبين هاتين الحالتين حالةٌ تسمى الوقت ، ومرادهم : ما تتجلىٰ به الأسماء ، فتكون هـٰذه لأهل القلوب ؛ لأن القلب مظهر تقلُّب الأسماء ، فيكون بحكم ما تجلىٰ عليه منها ؛ فمنها : ما يقتضي السكون تحت جريان الحكم ، ومنها : ما يقتضي الانبساط في بساط الكرم ، ويظهر لهـٰؤلاء شاهد ذٰلك في قلوبهم بإشارات ، فيكونون بحكمها ، وهـٰذه لمن كشف الله عن تجلِّي أسمائه ، ظاهرة في كل مشهود ، متجلية علىٰ كل موجود ، فيرى الخلق مصرَّفين تحت هـٰذه الدائرة ، وأشجار ذواتهم مستمدة من هـٰذه الساهرة ، فاختلفت الأثمار في الأشجار إلى الحلو

(١) رواه الترمذي ( ٣٣٧١ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

والقارِّ ، مع اتحاد مائها ، واستواء أسمائها ، ولي في ذلك :

فربما دل ذو التحقيق والأدب  على السكون عن الإمعان في الطلبِ
منه اعتماداً على إتقانِ قسمته  وشغل ذكر لمشهود ومقتربِ

* * *

فعندما يتحقَّق بالكشف والشهود ، ويرىٰ ما هو سبحانه عليه من صفات الكمال . . يعلم يقيناً : أنه إن دعاه العبد لحظِّه ومستعجلاً لمراده . . فذلك سوء أدب ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْإِغْفَالُ ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ ٱلْإِهْمَالُ

**الإغفال والإهمال** : أمران ينافيان الكمال ، ويُؤْذِنان بالنقص ومماثلة الحدثان ، وذٰلك محالٌ في حقِّه سبحانه وتعالىٰ عما تتوهَّمه القلوب المحجوبة عن العيان ، التي لم تُؤيَّد بنور الإيمان ، وعن كل ما يتخيل إلى النفوس الملومة من أنهم يذكرون الله بما هو مخترع له ، ومعلوم عنده أنه يكون أو لا يكون ، **فلا يُذَكَّر إلا من يجوز عليه الإغفال** ، وهو مستحيلٌ في حقه سبحانه ؛ **لأن الإغفال نقص** ، وقد علمت استحالة النقائص عليه .

**والإغفالُ** يكون للمعلوم ، فبالتذكُّر يذكر ، **والإهمالُ** يكون للموجود الحاضر بالشخص والمعنىٰ ، **فكيف يُهمل** وهو لم يقم إلا بسرِّ قيوميته سبحانه ؟! أو **كيف يُجهل** وهو لم يُخلق إلا بخلقه له ؟! ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ .

**فما يدعو** أهل اليقين إلا مع التفويض والرضا ، والطمأنينة عند مجاري القضا ، فيكتفون بعلمه ، ويستسلمون لقضائه ، وعند حقيقة هٰذا الحال ، وبلوغ هٰذا المنال يكون دعاؤهم بالحال ، من غير سؤال وتحكُّم في حال ، فلا عليه يختارون ، ولا في مملكته يتنازعون ، بل يكونون وقفاً علىٰ مراده ، ونفوذ مشيئته في عباده ، في تقريبه وإبعاده ، وإضلاله وإرشاده ، مؤتمرين لأمره ظاهراً ، مستسلمين لحكمه باطناً ، لا يريدون غير ما أراد ، يأتمرون لأمره وينتهون لنهيه ، مع تبرئهم عن الأحوال والقوىٰ ، وشهود تفرد الحق بالاختراع والإنشاء ، **ولي في ذٰلك** :

فما يُذَكَّر إلا من عليه كذا ... يجوز أن يتصفْ بالنقص والعللِ

ومـــا ينبَّـــه إلا مـــن يغيـــب إذا طرقْـه أمـر سـها عـن حالـه الأولِ

* * *

ومن المريدين الصادقين من لا يدعو في كشف ما نزل به ؛ لأنه في حال نزوله به واقفٌ على باب سيده ، متحقِّقٌ بفقره وذلَّته ، منكسرٌ تحت سلطان عظمته ، متخلِّقٌ بأخص أوصاف عبوديته لخالقه ، وأي حالة أعود على المريدين بالخيرات من الاتصاف بهٰذه الحالات ؟! لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## وُرُودُ ٱلْفَاقَاتِ . . أَعْيَادُ ٱلْمُرِيدِينَ

ورود الفاقات على المريد لطريق الله ، الطالب للقرب من الله . . **عيدٌ وسرور ، وتحف وحبور** ، ولا يكون كذٰلك إلا حيث شهد ورودها من الله ، وفهم فيها أن سيده اختصَّه بمحبته ، ورضيه أن يكون من أهل حضرته .

**وحضرته** : هي أن تحضر نفسك منخلعة عن الحول والقوة ، مفتقرة إلىٰ سيدها ، ذليلة لديه ، منطرحة بين يديه ، ولا يرىٰ لكشف ما نزل بها رافعاً ، ولا دونه نافعاً .

فمتىٰ ورد على المريد ما يوقفه علىٰ هـٰذه الأحوال الشريفة ، والمشاهد العالية المنيفة . . **فقد عاد عليه بعوائده الجميلة** ؛ التي عاد فيها من الإعراض إلى الإقبال ، ومن الانفصال إلى الاتصال ، **فيكون ذٰلك لديهم عيداً** ، ولأحوالهم مزيداً ، سيما وفرحُ كلِّ مريدٍ في نيل مراده .

**ومراد الصادقين** : التحقُّق بذلَّتهم ، والنزول أرضَ مسكنتهم ، والوقوف علىٰ باب مليكهم ، والانطواء تحت كبريائه ، واضطرارهم بين يديه ، وفاقتهم لديه ، وأفراح الصادقين ومسرَّاتهم في إنزال ما بهم علىٰ سيدهم ومالكهم .

**وأما أعياد بني الدنيا الغافلين** ، الذين هم بشهواتهم الدنياوية ، وحظوظهم البهيمية ؛ من المأكل والمشرب والمنكح والملبس . . **فعيدهم بنيل هـٰذه المرادات الفانية** ، والحظوظ العاجلة ، **فما أبعد ما بين الفريقين** !! وما أبون ما بينَ الطريقين !! **ولي في ذٰلك** :

ورود فاقات أهل الصدق في الطلب على الوقوف بباب الله ذي الكرم
كما يكون كذا عيداً لهم فكذا تكون ضداً على الغِرِّ الغبي الفدم

فقد يحزن الصادقون من أهل الإرادة عند دخول الراحة عليهم في الجسم ، وتيسر الأسباب العاجلة ؛ لما يخافون من فوت حظوظهم في الآخرة ؛ لأنه ورد : « ما أعطي ابن آدم من الدنيا حظاً إلا نقص من حظه في الآخرة بقدره » أو كما قال [1] ، إلا سليمان بن داوود عليهما السلام ؛ فإنَّ الله سبحانه قال في شأنه : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

وكان السلف الصالح إذا أقبل الغنىٰ . . قالوا : ذنبٌ عُجِّلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر . . قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ؛ وذٰلك لما يجدون من المزيد في صفاء أحوالهم ، والانشراح في صدورهم ما لو وجده أهلُ الثروة والجد في الدنيا . . لهان عليهم دونها فوت جميع ما هم عليه مكبُّون ، وله من الدنيا محبُّون .

❋ ❋ ❋

وفي الفاقات التي هي التعرُّفات من الله لعبده ما لا يخفىٰ من عظيم الزلفىٰ وكريم الوفا ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » ( ٢٩٧ ) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

# رُبَّمَا وَجَدَ ٱلْمُرِيدُ فِي ٱلْفَاقَاتِ ، مَا لَا يَجِدُهُ فِي ٱلصَّوْمِ وَٱلصَّلَوَاتِ

ربما وجد من ثمرة الفاقة ، وورود المحبة ، ونزول البلية من المريد المبتلىٰ برؤية نفسه وما منها ، في الفاقة ـ التي هي تعرُّفٌ من الحق ، مباينة للهوىٰ ، مؤلمة للنفس ـ من صفو الحال ما لا يوجد في كثيرٍ من الأعمال ، التي أعظمها الصوم والصلاة .

وذٰلك لما يخاف عليه في ذٰلك من دخول الآفات والتباسها عليه ، فيضل سعيه ، وذٰلك مفقودٌ في البلية ، مأمونٌ منه فيها ؛ فلذٰلك كان وجدانه لثمرتها أقرب وأبعد عن تطرُّق الفساد ، وذٰلك في حق المريدين .

وأما المرادون ، والعلماء الربانيون ، والحكماء العارفون . . فسيَّانِ في حقِّهم كل ما يرد من سيدهم .

فكل ما ورد عليهم . . تلقَّوه بما يقتضيه الوقت منهم فيه ؛ إن كان بلية . . تلقَّوه بالصبر ، أو نعمة . . فبالشكر ، وإن كان طاعة . . فبشهود المنَّة فيه ، وإن كان معصية . . فبالاستغفار والتضرع في آناء الليل والنهار .

فهم وقفٌ علىٰ مراد سيدهم فيما يفعله بهم ويورده عليهم ، وقليلٌ ما هم ، أولئك معروفةٌ أسماؤهم ، وظاهرةٌ أوصافهم ، خافيةٌ في الخلق أعيانهم ، عاكفةٌ في العلا ذواتهم ، راتعةٌ في الملكوت أرواحهم ، سائحةٌ في الجبروت قلوبهم ، كارعةٌ في حياض شهود بديع الجمال أسرارهم ، قد شغلهم شهوده عن ورود الواردات الخلقية ، عليهم من الله سلامٌ وتحية .

وَلِي في ذٰلك :

فربمـا يجـد البـادون فاقتهـم ... تربو علىٰ ما صَدَرْ منهم من العملِ
أمـا المـرادون أهل القـرب نالتهم ... مـن ربهم نفحـةٌ تعلو علـىٰ زُحَلِ
لا ينظـرون إلـى الأكـوان همَّتهـم ... أن يدركوا منتهى الغايات في الأملِ

* * *

فالفاقة من المريد إلىٰ سيده أنجح ما يحصل عندها نزولُ الفتوحات الوهبية ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## اَلْفَاقَةُ : بُسُطُ ٱلْمَوَاهِبِ

الفاقة إلى الله وإلىٰ ما منه نعتُ العبّاد والزهّاد ، والعارفين الأفراد ، ففاقة العارفين إلى الله دون شيء آخر ؛ لذٰلك لا تزايلهم الفاقة والاضطرار ، والفاقة إلىٰ ما منه من الفضل والامتنان نعتُ المريدين الصادقين .

وأما غيرهم . . ففاقته موقوفة عند حظه العاجل ، وغالباً يكون ناظراً إلى الأغيار ؛ حيث رآها تجري علىٰ أيديهم ، أو يقارن وجودها وجود موجود آخر ؛ فلقصر النظر ، وطمس البصيرة والبصر . . عمي عن الغير ، واستغنىٰ دون المؤثر بالأثر .

والفاقة : بسطُ المواهبِ علىٰ أرض الفاقة والاضطرار ، تنزل أمطار الأنوار من سماوات الأسرار ، علىٰ ينابيع القلوب فتفيض أنهار العلوم ، وتجري عيون الفهوم ، فتعمر أصلاد النفوس[(١)] ، فتصبح الأرض النفسانية مخضرَّة بما وصل إليها من الألطاف ، ونالها من الإسعاف ، ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

بساط سرِّ المواهبْ إن نظرت كذا ... في فاقة العبد ٱلىٰ إحسان مولاه
فذاك أنجح ما يرجىٰ لديه إذا ... حققته كنت ممن صح رجواه

❊ ❊ ❊

فإذا علمت أن الفاقة بسط المواهب وهي من لازمك . . فما لك ورؤية

(١) الصلد : الصلب الأملس .

الاستغناء ، وتعاطي الكلفة والعناء ؟! فكل من تحقَّق بافتقاره ، وحسن تعلقه وانتظاره .. فهو حريٌّ بأن يعطىٰ أوفىٰ حسابه ، واقتضاء جزائه : ألا يستقصىٰ عليه ، وتصرف عنه عواصف مصادر القضاء ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ ٱلْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ . . صَحِّحِ ٱلْفَقْرَ وَٱلْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛
﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾

إن أردت أيها المتعرِّض لمواهب الله ، المتعطِّش إلىٰ ورود منن الله . . فنفحات الله جاريةٌ لا تنقطع ، ومواهبه متواصلةٌ لا تمتنع ، وما بقي ثَمَّ إلا عدمُ التأهُّل لها ، والميل عن جادة سبيلها ، فإن أحسنت ما هنا . . فهي عليك واردة ، ومنك دانية ، وتصحيح ذٰلك : أن تتحقَّق به وتراه لازماً لك ، ويكون عندك حالاً ونعتاً وصفة ، لا ترىٰ لك من وصف الغنىٰ شيئاً وإن نلت كل شيء .

والفقر مقامٌ شريفٌ من مقامات الرجال ، وهو عندهم من أشرف الخصال ، وأرفع الخِلال ، ولم يتحقَّق بكليته إلا مَنِ استكمل في مقام القرب حاله ، وثبت نور الإيقان في صميم مركزه وشرحه ، وعلامةُ من هو حالته ، وكيفيةُ طريق الصوفية وتفاوتُ درجاتهم وتباينُ أحوالهم إلىٰ فاضل وأفضل . . ممَّا يطول ، ويخرج عن غرض الشرح .

والفقير أسود الوجه أبداً ، والفاقة من لازمه ، ووصفٌ من صفاته ، بل ركنه الأعظم ، وهي أثره علىٰ ظاهر العبد ، وبها يستبين علىٰ من ظهرت عليه ، ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ﴾ الواردات ، والمنح الواصلات ، والرحمات النازلات للفقراء إليها ، والمتعرِّضين لسبيلها ، « إن لله في أيام دهركم نفحات »[١] ، فكونوا لها متعرِّضين .

واستشهاده على الصدقات الحقيَّة ، والمنن الوهبية ، بهٰذه

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » ( ٢٣٣/١٩ ) عن سيدنا محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه .

الصدقـات المفترضة المالية .. مما ينبِّهُ أولـي الألباب ، ويوقف أهل الاستبصار علىٰ شرف الافتقار ، ولطف الملك الجبار بأهل الاضطرار ، وذٰلك شـاهدٌ ظاهر ، وحقٌّ سافر ، لكل مستبصرٍ ناظر ، وصفة الافتقار ما سـيذكره الآن بإثر هٰذه من الأوصاف الخلقيـة ، والتعلُّق بالصفات الحقية ، ولي في ذٰلك :

إذا أردتَورودَ الوهـب والمنـن ... عليـك صَحِّـحْ إليـه الفقـر واعتبر

فيمـا افترضـه إلٰه الخلـق رازقهـم ... في المال فاعبر إلىٰ مقصودنا النضر

❊ ❊ ❊

فإذا تحقَّقت بوصفك .. كنت عبداً أديباً ، ومن حضرته قريباً ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

تَحقَّقْ بِأَوْصَافِكَ . . يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ ، تَحَقَّقْ بِذُلِّـكَ . . يُمِدُّكَ بِعِزَّتِهِ ، تَحقَّقْ بِعَجْزِكَ . . يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحقَّقْ بِضَعْفِكَ . . يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

( **تحقـق بأوصافـك** ) بأن تعلم ما أنت عليه مـن الاضطرار إليه . . ( **يمدُّكَ بأوصافه** ) بـأن يجعل لك بدل كل وصفٍ تكون فيه عنك فانياً وصفاً من أوصافه **تكون به متعلِّقاً** ، وكذا كل اسـمٍ من أسـمائه تعالىٰ **تكون به متخلِّقاً** ما عدا اسم ألوهيته ، **فلا تكن به إلا متعلِّقاً** .

ثم فسر أوصافك التي طلب منك أن تكون بها متحقِّقاً ، وبها متخلقاً التـي من بعضها الضعف والذلة والفقر والعجز ؛ **فكلما تحقَّقت بوصفٍ** من أوصافك . . **مدَّك بوصفٍ من صفاته العلية** ، **التي هي** مستودع مواهبه السنية ، فقال :

( **تحقَّقْ بذُلِّـكَ . . يمدُّكَ بعزَّتِهِ** ) التي أعـزَّ الله بها عباده المؤمنين ( **تحقَّقْ بعجـزِكَ . . يمدُّكَ بقدرتِهِ** ) التي بها بـرزت الأعيان ، وانبرأت صور الأكوان .

( **تحقَّـقْ بضعفِكَ . . يمـدُّكَ بحولِهِ وقوَّتِهِ** ) التي لم يبال بسـوءِ مَنْ كانت له ، ولم تَعْدُ الأسواء علىٰ من انتصبت له .

فـكل مـن كان كذلك طريحاً مسـكيناً ، لم يرَ له دون سـيده ناصراً ، ولا لضعفـه معيناً إلا إيـاه . . **كان لـه بالعـون والنصـرة والمـدد والعزَّة قميناً** .

فنادِهِ بلسان عبوديتك ، وعدم حولك وقوتك ، وبلبس أثواب ذِلَّتك ، واطَّرح في تراب أرض مسكنتك . . **يكون لك بربوبيته متولِّياً** ، وبأسرار محبَّته متدلياً .

**ولي في ذٰلك :**

إن التحقـق بالأوصاف في البشـر ينيلـك الرتبـة العليـاء والأمـل
يمـدك الله مـن أوصافـه فكـذا يكـون كل أديـب صالـح العمـل
فضعـف عبـد مـع فقـر وذلتـه وعجـزه سُـلَّم التحقيـق فانتقـل
عن وصفِ عبدٍ مهينِ الأصل مفتقر إلىٰ جمال الصفات الساميات تلي

❁ ❁ ❁

**والتحقُّق بهٰذه الصفات لا يكون إلا لعبدٍ مخطوب** ، وحَظِيٍّ موهوب ، يكون متحلياً باطناً بالإيمان ، وظاهراً بالإتيان بالعمل علىٰ وفق الأمر ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

## رُبَّمَا رُزِقَ ٱلْكَرَامَةَ .. مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ ٱلِاسْتِقَامَةُ

وهٰذا نــادر ؛ فالكرامــة غالباً لا تُنــال ولا تكون إلا نتيجة حســن الاستقامة ، وكل كرامة ظهرت مع الاعوجاج عن سنن الاستقامة .. فهي من باب المكر والاستدراج ، أعاذنا الله منها .

فالكرامة : هـي ما يظهر من سـرّ القدر علىٰ خـلاف العادة المعتادة ؛ فالنفـوس لهـا متشـوِّفة ، ولشـأنها معظِّمـة ، وهي حقيقـةٌ بذٰلك ، لٰكن الشـأن كل الشـأن فيما يكـرم الله به عباده من مزيد الإيمـان ، ويبادي به قلوبهم من أنوار الإيقان ، ويتحف به أسرارهم من الشهود والعيان ، فلا يلتفتون إلىٰ غير ذٰلك المطلب ، ولا يُعرِّجون علىٰ غير ذٰلك المأرب .

والاســتقامة : هي القيام بالأمــر ظاهراً ، والفناء عــن الأغيار باطناً ، لا يعطــل نور إيمانه شــرائع أعماله ، ولا تغطي دقائـق طرائق أعماله أنوار عرفانه ، قائماً لله ظاهراً ، لا يتجاوزه أمرٌ وإن دقَّ ، فانياً عن سائر أوصافه وأفعاله وإن جلَّ ، لا إحســاس له بنفسه ؛ لاستغراقه في حضرة قدسه ، وتوالي شهود أنسه ، ولا غيبة له عن أمر خالقه .

فالاســتقامة أعــزُّ مقامٍ عند ذوي التحقيق ، وأقصــىٰ مرامٍ عند أولي التوفيق ، لا يطلبون دونها حالاً ، ولا يشتغلون عنها بظهور آية ، فالكرامة كل الكرامــة ما يكون به عنــد الله كريماً ، والإهانة كل الإهانة ما تصير به عنده مهيناً .

وكان من أخلاق الســلف الصالح عدم الالتفات إلىٰ ظهور الآيات ، وإن ظهــرت علــىٰ أيديهم .. فمن باب الاتفــاق ، لا يرون أن ذٰلك كل المطلوب .

والكرامة تكون شاهدةً بحسن الاستقامة ؛ لأنها ثمرتها ، وإن حصلت عنهم أو برزت منهم . . فيكون فرحهم من حيث صحةُ استقامتهم ، لا من حيث بروزُ كرامتهم ، ولهم في ذلك كلامٌ ورونقٌ فيه تشويق إلى النفوذ إلى التحقيق ، يزعجون به المريدين عن السكون إليها ، والاعتماد عليها .

والاستقامة ظاهراً : موافقة الأوامر الشرعية أمراً ونهياً ، وجوباً وحظراً ، كراهة وندباً ، وتخلُّقاً وتكرماً ، وتنزُّهاً وتحفظاً بجميع الجوارح ، باطناً وظاهراً ، قلباً ولساناً ، وعيناً وسمعاً ، ويداً ورجلاً ، وبطناً وفرجاً ، وكُلِّيَةً .

فكل ما حوت هٰذه الجمل هو أحد شِقَّي الاستقامة ، والنظر في الطرف الآخر إيماناً ويقيناً ، وشهوداً وعياناً ، وحفظاً وتأدُّباً ، سراً وروحاً ، وعقلاً وقلباً وكشفاً ، وكمالها : القيامُ بمقتضى الإسلام ظاهراً ، وبمقتضى الإيمان ـ وهو الاستسلام ـ باطناً .

ومن أعطي ذٰلك وجعل يتشوَّفُ إلىٰ غيره . . فهو ناقص الفهم ، أعمى البصيرة ؛ فالاستقامة : حق الحق منك ، والكرامة : حظُّ النفس ، وبها تقضي وطرها من انتشار خبرها ، وظهور أثرها ، حتىٰ إن بعض العارفين يقول : من لم يكن ظهور الكرامة منه كظهور المعصية . . فليس من الصدق في شيء ، أو كما قال ، ولَحالةٌ تكون فيها بحق الله أولىٰ من حالة تكون فيها بحظ نفسك ، كما تقدم معنىٰ ذٰلك أول الكتاب [1] .

---

(١) انظر ما تقدم ( ص ٤٦٠ ) في شرح الحكمة ( ١١١ ) : ( ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه ) .

وكمال الاستقامة باستقامة العبد بكلا شِقَّيها وجمع طرفيها ، ومن كان كذٰلك . . كان من أخصِّ المقربين ، وكُمَّل العارفين ، وأفراد الموحدين ، ومن قام بطرف الظاهر دون إحكام توحيد اليقين . . فهو يُعَدُّ من زمرة أصحاب اليمين ، ومن طمع في نيل باطنها دون إحكام ظاهرها . . وقع في ورطة المعطِّلين ، والجهَّال المغرورين ، ومن تحقَّق بباطنها وأحكم ظاهرها . . فهو من العلماء الربانيين ، والهُداة المهتدين ، جعلنا الله منهم ، ونهج بنا نهجهم ، ولي في ذٰلك :

فالاستقامة أقصىٰ ما يراد ومن لم يسلك السبل لم يستفتح السفر

إن الكرامةْ وإن جلت مراتبها علامة في سلوك السادة الغرر

والاستقامةُ بذرٌ هيْ نتائجها كما نتجْ من فنون الشجرة الثمر

* * *

وللاستقامة المرادة المرضية علاماتٌ وأمارات ؛ ليكون العبد فيها قائماً ، فكل عملٍ تنشأ صورته عن العبد . . فلا اعتبار به دون الله تعالىٰ ، وكل ما أقيم فيه من الله . . فهو الكثير وإن قلَّ صورة ؛ فلذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مِنْ عَلَامَةِ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ لَكَ فِي ٱلشَّيْءِ . إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ ٱلنَّتَائِجِ

فـ ( ـــمن علامـة إقامـة الله للعبد في الشـيء ) الملابس لـه والحالة الراهنة عنده ؛ ليتميز عن مقام الإنسان في الشيء بنفسه ، الذي لا اعتدادَ بـه عنـد ذوي البصائر ، الناظرين بعين التحقيـق في طرائق التدقيق ، من إقامـة الحـق إياك في الشـيء الذي هو عين ما يحصـل به الأدب مع الله حالاً وفعلاً ، وإن تناءت عنه أفهام المحجوبين بالنظر إلىٰ ظواهر الصور بكثيف طبع البشر ، دون النظر إلى الصور الغيبية ، والمعاني الملكوتية .

ولذٰلك علاماتٌ وظواهر أمارات ، فأوضحها وأبينُها : ما ذكره المؤلف رحمه الله من إقامة الحق لك فيه ، وإقامة الحق لا يصحبُها ما يخالف أمرَهُ ويتعدّىٰ حدَّهُ ؛ لئلا يظن ذو جهلٍ أنه قائمٌ في المعاصي بالله أمراً ورضاً ، ولـٰكن قهراً واقتداراً ، وليس المراد هنا إلا الإقامة المرضية الموافقة لأمره ، المحبوبة لديه ، فبها عنىٰ ولها أراد في عبارته .

وعلامـات قَبولهـا ممن أُقيم فيها وأنها عنـده مرضية حصولُ النتائج القربيـة ؛ لأن ثـواب الطاعـات فـي الدنيـا : بتيسير الحسنات ، وفعـل القربـات ، وتوالـي أفعـال الخيـرات ، وفـي الآخـرة : رفـعُ الدرجات في الجنات ، وتوالي المثوبات ؛ فإن أشـكل علىٰ السـالك حاله . . فليعرض هـٰذه الحكمـة عليـه ، فـإن وجد ذٰلك . . فليحمد الله ، وليتخـذ الجِدَّ له مسـاقاً ، وليـداوم عملـه ، ولا يطلب الخـروج عنه حتىٰ يكـون الحق هو الذي يتولّىٰ إخراجه ، وينصب معراجه إلىٰ ما هو أرفع وأقرب عنده ، ولا يزال كذٰلك أبداً ، وليجعل من دعائه : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ .

ومتىٰ كان العبد علىٰ غير ذٰلك ؛ إما بأن يقوم في غير مطلوبٍ منه شرعاً ويقول : إني قائم بالله فيه ، أو يقوم في الشيء بنفسه ويرىٰ حوله وقوّته ، ويغيب عن الله فيما منه وعنه . . فقد أخطأ حدَّ الأدب ، وتعرَّضَ لمواقع العطب ، ولم ينل منه ما طلب ، ولي في ذٰلك :

فمن علامة أن الحق قائدُ مَنْ ... في فعله كل ما يأتيه محبوبُ
إدامةٌ منه تيسيرٌ لذاك وإنْ [(١)] ... يصحبه إنتاج ما هوْ منه مطلوبُ

* * *

فمن كان بشهود ما من الله . . ليس كمن كان بشهود ما منه إلى الله ، وهٰذه علامة علىٰ صحة توحيد السالك ، وبيان ما هو سالكه من الطرق والمسالك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في النسخ : ( إدامة منه ثم تيسير لذاك وإن ) ولا يستقيم الوزن .

مَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِهِ .. أَصْمَتَتْهُ ٱلْإِسَاءَةُ مَعَ رَبِّهِ ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بِسَاطِ إِحْسَانِ ٱللهِ إِلَيْهِ .. لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ

هـٰذا بيانٌ لحالتي الواصلينَ والمجذوبين المحبوبين المرادين ، ويعبَّر عنهم بأهل التعريف ؛ لأن الله ابتدأهم منه بتعريفه وتعرُّفه ، وأهلِ التكليف المريدين المحبين السالكين ، الراحلين إليه من شهود الأغيار وظلمات الآثار ، الحاملين أعباء مشقات مقاساة مجاهدة النفوس ، ومباينة النحوس ، يتسلَّلون عن مضائق الشهوات وضنك الرموس ، يتحرَّون ما هو الأولىٰ في نظرهم ، وما هو الأجدىٰ في فكرهم ، يَزِنون بموازين العقول والنقول ما يأخذون ويَذَرون ، ويرون أن أفعالهم له مملوكة ، وأحوالهم له ممسوكة ، وذلك عند العارفين الفانين عن وجودهم ، الغائبين عن حجاب شهودهم ، المقبلين بكلية بواطنهم وظواهرهم علىٰ ما منه إليهم .

فالأول حال الزهّاد والعبّاد ، تلازمهم الأحزان ؛ فإن وَعظوا أو نصحوا .. نظروا إلىٰ ما منهم إلى الله من المخالفة وقلة الحياء ، فيصمتون لا محالةَ ، ويرجعون إلىٰ نفوسهم بالذم والملامة .

والعارفون ناظرون إلىٰ ما من الله إليهم ، فلا يرون لهم في إيجاد الأفعال وتقويم الأحوال دخلاً ، فتنطلق ألسنتهم كيف كانوا ؛ لفنائهم عنهم .

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه : ( حدثت عن بعض هـٰذه الطائفة ، قال : كان قد بقي في نفسي شيء من القدر ، وكنت أستكشفه من العلماء فلا ينكشف ، حتىٰ قيّض لي بعض الأبدال ، فاستكشفته إياه ، فقال :

ويحك ؛ ما تصنع بالاحتجاج ؟! نحن نكشف سِرَّ الملكوت ، فننظر إلى الطاعات تنزل صوراً من السماء حتىٰ تقع علىٰ جوارح قومٍ فتتحرك الجوارح بها ، وننظر إلى المعاصي صوراً مصورة تنزل بمشاهدة القدر ، وقال أيضاً : كنت قبل أن ينكشف لي مشاهدة علم اليقين ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول : القدر من القدرة ، والقدرة صفة القادر ، فيقع القدر على الحركة فلا تتبين ، فتظهر الأفعال من الجوارح ، أو قال : فتتحرك الجوارح بالأفعال ولا تبين ) اهـ[1] .

فهٰذا مشاهدة أهل التعريف ، وما شاكله من مشاهدة الأفعال على الكشف من الله صادرة ، والعباد فيها كالآلات المسخرة ، فكيف يصمته شيء ليس إليه ولا منه ؟! وإن نسب . . فبحكم العدل ومنع الفضل ، لا أنه له في إيجاد الأفعال قدرة ، والمحجوبون عن شهود ذٰلك في عماء ، يطولون بألسنتهم عندما تظهر لهم الموافقات ، ويخجلون ويصمتون إذا برزت علىٰ أيديهم المخالفات ؛ وذٰلك لأنهم شاهدون لأفعالهم ، ومثبتون لوجودهم ، فهم وإن خرجوا عن ظاهر الشرك . . لا ينفكون عن باطنه .

ووراء ذٰلك : قومٌ احترقت ذواتهم تحت سطوات ظهور الأحدية ، فلم تبق لهم غيبية ولا أينيَّة ، يرون ما منه إليه ، غائبين عن الوجود ، متلاشين في الشهود ، لا إخبار لهم عن أنفسهم حتىٰ يروا منها أو إليها ، فهٰؤلاء أهل التوحيد الخالص عن شوب رؤية الأغيار ، ومزج ظلمة الآثار ، لا يتعثَّرون في أذيال الأفكار ، ولم يقفوا عند جنةٍ أو نار ، بل انتهكت عن بصائرهم الأستار ، وتجلَّىٰ عليهم جمال سيدهم ، وتوالت

---

(١) قوت القلوب ( ١/١٠٢ ) .

عليهم منحه وعطاياه ، وتنزَّل عليهم الألطاف ، **فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم** ما يكلُّ عن وصفه الوصَّاف ، عاينوا صرف الحق كفاحاً ، وأشرق من أفق الشهود صباحاً ، **ولي في ذٰلك :**

فمن يُعبِّرْ عن بسطِ الشهودِ فما يصمُتْ وإن كان في حالِ الجفا أسرا

ومن يُعبِّرْ عمَّا منه ذاك كما تنالهُ خجلةُ الجاني عليهِ تُرىٰ

* * *

**وكل من كان بالله حقيقٌ** أن تطول لسانه ، ولا يصمتها عروض سبب ، أو يصدُّها حصول أرب ، **ومن كان يرىٰ نفسه وأفعالها** ، وسوء اجتراحها وجرأتها ، وتعدِّيها علىٰ حدود سيدها ، واقتحام شهواتها ، واتباع هواها من غير مبالاةٍ منها . . **صمت من سوء ما يراه من اجترائه علىٰ مولاه** ، فهو إن برزت عنه طاعة . . **تكلَّمَ وانبسط** ، وإن حصلت منه هفوة . . **صمت وانقبض** ، وهٰذا حال السالك قبل عثوره علىٰ كنز المعرفةِ بالله التي لا تتعلَّلُ بالعلل ، **فحريٌّ ألا يقبل عنه عند سامعه موعظة** ، ولا تصل إلىٰ قلبه نور حكمة ؛ لِمَا عليها من بقية رؤية النفس .

**والعارف ليس كذٰلك** ، يكون بالله غائباً عن نفسه وصفاتها ، ونسبة أفعالها ، **فيتكلَّمُ بالله** ، فيقبل منه ـ لا محالة ـ قوله ، وتصل إلىٰ قلوب السامعين موعظته ، فينتفعون بذٰلك أتمَّ انتفاع ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

تَسْبِقُ أَنْوَارُ ٱلْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ؛ فَحَيْثُ صَارَ ٱلتَّنْوِيرُ . وَصَلَ ٱلتَّعْبِيرُ

تسبق أنوار الحكماء ، وهي أنوار الحضور الكائنة عند رفع الستور ؛ كنورِ اليقين وعينِه وحقِّه ، الذي محلُّ تنزُّلها الأسرار والأرواح والقلوب ، وهٰذه كلها أسرارٌ غيبية ، وأحوالٌ وهبية ، لا تكون بعمل ، ولا تنال بحيلة ، بل إنما يحظىٰ بها المجذوبون المرادون غالباً قبل وجود تأهُّل منهم لها ، أو تطلُّع منهم إليها ، بل تفجؤهم كفاحاً ، ويلقي عليهم أنفاس الوقت أرواحاً ؛ **فأول ما يقع منهم النظر إلى الوهَّاب** المبتدئ بالامتنان ، ومفيض الفضل والإحسان ، وغيرهم ممن أخذ في طريق الترقِّي في مدارج السلوك ليس كذٰلك ؛ **أول ما رأىٰ نفسه وأوصافها وأفعالها** .

**فالحكيم** : هو العالم بالله دون غيره من سائر علماء الرسوم ؛ لأن شعاره مخافة الله ، وهي رأس الحكمة كما ورد : « **رأس الحكمة مخافة الله عز وجل** » (١) ، وخوف الحكماء من الله صِرْفٌ لا يمزجه خوف سببٍ من الأسباب ، بل خوف اتصاف ؛ كالهيبة بإزاء الجلال ، والانقباض والانطواء تحت سطوات العظمة .

فهٰذا وما جرىٰ مجراه من خوف العلماء بالله المعبَّر عنه بالخشية ؛ إذ هي أعم ، لذٰلك المعنىٰ عنى الله بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وخوف السالكين وطوائف العبَّاد والزهَّاد لأسبابٍ نصبها الله مزعجة لهم إليه ، وسائقة لهم إلىٰ عبادته ، وأسباب مشوِّقة تدعوهم إلىٰ دخول

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » ( ٧٣٠ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

حضرته ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ فافهم الإشارة في قوله : ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ الخاصين بي ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

والحكماء إذا أرادوا أن يتكلموا وقصدوا إرشاد طالب . . فأول ما يفزعون إلى الله في أن يوصل إليه كما وصل إليهم ، فيتكلَّمون مع الخروج عن رؤيتهم في حضرة سيدهم ، فيصل التعبير حيث وصل التنوير ؛ إن كان من أنوار القلوب . . وصل التعبير إلى القلوب ، فانبسطت عليها أنوار الإيمان ، وامتلأت بإشراق الإيقان .

وإن كان من أنوار الأرواح . . وصل التعبير إلىٰ روح السامع ، فيرتاح شوقاً ، ويطرب حباً ، فلا يتمالك الروح عند سماع ذكر الحبيب ، ولا يستقر دون التطلُّع علىٰ أخباره ، فيتدلَّه بذٰلك الروح وسني السوح ، فتبدو لوامع وتلوح ، وتنزل مواهب وفتوح منوح .

وإن كان من أنوار الأسرار العلية . . وصل التعبير إلىٰ سر السامع ، فيستغرق في الشهود ، ويطيح في الوجود ، ويغيب في الشهود عن الوجود ، وتتوالىٰ هناك عليه تجليات أزلية ، وجمالات سرمدية ، تتصل بالعوالم الديمومية ، فما أعجب هٰذه العبارة حيث قال : ( وحيث كان التنوير . . وصل التعبير ) ، ولي في ذٰلك :

السابقون إلىٰ عين اليقين تكن     أقوالهم تبعاً والنور قائدها
فسارعت حيث كان القائلون يكن     للسامعين قِرىً في موائدها

* * *

فالكلام ترجمان الجَنان ، وكل جَنَانٍ مؤيدٌ بنفسٍ رحماني وسرٍّ امتناني . . خرج الكلام مغموراً بالنور ، موجداً عند السامع السرور ، وممنحه غايات الأمانيِّ والحبور ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ ، وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي مِنْهُ بَرَزَ

كل كلامٍ برز من باطنٍ إلىٰ ظاهر . . فهو دليل ما برز عنه من أي اللطيفتين ؛ إن كان من اللطيفة القلبية النورانية الربانية المقدسة عن دنس لوث الأكوان ، وغبار قتر الأغيار . . خرجت صافية رائقة فائقة ، ما صادفت لطيفة مودوعة إلا كانت في الفؤاد غرسة مزروعة ، يصادف منها كل من سمعها سرَّ الحياة ، كما تصادف الأرض عند نزول وابل المطر الحياة ، ولٰكن الأرض بعد ذٰلك تفترق إلىٰ قيعان وأرض طيبة وإخاذات حافظة ؛ كما ورد ذٰلك مستوفى المعنىٰ في الحديث النبوي (١) .

وشاهد ذٰلك عند السامعين ظاهر ؛ فإن الحكمة الواحدة يتكلَّم بها واحدٌ فتقبل منه ، ويتكلَّم بها الآخر فتردُّ !! وما ذٰلك في الحكمة ، وإنما هو بحسب من برزت عنه من الصفاء القلبي ، والكدورة النفسانية ، والظلمة الشهوانية الهوائية الأرضية .

فالشاهد في المعنى الذوقُ الموجود في الكلام ، فما يتميز إلا به ، ويعرف ذٰلك مَنْ زاحم الحكماء ، ومارس كلام العلماء ؛ فإنك تجد في كلام بعضهم ما لا تجده في كلام الآخر مع استوائهما في العبارة ، بل قد يكون من هو أَركُّ في ظاهر اللفظ أقوىٰ تأثيراً في الباطن ؛ وذٰلك لما عنده من وفور اليقين ، وكمال الصحو والتمكين ، وذاك الذي قد تحسن عبارته ظاهراً من غير قوة يقين في الباطن ، وكمال تحقيق تجده دون ذاك .

وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن

---

(١) رواه البخاري ( ٧٩ ) ، ومسلم ( ٢٢٨٢ ) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

عبد الرحمٰن أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون ، وأجد له من التأثير ما لا أجده في كلام غيره من المصنِّفين ، وكثيراً ما يحصل من غيره مذاكرة وأجد القلب عند ذٰلك ساكناً لا يعبأ بها ، فإذا تكلم . . أنصت القلب ، وتعشَّق إلىٰ كلامه تعشُّقاً ذوقياً .

فلو اطلع ذو غباوةٍ علىٰ ما أجده في بعض كلامه . . لعجب مني كل العجب ، فالحمد لله ، فلو أخذت فيما وجدت من كلامه من الفوائد . . لما وجدت لها حصراً ، وبقيت في بقية مدتي أتصفَّحُ كلامه فأجد لها أوجهاً ؛ وذٰلك لما هو عليه من كمال التمكين في مقامات اليقين .

وكان يروي لنا عن شيخه قدوة الأنام ـ المشهود له عند الخاص والعام بأنه الختام ، حسين بن سيدنا الشيخ أبي بكر ، نفع الله بهم ، ونظمنا في سلكهم ، وجمعنا معهم مع الأحبة في دار السلام ـ كلاماً يرويه استخرج منه علوماً لطيفة ، وأحوالاً منيفة ، مع أنه كان ذٰلك الكلام مما يتداوله العوام ، وقد أفردناه في نبذةٍ لطيفة ، فليطلب منها هناك تعثر علىٰ صواب إشاراتهم في بواطن عباراتهم ، ولي في ذٰلك :

إن اللسان دليل السامعين علىٰ ... ما في القلوب من الأنوار مستورُ
فكل قولٍ يجده السامعون يلح ... في القلب فاعلم بأن السر معمورُ
وما يرده بسمع السامعين له ... دليل يخبر بأن القلب مستورُ

❊ ❊ ❊

والإذن من الله لعبده في الكلام أصل النفع ، والإذن لا يعرف إلا بدليلٍ يدلُّ علىٰ أنه مأذونٌ له في الكلام ، مرضيٌّ له في القول ، وكلام غير المأذون لا جدوىٰ له وإن تنمَّقَ وتزخرف ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه منبهاً علىٰ دلالة الإذن :

## مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ . . فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ ٱلْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ، وَجُلِّيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ

مَنْ أُذِنَ له من الواصلين ، والعلماء المحقِّقين ، والسادات المقرَّبين في التعبير عما يجده من كشف العلوم ، وإيضاح الحقائق ، وبيان طرائق الهدىٰ بعد تمكُّنه منها ، وتحقُّقه فيها على المحجة البيضاء ، والحنيفية السمحاء ، الذي لا يدخل فيها ارتياب ، ولم تُغطَّ بكثيف حجاب ؛ بإيصال النفع ، والدعاء إلى الجمع . . فلذٰلك دليلٌ وعلامة .

فعند صاحبه : بأن يجد في سرِّه من الله أمراً لا يمكنه خلافه بأخذه عن الكشف واليقين ، فيتكلَّم بالله لا بنفسه ، ولله لا لهوىً ولا لطلب حظ ، ومن الله أدباً واستنطاقاً واستئذاناً ، وإلى الله التجاءً ولياذاً واعتماداً .

ودليل ذٰلك للمتلقِّي أمورٌ ظاهرة وأمورٌ باطنة ؛ فمن الظاهر : حسن الاستقامة ، واتباع السنة ، والورع والزهد والإنابة ، وغير ذٰلك من شعائر الدين .

والدليل باطناً : بأن يجد لكلامه إساغة وقبولاً ، وفهماً وتعشُّقاً ، وللإشارة فهماً وفتوحاً .

فإذا فهمت العبارة ، وتجلَّتْ لك الإشارة . . فاقبل ولا تُنكر ، فتكون من حيِّز أهل الغرَّة بالله ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعرفُهُ إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به . . لا ينكره عليهم إلا أهل الغرَّة بالله »[1] .

(١) رواه السلمي في « الأربعين » ( ٣٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ولي في ذلك :

علامـة الإذن فـي إظهـار معرفـة للسـامعين أمـور تحتـوي فيهـا
وجـود فهـمٍ لمـا عبَّـرْ مطابقـة ويجتلي من علوم الكشف خافيها

* * *

فإذا لم يكن هناك إذنٌ للمتكلم .. فلا يسوغ لسامع ولا يروق لديه ، بل يخرج وعليه سماجة الهوىٰ ، وظلمة الدعوىٰ ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا بَرَزَتِ ٱلْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ ٱلْأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ فِيهَا بِٱلْإِظْهَارِ

ربما ـ وقليل بروزها مع وجود الهوىٰ إلا نادراً مستعارة من كلام غيرها ؛ كلابس ثوبٍ لم ينسج عليه ، وجالب تحفةٍ لم تُهدَ إليه ـ برزت صورة حقيقة مقبولة من حيث الحكم ، ولٰكنها مكسفة الأنوار ، كما يظلم الكسوف بضوء النهار .

وذٰلك أن شمس السر الكائنة في برج الروح الدائر في سماء القلب لم تُكسَ من نور الكشف ما يظهر به استنارته في آفاقه ، فلا يتبين بوجوده ، ولم يظهر بشهوده أسرار الملكوت ، ولم تتراءَ فيه حقائق الجبروت ، فيكون مكسفاً لا محالة ، فلا تُعرفُ نفاسة الحقائق هنا ؛ لما غشيها من ظلمة أخلاق النفس الأرضية الحيوانية ، وغطّىٰ جمالها من غبار الكثائف الغيرية ، فلو برزت هٰذه الحقائق النفيسة في أرضٍ مشرقةٍ بنور ربها . . لحصل لها القبول ، وحصلت علىٰ كلية المأمول .

فربما تخرج الحقيقة الواحدة على اثنين ، فتقبل من واحد ؛ لما عليه من نور جمال الوصال ، وتردُّ على الآخر ؛ لما عليه من ظلمة الطبع وكثائف الهوىٰ ، وذٰلك مشاهَدٌ بالذوق لمن له قلبٌ حيٌّ يجده لديه عنيداً .

فإذا لم يستكمل أوصاف العرّاف ، ولم يحظَ بورود الألطاف ، ولم تتيسّر له العبارة ، ولم ينكشف له سرُّ الإشارة . . فذٰلك دليلٌ علىٰ عدم الإذن ، وأنه لم يُؤْذَنْ له أن يكشف الحقائق ، ويوضح مشكلات الطرائق ، فيلزم الأدب حتىٰ يأتي له الإذن في ذٰلك ، وعلامته : ما أوضحناه آنفاً ، ومنه تيسير العبارة له في كل ما توجّه إليه ، مع السلامة من الآفات

القادحة في الإخلاص ، فإذا حصل له ذٰلك . . كان كالإذن في إبرازها ، وهو دليل الرضا من الله ، فلو لم يرد لذٰلك . . لم يتيسر له صعابها ، ولم يكشف له نقابها .

وعند نزولها حينئذٍ لا يمتري فيه إلا ذو حسدٍ وعناد ، لم يحظَ بصفو الوداد ، فيقوم معارضاً فيحرق دودة نفسه كمداً ، ولم يجد لباطله من الحق مسعداً ، فيرجع خائباً ، ويصير جده بنار الحق ذائباً .

اللهم ؛ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولي في ذٰلك :

وربما تبرز الأسرار مكسفةً لما عليها من الآثار والغِيَرِ
وذاك فيها دليل أرباب معرفةٍ على استتار وجود الحق بالبشرِ

* * *

وعباراتهم ومصونات إشاراتهم لا يكونون فيها مختارين ، بل لمعانٍ لهم فيها ، فلا يستعجلون وجودها ما لم تظهر الحكمة في ذٰلك ؛ لذٰلك قال المصنف رضي الله عنه :

عِبَارَتُهُمْ : إِمَّا لِفَيَضَانِ وَجْدٍ ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ فَٱلْأَوَّلُ : حَالُ ٱلسَّالِكِينَ ، وَٱلثَّانِي : حَالُ أَرْبَابِ ٱلْمَكِنَةِ وَٱلْمُتَحَقِّقِينَ

عبارة الطائفة فيما يظهرون من مغيبات الأسرار ومصونات الأنوار لأمرين لفريقين ؛ وهم إما سالكون ومريدون ، وإما واصلون متمكنون في أحوالهم ومقاماتهم ، يحكمون على ما يجدونه من المواجيد ؛ لما عندهم من الثبوت في التوحيد .

والعبارةُ عن الحقائق ، وظهور الآيات عند السالكين غلبةٌ وتحكُّمٌ من الوارد عليهم ، فلا يجدون عن التعبير مندوحة ، فيترجمون عن الحال الحاكم عليهم ، وهم عنهم فيما يبرز منهم ، فهم معذورون ، ويصحبهم التأييد والحفظ .

وإن كان على غير ما ذكرنا . . فذلك من سوء أدب المريد ، والتفات منه عن مهيع المزيد ، فيتخلَّف عنه التأييد ، ولا يصحبه التسديد ؛ كما يشير إلى ذلك حديث عبد الله بن عمر ، حيث قال له صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله بن عمر ؛ لا تطلب الإمارة ، فإنك إن طُلِبْتَ لها . . أُعِنْتَ عليها ، وإن طلبتها . . وُكِلْتَ إليها » ، أو كما قال[(١)] .

وأما أهل التمكين . . فإنهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، فلا تغلبهم الأحوال ، ولا يغترُّون بما يغتر به الأغرار والجهال ، فلم يتكلموا عنده لإظهار تعزز ودعوى ، بل يكونون عاكفين بأسرارهم في حضرته[(٢)] ، متأهبين لما يُلقى من سرِّ الخطاب ، ولذيذ المناجاة وشهود

(١) رواه البخاري ( ٦٦٢٢ ) ، ومسلم ( ١٦٥٢ ) قاله لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه .
(٢) في ( د ) : ( بل يكونون حاكمين بأسرارهم في حضرته ) .

الاقتراب ، فلم يلووا عن ذٰلك إلا لإرشاد العباد ، وإيضاح طرق الرشاد ، والدعاء إلى الله على البصيرة المنيرة ، والمحجة المستنيرة ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ، فافهم ـ هديت ـ قوله : ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ . . تعثر على سرّ قوله صلى الله عليه وسلم : « وا شوقاه إلىٰ إخواني » في آخر الزمان [1] ، ولي في ذٰلك :

عبارة القوم عن تحقيق مشهدهم ... إما لغَلْبة حال سكر من شربا

والواصلون لغايةْ نيل مطلبهم ... يفوح منهم عبير يهدي الطلبا

وغير ذٰلك عيب عند سادتهم ... أولي العزائم من ساداتنا النجبا

* * *

فالعبارة : هي ما يعبر عليها من ظاهر الغيب ، ومن لفظٍ لمعنىً ، ومن صورة لسورة ، فلذٰلك افترقت العبارة بحسب افتراق القوابل ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه مسلم ( ٢٤٩ ) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

اَلْعِبَارَةُ : قُوتُ ٱلْعَائِلَةِ (١) ٱلْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ

العبارة تبرز من خزانة الغيب مجملةً ، فتقع على القوابل الفهمية بواسطة ألفاظ محسوس (٢) ، أو إفهامٍ بمعنىً غير اللفظ ؛ إما مشهود ، أو متخيل ، أو متشكل بصورة المحسوس ، فتُوجد عند الواجد لشيء من هٰذه المعاني غيرَ معنىً لطيف ، علىٰ حسب ما عنده من الفهم ، فعَبَرَ من ظاهر اللفظ إلىٰ باطن المعنىٰ ، وهو إما من عالَمِ اليمين والفضل - وهو المراد للمصنف هنا - وإما من عالم العدل ، وهنا يتجه أن يراد به السماع عند الطائفة ، واختلافهم فيه علىٰ طرق شتىٰ .

وأفضل ما سمع عنه وأنصت : القول المعجز البليغ ، الذي احتوىٰ علىٰ مصونات الحقائق ، وتضمَّن نفائس الرقائق ، واجتمعت فيه متفرقات الطرائق ، وهو كلام الله المجيد ، الذي مَن قال به . . صدق ، ومن اقتدىٰ به . . اهتدىٰ .

و( القوت ) في عبارته يشير به إلىٰ ما يَرِد على الأسرار والقلوب من خزائن الغيوب ؛ لأن للأرواح أقواتاً ، وللأشباح أرزاقاً ممزوجة بأقوات وغير ممزوجة ، فالقوت الصِّرْفُ للأرواح العلوية ، والرزق الصِّرْفُ من غير امتزاج بقوت للنفوس الأرضية البهيمية والظُّلَم الشيطانية ، والرزق الممزوج بالقوت للقوالب الآدمية والأسرار الإنسانية ، وإليه - والله أعلم - يشير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم ؛

(١) في ( ب ) : ( قوت العامة ) وكتب فوقها : ( العائلة ) دون إشارة لشيء .
(٢) كذا في النسخ .

**اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[1] أي : صِرْفَ معرفةٍ ومحبة وشهود أو نزول أسرار ولطائف وجود .

فالعائلة المحتاجون إلىٰ فهم هٰذه المعاني اللطيفة والمشاهد الشريفة ، يتلقَّون معاني الغيب بحسن استماع واستكشاف واستجماع ، **فهم أهل السماع المتَّبِعون من القول أحسنه** ، أهل البشارة بما أومت إليه الإشارة ، في طي باطن العبارة ، بالهداية في معاني الوجود بنور إلٰهي ، **المتلقون للفيض الصفاتي بلبابة سويداء القلوب** ، المسامتة للمعنىٰ من غير تحيز أو جهة لروح المعاني ، بل كما يفهمه مَن عرفه .

**فالأقوات مختلفة ؛ فمنها** : ما هو من تجلي الأسماء والأفعال ، فتتلقاه القلوب الزكية النقية ، وتلقيه علىٰ صفحات الصدور ، فتتسع وتنشرح ، **ومنها** : ما ينزل من سماء الأوصاف العلية ، فتتلقاه الأرواح والعقول الصافية الوفية ، **ومنها** : ما ينزل على الأسرار من سواطع الأنوار ، ولوامع مصون مكنون مشهد الأحدية الذاتية ، **وكلٌّ يصلح له ما لا يصلح لغيره ممن دونه** ؛ فالأمزجة الروحانية تحاكي الأمزجة الجسمانية ، فكل مزاج له علاج .

وقد كان المشايخ الصوفية يعبرون للمريدين علىٰ حسب **أحوالهم من اليقين** ؛ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصُّ بعض أصحابه بمزيد كشف ، **ويعمُّ بعضاً** ، ويصفح عن بعض ، **ويعفو عن بعض** ، ويكلم البعض بأقرب ما يكون إلىٰ فهمه ، **ويستكشف عن تحقيق مقالة** بعض ، ويقبل من بعض من غير استكشاف ؛ **لما يرىٰ عنده من وضوح الكشف** ، فلا يسأله عن مصداق قوله ، وحقيقة إيمانه .

**وهٰكذا كان التابعون** يسمعون الكلام الواحد الجامع ، ثم يفترقون

---

(١) رواه البخاري ( ٦٤٦٠ ) ، ومسلم ( ١٠٥٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

في فهمه ، فيعبره كلٌّ بعبارة غير ما عبَّر به غيره من السامعين ؛ كما يتفاوت طعم الماء في طعوم الأشجار إلى الحلو والقار ، مع وحدة الماء واختلاف طبائع الأشجار ، واختلافها إلى البارد والحار ، والرطب واليابس ، والأوراق والأزهار ، وغير ذٰلك .

فالحكمة حاكمةٌ علىٰ من قامت به بعدم الخطأ ، فهي من الحُكم الذي يحكم به الشيء من الانقلاب ، وليس لكل سامعٍ منها إلا ما هو غذاءُ فهمه ، ونتاجُ سابقةِ قسمته ، فلأولي القلوب في إشارات الوجود لطائفُ تناجي بها أسرارهم ، وتتسع أنوارهم ، جعلنا الله ممن فهم عن الله في كل ما واجهه حساً ومعنىً ، ولي في ذٰلك :

إن الحكيم له في الكون متَّسع
يجول في روضة الكشف البهي النضر
فالجسم في الأرض يسعىٰ في مدرعة
والقلب بالعرش يطلُبُ أثرة الحضر
تراه يسري في الأكوان أجمعها
تطوىٰ له مثل طي ٱلياس والخضر
يا من يريد جمالاً من محاسنها
انظر تجد ما يروق السمع والبصر

* * *

فالمقام قد يعبَّر عنه بالكلام من غير وصولٍ إلىٰ حقيقة كشف والكون في حالة الذوق ، ولا يميز إلا لذوي البصائر ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ ٱلْمَقَامِ مَنِ ٱسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَذَٰلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَىٰ صَاحِبِ بَصِيرَةٍ

( ربما عبَّر عن المقام ) أيُّ مقامٍ عبَّر عنه .. صدق عليه ذٰلك ، فلا يختص بمقامٍ معلوم ، ولٰكن الغالب على الصوفية الإشارةُ به لمقامات اليقين ، لأهلِ المعارف الواصلين إلىٰ كشف العيان ، والتمتع بالشهود والعرفان .

ولربما عبر عنه ذو لطيفة وذكاء وهو بعدُ لم يصل إلى التحقق به ؛ وذٰلك لمن وقف عليه دون أن يطلب حقيقة علمه .. مكرٌ وغرورٌ ؛ لأنه يقف به دون أن يطلب مزيداً ، وكثير ممن تُوقِفُ بهم تلك الأمانيُّ ، وتصدُّهم هٰذه الأشجار المورقة من غير ثمار ، فيحرمون المزيد ، فينجرُّ بهم الأمر إلى الرجوع إلىٰ طلب المنزلة عند الخلق ، والتقرب إليهم ، وطلب رفع الصيت لديهم ، فلا ترىٰ ما ينفتح عليهم من قبائح الأفعال ، ورذائل الأحوال ، فيغمرون في غمرة الهوىٰ ، ويتلبَّسون بملابس الدعوىٰ ، ويعرضون عن القُرَب السنية ، والهمم العلية ، وهم يُستدرجون شيئاً شيئاً ، ولا يعلمون ذٰلك ، أعاذنا الله من ذٰلك ، ولطف بنا مما هنالك ؛ فذٰلك لا ينفك عنه سالك ، إلا من لطف به اللطيف ، فتعلق قلبه بالجمال الأزلي ، والمشهد الأسنى العلي ، فيقول لسان حاله :

ألا ليس لي في غير ذاتك مطمعُ ... ولا أربٌ دون اللِّقا ليَ يسنح
ولم تقفِ الآمالُ عنك لموقعٍ ... ولم تشهدِ الأعيانُ دونكَ ملمح

وربما عبَّر عن المقام مَن وصل إليه وتحقَّق به ، وألقيت ملابسه عليه ، وذٰلك ملتبسٌ علىٰ عموم الخلق ؛ فلذٰلك قلَّ نفعهم ، وتفرَّق

جمعهم ؛ لأن المدّعي للمقام والمتصدي للكلام قبل أوان الأهلية .. يقلُّ نفع المستمع له ، ولا يرفع المبتدئَ عن حضيضه الجِبِلِّي إلا نظرٌ سَني ، ونَفَسٌ أقدسي ، عن الأغيار نقي ، وقليلٌ ما هم ؛ **كما أنشد لسان الحال عنهم :**

فذو همةٍ عليا تطيرُ بسالكٍ ... إلى أوجه العلوي ومحتده السني

ويرقى بروح القدس في كل حضرة ... ويوردْ مريداً طِيبَ مشربِهِ الهني

عليه سلام كلما لاح أيكة ... على دوحةٍ تزهو في الريح تنثني

* * *

**وذوو البصائر سماسرة الحقائق** ، نُقَّاد خالصِ الحقِّ من زيفه ، يعرفون المتكلم في الكلام ، ويعرفون السالك في النظام ، **لا يخفى عليهم الحق بتلبيس الباطل** ؛ فبعضهم يعرف الحديث النبوي من كلام الصحابي من كلام التابعي ، وبعضهم يعرف الشريف العلوي بكلامه وإن لم يره ، ويميزون كلامَ أهل كل مقام في فحوى الكلام ؛ **فللصادقين أعلام يعرفها أولو الأفهام** .

ومن الصدق : ألا يتكلَّم المريد السالك إلا بإذنٍ أو غلبة ، كما تقدمت الإشارة إليه ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِمَّا يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ ٱلصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ

( **لا ينبغي للسالك** ) وهو السالك إلى الله على نهج الصدق ، الذي لم يقصد في سلوكه سوى الله سبحانه ، **وكلُّ طالبٍ لمقصدٍ سُمِّي سالكاً في سبيله** ، **وشرف السالك والسبيل** شرف المقصد ، **وأشرف المقاصد** قصد وجه الله ؛ أي : ذاته الكريم ، **وأشرف الطرق** طريق الله ، **وأشرف السالكين** السالك إلى الله ، ولا يستحق أن يسمى سالكاً غيرُه ، وكل سالك لغيره . . **فهو هالك لا سالك** .

**فإذا** وردت على السالك بشائر الوصال ، وسوابق الاتصال من الكبير المتعال ، مما يجلُّ عن المثال ، أو يُكيَّف بمثال ، ويضيق عن إبرازه نطاق المقال ، لا ينزل من حضرة الجمع والإجمال . . **فيحتاج مَن يريد إظهاره** ، ولم يقدر على إضماره إلى العبارة ؛ **ليكشف عنه ستاره** .

وما دام المريد في أوان التخلص عن ظهور النفس ورؤيتها . . **لا ينبغي له أن يبادر إلى التعبير** بما ورد عليه من **ذلك السر المصون** ، والعلم المكنون ؛ لأن في ذلك شهرة للنفس وإظهار فضيلتها ، وبظهورها **يظلم نورها** ، فيقلُّ انتفاعه لا محالة ، ويمنعه وجودَ الصدق مع الله ؛ **لأن الصدق يقتضي** أن يكتفي بنظر الله وعلمه فيه عن نظر المخلوقين ، ويقنع بالله عمَّن سواه من الكونين حتى يراد لذلك ، **وليس كما يظن** ؛ فيكتب في جريدة أرباب الفضول ، الذين احتبسوا في مضايق النقول والعقول ، ولم يشموا رائحة الوصول إلى المأمول ، فنسأل الله **أن يهدينا لما هو الحق عنده** ، والصواب

لديـه ؛ إنه ولي الهداية وواهبها ، ومنيل الفضائل وسائقها .

والمطلوب للمريد : الانتفاع بما ورد عليه ، والازدياد في التحقيق بالصدق فيما لديه ، فإذا عُدم نفع وارده ، وحُرم صدق مراده .. فهو إلى البعد أقرب ، ومن درك الصدق أهرب ، ولي في ذلك :

فالسالك الصدق لا يفشي إلىٰ أحدٍ ... مِـن سـرِّه كل مـا وافـاه مِـن مِنَـنِ
إيـاك تسـتعجلنَّ القـول فيـه إذا ... أردت أن تبلغـن بالسـير للوطـنِ

* * *

فالسالك ـ كما علمت ـ : هو الذي تجرَّدَ عن الأكوان جملةً لطلب المقصد ، وله أحكام في سلوكه : إما أن يكون متجرداً في الظاهر والباطن ، وإما أن يكون متجرداً بالباطن دون الظاهر ، وإما أن يكون متجرداً بالظاهر دون الباطن ، وإما أن يكون مختبلاً بالظاهر والباطن ، وذلك أمره ظاهرٌ لا يحتاج إلىٰ بيان ، ولا يرفع به في طريق القوم شان ، بل يترك وشأنه الذي أُقيم فيه ، ولا يُتعرض له إلا من جهة النصح لعموم الخلق ، وبقي الثلاثة الأقسام ؛ فبيان الصادق منهم .. ما ترجم عنه المصنف حيث قال :

لَا تَمُدَّنَّ يَدَكَ إِلَى ٱلْأَخْذِ مِنَ ٱلْخَلْقِ . إِلَّا أَنْ تَرَى ٱلْمُعْطِيَ فِيهِمْ مَوْلَاكَ ؛ فَإِذَا كُنْتَ كَذَٰلِكَ . . فَخُذْ مَا وَافَقَ ٱلْعِلْمَ

هٰذا معناه ظاهر في بيان الحق من التلبيس بما يتعاطاه الجهّال المفاليس ، الذين صحبوا الدعوىٰ ، واتبعوا الأهوا ، وظنوا أن ذٰلك توحيد ، وليس كما ظنوا ؛ فالتوحيد لا ينافي ثبوت السنة ، بل يؤيدها ؛ فلذٰلك بيّن حال الصادقين عن المُدَّعين بقوله : ( لا تمدنَّ يدك إلى الأخذ من الخلق ) إن كنت صادقاً ؛ لأن ذٰلك ينافي الصدق في التوحيد ، ويناقض الثبوت على التجريد : أنك تطلب المراد وتفتقر إلى المريد ، وتطلب التوحيد وتُثبت التعديد !!

فلا تمدَّنَّ يدك بسؤالٍ إلىٰ غير الكبير المتعال ، فعنده تقف المطالب والآمال ، وإليه يرغب العباد في السؤال ، فإن كنت متجرداً ظاهراً دون الباطن . . فعلامته الافتقار إلى الخلق ، والتذلل لهم ، وابتذال المروءة من أجلهم ، والتعبد لهم ، وانتظار ما يصدر منهم وعنهم ، فيمدحهم لما يجريه الله له علىٰ أيديهم ، ويذمُّهم إذا لم يقدِّر له عندهم ، وينالُ أعراضهم بالغِيبة والتنقيص والشتم إذا وصله أذىً علىٰ أيديهم ، وذٰلك دليلٌ علىٰ إظلام سريرته ، وانطماس بصيرته ، ولا يخفىٰ رداءة هِمَّة مَن هٰذا وصفه .

وبقي قسمان : فسالكٌ متسبِّبٌ ظاهراً ومتجرِّدٌ باطناً ؛ وذٰلك لصحة توحيده ، لم يختر على الله ، بل اختار ما اختار الله له في أي حالةٍ أقامه فيها ، ولم يذمها عليه لسان الشرع ؛ فالذي يطلب التجرُّد من غير أن يراد له . . مستعجل للراحة ، ولا يحصل له المطلوب منه ؛

**لأنه قام فيه بنفسه** ، وكل ما قام فيه بها . . لا يتم .

ولا فرق عند أرباب الفهم في الفضل بين القائم في الشيء بالله والخارج عنه بالله ، **ولا في قِلِّ أدبِ** الخارج عن الشيء بنفسه والقائم فيه بنفسه ؛ وذلك إذا علمت أن الله سبحانه قدَّر في سابق علمه أن يقيم خلقاً في دارٍ ، ويلازمهم فيها الاحتياج إلىٰ أرزاق قدَّرها لهم وحكم عليهم بها ، وبها يظهر سرُّ قهره وغلبة أمره فيهم ، **وهلذه الأرزاق** منها : ما يأتي بتسبُّب وسعي في طلبها ، ومنها : ما يأتي من غير تسبُّب ولا سعي .

**فالأول** : يقام فيه المتسبِّبون ، وهو حالهم ، فيحتاجون فيه إلى العلم بما يأخذون وما يذرون ، ما يحلُّ أخذه ويجب تركه ؛ فكل من أراد أن يتسبَّب بسببٍ . . **فلا بدَّ له فيه من علمٍ** يكون فيه محسناً ، وفيه متأدِّباً ، وإلا . . وقع في ورطات الحرام ، ومهالك الجهل ، **وعلامته** : حصول النتائج من أعمال البر ، وإيصال ما أمر الله به أن يوصل .

وأما ما يأتي بلا سببٍ ولا سعي . . فهو رزق المتجرِّدين ، ولهم أحكام وآداب ، فمن حكم المتجرد الصادق : ألَّا تتعدَّىٰ همته مولاه الكريم ، ولا تستشرف نفسه إلى المخلوقين ؛ **فذلك قدح في توحيده** ، وشرك في تفريده ؛ فقد يأتيه عدوُّه ويحضُّه على التعلُّق بالمخلوقين ، وطلب الرزق من المسترزقين ، **فيحتاج قوةَ يقينٍ يدفع بها تسويلاته** ، ويحتجُّ بها عليه بحججٍ قاطعةٍ له عن مناوأته ، وليس ذلك إلا بصدق التوكل ، وقوة اليقين ، ونفوذ العزيمة ، وعلو الهمة إلىٰ جناب مَنْ بيده ملكوت كل شيء ، وعنده خزائن السماوات والأرض ، **ويرىٰ عجز الخلق عن أن ينفعوا نفوسهم** ، فضلاً عن غيرهم ، **فيعتمد ـ لا محالة ـ علىٰ**

عميم فضله ، ويستند إلىٰ منيع جنابه ، وينتظر رفع ما نزل به من الفاقة ، ودفع ما ألمَّ به من البلاء من سيده ، لا يتعدَّىٰ إلىٰ غيره .

ومن علامة ذٰلك : ترك الشكوىٰ إلى الخلق ، والرضا عن المولىٰ فيما قضىٰ ، والاكتفاء بنظره في جميع الأحوال ، فإذا كمل توحيده ، ورسخ في مقام اليقين تجريده . . فلا بد من أن يأتيه ما قدر له من الرزق المقسوم .

وله في تناوله آداب ظاهرة ، وآداب باطنة :

فمن الآداب الظاهرة : أن يراعي ما حظره العلم عليه من التناول من الأيدي ، وإلا . . وقع في الحرام والشبهة ؛ فمنها : ما يكون التناول حراماً ، ومنها : ما يكون شبهةً قويةً ، وشبهةً قليلةً .

فمن الحرام : التناول مِن يد مَن ليس له كسبٌ إلا من محرَّم ؛ كمعامل الخمر ، وعامل الربا الذي ليس بيده غيره ، أو ما بأيدي أهل الربا الذين ليس لهم حرفة يستندون إليها ، وأهل الغصب من العمال السلطانية دون مولينهم (١) ؛ فإن أموالهم شبهة قوية ، لما قد يدخل أيديهم من الأموال الضائعة والفيء ، وغير ذٰلك مما لا يبعد وجود الحِلِّ في أموالهم ، وأما عمالهم . . فهم الذين لم يوجد في أيديهم إلا سحت الحرام ، فليحذر منهم أشدَّ مِنَ الحذر مِن الملوك نفوسهم .

وممن تقوى الشبهة فيما بأيديهم الجندُ الذين لم ينتظم لهم بيت مال ، بل يأخذون ما بأيديهم بالشوكة والتغلب ؛ كما هو الموجود في هٰذه الأعصار في سائر الأمصار .

---

(١) في ( أ ) : ( موليتهم ) ، وفي ( ب ) : ( مواتتهم ) بدل : ( مولينهم ) .

ويلحق بهم المخالطون لهم ، والمتشبهون بهم في الزي والهيئة ، وأرباب الصناعات المكروهة كالصياغة ، ومن يباشر حرف الظلمة كائنة ما كانت .

ويلحق بهم أغمار الأعراب ، ومن لا يكترث بالسُّنَّة ، ولم يعامل بالعلم ، وأرباب الأوقاف المتهورين فيها ، الذين اتخذوها دولة ، ويحسبونها من جملة أموالهم ، ويصرفونها بحسب أهوائهم علىٰ غير ما شرطها الواقفون وسائر أهل الولايات الدنياوية ؛ كالحكام ، وقضاة الأمصار ، والعراف ، وأهل الاحتساب .

ومَن يأكل بدينه ويظهر غير ما هو عليه من التصوف ؛ ليُعطىٰ ممَّا هو موقوف على الصوفية ، أو يظهر العلم وليس كذٰلك ؛ ليُعطىٰ مما هو موقوفٌ عليهم ، أو ليعطىٰ من غير وقفٍ لذٰلك .

والمتجرِّدُ متعرِّضٌ لذٰلك كله ، والسبب مع السلامة من هٰذه المهالك أولىٰ به ، فهٰذا بعض الآداب الظاهرة ، وإن أردت استقصاءها على الكمال . . فعليك بمطالعة كتاب ( الحلال والحرام ) من « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي .

ومن الآداب الباطنة : عدمُ التطلُّع والاستشراف إلى الخلق ، والطمعِ فيما في أيديهم ، وتعلُّقِ الباطن بإقبالهم وإدبارهم ، واتباعُ إشارة القلب الأولىٰ في ترك ما تجد نفرته منه في أول وهلة ، وردُّ النفس فيما تدعو إليه ، وتجنبُ أرفاق الأحداث والنسوان الذين لم تحتنكهم الآداب ما أمكن [1] ؛ فإنَّ قبول أرفاقهم أدعىٰ لهم بالقرب والموادَّة والمخالطة ـ ومخالطتهم منهيٌّ عنها كما علمت من قواعد أهل الطريق ـ وأوقع

(١) الأرفاق هنا : العطايا والخدمة .

فـي قلـب المريـد ؛ لسـريان أخلاقهم إليه ؛ الـذي هو مطالـبٌ باجتنابها والخروج منها .

وليس الإنسـان على الاستشـراف على الرزق من حالتـه ملوماً ؛ لأنه ضعيـفٌ محتـاج ، بل فيه إظهارٌ لما هو المطلـوب منه ؛ من الذلة ، وقلة الحيلة بين يدي ذي القوة المتين ، فإذا قام بحيلة الاضطرار . . فلا حرجَ في السـؤال لمن يسـكن بـه داعيـة الطبع ؛ فمن مـات جوعاً وهـو يقدر على أن يسـأل ما يرد رمقه . . مات قاتل نفسـه ؛ كما ورد في معنى ذلك الحديث[1] ، هـٰذا إذا لـم يؤيده الله بقوةٍ في حاله تغنيه عن ذلك .

وأمـا أهل الصدق الذين باشـر قلوبَهـم روحُ اليقين . . فلا يحتاجون إلى السؤال[2] ، بل همَّتُهُ لا تخطَّىٰ سجادته إن كان جالساً ، ولا تخطَّىٰ خطواته إن كان سائراً ، يسير على مهل ، لا يستفزُّهُ الحرص على إدراك مـا هـو غائـب عنـه ، ولا الاسـتعجال لمـا هو حاضـر لديـه ؛ لعلمه أنه إن كان لـه قسـم . . لـم يفتـه وإن تأنَّىٰ ، وإن لـم يكن . . لـم يدركه وإن تعنَّـىٰ ؛ فبمثـل ذلك اطمأنـت القلوب إلى جناب المحبوب ، وسـكنت عن اضطرابها ، وسلِمت من وبال الشك ، ووقفت عند حسن الاختيار ، وصـحَّ لهـا مقـام الانتظار ، وطابت لهـا الأوقات بـالأذكار ، وصفت لها الأفكار آناء الليل والنهار .

فـإذا أحكمـتَ مقـام التجريـد ، ورفعتَ الهمـة عن النظـر إلى العبيد إلى الحميد المجيد . . فخذ ما أتاك من يد مولاك ، فإن كان فاضلاً عن

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ٦/٣٩٠ ) من كلام سفيان الثوري بنحوه ، وسيأتي لفظه ( ص ٦٧١ ) .
(٢) هـٰذا هو القسم الأخير الذي بقي مما ذكره أولاً ؛ بأن يكون السالك متجرداً ظاهراً وباطناً .

غناك زائداً على كفايتك . . فأخرجه من يدك حالاً ؛ لئلا يكون حائلاً بينك وبين مولاك ، واحذر آفة الردِّ بعدما تستكمل الأدب في الأخذ ، فإذا ساق الله إليك غنىً . . فاقبل عطيته ، وأكرم هديته ، ثم ضعها في موضعها .

ثم الفقراء والزهاد في الادِّخار على حسب ما عندهم من اليقين ؛ فمنهم : من لا يحبس شيئاً لغد ، ومنهم : من يدَّخر لأربعين يوماً ، وآخرهم مقاماً : من يدَّخر لسنة ، وفوق السنة يخرج به إلى حيز الراغبين في الدنيا ، المكاثرين والمتهورين في الأسباب ، الذين لم يبالوا بموقف الحساب وطول العتاب . هٰذا في أحكام المريدين السالكين .

وأما المتحقِّقون والنجباء الموحِّدون والسادات العارفون . . فهم ثلاثة أقسام :

قسم لا يسألون ، وإن أعطوا . . لم يقبلوا .

وقسم لا يسألون ، وإن أعطوا . . قبلوا .

وقسم يسألون عند تحقق الفاقة .

فالأول : هم الروحانيون ، والثاني : هم الصادقون ، والثالث : هم المتقون ، ولي في ذٰلك :

فلا تمدَّ إلى غير الإلٰه يداً  فذاك شِرْكٌ خفيٌّ عند ذي النظرِ
إذا صفا صِرْفُ توحيدٍ فما تجدُ  فاستعمل العلم تلقَ غاية الظفرِ

❋ ❋ ❋

فإذا كان النظر إلى الخلق شركاً فيما يأتيك من أمر الرزق . . ففي طريق العارفين النظرُ إلى النفس وحظها نقصٌ ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**رُبَّمَا ٱسْتَحْيَا ٱلْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ ٱكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ ؛ فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَىٰ خَلِيقَتِهِ ؟!**

( **ربما استحيا العارف** ) في حال تجلّي كمال شهود الحقيقة علىٰ قلبه ، واستغراقها لسِرّه ، وامتلاء روحه في لمحات الجمال ولائحات الجلال ، واستشعار دنو الوصال إلىٰ حضرة الكمال ، **وهٰذا لا يكون كلياً في هٰذه الدار الدنيا** ، وهو الذي سبىٰ روح الخليل حين رُمي إلى النار ، فلم يفتقر إلى الأغيار ، **ولم تظهر عنده الآثار** ؛ التي من جملتها لهيب النار ، فكان شاكراً بشرب عقار ، **فهناك بانت له الأنوار** ، وخاطبته الأرواح ، وواصلته الأفراح ، فكان مطلبه وغاية ملمحه الكمال الذاتي ، **الذي يعطي البقاءُ به الغيبةَ عن النفس** ، واضمحلال الحس ، فكان بعلمه مستغنياً عن الرجوع إلىٰ ما منه من الدعاء .

**والعارف هو العارف بالله** ـ ولو من بعض وجوه المعرفة ـ وبصفاته وأفعاله معرفةً تعطيه ذوق العلم الذي لا يتطرّق إليه جهلٌ فيما علمه ، ولا ريبٌ فيما فهمه ، العارف بدين الله وأحكامه ذوقاً وتحققاً أيضاً ، يعمل على البصيرة المنيرة ، والمحجة المستنيرة ، ففي حال اصطلامه في شهود الكمال . . **يستحيي** ـ لا محالة ـ **عن رفع الحوائج** ؛ لتحقُّقه بأنه لا ينال من مولاه غير ما قدر له ، وإن دعا مع ذٰلك . . **فهو بحكم العبودية** ، لا أنه ينال بدعائه غير ما قدره له .

فهو في حال تحققه بهٰذه الحالة وإشارة الحال له بالسكون في هٰذه . . **يستحيي** من مولاه أن يستدرك عليه في علمه ، أو يشاركه في حكمه ، أو يذكره ما قدره في سابق علمه ، وكيف **يُذَكِّرُ مَن لا**

يجوز عليه الإغفال ؟! وقد علمتَ أن الغفلة نقص ، وهو مستحيلٌ عليه النقائص ، تعالى الله علواً كبيراً ، فإذا كان مستحياً من الله أن يرفع إليه حاجته . . فكيف لا يستحيي أن يرفعَها إلىٰ غيره ؟! فذلك أحرىٰ .

وفي أغلب أوقات السؤال بحكم الامتثال ، فيسأل قليل حاجته وكثيرها منه ؛ فإنها لا توجد عند غيره وإن قلَّت ، ولا تنال إلا منه وإن جلَّت ؛ فسؤال الأغيار قبيحٌ عند ذوي البصائر الأحرار ، فكيف وقد أمرهم إليه بالفرار ؟!

فأرواحهم إلىٰ ظل أحديته ساكنة ، متسترة عن رؤية الغيرية وظلمة البشرية ، مفتقرة إلىٰ خيره ، مستجيرة من ضيره ، فعند أولي الهمم العلية والمشاهد السنية سؤال الخليقة أشدُّ من لهيب النار ؛ لِمَا يعتريهم به من الخجل والعار ، بين يدي الواحد القهار ؛ أن يكونوا لغيره مثبتين ، وفي أحديته مشركين ؛ فهم الذين يلقونه وحوائجهم تختلج في صدورهم ، لا يبثون بثهم إلىٰ سواه ، ولا ينزلون حوائجهم بغيره .

يروىٰ أن بعض الصادقين الذائقين شراب المقربين كان يرقبه إنسان ، كلما خرج . . طاف بالبيت ، ثم نظر إلىٰ رقعةٍ كانت معه ، فلما كان يوم من الأيام . . تنحَّىٰ ثم خرَّ لوجهه ميتاً ، قال : فنظرت في تلك الرقعة ، فإذا فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، قال : فعرفت أنه كانت به فاقة ، فاستحيا من خالقه أن ينزلها بغيره حتىٰ قُبض [1] .

ولا منافاة بين هٰذا الكلام وما تقدم مِن معنى الحديث : ( من مات

---

(1) الرسالة القشيرية ( ص ٤٣٧ ) .

جوعاً وهو قادرٌ على أن يسأل ما يسدُّ به رمقه . . مات قاتل نفسه )[١] ، فإذا قال قائل : كيف يسوغ له مع قدرته على السؤال [ أن ] يموت ؟

فنقول : موته بذلك غير محقَّق ، وبتقدير ذلك . . فاعلم : أن هذا رجل غلبت عليه شهود أحدية الواحد الحق ، فلم يظهر للأغيار آثار عند غلبة تجلِّي مشرقات الأنوار حتى أتى أجلُهُ المعلوم وهو فيها مصطلم ، وبها عن نفسه منعدم ، لا إحساس عنده بالألم ، بل انطمس كما يتوهم من كل مؤلم وملائم في يَمِّ العدم .

فلا حرج ولا إثم هناك له ... ولا عليه يقول اللوم من عتبا
بل عينه رمقت صرف الشهود فما ... في ذاك إلا وجود الكون قد ذهبا
فإن أردت ثبوتاً لا محاولة ... عنه تقول : هو فيه شبه هبا

فالحوائج لا تنزل إلا عليه ، والمطالب لا ترفع إلا إليه ، قال سهل بن عبد الله : ( إن الله مطَّلعٌ على النفوس والقلوب ؛ فأيُّما نفسٍ أو قلبٍ وجد فيه حاجة إلى غيره . . سلط عليه إبليس ) اهـ[٢] .

وذلك أن القلب موضع نظر الحق ، فإذا جعل فيه غيره . . فقد جعله مصروفاً إليه ، ومقبلاً عليه ؛ لأنه ـ أي : إبليس ـ مفتاح طريق البعد ، وقائد ركب الضلال ، يستهوي الحمقى والجهَّال بالشكوك وأماني الغرور ، ويلقي قول الزور ، ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ ، وكل من افتقر إلى شيء دون الله . . فهو من وعده الباطل ، وتزويره المائل ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا ﴾ ، فأي الوعدين أنت به أوثق . . فأنت به أحق ،

---

(١) تقدم قريباً ( ص ٦٦٧ ) أنه من كلام الثوري رحمه الله تعالى بلفظ : ( من جاع ولم يسأل ، فمات . . دخل النار ) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ١٠/١٩٤ ) .

وبقائله أصدق ، وبتسلسله أحق ، ولشهوده أرمق ؟

وتعلق المقربين بالله دون الخلق جملة ، لا يرمقون مراداً دونه ، ولا يؤثرون حالاً ولا مقاماً عليه ، بل هم وقف على التعلُّق بمليكهم ، قطعوا أطماعهم من إيصال انتفاعهم أو دفع مضارِّهم إلا منه وبه ، فهم كما قلت :

علقت قلوب الأولياء بربهم ... لا يؤثرون عليه من الوجود مرادا
فهمُ الرجال القائمون فكن بهم ... في سُبْلهم وسلوكهم مرتادا
إن الوجود بأسره في قربهم ... كسراب يشهد من بقوع بعادا
فلربما استحيوا لغلبة شربهم ... أن يرفعوا الحاجات ثم عتادا
هذا فكيف تكون نازلة بهم ... في غيره الآمال لا تعتادا
حيا الإله أحبتي في حزبهم ... كم من مسلسل ثابت الإسنادا
يرويه خاصية الجنان بحبهم ... عمن له التصوير والإيجادا

* * *

فلأهل البصائر معايير لطيفة ، يميزون بها بين حقائق الأعمال ولطائف الأحوال لا يعرفها غيرهم ، والقائمون على الرسوم الظاهرة تلتبس عليهم الأعمال ، فليس ثَمَّ غير أن يعرضوها على أنفسهم ؛ فكل ما استثقلته . . فهو الأرجح والأحرىٰ ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

**إِذَا ٱلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ . . فَٱنظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَٱتَّبِعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقّاً**

هـٰذا ميـزانٌ لأرباب النفوس المحجوبـة المجبولة على اتباع الهوىٰ وإيثار الشـهوة ، وأما النفوس الزكية المطمئنـة . . فلا ينصب لها هـٰذا الميـزان ؛ فقد تسـتثقل الباطل ، وتسـتخف الحـق ؛ لاتصافها بصفة القلـب ، وهـٰذا الالتباس في الأمـور الدينية : إما واجبات أو مندوبات ، وأما ما نَصَّ علىٰ حظره أو كراهته الشرعُ ، أو علىٰ وجوبه أو ندبه . . فلا التباس فيه .

وإنما يكون الالتباس في المأمـورات والمباحات ؛ وذٰلك أن النفس الحيوانيـة من طبعهـا وجبلّتها إيثار ما هو الأصـل ، وأصل النفس من حيث امتزاجها بأركان العالم السـفلي : النارُ والتـرابُ والماءُ والهواء ؛ فهي أبداً تطلب هـٰذه الأصول .

فالنار بما فيها من الدواعي الشـيطانية ، والتـراب بما فيه من الذلة والجبانة الحيوانية ، والثقل عن المنازع العلوية والمشـاهد الروحانية ـ وقد علمت أن هـٰذه الصفات عدمية باطلة ظلمانية ـ وبما فيه من لطافة الهـواء وليونة الماء التي هي من صفـات القلب والروح تكون الدواعي القلبيـة وطلب الأفضلية ، فيحصـل ـ لا محالة ـ الالتبـاس ، فيحتاج العـرض علىٰ هـٰذه النفس ، فإنها تسـارع إلىٰ حظهـا ، وتطلب ما فيه نيل غرضها ، بحسـب ما فيها من العجلة والقوة النارية ؛ فهي تسـارع ما تقتضـي الجِبلَّة ، فالحق ثقيلٌ عليهـا ؛ لمخالفته لعالمها الظلماني الجبلي الحيواني .

كما علمت أن ما فيها من نور القلب اللطيف والسر الروحي العالي يطلبان أصلهما ، وهما نازحان عنه ، غريبان عن وطنهما ، والغريب لا يكون له من الحكم ما للأهل ، فكان مطلبهما صعباً ما دامت القوة الشيطانية النارية ، والشهوة الأرضية متحكمتين على المحل ، فلا يتأتىٰ مطلب القلب والروح إلا بعد مزيد مجاهدة وشدة عناء ، فإذا غلب الحق . . زهق الباطل ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ؛ لأن النار ـ وإن كانت قوية ـ فإذا سلط الماء عليها . . قهرها ، وأذهب سلطانها ، واحتبس شيطانها ، فتحقق أن الباطل لا يقاوم الحق إلا إذا تحكم على المحل ، وكان باطلاً صرفاً .

وأما حيث تقاوما وتصادما . . فقليلُ حقٍّ يُذهب ما ظهر في صورةِ كثيرٍ من الباطل .

والقلب والروح حق ، والنفس والشيطان باطل ، وللنفس والشيطان مخادع وغوائل وحبائل في الأعمال ، يصاد بها الحمقى الجهال ، ويميزها الأبطال من فحول العلماء ونجباء السالكين ، حتىٰ يترقَّوا إلىٰ شهود عين اليقين ، فيغنوا بنور اليقين عن نصب الموازين .

والنفس عند الطائفة لها إطلاقات كثيرة : فنفسٌ أمارة أرضية هوائية حيوانية ، ونفسٌ لوامة لدنوها من الأنوار القلبية ، ونفسٌ مطمئنة روحانية .

وهل المراد بالنفس المذمومة : الفعل المذموم أو محله ؟ فقائل يقول : نفس الفعل ، وقائل يقول : محله ، ولا فائدة في ترجيح أحد القولين على الآخر .

ومن الموازين المحقِّقة للباطل من الحق : عرض الحالة الراهنة

على الموت ؛ فكل أمرٍ لو أتاك الموت وأنت عليه لم تطلب الانتقال إلىٰ غيره . . فهو حق ، وكل أمرٍ يكون علىٰ غير ذٰلك . . فهو باطل ، ولي في ذٰلك :

إذا التبسْ من أمور الدين أحسنها
على المريد سلوك الصدق في الطلب
فليعرضنَّ على النفس الجموح فما
تختار إلا الذي هو يعقب العطب
فالنفس في كثرة الأطوار عدتُها
مع توحُّدها في حضرة القرب

❋ ❋ ❋

فمن جملة علامة اقتران الهوىٰ بالعمل ، ودخول آفة الجهل فيه . . ما ذكره المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

## مِنْ عَلَامَةِ ٱتِّبَاعِ ٱلْهَوَى : ٱلْمُسَارَعَةُ إِلَىٰ نَوَافِلِ ٱلْخَيْرَاتِ ، وَٱلتَّكَاسُلُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْوَاجِبَاتِ

هٰذه علامةٌ ظاهرة لأهل البصائر الناظرة ، والعقول الباهرة ، يتميز بها ما كان لله مما كان لغيره ، ويعرف العمل المشوب بالهوى المعمول علىٰ حسب مقتضى النفس .

**وأبغضُ إلٰهٍ عُبد في الأرض الهوىٰ** ، فالعامل بالهوىٰ لا يأتي منه إلا ما ينتجه الهوىٰ ؛ من التبذخ بالدعوىٰ ، والإدلال على المولىٰ ، وقبائح الإعجاب ، وفضائح الرياء ، وطلب عاجل حظوظ الدنيا ، **ودلالته علىٰ من قام به** : أنه يسارع إلىٰ نوافل الخيرات ؛ من التصدُّق والتكرُّم بالمال مع أنه لم يؤدِّ ما هو متعينٌ عليه من الزكوات !! **أو يطلب ويأخذ في نوافل الصلوات** ولم يقضِ ما فرَّط فيه من الواجبات !! ويهجر الخلق ولم يهجر قبائح الخطايا ورذائل الهفوات !! **ويخرج الجوائز والصلات** ، وهو يتناول المغصوبات والشبهات !!

ومن أمعن النظر في ذٰلك .. رأىٰ معظم أحواله وجملة أعماله تفريط وتخليط ، يجب عليه التوبة منه وهو يظنه من قسم الطاعات والقربات ؛ لذٰلك قال بعض الشارحين : ( **إنما حرموا الوصول ؛ لتضييع الأصول** )(١) .

فإذا ابتدأ في السلوك ، وأقبل على الله بالتوبة .. **أخذ في تحصيل النوافل** ، والسعي في مهامه القفار ، آناء الليل والنهار ، والتردد في الأسفار ، إلى المشاعر ورؤية الأخيار ، ولم يردَّ مظلمة !! ولا استحلَّ من

---

(١) قاله في « غيث المواهب » ( ٢/٧٨ ) نقلاً عن محمد بن أبي الورد .

جريمة !! ولا أدّىٰ واجب ما فرط فيه !! مع أنه أهم مما هو ساعٍ فيه ، ومن نظر بنظر أولي الأبصار .. ظهرت له مهاوي الاغترار ، وعرف ما هو النافع في علاج دائه وما هو الضار ، فاشتغل بما هو الأهم والأولىٰ .

وبعدما يحكم المقام على التمام .. يثبت له القيام ؛ بالتقرب بنوافل الصلاة والصيام ، والصدقة والحج وسائر واجبات الإسلام ؛ فهي الأساس الذي تبنىٰ عليه مراتب السالكين ، والنهج الذي يسلك عليه المريدون ، والقليل من العمل مع السلامة من دواخل العلل في الأعمال .. خيرٌ من الكثير مع الوقوع في حبائل الغرور ، ومخائل الزور ، واتباع هوى النفس ، وقيام انتصارها ، ورؤيتها أن لها ومنها ، وأنها أهل الفضيلة أو محل الوسيلة ؛ فالكثير مع إهمال التفقد في دقائق أخلاقها ورذائل أحوالها .. غير نافعٍ ولا يعتدُّ به أهل الأفهام الثاقبة ؛ فالتفقد في تطهير الأخلاق مفترضٌ عند أولي الفهم الصافي عن كدورة الهوىٰ ، فلا أهم للمريد من تفقد أخلاقه ، وتصفية أحواله ، ولي في ذٰلك :

كمون سر الهوىٰ في النفس يعرفه
من كان ذا بصر في الدين معتبر
ومن علامة ذٰلك أن تراه إلىٰ
كسب النوافل دون الفرض يبتدر
فكيف تهدي صنوف البر وأنت علىٰ
محرمٍ أو واجب جا عنه مقتصر
إن الأساس هو التقوىٰ عليه إذا
أردت أن تبنيَ الأركان فاعتبر

فإذا علمت أن أفضل ما تقرَّب به العبد إلى الله هو أداء ما افترضه الله عليه ، وجعل الإتيان بها مقدماً على كل ما يقرب العبد إليه ، فكانت أبواب منها تدخل كل فضيلة ، وتبتغي كل وسيلة .. **حثَّ عليها عباده** حثاً أكيداً ، وعلم أن منهم من يستفزه الشره ، ومنهم من يغلب عليه الكسل ، فقيد بأوقات ؛ لينهضَ إليه من غلب عليه الثقل الجبلي ، **ووسع عليهم تلك الأوقات ؛ ليبقىٰ لهم فيها ما يتأهَّبون به ، ويتفرغون عن الشواغل فيه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

**قَيِّدَ ٱلطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ ٱلْأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لَا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ ٱلتَّسْوِيفِ ، وَوَسَّعَ لَكَ ٱلْوَقْتَ ؛ كَيْ يُبْقِيَ لَكَ حِصَّةً فِي ٱلِٱخْتِيَارِ**

( قيّدَ ) بالأمر الجازم ، والحكم اللازم ، والقيد هنا : تخصيص كل صنفٍ من أصناف الطاعات بوقتٍ من الأوقات ؛ وذلك لأن الأوقات خزائن تبرز من عالم الغيب ، فكأنها رسائل إليك من الله ، تودع ضمنها ذخيرة تدخرها عنده ، وأوسع الذخائر وأنفسُها عند الله هو ما افترضه الله عليك من الأمر ؛ وهو إما أمر جازم ، وإما غير جازم ؛ فالأمر الجازم : هو الفرائض .

ثم لما علم ما في جِبلّة الإنسان من التثاقل الذي هو التسويف . . جعلَ لها وقتاً معيناً ؛ فبإخراج ما افترضه عليه عن ذلك الوقت يكون به عاصياً مستحقاً للعقوبة ، ولا يتخلّص عنه إلا بصدق التوبة ، وذلك رحمة منه وعناية بنا ؛ حيث ندبنا إلى ما فيه فلاحُنا ونيل بغيتنا .

ثم لما علم سبحانه ما يغلب على النفوس من الغفلة وقلة التحفظ . . امتنَّ علينا بما يكمل ذلك المفترض ؛ كل فريضة نوع مما يشبهها ، فيكون جبراً لما عسى أنه فرط ، فترجع تلك الخزائن الوقتية بذخائرها ونفائس ما استودع فيها من أنوار الطاعات شاكرةً شاهدةً للإنسان بصلاح الشأن وصحة الإيمان ، فيكون مستحقاً للإكرام من الله والرضا عنه ؛ كما أكرم من نزل عليه بأحسن قرىً .

ثم امتنَّ على العبد بنعمة أخرى ؛ وهي أن وسَّعَ عليه الوقت كي لا يكون في الحرج ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، فبتوسعتها عليه ترتفع عنه ، ويقضي ما هو بصدده من

مصالحه ، ويفرغ قلبه عن الأسباب الشاغلة له عن إكمالها ، **فيأتي** بنشاط وطرب وشوق وارتياح ؛ ليكون على أكمل وصف ، وأتم نعت ؛ **كما قلت في ذلك :**

قيّدْ لك الأمر كي تأتيْ إليه ولا — يمنعْكَ عنه وجود الطبع بالكسلِ
ووسعه كي يكون العبد ممتهلاً — إلىٰ فراغ من الأشغال والعللِ
وتلك نعمته أسدىٰ إليه فلا — للعبد أن يُدخل التسويف في العملِ

* * *

**وإيجابه سبحانه أمرُهُ** ، وأمره صادرٌ عن علمه ، **وعلمه قديم بالأشياء** وأحوالها وما هي عليه ، **فهي معلومة له** ، معدومة لأنفسها[1] ، ويعطيها العلم بأحوالها عند بروز الأحوال والأعمال عليها في عالم خلقتها وشهادتها حكمة منه .

وأما علمه بأحوالها وكيفياتها وكلياتها ، وإجمالها وتفصيلها . . فقديمٌ أزلي ، لا يدخل عليه فيه التباس ، ولا يتطرَّق إليه تبديل ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) فهي ثابتة من حيث العلم ، مفقودة من حيث الذات .

عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ ٱلْعِبَادِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلَاسِلِ ٱلْإِيجَابِ « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلَاسِلِ »(١)

علم سبحانه بعلم قديم ، وعلمه محيطٌ بالأشياء أولاً وآخراً ، باطناً وظاهراً ، وجوباً وجوازاً واستحالة ؛ فالخلق وأحوالهم وأعمالهم معلومون له في قدمه كيف يكونون في حال بروز خلقيتهم ، فهم معلومون له حاضرون لديه ، لا يعزب عنه منهم حال ولا عمل ، ولا حركة ولا سكنة ، ولا أقل من ذٰلك ولا أكثر .

وأما لأنفسهم . . فمعدومون حتىٰ يعطيهم العلم بها وبما أراد من تفاصيل أحوالها لا كليتها ؛ فذٰلك له في حضرة عنديته التي هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو ، وينكشف لها من عجائب القدرة بحسب ما ينكشف لها منها ، فهي لا تتعدَّىٰ فوق ما أعطيت من ذواتها ، فهنا يجب علينا قبض العنان ، ولنرجع إلىٰ حلِّ كلام المؤلف قال :

( علم قلة نهوض العباد إلىٰ معاملته ) لما هم عليه من الثقل الترابي الذي منه منشأ صورهم ، وظهور أثرهم ، ومعاملتُهُ : هي ما دعاك إليه من الأوامر التي تقرب إليه ، وتزلف بها لديه ، وتدخل بها في حضرته ، وتستحق بها محبته ، فلم تنهض لما غلب عليك من الكثافة الترابية الأرضية ، وعبارة المؤلف بـ ( السلاسل ) للواجبات الشرعية بديعٌ ، وهو قريب من قود الأسير الكافر إلى الدخول في الإسلام الذي فيه نجاته .

(١) رواه البخاري ( ٣٠١٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فجميل لطفه لم يترك العباد ومقتضىٰ طبائعهم ، بل ساقهم بتخويفات العقوبات ورجاء المثوبات ؛ فهو المتفضِّل في ذٰلك ، وهو مقتضىٰ لطف الربوبية بالمربوب ، وتكليف الحبيب بالمحبوب ، **فالخلق مربوبون تحت كنف ربوبيته** ، يربيهم كما يربي الوالد الشفيق المحب الرفيق طفله الجاهل بما يعود عليه من الصلاح ، فإذا كشف عند كماله ما سبق إليه ، وأكلف عليه . . **شكر صنيع والده** .

فكذٰلك إذا كشف الله لعباده في الدار الآخرة ما أعدَّه لهم من الكرامة علىٰ ما استعملهم فيه . . **كيف تراهم يقولون ؟** ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ ، **فهٰذا وما وراء هٰذا مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت** . . ثم ما ساقهم إليه وندبهم ، وأوجب عليهم وحثهم علىٰ فعله ؛ **لينالوا هٰذا الفوز العظيم** ، والحظ الوافر العميم .

والسلاسل : ما يوضع في الرقبة للقود بالعنف والزجر ، **والعجب** من الله جائز بالكتاب والسنة[1] ، لٰكنه من السمعيات ، ومن قسم الصفات التي يختار تركها علىٰ ما جاءت ، فيؤمن بها ، ويترك علىٰ ما أراد من ذٰلك ، كسائر ما جاء من ذٰلك ؛ فذٰلك أسلم ، إلا إذا اضطر إلى التأويل ، **فيبحث عن تأويل العلماء الربانيين فيها** ، فيجدها علىٰ أكمل محمل ، ثابتة شرعاً وعقلاً ، **ولي في ذٰلك** :

لَمَّا عَلِمْ جلَّ مولانا وموجدنا     أنَّا كما قال لم ننهض إلى العمل

---

(١) يعني : جائز إطلاقه عليه تعالىٰ ؛ لوروده بالكتاب والسنة ، ومما ورد بالكتاب قوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾ بضم التاء ، وهي قراءة سبعية .

أوجبْ علينا وحذِّرْ سوءَ عادتنا    وقادنا قود إيجاب فصيح جلي

* * *

فالإيجاب من مقتضىٰ قهر الألوهية ومستحق الربوبية ؛ فمقهور ظاهرٌ بالعدل ، وباطنٌ بالفضل ، وهو القهر على الواجبات المفترضات ، فإذا نظرت ما يعود بسبب ذٰلك من الفضل العظيم والجزاء الجسيم . . علمت أنه ما أوجب عليك إلا ما هو عائدٌ إليك نفعه ، وصائرٌ إليك غُنْمه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

والتعرض لنفحات منّته وإتحاف نعمته وسبوغ رحمته ، **فسبحانه ما ألطفه بعبادِهِ !! وما أتقنه لمراده !!** إذ خزن خزائنَ الفضل في خزائن العدل ، وطوىٰ وبيلَ العدل فيما صوَّرَهُ بصورة الفضل ، **فهٰذه عبارة تشير إلىٰ ما قبلها وتفسِّر معناها .**

فحيث علمت أن الإيجاب والقود من مقتضى القهر . . **بيَّنَ ما في ذٰلك من عظيم الفضل** ، وأن ذٰلك يسوق إليه من عباده كلَّ مَن غلبت عليه العادات ، واستولت عليه الشهوات ، فقهرته ، وانقاد لحكمها ، **فأوجب سبحانه وأوعد على التخلُّف** عن هٰذا الفضل العميم بضروب العذاب الأليم ، والخزي الدائم المقيم ، **وجعل الواجبات سائقات وقائدات ومزعجات** عن الركون إلىٰ مقتضى الجبلات ، ومخرجات عن حيز البهائم والجمادات ، ومنيلات لأعالي الدرجات ، ومكسبات لأشرف المثوبات ، **هٰذا لمن غلب عليه الحجاب** ، ووقفت به عن منهج الأحباب ومنازل الاقتراب ، بسطوات الاغتراب .

وأما أهل القرب المشغوفون بحبه ، والمتمتعون بقربه . . **فلا يحتاجون إلى القود القهري** ، بل يأتون بحكم الطوع والفرح ، **فالأسباب تسوق أهل الحجاب** الموسومين بسمة الغافلين والأجناب ، **والصفات تهذِّبُ السادات المقربين الأنجاب** ، فالعارفون من العلماء ، والمقربون من النجباء . . لا يزعجهم خوف الأسباب الغيرية ، ولا تشوّقهم المحبوبات الأثرية [١] ، **بل خوَّفهم هيبةً وإشفاقاً** ، وإجلالاً وتعظيماً ، واحتراماً

(١) في ( ب ) : ( ولا تسوقهم المحبوبات الأثرية ) بدل : ( ولا تشوّقهم المحبوبات الأثرية ) .

وخشية ، وهٰذه الأحوال كلها لا تكون لغيرهم ؛ لأن العظمة والكبرياء والجلال والقهر والغلبة لم يتصف بها سواه ، وكل مخوف وإن اشتد هوله وعظم أمره . . إنما هو صادر عن تأثيره واختراعه ، وناشئ عن تصويره وإبداعه ، فناهيك بهيبةٍ تصدر عن مشاهدة وصف ذي الجلال ، القائم بها صفة الحال ، الفائضة آثارها علىٰ سائر الأفعال ، وذٰلك معنىٰ ما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم : « نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله . . لم يعصه »[1] .

وأما من كان نعته الحجاب . . فخوفه يحاكي ما هو متصف به ؛ كما قال عزَّ من قائل : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فخوف العامة ـ المحجوبين برؤية الأغيار المضروبة دونهم الأستار ـ : خوف النار ، ورجاؤهم : ما أعدَّ في نعيم الجنة من طيب الأثمار ، واطراد الأنهار ، وافتضاض الأبكار ، وطمعُ نظر العارفين إلىٰ رفع الحجب والأستار ، وتجلي الجمال البهَّار ، فشتان بين الفريقين ، وبون ما بين المقامين !! أهل عليين ترونهم كما ترون الكواكب الدرية الغائرة في أفق السماء ؛ كما ورد في الحديث[2] ، فسبحان المتفضل على الكل بما منَّهُ وبشهوده .

فنعمة العامة بما أوجبه عليهم وافترضه ، وجعل الفرائض مفاتيح القرب ، لم يحجر عليها دون التوصل إليه بأصناف القرب ، بل فتح لهم من كل فريضة باباً مهيعاً إلىٰ محبته واستعطاف رحمته واستدرار نعمته ، « لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّهُ »[3] ، فالحمد لله ،

---

(١) ذكره أبو عبيد في « غريب الحديث » ( ٣/٣٩٤ ) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه ( ٩٦ ) ، وأحمد ( ٣/٢٦ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري ( ٦٥٠٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فالطرق إليه مطبقة بك ظاهراً وباطناً ، قولاً وفعلاً ، حركة وسكوناً ، نظراً وسمعاً ، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، إن لم يوصلك إليه من طريق تعرُّفه ، وابتداء حديثه ، وسبق اختياره ومشيئته . . أوصلك إليه شأنُ هدايته ، والترقي في معارج إنابته ، ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ، فطريق الجنة هو عينه سبيل الإنابة على وفق المحبة والإعانة على القيام بمقتضى الهداية .

وقد أباح للعبد مواسم المغانم ، ووفور الغنائم ، وجعلها في طي التعبُّدات وأصناف المفترضات مطويةً كطي النخل في النوى والزروع في الحب ، وجعل لكل فرض متمماً من جنسه ؛ ليكون جابراً ما فيه من التقصير ، وموفراً لما فيه من التخسير ، ومتمماً ما كان من التحسير ، ووعد على فعله من الفضل ما يتضمن له كل طالب ، ويقضي به كل مأرب ، وحذّر من التقصير ، وأوعد على تركه بما يزعج الغافل عن غفلته ، ويوقظه من سنة شهوته ، هٰذا لمن غلبت عليه الكثائف الأرضية والطبائع الحيوانية .

وأما مَن نوَّرَ الله قلبه وشرح صدره بنور هدايته ، وتوَّجهُ بنور ولايته . . فلا يعبد الله على المخارجة ، بل يعبده على المحبة ، فلا يبرز نَفَسٌ من الغيب إلا أكسبه سراً ، وأوجده علماً ، فشهده من حيث صدر ، فيبتدره بالإكرام ، وينزِّهه عن مقارفة الآثام ، فالوقت كله لهم وقت واحد ، فهم[1] أهل الصلاة القائمة[2] والكلمة الجامعة ، ولي في ذٰلك :

ما أوجب الحق من فرض وحث على     طاعات نفل فمرجعْ ذٰلك العمل

---

(١) في ( أ ) : ( معهم ) ، وفي ( ب ) : ( منهم ) بدل : ( فهم ) .

(٢) في ( ب ) : ( الدائمة ) بدل : ( القائمة ) .

إليـك إن كنـت ذا فهم سـليم فلا يحتاج حتىٰ متىٰ وهو الغني الأزلي
أوجَـبْ عليك لكيْ يدخلْكَ جنَّته ويبلغـك فوق ما ترجـو منَ الأمل

* * *

فبـاب فضل الله واسـع ، ورحمته عامـة ، ومنَّته تامة ، وهو الغني عن أعمـال العبـاد ، المتـسـمي بالكريـم والجـواد ، ينيل من لـم يرجه ، ولم يؤمل ما عنده ، فكيف مَن علقت به مطامعه ، وانبسـطت إليه حوائجه ، ورفعـت إليـه شـكايته ، وضرع إليه ، وتوسـل به إليه وبـكل من له عنده جاه ؟! فلا يستغرب ولا يستبعد أن يقبله ويمنحه غايات الآمال ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنِ ٱسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ ٱللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ . .
فَقَدِ ٱسْتَعْجَزَ ٱلْقُدْرَةَ ٱلْإِلَـٰهِيَّةَ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

من استغرب واستبعد وقوع ممكنٍ من الممكنات ، أو دفع نازلٍ من النازلات مما هو من قسم الجائزات من سائر الأشياء المقتدرات وإن جلَّت ، ودفع نازلةٍ من النازلات وإن عظُمت ، وإدراك مسمّىً من المسميات وإن دقَّت . . فذاك لقصور فهمه ، وغلبة سلطان وهمه عن درك ما هو وصف من صفات الله الجلية ، ونعت من نعوته العلية ؛ إذ [ هو ] من صفة نفوذ القدرة وصلاحيتها لكل ما خصصته المشيئة الأزلية ، وسواء كان من الأعيان الحسية والأجسام الصورية ، أو من المعاني الغيبية الملكوتية والجواهر الروحية ، أو من الأعراض المعنوية ، أو من مجموع ذٰلك وفوق ذٰلك من كل ممكن .

والشهوة : عرض من هٰذه الأعراض ، لا يعجز الله عن تبديلها ، ولا يؤوده تحويلها إلىٰ ضدِّها ، فالتبديل للسيئات من الله لعباده التائبين مألوف ، وضد ذٰلك غير معروف ، فمن فضله الفائض العميم : أن أخبر بذٰلك ، ونبَّهَ علىٰ ما هنالك بقوله وقوله الحق : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ ، فالإيمان يقتضي حسنَ الظن بالله ؛ أنه ما ألهمه التوبة ويسَّرَ أسبابها وفتح لها أبوابها . . إلا وهو يريد به أن يجعله من خواصِّ أحبابه ، ويدنيه من حضرة شهوده واقترابه .

فليحمل على المسارعة إلى الخيرات واستعمال الصالحات ، ولا يصدُّه عن بابه ما قارفه من السيئات ، وما طالت فيه ممارسته للخطايا والهفوات واتباع الشهوات ، فقال عزَّ من قائل متقرّباً إليه ومتعطفاً عليه ،

ومواصلاً له بعد القطيعة : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ ، ويرفع حسناتهم درجات ، ودرجاتهم مشاهدات ، ومشاهداتهم مواصلات ، ومواهبَ ألطافٍ ، ونيلَ إسعاف ، وتنزلاً ودنواً ، وغير ذٰلك مما لا يسع العقل فهمه .

والشهوة : شيء مما هو مقدور لقدرته ، ومقهور تحت قهر ألوهيته ، والغفلة : وهْمٌ يضمحل عند إشراق أنوار مشاهدته ، فكيف ييئس من تمكَّنت منه أسبابها ؟ بل يطلب من فضله أن ينقذه منها ، فهي عليه يسيرة وإن عظمت ، وقليلة وإن كثرت ؛ كما رأيت وشاهدت من أحوال من سبقت منهم كبائر الذنوب وفظائع الأمور ، وعادوا بفضل الله سادةً قادة ، وأعلاماً لمنار السعادة ، فلا يحصىٰ عدهم ، ولا يمكن حصرهم ؛ ممن قد تلبَّس بزنار ، وعابد صنمٍ ونار ، وكوكبٍ من الكفار .

الذين سبقت لهم من الله عناية ، لم يضرُّهم ما قارفوا ، وممن لبث أزماناً علىٰ إدمان المعاصي ، وتُدوركَ من الله ونال أعلى المنازل ؛ كسادة العارفين فخر اليمن أبي الغيث وغيره ، مثل ربيع المافودي ؛ كما روىٰ عن نفسه : أنه كان في سالف الزمان مقدماً لجماعة قطاع الطريق ، فتُدوركَ فأصبح قطبَ التحقيق ، وغيره من أكابر هٰذه الأمة .

فلا يقطعنك عن فضله يأسك ، ولا تردن عن بابه رأسك ، فعند إدمان الطلب . . تدرك الأزب ، فعطاؤه لا يحجبه السبب ، ولا يجلبه النسب والحسب ، فالعبد ما لم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها . . معرَّضٌ للتوبة ، ومتَسبِّبٌ للأوبة ، فيرحم الله الأبوصيري حيث قال :

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ     إِنَّ ٱلْكَبائِرَ فِي ٱلْغُفْرانِ كَٱللَّمَمِ

فمن استغرب ذٰلك . . فقد نسب القدرة الإلٰهية إلى العجز المستحيل

عليه كسائر النقائص ، واستشهاده بالآية الجامعة لعموم القدرة لسائر الأشياء من أبلغ الدلائل ، وأوضح العلامات وأنجح الوسائل ، فلا يختص بها شيء دون شيء ، بل الأشياء كلها داخلةٌ تحتها ، ولم تخرج أنت ولا شهوتك عن الأشياء فتكون مستغرباً ، وما وصف به نفسه من قوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ، فقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ فهـٰذا وصفه والأشياء لم تكن بعدُ ، لـٰكنها له معلومة وجميع تفاصيل أحوالها ومعانيها ، فالكان وصفه ، والكون فعله ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولا شيء »(١) ، ولم يفارقه هـٰذا الوصف دائماً سرمداً ، وقوله : ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي : فاعلاً ومخترعاً ومبدعاً ، فكيف تستغرب منه فعلَ ما هو موصوفٌ باختراعه ، ومستبدٌّ بإبداعه ؟! ولي في ذٰلك :

فكيف يستغرب أنَّ الله ينقذه ... من شهوة طالما قد كان يأتيها
إن الكبائر لا تعظم فتحبسه ... عن نيل فضلٍ وإن طالت مبانيها
إن واجهتك صفات الفضل منه فلا ... شيء من الذنب والأعمال يثنيها

* * *

هـٰذا لمن قصدته المعاصي من غير تعمُّد معاندة لله ، وانتهاكاً من غير مبالاة ، ورجع إلىٰ مواطن التوبة .

أما من كان مجاهراً مصرّاً مرتكباً لكبائر المعاصي ولم يرجع إلى التوبة . . فليس هو المعنيّ هنا ، وما هـٰذا(٢) ـ أي : حسن الظن والمبالغة في الرجاء ـ إلا عند إقبال العبد إلىٰ مولاه ورجوعه إلىٰ بابه ، فينبغي أن يرغب في ذٰلك ، ويلاطف بمثل هـٰذه الروايات ؛ فإن الله إذا

---

(١) رواه البخاري ( ٣١٩٢ ) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .
(٢) في النسخ الخطية : ( فهـٰذا ) بدل : ( وما هـٰذا ) .

رجع عبده إليه . . قبله على ما كان من العمل ؛ كما وردت به الأحاديث والآيات ، وأما المصرون . . فليسوا من ذلك في شيء .

والمؤمن ربما يرد عليه ما صورته معصية وذنب ، فيتكدَّرُ لذلك صفاؤه ، وتظلم أرجاؤه ، فيعرف مقدار منة الله عليه ، وإدامة فضله إليه ، فيزداد تعظيماً لنعمة الله ، ويزداد فراراً وإبعاداً لما ذاقه من مرارة ورود الظُّلَم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## رُبَّمَا وَرَدَتِ ٱلظُّلَمُ عَلَيْكَ ؛ لِيُعَرِّفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ

ربما وردت ظُلَمُ ليل البعد على نهار القرب والكشف ؛ لتعرف قدر المنَّة عليك فيما منَّ به : من كشف ظلم الأغيار ومُدلهِمِّ ليل الآثار ، بتجلي الأنوار ، وشهود الأسرار ، المعبَّر عنه بالنهار ؛ لتعرفها بأضدادها ، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ .

وكل ذٰلك لطفاً بعباده ؛ لئلا يجهلوا ورود الظلم فلا يعرفون قدر النعم ، فيقفون دون شكرها ، فيحرمون المزيدَ ، فأورد ضدَّها ليكون ذٰلك سبباً لشكرها ، وهو سبب مزيدها لديهم ، ودوامها عليهم ، ولو لم ترد عليهم هٰذه الأضداد . . فلربما جهلوا ورود الإمداد ، ولوقفوا دون شكرها ، فكان ورود الظلم بهٰذا الاعتبار في حقِّهم من جملة النعم ، هٰذا نادر لبعض أفراد الخلق .

أما أصالة ورود الظلم . . فلا يكون إلا عقوبةً عن ذنب أو سوء أدب ، فإن لم ينزع عما هو مقارفه . . خيف أن يتسع في القلب أثرها ، فتصدر عنه أعظم ، فتتراكم كذٰلك حتىٰ يعلو عليه الران ، نعوذ بالله من ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

فربما وردت شؤم الذنوب لكي ... يعرِّف العبد ما قد كان يجهله
ويستزيد كذا شكراً على [ كل ] ما ... قد كان في سابق الآزال أهَّله

وفي الحديث : « لو لم يكن الذنبُ خيراً للمؤمنِ من العُجْب . . ما قُدِّرَ عليه » أو كما قال(١) .

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه ( ص ١٣٩ ) .

فـإذا عرفـت أن ورود الظلم منه ؛ للشـكر على وجـود الأنوار ، وحاثاً على التحفـظ مـن اقتراف الأوزار ، وما منّـةٌ أعظم على العبد من الإيمان والعمل بمقتضاه . . فليحافظ عليه ، وليجتهد كل الجهد في الإقبال إليه والاهتمام به ؛ وذلك أن كل فائتٍ عنه خلف إلا الإيمان ، فليجتهد العبد فـي الشـكر وهو في حال تلبُّسـه به ، والعاقل : يشـكر النعـم بوجدانها ، والجاهل : لا يعرفها إلا بفقدانها ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

فأكثر الخلق حالهم الجهل بالنعم ، والغفلة عن مقتضى الشكر عليها ، فيقبلون بفقدها مع عدم الصبر عنها ، والمعرفة تكون بالقلب وهي شكر القلب ، وبالجوارح وهي العمل بمقتضى النعمة ، وهو شكرها ، قال الله سبحانه : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ ، وفي أخبار داوود : ( إلـٰهي ؛ كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ ؟ قال : إذا عرفت هـٰذا . . فقد شكرتني )(١) .

فعرفت أن المعرفة كلية الشكر ، وعنها تصدر أسبابه ، والنعمة : هي كل أمرٍ تُحمد عاقبته في المآل وإن كان مؤلماً ، وما لا . . فليس بنعمة وإن كان ملائماً ، ومن هنا يقال : ليس لله نعمة علىٰ كافر ، وإنما ملاذُّهُ استدراج .

وإذا عرف النعمة في حال وجودها كما هو حالة الأكياس . . فقد تعرَّضَ لفتح باب المزيد الذي يُلهَمُهُ كلُّ موفَّقٍ رشيد ، ويفهمه كل ذي رأي سديد ، بشاهد قوله عزَّ من قائل : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ ، فانظر كيف قرن الشدة بتعذيب من كفر النعم ؛ فمن ضيع النعم بعدم الشكر لله عليها . . فقد تعرَّضَ للنقم ، ومعرفة النعمة بفقدانها لا يكون شكراً ، وإنما هي تحسُّرٌ وتأسف لا يفيد صاحبه إلا حسرة إلىٰ حسرة تتوالىٰ ، والله أعلم أن توالي الحسرات هي الشدة التي أومت إليها الآية في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٣٢٤ ) .

من ليس يشكر ربَّ العالمين على ... ما أسداه من فائض الإنعام والمِنَنِ
لا شك يحسر عند الفقد منه ولا ... تغنيه حسرته في السِّرِّ والعلنِ

* * *

والشكر : من أجلِّ النِّعم من الله على عبده أنه أعطاه ونسب إليه ، فما أعظم فضله وأوسع بره وبذله !! لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ ٱلنِّعَمِ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ

لا تدهشك وتعجزك كثرةُ الآلاء وترادف النعماء ، فترىٰ نفسك عاجزةً عن شكرها والقيام بحقوقها ؛ فإن الله ـ سبحانه وله الحمد ـ قد رفع مقدار عبده ، وأهَّله لكل فضيلة ، وجعل له إلىٰ كل مقام وسيلة ، فهي ـ وإن قلَّت في لفظها ـ فنسبتُها إليه لا يوازيها كثير العطاء ، فالحمد لله بالله لا يقوم له عديل ، ناهيك أن جميع ما في الجنة ما لا يقدر أحدٌ علىٰ أن يصف أقلَّ قليل منها ، ولا تماثله الدنيا بما فيها ، وجعل آخر قول سكَّانها بعد ما منَّ به عليهم : ﴿ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فكل نعمةٍ وإن جلَّت . . فالحمد أجل ، وكل علمٍ وعملٍ وحالٍ . . فبالإضافة إلىٰ حمده أقل ، و﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ .

وورد في بعض الأحاديث القدسية : « خلقت الخلق ليربحوا عليَّ »(١) ، فنعمة الحمد وتيسير العمل أعظمُ من النعمة التي جعلته بإزائها وهٰكذا ؛ فشكر الورىٰ قاصر عن بلوغ المنعم المفضِّل ، فما تشكر علىٰ نعمةٍ إلا ويحتاج شكرها إلىٰ شكر أبلغ منه .

وقصارىٰ ذٰلك : أن ترىٰ عجزك عن القيام بشكره ، وترىٰ ما بك من نعمة منه ، وتشهد لطيف نعمه علىٰ ممر أنفاسك ، وسواء كنت في حالة ملائمة ظاهراً أو في حالة بلية . . فالنعمة فيها باطنة تشهدها القلوب ،

(١) كذا في « قوت القلوب » ( ٢١٩/١ ) ، وعنه الإمام الغزالي في « الإحياء » ( ٤٩٣/٧ ) ، وأورده القشيري في « رسالته » ( ص ٣٦٠ ) من قول سيدنا داوود عليه السلام .

وتظهر من وراء سجاف الغيوب ، فشكر من فتح الله عين قلبه عليها أعظمُ من شكر ما ظهر .

ومن زعم أن ليس ثَمَّ إلا الصبر . . فذٰلك لحجابه عن النظر بالقلب في لطف الحبيب ، وما يجريه من التعرُّفات لخواص عباده ، وما يصرف عنهم به مما هو أشد منه ، فالشكر على النعم الباطنة غير منكور عند أرباب القلوب السليمة والأسرار المستقيمة ، فالحمد يجمع أصناف المحامد ، فما ثناء أبلغ منه ، وإن بلغت النعم ما بلغت . . فما يصل مقدارها إلىٰ شأو الحمد لله ؛ لأنه حمد به نفسه في كتابه ، وجعله مبتدأ الكتاب وخاتمة خطاب الأحباب عند كشف الحجاب ، فأي نعمة توازنه ؟! وأي منَّة تعادله ؟!

فلا تجهل قدرك ؛ فقد جعلك خليفته في حمده كي تُجمع لك الفضائل ، وتُبسط لك المنن والمواهب ، ولي في ذٰلك :

لا يدهشك عن مقام الشكر ما وردت ... عليك من واردات الفضل والمنن

فليس يعدل سر الحمد وإن عظمت ... فالحمد في نعمة المولىٰ هو الثمن

* * *

هٰذا عند فراغ القلب عن الأغيار ، وصحته عن آلام الآثار ، وأما إذا مرض القلب واعترته أمراض الهوىٰ . . فربما ينعكس الأمر ، فيستحلي ما تستمرُّهُ أرباب الصحة ، فيجد لتمكُّن ألم القلب لمرض الهوىٰ حلاوة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

## تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ ٱلْهَوَىٰ مِنَ ٱلْقَلْبِ .. هُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعُضَالُ

تمكُّن حلاوة الهوىٰ هو استحكامه حتىٰ لا يبقىٰ لداعية الإيمان بقية ، ولا لحكم البيان مزية ، وعند التمكُّن يستحليه ويتحكَّم له .

**والهوىٰ** : هو كل ما جاء من دواعي النفس علىٰ خلاف الأمر ، واتباع الشهوة علىٰ حكم الطبع ، فإذا رسخ في القلب واتسع داؤه فيه .. **فربما لا يجد لدوائه متسعاً** ، وداؤه هو ما سيذكره المؤلف رحمه الله بإثر هـٰذه الحكمة .

**والداء المعضل** : هو الذي لم يجد إلىٰ دوائه سبيلاً ، فيُعيي الحكيمَ في استنباط حيلة إخراجه عنه ؛ لشدة تشبثه وغلبة تحكُّمه ، **ولي في ذٰلك** :

إذا تمكن في قلب المريد فما
تغنيه حيلة ذي طبٍ ولا حكم
ذاك الهوىٰ من قلوب السالكين كما
لا ينفع الطب [ إن ][(١)] يستحكم الألم

ومن حكمة الله وجاري سنته : أنه ما خلق داء إلا وخلق له دواء ، ولا داءَ أضرُّ ولا أشد على الإنسان من داء الهوىٰ ؛ **لأنه به مبتدأ كل شر دنيا وأخرىٰ** :

فكم من صريع من حسام هوائه
وكم من نعيم زلزلتها يد الأهوا

❁ ❁ ❁

---

(١) في النسخ : ( عندما ) بدل : ( إن ) .

وبـه يكون هلاك روح المرء ، وخسـرانه في آخرته ، وفوات غنائمه ، ولـكن أرجـىٰ مـا يـداوي به علتـه ، ويبرئ بـه من وخيم محنته شـيئان ؛ وهما ما قاله المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

## لَا يُخْرِجُ ٱلشَّهْوَةَ مِنَ ٱلْقَلْبِ . . إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ

**فما يخرج الشهوةَ**[1] التي هي مركز الهوىٰ ، وعنها تتشعَّب طرقه **إلا خوفٌ** وعيده **الذي لا يطاق** ، وأليم عقابه [ الذي ] أشفق له كل شامخ صليب ، وتشَقَّقُ منه شناخيب صمِّ الجبال[2] ، وذابت له **النفوس** ، وتحولت منه الأحوال .

**والخوف** علىٰ مراتب بحسب مقامات الواجدين ؛ **فخوف العامة** من هول الطامة ؛ ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ ، **وخوف الخاصة** من المريدين وأولي العزائم من السالكين ؛ هو خوف الانقطاع وحرمان الاجتماع ، **وخوف الواصلين من العتاب** ، وإرخاء الحجاب ، والبعد بعد الاقتراب ، **وخوف المشاهدين** من المكر في غيب الأمر ، وما بين ذٰلك مقامات من الخوف بحسب الأحوال ، **ولا يمكن حصرها على التفصيل** ، فهٰذا الخوف فرع عن تجلي جلال يقلع الهوىٰ من القلب ، ويزيل الشهوة ، ويقطع أثرها ، ويحسم مادتها بالكلية .

أو شوق مقلق ، فقلق الشوق لأهل المواجيد الذائقين حلاوة الحب ، والكارعين مناهل الوصال ، فوهجه شديد ، وناره تلهب تقول : هل من مزيد ، فأنَّىٰ يبقىٰ للشهوة مع ذٰلك أثر ، أو يسمع لها خبر ؟!

**وهٰذا الحال من المواهب القربية** ، لا من الأعمال الكسبية ، فإذا وردت على المحل . . **فرغ عن كل شيء سواها** ، وأصبح فؤاد أم موسىٰ

(١) في النسخ : ( فإخراج الشهوة ) بدل : ( فما يخرج الشهوة ) .

(٢) **شناخيب الجبال** : رؤوسها .

فارغاً عن غيره ، **والشوق مقدمة الذوق** ، وهو منه ؛ فمن لا ذوقَ له . . لا شوقَ له ، لكن يكون التمكن من الوصال .

**ومن ضرورة الشوق** : القلق المفرط ، **ومن علامة الخوف** : الانزعاج عن الأخلاق اللئيمات ، والركون إلى المحبوبات ، **فلا يقلع تشبث الشهوة من القلب إلا هذان الواردان** ، وما سواهما لا ينجع فيه ؛ **لأنهما أول مبادئ الأحوال الوهبية** ، ودونهما أعمال كسبية ، لا تقوىٰ علىٰ إزالة الشهوة من القلب ، **ولي في ذلك** :

القلب مغمورٌ في شَهْواته فمتىٰ ... ورَدْ عليه فتوح الغيب يثنيها
وأول الفتح خوفٌ مزعجٌ فإذا ... ورد عليه بسطوة قهر تنبيها
أو شوق مقلق حبات القلوب إلىٰ ... وصال محبوب في الأرواح أثبيها

❁ ❁ ❁

**فالأعمال** فرع عن صدق الأحوال ، فمتىٰ كانت الأحوال صافية . . خرجت الأعمال خالصة ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

كَمَا لَا يُحِبُّ ٱلْعَمَلَ ٱلْمُشْتَرَكَ . . كَذَٰلِكَ لَا يُحِبُّ ٱلْقَلْبَ ٱلْمُشْتَرَكَ

كما علمت أن العمل المشوب بشوائب الرياء والإعجاب ، ومحبة ظهور الصيت والشهرة . . ممنوعٌ عن القَبول ، ومردودٌ عن الوصول ، ومسلوبٌ عن المحصول ؛ وذٰلك لغلبة رؤية الخلق ، وعظمهم عند العامل ، واحتجابه عن الله وعن عظمة الله ، كما كان ذٰلك ـ أي : إشراك الخلق في الأعمال ـ مانعاً عن القبول . . كذٰلك بل أولى القلبُ المشترك ، الذي هو موضع نظر الله من الإنسان ، إذا أشرك فيه غيره بالمحبة والاعتماد . . فذٰلك مانع ـ لا محالة ـ من ورود الأنوار ، وتجلي الأسرار التي يحظىٰ بها الصادقون من أولي البصائر الصافية ، والعقول الوافية .

ومحبة الله : رضاه عن العبد في الأعمال ، وتجليه له في القلب بورود تجلي الأسماء من وراء أسجاف الغيب ؛ التي يعبرون عنها بالأحوال ، فإذا منع عدم الإخلاص عن القبول ـ الذي هو الرضا به ـ الذي تحصل به المثوبة والقربة المؤديتان إلى المحبة . . فالقلب أولىٰ ألا يشرك فيه غير من هو محل نظره ، ولا يعتمد علىٰ سواه ، فالشرك فيه ـ لا محالة ـ حجابٌ عن صدق الإقبال ، والشرك في الأعمال نتيجتها رؤية الخلق في الأعمال وعدم القبول ، ونتيجة رؤية عدم النفس عدمُ الإقبال ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

ٱلْعَمَلُ ٱلْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ ، وَٱلْقَلْبُ ٱلْمُشْتَرَكُ لَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ

لأن شرط القبول في الأعمال التقوىٰ ، ولا تقوىٰ لمن يتقي رؤية

الخلق برؤية الله ، قال الله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، **ولا يكون إقبالٌ من الله على القلوب** وفيها غيره محبوبٌ أو مرهوب ؛ لأنه لا يتقاوم الضدان ، **فوجود الحق** لا يقوم له الباطل ، وما سوى الله باطل ، فأي شيء كان في القلب كائناً ما كان . . فاستدل على أنه **لم يقبل الله عليه** ، ومتى فرغ من الآثار وخلي عن الأغيار . . لا جرم أن الله قد واجهه وأقبل عليه ، فلتكن من ذلك على بصيرة ، **ولي في ذلك** :

فكل عاقلٌ لا يخلص عن الغير   لا يقبل الله منه القول والعمل
وكل قلبٍ لا يصفو عن الكدر   لا يقبل الله كما قد صحَّ في المثل

* * *

الأنوار يعبر عنها بحالة العبد الراهنة ؛ **فمن الخلق** : من يكون في مقام الإسلام ، **ومنهم** : من يكون في مقام الإيمان ، **ومنهم** : من مقامه الإحسان ؛ **لذلك قال المؤلف** رضي الله عنه **مشيراً إلى ذلك فقال** :

## أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلْوُصُولِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي ٱلدُّخُولِ

أشار بقوله : ( أنوار أُذن لها ) من الله ؛ لأنها واردةٌ منه في الوصول إلىٰ ساحات القلوب ؛ بأن يظهر لها كوامن الهوىٰ ، ويتبين لها تغرير الشيطان ، وتنبسط عليها أنوار السكينة ، وتعلم نفاسة الأعمال ، ومخادع الآمال ، ومخافة انقطاع الإمهال ، ويكون متحرياً في طلب الحلال ، ويبحث عن القصص والآثار ، وتحقيق الأقوال .

( وأنوار أذن لها في الدخول ) إلىٰ باطن القلب ، وهي أنوار الإيمان ؛ لأن باطن القلب موضع الإيمان ، ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ ، فدل [ على ] التغاير بين المقامين ؛ وذٰلك أن الإسلام : قولٌ باللسان ، وعملٌ بالأركان ، والإيمان : ذٰلك أيضاً مع مصاحبة تصديق الجَنَان .

وللإيمان مراتب في نفسه : فمنه القوي البالغ ، ويعبَّر عنه باليقين الذي لا يتطرَّق إليه الشك بحال ، ومنه الضعيف ؛ وهو الذي يتجدد ويخلق ، ومنه الكامن ؛ وهو الذي تثيره المواعظ القرآنية ، ومنه الظاهر ؛ وهو أصل الأحكام الظاهرة العملية ، وتتمشىٰ فيه الاجتهادات الاستنباطية الفقهية .

واسم الإيمان يعمُّ سائر المراتب القُرْبية ، وعليه ينزل اختلاف الأقوال ، وتغاير الأحاديث في وصف المؤمن ؛ حيث قال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، وقال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ ، وفي الحديث : « لا يؤمنُ أحدُكُم حتىٰ يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما »(١) .

---

(١) رواه بلفظه أحمد ( ٣/٢٠٧ ) ، وبنحوه البخاري ( ١٦ ) ، ومسلم ( ٤٣ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

ومن المعلوم : أن الجم الغفير من المؤمنين يؤثرون بعضَ المحبوبات علىٰ محبة الله ورسوله ، فلم يخرجهم ذٰلك عن اسم الإيمان ، والكلام فيه يحتاج إلىٰ إفراد كتابٍ مستقلٍّ حافلٍ لأقوال العلماء فيه ، واختلاف عباراتهم ، وتنزيل احتمالاتهم ، وقصدُنا شرح كلام المؤلف .

والدخول في باطن القلب أيضاً متفاوت ؛ فمنه الداخل إلى التجويف الأول من تجويفات القلب ، ومنه البالغ إلىٰ سويدائه والواصل إلىٰ لُبابته ، وعنده تتجلىٰ أسرار الصفات ، وتخترق البصيرة العوالمَ الجبروتيات ، فهٰذه أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصول إلىٰ غاية المأمول ، كما أُذن لأنوار الإيمان في الدخول والنفوذ عن الوقوف عن حصر المعقول والمنقول ، وعلم تأويل النزول بلا تعطيل ولا حلول .

فالوصول إلىٰ ظاهر القلب : هو ما يكون العبد ممتثلاً به ظاهراً ، والدخول إلىٰ باطنه : هو ما يكون به مستسلماً لأحكام الحقيقة باطناً ، والوصول إلى السويداء : هو ما يكون عنه به فانياً ، وتمكُّنُ ذٰلك يكون به باقياً ، ويُعبَّر عنه بالإحسان الذي يُعبَد الله به على العيان .

والنور الداخل : هو الإيمان الذي باشر الجنان ، والنور الواصل إلى الظاهر : هو الإسلام الذي هو عمل الأركان ، وبه يكون الأمان على الأموال والأبدان .

ولي في ذٰلك :

أنوار أهل الظواهرْ واصلاتٌ إلىٰ ... ظواهر القلب موقوف على العملِ
ونور أهل السرائرْ ذا خلاف فلا ... يبقىٰ من الشك والأدران والعلل
ونورُ يظهر من سرِّ الغيوب علىٰ ... صفائح القلب يكشف عالم الأزل

**فالأنوار ترد من باب المواهب الربانية ، لا اعتمال للعبد فيها ، إلا** أنها إذا وردت ووجدت محلاًّ صالحاً لنزولها قابلاً للوصول . . **تمكَّنت واستودعت فيه** كاستيداع الماء في الأرض الطيبة ، وإذا لم تتأهَّلْ . . مرَّتْ عليه كمرور الماء على الأرض السبخة ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

٢٠٤

رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ ٱلْأَنْوَارُ ، فَوَجَدَتِ ٱلْقَلْبَ مَحْشُوّاً بِصُوَرِ ٱلْآثَارِ ، فَٱرْتَحَلَتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ

٢٠٥

فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْأَغْيَارِ . . يَمْلَأْهُ بِٱلْمَعَارِفِ وَٱلْأَسْرَارِ

ربما وردت علىٰ ندور عليك أيها الإنسان ، وورودها لا يختصُّ بوقتٍ دون وقت ، ولا بزمانٍ دون زمانٍ ، ولا بإنسانٍ دون إنسان ، والأنوار الوهبية قد ترد على العبد وهو غير متأهِّل لها ، فلا تجد في القلب موضعاً ؛ لغلبة الشهوات الحيوانية ، والطبائع البهيمية ، والكثائف الأرضية ، وهي منزَّهة مقدسة لا تصلح لمجاورة هٰذه القاذورات ، وهي ضيف نزل ومن شأنه الإكرام عند الأحرار الكرام .

فمن إكرامه : تطهير محله ، وتفريغه عن هٰذه القاذورات المباينة لعالمها الروحاني ، وتحلية المحل بما يصلح لها ، كذٰلك مما هو من عالمها من صنوف الطاعات ، وتحري الموافقات في جميع الأوقات ، فعساها تجده حال نزولها فارغاً عن كثائف الأغيار ، ومطهراً من تلويث الآثار ، فتحفُّه الأنوار ، وتمتلئ شهود الأسرار .

ولهٰذا أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ ذٰلك وهو الصادق حيث قال : « إن لله في أيام دهركم نفحاتٍ ، فكونوا لها متعرِّضين »(١) ، وتعرُّضك لنفحاته لا يكون إلا بالمثابرة على الطاعات ، والإقلاع عن المخالفات .

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٦٣٤ ) .

وأما عند امتلاء حواشي القلب بالصور الوهميات ، والكثائف الأرضيات . . فأين تنزل المعاني الملكوتيات ، والأسرار القدسيات ؟! وأين ترقم العلوم الكشفيات وقد أحاطت بلوح القلب الحروف الجسمانيات ؟!

فإن أردت أن يرقم قلم الأزل في ورق القلب علومه . . **ففرغه عن هٰذه بتحري الرياضات** ، واختيار الخلوة ، وركوب الفلوات ، فللتخلِّي أسبابٌ يتوصل بها إلىٰ فراغ القلب عن الأغيار ، وطهارته بها عن الآثار معروفة عند أرباب الصدق في المجاهدة التي هي طريق المشاهدة ، **وصفها الله لعباده بحكمه وسابق علمه** : أن رزق بعض المريدين من السالكين لا يأتيه إلا بعد مزيد اجتهاد ، وبعضهم يأتيه رزقه المعنوي بدون ذٰلك ؛ كما هو مشاهَدٌ في الأرزاق الظاهرة ، فيسمىٰ مجذوباً وسالكاً ، وفي الأرزاق الظاهرة يسمىٰ متسبِّباً ومتجرِّداً ، **ولي في ذٰلك** :

فربما ترد الأسرار واصلة ... من عالم القدس مشهدُ حضرة الأزل
فتلتقي القلب محشواً مخايله ... من عالم الحس والآثار مشتغل
فترتقي بعد مِنْ ٱلاوطان قافلة ... وقل مرجعها في ذٰلك السبل
ففرغن عنه ما عن ذاك حائلة ... علىٰ شهود بلا كيفٍ ولا مثل

* * *

**فإذا عرفت أن الأسرار** لا تباشر القلب عند اشتغاله بالصور والآثار ، **وأن الأنوار** لا ترد إلا بعد التفرغ عن الأغيار . . **قال المؤلف رضي الله عنه** :

## لَا تَسْتَبْطِئْ مِنْهُ ٱلنَّوَالَ ، وَلَـٰكِنِ ٱسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْإِقْبَالَ

**لا تستبطئ** - أيها الطالب المتعرِّض لنواله وفيض إفضاله ؛ أي : من الفضل المنيل لصنوف الألطاف ووجود الإسعاف - النوالَ الذي أنت له متعرِّض ، وفيه متسبِّب ؛ فإنه مستمرٌّ مدرار ، وما تخلف عنك إلا لعدم تأهُّلك ، وهو إقبالك بكلية همتك ، وبذل وسع جهدك ، **وليس هناك إلا الإقبال** .

ولا يحصل الإقبال إليه ودعاءُ غيره لك مشهودٌ ، وفي مرآة قلبك موجود ، ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ، **فليس للقلب إلا وجهة** ، فمتىٰ كان غيره عندك مشهوداً . . **فأنت مدبرٌ منه** ، ومعرضٌ عنه ، ومتىٰ قابلته . . **اضمحلت عندك سائر الموجودات** ، وفنيت لذٰلك سائر المشهودات ، **ولي في ذٰلك** :

نوالُ ربِّك فيَّاضٌ ومنسجمٌ  علىٰ دوام تجلي الوصف بالكرمِ
فقابلِ آنَ شئت وجه الأمر واحتكم  تأتيك ألطافُ ما في حضرة القِدَمِ

**والإقبال** : هو أن تكون بحقه عليك مبادراً ، وإذا كنت كذٰلك . . **لم تجد وقتاً** إلا وله عليك فيه حق ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

حُقُوقٌ فِي ٱلْأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ، وَحُقُوقُ ٱلْأَوْقَاتِ لَا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ ٱللهِ فِيهِ ؟!

**الحقوق التي في الأوقات** : هي التكاليف المفترضة على العبد بحكم الرب ، فوسَّع الله على العباد فيها ؛ لئلا يصيروا في الحرج بالمؤاخذة على ما فات ، التي تضاد وضع الإصر عن هـٰذه الأمة ، فكلُّ مفترضٍ شرعي في وقتٍ مخصوصٍ إذا فات . . أمكن أن يقضىٰ في غيره من الأوقات ؛ لأن الزمان الوقتي ظرف للأمر الشرعي ، وذٰلك من لطفه بعباده ، فهي ممكنةٌ لهم كلما عادوا .

وأما **حقوق الأوقات** التي هي معاملة أرباب القلوب بحسن المراقبة للمحبوب . . فترى الأوقات كلها لهم خزائن تظهر من حضرة الغيب ، والخلق يُودِعون فيها صنوفَ الأعمال ، وهي راجعةٌ شاهدةٌ ممن أودع فيها خيراً ، وعلىٰ من أودع فيها شراً ، ومن فرَّغها ، فتكون بين يدي الله إلىٰ يوم المرجع والمآب ، فتنشر تلك الصحائف ، وتظهر تلك اللطائف ، فحقُّ العبد حسن المعاملة لله فيها ، فإنها تطالبه كل حالةٍ بقيام بحق ، وهو لا يخلو : إما أن يكون من عالَمِ الفضل ، أو من عالم العدل .

فعالم الفضل يجعل الشكر له مقابلاً ، والشكر : إما عملٌ بالظاهر ، وإما ابتهاجٌ بالباطن .

وعالـم العـدل يقابـل بالتسـليم والاحتـكام تحت جريان الأحكام ، وهو باطناً من أعمال القلوب ، ويسمى استسلاماً ورضاً ، ويسمىٰ صبراً واستعباراً .

وكل حالة من هـٰذه الأحوال مقابلةٌ لواردٍ من تجليات الغيب ، فلا يخلو العبد لحظة عن هـٰذه التجليات ، فلا يغفُلُ عن هـٰذه المعاملات .

والحقوق في الأوقات يخاطب بها العموم ، وحقوق الأوقات يخاطب بها الخصوص ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أُعطي فشكر ، وابتُلي فصبر ، وظُلم فغفر ، وظَلم فاستغفر » ، فسكت ، فقيل : ما له يا رسول الله ؟ فقال : « ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ »[1] ، فهم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، وذٰلك لا يكون إلا لأهل الشهود والعيان ، الذين لم يُدَنِّسوا حُلل الإيمان ، ولم يشوبوا شهود الإيقان ، اهتدوا إليه ، ثم هم مهتدون به ، فأمنوا بتحقق عن أن يكونوا متلبسين بظلم ؛ وهو أن يصرفوا نَفَساً من أنفاسهم في غير ما خُلقوا له .

والأوقات : أساس مباني الدرجات لمن راعىٰ حقوقها ، والأوقات : رأس مال الصوفية ، ففيها يتَّجرون البضاعات الأخروية ، وهي من أعز ما عندهم ؛ فالأنبياء : يراعون الحقوق في الشهوات ، وأدق منها ؛ مما لا تحويه العقول ، ولم تحط به النقول ، والصديقون : يراعون الحقوق في الأنفاس ، والشهداء : يراعون الحقوق في لطائف الحواس ، والصالحون : يراعون الحقوق في الأعمال ، وتطهير الأخلاق عن شوب العلل وطرق الملل ، والمؤمنون : يراعون الحقوق علىٰ ممر الساعات وتعاقب الأوقات ، والله أعلم .

وتحت هـٰذه الأصول الأربعة الحاصلة من ضرب اثنين ـ وهو الباطن والظاهر ، والفضل والعدل ـ فروع كثيرة ؛ ففي الشكر والصبر جميع

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » ( ١٣٨/٧ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ٤١١٧ ) عن سيدنا سخبرة رضي الله عنه .

المأمورات ، واجتناب المنهيات الظاهرة والباطنة ، وفي الابتهاج والشهود جميع الأحوال الباطنة ، فحاصلٌ : أنَّ الوقت لكلٍّ من أهل المقامات بحسب مقامه ، ويكون تفاضلهم في الدرجات بحسب ما هم الآن عليه من الكمال ، ولي في ذٰلك :

إن الحقوق في الأوقات يعرفها ... كل البرية من قاصٍ ومن داني
وثَمَّ للوقت شيءٌ ليس يهملها ... إلا جهولٌ عن التحقيق ولهان

إذا تحقَّق ذٰلك . . علمت أن الحقوق التي في الوقت ممكن فيها القضاء ، وحق الوقت لا يمكن قضاؤه ؛ لعدم الاتساع ، إذ الوقت الذي تريد القضاء فيه مطالبٌ أنت فيه بحقه ، فمتىٰ تفرغُ أنت من الأداء لتأتي بالقضاء ؟ ومن هنا بكى الأكابر الدماء علىٰ ضياع الوقت ؛ فالحاضر مقدَّمٌ علىٰ حق الفائت .

قال بعض المحققين : ولك طريق في إيفاء الأوقات حقها في وقتٍ واحد ؛ وهو أن لك في اليوم والليلة أربعةً وعشرين ألف نفَس ، إن تقل كل يوم أربعة وعشرين ألفاً من الجلالة ، تقول : ( الله ، الله ) . . فإنك تأتي بها في قريبٍ من ساعة وثلث ، قال : فتُبْعَثُ في زمرة من لم يغفل عن ذكر الله نفَساً ، وهٰذا من باب المعاملة الظاهرة .

وأما أهل القلوب الصافية . . فإنهم مع الله أبداً ، لا ينفكُّون عن شهود وجوده في كل مرئيٍّ ومسموعٍ ومحسوسٍ بأي الحواس ، فوجه الحق لهم سافر ؛ ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، ونوره علىٰ صفائح الوجود ظاهر ؛ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، فهم الذين وفوا بحق الوقت ، وكان الوقت لهم وقتاً .

* * *

وأما الواقفون علىٰ رؤية الأغيار ، والمطموسون تحت ظلمة الآثار . . فهم صار الوقت عليهم مقتاً ؛ فلذٰلك كان الوقت عزيزاً عند العلماء بالله ، الشاهدين للعالم الأخروي ، الذي تنعكس فيه ما أسلفت في العالم الدنيوي صوراً أخروية .

فمن حافظ على العمر الذي هو المراد بالوقت ، وفيه تزرع أصناف السعادات باقتناء العبادات . . فلا ترىٰ ما يحصل له من عظيم السعادة الأخروية [1] ، ومن فوّته . . ما ترىٰ أيضاً ما يترادف عليه من الحسرات على الفوات ، والوقوع في حبائل المعاصي والشهوات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه منبهاً علىٰ هٰذا المعنىٰ :

---

(١) قوله : ( فلا ترىٰ ) أي : فلا تعلم .

مَا فَاتَ مِنْ عُمُرِكَ . . فَلَا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ . . لَا قِيمَةَ لَهُ

**عمر العبد** : هو مدة إمكانه ، وفسحة زمانه ، وهو مزرعة السعادات ، وبذر المكاشفات ، وأصل دوحة القربات ، ومنها تمتدُّ أفنان الدرجات ، ومن الذي يحيط بما تحت ذٰلك فضلاً عن أن يكون ثمناً ؟! كيف وموضعُ سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها[1] ، وأقل جزاء من يدخلها يعطىٰ مثل الدنيا مرات ؛ كما ورد ؟![2] فمن ذا الذي يقدر ثمن ذٰلك ؛ وأصل كل ذٰلك ما أسلفه في هٰذه الأيام والساعات القليلات ؟! وقد ورد : « ما يتحسَّر أهل الجنة إلا علىٰ ساعةٍ مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله فيها »[3] ، وأين عوض عن الساعة الماضية الفائتة ؟! هٰذا عند عامة أهل الولاية .

وأما خواصهم . . فما يتحسَّرون عليها لفوات حظٍّ من الحظوظ العاجلة أو الآجلة ، إنما يتحسرون علىٰ فوات مجالسة المحبوب ؛ كما ورد : أن داوود عليه السلام ما زال يبكي حتىٰ قال الله له : ( يا داوود ؛ مِمَّ هٰذا البكاء ؟ إن كان من الذنب . . فقد غفرته ، وإن كان من الخصم . . فقد أرضيته ، فقال : يا رب ؛ ليس من ذٰلك ، لٰكن من الساعة التي واقعت فيها ما واقعته هل تعود لي معك ؟ فقال : يا داوود ؛ فات ما فات ) أو كما قال مما هٰذا معناه .

وكان السلف الصالح يحرصون على الوقت الحرص الشديد ،

---

(١) رواه البخاري ( ٣٢٥٠ ) ، وأحمد ( ٤٣٣/٣ ) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم ( ١٨٧ ) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » ( ٥٠٩ ) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه .

ويحافظون عليه الحفظ الأكيد ؛ كما روي : أن بعض المريدين رُئي بثوبه وسخ ، فقيل له : ألا تغسله ؟ فقال : ما فرغت له ، وقال بعض المشايخ : ما زالت عن قلبي حلاوة قوله : ما فرغت له ؛ **ولذٰلك سوَّغوا لهم لبس الملوَّنات** لحمل الوسخ ، لقلة فراغهم عن مراعاة ساعات العمر ؛ **لأنهم يبادرون خروجهم عن حدِّ الإمكان كل آن** ، سيما وقد طرق أسماعهم قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ، **كيف لا ؛ وفي مفاوز المجاهدات لنيل رفع الدرجات** ، ومشاهدة ربِّ البريات ، التي بها حسنت المستحسنات ، وراقت بوجودها الجنات ، وتزخرفت ونارت ؟!

**فدخول الجنة بالرحمة** ، والدرجات بحسب الأخذ في الباقيات الصالحات ، **ففيها الخير الوافر** ، والمقام الفاخر الذي لا يحصر تحت حصر حاصر ، المدخر عنده في خزائن الألطاف العندية ، والذخائر الوصفية ، **ولي في ذٰلك** :

العمر ميدان أرباح فبادره ... إن كنت ترجو هناك الفوز فابتدر
تحظى بما لا رأت عين ولا سمعت ... أُذْن ولا ينحصرْ في خاطر البشر
وسوف ترأى وتسمع إن ظفرت به ... في حضرة القرب والإتحاف بالنظر
فالسابقون لدى العليا منازلهم ... من العلا في سما التحقيق كالقمر

❀ ❀ ❀

فكلما علقت به القلوب وجبلت جبلتها .. **انقادت له بعبادتها** ، وتركت في جنب حبِّه عادتها ، فخلصت له لا محالةَ ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْداً ، وَهُوَ لَا يَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً

ما أحببت أيها الإنسان شيئاً من جميع الحدثان وسائر الأعيان والألوان إلا كنت بالضرورة عبداً ؛ إذ العبودية : هي انقيادُ القلب للمحبوب على الطوع والفرح والاغتباط به ، **والمحبة تنشأ من صميم القلب** ، كما ينشأ الحَب من الماء ، فينجذب القالب ـ لا محالة ـ معه ؛ لأن أعمال القالبية حقاً الماء القلبي الناشئ منه ، المنشأ بالحب .

**والأشياءُ كائنةٌ ما كانت آثارٌ زائلة ، وآراءٌ باطلة ، ما عدا الواحد الحق ، فإذا تعلَّقت بباطل زائل . . فهي باطلة زائلة ، وإذا تعلَّقت بحق** موجود وثابت مشهود . . **فهي ـ لا شك ـ ثابتة** ، وهويته تأبى الثنوية في الأفعال والأقوال والأحوال بذاتها ؛ فمحبته بلا علة ، بل هي صفة ثابتة واجبة [1] ، ومحبة غيره جائزة زائلة ، فلأن تكون بمحبته لك . . **أولىٰ من أن تكون بمحبتك أنت** ، وهو لا يحب لك أن تكون لغيره عبداً ، والأغيار كلها عدمٌ لا ثبات لها ، فذٰلك **رحمةٌ منه ولطف** ، ما استعبدك لما هو في نفسه عدم باطل ، وما هو في وصفه زائل .

والعبودية للأغيار الفانية قبيحٌ وظلم ؛ إذ نوَّهَ علىٰ من استعبده بالتعس والانتكاس علىٰ أم الراس ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « **تعسَ عبد الدينار والدرهم والخميصة** » [2] ، وغيرها مثلها في التقبيح ، بل أولىٰ ؛ لأن هٰذه أرفعها عند أربابها ، فإذا قبح الرفيع . . **فما دونه أحق بالتقبيح** ، وفي الحديث : « من أحب شيئاً . . عبده » بمعنى : انقاد له

(١) لأنها راجعة للإرادة ، وإنما هي اسم بحسب التعلُّق .
(٢) رواه البخاري ( ٢٨٨٧ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

باطنه واستعبده ظاهره ، وفي ذلك التقبيح ، قال الله : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، **ولي في ذلك :**

مَنْ حبَّ شيئاً فهوْ عبدٌ له فكذا ... يكون خالص أعمال وتوحيد

فليس يرضاك إلا أن تكون له ... عبداً عتيداً بإخلاص وتفريد

* * *

وإذا كان لا يحبُّ أن تكون لغيره عبداً ؛ لأن الأشياء متوجهة إليك بسِرِّ التسخير ، ألا وأنت لم تندب إلا بالإقبال عليه والتوجه بالكلية إليه .. **علمت أن محبته لا لعلةٍ ولا بعلة** ، بل محض فضلٍ وإنعام ، وتطوُّلٍ وإكرام ؛ **كما قال المؤلف رضي الله عنه :**

لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَٰذِهِ ، وَنَهَاكَ عَنْ هَٰذِهِ ؛ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ

لا تنفعه ـ سبحانه وتعالىٰ وتنزَّه ـ عن إيصال النفع إليه منه ؛ فكيف من غيره ؟! إذ وصْفُهُ الغنى المطلق ، والأغراض والوسائل لا يجوز أن يكون مفتقراً إليها ، والطاعة عَرَضٌ تعود منفعته علىٰ فاعله ، والضرُّ أيضاً لا يجوز طروءه عليه ؛ لأنه منزَّهٌ عن النقائص ، بل عما ليس فيه كمال .

قال : والضر يقهر علىٰ من نزل عليه ، ومبيناً عجز من حلَّ به وتسلط عليه ، وهو سبحانه الضارُّ النافع ، فكيف تضره معاصي العباد ؛ والعباد ومعاصيهم صادرون عن فعله ، بارزون عن خلقه ؟! فكيف ينفعه أو يضره ما هي من جملة مخترعاته ، وصنف من أصناف مبتدعاته ؟! ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

( وإنما ) ؛ أي : إنما الحكمة في إيجابه وندبه عباده إلى الطاعات ، وزجره عن المعاصي وضروب المخالفات ؛ لما يعود عليهم من نفع الطاعات وضر المخالفات ، فالطاعات : وسائل إلىٰ قربه وحبه ورضاه ، والمعاصي : وسائل إلى البعد منه والتهدف لسخطه وشدة أليم عقابه .

وأي منفعة تعود على العبد أعظم وأفضل وأجل من القرب منه وإليه والمحبة والرضا ، وأي مصيبة أعظم عليه وأشد من الطرد عن بابه ، وضرب حجابه ، وشدة سخطه وعقابه ؟! عافانا الله وأحبابنا منه ؛ وذٰلك فضلاً منه ونعمة ، كما تقدم الكلام عليه ، وذٰلك من مقتضىٰ تفضيله العميم ، وعطائه الجسيم ، وعوائده الجميلة ؛ إذ قال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

عن أدناس المعاصي ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مفتتح العلوم الدينيات والأسرار الملكوتيات ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي الترقِّي إلى العلوم الكسبيات ، والأسرار الجلاليات والجماليات ، والنزول في مجاورة المنازل القدسيات ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فالحمد لله الذي هدانا لهٰذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولي في ذٰلك :

فليس تنفعه الطاعات والعمل ... ولا يضره ما نأتيه من زلل
وإنما ذاك عائدٌ ٱلَيْكَ مبتذل ... عليك يرجعُ شؤم الذنب والخطل

❁ ❁ ❁

ثم لما أعلمك : أنه لا تنفعه طاعتك لثبوت غناه ، ولا تضرُّهُ معصيتك لوجوب كماله وعلو جلاله . . أردف كلامه بما يزيل وهمك عن توهُّم زيادة تحصل له بطاعتك لم تكن له تعالى الله عن ذٰلك علواً كبيراً ، أو حصول نقصٍ عن وصف الكمال ، تعالى الله عن الزيادة في صفاته بوجود موجوداته ، والنقصان بوجود الفقدان ، فقال رضي الله عنه :

لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ

الزيادة لا يقبلها إلا من اتصف بالافتقار إلى التكميل ، وجاز في حقه التنقل والتحويل ، وقد علمت استحالة ذٰلك على الله تعالىٰ ، والعزة من أخص صفاته العلية ؛ إذ عند تجليه لا يبقىٰ لصفات الحدوث بقية .

فإذا كان أثر هٰذه الصفة تعجز عن تحويلها وتبديلها سائر البرية . . فكيف تتطرق الأسباب إليها بحصول الزيادة أو حدوث النقص ؟! وإقبال الخلق وإدبارهم تحت حكم عزته القاهرة ، ومسخرون لقدرته الباهرة ، فكيف يكمله أو ينقصه ما هو من جملة اختراعه ، وأثر حكمته وابتداعه ؟!

والإقبال والإدبار لا من حيث الجهة والتحيز ، يتعالى الله عن ذٰلك علواً كبيراً ، بل الإقبال : هو امتثال الأمر المرضي عنه ، والإدبار أيضاً : لا عنه إلىٰ غيره ؛ إذ لا غير معه ، ولٰكن الإدبار : هو نبذ أمره ، وترك ما ندبك إليه ، وارتكاب ما حذَّرك عنه ، وإلا . . فألوهيته محيطة ومطيفة بجميع حركاتك وسكناتك وخطراتك من سائر جهاتك ، لا ينفلت ولا يشذ عنها مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذٰلك مما يعجز تحصيله وتكييفه وغموضه ودقته نطاق البشر ، ولا أكبر مما لا تطيق تقبله حاسة النظر من عظام الصور ؛ كما قال عند تجلِّيه سيدُ البشر : « زملوني »(١) ؛ لعظم ارتعاد الفرائص ، ولم يسكن حتىٰ غاب عن رؤيته واستتر ، ولي في ذٰلك :

(١) رواه البخاري ( ٤ ) ، ومسلم ( ١٦٠ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

فعــزةُ الله تأبــىٰ أن يكــون لهــا بغيرهـا مـن كمـالٍ ليس هـوْ فيها
كـذاكَ لا يعتريهـا النقـص إن لهـا مـن الكمالات ما عـن ذاك يغنيها

* * *

فهٰذا تنزيهٌ في المعاملة واصطلاحٌ لأربابها ؛ يشيرون بالإقبال إلى الامتثال ، ويشيرون بالإدبار إلى التهور في المعاصي والإصرار ، ولأهل الأذواق والمشايخ الحذَّاق إشارات إلىٰ مقاماتهم في اليقين والكشف ، يعبرون عنه بالوصول والاتصال ، وذٰلك إشارة منهم إلىٰ مواصلات وتحف ربانية ، فبيَّنَ المؤلف ما يزيل الشبهة عن إشاراتهم عند مَنْ لا فهم له بمعانيهم ، فقال رضي الله عنه :

وُصُولُكَ إِلَيْهِ وُصُولُكَ إِلَى ٱلْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَإِلَّا .. فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ

وصولك ـ أيها الطالب للوصول ، التارك لترّهات الفضول ، المتمسك بما جوزه المعقول وأثبته المنقول ؛ من التنزيه عن المماسة والحلول ـ هو وصولك إلىٰ أن تعلم وجود ذاته ، وكمالَ صفاته ، وانفراده في قدمه وإيجاده وأبده ، وكل علمٍ يحصل عليه بما فيه دلالة علىٰ وجود أسمائه وصفاته وذاته .. يسمىٰ وصولاً إلىٰ ذٰلك المشهد .

وأعلى العلوم الحاصلة من هٰذه المواصلات وأتم لطفاً من هٰذه التنزلات .. هو العلم بالذات العلية والحضرة الأحدية ؛ إذ هي مما يخص اللهُ أنبياءه وأفراداً من سادات أوليائه ، وتليها رتبة العلم بالصفات ، وهنَّ الأمّهات التي تصدر عن تجلّيها سائر المولدات الفعلية ؛ الروحانية والجسمانية ، الدنياوية والأخراوية ، الملكية والملكوتية ؛ إذ كان غايات الوصول إلىٰ أن توقف بالواصل علىٰ ذروة تجمع الموجودات ، وتفتح له رؤية المشاهدات ، فلا تجد إلىٰ غاياتها انتهاء .

وكيف يثبت الوصول بالمتجلي إذا لم ينته إلىٰ غاية التجليات ؟! فكلما تجدَّدَ نعيمٌ في الجنة .. فعن تجلٍّ برز ، وهلم جراً ، لا انتهاء لكمالاتها ، ولا وقوف علىٰ غاياتها ، وإنما الوصول في هٰذه الدنيا إلىٰ شهود الوجود الحقي بعين اليقين ، وقد يسري في كليات العبد لمح من شهود حق اليقين ، وإلا .. فجلَّ ربنا عما تتوهَّمُهُ عقول الزائغين عن طريق الحق واليقين ، إلىٰ توهم الحلول والتمكين ، والمماسة في أحاديث الاستواء والنزول ؛ فهنا مزلَّةٌ لأقدام الجهال ، بظن الاتصال

بالذوات والصفات ، وكيف يتصل العدم بالوجود ؟! أم كيف يتماثل القدم والحدوث ؟! أم كيف يتصل من لا شبيه له ولا مثيل بمن له شبيه ومثيل ؟! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، ولي في ذلك :

إن قيل وصلٌ فقل علمٌ ومعرفةٌ ... أو قيل فصلٌ فغير الله معدوم

فلا يناسب وصل الحق ما جمحت ... به عقول سَتَرَها ظل يحموم

* * *

فإذا علمت استحالة الوصول المحسوس ، وإنما هو أمرٌ أشار به إلى مقامٍ من مقامات اليقين . . فالقرب أيضاً كذلك ، يشير إليه أهل التحقيق ، فلا بد من إزالة شبهته بالقرب المحسوس بالملموس ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

قُرْبُكَ مِنْهُ هُوَ أَنْ تَكُونَ شَاهِداً لِقُرْبِهِ ، وَإِلَّا .. فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودَ قُرْبِهِ ؟![1]

القرب : هو الدنو إما حساً ؛ وهو مستحيلٌ في حق الله سبحانه ، وإما معنىً ؛ وهو المراد هنا .

وللقرب مراتب ؛ **فأهل الكشف المؤيَّدون بنور اليقين يشهدون** قرب الله إلى العباد بسبق المنَّة ، وتيسير الهداية والعون والقدرة في سائر الأحوال ، **والكلاءة والحفظ ، والمعية اللازمة التي لا ينفك عنها** موجود ، ولا يخرج عن إحاطتها مشهود ، **فيورثهم التأدُّبَ بين يديه ،** والاستكانة والخشوع والمراقبة على الدوام ، وغير ذلك من سنيات الأحوال ، وزواكي الأعمال ، **فيكونون بذلك منه قريبين** ، ويجدونه لدعائهم مجيباً ، ولقلوبهم حبيباً ، ولدائهم طبيباً ، **يأوون إليه كما يأوي الطير إلىٰ وكره** ، ويحنُّون إلىٰ لقائه كما يحنُّ الغائب إلىٰ وطنه ، **ويتضرَّعون بين يديه** كما يتملَّقُ المحب إلىٰ حِبِّه .

**وأما السالكون** الذين لم يحظوا بالكشف بعد .. **فهم في رؤية شهود قربهم منه** من حيث ما أخبر به عن تقرُّبِ عبده منه ، وهو قوله في الحديث : « ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل »[2] **فالعبد يتقرب** ، والحق قريب ، **وما يقرب إلا بعد سبق بُعده** الذي هو له وصف ، ولحاله نعت ، **والحق وصفه القرب** ، ونعته الحب بقوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ ، وقوله : « حتىٰ أحبه » ، **فالوصف اللائق بالمحبة :**

---

(١) مشهور رواية الحكمة : ( أن تكون مشاهداً لقربه ) .

(٢) رواه البخاري ( ٦٥٠٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

معرفته ببعده وقربِ اللهِ منه حتىٰ كأنه يراه ، **ولي في ذٰلك** :

من أنت والقرب لولا قرب رحمته ... من العبـاد لصاروا في عمى العدم

هـو القريـب مـن الأشيا بحكمته ... معَ عـلا عـزِّه الموصـوف بالقـدم

* * *

قـد علمـت أن القـرب إما قـرب **كشـفٍ وعيان** ؛ وهو لأهل الكشـف والبيـان ، وإمـا قـرب تخلُّـقٍ **بمعانـي الإيمان** ؛ وهـو الترقي فـي معارج النوافل ، وهو على الحقيقة قرب من الله للعبد ، **فيثبت أن الحقيقة أصل** لمبانـي الشـريعة ، والشـريعة طريق ظهور الحقيقة ؛ **لـذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

## ٱلْحَقَائِقُ تَـرِدُ فـي حَالِ ٱلتَّجَلِّي مُجْمَلَةً ، وَبَعْـدَ ٱلْوَعْيِ يَكُـونُ ٱلْبَيَانُ :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

الحقائق القُربية ، والأسرار اللطفية ، والعلوم الغيبية ، والتجليات الوصفية . . ترد على القلوب وهي متصفةٌ بوصفها ، ومتجلية بنعت جمعها ، لا افتراقَ في وحدتها .

والقرآن صفته الجمع ، وإذا أُلقي على صفحات القلوب . . وصف بكونه فرقاناً ، وإذا ظهر على اللسان . . يكون بياناً ، فأول ما يتجلَّىٰ في مظهر الهوية وتجلي الأحدية ، ثم يتنزَّل في حلل الصفات الربانية ، ثم في المظاهر الأسمائية والقوابل الروحانية ، ثم في الصفائح القلبية ، ثم في اللسان البيانية الشرعية .

وهٰذه الحقائق الوهبية قد ترد على القلب بصفة عالمها الجمعي ؛ وهو ما عليه من وصفه الفرقي ، فيتلقى الترجمان عنه كذٰلك ، ثم يعرض على البيان ، فيجدها موطدة الأركان ، مشيدة البيان ، موافقة لما شاهده العقل وحكم به البيان ، فتكون استفادته بعد بثِّه وتأمله ، وتكون حالة العبد حينئذٍ سالمة من الدعوىٰ ، وطاهرة عن لوث الهوىٰ ، كغيره ممن يسمعه لا يثبت نفسه في وجوده ؛ لأنه لا تعمّل له فيه ، بل برز من عين المنَّة وصرف الرحمة ، وهو علم الوراثة الأمية التي هي غير مكتسبة من دراسة ، ولا مجموعة من أقوال الخلق ، بل إلقاء من حكيم حميد .

والحقائق من حيث هي منسوبة إلى الحق من غير مزج خلق ، فسماها باسمه ، ونعتها بنعته ، فقال : ( الحقائق ) جمع حقيقة .

وقال : ( ترد ) والورود : هو ما يأتي من المحبوب من غير استعداد له ولا شعور به ، وهو الغريب الطارق ، والحقائق لعزتها وبُعد منالها عن الإدراك الخلقي تسمىٰ واردات .

فقال : ( يتجلىٰ ) لأن التجلي من نعت الحق ، والتجلي : هو ظهور وصفٍ علىٰ موصوفٍ به لمن يعرف ذٰلك الوصف قبل ، فأسفر الموصوف به عنه ، فعرفه من كان بذٰلك الأصل جاهلاً ، وأتقنه من كان عنه ذاهلاً .

ولٰكن لا يُعرف إلا نور لطيف ، من عالمه يكون له متلقياً ، وبه خبيراً ، وبجماله بصيراً ، وإلا . . لم يجامع الظلمة النور ، ولا العدم الوجود ، ولا القدم الحدوث ، ويُعْنىٰ بذٰلك النور اللطيف تجلي الاسم الأول ، والوارد عليه تجلي الاسم الآخر ، وظهوره من خفي الاسم الباطن إلىٰ شهادة الاسم الظاهر .

والقرآن تجلي هوية الحق ، والبيان ظهور ألوهيته ، فإذا ظهر الجمع . . أَفْنِ عنك البصر والسمع ، وكن متبعاً له في جمعيته .

ثم تلت الألوهية فرقانها ، وميزت أعيانها ، وظهر بيانها ، وزخرفت جِنانها ، وسعَّرت نيرانها ، ونصبت للأعمال ميزانها ؛ فشأنها شأنها ، ظهر من زوايا الحقائق مَنْ كَمَن ، وأعلن ما بطن ، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا . . . ﴾ إلىٰ آخر الآيات .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا . . . ﴾ إلىٰ آخر الآية ، وهٰهنا غيوب تفتح في روازن هٰذه الإشارات المصونة تحت صرائح هٰذه العبارات .

ولي في ذٰلك :

إن الحقائـق حـقٌّ فـي تجلِّيهـا — تـرد وفـي عالـم الإنسـان يحكيها

في حال مـا تجتلىٰ للعبد مجملة — لـم يـدر أيـن محلـهُ فـي مبانيهـا

حتـىٰ يـرد إلـى الأوطـان فرقتـه — فيعـرف أَنْ لا خلاف فـي معانيها

* * *

إذا علمت أن الحقائق ترد بوصف الجمعية ونعت الحقية . . فلا جرم أن تضمحل لذٰلك الرسوم الخلقية والأوهام الغيرية ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَىٰ وَرَدَتِ ٱلْـوَارِدَاتُ ٱلْإِلَـٰهِيَّةُ عَلَيْـكَ . . هَدَمَـتِ ٱلْعَوَائِـدَ عَلَيْـكَ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

**متىٰ وردت عليك** الـواردات الإلـٰهية ، وتجلَّت النعـوت الأزلية ، وأشرقت الشـموس الروحية ، وبرزت الأسرار الوصفية . . **هدمت مباني الغيرية** ، وعطلت الموارد النفسـية ، وزلزلت **العادات الخلقية** ، ومحت الطبائع الجبلية ، ومحقت الخيالات الوهمية ، ووصفت بالملكية وشدة الغلبة **والقهر لما ضادَّها** ، وقصمت ما نادَّها ، فإذا دخلت ملوك الأنوار . . **هدمت سـور الظلمات** ، وتقشـعت الأسـتار ، **واضمحلـت متخيلات الأغيار** ، وانمحت علوم الآثار ، ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

وإذا دخلت الأنوار الحقية القرية النفسية . . **انطمست الآثار العادية** ، « إن النور إذا دخل الصدر . . انشرح له وانفسح » قيل : هل لذلك من علامة يا رسول الله ؟ قال : « نعم ؛ التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلىٰ دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] ، **ولي في ذلك :**

النور يقهـر ما في النفس محتكماً مـن العوائـد والشـهوات يرميهـا
حتـىٰ يصيـر بنـور الله منشـرحاً وينفسـح مـن ظـلامٍ راسـخٍ فيهـا

* * *

**واردات الأنوار لا تصادمها ظلم الأغيار** ، كما لا ثباتَ لظلمة الليل عند طلوع ضوء النهار ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٥٤٠ ) .

**اَلْوَارِدَاتُ : تَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَٰلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَغَهُ :**

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

الواردات المذكورة آنفاً التي مِنْ وصفها القهر والغلبة **تأتي وهي بوصف هٰذه المواهب اللدنية بالإيتاء** ، قال الله في وصف الحضرة بهٰذه العلوم : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ ، **وهٰذه هي التقوى المؤتاة** ، التي لا ثباتَ معها لأحدٍ سواه ؛ لأنها أتت من حضرة قهارٍ يقهر كل ما سواه ، **وهو الله الغالب علىٰ أمره** ، القاهر فوق عباده ، فلأجل كون هٰذه المواهب الواردة وردت من حضرة قهار . . **أزالت ظلم الأغيار** ، وكانت لجنود الإيمان جنة في صورة نار ؛ **فالظلمة هي العدم** ، والنور هو الحق ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وإذا قذف بالحق الموجود على الباطل العدم . . **بطل واضمحل** .

**ثم استشهد بهٰذه الآية القاطعة** بأن الحق ظاهر دامغ لزهق الباطل ، **والزهوق** : هو الزوال ، من الشبه في المثال ، في الذات والوصف والفعال ؛ فحيث ما تصفحت صفائح الوجود . . لم ترَ غير الحق مشهوداً ، ولا في الكون سواه موجوداً ، ولي في ذٰلك :

ما دام في النفس للأغيار مستكن ... أورَدْ عليها تجلِّي إسم قهَّار
يخرق وجود السوىٰ لم يبقَ لَهُ سكنٌ ... ويظهر أنّ جميع الكون أنوار

❁ ❁ ❁

ولأجل ذٰلك شاهد وجود الحق ظاهر ، ووجه الحقيقة سافر في سائر المظاهر ، ينادي في كل مشهودٍ : أنه الظاهر ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

كَيْفَ يَحْتَجِبُ ٱلْحَقُّ بِشَيْءٍ ، وَٱلَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

كيف يكون الحق يحتجب بشيء ، وقد علمت أن كل ما سوى الحق باطل ، والباطل زاهق ؛ أي : زائل ؟! فإذاً ؛ لا حجاب على الحق ولا نقاب إذا كان ما يحتجب به ـ وهو الأغيار وصور الآثار ـ **هو ظاهرٌ فيها بالتصرُّفِ والاقتدار** ، الذي من جملتها تقلُّبُ الليل والنهار ، ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ، **وموجودٌ حاضرٌ** بقيوميته واستغراق معيته ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ ﴾ ، **ولي في ذلك :**

فكيف يحجبه ما كان مظهره ... معدوم لولا وجود الواحد الأحد

فالحق نور فلا الأغيار تستره ... فالله حق عياناً باسمه الصمد

* * *

فإذا وقع الكشف . . **ذهب عن العبد العناء في سائر العبادات** ، وتوالت عليه أنواع المسرّات ، وما لم ينكشف له الحجاب . . لم يزل في الأعمال متعوباً ، وللأحزان مصحوباً ، ولكن الله بجميل لطفه وحنانه وعطفه . . **جعل له ميزاناً يعرف به ما كان لله** من غير التفات منه إلىٰ حضور أو عدمه ، وذلك ما جعله له في الاختيار مما تنبو عنه ثواقب الأبصار ، فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾ ، فإذا عمل العبد عملاً يكون فيه غير مختار ، بل يفوض ذلك إلىٰ حسن الاختيار . . فربما يكون من الله لعبده اختيار ؛ لذلك **قال المؤلف رضي الله عنه :**

لَا تَيْئَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ ٱلْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا قُبِلَ مِنَ ٱلْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلاً

لا تيئس أيها المريد ؛ فإن اليأس من علامات الكافرين ، ولـٰكن أَحْسِنِ الظن بالله في جميع أفعالك وأحوالك ؛ فإنه ورد : « أنا عند ظنِّ عبدي بي »[١] ، والقبول من الله مأمول ؛ لأنه ما وفَّق للعمل إلا والمرجو من فضل الله أن يقبله ، ويتجاوزَ عن تقصير عبده ، وتفريطه فيما قصَّر وفرَّط .

وكفى العبد قصد التقرب إلى الله كائناً ما كان ، ولا يقدح فيه إذا لم يجد له ثمرة عاجلاً ؛ من حضور ، وانشراح به وسرور ، وتنعُّم وحبور ، بل ذٰلك ـ أي : الذي لم يجد ذٰلك ـ إذا كابد العمل . . صابره أقرب لأدب العبودية ، وأبعد عن شائب الحظ والملل المذموم ، ما أدىٰ صاحبه إلىٰ ترك العمل ؛ فربما قارن القبول ذٰلك العمل ، وكانت ثمرته مدخرة في الدار الآخرة ، فيجدها موفرة سالمة من الإعجاب بذٰلك العمل ؛ لأنه إذا لم يدرك ثمرته . . يسقط من عينه قدره ، ويقلُّ عنده خطره ، فيسلم له ـ لا محالة ـ من مفسدات الأعمال ، وذٰلك غاية مطلب الصادقين سلامة أعمالهم عن دواخل الشرك ، فينبغي أن يعظم رجاء العامل ، ولا ييئس من القَبول ، ولي في ذٰلك :

لا ييئس العبد من روح القبول إذا
لم يدرك الروح والإحسان في العمل

(١) رواه البخاري ( ٧٤٠٥ ) ، ومسلم ( ٢٦٧٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فربمـا كان يقبَـلُ منـه مـا لـم يكـن
يـدرك العبـد مـن ثمراتـه الأمـل

* * *

فثمر العمل : هو الوارد على القلوب من أسرار الغيوب ، فإذا ورد على القلب وارد . فلا يبادر بتزكيته حتىٰ يعلم حصول ثمرته ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُزَكِّيَنَّ وَارِداً لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ؛ فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ مِنَ ٱلسَّحَابِ ٱلْأَمْطَارَ ، وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ مِنْهُ وُجُودُ ٱلثِّمَارِ

لا تزكين وتعظم وارداً من واردات الوجدان وأنت بعدُ لا تعلم ثمرته ، فالوارد : هو ما يرد على القلب من أسرار القرب ، وتتوالىٰ عليه من أنوار المعرفة ، وهو مرادٌ لتبديل صفات القلب المذمومة إلى الصفات المحمودة ، ومحو آثار النفس ، وذهاب شهواتها ، وقلع الهوىٰ ، وترك الدعوىٰ ، والقيام بحق العبودية على الكمال ؛ إذ هٰذا هو بعض ثمرات الواردات ، وكل واردٍ لا تصحبه الاستقامة . . لا يُؤمنُ أن يكونَ من الاغترار ، ونوع من المكر [1] ، أعاذنا الله منه .

فتعبيره بـ ( السحاب ) : إشارة منه إلىٰ تجلي الأسماء على القلب ، وبـ ( الأمطار ) : إلىٰ تنزل الأسرار الوصفية ، المحيية لموات أرض النفوس ، والباعثة حتف المعارف من الرموس ، والأمطار المتنزلة من سماء السِّرِّ علىٰ أرض النفس ، فتثير منها حسن الأخلاق ، وزواكي الأحوال والأعمال ، كما يثير المطر ما كَمَن في الأرض من الشجر ، فتهتز وتربو القلوب ، وتنبت الأزواج البهيجة ، والأنفاس العطرة الأريجة ، فتنفتح كمائم الإيمان بأنوار مشاهدات الإحسان ، وتتدلّىٰ ثمرات المعارف ولطائف الامتنان ، فهٰذه هي ثمرات الواردات .

فما كان علىٰ غير ذٰلك . . فلا تزكِّه ، وتزكيته : بأن تشهد منَّةَ الله عليك ، وتبتهج به فرحاً ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، لا التزكية التي هي رؤية النفس علىٰ عباد الله ، وتعظيم النفس وفرحها

(١) كذا في النسخ برفع ( نوع ) علىٰ أنه خبر لمبتدأ محذوف .

ومرحها ؛ فذلك منهيٌّ عنه ، قال جلَّ ذكره في ذمِّ قومٍ دلوا بعلمهم وفرحوا به دون النظر إلىٰ ما هو المقصود منه : ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

فلا تزك وارداً لست تعلم ما ... يُثمِرُ لديك من الأخلاق والشيمِ

فليس ثَمَّ سوى الأثمار تطلبها ... من وابل السحب فافهم ذاك واستقمِ

* * *

الوارد : هو ـ كما علمت ـ يكسب العبد أحوالاً شريفة ، ومقامات منيفة ، وإذا ورد على العبد وأكسبه ذٰلك . . فيأخذ ما أتاه ، وتكون كلية اعتماده على مولاه ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**لَا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ ٱلْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطَتْ أَنْوَارَهَا ، وَأَوْدَعَتْ أَسْرَارَهَا ؛ فَلَكَ فِي ٱللهِ غِنىً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ**

طلبك لبقاء الأغيار ، واستئناسك بالآثار ، وسكونك إلى الأنوار دون منوِّرِ الأنوار ، وخالق ما أكنَّهُ الليل وكشفه النهار ، وما وراء ذٰلك مما تتقاصر عنه الأفكار ؛ مما دارت عليه الأكّار (١) ، وما أشرقت عليه مضيئات الأسرار ؛ من جنة أو نار ، أو ظُلَم أو أنوار ، وكلٌّ داخل تحت دائرة الانقهار . . فهي أغيار إذا وقفت الطالبَ دون منتهى الرغائب ، فليس إلىٰ غيره سكون ، ولا إلىٰ سواه ركون ، فمتىٰ طلب بقاءَها ، واستوحش عند فراقها . . فقد دلَّكَ على الركون إليها والاعتماد عليها .

والأنسُ بغيره دليلُ الوحشة عنه ، ودليل كونها غِيَرٌ : بقاؤك معها دونه ؛ فقد توقف الأنوار كما تحجب الظلم والأغيار ، فإذا وصلت ما هو المقصود منها ـ وهو بسط أنوارها ، وبثُّ أسرارها علىٰ عوالمك القلبية وأرجائك النفسية ـ . . فقد حصل المقصود الذي له تطلب ، وفيه ترغب ؛ وهو تبديل نعوتك ، وفناء أفعالك وأوصافك ، والمثول علىٰ سمت الاستقامة المرضية عند الله .

فلو دام علىٰ أرضك وابلات الحقائق . . لتعطَّلت عليك وظائف عبوديتك ؛ وذٰلك في وقت ضعف السالك عن تحمل أعباء هٰذه الواردات ، تنزل أحيان أوقات ذبوله ، فيحيا بوجدانها كما يحيا مواتُ الأراضي المجدبة بنزول الغيث .

---

(١) الأُكَّار : الزُّرَّاع والفلاحون ، واحدها : أكار ، سمي بذٰلك لأنه يشق الأرض للحرث .

فلو داوم عليها . . لهلكت أشجارها ؛ لضعفها عن ورود الماء عليها ، وعند كمال قوتها وإن دامت عليها الأمطار وجرت بساحتها الأنهار . . فلا تزداد بذلك إلا كمالاً ؛ وذلك لطف من الله بعباده ، يتلطَّف لهم بأنواع الألطاف ، ويغذي أسرارهم بقدر ما فيها من القوة والضعف ، ويربيهم في حجر الرحمة ؛ يهديهم آناً بسطوات تخويف القطيعة وفوات حظهم من الحبيب ، وآناً يربِّيهم بتجلي جماله ، وتدلي ألطافه ، والتمتع بوصاله ؛ فينجحون في المطلوب ، وينجز لهم الوعد المرغوب ، فإذا أجدبت أراضي قلوبهم بحرارة صيف الفراق . . هبت لهم صبا الوصال ، ووسم أراضيَهم أغداقُ الوفاق ، ووالاها ولي الاشتياق.

فإذا عرفت حكمة الله في تربية عباده . . علمت أنه لم ترجع عنك وتَرْحَل إلا والخيرة فيها ، وهو يغنيك عن كل محبوب .

ومن كان به . . لم يعوزه فقدُ غيره ؛ فالأشياء كلها لك مفارقة ، والأصالة لمعيته ؛ فسائر الوجود لا دوامَ لخلطته ، حتىٰ أعضاؤك وقواك وأحوالك إنما هي صادرة عنه ، ومتمسكة عليك به ، فله الثبوت في سائر الأحوال .

ومن كان بالأحوال دون محولها . . فهو ـ لا محالة ـ في محال ، ومن كان بالله . . فله في كل شيء مثال ، ومن كل شيء منال.

فمن كان بحال أو مال ، أو أهل أو عيال ، أو عمل أو علم أو مقام . . فهو له عقال عن مشهد الكمال ، فلا تغنيك عنه الأغيار ، سواء كانت من حيز الظُّلَم أو الأنوار ، أو جنة أو نار ، فلك فيه غنىً ، ومن كل شيء فرار ، ففروا إلى الله عن القرار مع الأغيار.

ولي في ذٰلك :

وبعـــد أن بســـطت أنوارهـــا فعـــلا
م يحـزن الواجـدون ومـورد ذاك موجود

يغنيـك إن كنـت ذا فهـمٍ فليـس علـىٰ
وجـــوده مطلـــب يُرجـــىٰ ومقصـــود

* * *

فعلم أن تطلُّعَ العبد إلىٰ بقاء الأغيار ، واستئناسه بالآثار . . دليلٌ على الانقهار وعدم الاستبصار ؛ ولذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

تَطَلُّعُكَ عَلَىٰ بَقَاءِ غَيْرِهِ .. دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وِجْدَانِكَ لَهُ ، ٱسْتِيحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ .. دَلِيلٌ عَلَىٰ عَدَمِ وُصُولِكَ بِهِ

تطلعك بحكم قلبك وتعلُّقه علىٰ بقاء غيره في الدارين ، والسكون إلىٰ سواه في أرضه وسمائه ، وسرِّه ونجواه ، ومنقلبه ومأواه .. دليلٌ علىٰ عدم وجدانك له ، الذي هو غاية الآمال ، ومنتهىٰ مطالب أهل الكمال .

فلو وجدته .. لم تتطلَّع إلىٰ غيره ؛ إذ لا غيرَ مع وجوده ، ولا ظهور مع شهوده ، فكل مستحسَنٍ ومستلَذٍ وإن بلغ غاية مبالغ الحسن والنعيم .. فعن حسنه صادر ، ومن فضله وإحسانه ولطفه وامتنانه وجد ، فكيف بمن وَجَدَ ذٰلك الجمال ، وأتحف بذٰلك الوصال .. يلتفت إلىٰ مقام أو حال ، أو عاجل أو مآل ، أو جاه أو مال ، أو عشيرة أو عيال ؟! فشاهد ذٰلك الحال يغني عن المقال .

أم كيف من ظفر بموجودٍ لا له شبيه ولا مثال .. يتطلَّعُ إلىٰ من له شبيه ومثال ؟! فغاية مطلب العارفين ، ومنتهىٰ رغبات الطالبين .. وجدان إلٰه الأولين والآخرين بشهود يقين ، وتحقُّق وتمكين ، على الكشف والعيان ، ومتىٰ يحظىٰ بذٰلك المطلوب وهو يتطلع إلىٰ محبوب سواه ويترقب مشهوداً ، ويلوح لقلبه وجود موجود ؟!

فمن حظي بذٰلك .. فله دلالات ، وظهور علامات ، ومن دلالته : الاستغناءُ بوجود محبوبه عن كل موجود ، واضمحلال ـ في جنب شهوده ـ سائرِ الوجود ، فلا يكون له سواه مقصود ، بل مفرداً مفرّداً ، « سبق

المُفَرِّدون »[١] ، مستهتَراً بذكره[٢] ، غائباً عن فكره ، حاضراً في شكره .

واستيحاشك أيضاً بفقدان سواه . . يدلُّ على أنك مستأنسٌ بذلك السوىٰ ، ومن استأنس بسواه . . فهو في وحشة القطيعة منه سبحانه ؛ إذ لو استأنست به . . لاستوحشت من الأكوان ، ولفررت من الإنس والجان ، وكنت معه في حضرة العيان ، لم يأوِك مكان ، ولم يحوك زمان كان ، في حضرة : « كان الله ولا شيء معه »[٣] ، مستقر روحك عرش الرحمٰن ، غائباً عن المَلَوان .

فهٰؤلاء أقوام أحرقت كثائفَ غيريتهم أنوارُ الشهود ، وفنيت عندهم أعيان الوجود ، عند تجلي الحق الموجود ؛ فكيف يصدق الحب أو شهود القرب وعاد في قلبه بقية التفات إلىٰ غير المحبوب ؟!

يروىٰ : أن فتاة من الأعراب كان إنسانٌ يدَّعي صدق المحبة لها ، ويظهرُ عظمَ التودُّد والتقرُّب إليها ، وكان يتلطَّف إليها ، فقال لها : إني أحبك ، فقالت له : إن لي أختاً أحسن مني ، لو رأيتها . . لكنت فيها أرغب ، ذات جمال ، وها هي ، فالتفت ، فلطمته وقالت : يا كذوباً في دعوى المحبة ، لو كنت صادقاً . . لم تلتفت إلىٰ غيري !!

فانظر واعتبر في هٰذه القصة . . يبنْ لك إفلاس أكثر الناس عن وجدان الحق ، وإنما هم مستأنسون بالأغيار ، ومتطلِّعون إلى الآثار ، فكم مدَّعٍ الوصلَ والعشق والأنس والمحبة وعند الامتحان بفراق المحبوبات الغيرية تكسفُ شمسه ، ويتكدَّر صفاؤه وأنسُهُ ، فكم من مدَّعٍ

---

(١) رواه مسلم ( ٢٦٧٦ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المستهتَرُ بالشيء : هو المولع به ، لا يتحدَّث بغيره .

(٣) رواه البخاري ( ٣١٩١ ) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما .

الصبرَ والرضا والتوكل ؛ **فيفتضح عند تغيُّر الحال بما يظهر من الجزع والتسخط** ، فأين دعوى الأنس لمن لا يقدر على فراق أدنى المحبوبات الدنياوية الفانية الظاهرة العداوة لمن ساكنها ؟! **وأقربها نفسك وسائر قواك** ؛ فالقوة تعطي صاحبها ألا يكونَ مع شيءٍ دون محبوبه **وراثة إبراهيمية** ؛ حيث قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

ومن كان على غير هٰذا .. **فليتق الله في دعواه** وجدان الحق والمحبة له ، **وليصحح مقام التوبة** ، ويسلك على يد عارفٍ يخرجه من رعونات الدعوى وموافقة الهوى ، **ومن لا يصحح ذٰلك المقام** ، ولم يقبل ذٰلك الكلام .. **بقي في غمار العوام** ، متلبساً بصفات اللئام .

واعتبر بمن سلف من أئمة الإسلام ؛ **هل كانوا على ما أنت عليه من التهافت في كبائر المعاصي وجمعِ الحُطام** ؟! أم كانوا زهَّاداً أعلاماً يفرُّون من الشاغلات ، ويتحرَّون العبادات في الخلوات ، وينتجعون الفلوات ، ينتظرون الصلوات ، ويراعون الحركات والسكنات ، **يتحفَّظون من الوقوع في مصايد الغفلات** ، ويرفضون معاطب الشهوات ، ويطلع الله عليهم من فوق السماوات ، فيجد قلوبهم مملوءة بمحبته ، وأجسامهم مشغولة بخدمته ، فيحييهم بأطيب التحيات ، ويرحم الله بهم الأحياء والأموات ، يرفضون ما أكبَّ الناس عليه من العادات ؟ **فهٰذه بعض نعت الواجدين لله عياناً** ، والمتحققين بمعرفته بياناً .

وأما من كان همه الشهوات ، وديدنه الغفلات .. **فكيف يدَّعي مقام الوجدان وهو متطلِّعٌ إلى الحَدَثان** ، ومستوحش بفقد الأعيان ؟! ولنقبض العنان ، **ولنقول في ذٰلك** :

من كان بالله عن الأكوانِ مشغول وقلبه فارغ والسر موصول

فذاك لا ينتظر في العرض والطول    لغير محبوبه ذي المن والطَّول

ومن تطلع لوجدان سواه فلا    تشكَّنَّ به أن القلب مكبول

* * *

فكل محبوبٍ دنيا وأخرىٰ إنما تمَّ نعيمه ؛ **لكونه من فائض كرمه** وفضله ، اللذينِ هما متفرعان عن رضاه علىٰ مَنْ نعَّمه وقرَّبه ، ولمن أتحفه ، **وكل مؤلمٍ ومنفِّرٍ ومبغض** إنما كان فائضاً **عن سطوات عدله** ، وفرعاً عن سخطه وحجابه علىٰ من عذَّبه ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

ٱلنَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ . . إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَٱقْتِرَابِهِ ، وَٱلْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ . . إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ ؛ فَسَبَبُ ٱلْعَذَابِ : وُجُودُ ٱلْحِجَابِ ، وَإِتْمَامُ ٱلنَّعِيمِ : بِٱلنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ

النعيم : كل مستلَذٍّ طبعاً خالياً عن التكدير والتنفير ، ولا يوجد ذٰلك في الدنيا إلا لأهل القلوب المتعلِّقة بالملأ الأعلىٰ ، المجالسين لله علىٰ بساط الشهود ، وهم أيضاً مع ذٰلك غير مستكمِلين للنعيم كلية الكمال ؛ لما يطرقُ عليهم في بعض الأحيان من هيبة سلطان الجلال ، وخوف الطرد والانفصال .

وأما المستلذات الطبيعية . . فلا تنفك في الدنيا عن التكدير ، وما يظهر تجلي النعيم في الدار الآخرة ، وهي مع ذٰلك تطلب الزيادة وتمامها ، وانتهاء درجات مقام النعيم بشهوده واقترابه ، وتلطُّفه وتعطفه لأحبابه ، وتجلِّيه عليهم برضاه ، وحظوتهم بخطابه ونجواه ، وتمام سائر النعم ، ومنتهى الأرب والهمم ؛ الذي تندرج فيه أنواع النعم كاندراج الكواكب عند إشراق نور الشمس الضاحية . . هو النظرُ إلىٰ وجه الله كفاحاً ؛ فعند ذٰلك تغيب سائر المحاسن في ظهور الحسن الذي اكتسبت حسنَها من رشْحِ بحوره المتلاطمة ، وسواكب فيوضه المتساجمة ، فيا له من تمام !! وما أعزَّه من مرام !! وما أكرمه من مَقام !!

والعذاب بأنواعه ، وسائر دركاته ، وعظم آلامه ، وشدة تغيُّظه واضطرامه . . إنما هو فرعٌ عن وجود الحجاب ؛ الذي به يتضاعف ألم العذاب ، وأصلُ مبادئه ؛ كما أن الرضا أصل النعيم ، والرؤية منتهىٰ أمانيه ، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وماذا ترىٰ حسرةَ مَن حُجب عن ربه ، وحِيلَ بينه وبين حِبّه ، وأُفرد عن صحبِهِ ؟! ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، ثم يقال لهم في انتهائه وشدة عقابه : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، فعندها تكلح الوجوه ، وتربدُّ الأبدان ، وتتغيَّر الألوان .

وقال في الرؤية : إن بها غايةَ النعيم ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، نظرة ندية عطرة مما تمَّ من عظم المسرَّات ، من مواجهة الحور والغلمان ، وسائر ألوان الفواكه والقصور ، والرضا والحبور ، ناضرة بذٰلك ، تم نضارتها ، وظهرت سيادتها ، ولي في ذٰلك :

إن النعيم وإن كانت مظاهره ... كثيرة خارجةٌ عن حيز الحصر
بما تجلَّىٰ له من صرف منَّته ... ومنتهى الغاية القصوىٰ هو النظر
وكل نوع عذاب في مظنته ... شؤم الحجاب ونار البعد تستعر
فحققنَّ فهٰذا في أكنَّته ... عن فهم كل بليدٍ غير مدَّكر

* * *

فإذا كان النعيم الدائم والفرح لأهل القرب . . هو وجود مليكهم وعيان سيدهم ، والعذاب هو عندهم باحتجابه عن قلوبهم . فلا جرمَ أن كل حزنٍ وهمٍّ يرد علىٰ قلوبهم لا يطرقهم إلا إذا منعت قلوبهم ذٰلك المشهد ، وحُجبت عن ذٰلك المقصد ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فالعيان لا تبقىٰ معه الهموم ؛ فالهموم : إما دنياوية ، وإما أخراوية ، والأحزان أيضاً كذلك ، والهموم والأحزان الدنياوية : إما محمودة ، وإما مذمومة .

فإن كانت محمودة . . [ فهي ] كفارةٌ لذنوب أقوام ، وماحقةٌ لمعاصٍ وآثام ، وأما إن كانت أخراوية . . **فهي محمودة ما لم تخرج صاحبها عن روح الرجاء إلى القنوط** ، وهلذه مراتب الزهّاد والعُبّاد وعموم العِباد ، ومن أول المراتب الإيمانية ، إلىٰ شروق الشموس الفرقانية ، وظهور التجليات الإحسانية العيانية ؛ **فعند ظهورها وإشراق بدورها . . تذهب الأحزان** ، وتنفرج الغموم ، وتضمحل الهموم .

فالأرواح العلوية الصافية عن الكثائف الأرضية ـ وهي أرواح المقربين ـ متروّحة بروح القرب ، متنعِّمة بنعيم الوصل والحب ، لا تلمُّ بها الهموم الردية ، ولا تكدرها الكثائف الأرضية ، **يتقلبون في حلل الجمال** ، ويكرعون مناهل الوصال ، ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ، فالرَّوح لأنهم روحانيون ، والسرور والفرح وسائر أصناف التنعمات كالنتيجة للرَّوح ، **فمَنْ فرحُهُ بالله** ؛ وهو غاية مطلبه ومنتهىٰ أربه ـ ولمحبوبه الكمال المطلق والبقاء السرمد ـ **فمِن لازمه الرَّوح السرمد** ، والعز الأمجد ، جعلنا الله وأحبابَنا في الله من أولئك ، وبوَّأنا وإياهم حظائرَ قربه ولذاذة حبه ، وتغمدنا وإياهم كذلك بتمام رحمته ومنِّه ، ولي في ذلك :

فكل ما يطرق الألباب من حَزَن بحسب ما منعت من مشهد المنن

فلـو رأيـت صفـات الحق مسـفرة | لَمَـا اعتـراك ورود الهـم والحـزن
بحسـب مـا تمتنعْ مـن قربه فكذا | تنـال مـن شـدة الأحـزان والمحن
أرواح قـرب عـن الأكـدار صافيـة | في طيب عيش برَزْ من خالص المنن
ومـن يكـن همه من شـؤم معصية | وفـوت غالٍ نفيـس الوقت والزمن
فحـال مرضـي لمن حالته سـالمة | من ظلمة الشك والأدناس والدرن

فالهموم والغموم إن كانت أخروية .. **فهي درجات ورفع مقامات** ، وإن كانت من الأمور الدنياوية المأذون للعبد في الاهتمام بها .. **فهي كفارات** ؛ كما ورد معنىٰ ذٰلك ، مما لا يكفرها إلا همُّ المعاش ، أو كما قال (١) .

❋ ❋ ❋

فإذا علمت ذٰلك .. **علمت : أنه إذا أعطاك ما كفاك ومنعك الزيادة .. فذٰلك من عنايته بك ، فاشكره علىٰ ذٰلك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » ( ١٠٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

مِنْ تَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ

**تمام النعمة** : أن يفتح لك باب الفهم عنه في جميع ما أنزله بك ؛ لتكون به إليه واصلاً ، **والنعمة** : هي كل مستلَذ طبعاً ؛ إما باطناً أو ظاهراً ، وإما عاجلاً أو آجلاً ، **فالمستلذ في الرزق** : هو كل واصل إلىٰ صاحبه مع القناعة به ، وعدم دخول العلم عليه ، وشهود التوحيد ، وقلة العناء في طلبه ، وقلة الاعتماد عليه ، **واتخاذه للتوصل به إلى الأقسام الأخروية** ، والتقوِّي على الإتيان بالعبادة التي هي حكمة وجود الإنس والجان .

**فإذا رُزق العبد ما يكفيه عن التطلُّع إلى الأغيار** ، والابتذال في معاناة الأسباب ، والانغمار في الوسائط ، وكانت تلك الكفاية مصحوبةً بالقناعة . . **فذٰلك من تمام النعمة وشمول المنة** .

**والكفاية** : هي كل ما سدَّ الخَلة وأقام الأود ، وهو الرزق المضمون ، ولا يتعين له زمن دون زمن ، ولا طعام دون طعام ، **والكفايةُ قوت الروحانيين** .

والرزق إذا صحبته الكفاية . . كانت الكفاية روح الرزق ، فكل رزق بلا كفاية . . **كالجسد بلا روح** ، والكفاية بلا رزق . . **روح بلا جسم** ، فصح **بهٰذا الاعتبار** أن الرزق المصحوب بالكفاية . . **قوت المؤمنين** ، والكفاية بلا رزق . . **قوتُ الأرواح المجردة** ، والرزق بلا كفاية . . **رزقُ العصاة** ، وتنشق من روائح رزقهم الشياطين .

**ومن تمام نعمة الرزق على المؤمنين** : وجودُ الكفاية فيه ؛ لئلا يبتذلوا في طلبه ، ويتعبوا في تحصيله ، فتفوتهم جملة من أنواع العبادات

وسني القربات ، فبوجود الرزق الكافي تستريح الأشباح ؛ لموافقة الأرواح على الدأب على الطاعات ، وتمنعه عما يطغيه من الثروة الملهية والكثرة المطغية ، التي بسط أكنافها على أعدائه ، وصرفها عن أنبيائه وخواصِّ أوليائه ؛ كما ترى من فتنة المال ، والطغيان بالأعوان والعيال .

والطغيان مركوز في جبلة النفس عند مساعدة الحظوظ وموافقة الأغراض ، وهو سبب تمرُّد الفراعنة واستطالتهم واستكبارهم عن طاعة سيدهم ، فمن تمام النعمة على المؤمن : أن حماه تلك المهالك ، وجنَّبه هـٰذه المسالك ، المؤدية بسالكها إلىٰ مالك[1] ، وهـٰذه مما يتعلق بالروح والبدن معاً ، وغيرها مما يطول عدُّه .

ومنها ما يتعلق بالروح دون البدن ؛ كالحزن على مفارقة المحبوب ، وتشتت الفكر في حفظ الحاضر منها والزيادة من المفقود[2] ، ومدافعة أرباب الولايات على سحتها ، واستدراك فائتها . . . إلىٰ ما لا يتناهىٰ من الأشغال المتعلقة بالروح .

وأما الأشغال المتعلقة بظاهر البدن . . فلا خفاءَ فيها عند أربابها ؛ كالسعي في طلبها بالأسفار ، وركوب البراري ومتون البحار ، والسعي آناء الليل والنهار ، وتحمُّل مشاقِّ الانتظار ، [ و ] رخص الأسعار ، وجمع الضمار[3] . . . إلىٰ غير ذٰلك أيضاً .

فإذا رُزق العبد الكفاية ، ومنع الزائد المفضي إلىٰ هـٰذه المتاعب الخطيرة . . فقد توفرت إليه النعم وتمت ؛ هـٰذه في الأرزاق المحسوسة .

---

(١) في ( أ ) : ( المردية بسالكها إلىٰ مالك ) ، ومالك : هو خازن جهنم عليه السلام .
(٢) في ( د ) : ( والزيادة من المقصود ) بدل : ( والزيادة من المفقود ) .
(٣) الضمار : ما لا يُرجىٰ رجوعه ، ولا تكون منه علىٰ ثقة .

وأما الأرزاق المعنوية . . فمن تمام النعمة على المريد : أن يرزق من الآداب القُربية عند مفاجآت الواردات الحسية ما يمنعه من أن يطغىٰ ؛ بأن يتعدَّىٰ علىٰ ما عنده ، أو يدَّعي فوق ما لديه ، أو يطلب الخروج عما أُقيم فيه حتىٰ يطلب لذٰلك ويخطب له ، أو يتخلف عما هو الحال عنده ، فيطلب رجوع ما جاوزه ؛ كما كان ذٰلك من أجلِّ ما رزقه المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وحظي به في مقامات الإسراء ، حيث أثنىٰ عليه بذٰلك غايةَ الثناء ، فقال : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ عما رأىٰ من العجائب ، وعظيم تجليات الآيات العظيمة ، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ إلىٰ ما لا إليه له وصول ، بل وقف في كل ما أقيم فيه ممتثلاً ، حتىٰ رقىٰ به عنه لما هو أعلىٰ ، وأحجم عند الابتداء إحجامَ الأدباء ، مع ما هو بصدده من طلب الخطاب وسؤال الجواب ، حتى ابتدأ به وخاطبه بما هو مطلوبه ومنتهىٰ مرغوبه ؛ فهٰذا هو أكفىٰ رزق ، وأتم نصيب ؛ حسن الأدب من المحب مع الحبيب .

فهٰكذا ينبغي أن يطلب ما يكفيه ، ويمنعه عما يستفزه أو يطغيه ، والكفاية : هي حفظ المكفي ، وإذا رزق عبدَهُ من أنوار اليقين ما يحفظه عن الخروج إلىٰ تعدِّي الحدود الذي هو عين الطغيان . . فقد أكملَ عليه منَّته ، وأتمم لديه نعمته ، وهٰذا النور الذي يشرح الله به صدور أوليائه ، فدانوا به علىٰ أقوم طريقة وأعدل محجة ، وبتمامه كمال النعمة في اليوم الديني ، فقال ممتناً : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، ولي في ذٰلك :

تمام نعمته للعبد ظاهرة ... أن يرزقَهْ من هنيّ الرزق كافيهِ
ورزق كلٍّ إلىٰ ما العين ناظرة ... ومنعه كل ما يطغي ويلهيهِ

❁ ❁ ❁

وإذا كان المنع عن المطغي الملهي من تمام النعمة من الله .. فليتخذ العاقل من الأمور أحسنَها عاقبة ، وأنفعَها حالاً ومآلاً ؛ وذلك بأن يقلِّلَ من الأسباب الشاغلة له في العقبى ، والمؤلمة بفراقها في الدنيا ، وليتنصَّل منها حال وجدانها ، فيخف عنه ألمها عند فقدانها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ . . يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

**التقلُّل من الدنيا وأسبابها** من شأن العقلاء الناظرين بنور البصائر إلىٰ فنائها ، وكثرة عنائها ، وقلة غناها ، **وسرعة انقلابها وتنكُّرها علىٰ أحبابها** ، ومواصلة أحزانها بفراق الأحباب ، وتغير الأسباب .

**فلما نظروا ذٰلك** وما هو أعظم من فظيع المصائب وفوت الرغائب ، وعاينوا شرف العقبىٰ وأنها الحَيَوان . . **تقلَّلوا من مفرحات الدنيا وزخارفها** ، ففارقوها اختياراً قبل أن يفارقوها أو تفارقهم اضطراراً ؛ كما هو حال الأغنياء المغترين .

**فقلَّت أحزانهم** ، وفارقوا الهموم ، وباينتهم المحن ، ونزعت عنهم الإحن ، **فاتصلوا بروح الروحانية** ، فكانوا روحانيين ، **ورُقمت حروفهم في عليين** ، أولئك السادات الأبرار ، والعقلاء الأخيار ، الناظرون بعين الاستبصار ، الذين نزعوا عن قلوبهم زخارف هٰذه الدار ، **ورسخت قلوبهم في دار القرار** ، عزفت عن الدنيا نفوسهم ، ونزهت عنها قلوبهم .

زهدوا حين رغب المغترون ، وسهروا حين نام الغافلون ، **وبكوا** حين ضحك اللاعبون ، فلم يفرحوا منها بأرب ، ولم تتعلَّق قلوبهم بسبب ، **فباينتهم الأحزان** ، واستأنست بهم الأوطان ، وصلَّتْ عليهم ملائكة الرحمٰن ، **وأحبَّهم الله وأعدَّ لهم الرضوان** ، وأوقع لهم الحب في قلوب الإنس والجان ، بشاهد قوله صلى الله عليه وسلم : « **ازهدْ في الدنيا . . يحبَّك الله** ، وازهدْ فيما في أيدي الناس . . يحبَّك الناس »[(١)] ، **ولي في ذٰلك :**

(١) رواه ابن ماجه ( ٤١٠٢ ) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

مـا قـلَّ مـن فـرح الدنيا يكـون له　　قليـل حـزن علـىٰ فرقـاه فاعتبـر
وكل مـا كان مفروحـاً بـه فكـذا　　يكون له من خطوب الدهر من ضرر
فـكل زائـل عـن قـرب يكـون إذا　　مـا لـم تدعه شـديد الهـم فانتظر

* * *

ومفرحـات الدنيـا : إما مال أو جاه أو غير ذٰلك من كل ما فيه ملاءمة للنفس ، وموافقة للطبع ؛ وهو إما أن يكون بطلب من الإنسـان وتسبُّب في تحصيله ، وإما أن يكون بلا طلب ، ولا استعمال سبب .

فإن كان بلا طلب . . فسـبيلك أن تطلبَ الخلاص منه ولا تفرح به ، وتبتهل إلى الله تعالىٰ في أن يخرجَكَ منه سالماً ، وإن كان بطلبٍ وسعي في سبب . . فذٰلك أشد ضرراً ، وأخوف خطراً ، فسبيلك تركُ التعرض له والسـعي في طلبه ، ويجمع معظم أسـباب آفات الدنيا اتخاذ الولايات ، فهي الأمهات لسائر الآفات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تُعْزَلَ . . فَلَا تَتَوَلَّ وِلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ

هٰذا من أعظم ما ابتلي به مَن أُولع بمحبة الجاه وملكَهُ هواه ؛ أنه إذا كان متأمِّراً ، نافذ الكلام ، متطاولاً على الأنام ، ثم عُزل عن المقام ، وجرت الأحكام ، وأُوقف للخصام ، واشتد عليه اللزام ، فإذا تكلم رُدَّ عليه الكلام ، وإذا خاصم انقلب عليه الخصام . . أتىٰ له من الذل والهوان ما ودَّ أنه لم يكن له قبل ذٰلك ذكر ، ولا ظهر له أمر ، فماذا ترىٰ ما يترادف عليه من الأحزان ، وما يناله من الهوان ؟! عافانا الله وأحبابنا من ذٰلك .

فالولايةُ التي تدوم . . هي التي تطلب ، وفيها ذوو العقول ترغب ؛ هي أن تكون لله ولأوليائه موالياً ، وعلىٰ نفسك وهواك متولِّياً ، فلذٰلك فاطلب ؛ فهو الذي يدوم نفعه ، وتتزايد كرامته في الدار الآخرة ، وأنت في الدنيا عن المزاحمة فيه والتطابق علىٰ أمان ، وفي سلوك محجته علىٰ بيان ، فاخترْ إن شئت راغباً عزَّ الأبد ونعيم السرمد ، أو حسرة الأبد وذل السرمد ، ولي في ذٰلك :

إن شئت عزاً ولا تعزلك عنه يد ... فلا تولَّ ولاياتِ المعازيل

إن الولاياتِ في الدنيا يلازمها ... ذلٌّ عتيدٌ بتحويلٍ وتبديل

❋ ❋ ❋

فالأمور لها بدايات ونهايات ، وظواهر وبواطن ؛ فنور العقل ينظر إلىٰ نهايات الأمور وبواطنها ، ومن لم ينظر بذٰلك النور . . يقف ـ لا محالة ـ عند بداياتها ، وظواهر زخارف زينتها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنْ رَغَّبَتْــكَ ٱلْبِدَايَــاتُ .. زَهَّدَتْكَ ٱلنِّهَايَاتُ ، إِنْ دَعَــاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ .. نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ

الرغبة في الشيء يقتضي الحب له ، وبذل الوسع في طلبه ، والزهدُ على العكس منه ؛ يقتضي البغض وعدم الاكتراث به ، والدنيا بظاهر غرَّتِها وزخرف زينتها في أول الأمر تروق في العيون الظاهرة ؛ لما ترىٰ من تلك الملابس الفاخرة ، والزخارف المتظاهرة ، وتحتها كوامن العطب ، وسيوف الرهب ، وقبح المنقلب .

فالعين الظاهرة تنظر إلىٰ تلك الملابس الرائقة ، والأزهار الشارقة ، والطراوة الفائقة ، فتنضم إليها ، وتلمح لديها ، فترغب ، وإليها تطرب ، والعين الباطنة تنظر إلىٰ ما هنا من المعاطب الكامنة ، والقبائح المستورة تحت تلك الملامح المنظورة .

فما أجدره بالفرار عنها حين عاين قبح الهلائك منصوبة تحت تلك الستائر ، والسم الزعاف مدموج بتلك المناظر !! فيزهد حين يرغب مَن عمي قلبه عن ذٰلك ، وينتهي حين يدَّعي غيره إلىٰ ما هنالك .

فالجهَّال مغرورون بظاهرها ، والعقلاء معتبرون بباطنها ؛ فلذٰلك سُمُّوا عقلاء ، كما أفتىٰ إمامنا الشافعي رضي الله عنه : بأنه لو وُقِف علىٰ أعقل الناس .. لصُرف للزهاد[١] .

وما أتىٰ من نبي ولا ولي من لدن آدم إلا وحذَّر قومه من غرورها ، ونصحهم عن أن يطمئنوا إليها ، أو يثقوا بحبل أمانيّها ، وما أنصحُ

(١) انظر « البيان » للعمراني ( ٨/٢٢٨ ) .

من الله لعباده ، ولا كلام أبلغ من كلامه ؛ حيث قال والحق قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ . . . ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، وقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ إلىٰ : ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعلموا أن الدنيا حلوة خضرة ، وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون »[2] . . . إلىٰ غير ذٰلك من الآيات والأخبار .

وأما الآثار . . فتكاد تخرج عن الحصر ، فلنقتصر من ذٰلك علىٰ ما أوردناه من الآيات والأخبار ؛ ففيها كفاية لذوي العقول الثاقبة ، ولي في ذٰلك :

إن رغبتك بدايات الأمور فقَدْ ... زَهَّدْكَ فيها نهايات المقادير
كم غر فيها كما غر البليد أسَدْ ... بحسن قدٍّ وتخطيط التصاوير
إن كنت تعقل أن العمر ليس أبَدْ ... تأتي المنون ولا تغني المعاذير

* * *

ورزايا الدنيا ومصائبها وفجائعها . . سائقةٌ لذوي العقول إلى المثول بين يدي سيدهم ، ومزعجةٌ لهم عن الاستئناس بغير محبوبهم ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ( ٩ ) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) رواه مسلم ( ٢٧٤٢ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلاًّ لِلْأَغْيَارِ ، وَمَعْدِناً لِوُجُودِ ٱلْأَكْدَارِ ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا

**إنما جعل الله** سبحانه **الدنيا محلاً للأغيار** ، ومظهراً للمصائب وظهور الظُّلَم الغيرية الموحشة للأسرار ، عن الاستئناس بها والركون إليها ، وخبَّأ أنوار **الوجود** وتلألؤ الشهود إلىٰ دار الخلود . . رحمةً منه **ولطفاً** ؛ لئلا ينقطع عنهم ما يجدون من المشاهدة بانقطاع هاذه الدار الفانية ، **فجعل تمام ظهور هاذه الأنوار** ، وشهود عجائب الأستار ، في دار القرار ، ووسمها بالتمام على الدوام ؛ **ليكون الإنسان لعالم البقاء** ختاماً ، **ولذروة الكمال** سناماً .

وجعل هاذه الدار السريعة الانصرام والقريبة الانعدام **محلَّ ظهور الغيرية** ؛ التي تغربت بتوهُّم وجودها الأرواح عن المشاهد السنية ، والدرجات العلية ؛ **وذالك لعدم أصالتها** .

**وجعل المصائب أيضاً والمكدرات فيها** ؛ لمناسبتها لها ، وجعل سبحانه أمدها قصيراً ، وعيشها حقيراً ، ومخوفها خطيراً ، **فلا يمتري فيها ذو عقل سليم وقلب عليم** ، فيزهد فيها ، وتنبو همته عنها ؛ لما تعلَّق به من جمال البقاء ونعيم اللقاء ، هاذا لذوي البصائر النافذة .

**وأما عموم المؤمنين** والواقفين علىٰ ظواهر الأمور . . لم ترفع لهم عن الحقائق الستور ، **فيزهدون لما يرونه بمرآة العقل** ، ويشاهدون من عجائب العبر ، واستماع النقل والخبر ؛ مما ينفِّرُ قلوبهم ، **ويعزف نفوسهم من فجائع الدنيا بأهلها** ، وانقلابها علىٰ أهل الثقة بها ، وورود البلىٰ مع كرور ليلها ونهارها ، وفوات المحبوب منها ، والقصور عن مأمولها ، **فيزهدون** ـ لا محالة ـ **ليستريحوا من ألم فراقها** ، ويحْتَموا من

زعـاف سـموم نوائبهـا ؛ فكل مـا كان فيها من المسـرات أقل . . كان من الفجائع والرزايا أميل .

وكل محبـوب منهـا تقارنه ـ لا محالة ـ حسـرتان ومصيبتان : حسـرة فراقـه ومصيبة ذهابه ، وحسـرة فـوات النصيب الأخـروي ، ومصيبة عدم التمكن من فعله ؛ لأنه كلما ذهب في شغل بأمر دنيوي . . ذهب بموسم مـن مواسـم القـرب ، وغنيمـة من غنائـم الآخرة ، فلا يرجـع الفائت من هٰذه ، ولـم ينل الذاهب من تلك .

وحـق لمـن تأمل هٰذه العبارات ، وأنصف أن يزهدَ في ما هو سـبب حرمانه من نيل الدرجات ، وما هو سـبب هوانه بحلول المثلات ، فهٰذا وأمثاله مما زهَّد ذوي العقول الثاقبة .

وأمـا أهـل البصائـر الذين صفت منهـم السـرائر . . فزهَّدهم ما ألهىٰ أسـرارهم مـن تلألـؤ جمال المحبـوب ، وغطَّىٰ نعوتهم مـن جلاله ، لا التفات لقلوبهم إلى الأغيار ، ولا شـوق إلىٰ جنة ولا خوف من نار ، بل صـارت عندهم الآثار محـواً ، والوجود صحـواً ، فالحمد لله الذي جعل لنا إليهم بتكرير بعض صفاتهم نسـبةً نكون لهم بها ـ بشـرط الصدق ـ نُدَما ، وفي معرَّسهم خَدَماً ، ولي في ذٰلك :

فمـا جعل هٰذه الـدار التي كمنت فيهـا سـهام البلايـا موضـع الغيـر
إلا محـل البلايـا مثـل مـا علمت ومعـدن آفات ليـس العين كالخبر
فزهدت كل ذي عقلٍ بما ظهرت مما حوت من وجود البؤس والكدر

❁ ❁ ❁

إذا تأملت انزواء الدنيا عن أولياء الله وأصفيائه وأهل وداده ، وتزخرفها وتزينها لأعدائه وأهل القطيعة . . علمت يقيناً حسن اختياره لك ، ولطفه

فيما زواه عنك منها ، فتشكره علىٰ ذٰلك شكرَ غيرك موافقةَ طبعه ونَيْلَ حظه ، بل أتمَّ شكراً ، وعلمت أنه اختار لك ما اختاره لأنبيائه وخواصِّ أوليائه ، فترتاح وتشتاق إلىٰ لقائه ، ويظهر لك خسة الدنيا وضيقها ، فتأخذ في طلب المحبوب ، وتجدُّ في طلب ما هو الأولىٰ بك .

ومصائب الدنيا وفجائعها نعمةٌ من الله علىٰ عباده ؛ لئلا يستأنسوا بها دونه ويطمئنوا إليها ، فكانت هٰذه المصائب الدنياوية مزعجة لهم عن الركون والطمأنينة إليها ؛ وذٰلك لما علمه : أن بعض عباده لا يقبل النصح إلا بإزعاج وقهر ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ ٱلنُّصْحَ ٱلْمُجَرَّدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا

علم سبحانه وعلمُه الحق الذي لا يدخله جهل ، ولا يمتري فيه شك ، بل عَلِمَ الأشياء قبل إيجاد أعيانها بجملها وتفاصيلها ، فعلمَ بما بعضُ الأسرارِ عليه ؛ من وجود القرب وكمال اليقين ووفور المعرفة وكرامة السجية ؛ فتجلىٰ لهم بصرف الجمال ، وألمح بصائرهم تجلي الكمال ، وأشعر قلوبهم نيل الوصال ، وأذاق أرواحهم حلاوة الاتصال ، فأقبلوا إليه عما سواه من الأكوان ، تاركين لسائر ما طمحت إليه الأعيان من الألوان ، ومتجرِّدين عن النفوس ، مقدسين بتقديس الملك القدوس ، فهٰؤلاء سمعوا قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، فلما استجابوا . . علَّمهم علمَ القُرب ؛ ليشهدوا به استغراق معيته ، فقال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ .

فالاستجابة بامتثال ما شرعه ، والعلم نتيجته ، والشهود ثمرة العلم الذي أنتجه صدق الاستجابة ؛ فهٰؤلاء لم يحتاجوا إلى التجربة التي تورث غيرَهم التجافي عن الدنيا ، بل قبلوا النصيحةَ من غير توقف علىٰ استدلال علىٰ فراق الدنيا وقبحها ، وشرف الآخرة ونفاستها .

ولما علم سبحانه أن في عباده مَنْ لم يقبل النصح مجرداً . . أظهر ما أظهره من شدائدها وفجائع مصائبها ؛ لينفِّر عنها مَنِ اغترَّ بزينتها من المؤمنين ، فكان ذٰلك تفضلاً منه عليهم ورحمة بهم ، فله الحمد حيث لم يتركهم وما أرادوا من تيسُّر أسبابها ، وتزخرف محابِّها ، كما ترك من لا له عنده حظ يمرح في نعيمها ، ويتمتَّعُ بزخرف زهرتها ،

قال عزَّ من قائل : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، **ولي في ذلك :**

لمـا علـمْ جـل مولانـا وخالقنـا ... أنَّا كما قد علمْ لم نقبل الخبر

أذاقنـا مـن مـرارات الفـراق عنـا ... بسـوقِ مَـنْ جـرَّب الأشياء بالغير

* * *

**ولما كان استكشاف الأمور حسنها من قبيحها لم يعثر عليه إلا بنور العلم . . أخذ في بيان قوله نفعنا الله به :**

**العلم الحقيقي** الذي يطلق بالمدح عليه ، ونشرت رايات المجد لديه . . هو العلم الذي هو فائض عن الوصف الأزلي ، وهو النور التأييدي ، والنفث الأقدسي .

والصدرُ **المتلقي له هو الروع النقي** ، منبع التقوىٰ ، ومحل الفهم **المتلقىٰ من عالم الأمر** ، الملقىٰ بواسطته على العالَمِ الخلقي أعمالُ الهدىٰ وأسرارُ الاقتداء ، **على المحجة البيضاء والحنيفية السمحاء** ، قال الله في شرح صدرِ أكملِ هٰذا العالم : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ، فهٰذا هو العلم الملقىٰ علىٰ مَن أُلقي عليه ، **وهو المستحق بأن يُسمَّىٰ علماً مجرداً عن الإضافات الكونية** ، ثم قال جل ذكره ـ مشيراً إلىٰ ثمرة هٰذا العلم ، ومبيناً لشرفه ، ومنبهاً علىٰ أن من لم يحظ منه بشيء . . أنه غير عالم ـ فقال : ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ **إذ هي الموصلة إلىٰ** عين المشاهدة ويقين المواصلة ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هٰذه الشريعة الأمرية .

فمن أخذ علمه لا عن هٰذه . . **فهو موصوف بالهوىٰ** ، ومقرون بالدعوىٰ ؛ فالعلوم النقلية المتلقَّاة من الخلق ، المتداول لفظها ، إذا لم يصحبها من هٰذه الأنوار القدسية ، ولم تحظ من المراتب العلمية بمزية . . **لا يفارق صاحبَها الآفاتُ القادحة في إخلاص العبودية** ؛ لأنها اتسمت باسم العلم ، وتلبست بلبسه بين العالم ، وسمي عالماً عندهم مع أنه لا يحرِّم حرامَ ما علم حرامه ، ولم يأتِ واجبَ ما علم وجوبه ، فكان عند العموم عالماً ، وعند الخصوص غُمْراً جاهلاً ؛ إذ العلم عند

المحققين : ما باشرت القلوبَ أنوارُه ، وانبسط على النفوس شعاعُه ، وظهر على الأركان حسن اتباعه .

وقال جل ذكره في معنىٰ ذٰلك في معرض الامتنان بما فسح به الجنان : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، وشَرْحُهُ : هو اتساعه لقبول فيضان العلوم الحقية ؛ حتىٰ **عَلِمَ عِلْمَ الأولين والآخرين** ، وقال في حق من اختصه باتباع محجته ، واقتفاء أسوته : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، كما قال للمتبوع : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ .

فكل مَنْ أُفيض عليه نورٌ من هٰذه الشريعة بواسطة أي اسم . . **كان مشهد الربوبية فيه ظاهراً** ، في مرآة المربوب ناظراً ، وسائر الأسماء يسمىٰ مجموعُ تجلّيها أمراً ، **فجعله قطب مدارها** ، وشمس نهارها ، **والصدرُ** : هو المشكاة التي ينبسط عليها نور الزجاجة التي تقبل نور المصباح من غير واسطة ، وهنا تظهر من العلوم ما لو بدت . . **لضاق عنها نطاق الخلق** ، وطارت الألباب من محرقات السبحات ، وتلاطم بحار أنوار الذّات .

فلنرجع إلىٰ قوله : ( **العلم النافع** ) هو الذي ينتفع به العالم ، هو كل علم بالله وبصفاته ، وأسمائه وأفعاله ، وأمره ونهيه ، **وما يزيد في خوفك من الله** ، ويزيد في رجائك ، وكلّ علم تعلم به مفترضات الله عليك ، **وما ندبك إلىٰ فعله** ، وزجرك عن إتيانه من شرائعه وسنن أنبيائه .

**والعلم النافع** : هو الذي تصل به إلىٰ مرضاة الله ، وتتّقي به سخطه ، ويدخل في ذٰلك كل علم باطن أو ظاهر ، خاص أو عام ، **لٰكن بشرط حسن النية فيه** وإخلاص القصد ، فيدخل فيه علم فروض الأعيان وفروض الكفايات بهٰذا الشرط المذكور .

ولـٰكن المقصود الأعظم : هو علم الكشف والتجلِّي ، وعلم الحال والتحلِّي ، وعلم الفرض والتخلِّي ، وهـٰذه العلوم لا يدركها إلا أهل الصفاء ، القائمون علىٰ نهج التحقيق والوفاء .

وأما علماء الرسوم ، الذين لم يعطوا نصيباً من المعلوم ، بل واقفون علىٰ ما يسمعون من الألفاظ ، ويتلقَّون من الرواة والحفَّاظ ، وشيء يُلفِّقونه بأفهامهم السقيمةِ بعلة الهوىٰ ، والمتلوثةِ بقاذورات الدنيا . . فليسوا عند المحققين علماء ، وإنما يسمونهم نُقَّالاً وأوعية ، وكان مما يروىٰ : أن من العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وآخرين يحشرون مع الأمراء والسلاطين ، ولي في ذٰلك :

العلم هوْ كل ما تبسطْ مآثره على الصدور شعاع النور فاعتبر
وينمحي عن شهود القلب ساتره ويكسي الروح سربالاً من النظر
وكل علم في الأعمال ناظره بحسن قصد وفهم فيه معتبر
فذاك علم سمت فيهم مفاخره وغير ذاك هباء في هوى الفكر

* * *

ثم اعلم : أن العلم قد يطلق علىٰ سائر العلوم ، والعلوم كثيرة بحسب المعلومات ، ومن كان ذا عقلٍ وفهمٍ . . نظر في العلوم خيرها .

وخيرها : هو كل ما يعود على العالم به الظفر بخيرات الآخرة والدنيا ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## خَيْرُ ٱلْعِلْمِ : مَا كَانَتِ ٱلْخَشْيَةُ مَعَهُ

فإذا اعتبرت العلوم من حيث الإضافة إلىٰ معلومها .. وجدت أشرف العلوم العلمَ بالله وبصفاته وأفعاله ، وخير ما يتقرَّب به إلى الله هي أحوال القلوب ، فكان خير كل علم ما قارنته هٰذه الأحوال القلبية ، والمواجيد السرية التي من جملتها خشية الله ؛ إذ الخشية : وصف العلماء بنص كلام الله ؛ إذ قال جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، والخوف شعارهم ؛ إذ قال : ﴿ وَخَافُونِ ﴾ ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ .

وكل علمٍ لم تصحبه الخشية ، ولم تقارنه المخافة ، ولم تدهشه الهيبة ، ولم يُروِّحه الرجاء ، ولم ينعم صاحبه الأنس ، ولم يحجزه الورع ، ولم يجانبه الطمع ، ولم يحقِّق طرائق السنة ، ولم يشيد مبانيها بالأعمال ، ويصفِّيها عن شوائب الآفات ، ولم يراعِ حقوق الله علىٰ ممرِّ الأوقات ، ولم يعزف نفسه عن الشهوات المألوفات ، ولم يتحقق صاحبه بالمقامات .. فليس على الحقيقة بعالم وإن حمل بعض العلوم المتعلقة بالقضايا والخصومات .

وقد كان للعلماء سمات يعرفون بها وعلوم تحقيقات ، وبيان أحوال وتفصيل مقامات ؛ فمنهم : المدرك لها بالذوق ؛ وهم المرادون السادات ، ومنهم : المدركون بالعلم مع عدم الدعوىٰ لحقيقتها ؛ وهم المريدون .

فمن تلك العلوم : علم طلب الحلال ، وعلم الورع في المكاسب والمعاملات ، وعلم الإخلاص ، وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال ،

ونفاق العلم والعمل ، **والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس** ، ومن إظهار النفس شهوتها وإخفائها ذٰلك ، والفرق بين سكون القلب بالله تعالىٰ وسكون النفس بالأسباب ، **والفرق بين خواطر الروح والنفس** ، وبين خواطر الإيمان واليقين والعقل ، ومن علوم الأحوال أيضاً ، وأحوال العلماء ، وتفاوت مشاهدات العارفين ، وتلوينات الشواهد على المريدين .

**ومن المقامات** : علم القبض والبسط ، والتحقق بصفات العبودية ، والتخلق بأخلاق الربوبية ، وتباين مقامات العلماء .

**فهٰذه العلوم والمقامات والأحوال** بعض ما أورده أبو طالب المكي رضي الله عنه أنها من صفات العلماء [١] ، **تذاكرها وتعاهدها** بين علماء السلف .

فإذا نظرت في أحوال هٰؤلاء ومن يدَّعي العلم في هٰذه الأزمان . . **تبيَّن لك إفلاسهم عن العلم** ، وما هم عليه من التهاوش في الآراء ، والعمل بموافقة الهوىٰ ، **وطلب سحت الدنيا بأي وجه** ، يتأملونها كما كان غيرهم من العلماء المحققين يتأمَّلون ما يقربهم من المولىٰ ، ويحصل لهم عنده عظيم الزلفىٰ ، [ و ] عرفت ذهاب الدين **وخمود أنوار اليقين في أهل زمانك** ، وعرفت أن من عرف صفات العلماء والسير علىٰ سيرهم غريب ، **يتنفَّسُ تنفس الصعداء** ؛ لكثرة ظهور الأهواء ، وانتصار الأعداء ، واندراس العلم وأهله .

**فمن كانت الشهوات غاية مطلبه** ، والهوىٰ قائده ، والدنيا وجهته . . **فما أبعده عن العلماء** !! وما أسمج هٰذا الاسم عليه !!

---

(١) انظر ما ذكره في « قوت القلوب » ( ١٤٠/١ ) وما بعدها .

فكيف يكون من ورثة الأنبياء مَن باين صفاتهم ؟! التي من جملتها : المثابرة على الطاعات ، والتخلُّق بالرحمة على سائر المخلوقات ، وخفض الجناح لأهل الإيمان ، والشدة في الدين ، والتنزُّه عن المترفين ، واللطف بالمساكين ، وإرشاد الضالين ، ونصيحة الكافة والخاصة ، وعدم الفظاظة والغلظة ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وطلب اللحوق بالرفيق الأعلىٰ ، إلىٰ ما لا يحصر من مكارم الأخلاق ، فكيف يدَّعي الوراثة مَن لم يتخلَّق بخلق من هٰذه بل على الضد منها ؟!

وتعبيره بمعية الخشية ؛ إذ المعية تستغرق جميع الأحوال والقوى الظاهرة والباطنة ، وكل حركة وسكون ، حتىٰ يظهر لمَن نظرهم أثرها علىٰ ظاهر الشخص ، فلا يراهم راءٍ إلا وتغشاه الخشية ، وتعتريه الهيبة والسكينة ، وتغمر مَن حضرهم الرحمة ، وتعمه النعمة ، هٰذا شاهدهم في ظاهر الحس في الأعين الحسية والمظاهر الخلقية .

فهٰذه دلالات العلماء بالله العارفين والربانيين ، الذين تغنت أرجاء الوجود بوجودهم طرباً ، وجُليت إليهم حُور المعارف أتراباً عُرُباً .

فهٰذه بعض غبرة من صفات العلماء ظهرت في عاصف القدر [1] ، فألقتها علىٰ ذرةٍ من ذرات الفؤاد ، فأفصحت بتحميد وتمجيد الجواد ، بما وهبها من لطف الوداد ، وعلا وراء اللفظ وعاد ، مما كاد أو يكاد زيتها يضيء من غير إيقاد .

فنسأل الله تحقيق ذٰلك ، وأن يفيض علينا من الإمداد فوق المراد ؛ إنه كريم جواد .

---

(١) وفي ( أ ) : ( عبرة . . . ) بدل : ( غبرة . . . ) ، وكلاهما مناسب .

ولي في ذلك :

العلم من حيث كون العلم مكرمة ... بخشـيـة الله ذاك العـز والشـرف
معيـة لا تفـارق صـرف مرحمـةٍ ... يدري لذا كل مَن مِن بحره اغترفوا

فترتيـب المؤلـف رضـي الله عنه هٰذا فـي فضل العلـم ؛ **فبيَّن ما هو العلم أولاً** الذي يسـتحق أن يسـمىٰ علماً ، **ثم صفة العلم النافع ووصفه** بمقارنة الخشية .

* * *

**ثم أخذ في بيان أحوال العلماء** ، وانقسام العلم بحسب مَنِ اتصف ؛ إلىٰ ما هو لك وما هو عليك ، **فقال بعد أن عرَّفك** أن العلم تقارنه وتلازمه الخشية ، **فقال :**

## اَلْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ ٱلْخَشْيَةُ . . فَلَكَ ، وَإِلَّا . . فَعَلَيْكَ

العلم من حيث ما هو : **علم عام** ، ويطلق ويتخصص ويتقيد : إلىٰ محمود ومذموم ، ونافع وضار ، وهو من حيث **تعلقه ونسبته إلى الجناب الإلـٰهي** : شريف ، وهو أعم صفات المعاني كالكلام[١] ، **فمن حيث** نسبته : علم الحق الجائز لهم ، وقد عرفت ما هم عليه من التفاوت وانقسامهم إلىٰ من يحمد شرعاً ، فكذٰلك المنسوب إليهم .

**وللمحمود شرعاً علامة دالة** ؛ وهي الخشية التي هي أشمل لصفات النفوس والقلوب والأرواح ، فالخشية تعم وتحتوي علىٰ مراتب القلوب وأحوال النفوس ، **فهي أعم من الخوف** ، وهي التي اتصف بها صهيب ، حيث نعته صلى الله عليه وسلم ونوَّهَ بمقامه فقال : « **نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله . . لم يعصه** »[٢] ؛ وذاك لما عنده من عظم الإجلال لجناب الله ووفور الخشية ؛ إذ لو لم يخف . . **لأَجلَّ الجنابَ الإلـٰهي عن العصيان** .

والخشيةُ من صفات علماء الآخرة ، الذين يُدعون عظماء في ملكوت السماء ، وقد سماها داوود صلى الله علىٰ نبينا وعليه وسلم باسم العلم ، فقال : ( **ذٰلك بأنك جعلت العلم خشيتك** )[٣] .

والعلم إذا قارنته الخشية . . **كان صاحبه من الله قريباً** ، وله حبيباً ، ومن كان كذٰلك . . **كان العلم له** ؛ لأنه صار في كنف ولايته ، وحرز

---

(١) لتعلقهما ـ كما لا يخفىٰ ـ بالأحكام العقلية الثلاثة ، خلافاً لسائر المعاني .

(٢) تقدم قريباً .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » ( ١٣٧/١ ) .

عنايته ، فكان له ، ومَن لم يتصف في علمه بالخشية . . فيجترئ ـ لا محالة ـ علىٰ محارم الله ، ويغش عباد الله ، ويستهين بأوامر الله ، ويهين أولياء الله ، ويستخفُّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤثر الهوىٰ والدنيا علىٰ محابِّ الله ، ويمرح ويدخل[1] ، ويعجب ويفخر . . . إلىٰ ما لا نهاية له من المعاصي الظاهرة والباطنة ، فيكون مقيتاً عند الله في دنياه وأخراه ؛ لأن أفعاله تخالف أقواله ، وحاله يخالف العلم الذي به يتشرف ، وإليه ينتمي ، ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، فيأمر الناس ويترك نفسه ، ويذكِّر الناس وينسىٰ ، ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، فإذا كان كذٰلك . . كان العلم ـ لا محالة ـ عليه عائداً بالضرورة ، فويل للجاهل حيث لم يتعلَّمْ مرة ، وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألفَ مرة .

والعلماءُ : عالم قلبٍ دون لسان ، وعالم لسانٍ دون قلب ، وعالم قلبٍ ولسان ، وجاهل لسان أغلف قلب ، فانقسم الأمر إلىٰ أربعة أقسام ؛ اثنان محمودان ، واثنان مذمومان ، والمحمودان أيضاً قسمٌ أعلىٰ من الآخر ، والمذمومان قسمٌ أدنىٰ من الآخر .

فمثال العالم بالقلب دون اللسان : كالفارس البصير علىٰ مركوب أعمىٰ ، فهو يهديه لا محالة ، ومثال عالم اللسان دون القلب : كالفرس البصير والراكبُ أعمىٰ ، فيُرديه لا محالة ، أو يتردَّىٰ عنه ، ومثال عالم اللسان والقلب : كراكب بصير وجواد بصير ، فهٰذا يكون لقدم النبوة وارثاً ، وبلسان الرسالة ناطقاً ، وهو في الكواكب السماوية شمس ، وفي الأعمال الظاهرة ذاته ثابتة ، لا يطفئها مطر ولا ريح ، فهو في نفسه

---

(١) في ( ب ، د ) : ( ويمدح ويذل ) بدل : ( ويمرح ويدخل ) .

مضيء ، ولغيره هاد ، تُدفع به النوائب ، وتُكفىٰ به الجوائب والمصائب ، والعلماء ربيع الخلق إذا كانوا كذٰلك ، كما قال بعضهم في وصفهم : ما يراهم الغني إلا ويسرُّه أن يكون فقيراً ، ولا يراهم الصحيح إلا ويسرُّه أن يكون مريضاً ، أو كما قال .

وكان أبناء الدنيا في مجلس سفيان أقلَّ الخلق مقاماً .

وصفات العلماء وفضائلهم لا تحصىٰ عدداً ؛ لكثرة مناقبهم وعظيم فضائلهم ، منه ما يروىٰ في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي علىٰ أدناكم »[1] ، و« فضل العالم كفضل القمر على الكواكب » أو كما قال[2] ؛ و« لعالم أشد على الشيطان من ألف عابد »[3] ؛ فكل ما ورد من الأخبار ، وحُكي من الآثار في فضائل العلم . . إنما هو ما قارنته الخشية ، وما روي من تفضيل العلماء . . إنما يُراد بهم العلماء بالله وبأوامر الله .

وأما ما ورد من الذم . . فليس هو إلا علىٰ من اتصف بما اتصف به علماء السوء من الصفات المذمومة والأخلاق الملومة ، فالذم ليس على العلماء من حيث العلم ، بل من حيث مخالفتهم إياه ؛ من الرغبة في الدنيا ، وجمع حطامها ، والجدل ، والمماراة ، وحب الجاه المذموم ، فالعلم هو الذي نبَّهَ علىٰ قبح هٰذه الأحوال ، فلا يذمُّ العلمَ ذو عقل من حيث كونه علماً إلا ما نُصَّ علىٰ ذمه ؛ كعلم السحر ، والنجوم ،

---

(١) رواه الترمذي ( ٢٦٨٥ ) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي ( ٢٦٨٢ ) ، وابن ماجه ( ٢٢٣ ) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي ( ٢٦٨١ ) ، وابن ماجه ( ٢٢٢ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، بلفظ : ( فقيه واحد . . . ) بدل : ( عالم . . . ) .

والشعبذة ، وكل علمٍ يُتوصل به إلىٰ منهيٍّ ، فلولا العلم . . لم يعرف قبح القبيح ، ولم يتبيَّن الحسن .

والعلم من حيث انقسامه إلىٰ نظري وعقلي ، مسموع ومطبوع ؛ فالمطبوع يسمىٰ عقلاً ، والمسموع يسمىٰ نقلاً ، ولم ينتفع بواحد دون الآخر .

وقد وصف الله العلماء بالزهد وإيثار الآخرة على الدنيا فقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ، فشعار العلماء بالله : الخشية ، ولباسهم : العمل الصالح ، والعلمُ وسيلة إلى العمل به ؛ فإنِ استعمله فيما أمر واجتنب ما نهىٰ . . كان له ، وإن لم يعمل به ؛ ولم يستعمله في مقتضىٰ ما هو المطلوب من العلم ائتماراً وانتهاء . . كان عليه .

ومن مقتضى العمل : أن يكون العالم مسارعاً إلى الخيرات ، حريصاً على اقتناص الخيرات ، يتحرَّىٰ إذا هجم الجهَّال ، ويزهد إذا رغبت البُطَّال ، وينتهي إذا اقتحم الضلال ، ينزجر السفهاء بسماع ذكره ، وينتفع الطالب بصائب أمره أفعالاً أكثر من أمره مقالاً ، يصون عن الدنيا جانبه ، ويحمي عن السفهاء حاجته ، لا يبتذل في طلب الأعراض والحظوظ فيكون سبباً لاستهانة العلم في أعين الخلق فيحرمون نفعه ، والعالم يستغني بعلمه عن دنيا الراغبين ، ويفتقر إلىٰ إفادته الطالبين ، لا يتعلم مسألةً إلا لينال بها قُرْبة ، ولا يعلم حكمة إلا وينال بها درجة .

وذٰلك ثمرة حسن النية في طلب العلم ، فمن طلب العلم علىٰ نيةٍ . . نال ما نوىٰ ، فإن كان نيته في طلبه لله . . كان من العلماء بالله ، وإن كان نيته التفقه في دين الله ليعرف أمر الله . . كان من علماء الآخرة ،

وإن كان نيتــه طلب المنزلــة ، ونيل الحظ من الدنيــا ، ورفعة الصيت والمنصب ، ومزاحمة أرباب الولايــات في القضايا والأحكام ، والظهور على الأقــران ، والاســتطالة على الإخــوان ، وغير ذلك مــن المطالب الدنياويــة والمآرب الهوائية . . **فلا يخفىٰ قبح مقصده ، وخسَّــة مطلبه** عند ذوي القلوب السالمة من الهوىٰ .

وأمــا نفوس الجهال المغرورين والحمقىٰ . . فلا جرم أنها ترىٰ ذلك من أجلِّ المراتب وأحســن المطالب ، **فلا عبــرة بهم عند أهل الحق** ، وأكثر من يكون لديهم معظماً مَن نال عليهم المنزلة فيما هم بصدده من الحظوظ الدنياوية ، **فهو** ـ أي : من طلب العلم علىٰ هٰذا القصد ـ **أشــد غروراً من الجهّال** ؛ لأنه يرىٰ له المنزلة في الدنيا ، فيخيل إليه أن له في الآخرة الزلفىٰ ، **فيزداد من حمقــه وجهله وغروره** ، ويروج على العموم حســن مقامه ، ويدعو غمار الخلــق ، **ويُلْقِي إليهم مِن تزويره وتغريره** : أن ذلك فيه نجاتهم عند الله في الأخرىٰ ، **فيزدادون له تعظيماً وتوقيراً** ، وتســري إليهم رذائل أخلاقه ، وقبائــح أحواله ؛ من حيث لا يدرون إلا وقد أصيبوا بما أصاب ، وهلم جراً ، ينتهي من واحد إلىٰ واحد ، **ويكون من أئمة الضلال** ، موســوماً بســمة الدجَّال في الإضلال ، قال صلى الله عليه وســلم : « **أنا من غير الدجَّال أخــوف عليكم من الدجال ؛ علماء الســوء** »[1] ؛ لأن الدجال غايته الإضــلال ، ومثل هٰذا العالم إن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله . . **فهو داعٍ لهم إليها بأعماله وأحواله** .

**ولســان الحال** أفصح من لسان المقال ، وطباع الناس إلى المساعدة في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال ، **فما أفسده هٰذا المغرور**

(١) رواه أحمد في « المسند » ( ١٤٥/٥ ) بنحوه عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله ؛ إذ لا يستجرئ الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العالم ، فقد صار علمه سبباً لجرأة عباد الله علىٰ معاصيه ، ونفسه الجاهلة مع ذٰلك تمنّيه وترجّيه وتدعوه إلىٰ أن يمنَّ على الله بعلمه ، وتُخيِّلُ إليه نفسه الخبيثة أنه خيرٌ من كثير من عباد الله ؛ فقد صرّح بذٰلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في وصف الذي اتخذ علمه ذريعةً إلىٰ نيل الحظوظ العاجلة ، ولم ينكشف له دناءة هٰذا المقصد ، ولم يبن له انعكاس هٰذا المشهد (١) ، عافانا الله والمسلمين من ذٰلك ، ولطف بنا من الجهل والاغترار ، ولي في ذٰلك :

العلم نور إذا قارنْهُ مصحبة ... من خشية الله ذاك العالم النبل

شعاره الخوف مَعْ ذلٍّ ومسكنةٍ ... وغير ذاك من التحقيق منعزل

فهٰذا القدر من التنبيه علىٰ شرف العلم المقارنة له خشية الله ، وقبح كل من طلب العلم علىٰ غير نية صالحة . . كافٍ .

وقد أطال العلماء والمصنفون في الترغيب في العلم وفضيلته ، والتنفير والتحذير من الاغترار بما فيه كفاية ، سيما الإمام حجة الإسلام أبي حامد ؛ فإنه أوضح فيه ما لا يبقىٰ معه ريب في شرف العلم وخسة من اتخذه وسيلة إلىٰ نيل الحظوظ العاجلة ، فلنكتف بذٰلك عن الإطالة .

❊ ❊ ❊

فلما أنهى الكلام على العلم ، وصفة العالم ، وما هو العلم . . أخذ في بيان معاملة العبد مع الله ، فله دليل يجده أولو البصائر المستنيرة ؛ لذٰلك قال :

---

(١) كما في « إحياء علوم الدين » ( ١/٢٢٣ ) وما بعدها .

**مَتَىٰ آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ ٱلنَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِٱلذَّمِّ إِلَيْكَ . . فَٱرْجِعْ إِلَىٰ عِلْمِ ٱللَّهِ فِيكَ ؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُكَ عِلْمُهُ . . فَمُصِيبَتُكَ لِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ ٱلْأَذَىٰ مِنْهُمْ**

متىٰ وجدت ألمَ عدم إقبال الناس إليك بالاحترام والتوقير والاعتقاد والتبرُّك ، وطلب الدعاء منك وعلمك فيما بينهم ، وعدم اكتراثهم بك حضرت أم غبت ، وترك إكرامك ومعرفتك بالفضل . . فألمُكَ ذٰلك **لغيبتك عن شهود سيدك وخالقك** ، ومن بيده منافعك ومضارُّك ؛ **فإقبال الخلق وإدبارهم عند من كان ذٰلك . . سيان .**

فإن كنت محجوباً عن وجود الحق . . **فكن بالإيمان موافقاً** ، قال صلى الله عليه وسلم في وصيته لابن عباس من جملة ما أوصاه به في حديث طويل محتوٍ علىٰ أصناف الحكم وجوامع الكلم : « واعلم : أن الأمةَ لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيءٍ لم يردك اللهُ به . . لم يقدروا ، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضرُّوك بشيء . . لم يقدروا ، **رفعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصحف** »(١) .

ومن دواء ذٰلك الألم : أن ترجع إلىٰ علم الله فيك ، فإن كنت عنده كريماً . . **فماذا عسىٰ ضرك إدبارهم عنك ؟!** وإدبارهم فيه لك من المنافع الدينية ، والسلامة من الآفات القادحة في الأعمال ، والحائلة بينك وبين الإقبال على الكبير المتعال . . **ما لا يحصىٰ شكره** ، كذمهم ؛ فإنهم إذا توجهوا إليك بالذم . . **ألجؤوك ـ لا محالة ـ إليه** ، وأوقفوك علىٰ دقائق كامنة لم تكن لك قبل عليها اطلاع ؛ فإن كنت من أولي

(١) رواه الترمذي ( ٢٥١٦ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

العزائم السالكين . . فذلك أعون لك على ما أنت بصدده ؛ من صفو الوقت ، وعدم الاشتغال بهم ، والسعي فيما يقيم بواطنهم ، وإن كنت من الواصلين . . فلا أحق منك بالشكر إن خليت بمن تحب ، وهو يعلم ما نالك في ذاته ؛ فإنه بكل حال متفضِّلٌ عليك .

وإن كنت لا ترضىٰ بذٰلك ، ولم تفهم ما هنالك . . فمصيبتك أشد ؛ لأنك مصابٌ بضرب الحجاب ، ومعرض لوبيل العقاب ، فما شأنك إلا أن تتألم لذٰلك ؛ حيث لم تحظ من الكشف الصريح ما يشهدك انعدام الخلق في شهود وجود الحق ، ولم تكن من أهل الإيمان المنتفعين بالسمع من الصادق المصدوق حيث أرشد إلىٰ ذٰلك ، ودل علىٰ ما هنالك .

وأما أذى الخلق . . فهو خيرٌ بكل حال ، ولم يكن نقصاً ، ألم تر من إيذاء الأنبياء وسادات العلماء ؟! فلو كان ذٰلك نقصاً في منصبهم . . لما قال صلى الله عليه وسلم : « نحن ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أشد بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل »(١) ، وفيه من تكثير الحسنات وجلب الخيرات ما لا يدخل تحت حيسوب ، وهو شاهدٌ علىٰ وجود الإيمان ؛ كما قال سبحانه وتعالىٰ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . . . ﴾ إلىٰ آخر ما قال : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ، فدلت الآية علىٰ أن التألم بإيذاء الناس قادحٌ في الصدق ، ومخرجٌ عن تسمية الإيمان ؛ لأنه إن لم يكن كما قدمنا من أهل الكشف والعيان . . فلا أقلَّ

---

(١) رواه ابن ماجه ( ٤٠٢٣ ) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

من أن يكون من أهل العلم والإيمان ، ولي في ذٰلك :

متىٰ تألمت من إدبار مخلوق لا شك أنك عن مولاك محجوب
كذا أذى الخلق لا يعباه ذو طلب لمنهج الصدق طالب خير مطلوب

* * *

وأعظم المنن الظاهرة : الأذىٰ علىٰ أيدي الخلق ، وأبينُ الدلالة علىٰ تقريب مَن أُولع الخلقُ به وتوجَّهوا إليه بالأذىٰ .. ما قاله المؤلف رضي الله عنه ؛ حيث قال مبيناً للحكمة في ذٰلك :

إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأَذَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ؛ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِناً إِلَيْهِمْ ، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ

إنما الخلق مظاهر لآثار الأقدار ، ومجرىً تجري فيهم تجليات الأسرار ؛ فكل من جرت له في المظاهر الخلقية والمشاهد الغيرية ما يزعجه عن السكون والوقوف لديها . . فذٰلك مخطوبُ العنايةِ وموهوب الرعاية ؛ بأن تولَّى الله تربيته من وراء سجف الغيب ، فأزعجه منها لتحقق الفرار ، ولا يكون له مع غيره قرار ؛ ليوقفه علىٰ حد الاضطرار ، وصدق الافتقار ، ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، كما أرى الكليم عداوة العصا ، فكانت حية تسعىٰ ، حتىٰ هرب إليه مما كان معتمداً عليه ؛ ففي ذٰلك عبرة لأولي الأبصار .

والتعبير بالناس : أنه كل مأنوس من مالٍ أو جاهٍ أو غير ذٰلك من كل ما يستأنس به ، والله أعلم ، وأذاهم إنما يدرك ظاهِرَكَ ألمُهُ ، والإقبال منهم والسكون إليهم يلحقك بعالم الظلمة ، ويميت قلبك الذي به توجُّهك إلىٰ حضرة سيدك ، ويعمي روحك التي تدرك بها لذة شهود الحبيب ، ويبعد بسببه عن التقريب .

فإذا جرى الأذىٰ عليك علىٰ أيديهم . . إنما ذاك من عظيم عنايته ، ولطيف رعايته ؛ لكيلا تساكنهم فتوقف دون مطلبك ، وتحرم بسببه نيل بغيتك ، فأجرىٰ عليها ما يحوشك به إليه ، فيتنكر عليك كل ما كنت تطمئن إليه من سائر الخلق من الأسباب والعشائر ، حتىٰ يعاديك أعضاؤك ، فتسلط عليك بالأذىٰ والضَّرَبان ، وأحبابك الذين كنت تستأنس بهم ، وسائر علومك وجاهك وحالك ومقامك ، فلا

تجد أُنْساً بسوىً ، ولا تأوي إلىٰ مأوىً .

وقد استعاذ بعض الفضلاء من الأحوال والمقامات ، وسأل الله اعوجاج الخلق عليه ؛ كي لا يكون لغيره مساكناً ، أو بسواه مستأنساً ، ولي في ذٰلك :

أجرىٰ عليك الأذىٰ ممن تساكنهم     كي لا تكون مع الأغيار مأسور

وذاك من لطفه فيما يعاملهم     كما روي عن عباد الله مأثور

* * *

والركون إلى الخلق والسكون إلى الأسباب بُعد وحجاب ، والشيطان منشأ لسائر الأسباب المقصية للعبد عن باب الله ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إذا علمت أن الشيطان المُبْعَد ، المُبْعِد لمن تولاه عن مولاه وأنت لم تدركه بالحاسة الظاهرة ؛ لأنه جارٍ من ابن آدم مجرى الدم ، وله أعوان منك عليك ؛ وهي نفسك التي بين جنبيك ، وقد علمت أن الله أمرك بالحذر منه ، والاستعاذة منه ؛ لشدة مخادعته ، وكثرة تغريره وتزويره ، وأنت ساذج عن أكثر طرقه ، وقد أقيم داعياً إلى التفرقة والبعد ، وهو لا يفترُ في إظهار طريقته ، والدعاء إلىٰ داره ؛ لأنه بالأصالة منها .. فليس هنا حرزٌ أنفع من الذكر ، ولا أحزم من العلم ، ولا أمنع من العقل ، ولا يدرك الشيطان من العبد حاجته إلا في حال غفلته ، فإذا داوم اللجأ إلى الله ، والتاذ بجنابه ، وكان ذا إيمان وتوكل وإحسان ، وحقق العبودية لسيده .. كان منه ومن كل قاطع في أمان ، ولم يكن لعدوّه عليه سلطان ، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ، مع التوكل عليه ، وتحقق الذلة والافتقار بين يديه ، وكفىٰ بربك وكيلاً لمن توكل عليه .

فالشيطان لا يملك التسلط والإغواء إلا علىٰ أهل الشرك والأهواء ، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ ، وفيما يروىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن الشيطان جاثمٌ علىٰ قلبِ ابن آدم ، فإذا غفل .. وسوسَ ، وإذا ذكر الله .. خنس »[1] .

وفي بعض الآثار : أن الشيطان شكا إلىٰ شيطان آخر ما لقي من العناء

(١) رواه أبو يعلىٰ ( ٤٣٠١ ) ، والبيهقي في « الشعب » ( ٥٣٦ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

من هٰذه الأمة ، أنه طول يومه يتعب في تهيئة المعاصي والسعي فيها ، فإذا كان آخر النهار . . استغفروا الله ، فغفر لهم ، فبطل سعيه ، وخاب أمله منهم ، ورجع منهم آيساً ، حتىٰ يذنب العبد ولا يدري أنه أذنب ، فيدرك منه مراده .

وإذا صدق العبد مع الله في توكله ، وحقق إيمانه ، وقام له بصدق العبودية . . فقد حصل حرز الله وأمانه من شره وشر أعوانه .

ويروىٰ أيضاً : أن الشيطان قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك ؛ لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ، قال له ربه : بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني [1] ، فما يزال مِن هٰذه الأمة خائباً ، وسعيه فيهم باطلاً ؛ لوفور إيمانهم ، وحسن توكلهم ، واستقامة عبوديتهم .

قال بعض أهل التفسير : إن الفريق المستثنىٰ من الذين صدَّقَ عليهم إبليسُ ظنَّهُ : أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهو وإن كان مسلَّطاً مخادعاً ضالاً . . فهو لا يتعدَّىٰ حكم الله في عباده بما سبق لهم وعليهم في سابق علمه ، وإنما جعله الله منديلاً يمسح به الأقذار عن جناب الله ، ومذبة عن حضرة الاقتدار ، يضاف إليه وينسب كل ما يصان عنه ذٰلك الجناب ؛ كالنسيان والإضلال والإغواء ، وغير ذٰلك من القاذورات الظلمانية ، والرذائل الشهوانية .

وللتحصن أمور نصبها تحصيناً لعباده مِن شره ، فأعظمها : ذكر الله منه ومن غيره ؛ كما ورد : « لا إلٰهَ إلا اللهُ حصني ، ومَنْ دخلَ حصني . . أمنَ من عذابي » [2] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ( ٢٦١/٤ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٢) رواه الشيرازي في « الألقاب » كما في « فيض القدير » ( ٤٨٩/٤ ) .

وأسباب العذاب أعماله المبعدة عن حضرة الله .

ويروىٰ : أن الذاكرين إذا رفعوا أصواتهم .. انعزل الشيطان عنهم يبكي ويقول : يا ويلاه ؛ قد تحصنوا مني .

ويروىٰ أيضاً : أن الشيطان إذا سمع الأذان .. أدبر وله ضراط ؛ وذٰلك لئلا يسمع الذكر من الإنسان فيشهدَ له يوم القيامة [1] ؛ لأنه لا يسمع صوت الذاكر شيء .. إلا ويشهد له حتىٰ أعداؤه ، وهو أعدى الأعداء ، وهو عالمٌ بذٰلك ، فلم يلبث عند سماع الذكر ؛ لئلا يتحمل الشهادة .

وهو منطوٍ على الحسد والعداوة للإنسان ، فعليك بالذكر ؛ لئلا يتسلط عليك ، فيملك قلبك ، فيلقي إليه الشك فيما وعد الله ، ويأمره بالفحشاء ؛ ليجري به في معاصي الله .

ثم [ ينتقل ] به [ من ] الشك في الموعود إلى الشك [ في ] المُوعِد ، و[ ينتقل ] [2] به من المعاصي والفحشاء إلى الوقوع في ورطات الجحود ، أعاذنا الله من ذٰلك ، وحفظنا وأحبابنا والمسلمين .

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ ، فأشار بسعة العلم إلىٰ أنه لم يخرج عنه شيء من الأمرين .

ولي في ذٰلك :

إذا علمتَ أن داعي الشر لم ينم

ولا يزال لقلب العبد مرتصد

---

(١) رواه البخاري ( ٦٠٨ ) ، ومسلم ( ٣٨٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) لم تتضح الكلمة في الأصل في الموضعين .

لا تغفلنْ عن إله الخلق أجمعهم
الخالق البارئ الموصوف بالصمد

يكفيك همّك وهم الحاسب الخصم
ويستدر منوح الفتح والمدد

* * *

فإذا أردت أن تعرف الحكمة في تسليط هٰذا العدو الطريد على العبد . . فاعلم : أنه لم يسلطه إلا ليوصلك إليه ؛ **كما قال المؤلف رضي الله عنه :**

إِنَّمَا جَعَلَهُ لَكَ عَدُوّاً ؛ لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَّكَ عَلَيْكَ ٱلنَّفْسَ ؛ لِيَدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ

الحكمة في جعله عدواً لك ، وتحريك النفس إلى الميل إلى الطبع الجبلي ، وتحريك الشيطان بشدة العداوة ، وتحزيبه على الإنسان بشياطين الإنس والجان ؛ فمنهم الرجال والفرسان [١] ـ واستئصال المال والولدان . . لتعلم أن لا لك على محاربته قوة ، ولا لمناضلته عدة ، إلا الالتجاء إلىٰ سيدك ليكفيك شره ، فهو القوي القادر ، الولي القاهر ، الذي يقهر عن عباده كل عدو باطن وظاهر ، فكان بهٰذا الاعتبار نعمة ؛ من حيث إنك وصلت بسببه إلىٰ صِرف عبودية الله ، التي قطب دائرتها : الالتجاء والذلة والافتقار ، وعدم الحول والقوة في دفع ما نزل ووصول كل مراد إلا بالله ، وقد ألجأك إلىٰ ذٰلك الحال ـ حيث نظرت ـ شدة عداوته ، وحرصه علىٰ إهلاكك ، وكثرة جنوده ، ولا طاقة لك علىٰ مقاومته إلا بالله ، فاستعذت به لائذاً .

وكذٰلك النفس حركها ، وبحركتها تظفر بسائر الأعداء من الشيطان والدنيا والهوىٰ ، فيزيد الالتجاء والحذر ، وتشتد الاستعانة والاستغاثة والاستبصار بالمولى القوي القادر علىٰ كل ما عداه ، فكان في ذٰلك إقبال بكلية العبد باطناً وظاهراً ، فتكون أيضاً نعمة عظيمة ، ومنَّةً جسيمة في حق من رزق فهماً لذٰلك ؛ لأنه كلما قوي العدو . . زادت الضراعةُ إلى الله تعالىٰ في دفعه والسلامة منه ، وذٰلك مخ العبادة .

والنفس أشد من الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يصل إلا بواسطتها ، رأىٰ

(١) في ( د ) : ( الرجال والنسوان ) بدل : ( الرجال والفرسان ) .

بعض المكاشفين الشيطان ، فقال له : كيف تصل إلى الإنسان ؟ فقال : يا هٰذا ؛ ما دامت الشوكة قائمة ، والكفتان معتدلتان .. لا سبيل لي عليه حتىٰ تميل النفس إلىٰ كفة الهوىٰ فأتسلط عليه بالإغواء ، ولي في ذٰلك :

ما جعل الله للشيطان ذي الحسد إلا ليلجيك ألىٰ ذي الفضل والمدد
وحرك النفس كي تقبل إليه ولا ترىٰ لضعفك دون الله من عدد

* * *

ثم لما أنهى الكلام على العدو البعيد .. أخذ يبين لك العدو القريب ، فعداوتها للإنسان عتيدة ، وفهم دقائقها بعيدة ، وهي في أصالتها تطلب العلو المباين لمقام العبودية ، فأُمر العبد بردِّها ، ووضعها دون مستحقها ؛ لتقوم علىٰ مستحقها ، فيردها لها واضعاً ، تُسمَّىٰ متواضعاً ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعاً . . فَهُوَ ٱلْمُتَكَبِّرُ حَقّاً ؛ إِذْ لَيْسَ ٱلتَّوَاضُعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَىٰ أَثْبَتَّ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعاً . . فَأَنْتَ ٱلْمُتَكَبِّرُ

( من أثبت ) أحكم في ذهنه ، حقق في مخيلته لنفسه التي نأت به عن حضرة ربه ، وأوقعته في بلقع قاع قطيعته ، وأثبت أنْ تواضعَ ـ أي : ردَّها عن علوها إلىٰ محلِّ ضعتها وذلِّ عبوديتها ـ . . فهو المتكبِّرُ حقاً ؛ لأن استشعاره الرفعة لها عينُ الكبر .

**وإن ظهر منها ضد ذٰلك . . فالشأن أن يكون التواضع لها وصفاً بأنه لم يردها إلا إلىٰ ما هو محلُّها ، فيكون متضعاً لا متواضعاً ، فيكون عند نفسه وضيع الأصل ؛ لأنه يشهد عدمها ، ويحيل قدمها ، فبشهوده لأصلها يعرف ـ لا محالة ـ قدرها ومحلَّها ، فلا يكون راداً لها إلا عن غير مستحقها ، وكافّاً لها عن اعتدائها إلىٰ ما ليس لها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ إشارةً إلىٰ معرفة الأصل ، فإذا كان الأصل العدم ، والفصل العجز . . فكيف لا يكون وضيعاً في نفسه ؟! ولي في ذٰلك :**

من أثبت أن التواضُعْ منه مفتعلٌ ... فذاك كبرٌ كذا يشهدْهُ مَنْ خبرا
ولٰكنِ الشأن أنكْ غير منتقل ... من العدَمْ هٰكذا يعرفُهُ مَنْ نظرا

❊ ❊ ❊

**فإن قلت :** كيف الشأنِ في التواضع والعبد مأمورٌ به ؟

**فنقول :** أن تعمل كما قال المصنف رضي الله عنه ؛ **حيث قال :**

لَيْسَ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَىٰ نَفْسَهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَٰكِنِ ٱلْمُتَوَاضِعُ ٱلَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَىٰ نَفْسَهُ دُونَ مَا صَنَعَ

هٰذا ميزان يقايس على الذر ، يُعرف به التواضع ، وتظهر به أحوالُ المتواضعين من المتكبرين ؛ فالمتواضع حقيقة : هو الذي كلما نزل منزلاً من منازل الضَّعة . . رأىٰ أن نفسه دون ذٰلك ، ولا يزالُ كذٰلك حتىٰ لا يرىٰ أنه فوق شيءٍ من خلق الله ، ولا يُثْبت لنفسه حالاً ولا مقاماً ، حتىٰ لو اجتهدَ كلُّ حاسدٍ وعدوٍّ في تنقيصه . . لم يقدروا علىٰ أن ينزلوه من الذلة منزله من نفسه ، فلا يغضب إذا أُوذي ، ولا يضجر إذا استُسخر به ، بل يرىٰ ذٰلك كالعلامة ، ولا يكره إذا رُمي بكبائر الفواحش وعظائم الخزايا .

ويرىٰ أنه في الطاعات جارٍ فيها بحكم الفضل ، لا يرىٰ نفسه أهلاً لفضيلة ، ولا محلّاً لحصول وسيلة ، بل يرىٰ صِرْفَ منَّةِ الله هي التي نالته ، وبرحمته وصلته ، فيؤدي بذٰلك النظر ـ لا محالة ـ حق الشكر لله ، ويُؤمَنُ عليه من غائلات الدعوىٰ وخدائع الإدلال والعجب ، ومعاطب الكبر وصرعات الفخر .

وللمتواضعين في ذٰلك آثار ؛ من ظهور التبذل في الهيئات والإظهار ، فمتىٰ نظروا قلوبهم قد ابتليت بشيء من رؤيتها . . استعملوا ما يناقض ما هي به مُتحلِّية ، وإذا اجتهدوا في تغيير الظاهر بحسن النية وثبات العزم . . هدى الله قلوبهم إلىٰ تغيير ما هي به متصفة ؛ فالاجتهاد قمينٌ بالهداية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، ﴿ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ : شريعة وعملاً ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ : طريقة وإخلاصاً

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ : شهوداً وثباتاً ، وحقيقة وعياناً ، واستغراقاً وتمكُّناً ، ولي في ذٰلك :

فللتواضع ميزانٌ يكون به ... لأهل المقامات تعديل ورجحانُ
فمن رأىٰ أنه من دون موضعه ... فذاك حقاً هو الميمون يا أنسانُ
ومن رأىٰ نفسه من فوق ذاك فلا ... شك في جهله إن كنت يقظان

* * *

فلما كانت الأعمال كلها من حيث نسبتها إلى العبد . . **فهي ناقصة** ، لا تخلو عن شائبة العيوب القادحة في قبولها ، ومن حيث ما العبد فيها بشهود الله . . **فهي النافعة السالمة من شوائب النقص** ، ولا يكون كذٰلك حتىٰ يبادي نفسه وقلبه وروحه طوارق المنح الوهبية ، **فتغمره بأنوارها** ، فيزكو ويصلح للتقريب من الحبيب ، ويدخل في زمرة الصادقين ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

## اَلتَّوَاضُعُ اَلْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئاً عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ، وَتَجَلِّي صِفَتِهِ

إذا علمت التواضع وشرفه .. فاعلم : أن منه حقيقة ، ومنه مجازاً ، ومنه ما يكون مستعملاً ، ومنه ما يكون اتصافاً .

**فمجاز التواضع** : هو ما يستعمله العبد في ظاهر الحركات والسكنات ؛ وذٰلك متوقِّف علىٰ إخلاصه لله كسائر الأعمال الحسية .

**ومن التواضع ما هو حقيقة** ؛ وهو ما ذكره المؤلف رحمه الله هٰهنا ، وهو الناشئ عن لمعان تجلِّي عظمة الله ، **التي خضع لها كل طائل** ، وتصاغر لديها كل كبير ، **وقلَّ لها كل خطير** ، وتدكدكت لها صمُّ الجبال ، وذابت لها نفوس الأبطال ، وتهيلت منها الصخور فصارت مهيلة .

فإذا تجلَّىٰ نور العظمة على النفوس .. ذابت **ولانت وسكنت** ، وما لم يتجلَّ عليها نور العظمة .. **فلا يفارقها الكبر والارتياس** ومشاركة الربوبية ودعوىٰ كمال الألوهية ، فتواضعها بدون شهود العظمة .. **تكبُّرٌ عند تحقيق النظر** وتحديد البصر .

**والتواضع الحقيقي** : هو ما كان ناشئاً عن تجلي سلطان الرهبوت ، وانبساط أنوار الجبروت ، وظهور حقائق اللاهوت .

**فعند ذٰلك** : يندكُّ تابوت الناسوت ، **وتحيا المعالم القلبية** ، وتموت الشهوات ، **وتخمد نيران النفوس** بانسجام سحائب التقديس ، **وتذهب صور التلبيس** ، وتضمحل وساوس إبليس ، **وتظهر أعلام الولاية** ، وتنشر علىٰ جيد الأرواح أعلامُ الفلاح ، وآيات الصلاح .

**ولي في ذٰلك** :

إن التواضـــع حقـــاً كل مـــا نتجـــت

أعلامـــه عـــن تجلـــي عظمـــة اللهِ

لا يمحـونَّ صفـات النفـس إن ظهـرت

إلا ظهـــور تجلـــي وصفـــه الضاهـــي

* * *

فالكبـر وصـفٌ في النفـس ، لا يمحـوه عنهـا إلا الوصـف العلـي ، والتجلي الأزلي ؛ كما أن الظلمة صفة في الليل لا تفارقه إلا بإشراق نور النهار ، أو طلوع الكواكب والأقمار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## لَا يُخْرِجُكَ عَنِ ٱلْوَصْفِ . . إِلَّا شُهُودُ ٱلْوَصْفِ

لا يخرجك عن أصالة عدمك وسابقتك ، وثنوية إنِّيَّتك ، وحجبية حسك ، ووصف غيريتك ، وحكم أثريتك . . إلا شهود وصفه الكامل الواجب الوجود ، ونعته بالشهود ، لا بالاتحاد كما يتوهَّمه أهل الإلحاد ؛ إلا أنه كلما كان أشد تعلُّقاً وتخلُّقاً بصفات الله . . كان بها أكثر تولعاً وتعلقاً ، وكلما كان كذٰلك . . كان عن صفاته أذهل وأغفل ، فلا يزال كذٰلك حتىٰ ينسىٰ صفاته ، ويبقىٰ مستغرقاً في صفات مشهوده ، وعن ذاته متلاشياً عند خطفات لمعان ذاته ، فلا يكاد له شعور بوجوده ؛ لاستغراقه واحتراقه تحت تجلِّيات أنوار موجوده ، حتىٰ يكون بها ينطق لغيبته عن نطقه ، وبها يبصر لغيبته عن بصره ، كذٰلك بقية صفاته .

والوصف الذي يطلب الخروج منه وصف العبد ، والوصف المذكور ثانياً الذي يطلب التعلق به هو وصف الرب سبحانه ، ولي في ذٰلك :

لا يخرجك عن وجود الوصف بالعدم ... إلا تجلي شهود الوصف بالقدم

إن الوجود إذا أظهر ما كنت منعدم ... يقوم لَكْ شاهدٌ والكل كالخدم

فأول ما تظهر علامات الإيمان على العبد بانكماشه في عبادة الرحمٰن ، ويظهر شكر الجَنَان بالثناء منه باللسان ، علىٰ ذي الطول والإحسان ، والعطاء والامتنان ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

اَلْمُؤْمِنُ : يَشْغَلُهُ ٱلثَّنَاءُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِراً ، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ ٱللهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِراً

المؤمن الذي يعرف أنه مستعمَل لله بحكم العبودية ، ومجبور تحت حكم الربوبية ، ولا يشهد أن له فيما يفعله من الأفعال الجميلة حقاً ، بل يرىٰ ذٰلك محض تفضُّلٍ من الله . . فلا يطلب جزاء ، بل يحمله صدور الطاعات علىٰ يديه علىٰ إفراغ الوسع في شكر مَنْ مَنَّ بها عليه وأهَّله لها ، فإذا شكرها ـ أي : النفس ـ في شيء ، أو رأىٰ أن لها فيه . . فذٰلك ـ لا محالة ـ قادحٌ في صدق العبودية ، ودليلٌ علىٰ وجود الحجبية .

ومن لوازم الإيمان وشواهد شروق أنوار الإيقان في سويداء الجنان : أن ينسى العبد حظه في أداء حق ربه ، كائناً ذٰلك الحظ ما كان ، سواء دنيوياً أو أخروياً ، يعبده لأنه أهلٌ للعبادة ، لا هرباً من شقاوة أو طلبَ سعادة .

وفي ذٰلك تقول رابعة رضي الله عنها :

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الْهَوَىٰ ... وَحُباً لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذاكا

ولي في ذٰلك :

إن الثناء على المنَّان يشغل من ... إيمانُه كاملٌ في الله والقدر
عن أن يرىٰ نفسه في فعل مكرمةٍ ... وضدُّ ذاك هو المطلوب للغير
وحق سيده أقصىٰ مآربه ... يغيب عن حظه بل يطلب النظر

❁ ❁ ❁

ثم بيَّن شاهد الإيمان الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتىٰ يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما »[1] .

فقال : إذا كنت مؤمناً علىٰ ما ذكرنا . . فأنت محب ، وللمحب علامات ، فقال في بعض دلالات المحبِّين :

---

(١) رواه البخاري ( ١٦ ) ، ومسلم ( ٤٣ ) بنحوه ، وبلفظه هنا رواه أحمد في « المسند » ( ٣/٢٠٧ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

لَيسَ ٱلْمُحِبُّ ٱلَّذِي يَرْجُو عَنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضاً ، وَلَا مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُ عَرَضاً ؛ فَإِنَّ ٱلْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ ، لَيسَ ٱلْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ

ليس المحب الطالب مرضاة محبوبه ، والظفر بغاية مطلوبه ، يستثقل بذل الوسع في كل أمرٍ يقرّبه إليه ، بل يرىٰ بذلَهُ كلية وسعه غايةَ القصور ، ورضاه عنه منتهى الحبور ، فضلاً عن أن يكون راجياً في مقابلة ما يبذله نَيْلَ حظٍّ أو طلب جزاء ، بل غاية الحظ والجزاء إذا قبل منه كليته .

والمحب يشيرون به إلى السالك الطالب ؛ فهو يتعشَّق ويطلب الحبيب بطريق الأسباب ، يقرع الأبواب ، ويديم التضرع والانتحاب ، وله علامات تدلُّ علىٰ صدقه في محبته ؛ فمن جملة تلك العلامات : الانكماش بالكلية في مرضاة محبوبه ، لا يلتفت في ذٰلك إلىٰ حظ ، ولا يعرج عنه إلىٰ وعظ ، يفرح بوجود البلاء فيه كفرح غيره بالنعمة ، يتلذَّذُ بالدلال كتلذذ غيره بروح الوصال ، يغيب عن المستقبل والماضي والحال ، يتألَّه بذكر الحبيب تألُّهَ الوليد إلى الأم ، فيجري الذكر له مجرى الغذاء ، لا تبقىٰ بقية فيه لغيره ، ولا يحبُّ أن يكون له في الوجود التفاتٌ إلىٰ سواه ، حتىٰ تنفذ في محبته قواه ؛ فالالتفات إلى الأغيار والرجوع إلى الآثار . . أكبر عارٍ عند المحبين الأخيار ، ولا يعلقون الأطماع بجنة أو هرب من نار ، بل يخشون من عقار تطير من روحها شرار نعيم في صورة نار .

والمحبة من حيث هي : محبة الله ، ومحبة غيره ؛ فمحبته ـ سبحانه ـ منزهة عن الأغراض وعلامات الأعراض ، بل هي أمرٌ معنوي يستقصي كليات المحب من غير سبب حسي ، وهي أم المقامات ، وأعظم

الكرامات ، بها قام كل الوجود وظهر[1] ، وإليها ترجع كليات الأشياء ، وإليها ينتهي كل معنىً ، سيما وقد جعلها عين معرفته لنفسه ولخلقه ، فتحركت قبضة المحبة في بطن الذات ، فتعينت الصفات ثم في أسرار الصفات ، فقامت الأسماء مفصحات بأعيان المكونات ، ومنتزحة عن رفيع الدرجات ونضارة المقامات ، ومنازل الكرامات في الجنات ، وبسطت أوراق رحمتها على أكناف الأرض والسماوات ، فوسعت الأشياء الحسيات والمعنويات برحمتها وعلمها .

وأما من حيث الخلق وإطلاق اسم المحبة فيما بينهم . . فمرجعها إلى أمورٍ محبوبة موافقة لمزاج المحب من الألوان وحسن الصفات ولو بالعلم والدلالات ؛ كمحبة الأنبياء عند من لم يرهم ، والأولياء والعلماء عند أتباعهم ومقتفي طرقهم ، فيحبونهم لما انتقل إليهم من حسن الصفات ، وأما ملاحة الصور المستحسنات . . فيحبونه أيضاً طبعاً .

فإذا تقرر لك ذلك . . فالمحبة لله من خلقه بهذا الاعتبار لا تماثل ؛ لأنك إن اعتبرت حسن الصفات . . انتهت إليه سبحانه سائر الكمالات في سائر الصفات ، وكل حسنٍ فمستعارٌ حسنه منها بطريق الفعل لا بالذات ، وإن اعتبرت الملاحة . . فلا مناسبة بين الصور ومصوِّرها والمبدعات ومبدعها ، كيف وقد علمت : أنه إذا كشف لأهل الجنة في الجنة . . يندرج في أول نظرة نعيم جميع الجنات ، ويتلاشى في جنبها سائر اللذات ؟! فهو محبوبٌ بكل معنىً ، وأقل ما يُحِبُّ مَن لا يطمح نظره إلى هذه الملامح غذاؤهُ وقوام جسمه وملاذه الدنياوية ، وبالضرورة

---

(١) وهو ما صحَّ معنىً ولم ينقل مسنداً : « كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأن أعرف » ، وقد نقله العلامة تقي الدين السبكي في « الفتاوى » ( ٢/٤٨٢ ) .

يعلم يقيناً أنها لا تصدر عن سواه ، ولا تأتي إلا من فضله وعميم بذله ، فلا أقل من أن يحبه لما يغذوه ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحبُّوا الله لما يغذوكم ، وأحبُّوني من أجله »[١] .

وللمحبين أعمال ولطائف أحوال ؛ فمن الأعمال : ألا يراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ، يراعي الحقوق في لطائف الأنفاس ومستمر الأوقات ، ومن جملة لطائف الأحوال : التعلق بذكره ، والتولع بحبه ، واستمراء علقم البلاء في جنبه ، فلا يعبأ بما يناله فيه وإن بلغ غايات التعب ، ولا يطلب أيضاً في مقابلة صبره علىٰ ذٰلك واحتماله له ما يتوقع غيره من الثواب ، بل هو وقفٌ علىٰ محبته كيف ما كانت الحال ، ولي في ذٰلك :

إن المحب وإن طالت بليته ... لا يجزعنَّ عن البلوىٰ ولا يسأمِ
وكل واشٍ له في حب سيده ... يكون عن عذله في الحب في صمم
إن كان خالٍ عن الحب ارتضىٰ سبباً ... فلا يلم بقلب الصبِّ مرتسم
لو كنت قد ذقت ما عنفت مرتقباً ... أن يرعوي عنك ما شبعت يا فدم

فللمحبين ذنوب بين الخلق لم تكن لغيرهم ، وأعظمها : التفات إلىٰ غير محبوبهم ، أو قصد غير مقصودهم ، فيرحم الله الشيخ عمر بن الفارض حيث قال :

ولي عندها ذنب برؤية غيرها ... . . . . . . . . . . . . . . . .[٢]

ولهم معاملات دون غيرهم ، وهو أنهم يتحرَّون كل ما يزيد في صفائهم وإن قلَّ عند غيرهم ، واجتناب ما يكدِّر عليهم شهودهم وإن

---

(١) رواه الترمذي ( ٣٧٨٩ ) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) كما في « ديوانه » ( ص ٢١١ ) .

كان خطيراً عند سواهم ، يتفقدون مراتع قلوبهم بصدق المعاملة ولطف المنازلة ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ذلك في مزيد إيمانهم وشهود إحسانهم عند كل آية ؛ كما قال سبحانه في شأنهم : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ، وهٰذه الزيادة لا نهاية لها ، وهي عند كل إنسان بحسب ما عنده ؛ فمنهم الكثير ، ومنهم الأكثر .

ومن دلائل المحبة : الأنس بالمحبوب ، والاستيحاش مما سواه ؛ إذ لم يحبه إلا من عرفه ، ومن عرفه .. لم يستأنس إلىٰ غيره ، ولم ير في الأكوان وجوداً لغيره ، ولي في ذٰلك :

إن المحبَّ بأُنسِ الله معمور ... في روضة من رياض القدس محبور
فكيف يأنَسْ بأُنسٍ دون سيده ... أم كيف يسكُنْ إلى الجنات والحور
لو لم تكن ثَمَّ منهم غيرُ مكرمة ... ومن لطيف الرضا في مشرق النور
وكشف حُجْبٍ عن الأبصار قاطبة ... ما طاب عيشٌ ولا وصفُ القوارير

* * *

فإذا علمت أن المحب هو السالك .. فلا بد للسلوك من تعريفٍ ؛ ما هو ؟ وما حدُّه ؟ وهٰذه حكمة من الله جارية وسنة في عباده ؛ أن جعلهم سالكاً ومجذوباً ، ومحباً ومحبوباً ، وإن السالك أولاً يأخذ في طريق التقرب ، والمحب في طريق التحبب ، ولم تكن هناك طريق حسية ؛ لوجوب التنزيه عن التحيز والتميز والجهة ، فجعل الله النفس ميدان السلوك ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**لَوْلَا مَيَادِينُ ٱلنُّفُوسِ . . مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ ٱلسَّائِرِينَ ؛ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ ، وَلَا قُطْعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىٰ تَمْحُوَهَا وُصْلَتُكَ** (١)

لولا ما سبق في علمه ، وظهر في تبليغ حكمه ؛ من أنه يُظهر سرَّ عبوديته ليُعرف كمال ربوبيته ، ويغاير بين مظاهر ألوهيته ليتحقق اتحاد هويته ، فجعل النفوس مظهرَ سرِّ العبودية ، وجعل فيها ميادين الجهاد ؛ لأنه أودع فيها من أسرار الجمال وبدائعه ، وهي في مركز العدم والظلمة ؛ فما يلي منها جانب الجمال والوجود . . هو مركز القرب والشهود ، وما يلي منها جانب العدم والظلمة . . هو مظهر البعد والجحود ؛ لذٰلك كانت محل الجهاد ، ومعدن الضرب والطراد ، وينسل من عمودها جداول الاجتهاد (٢) ، وهٰذا هو مراد الصوفية رضي الله عنهم فيما يعبِّرون ويشيرون إليه من الطريق .

ومواضع هٰذه الطريق كثيرة بحسب ما أودع في النفس من لطائف الوجود وبدائع الشهود ؛ لذٰلك لا ينتهي ترقِّيها عند خروجها عن عالم ظلمتها وحجبتها ، ويسمونه الطائفة : الذهاب فيه ، والسير أيضاً فيه بعد انتهاء السير إليه ، الذي هو التخلُّص عن حُجُبها الظلمانية ، وكثائفها الأرضية .

فبعد الفراغ عن المنازعات بين عالمي النور والظلمة ، والتخلُّص عن شدة اللزام وقوة الخصام . . يكون الانضمام ، ويعود بدرها إلى التمام ، فتكون لسائر العوالم إماماً في كل مقام ، كيف ومنتهىٰ

---

(١) المشهور المتداول في « شروح الحكم العطائية » : ( إذ لا مسافة . . . ) .

(٢) في ( أ ، ب ) : ( من عمودها حداد الاجتهاد ) بدل : ( من عمودها جداول الاجتهاد ) .

محتدهـا الختام ؟! الذي يختم بـه علىٰ كل عالم ومقام ، ثم يأخذ في السير فيه به عند التمام ، فلا غاية له إلىٰ مقام ، ولا يعبر عما وراء ذٰلك بكلام ، في عالم الديمومية وترقي الختام ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأول مسافات السالكين إلى الله التوبة ، وأول مفاتيح الأحوال الإخلاص ، وأول مفاتيح المقامات المحبة ، وبين هٰذه مسافات عديدة وأحوال ومقامات إلىٰ ما لا يتناهىٰ ؛ فكل نازلٍ منزلاً من منازل الطريق ، أو متحلٍّ بحالٍ من أحوال أهل التحقيق ، أو قائم في مقامات أهل أعلىٰ رفيق . . يكون مريداً لما لم ينل ، مراداً لغيره فيما نال ، وكلما كان أعلىٰ . . كان أشد تعطشاً ، وأقوىٰ طلباً ، وأكثر افتقاراً ، وهٰكذا أبداً .

والقطعة التي تمحوها الوصلة الحسية محالة عليه سبحانه ، كما كانت محالة عليه المسافة التي تقطعها الرحلة ؛ إذ القطعة هي البعد ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ، والمسافة التي تقطعها الرحلة لا تتصور ، وهو الحائل بين المرء وقلبه ، وأقرب إليه من نفسه ومن كل شيء ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ .

إذا علمت استحالة هٰذه الإطلاقات عليه في ظاهر الحس والمعنىٰ . . علمت أن مراد المصنف كغيره من مشايخ الطريق أن المسافة مسافةُ النفس ، وهي ترجع إلىٰ معاملات ومنازلات يعبر عنها بعبارات ، فكانت تلك العبارات مفصحةً عن لطيف هٰذه الأعمال وتحقيق هٰذه الإشارات ، وتعدادها يحتاج إلىٰ إفراد كتاب ؛ كما أفرده الإمام الغزالي [1] ، وحقق

(١) في « معارج القدس » وغيره من كتبه .

فيه **المحاسبي** [1] ، وغيرهما ؛ كأبي عبد الرحمـٰن **السلمي** [2] ، فأفردوا لهـٰذه الميادين أعداد كتب ، وهي حقيقةٌ بذٰلك .

**وجهاد النفس عندهم** : هو إماتتها عن مقتضىٰ طبعها الجبلي ، وفناء عالمها الحيواني ، وذهاب داعيها الشيطاني ، ولذٰلك معاملات بها يتوصل إلىٰ ذٰلك مع توفيق الله وتأييده ؛ **فمن أعظمها وأقدمها** : أن تعرفها من غيرك ممن حقَّقَ علمها ، وأتقن حكمها من مشايخ الطريق ، وعلماء التحقيق ، المتفرِّغين لإرشاد العباد ، العالمين بخفايا دقائق مطالباتها ، في سائر حركاتها وسكناتها ، وكليات معاملاتها .

**فينبغي أولاً للمريد** : أن يطلب مرشداً مفيداً يخرجه عن التلبيس ، ويعرفه صحة المقاييس ، **ثم يعرض ذٰلك علىٰ نفسه** ، فيراها متلبسة بكل فعل ، وكل قول وعمل ، ويراها متلطخة بكل قاذروة وخطل ، **فيطلب التوبة النصوح** ، ويعلمه طرقها ، **وينهج به في سبلها** ، فيأخذ في أسبابها ، ويجدُّ في طِلابها ، **حتىٰ تصح له التوبة** ، وهـٰكذا يرقيه من مقامٍ إلىٰ مقام ؛ حتىٰ يبلغ به إلىٰ أقصىٰ مقام ، **فيهذِّبُ ظاهره بصحيح كلامه** المؤيد بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويربي باطنه **ويغذيه بمنازلات أحواله** ، وهواطل غمائم أسراره ، ويقبسه بجذوةٍ من نار أنواره ، فيصطلي إذ ذاك في غلس ، **ويخاطب من شجرته** ، ويتجلىٰ بأسرَّته .

ومن لم يأخذ أمره علىٰ ما ذكرنا . . **لا يفلح وإن بلغ في المجاهدة كل مبلغ** ، ولم يبلغ ، بل يتعثَّر في أذيال الهوىٰ ، ويتبذخ بفظيع الدعوىٰ ،

(١) في « الرعاية » وغيره من كتبه .

(٢) في « رياضة النفس » وغيره من كتبه .

لا يرجع في أمره إلا إلىٰ نفسه التي هو مأمورٌ بالخروج عنها ، فكيف وقد أعلمه بارئها وخالقها أنه لا يؤخذ منها كل عدلٍ ظهر منها ؟! فلو لم يكن إلا ذٰلك . . لكان كافياً لذوي العقول الصحيحة .

وأمـا من سـلك الطريـق ولم يطلـب الرفيق . . فمعـرضٌ للآفات والتعويق ؛ ففي الحديث : « الرفيق ثم الطريق »[1] .

والشيخ : لـه علامات إذا وجدت . . صحَّ الاقتداء به ، فإن كان عنده البعض ؛ ففيما وجدت . . تحكِّمه بالمشيخة فيها ، وما فقدت . . فتعامله بالأخـوة فيما لـم توجد ؛ فمن جملة تلك العلامـات : العلمُ الصحيح ، فلا يصح الاقتداء بمن لم يصح له في العلم مقال ؛ إذ بالعلم يبلغ منازل الرجال .

وذوقٌ صريح فيما يعلمه يكون متصفاً لا واصفاً ، فعلم الواصف غير المتصف ، لا ينجع في القلوب ، ولا ينقل إلىٰ فتح الغيوب .

وهمـةٌ عاليـة عن كل ما يوقف دون الله من سـائر المطالب ، لا يقف بالمريـد دون منتهى المطالـب ، حتىٰ يـزجَّ بـه بين يـدي الله ، فيقول : هـٰأنت وربك ، ولا أنت .

وشيمٌ مرضية [ تبعده ] عن كل فعلة دنية ، لا تعتريه الهموم الدنياوية ، ولا يؤذي الجليس ، ولا يوحش الأنيس ، لا يرفع أحداً لسبب ، ولا يطعن في نسب ، يكرم الخلق لله بحسب منازلهم ، لا يتعدَّىٰ مراد الله فيهم مع قيامه بأمر الله عليهم . . . إلىٰ غير ذٰلك من مكارم الأخلاق .

وبصيرةٌ نافذة ، يُنزل كل طالبٍ علىٰ حسب منزلته في غيب الأزل ،

(١) رواه بنحوه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » ( ١٧٧٣ ) ، والأزدي في « المخزون » ( ص ٨٠ ) عن سيدنا خفاف بن ندبة رضي الله عنه .

ويعلم من المريد خفايا العلل ، الذي تنبو منها الأعين الظاهرة ، **ولا تدرك بالحاسة الفاكرة** ، بل بنور الفِراسة التي نطق عنها الحديث ؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم : « **اتقوا فراسةَ المؤمنِ ؛ فإنه ينظرُ بنور الله** »[1] .

فهٰذه العلامات من بعض علامات الشيخ الذي يلقي المريد إليه نفسه ، فإذا وجد من هٰذا نعته . . **فقد عثر علىٰ أعزَّ من الكبريت الأحمر في زمانه** ، **فليعضَّ** عليه بالنواجذ ؛ فإنه من الخلفاء الراشدين ، والهداة المهتدين ، الذين هم خلفاء سيد المرسلين في القيام بدعوته ، وإحياء سنته ، والهداة بهديه علىٰ واضح محجته ، وظاهر حجته ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ .

وهٰذه الخصال **تحتوي علىٰ منصة شرعته** ، وواضح طريقته ، وصحة حقيقته ؛ فمن اتصف بها ووجدت عنده . . **فقد حصل علىٰ كلية الاتباع** ، ومن كان كذٰلك . . **كان داعياً علىٰ بصيرة من ربه** ، وما أعز مَن هٰذا وصفه !! وأغرب مَن هٰذه الخصال نعته !! **فإنه يحفظك في غيبته** ، وينهضك في حضوره ، ويهذبك في سائر أموره ، ويفيض عليك من فائضات نفحاته ، وتغمرك سابغات **نظراته** ، بل كل وقتٍ له من الله خصوصية ومزيد ، ينال بركاتها كل محب ومريد ، من قريب وبعيد .

فإذا حصل لسالكٍ صريح الود في قلوبهم . . **غمرته من الله مزيد الرحمات** ، ونالته في كل أوان شوامل البركات ؛ **لأن قلوبهم موضع نظره** ، فما ترىٰ شجرة في أرض قلوبهم كيف يغمرها هواطل غمائم سماوات الصفات في كل نَفَس وحال ووقت ؛ **فمعرفتهم وحبهم والاقتداء بهم** من أجلِّ مواهب الله لعباده .

---

(١) رواه الترمذي ( ٣١٢٧ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

**والشـيخ** : هو من شـهدت له ذاتـك بالتقديم ، ودانت له نفسـك بالتعظيـم ، وهو الذي إذا واجهتك طلعته البهية . . **غَيَّبَتْ عنك المظاهر الكونية** ، ووافقتك أنواره على المشاهد الحقية ، ومن أخذك عن السِّوىٰ ، وحضـرت بحضوره مع المولـىٰ ، وذهبت دواعي الأهـواء ، **وهو الذي تسري فيك إشارته سريان الماء** في أغصان الربا ، وهو الذي تروق عندك عبارته ، وتحلو لديك إمارته ، **وهو الذي تنطوي عندك مظاهر بشريته** ، وتبرح عليك أسـرار خصوصيته ، فإذا طلعت عليك أشعة بدور ولايته ، وقابلتك أسـاريره ، وعمَّتك تباشيره . . **ظهر من قلبك ترجمانُ الولاية** ، وأشرقت في ليلك أفلاك العناية ، تبين لك صدق الخبر ، ومعاينة صحة الأثر ، **وشاهدت سورة محكمة تحكيها صور** .

**فإن قلت** : مِن أين أجد مَن هـٰذا وصفه ؟

**فاعلـم** : أنه لم يعوزك إلا عدم الصـدق في الطلب ، فلو طلبت مَن يرشـدك ويأخذ بيدك واضطررت إليه . . **لوجدته في وقتك قائماً ينادي ببـاب الحبيب** : هل مـن طالب أديب ؟ **هل من مزمـع منيب** ؟ فالحق قريـب ، وطالبه غريـب ، فالوقت معمور لا يخلو عـن قائم بأمر الله ، موضـح لمحجـة الله ، ولـٰكن حجاب العـادات صدَّ عـن معرفتهم ، والاهتداء بهديهم .

وأما حكم المريد في نفسه . . **فينبغي له أن يكون الجد في الطلب** ، ولا يشوب إرادته بالعلل ، بل يكون قصده طلب رضا ربه ، والقيام بحق ربوبيته ، **لا لينال رفيع مقال** ، أو سـني حال ، فكل من سـلك لينال . . لم ينل ، ومن سـلك امتثالاً لأمـر ذي الجلال . . **فحريٌّ أن يكرع مناهل الوصال** .

ويكون معظم تفقده لخفايا عيوب النفس ودواعيها ؛ لئلا يستحلي حالاً من أحوالها ، فيكون موقوفاً معها ؛ فقد قالوا : فترة المريد خيرٌ من وقفته ، فالفترة الرجوع لكن يصحبها الاعتراف ، فيرجىٰ لصاحبها الرجوع إلىٰ مواطن الإرادة ؛ بأن يتوب عما اجترمه ، وصاحب الوقفة يقف عند حالٍ من أحواله فيستحليه ، فيظنه أنه قد حصل علىٰ غاية المطلوب ، فكيف يتوب ؟!

وليُراعِ المريد شَرَهَ النفس في ابتداء الإرادة ؛ فإنها ربما تكلفه من الأعمال فوق ما يطيق ، وتحت ذٰلك من غامض الخديعة : أن تبغض إليه العمل ، فيطول له الأمل ، ويثقل العمل ، فقد يعمل مع التجشم ولا يجد من حلاوة العبادة ولذتها ما يجد مَنْ دخل في الأعمال على الإمهال والتثبت في الأحوال .

وقد يدخل المريد في بعض الرياضات علىٰ حسب ما وجده في كتاب ، من غير مراعاة للقوانين الشرعية ، فيضر ببعض قواه ، فيتعطل عليه مركبه ، ويتعسَّر عليه مطلبه .

وقد يأخذ في التحلي علىٰ غير شرطه ، ولا اقتفاء فيه واضحة الطريق ؛ لجهله بها وبآدابها ، فتظهر أحوال من نتيجة الخلوة غير موافقة لما عليه أهل السنة ، فيظن أنه قد حصل على المراد ، فيزداد من البعاد والعناد ؛ وذٰلك كله حيث لم يسلك علىٰ إشارات الواصلين ، والعلماء المحققين ، أهل عين اليقين ، العالمين بأسباب الحقائق وقوانين السلوك .

ومن آفات السالك : أن يُبتلَىٰ بالقبول عند الخلق والإقبال منهم قبل أوان الإذن في المقام للتربية المؤيد بكمال الاستغراق في الشهود ، والتحقق بمقام الانفراد عن مظاهر التعديد ، والبون مع الخلق بالسر

مع كونه عبداً بيـــن العبيد ، **يقرب البعيد ويفهم البليد** ، للطالب يفيد ، وللفســـاد يبيد ، يرحم الصغير ، ويوقر الكبير ، **ويشكر القليل والكثير** ، روحـــه في معســـكر الملأ الأعلىٰ خطير ، وســـرُّه في الجبـــروت يطير ، وجسمه في فرش الأرض سمير ، تلقىٰ من الله **بالتحيات** ، وتغمره أسرار الباقيات الصالحات ، وينوب عنه ربُّ البريات في سائر الصفات .

ومـــن لم يكن كذٰلك ، ولم يحظ بما هنالـــك . . **فإقبال الخلق عليه فتنـــة** ، كيف لا والنفس مجبولة علىٰ محبة العلو ؛ لما فيها من الفخارية النارية ؟!

فينبغـــي للصادق إن لم يجد من يأخذ بيده . . **أن يلجأ إلى الله فيما يسر ويعلن** ، في أن يوفِّقه لما هو المحبوب عنده .

وآداب المريدين في إرادتهم كثيرة ؛ فمنها : ما يطلب منهم الإتيان به ، **ومنها : ما يطلب منهم الاجتناب** .

ومـــن **آفات الســـالك** : أن يفهم إشـــارات المحققين وينطـــق بعلومهم قبل أن يستكمل شرائط تحققه ، ويذوق ما يعلمه ، فيظن أن ذٰلك ـ أي : الذي فهمه من الإشارة ـ هو المقصود دون التحقق به ، **فيقف عند ذٰلك** ، ولا يطلب الارتقاء إلىٰ مرتبة الذوق ، **ولي في ذٰلك** :

لولا ميادين ساحات النفوس لَمَا ... تحقَّقت في طريق الحق أسناها
فالســائرون إلـىٰ عيـن اليقين لهم ... من ربهم في منال القرب أعلاها
فـلا مســافة فـي بُعْـدٍ يكـون ولا ... قطع فيمحو بسير الحسن مثناها
لـٰكن إشــارات أقـوامٍ لهـم همـمٌ ... في منهج الحق والمقصود علياها

* * *

فـإذا علمت أن الله سـبحانه بحكمته البالغة جمع في الإنسـان النور من حيث لطائفه الروحانية ؛ كالقلب والروح والسـر ، والظلمة من حيث النفس والهوىٰ والشـهوة ، وجعل فيه متَّسـعاً للأضداد المتنافية . . فذٰلك دليلٌ علىٰ أنه أصل الوجود ، ومظهر الكمال المعبود ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه مشيراً لهٰذا المعنىٰ :

جَعَلَكَ فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَةَ قَدْرِكَ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ

( جعلك ) أي : صوَّرك وقدَّرك ـ فالجعل بمعنى التصوير والتقدير ـ أيها الإنسان الظاهر في كثائف الجثمان الموسومة بسمة الحدثان في العالم المتوسط برزخاً محيطاً ؛ ليظهر تجلي الاسمين ، ويتعين أعيان المَلَوين ، وجعل لك وجهين : وجهاً في الملكوت والشهود ، ووجهاً في المُلْك والوجود ؛ وذلك ليظهر سرُّ ما سبق في علمه : أنه يخلق خلقاً ويظهر فيهم فضلاً وعدلاً .

فانظر ماذا احتوىٰ عليه هـٰذا الإنسان من عظيم الشان .. تعلمْ أنه الكلمة الجامعة ، والليلة المباركة التي يتنزل عليها كمال الأمر علىٰ صغر جرمه في العيان ، ووسعه وإحاطته بسائر الأكوان ، فيرحم الله الإمام حيث قال (١) :

أَتَحْسِبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ ... وَفِيكَ ٱنْطَوَى ٱلْعَالَمُ ٱلْأَكْبَرُ

وهنا يُفهم سرُّ قوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ ، ويرحم الله القائل حيث قال في ذلك :

إذا كُنْتَ تَقْرَأُ عِلْمَ ٱلْحُرُوفِ ... فَشَخْصُكَ لَوْحٌ بِهِ أَسْطُرُ
وَتِمْثَالُ ذاتِكَ أُنْمُوذَجٌ ... لِكُلِّ ٱلْوُجُودِ لِمَنْ يُبْصِرُ
حُرُوفُ مَعانِيكَ لا تُقْتَرَىٰ ... لِذِي ٱلْجَهْلِ كَلَّا وَلَا تَظْهَرُ

(١) نسب للإمام أمير المؤمنين سيدنا علي كرَّم الله وجهه ، كما في « البرهان المؤيد » ( ص ١٨٧ ) .

وَمَـنْ يَـكُ غِـرّاً بِأَسْـرارِها		فَمَعْرُوفُهـا عِنْـدَهُ مُنْكَـرُ
لَئِـنْ كانَ جُـزْؤُكَ جُـزْءاً صَغِيـراً		فَفِيـكَ ٱنْطَـوَى ٱلْعالَـمُ ٱلأَكْبَـرُ
فَـلا ذَرَّةٌ فِيـكَ إِلّا غَـدَتْ		بِها يُـوزَنُ ٱلْكَـوْنُ بَـلْ أَكْثَـرُ
وَلا قَطْـرَةٌ مِنْـكَ إِلّا وَفِـي		يَنابِيـعِ أَسْـرارِها أَبْحُـرُ
فَـكُلُّ ٱلْوُجُـودِ إذا قِسْـتَهُ		إِلَيْـكَ فَـذَاكَ هُـوَ ٱلأَصْغَـرُ
وَمـا فِيـهِ مِـنْ عَـرَضٍ حاضِـرٍ		يَـزُولُ وَأَنْـتَ بِـهِ جَوْهَـرُ
فَأَنْـتَ ٱلْوُجُـودُ وَكُلُّ ٱلْوُجُـودِ		وَمَـا فِيـكَ يُوجَـدُ لا يُحْصَـرُ
وَفِيـكَ أَشِـعَّةُ لاهُوتِـهِ		مِـنَ ٱلْبَـدْرِ فِـي نُـورِهِ أَنْـوَرُ
وَشَـمْسُ ٱلْمَعـارِفِ إِشْـراقُها		مِـنَ ٱلشَّـمْسِ فِـي ضَوْئِهـا أَظْهَـرُ
لَقَـدْ ظَهَـرَتْ فِـي سَماءِ ٱلْقُلُـوبِ		خَفايـا ٱلْغُيُـوبِ لِمَـنْ يُبْصِـرُ
سَـماءٌ عَلَـىٰ قُطْـبِ تَوْحِيـدِهِ		يَـذُوبُ ٱشْـتِياقاً فَـلا يُقْصِـرُ
لَهـا مِـنْ أَشِـعَّةِ عِرْفانِـهِ		نُجُـومٌ بِإِخْلاصِهـا تُزْهِـرُ
فَمَشْـرِقُها أفْـقُ سُـوَيْدائِها		وَمَغْرِبُهـا سِـرُّهُ ٱلْمُضْمَـرُ
وَعَـرْشُ ٱلصَّفـاءِ بِهـا مَرْكَـزٌ		إِلَيْـهِ ٱنْتَهَـىٰ كُلُّ مـا يُسْـطَرُ
هُنـاكَ ٱلْمَلِيـكُ تَجَلَّـىٰ لَهـا		وَأَوْحَـىٰ لَهـا كُلَّ مَـا يَأْمُـرُ
فَقامَـتْ بِتَحْقِيـقِ مَأْمُـورِهِ		عَلَـىٰ أَنَّهـا أَبَـداً تَحْـذَرُ
وَتَرْتـاحُ مَرْبَـعَ أَحْبابِهـا		وَلا عَجَـبٌ حَيْـثُ لا تُبْصَـرُ
وَعَـوْدُ ٱلْخَفـاءِ إذا زَمْجَـرَتْ		فَبَـرْقُ ٱلرَّجـاءِ لَهـا مُسْـفِرُ
فَـرَوضُ رِياضاتِهـا مِنْهـا		وَحَـبُّ مَحَبَّتِهـا مُثْمِـرُ
وَإِنْ أَعْـوَزَ ٱلْغَيْـثُ خِصباً بها		فَمـاءُ ٱلْحَيـاءِ بِهـا يَقْطُـرُ

تَمُــرُّ بِهــا نَسَــماتُ ٱلْقَبُــولِ فَيَبْــدو شَــذا ٱلْمِسْــكِ بَــلْ أَعْطَــرُ
وَيَسْــرِي إِلــىٰ سِــرِّ مِــنْ عَرْفِهــا لَطائِــفُ تُطْــوَىٰ وَلا تُنْشَــرُ
فَيُسْــكِرُنا نَشْــقُ أَنْفاسِــها وَمَــنْ هُــوَ مَزْكُــومٌ لا يَسْــكَرُ
يُطــافُ بِكاســاتِ راحاتِهــا وَفِــي حانِهــا حُلَــلَ ٱلْمُسْــكِرُ
وَتُتْلَــىٰ بِســاحاتِ حاناتِهــا مَثانِــيَ بِٱلذِّكْــرِ لَا تَفْتُــرُ
فَمَــنْ صَــمَّ عَــنْ سَــمْعِ أَلْحانِهــا فَــذاكَ ٱلشَّــقِيُّ هُــوَ ٱلأَخْسَــرُ
وَمَــنْ ضَــلَّ عَــنْ بابِهــا مُعْرِضــاً فَــذَاكَ ٱلْغَــوِيُّ هُــوَ ٱلأَحْقَــرُ

فـإذا فهمت مـا أومأتْ إليه هٰذه الأبيات من الأسـرار المودعة في الغيب الإنسـاني ، وما أشـارت التسوية في الشـبح الجسماني . . فلا تمتـري أنـه لُبابةٌ انطـوت عليها قشـور الأكوان ، فالأقشـار اللطيفة السـماوية ، والأقشـار الكثيفة الأرضية ، والقوى المائيـة والهوائية ، والناريـة والمعدنية ، والنباتية والحيوانية . . يبنْ لك أن هٰذا الإنسـان كعبة الوجود ، ومرآة الشـهود ، ومحل نظر المعبـود ، وأنه المقصود بالوجود ، وغيره على التبع له ، متوجهـة إليه العوالم العلوية بالنزول والاسـتغفار ، والخدمة بالدعاء آناء الليل والنهار ، والأفلاك والشمس بالإضاءة ، والقمر بالنور ، هٰذا لمصالحه في ظاهر خلقته ، و﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ ﴾ ليحيا بالعلم غيبُ روحانيته .

ثم قال جلَّ من قائل : ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، فمحا بظهور حقيقته الماحية لظهور ثانٍ معه أو ظهير في تأثير ؛ لئلا ينخدع القاصر بالإضافة إليها في التأثير ، فمحا تلك الإضافة بقوله : ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ أي : العدم الذي لا يضرُّ ولا ينفع ، ولا يضعُ ولا يرفع ، فمحا ظاهر خلقيتها بظهور ألوهيته

بقوله : ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ﴾ ، وطمس باطنها بسلطان حقيقته بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

وتوجَّه أيضاً العالم السفلي إلى الإنسان بالصعود إليه والقنوت بين يديه ؛ فالمعادن إليه صاعدة ، والنبات نحوه مائدة ، والحيوان في تسخيره ساعية ، وهو لم يُطلب منه التوجُّه إلىٰ غير سيده ، فأمر بالعبودية بظاهره له ، وبالاستعانة بباطن حقيقته ، وشرف هٰذا الإنسان من حيث نسبته إلى الروح الأمرية .

قال ـ في بعض كلام ساداتنا العلوية ـ الشيخ الفاضل ، الحبر الكامل ، ذو الفرع الطائل والسر الواصل ؛ علي بن أبي بكر نفع الله به فيه ـ أي : الروح ـ وهو رابع مراتبه : ( الروح الأمري ، والسر الغيبي ، والجوهر القدسي ، الذي هو حقيقة الإنسانية ، ومحصول زبدة الخلقة البشرية ، الدرة النفيسة الملكوتية ، لا تشبه الصورة الهيكلية ، ولا تحاكي نعوت الخلقة الحسية ، بل هو روح أمري ، وجوهر نوري ، وأمر رباني ، وسرٌّ ملكوتي ، وروح غيبي ، مدرك بذاته ، لا يفنىٰ بخراب القالب وفنائه ، ولا يموت بموت البدن ، ولا يذهب بخراب بنائه ، ولا يتوقف عليه إدراكاته وتألماته والتذاذاته ، بل يبقىٰ بعد موت البدن علىٰ كمال حاله المعنوي ، أو نقص صفاته في مقتضيات القوة العلمية ، وموجبات القوة العملية التي تتفرَّع من كمالاتها ونقصانها أسباب السعادات والشقاوات .

وعلى الجملة : اعلم : أن الروح الإنساني من الأمور الربانية ، والجواهر الروحانية التي لا يمكن الإحاطة بحقائقها ، والتحقيق بمعرفة كنه ذواتها إلا بعوارض تميزه عما يتلبس به ) انتهىٰ كلامه في ذٰلك .

وهو حسنٌ موافقٌ لغرضنا في الكلام علىٰ بعض خصائص الإنسان ،

الذي تميز به من ســائر الأكوان ، وتشــرف به على سائر الملوان ، وفيه مــن كل عالم لطيفة هي لذلك العالم كالروح من الجســد ، من العوالم العلوية والعوالم السفلية ، فليعرف قدره ، ولا يميل عن ذلك استقامته ، فتكسف شمسه ، ويوحش أنسه ، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فالعندية حاصلة ، لكن منهم من ترى هلاله بدراً ، وليلته قدراً ، وظلمته فجراً ، فيعود مرتئساً ، وبربه مؤتنساً ، وبنوره مقتبساً ، ومنهم من تعود شمســه كاســفة ، وبدره خاسـفة ، وروحه آسفة ، وهنا أسرار تغيب عن ثواقب الأفكار .

* * *

فلنرجع إلى ما نحن بصدده ، فنقول : فأنت ما بين عالم ملكه وكذا عوالم الغيب حتى تستكمل الشرف ، وتعلم أيضاً بأنك جوهر ، فإذا رأيت أن صوان الكون كالصدف ، وإذا عرفت شرف الإنسان . . علمت أنما وسعه الكون من حيث الجثمان ولم يسعه من حيث الروح ووصف الإيمان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَسِعَكَ ٱلْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانِيَّتُكَ ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ رُوحَانِيَّتُكَ

فوسع الكونُ الإنسانَ بالجثمان من حيث ما يلائمه من الحظوظ الحسية ؛ لوجود المناسبة بينها وبين الشهوات الأرضية واللذات الحيوانية الجسمية ، ولم يسعه الكون من حيث الروحانية ؛ إذ الروح لا تسكن إلىٰ شيء دون جمال موجدها ، والمثول بين يدي سيدها ، فلا صبر لها عنه ، ولا سكون بدونه ؛ فالقلوب لا تطمئن ولا تأنس بدون ذكر سيدها ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، والطمأنينة : هي السكون إلى المستلَذِّ طبعاً ، فلا سكون للأرواح إلىٰ شيء من الأكوان دون مكونها ؛ فهي أبداً عاكفةٌ علىٰ ذكره ، وشاخصةٌ إلىٰ سَنِيِّ جماله ، ومتطلعةٌ إلىٰ كمال وصاله ، وليس المراد في عبارة المؤلف بالوسع من حيث الظرفية ، فهٰذا مما يستغني عنه العارف ، فلا يعرج عليه ، ولي في ذٰلك :

وسعْكَ الكون من حيث المتاع بها ... لعالم الخلق فافهم لطف حكمته

والروح ليس لها وسع فمطلبُها ... وغايةَ آمالها تحظىٰ برؤيته

* * *

فمن بقي في وسعه الخلقي ، ولم يخرج عن طبعه الجبلي . . فهو مسجونٌ مقيدٌ بقيودٌ ، ومقرنٌ في صفود ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## ٱلْكَائِنُ فِي ٱلْكَوْنِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ ٱلْغُيُوبِ . . مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ

**الكائن في الكون** بكلية مطلبه ومنتهىٰ رغبته ، ولم يفتح له وسيعاتُ ميادين الغيوب الروحانية ، وتبرج العرائس الحكمية ، وتلوح له اللوائحُ الحبية ، وتشرق علىٰ ليله الشموس الوصفية ، وتطلع في غياهبه الأقمارُ الاسمية ، وتزف إلىٰ روحه المعارف الذاتية ، وتنصب له المنابر الكرسية ، وتنزل عليه مواهب الرحمٰن العرشية . . **فهو ـ لا محالة ـ مسجون ، وفي صفقته مغبون** .

**وسجنه** : هو ما أحاط به من الأوهام العدمية ، والظلمات الأرضية ، وليس هٰذه المحيطات إلا حيث تخلَّفت عنه العناية الأزلية ، [ و ] استولت عليه الدواعي الهوائية ، والضلالات الشيطانية ، والمطالب النفسانية ، فغطت عنه أفلاكه ، وادلهمَّت عليه ظلمات أحلاكه ، فبقي محصوراً في هيكل ذاته ، فكلما كانت أكثف . . كانت الظلمة أشد ، وكلما كانت أوسع . . كان تعليق هٰذه المحيطات أضيق ، وتعود في اليوم الموعود قيود وصفود ، وإرهاق صعود ، وزبانية وجنود ، أعاذنا الله منها ، وجنَّبنا طرائق أسبابها ، وفتح لنا ميادين القلوب ، وأوردنا مناهل الوداد والحب ، وجعل أرواحنا ترتع في رياض معارفه ، وتتمتع بشهوده ، مسربلة بسابغات سرابيل جوده ؛ إنه جواد كريم ، ولي في ذٰلك :

الكائنون في الأكوان بالطلب ... ولم يبح لهم عن منتهى الطلب
فهم في السجن في الدنيا وغايتهم ... في عاقبةْ أمرهم في الهمّ والنصبِ

❊ ❊ ❊

فمتىٰ كان الغالب عليك شهود الأكوان ، واستحسان ملاح الألوان . . فاستدلَّ بأنك بعدُ لم تخرج عنها ؛ حتىٰ يغيب عنك وجودها ، ويضمحل عنك شهودها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

أَنْتَ مَعَ ٱلْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ ٱلْمُكَوِّنَ ؛ فَإِذَا شَهِدْتَهُ .. كَانَتِ ٱلْأَكْوَانُ مَعَكَ

قد علمت فيما سبق أنك حيث أنت مع الأكوان بالرغبة فيها والطلب لها . . فأنت مسجونٌ ومحصورٌ ومأسور ، ولم تنفك عنك هٰذه القيود إلا بشهود وحدانية المعبود ، ولم تذهب هٰذه المحيطات إلا بإشراق أنوار الصفات .

وإذا أشرقت عليك وتحقَّقْتَ بها . . كانت الأكوان معك ؛ لافتقارها إليك بالطلب والتسخير الإلٰهي ؛ لما قد علمت من توجهها : علويها وسفليها ؛ حيث كنت معه بالقيام بحق العبودية ، والانطواء تحت تجلي أسرار الربوبية .

فإذا أخلص العبد عبوديته لربه ، وتولَّه في مشرقات تجليات صفاته ، وتعلق بكليته بالتولُّهِ في عزيز ذاته . . فلا شك أن كل من في الكون يتشرَّف به ، ويتبرك بدعائه ، ويستأنس إليه كما يستأنس الحِبُّ إلىٰ حِبِّه .

فما روي في هٰذا المعنىٰ من استئناس الوحوش بهم والسباع .. ما يكاد يخرج عن الحصر ؛ فالأكوان تتوجَّهُ إلى الإنسان بالأمان عند كمال الإيمان .

فمن علامات هٰذا المقام : ألَّا تنفر عنه المتوحشات من الأنعام ، وتأوي إليه ضواري السباع ، وتشتاق إليه البقاع ، ويطيب بذكره السماع ، وتلتذ بسماع خطابه الأسماع ، وتبرأ ببركة ريقه الأوجاع ، وغير ذٰلك من تجلي أسرار الجمال ، وتلألؤ لوامع الكمال .

**ولي في ذٰلك :**

ما لـم تكن عن وجـود الكـون منخلعاً
بـالله فأنــتَ إذاً فــي ظلمــة الحلــكِ
وحيـث كنـت مـع المولـىٰ فـلا حـرجٌ
أن تملك الكون بالتصريف كالمَلِكِ

* * *

**فــإن قلت : هل تلــزم هـٰذه الخصوصية عدم وصف البشــرية ؟ قال المؤلف بإثر ذٰلك ، مفصحاً بالجوابِ عما هنالك :**

لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ ٱلْخُصُوصِيَّةِ ، عَدَمُ أَوْصَافِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ؛ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْخُصُوصِيَّةِ : كَإِشْرَاقِ شَمْسِ ٱلنَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي ٱلْأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ ؛ تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَتَارَةً يُقْبَضُ ذَٰلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَىٰ حُدُودِكَ ؛ فَٱلنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَـٰكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

إذا علمت سرَّ الخصوصية ، الفائض عن تجلي الصفات العلية ؛ كفيضان النور على الأفلاك المضيئة . . **فهل يلزم مِنْ شأن مَنْ أُفيضت عليه هٰذه الأنوار** ، وتجلت عليه هٰذه الأسرار عدمُ وصف البشرية المفصح عن القصور عن المراتب العلية والأنوار البهية ؟

**فنقول** ـ كما قال المؤلف ضارباً لذٰلك الأمثال ، ومبيناً فيه غاية البيان بظاهر المقال ـ : **إنما مثل سرِّ الخصوصية** كإشراق نور **النهار على ليل** وجود الإنسان ، فالليل الظلمة العدمية متأصلة فيه ، **والنهار عليه طارئ** ، فمتىٰ طرأ . . فلا شك في انعدام ظلمة عدم الإنسان ، كما تنعدم ظلمة الليل بإشراق نور النهار ، ومتى انسلخ عنه النهار . . رجع إلىٰ عدمه المتأصل فيه ، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، فافهم هُديت .

فإذا علمت صحة هٰذا المثال ، وتحققت هٰذا المقال . . **علمت أن الليل أصلك لا ينفك عنك** ، وأن **النهار ليس إليك ولا منك** ، فعند ذٰلك تعلم سر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، الذي هو كنزٌ من كنوز الجنة ، فمتىٰ عثرت عليه . . فقد حظيت بكيمياء السعادة ، وواجهت حقيقة عين العبادة ، فالخصوصية لا تدل علىٰ عدم وصف البشرية ؛ إذ البشرية متأصلةٌ في الإنسان ، والخصوصية ـ التي هي شروق شمس الأوصاف

العليـة ـ واردةٌ عليـه ، إذا وردت . . اضمحلت معها الصفات العدمية ، وبقيت لها الهيمنة الأزلية والسلطنة الديمومية .

ومتىٰ غابت عنه تلك الشموس في سحائب الأقدار ، وحُجبت عنه تلك الأنوار بارتفاع بخار الآثار . . عاد ـ لا محالة ـ إلىٰ أصله .

والصفات العلية أفلاك شموسها المطالع النبوية ، والسرائر القربية ، والأسماء مطالعها المواضع القلبية والأرجاء النفسية ، والصوامع الروحية ، وأما جمع الذات العلية . . فلا تقبل فيضانها إلا الحقيقة الأحمدية .

ولأهل الله الزيادة في كلا الحالين ، فأما في حال شـروق ما يخصُّهم به من صفاء تجلي الصفات ، وتلألؤ النعوت القدسيات . . فلئلا تتراكم عليهـم كدورات البشـريات ، وتحـول بينهم وبيـن محبوبهم حجبُ الشهوات ، فكشف لهم ما يحقِّقهم فناء الأغيار ، وزوال الكثائف والآثار ، ويردون إلىٰ حجبهم في بعض الأوقات ؛ ليوفوا العبوديَّةَ حقَّها ، وليعطوا الربوبية مسـتحقها ، لا ليبعـدوا بعدما قُرِّبوا ، ويسـلبوا بعدما أُعطوا ، فليسـوا مرادين بهٰذا ، وإنمـا هم في كل الأحوال مـرادون بالوصال ، ومخطوبون لمشهد الكمال .

وتعبيره للكشـف عـن الصفات الأزليـة والنعوت العليـة بالنهار ، والرجوع إلىٰ مواطن البشرية بالليل . . من أحسن صنيع لذٰلك ، ولي في ذٰلك :

فليـس مـن لازم التخصيـص بالمنـن
ألا يكـون البشـر يطـراً علـى السـنن
بل ذاك أصدق شيء في اختصاص فتىً
وشـاهد الفضـل والإحسـان والمنـن

إن أشرقت شمس إشراق الصفات على
ليل الوجود ترىٰ من غيبه الكمن
وآن انسلخ عنه نور الحق عاد إلىٰ
ظلامه ذاك أصل فيه يا فطن

* * *

مباداة أنوار الصفات على المجذوبين المحبوبين من غير ترقب ولا تعمُّل ولا استشعار ، بل ورود منَّةٍ منه عليهم ، فتخطفهم علىٰ غير ميعاد ، وتجذبهم لمحتدها من غير ترتيب ومقدار ، يتنزَّلون بها إلى الوجود مؤيدين ، وبأنوارها مهتدين ، يستدلون بالمؤثر على الآثار .

وأهل السلوك المحبُّون ليس لهم ذٰلك ، بل يستدلون بالآثار على المؤثر ؛ لذٰلك قال المؤلف مبيناً لطريقتهم ، ودالاًّ علىٰ ترتيب منهجهم ؛ لذٰلك قال :

دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَىٰ وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَىٰ وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ ٱلْوَصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَأَرْبَابُ ٱلْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى ٱلتَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَىٰ شُهُودِ آثَارِهِ ، وَٱلسَّالِكُونَ عَلَىٰ عَكْسِ هَـٰذَا ؛ فَنِهَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ بِدَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، وَبِدَايَةُ ٱلسَّالِكِينَ نِهَايَةُ ٱلْمَجْذُوبِينَ ، لَـٰكِنْ لَا بِمَعْنىً وَاحِدٍ ؛ فَرُبَّمَا ٱلْتَقَيَا فِي ٱلطَّرِيقِ ، هَـٰذَا فِي تَرَقِّيهِ ، وَهَـٰذَا فِي تَدَلِّيهِ

فهـٰذه الحكمة قسيمة للتي قبلها ، وآخرها إظهار لسر هاتين الحكمتين ، وتفصيل لمعنى الفريقين ، وتبيين لمنهج الطريقين .

فالحكمة الأولى التي ذكر فيها ثبوت الخصوصية ، التي لا يلزم من ثبوتها عدم ظهور البشرية . . مشير فيها إلىٰ أحوال المجذوبين ؛ وذٰلك أنهم رجعوا إلىٰ أداء حقوق العبودية ، وإيفاء مقام الحكمة الخلقية حقه ، وإعطائه مستحقَّه ، ربما يظن ذو فهمٍ سقيم أن ذٰلك ينافي اختصاصهم ، فرفع ذٰلك الوهم بما فصَّلَهُ في الحكمة الأولىٰ .

وربما ينظر قاصرٌ إلىٰ هـٰذا المقام فيظن أن لا طريقَ توصل إلىٰ هـٰذا المقام على التمام إلا بطريق الجذب ، فيترك الاجتهاد ، ولا يتهيأ للاستعداد ، فبين المؤلف بالحكمة طريق السالكين ، ومن أين يكون ابتداء الآخذين في سلوكها ، فقال : ( دل ) أي : نصب أعلام الدلالة علىٰ طريق وصاله ، وذٰلك أيضاً امتنانٌ منه ؛ إذ هو الذي نصب الأعلام ، وجعل فيك أهليَّةَ القيام ، وقابلية التعلم والاهتداء إلىٰ معرفة الأحكام ، وجميع ما حوته دوائر الأكوان آثارٌ عن آثار المؤثر فيها .

وأمهات الأسماء أربعة ، وقد علمت إحاطة هويته بجميعها ؛ وهي : الأول والآخـر ، والظاهر والباطن ، فكل الأسـماء ترجـع رجوع الفرع إلى الأصل إلىٰ هٰذه الأربعة .

والأسماء : منها ما هو جمالي ، ومنها ما هو جلالي ، ودخل في ذٰلك أثر الفضل [ وهو ] عن الأسـماء الجمالية ، وأثر العدل وهو عن الأسماء الجلالية ، فصـح أن الجمال وصف ، والجلال وصف من جملة صفات الواحد الحق ، فهويته تندرج في ظهور سائر الصفات ، وأحديته تضمحل عندها ظهور التعديدات ، وظهور الآثار تقتضي المعاملة بالعلم ، وظهور الأسـماء تقتضي المعاملة بالإيمان ، وظهـور الوصف يقتضي المعاملة باليقين ، وظهور الذات يقتضي المعاملة بالشهود والعيان .

فنـزول المجذوبيـن في الأكـوان بالشـهود والعيان ؛ لأنـه أول ما كشـف لهم عن كمـال الذات ، فذٰلك لا يفارقهم في ردهم إلىٰ شـهود الوصف ، فيشهدون الوصف بالموصوف ، ورجوعهم إلىٰ معرفة الأسماء بالمعـروف ، ونزولهم إلى الآثار بالمؤثر ، مصحوبين بتأييد الأسـرار ، وروح الأرواح ، وأنوار الأسـماء ، فهم محمولـون مؤيدون في جميع ما يفعلون ويذرون ، مرفوع عنهم العناء ، مروح عليهم من كد المجاهدة ؛ بمـا يجدون من روح المشـاهدة ، فلا يسـلكون بالمريد إلا علىٰ هٰذا المنـوال ، فأكثر المريدين وصولاً وأكملهم حصولاً . . من سـلك علىٰ أيدي هٰؤلاء .

والسالكون أولاً يستدلون بالآثار على الأنوار ، وبالأنوار على الأسرار ، وبالأسـرار علىٰ أحدية الواحد القهار ؛ فنهايتهم إلى ابتداء ما ينزل عنه المجذوبون ، وبدايتهم في سلوكهم ينتهي إليه تنزُّل المجذوبين ، لٰكن

لا بمعنىً واحد ، فليس من دخل الأشياء بالله كمن خرج عنها إلى الله ، فلهذا في دخولها زيادة ـ بل زيادات ـ ما أودع الحق فيها من حقائق الأسرار ، وأظهر فيها من بدائع الأنوار .

والسالك يتخلص عنها من حيث إنها ظُلَمٌ وأغيار ، وكثائف وآثار ، فشتان بين المشهدين ، وفرق ما بين النظرين ؛ فربما التقيا في الطريق المشار إليها ، هٰذا ـ أي : المجذوب ـ يتنزَّلُ في مدارج الأسرار وبروج الأنوار ، وهٰذا ـ أي : السالك ـ يترقّىٰ في معارج الأسماء عن دركات ظلمات الأغيار ، وشهود حجب الآثار ، ولٰكن فرقٌ ما بين نازل في البروج والمدارج ، وبين صاعد في العقبات والمعارج ، والسالك علىٰ هٰؤلاء كثير التعني والتكلف ؛ لأنهم يسلكون به حيث سلكوا ، ولي في ذٰلك :

دلَّ الدليل على الأسماء بالأثر ... وأيضاً علىٰ محكم الأوصاف بالغير
والكل دل به بالأمر مقتدر ... علىٰ وجود ثبوت الذات فاختبر
فلا تقومُ صفاتٌ دونَ متصفٍ ... بها فكن عالماً بالعلم مختبر
فكان قوم علىٰ نُجْب الهوىٰ بطر ... وآخرون على الآثار والسير

* * *

فلما كانت هٰذه الدار لا مناسبة بينها وبين ظهور الأنوار . . لم يعرف قدرها إلا في دار القرار لوجود المناسبة ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## لَا يُعْرَفُ قَدْرُ أَنْوَارِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ ٱلْمَلَكُوتِ ؛ كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ ٱلسَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ ٱلْمُلْكِ

( لا يعرف ) والمعرفة بالشيء هو التحقُّق بالشيء المعروف على ما هو عليه من الكمال والصفاء والتنزيه ، وكليات محاسنه ؛ إما علماً يكاد يكون عياناً ؛ ويسمى إيماناً ، وإما ذوقاً محققاً ؛ ويسمى كشفاً وعياناً .

وأنوارُ القلوب ـ كما علمت ـ من ظهور تجلي الأسماء ، والأسرار من تجلي الصفات العلية ، وهٰذه الدار لا تسع من هٰذه الأسماء والصفات ما هي عليه من الكمال والصفاء .

فسماء القلوب هي متسع الغيوب ، وفلك الأسرار هو التوحيد عن الأغيار ؛ كما أن سماء الأنوار الظاهرة التي منها النجوم والأقمار السماء الحسية المطيفة بعالم الملك الظاهر ؛ فأنوار القلوب والأسرار لا مقدار [ لها ] ، ولا تظهر مشرقات أنوارها إلا في متسعات أقطارها الغيبية ، ولا تجلى عرائسها إلا في قصورها القدسية ، إلا أن لأهل الإيمان نصيباً في هٰذه الدار ، وهو الذي يحملهم على طلبها ، ويزعج قلوبهم ظهور مشهدها .

ولي في ذٰلك :

فليس يعرف مقداراً لما وعدت ... من مظهر أنوار ذاك المنظر النضر
إلا بكشف غطا الأكوان عنه كما ... لا تظهر أنوار شمس الحس في النظر
إلا على عالم الملك الذي ظهرت ... فيه الكواكب للرائين بالبصر

❊ ❊ ❊

فللأعمال الحسية شواهد في الحس ، إذا وجدها الصادقون . . فذٰلك بشـــارة وأمارة علىٰ أن العمل مقبول لديه ، فإذا أثمر في هـٰذه الدار التي لا جــزاءَ فيها . . فهو أحرىٰ بأن يثمر فـــي دار الجزاء ما لا يدخل تحت الحصر ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

## وِجْدَانُ ثَمَرَاتِ ٱلْأَعْمَالِ عَاجِلاً .. بَشَائِرُ ٱلْعَامِلِينَ بِوِجْدَانِ ٱلْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلاً

ما يجده العاملون على الوفاء وحسن الاقتفاء .. بشائرُ من الله لعبده ، وتسكين لما يجده من خوف القطيعة .

فإذا ظهرت على العبد ثمراتُ الأعمال ؛ من نزول السكينة ، وحصول الفتوح ، وتوالي المنوح الوهبية .. **فذلك دليلٌ على قبولها عنده .**

ويشار إلىٰ ذلك بقوله عزَّ من قائل : ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ .

**ولي في ذلك :**

فكل ما يظهر المولىٰ على العمل ... من روح قرب فذلكْ منتهى الأمل

إن المزايا إذا كانت مقارنة ... للعاملين جَبْرُ ما ثَمَّ من خلل

* * *

فإذا ظهرت ثمرة العمل .. علمنا ـ لا محالة ـ أن هٰذه منّة متجددة غير منة العمل نفسه من جملة المنن ، فلا يُطلبُ عوضٌ عليه إلا من باب الوعد الصادق ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْعِوَضَ عَلَىٰ عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ ٱلْجَزَاءَ عَلَىٰ صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟!

كيف تطلب ـ أيها العامل ـ طلبَ استحقاقٍ عوضَ ما تعمل ، لا طلب إفضال من فضله ، وتصدق من عميم بذله ؟! فلا حرجَ على العبد إذا طلب من هٰذا الوجه ، بل طلبه بهٰذا الوصف هو المطلوبُ منه ؛ لأن الطلب لا علىٰ وجه الاستحقاق والإدلال . . هو مقتضى العبودية ، والاستكانة تحت غناء الربوبية .

وأما الطلب بالإدلال بالعمل ، ورؤية الاستحقاق عليه . . فذٰلك من نعت الزائغة القدرية ، فالعمل من جملة فضله علىٰ عبده نفسه من غير نظر إلىٰ جزاء ولا غيره .

فالعوض : هو من باب مقابلة الحسنات بأمثالها من الحسنات ، والجزاء : هو الإحسان في الحسنات ، فجزاؤه من الإحسان بمحو الظُّلَم الغيريات ، فذٰلك في مقابلة الصدق في المعاملة ، وهو أيضاً من هداياه الغيبيات ـ أي : الصدق ـ فكيف تطلب جزاء علىٰ ما هو من هداياه ، واختصاص من عظيم فضائله ومزاياه ؟! إذ قال في الحديث القدسي : « إنه سرٌّ من سري ، أُودعه قلبَ من أشاء من عبادي »[1] .

ولي في ذٰلك :

فكيف تطلب علىٰ ما منك من عمل ... عوضْ وذٰلكَ من إفضاله العمم

أم كيف تطلب جزا صدق حظيت به ... فذاك جهل بمن منه الهدىٰ قِدَم

❊ ❊ ❊

(١) رواه القشيري في « رسالته » ( ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

فالصدقة يشيرون بها إلى الأعمال الظاهرة ، والهدية يشيرون بها إلى الأعمال الباطنة ، ولا يخفىٰ ما بينهما من تباين المنزلة ، وكان سلوك قوم بالأعمال الباطنة إلىٰ تخليص الأعمال الظاهرة ، وسلوك قوم آخرين بالأعمال الظاهرة إلى التوصل بالأعمال الباطنة ، قال المؤلف رضي الله عنه :

قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ

٢٥٤

ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ ٱسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً

القوم : هم الجماعة من الناس ؛ كما ورد : « **الولي في قومه كالنبي في أمته** »[1] ، وقد يطلق القوم على الأمة ، وذُكِروا هنا لتقسيم الفريقين ؛ وهم : **المجذوبون** المرادون المحبوبون ، **والسالكون** المحبون ، وكلاهما على الحقيقة محبوبون مرادون ، **وإنما وقع التفاوت بينهم** من حيث الخفة والعناء ، ونسبة الفضل والاجتهاد .

**فالسبقية هي التي أشهدت من وصلت إليه** نسبة الفضل قبل نسبة الاجتهاد ، وحقيقته برتبة الانفراد بالإيجاد قبل ظهور أفعال العباد ، **فعرف أنه المراد بكل مراد** ، فلا جرمَ أن تغيب عنه أوصاف العباد بظهور أوصاف الجواد ، فيسلم من نسبة الأفعال إليه ، فيسلم ـ لا محالة ـ من آفات الأعمال التي ابتلي بها السالكون والعباد ، **ويكون مفاجَأً بتحف** كل وسيلة ، مخطوباً لكل فضيلة ، محمولاً عنه عناء التكلُّف في سائر الأعمال ؛ **لأنها تفجؤه أنوارها قبل ظهورها على أركانه** ، فترتفع عنه الكلفة بما يجده من ثمرة الوارد .

**والمجذوب على ما تقرر** : هو الذي طُويت له مسافة الطريق ، وسخرت له [ رياح ] المحبة ، **فحملته على بساط المنَّة** ، غدوها شهرٌ

(١) رواه الرافعي من طريق الخليل الحافظ في « مشيخته » بسنده مرفوعاً كما في « التدوين في أخبار قزوين » ( ٣/٩٥ ) عن سيدنا أبي رافع رضي الله عنه ، وانظر « الإتحاف » ( ١/٤٤٩ ) .

ورواحها شهر ؛ **فهو من أهل الاختصاص** بالفضل والاجتباء ، **والسالك** : هو الآخذ في طريق الاجتهاد والتكلف ، أولاً ؛ فهو السالك إلى الله من طريق الأفعال ، **يترقّىٰ** بالاستدلال في **مراتب الوجود** حتىٰ يأتي إبان وصوله ، ويعثر علىٰ كنز محصوله ، **فيشهد الأنوار بعد تحري الأذكار** ، وتصفية الأكدار ، آناء الليل وأطراف النهار ، **فوصل إلى الهداية بعد تحقيق الاجتهاد** ، فاهتدىٰ إليه ، وعرف حقيقة الطريق إليه ، فيستأنف نفسه وما منها ، **ويأخذ في التعلُّق والتخلُّق آخراً** حتىٰ يغيب في القرب عنه وعن ما منه ، ويشهد ما شهده المجذوب أولاً أولية الحق في كل شيء .

**والمجذوب** يرحل عن هٰذا الشهود في أطوار الوجود ، متطلباً لنهاية المقصود ، **فتسير سفينته برياح جذبته** ، فيصل مستقر الاسم الآخر ، **فتظهر نفائس ومفاخر** ، فيأخذ في السير فيه به ، **فتطلع له شمس البقاء** ، وتلوح له بشائر اللقاء ، فتلتف الساق بالساق ، **ولي في ذٰلك** :

قـــومٌ لهـــم تســـبق الأنـــوار أذكارُ
وآخـــرون ابتـــدوا منهـــا بهـــا ســـاروا

فمَن ركبْ فوق ريح الجذب يسلك في
ميـــدان عرفانـــه بأطيـــاره طـــاروا

* * *

**والذكر حقيقة** : هو ما كان عن شهود باطن ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ ، إِلَّا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ



أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنِ ٱسْتَشْهَدَكَ ، فَنَطَقَتْ بِأُلُوهِيَّتِهِ ٱلظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحَدِيَّتِهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلسَّرَائِرُ

**فظاهر الذكر** : هو الذكر باللسان ، واللسان كما علمت أنها الترجمان عن الجَنان ؛ **فالباطن** هو الجنان ، **والظاهر** هو اللسان ، فكل ما تحكَّم في الجنان شهودُهُ . . **نطق اللسان بوجوده** ، **والشهود** : هو أثر نور الوصف ، **والفكر** : هو أثر نور الفعل ، **ومحتد نور الوصف** هو الروح ، **ومحتد نور الفعل** هو القلب .

فإذا شهد الروحُ نورَ الأزل . . **أسرج في زجاجة القلب مصباحاً** ، فقابلت الأفعال الحقية تلك الزجاجة ، فانفتحت أبواب الأفكار في تصاريف الأقدار في مظاهر الآثار ، **فترىٰ إحاطة القهار** ، فتنطق بالأذكار ، **وتذعن النفوس بالإقرار** .

فإذا كان علىٰ هٰذا السبيل سيرك . . تحقَّقت أنه أشهدك وجوده من قبل أن يستشهدك حقيقة وجوده ، فما شهده إلا نوره ، ولا عرفه إلا سر ظهوره ، فإذا أراد أن يشهد عبده . . **جعل فيه أهليةً لذٰلك الشهود** ؛ وهو الوعاء الوجودي الذي يشير إليه أهل الله .

فإن أريد بالجذب . . **كَحَلَ حدقة سرِّه بنور اسمه الأول** ، وإن أريد بالسلوك . . **كحل سرَّهُ بنور اسمه الآخر** ، وذٰلك التكحيل هو تجليه سبحانه لأسرار أوليائه في عالم الغيب في الغيب ، **فظهر لها بتجلي أحديته** ، وظهور ألوهيته ، **فشهدته الأسرار** قبل ظهور الهياكل الجسمانية ، فلما

تلبست بهٰذه الهياكل الجسمانية . . طلب منها الشهود بما أشهدها في غيب أعيانها ، فنطقت القلوب والأسرار بأحديته ، وتقلقلت الألسن بظهور ألوهيته ، فشهدت بنور الاسم الأول صرف الأحدية وانفراد القيومية ، وشهدت بنور الاسم الآخر ظهور الألوهية ، وعلىٰ هٰذا المشهد ينزِّلُ القولُ والكلام على الفريقين ، وتظهر آثار الطريقين ـ الذين هم المجذوبون والسالكون ـ فالجمع للقلوب والأسرار ، والفرق في ظواهر الأذكار ، واختلاف معاني الظهور تحت الحجب والأستار ، ولا بد من ظهورهما جميعاً ، فلا يتم مظهر الكمال إلا بذٰلك ، وذٰلك أثر حكمته البالغة ، ولي في ذٰلك :

تزاحمت لظهور الحق أسماء وذاك يظهر في[1] جمع وتفريق
فمن يذوق عقار الوجد يصحبه جمع مع حسن تثبيت وتوفيق
ومن يكن سالكاً فالفرق حالته ويقصد الجمع في علم وتحقيق
وأهل الكمال لهم في الصحو مرتبة جمع وفرق معا نسك وتمزيق

* * *

فإذا علمت سبق تجليه سبحانه ، وتعرُّفه إلى القلوب والسرائر قبل ظهور تصويرها بأنه الأحد الذي لا يقبل التعدُّد في ذاته وصفاته وأفعاله قبل بروز آثارها ، فلما برزت في حال بروز كثرة الآثار . . استشهدها بما أشهدها أولاً ، فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر ، فمن لم يشهد هٰذه الأحدية . . لم يتأت منه النطق بالألوهية ، وإن أشهدها لٰكن لا من قرب . . نطق كذٰلك لا من قرب ، وفي ذٰلك غاية

(١) في ( ب ) : ( وذاك في حالتي ) بدل : ( وذاك يظهر في ) .

البيان على ما سبق في حقيقة الأعيان ، فإذا علمت أنه لا يذكر في عالم الشهادة بالألوهية إلا من أشهده صِرْف الأحديةِ . . فاعرف حق كرامته لك من بين أبناء جنسك إن أكرمك بكرامات عديدة ، ولكن لما كانت لا تدخل تحت الحصر . . ذكر من جملتها ثلاثة خاصةً بالذاكرين ، فقال رضي الله عنه :

أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ[١] : جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ ، فَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

أكرمك ـ أيها الإنسان ـ من بين سائر الأكوان ، قبل أن يكون لك ظهور عيان ، بقوله [ في ] القرآن ، قبل ظهور وصف الفرقان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ، وأشار بتلك الكرامة إلىٰ ما خصَّهم به من مزايا الامتنان ، وشهادة العيان قبل بروزهم إلى الأكوان ، بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، فذلك التفضيل الذي أتىٰ به بصيغة المصدر . . إشارة إلى المبالغة في تفاوت التفضيل ، وذلك فرع تلك الكرامة السابقة في الظهور الحقي الجمعي الصِّرْف ، ثم في التجلي الوصفي ، ثم في التجلي الفعلي والأثر الخلقي .

والظهور الحقي الجمعي . . هو قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ ، والتجلي الوصفي . . قوله : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ ﴾ ، والتجلي الفعلي في الأثر الخلقي . . قوله : ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم ﴾ .

وهٰذه الكرامات الثلاث التي أشار إليها المؤلف رضي الله عنه من جملة تفاصيل هٰذه الكرامة الجمعية ، ولٰكنها من الكرامات الروحية ، والمواهب الحقية ، واللطائف القربية ، جعلك قبل كونك ذاكراً[٢] بقوله : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ ﴾ وأنت بعدُ في عالم صورتك ، ولولا فضله

---

(١) سقطت الباء من النسخ .

(٢) يعني : جعلك ذاكراً له سبحانه قبل وجودك .

العظيم وكرمه العميم . . لم تكن ؛ لأنه كونك ، وذكرك بالتكوين قبل التأيين والتعيين ، ثم تعيَّنْتَ وتكوَّنْتَ أقلَّ كون من ماء مهين ، برزت من عصارة طين ، وفي عالم تعينك هباءة لم تبين ، أهَّلك بأن أودع فيك أهلية لذكره ، وموضعاً لنزول أمره ونهيه ، ومن أين لك ذلك ؟! وأن تتأهل لما هنالك ؟!

ولكن بتخصيص فضله ؛ بأن أثبت لهم تلك الأحقية ، وهيَّأهم لتلك الأهلية ، فقال : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ ﴾ إشارة منه بقوله : ﴿ كَانُوٓاْ ﴾ إلى جمعهم في غيب الحق ﴿ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ ، والكان وصفه بالجمع الذاتي والتجلي الأحدي ، والاسم تجليه بالفرق الوصفي ، وأعيان الأشياء تتعين هناك ، هنا علمان ، ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ لجريان الذكر على الذاكرين في هذا الظهور الخلقي ، والعالم الملكي دليل الذكر في التجلي الحقي والظهور الوصفي .

وأكرمك أيضاً بأن جعلك مذكوراً به ؛ إذ حقق نسبته إليك ، ولولا تلك النسبة . . لما كنت ذاكراً ، ولا ظهر لك علم ولا خبر ، ولا عين ولا أثر ، وجعلك مذكوراً عنده ، فتمم نعمته عليك ؛ إذ ذكْره لعبده هو الذي تنتهي إليه الكرامات ، سيما إذا حقق له الوصف بالعندية المفنية للمظاهر الغيريات ، والمحرقة للحجب الكونيات ، فلا أتم منها نعمة ؛ إذ من كان عنده مذكوراً ، وفي حضرته مشكوراً . . لا يعلم ما له من الكرامات والزلفى ، ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : ذكر الله لعبده أكبر وأعظم من ذكر العبد له ، فلا يُدرى أي الكرامتين أعظم : أن جعلك ذاكراً له ، أو جعلك مذكوراً به ؟ وأما حيث جعلك مذكوراً عنده . . فقد حقق لعبده منتهى المطلوب ، وأناله غاية المرغوب ، فوصف العندية

يقتضي النيابة من الله عن عبده في سائر الحركات والسكنات ، في البطون والظهور ، لا تبقىٰ بقية يكون فيها متسع لظهور الغيرية ، ولي في ذٰلك :

أكرمك قبل ظهور الكون منّانُ ... إذ كنت تذكره وألا ما أنت يا انسانُ
وكنت مذكوراً اذ نالتك نسبته ... من أنت حتىٰ لذاك القرب إبّانُ
وعنده كنت مذكوراً فذاك لنا ... من منتهىٰ غاية التقريب إحسانُ

* * *

قال يحيى بن معاذ الرازي : ( يا غفول ، يا جهول ؛ **لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك . . لمُتَّ طرباً** )[1] .

**قلت** : وصريره ـ والله أعلم ـ عند ذوي الأسرار مسموع ، لا يفارق أسماع قلوبهم ؛ **فلذٰلك لا تراهم يفترون عن الذكر ولا يستحسرون** ، وهم أهل العندية ، الكائنون في حضور حضرة الرَّبيَّة ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ ، **ولَساعة من أعمارهم لا توازنها أعمار جمة** ؛ لأن كل نسمةٍ منهم لا يوازنها عمل الثقلين ، ومن أين للثقلين أن يكونوا عنده ؟! **لذٰلك قال المؤلف** رضي الله عنه :

(١) غيث المواهب العلية ( ٢/١٩٣ ) .

رُبَّ عُمُرٍ ٱتَّسَعَتْ آمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ

رُبَّ : تأتي للتقليل والتكثير ، والعمر : هو مدة الحياة ، وقد يكون أمده كثيراً ، وقد يكون أمده قليلاً ، والعمر لا مدخل له في الأمداد الإلـٰهية التي يختص الله بها عباده[١] .

والأمداد : هي ما يفيضه علىٰ قلوبهم من مزيد الإيمان ، ويتجلىٰ به علىٰ أسرارهم من الكشف والعيان ، وهـٰذا لا يدخل تحت الأوان والأعوام والشهور والأيام ، بل إذا اختص الله بها ذا عمر قصير . . صيرته طويلاً منيلاً ، وإذا لم يقسم لذي عمر طويل . . صار قصيراً وبيلاً ؛ فالعمر إذا خلا عن الأمداد الإلـٰهية . . كان حكمه حكم العدم ؛ إذا سلم من اقتراف الكبائر واللمم ، وإذا صحبه من الله الإمداد . . صار من أنفس الذخائر للمعاد ؛ وقد ورد : « خيركم : من طال عمره في طاعة الله »[٢] .

ولا طاعة تزن عنده مثقال ذرةٍ من الإيمان ، فضلاً عن شهود حضرة الإحسان ، والطاعة يكون كمالها ونقصانها بحسب ما عند الإنسان من مزيد الإيمان ؛ فقد ورد : أن الرجلين يستويان في العمل وأن عمل أحدهما إلىٰ جنب عمل الآخر كالذرة إلىٰ جنب أُحد ، وما ذاك إلا بحسب ما عندهم من الإيمان .

والإيمان مُودَعٌ في الفطرِ والقوالب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فَضَلَ سائر الأنبياء ، وأمته فَضَلت سائر الأمم ، علىٰ قِصَرِ مدة

(١) في النسخ : ( يدخل . . . ) بدل : ( مدخل . . . ) .
(٢) رواه الترمذي ( ٢٣٢٩ ) عن سيدنا عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه .

عمره وأعمارهم بالنسبة إلىٰ أعمار من قبلهم من الأمم ؛ فذاك بالبركة في الأعمار القصيرة ، صيَّر أعمالهم كثيرة ، وعلومهم غزيرة ، وشوارق أنوارهم منيرة .

فبالإمداد وعميم الفضل والوداد .. جعل لهم بركة السنة في الحج ، وبركات الليالي في ليلة القدر ، وبركة الأيام في الجمعة ، وبركات الشهور في رمضان ، وبركة ساعات الليالي في نصف كل ليلة ، وبركة ساعات النهار في صلاة العصر في كل يوم ، إلىٰ غير ذٰلك من مزيد المدد على الأنفاس والحركات والسكنات .

فلو أخذنا في تعداد ما أودع الله لهٰذه الأمة من الأمداد .. لطال وخرج إلىٰ حد الإكثار ؛ لأن الله سبحانه أودع عالم الإجمال والتفصيل ذخائرَ الفضل ، وعالم الإجمال إذا ظهر فيه الأمر المحكم .. أشرق في سائر العوالم التفصيلية كل شيء علىٰ حسبه ، وحسب استعداده يكون إمداده ، وذٰلك مستمرٌّ لا انقطاع له ، علم ذٰلك من علمه ، وجهله من جهله ، ونعني بعالم الإجمال : المتلقي للفيض الأقدس المفيض منه الفيض المقدس ، وذٰلك من حيث ظهور الروحانية : هو الروح المحمدي ، ومن حيث العلم : هو العلم الأعلىٰ ، ومن حيث الصفاء : هو الدرة البيضاء ، ومن حيث الفهم والإحصاء : هو العقل ، حيث ما ظهر بتجلي نسماته .

ولأمته صلى الله عليه وسلم من هٰذا الجمع نصيب ، به كانت خيريتهم ، وبه قُبلت علىٰ سائر الأمم شهادتهم ، وبه نالت ما نالت من الفضائل التي لا يحيط الفهم بكلية إحصائها .

ومن جملة ذٰلك : أنه لا ينزل مددٌ زماني أو مكاني ، حسيٌّ أو

معنوي ، لطيفٌ أو ظاهر . . إلا وقد شهد الشرع لهم فيه بمودع فضيلة ، فالحمد لله رب العالمين ، ولي في ذٰلك :

فـرُبَّ عُمْـرٍ طويـلٍ غيـر ذي مـدد
لـم يغـن عنـه وسـيع الدهـر والأمـد
وربَّ عمـرٍ قصيـر المـد فـي العـدد
نالتـه ألطـاف مـا قُـوِّمْ لـه الأود
فدائـراتُ سـعاداتٍ تـدور بمـن
لـه في القدمِ سابق الحسنى وفي الأبد

❁ ❁ ❁

**فالبركة في الأعمار** . . هي عمدة الأخيار ، وعليها تدور دوائر الأبرار ؛ **لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :**

مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ . . أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ ٱلْعِبَارَةِ ، وَلَا تَلْحَقُهُ ٱلْإِشَارَةُ

من بورك له من الله . . أيقظَ قلبه وبصره بحقائق الأشياء ، فرأىٰ خزائن السعادة تنادي من قريب ، وذخائر الغيب تقول : **هل من منيب ؟** ودواعي الحقيقة تقول : **هل من مصاف أديب ؟** فنهض إليها مسرعاً ، وعزم بهمته مزمعاً ، **فأوفى الحقوق** ، وأقلع عن الآثام والعقوق ، **فتدارك من أيامه ما سلف** ، وكان كله في كل توجُّه إليه إقبال ووجه ويد وأذن ولسان وعقل وجَنان ، **ويكون كله جمع وبصر وسمع** ، فلا يدخل تحت العبارة ما ناله من منَّةِ الله ؛ إذ العبارة لا تسع إلا ظواهر الأشياء .

وأما المننُ الإلـٰهية والألطاف الربانية والمواهب الغيبية . . **فالعبارةُ عنها تنبو** ، والإشارة دونَها تكبو .

**فالإشارة والعبارة أغيارٌ** صادرة عن إيثارات آثار ، لا يدخل تحتها ما هو صادر عن حضرة قهار .

**ولي في ذٰلك :**

من بارك الله لَهْ في العمر ذي الزمن     فذاك مخطوب للتقريب والمنن
فلا الإشارة يدري ذاك غايتها     ولا يكيِّف بالتعبير في العلن

❁ ❁ ❁

**فالعمر سُلَّمُ ترقّي الأرواح** ، وموضع تلقِّي المواهب والأفراح ، وهو بذر سعادة الأبد أو خسرانه ، وفيه **تدرك نفائس الدرجات** ، وتورد فيه

مهالك الدركات ، **والتوفيق** : اسم لموافقة العبد لله في سائر الحركات والسكنات ؛ لما هو المحبوب المرضي عنده سبحانه .

**والخذلان** ـ والعياذ بالله ضده ـ : وهو مخالفة العبد للمحبوبات ، وتركه للمستحسنات ، ومقارفة السيئات ، ومتابعة رذائل الشهوات ، والقعود عن الخيرات ؛ **لذلك قال المؤلف رضي الله عنه** :

اَلْخِذْلَانُ كُلُّ ٱلْخِذْلَانِ : أَنْ تَتَفَرَّغَ عَنِ ٱلشَّوَاغِلِ ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لَا تَرْحَلَ إِلَيْهِ

( الخذلان ) الذي هو ضد التوفيق ( كل الخذلان ) أي : مجمع الخذلان وغاية منتهاه ( أن تتفرغ عن الشواغل ) الموثقة الصادة عن الإرادة ؛ بأن تُكفاها وتزاح عنك ، وتنقطع عنك أسبابها ، وتغلق دونك أبوابها ، ( ثم لا تتوجه إليه ) لأن من حق العبد الأخذ في قطعها وحسم أبوابها ؛ ليتهيَّأ له حسن التوجُّه ، فإذا لم يأخذ في ذٰلك . . كان ملوماً ، وحاله مذموماً .

وأما إذا انقطعت عنه من غير تعمُّل في ذٰلك ، ثم ترك التوجُّه إليه ، وقلَّت العوائق الموثقة عنه ، ثم لم يرحل إليه . . فما أجدرك بالندامة إذا وردت عرصات القيامة !!

فمن حق العبد : أن يرمي بالشواغل الصادة له عن الإقبال ، ويبتدر فرصة الإمهال ، ويطرح العوائق الموثقة عن معشوق الجمال ، والحاجبة عن عاليات الأحوال ، وأما أنه بنعم الله عليه يقطعها ثم لا يتوجَّه إليه . . أولىٰ بأن يزجر أوراك العزائم ، ويشدَّ رحل أرائك الهمم ، وإلا . . فقد باءَ بندامة علىٰ ندامة ، ولي في ذٰلك :

مَن باينته شواغلٌ كل نائبة ... ولم يواجه بكل القلب مولاه
فذاك خذلانٌ لا تعقبه مكرمة ... بل حسرة بحريق الفوت تصلاه

* * *

فإذا تفكَّر العبد فيما ينيله الله من جزيل ثوابه ، ويقيه من وبيل عقابه . . نهض ـ لا محالة ـ في طريق العزيمة ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه في هـٰذا الفصل :

# ٱلْفِكْرَةُ : هِيَ سَيْرُ ٱلْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ ٱلْأَغْيَارِ

الفكـرة : هـي نعت ذوي الأسـرار الصافية ، والعبـارات الوافية ، التي أمـر بهـا الله تصريحـاً وتلويحـاً في محكـم كتابـه ، ونبَّهَ عليها رسـوله صلى الله عليه وسـلم في فصيح خطابه ، قال الله سـبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ ، وبتلك الفكرة يصل العارفون إلىٰ صريح التوحيد ، ويرقىٰ لها ذوو البصائر في مواضع التفريد ، ويجمع متفرقات التعديد .

وشاهد ذٰلك : قوله في الآية نفسها : ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ، فعلىٰ ذٰلك الكنز عثر المقرَّبون ، فرأوا ماذا بعد الحق إلا الضـلال ، والضـلال : هـو العـدم ، فانظر كيف سـارت أسـرارهم في لجـج أفكارهـم ، وأقلعـت بهم في تيار بحار الأكـوان ، حتىٰ أبانت لهم نهج الحق الظاهر ، ونور القدس الباهر ، وعند ظهور ذٰلك تنقطع الفكر ، وتنمحي الغير ، ويذهب شهود الغير والأثر .

والفكرة تكون بحسـب المتفكرين ؛ فقوم يتفكرون في انصرام الدنيا وإدبارها ، وشـرف الآخرة ودوامها ، فيحملهم علىٰ إيثار الشـريف الدائم علـىٰ ضـده ، وقوم يتفكرون فيمـا أعدَّ الله لأهل الجنـان من الدرجات ، بحسـب ما هم عليه مـن القيام بوظائف الطاعـات ، واجتناب الهفوات ، فيحملهم ذٰلك علىٰ بذل الوسع في طلب ذٰلك ، وقوم يتفكرون في آلائه وحسـن جماله ، فـي عطائه وبلائه ، فيحملهـم ذٰلك على ازدياد المحبة للحبيـب ، وقـوم يتفكرون في تلوين الأنوار في الأطوار ، فيحملهم ذٰلك علىٰ حسن الاستبصار ، والأفكار في عجائب صنعه في الأقطار ، وتقلب الليل والنهار .

وبـذلك تنجلي عـن القلوب كثائـف الظُّلَم والأغيـار ، وتفتح أبواب الغيوب والاعتبار لذوي الأبصار ، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.

فـإذا كان هـٰذا مـن بعـض أقسـام الفكـر . . علمـت شـرفه ، وأنه مخ العبادة ، كما ورد بذلك الخبر [1] ، وهـٰذا كله ـ أي : الفكر ـ لا يكون إلا فـي ميادين الأغيار ، ومطالعة الصور والآثار ، لا في ذات الواحد القهار ، ولي في ذلك :

الفكـر سـير قلوب السـالكين إلىٰ      نهـج الحقيقـة والتوحيد في الغير
فيسـتدلون بالأشـيا عليـه ولا      يكـون فـي ذاته بالكيـف والحصر

❁ ❁ ❁

فالقلوب : إذا خليت عن الأفكار . . انطمست بظلم الأغيار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) ذكره المُناوي في « فيض القدير » ( ٢/٣١٤ ) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ بلفظ : ( الفكر مخ العبادة ).

٢٦٢

اَلْفِكْرَةُ : سِرَاجُ ٱلْقَلْبِ ؛ فَإِذَا ذَهَبَتْ .. فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ

٢٦٣

اَلْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ ؛ فَٱلْأُولَىٰ : لِأَرْبَابِ ٱلِٱعْتِبَارِ ، وَٱلثَّانِيَةُ : لِأَرْبَابِ ٱلشُّهُودِ وَٱلِٱسْتِبْصَارِ

( الفكرة ) التي حض عليها وندب إليها ووقع المدح لصاحبها ( سراج القلب ) أي : نوره فيها ، تعلو تباشيره ، وهي الفكرة في عواقب الأمور ، والفرق بين الظلمة والنور ، وفيما عليه العوالم تدور ، وفيما صار إليه أهل القبور ، وفيما يناله أهل الحبور من الحور والقصور ، وبما حظي به أهل الحضور من رفع الستور ودوام الحضور ، فبهٰذه التجارة التي لن تبور تسرج بأنوار الحضور في الصدور ، « إن النور إذا دخل القلب .. انشرح له وانفسح ... » الحديث بطوله (١) .

فإذا خلي القلب عن هٰذه الفكر ، ولم تباشره هٰذه الغير .. فلا إضاءة لانطماسه وانحباسه ، في محصور أجناسه وإيناسه ، ولٰكن الفكرة فكرتان كما قدمنا ذٰلك :

ففكرة تصديق وإيمان ؛ وهي فكرة العباد والزهاد بما وصل إليهم من سماع قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، فأجابوا دعوته بالتصديق والإيمان ، فعبروا عن المشاهد من الأمور إلى الغائب .

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٥٤٠ ) .

وفكرة شهود وعيان ؛ وهي لذوي الشهود والاستبصار ، الذين باشر نور العلم قلوبهم ، وغمرت أنوار الشهود أسرارهم ، وهم المعنيون بتعليم الله لهم في آخر الآية ؛ حيث قال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ ، ولم يكونوا عالمين بذلك حق العلم إلا باستهلاك سائر القوىٰ منهم ، وفناء سائر الأحوال ، بتجلي أنوار الآزال ، وما لا يدخله المثال ، ولا يجول حوله المقال [1] ، من تجليات محرقات الجلال ، ومشرقات الجمال ، ولي في ذلك :

الفكر في القلب نورٌ يُستضاء به ... شهود نور وجود الحق فاعتبر
وكل قلبٍ خلا عن ذاك فهو علىٰ ... طمس العدم قط لم يخرج عن الغير
والفكر أيضاً علىٰ قسمين فاعلم أن ... القول يحكم باستبصار ذي النظر
وكل من كان تحت الحجب يعلمه ... بصدق إيمان تحقيق وبالعبر

* * *

(١) في النسخ : ( يحول حوله المقال ) بدل : ( يجول حوله المقال ) .

# المكاتبات

في ذكر حال السالك في سيره إلى الله تعالى

للإمام ابن عطاء الله السكندري

رحمه الله تعالى

# المكاتبات

## [ مكاتبة المؤلف في ذكر حال السالك إلى الله تعالىٰ ]

وبعدما أنهى الكلام في الفكرة . . أخذ يتكلم في نتيجتها ؛ وهو ما ينتج من حسن المعاملة لله علىٰ صدق العزيمة وتجريد الهمة ؛ **وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ بِقَوْلِهِ :**

**أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلْبِدَايَاتِ مَجْلَاةُ ٱلنِّهَايَاتِ**

في كل الأمور ؛ فمن كان مباركَ البداية . . كان ميمونَ النهاية ، ومن كانت بدايته بالله . . كانت إليه نهايته ، وكل مبدأ لأمر . . يكون انتهاؤه إليه ، وتظهر ثمرة ذلك المقصد عليه ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

**وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِٱللهِ بِدَايَتُهُ . . كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَايَتُهُ**

**ومعنى البداية بالله** : أن يكون في أول كل أمرٍ يبدأ فيه به شاهد لحوله وقوته ؛ كما ورد في الحديث : « كلُّ أمر ذي بالٍ ـ أي : حالٍ يُهتم به ـ لا يبدأ فيه بذكر الله . . فهو أجذمُ »[1] أي : مجذوم مقطوع البركة .

**والمريد الصادق** : إذا كان في أول بدايته مستعيناً بالله . . دام سلوكه ،

---

(١) رواه أحمد ( ٢/٣٥٩ ) ، والدارقطني ( ١/٢٢٩ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ووصل بغيته ومراده ؛ وهو انكشاف الأمر له شهوداً وعياناً بعد أن كان علماً وإيماناً .

ومن كان أول بدايته بشهود نفسه وما منها . انتهىٰ إلىٰ عجز وعدم ، فإذا كان المريد مستعيناً في جميع حركاته وسكناته في بدايته على الغيب لا على الكشف . . انكشف له في نهايته حقيقة ذٰلك على الشهود والعيان ، فيبقىٰ قرير العين ، متسع الجَنان ؛ لما يجدُ من ورود رَوح الرحمٰن ، الوارد بالتأييد علىٰ ممرِّ الأزمان ، ولي في ذٰلك :

من كان بالله مبدا أمره فكذا ... تكون ألى الله غايات النهايات

ومن يكونُ على الأغيار معتمداً ... فلم يحقق تحقيق البدايات

والسالكون علىٰ نهج السبيل لهم ... علم وعين وحق مستقيمات

فالعلم غيب ونور العين يكشف ما ... للحق من وصفه المصون آيات

وإذا كان المريد مجموع الهم ، عاكف السر على الله . . شُغل ـ لا محالةَ ـ عن الأغيار ، وذهل عن الآثار ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**وَٱلْمُشْتَغِلُ بِهِ : هُوَ ٱلَّذِي أَحَبَّهُ وَسَارَعَ إِلَيْهِ ، وَٱلْمُشْتَغِلُ عَنْهُ : هُوَ ٱلْمُؤْثِرُ عَلَيْهِ**

ومن علامات تحقيق البداية : الشغل به عما سواه ، ونفي كل شاغلٍ إلا إياه ، مع المحبة والطوع والمسارعة إلى المحابِّ من غير ملل ولا سآمة ، فعلامة كونه محبوباً لك : الشغل به عما سواه من جميع ما تحبه وتهواه ، وإيثاره علىٰ ما عداه .

وعلامات المشتغل عنه من المحبوبات الغيرية : هو المؤثر عليه هٰذه أيضاً ، علامة دالة علىٰ إيثاره على الأغيار ، ولا تؤثر علىٰ محبوباتك الجبلية إلا إذا عرفت شرف ما أنت تطلبه ، وترغب فيه من المشاهدات الروحية والتدليات اللطفية ، فلا شك يهون مفارقة كل محبوب ، ويؤثر ـ لا محالة ـ علىٰ كل مرغوب .

والشغل به : هو طلب التحقق بمكارم الأخلاق ، والتعلق بمشاهدات الإلٰهية ، والخضوع لعظمة الربوبية ، والانطواء والاستكانة في كهف العبودية مع المحبة لذٰلك ، والاغتباط به .

والمشتَغَلُ عنه : هو الحظوظ والشهوات الأرضية والطبائع الحيوانية ، عرَّفنا الله قدر ما نطلب حتىٰ يكون كل اشتغالنا طلبه ، فنشتغل عن الحظوظ العاجلة ، ولي في ذٰلك :

فالشغل بالله دأب الصادقين فما ... لهم إلىٰ غيره في الكون تعويل
يُرون في الناس شعثاً لا مقام لهم ... ما بين أظهرهم غبراً مجاهيل
لا يؤثرون على المحبوب كان لهم ... شغل وعن ما سواه ألا مشاغيل

فاليقين أساس مباني المقامات ، والتوكل ثمرة شجرة الفتوحات ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه عاطفاً علىٰ ما أسلفه من الكلام في هٰذا المقام :

**وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ ٱللَّهَ يَطْلُبُهُ . . صَدَقَ ٱلطَّلَبَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ بِيَدِ ٱللَّهِ . . ٱجْتَمَعَ بِٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ**

من أيقن ـ واليقين هو السكون وعدم الاضطراب ، فمن أيقن ؛

أي : استقر يقينه وتمكن إيمانه ، وباشر سويداء جنانه ـ أن الله يطلبه بالوفاء بحق الربوبية . . صدق ـ لا محالة ـ في طلبه بأداء العبودية علىٰ أكمل وجه وأتم هيئة ؛ لما شاهده من عظمة الربوبية وكمال الألوهية ، فيحمله الحياء ـ لا محالة ـ والحب على الوفاء ، ويحثه علىٰ مبادرة الصفاء ، ويحمله علىٰ ترك الجفاء ، فيوفي بهٰذا المشهد حق شريعته .

( ومن علم ) العلم الحقيقي الذي شاهده الخشية ؛ وهو ما كان من فتح الغيوب في لطائف الأسرار والقلوب ( الأمور ) الصادرة من خير وشر ، ونفع وضر ، وموت وحياة . . . إلىٰ غير ذٰلك من مقتضيات الشؤون وآثار الأسماء ( بيد الله ) أي : إرادته وقدرته وأمره ، وما هو مراد عنده في غيب علمه ؛ فاليد معلومة ، والكيفية مجهولة ، والسكوت في مثل هٰذه المتشابهات حسنٌ محمود ، وردُّها إليه عند السلامة من المعارضات ، وأما إذا احتيج لتأويل لرد مبتدعٍ أو لم يجد الإنسان طمأنينة . . فيعدل به إلىٰ مثل هٰذه التأويلات .

فإذا علم ذٰلك الإنسان علماً قوياً ثابتاً . . حمله ذٰلك على التوكل على الله لا محالة ، والتوكل على الله هو عبودية القلوب لله ؛ لما يلوح للقلوب من لوائح الحقيقة ؛ فالاضطراب مع لمعان تلك السحاب خطأ ، ويسمونه في تقسيم طريقه : شهود صرف الحقيقة ، فيوفي بحق الحقيقة في ذٰلك المقام ؛ كما وفىٰ بحق الشريعة في مقام الإيمان الذي عبَّر به باليقين ، ولي في ذٰلك :

من كان يوقن أن الله يطلبه صدِّقْ له في مبادي ظاهر الطلبِ

ومَنْ علمْ منه أن الأمر محكمه     بيدْ الاله سلمْ من مورد العطبِ

وعطف أيضاً بقوله على كلامه المتقدم :

**وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِبِنَاءِ هَٰذَا ٱلْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسْلَبَ كَرَائِمُهُ**

وأنك ـ أيها الإنسان ـ لا يحزنك ما يفوتك من هٰذه الحظوظ العاجلة واللذات الفانية والخيالات الكونية ؛ فإنها ـ لا محالة ـ أن تنهدم هٰذه البنيان المشيدة ، وأن تبيد هٰذه المحاسن العتيدة ، وتتفرق هٰذه الجموع العديدة ، وتفنىٰ هٰذه الوجوه الناعمة النضرة ، وتزول هٰذه الروائح العطرة ، وتسلب الكرائم المحبوبة ، فتُيتم الولدان ، وتُجدَّد الأكفان ، وتُغيَّر الألوان ، وتُرمَّل النسوان ، وتنتهب الجثمان طوارقُ الحدثان ، وتفرق الجموع ، وتُذرُّ لفراقه الدموع ، وتُبيد مجموعَ جسمه من الشتات سحائب هموع ، فكيف لا يسلىٰ عما هو عن قريب صائر إلى الفناء والشتات ؟!

وإذا علمت أن هٰذه الملاذ المحبوبات لا بد أن تزول عنك أو تزول عنها .. فلا جرم لا تعبأ بما فاتك منها إن كنت ذا عقل سليم ، ولي في ذٰلك :

لا بد هٰذا البنا المشهود ظاهره     أن ينهدم منه بنيان وأركان

وكل ما كان من جمع يُسَرُّ به     تسلب كرائم ما في الكون يا أنسان

فإذا كان العقل سليماً .. نظر في عواقب الأمور وبواطنها ، فلم يغترَّ بظواهر زينتها ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فَٱلْعَاقِلُ : مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَىٰ ، أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَىٰ ؛ قَدْ أَشْرَقَ نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ

**العاقل حقيقة** : من كان بما هو أبقىٰ ؛ وهو الجزاء الأخروي الموعود لمن صبر عن هٰذه الدنيا الفانية ، **وليس كذٰلك إلا الزاهدون** ، كما أفتىٰ بذٰلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه حيث قال : ( لو وُقِفَ علىٰ أعقل الناس . . **صُرف إلى الزهاد في الدنيا** )[1] ، **قد أشرق نوره في سويداء قلبه** ؛ كما ورد : « إن النورَ إذا دخلَ الصدر . . انشرحَ »[2] بمعنى : اتسع ، **ولا يتسع إلا بالنور الوارد عليه من الله** ، وهو الذي أشهده بواطن الأمور وعواقبها ؛ **لأنه نزل منه في الباطن** ، قال الله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

**وظهرت على الظاهر تباشيره** ، فأشرق علىٰ ظاهر البشر أنوار التباشير ، فتزكت الأعمال والأقوال ، وحسنت منه سائر الأفعال ، **وأشرق** ظاهر الزجاجة ، وانبسط عليه شعاع المصباح ، **فظهر علىٰ ظاهره شعار الصلاح** ، ولاح علىٰ وجهه شاهد الفلاح ، فتظهر منه أفعال حميدة وصفات جميلة ، **ولي في ذٰلك** :

العاقل الكامل الفرد الذكي إذا ... لم يؤثر الفاني الداني على الباقي
قد أشرقت في سويدا القلب نور وما ... على الظواهر من آثار إشراق
أضا بزيتٍ في المشكاة منه فما ... في القلب يظهر في سمع وأحداق

(١) تقدم ( ص ٧٥٤ ) .
(٢) تقدم ( ص ٥٤٠ ) .

ومن علامات وصول النور إلى الصدر : ما ذكره المؤلف وهو مقتبسٌ من معنى الحديث ؛ لذلك قال :

**فَصَدَفَ عَنْ هَٰذِهِ ٱلدَّارِ مُغْضِياً ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُوَلِّياً ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطَناً ، وَلَا جَعَلَهَا سَكَناً**

**هٰذه غاية النفرة عن الدنيا** ؛ وهو الصُّدوف ، يحتمي مسالكها ، ويجتنب مواطنها ، ولا يوالي أبناءها وأهل الرغبة فيها ، **قد غضَّ عين قلبه عن زخارفها وقذىٰ آفاتها** ؛ لئلا يصيب قذاها عين بصيرته فيختلط نظرها ، ولَحدقة البصيرة المنيرة أولىٰ بالصيانة من الحدقة الظاهرة ؛ **إذ بالحدقة الظاهرة** ينظر الأغيار الفانية ، **وبالبصيرة** يشاهد الأسرار العلية ، والمقامات الأخروية .

( **وأعرض بظاهره عنها مولياً** ) كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه الأنصار اللقاح ، فأعرض بوجهه عنها ، فيقولون : يا رسول الله ؛ إنَّا نعرض عليك كرائم أموالنا لتنظرها ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « **إن ربي أمرني ألَّا أنظر إلىٰ زهرة الحياة الدنيا** ، فقال جلَّ ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ » أو كما قال [(١)] ، **فلم يتخذها وطناً** ، بل كان كالمسافر العَجِل إلى الوطن المحبوب ؛ كما قال القائل في ذٰلك :

**مُسْتَوْفِزُونَ عَلَىٰ رَجْلٍ كَأَنَّهُمُ ۝ وَفدٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا وَيَرْتَحِلُوا**

---

(١) بنحوه عند أبي عبيد في « غريب الحديث » ( ٩/٣ ) .

فالإعراض عنها والتولي دليلٌ على الإغضاء بالقلب عنها ، بل شهد الآخرة أقرب إليه منها ، وكان بكلية اهتمامه مقبلاً عليها ومؤثراً لها ، هٰذا نظر أولي العقول والعلماء الفحول ، تحرَّوا فيها نظر أولي الألباب ، واقتفوا آثار الأنبياء وسادات الأولياء الذين لم يستوطنوها ؛ كما قال قائلهم(١) :

إنَّ للهِ عِبـــــاداً فُطنـــــا ... طَلَّقُـوا الدُّنْيـا وَخافُـوا الْفِتَنـا

نَظَـرُوا فِيهـا فَلَمَّـا عَلِمُـوا ... أَنَّهـا لَيْسَـتْ لِحَـيٍّ وَطَنـا

جَعَلُوهـا لُجَّـةً وَاتَّخَـذُوا ... صالِـحَ الأَعْمـالِ فِيهـا سُـفُنا

ولي في ذٰلك :

قد أغضوا عن زخارفها وما نظروا ... لزينة بل عن الأغيار قد صدفوا

وأعرضوا عن ظواهرها وما وقفوا ... وباينوا كل مألوفٍ قد اقترفوا

وخامرت قهوة العرفان فاتصفوا ... بعالم القدس والتحقيق فاعترفوا

فإذا عرف فناء هٰذه الدار واضمحلال الأغيار . . لم يقرَّ لمطية عزمه قرار ، وانتهج نهج الحقائق والأسرار ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**بَلْ أَنْهَضَ ٱلْهِمَّةَ فِيهَا إِلَى ٱللهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي ٱلْقُدُومِ عَلَيْهِ**

هٰذه أصح طرق المريدين ، وأنجح وسائل السالكين ؛ وذٰلك بأن يجعل الله لهم همماً علوية ، تنهض بهم إلى الأخذ

---

(١) كان الإمام الطرطوشي كثير الإنشاد لها ، كما في « وفيات الأعيان » ( ٤/٢٦٢ ) .

بالكلية ، إلى المنازل القدسية والمشاهد الحقية ، ومع ذلك هم فيها مستعينون به فيما هم بصدده من الانكماش في العبادات ، والتخلق بالأخلاق الحميدات ، واجتناب مصائد الشهوات ومعاطب الهفوات ، فهم قائمون بظواهرهم بكامل العبادات ، ومباينون حبائل العادات ، ومتمسكون بقلوبهم وأسرارهم بورود الألطاف وسوابغ المنن وتنزل الرحمات ، ونزول البركات والمعونات من خالق البريات .

فمن كان بهٰذه الحالة . . فقد أدرك خالص الإرادة ، ونال ثمرة السعادة ، ولم ينقطع عن الله بمألوف العادة ؛ فالحكم المتقدم ذكرها للمريد في التجلي وهو بعد لم يأخذ في السير إلى الله ، وقوله : ( بل أنهض الهمة فيها ) أي : الدنيا ؛ لأن فيها ميدان السلوك .

وهٰذه ـ أي : إنهاض . . . ـ ابتداء في السير ؛ وهو الأخذ في التجلي ، ويكون مستعيناً في ذٰلك بالله ؛ ليصل إلىٰ نيل بغيته وغاية مقصده ، لأن من كان بالله استعانته . . توالت من الله إعانته ، وإذا لم يكن من الله إعانة . . لم تغن عنه ظواهر الأدلة ، ولم تنفعه إضاءة الشموس وأنوار الأهلَّة ، ولي في ذٰلك :

من بعدما يخْلِيُ الإنسان ساحته عن الشوائب والأشغال بالغير
لا شك أن السبيل الحق بان له وشاهد السر مبسوطاً على الصور

فإذا صحت له هٰذه الحالة التي هي الاعتماد علىٰ فضل الله وإعانته . . لم تزل مطية العزم في السلوك جادَّة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَقَرُّ قَرَارُهَا ، دَائِماً تَسْيَارُهَا ، إِلَىٰ أَنْ أَنَاخَتْ بِحَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ ٱلْأُنْسِ ، مَحَلِّ ٱلْمُفَاتَحَةِ وَٱلْمُوَاجَهَةِ ، وَٱلْمُجَالَسَةِ وَٱلْمُحَادَثَةِ ، وَٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْمُطَالَعَةِ ، فَصَارَتِ ٱلْحَضْرَةُ مُعَشْعَشَ قُلُوبِهِمْ ؛ إِلَيْهَا يَأْوُونَ ، وَإِلَيْهَا يَسْكُنُونَ

فحيث كان المريد ـ كما وصفنا ـ من طهارته عن الأكدار ، وتخلِّيه عن الأغيار ، وتصفيته عن كدر الآثار ، وكان مع ذٰلك آخذاً في السير في أطوار الوجود ، قاصداً التجلي والشهود . . ( ما زلَّتْ ) عن المقصد ولا حالت عن الطريق ( مطية عزمه ) وشبَّهُ عزيمته ، وقوتَه أردنا بالمطية ـ والمطية : هي النجيبة من الإبل ـ المختارة لقطع المسافة البعيدة في المدة القريبة ، وليست كل الإبل كذٰلك ، بل لم تسمَّ مطية إلا التي تستطوىٰ للسير وتطوي له من بين الإبل لقوتها وصبرها .

فهٰذه عبارة حسنة كما هو عادته في كلامه الاستعارة بالأمور الحسية عن الأمور المعنوية ؛ ليفهم ذٰلك كل السامعين ، ويقرب إلى الأفهام معنى الكلام .

( لا يقر قرارها ) والقرار : هو السكون والركون ، وعزيمة الصادق لا تسكن ، ولا إلىٰ شيء دون المراد تركن .

ومرادهـا ومنتهـىٰ مقصدها : هو الكـون في أطوار وأنـوار التجلي والحضور ، ورفع الحجب والستور ، دائماً في تسيارها ، لم تقطع سيرها العوارض ، ولا تقيدها العوائق ، فلم تزل كذٰلك جادة في السـير قائلة : ﴿ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ ، إلىٰ أن وصلت إلىٰ غاية المراد ، ومنتهىٰ قصـد القُصَّـاد ، ومحل كرامة الرائديـن والوُفَّاد ، بفائضـات المواهب

والإمداد ، وحيث **تُنيخ نجائب الطلاب** بباب المتفضِّل الوهاب ، **وحيث** **يواجه الأحباب** بالتجلي والخطاب ، وحيث ترفع عن الحبيب الستر والحجاب ، **وحيث يؤذن بالسؤال والجواب** ؛ نهاية سير الهمم ، **واستبانة الطريق الأَمَم** ، والمنهج الأقوم ، وتجلي الأسرار ، **وشروق الأنوار** ، الحضرة القدسية عن لوث رؤية الأغيار ، المنزهة عن كثافة الآثار .

( حضرة القدس ) والتقديس : هو التطهير ، والقدسي : هو المحل الطاهر الأنفس الأعز ، وعند الكون في هٰذه الحضرة الأنيسة والرتبة الأريسة . . **تظهر أسرار وشوارق أنوار ، فينمحي عن إِنِّيَّته ، ويغيب عن شاهد غينيته** ، فلا يبقىٰ له أثر ، ولا يسمع له خبر ، **فيتخلف هنالك عنه** آثاره ، وتنمحي عنه شواهد أفعاله وأوصافه ، **فيأخذ في السير فيه بعد السير إليه** .

وأشار المؤلف رحمه الله إلىٰ بعض ما يتجلّىٰ للواصلين من سنيات الأحوال ، فقال : ( **وبساط الأنس** ) فالإشارة بالبساط إلى التجلي في حالة البسط ؛ وهو ما يبسط الله لعبده من أسرار التولي وألطاف التجلي ، ما يحول بينه وبين رؤية وجود الأغيار وظهور الآثار ، **فلا يشهد جنة ولا** نار ، ويدار على السر عقار ، تحت ملابس وخمار ، فيختار ، ولا يعرج علىٰ سكن ولا دار ، ولا أهل ولا عقار ، **بل غريق في بحار** لا تبين فيها الجهات والأقطار ، ومستبدل بالأنس عن الإنس ، فيؤانس بأنواع ملاطفات ، ولذيذ محاورات ، وخفي مسارّات ، وشهي مسامرات ، محل المفاتح **بفتوح العلوم اللدنيات** ، والخزائن العرشيات ، والذخائر الوصفيات ، والمعاني الذاتيات ، **والمواجهة بالتجليات الوصفيات** ، والمحاسن العليات ، في العوالم الجبروتيات ، والغيوب العرشيات ،

( **والمجالسة** ) في الحظائر الذكريات ، « **أنا جليس من ذكرني** »[1] ، ( **والمحادثة** ) بانكشاف معاني الكلم القدسيات ، والإشارات القربيات ، **والمخاطبات الروحيات** ، وانتشار ما استودع في الذوات من الخطاب في عالم الذرات ، يوم ﴿ أَلَسْتُ ﴾ بما كان وما هو كائنٌ إلىٰ يوم نشر الأموات ، وجمع الشتات ، **ونشر الصحائف بالحسنات والسيئات** ، ( **والمشاهدة** ) للمتجليات الوصفيات ، ( **والمطالعة** ) للأنوار الذاتيات .

فإذا كان كذلك . . فلا شك أنه بين المشاهدات والمخاطبات لم يبق له بقية التفات ، **لا إلىٰ ماضٍ ولا إلىٰ آت** ، بل صارت الحضرة لقلبه داراً ، ولسرِّه قراراً ، ولروحه عقاراً ، **فالإشارة بالمعشعش** الذي هو مسكن الطير . . أولىٰ من التعبير بغيره ؛ **لأن القلب من العالم السماوي الروحي** ، وأهل ذٰلك العالم موصوفون بالأجنحة ، ﴿ أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ ﴾ ، **والطير لا تسكن في غير وكرها** ، ولا تقر دون معشعشها ، **فإليها يأوي** ، وفيها تسكن وتثوي .

إذا أوت النفوس إلى الشهوات ، وسكنت بالأسباب الدنيويات ، وتقيدت بالعادات الطبيعيات . . فأرواح الواصلين متنعمة في تلك الحظائر الأزليات ، الدائمة الأبديات ، لا يخشون من انقطاعها عنهم ، ولا انفلاتها منهم ، **إذا صُلِيَ** بحرارة الفراق ، وأُقْلِقَ للمساق عن الأهل والمال من كان لها عَشَّاق ، عند بلوغ الروح التراق ، **فيحترق سره بنار الفراق** ، وخوف الإشفاق مما هو لاق .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » ( ٦٧٠ ) ، عن كعب قال : قال موسىٰ عليه السلام : ( يا رب ؛ أقريب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ قال : يا موسىٰ ؛ **أنا جليس من ذكرني** ) .

فهٰذه عباراتٌ مليحة من بعض معاني يفتح الله بها على الصادقين ، وينتهي إليه سير السالكين ؛ فإن كان الله يريد أن يرجعه للإرشاد ، ويقرب أهل الشقاق والعناد ، ويطوي برَوِيةِ المسافات البعاد ، ويوصل به إليه طوائف الزهاد والعباد .. أنزله في الوجود مسربلاً بملابس الأسرار ، ومؤيداً بشوارق الأنوار ، ينزل في الأطوار ، ويتجلّىٰ عن الآثار بنور في صورة نار ، تحرق كثائف الأغيار ، ويلبس تجلي اسمه القهار ، فيقهر الظلم والأشرار ، وإن شاء سبحانه .. جعله غريق التجليات والأنوار ، فلا تسمع منه الأخبار ، فإذا رُدَّ إلى الأغيار .. أباح بعدم الاصطبار : ردوا حبيبي إليَّ ؛ فليس له عني اصطبار ، ولي في ذٰلك :

مطية العزم للعلياء مقبلة ... فلم يقر بها من دونها الغير
مديمة السير عن ساقٍ بلا مهلٍ ... ما عاقها حرُّ هجير لا ولا مطر
حتىٰ أناخت علىٰ عليا مقدسة ... وبسط أنس محل الفتح والظفر
وواجه القادم الوجه العزيز وفي ... ذاك التجلي يروق الناظر النظر
وجالس الضيف إكراماً ولاطفه ... طيب الحديث تمام الأُنس بالسمر
وطالعَ أوصاف ما في الصون منكتمٌ ... عن العيون وشاهد برَّه النضر
فصارت الحضرة العليا معشعشهم ... تأوي إليها قلوب السادة الغرر
وساكنت خير مألوف به ألفت ... من بعد طول بعاد أورثت ضرر

فإن أنزلهم الله في الوجود بعد استكمال حقائق الشهود .. عادوا إلى الأشياء بالله كما خرجوا عنها به ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه في ذٰلك :

فَإِنْ نَزَلُوا مِنْ سَمَاءِ ٱلْحُقُوقِ وَأَرْضِ ٱلْحُظُوظِ . . فَبِٱلْإِذْنِ وَٱلتَّمْكِينِ ، وَٱلرُّسُوخِ فِي ٱلْيَقِينِ ؛ فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى ٱلْحُقُوقِ بِسُوءِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْغَفْلَةِ ، وَلَا إِلَى ٱلْحُظُوظِ بِٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمُتْعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَٰلِكَ بِٱللَّهِ وَلِلَّهِ وَمِنَ ٱللَّهِ وَإِلَى ٱللَّهِ

فإن أراد سبحانه صحوهم بعد محوهم ، وفرقهم بعد جمعهم . . أنزلهم مؤيدين بالروح الرباني ، منصورين بالعزّ الصمداني ، ظاهرين بالدمع الحقاني[1] ، أنزلهم في أطوار الوجود ، يكتسبون كمال الحق في مظاهر الوجود ، مؤدّين لحقائق الواحد المعبود ، فينزلون من منتهىٰ نهاية الجمع الأحدي إلىٰ سماء ظهور تجلي معاني الأسماء ومقتضيات الشؤون ، فيرجعون إليها بالأدب واليقظة ، ونزلهم أيضاً إلىٰ أرض الحظوظ البشري ليس بالشهوة والمتعة ، كما [ أن ] ذلك كله شأن أهل الحجاب والقطيعة ، دخول الأشياء بحكم الشهوة والطبيعة ، ورجوعهم تكميل للعباد ، ورحمة للبلاد .

فهم بطريق الإشارة الفرقة النافرة ، والعصابة الظافرة ، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فاستفادوا الحسنيين : الفقه في الدين ، وشروق اليقين ، فيرجعون إلى الأشياء بهٰذه الأوصاف متصفين ، وبهٰذه الخلال متحلّين ، فيدخلون في الأشياء بالفقه والبصيرة ، فلا يأخذون ولا يذرون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يتحرّكون ولا يسكنون إلا عن إذنٍ من الله .

شاهد ذلك يتراءىٰ لهم في الوجود عياناً ، ولٰكن يتأدّبون مع الحكم

(١) في ( أ ، ب ) : ( قاهرين بالدمع الحقاني ) بدل : ( ظاهرين بالدمع الحقاني ) .

الشرعي ، يحكمون علىٰ أنفسهم بما كوشفوا دون غيرهم إلا من طريق الفتوىٰ ، فهم الذين وقعوا علىٰ حقيقة الأمر إذ وهمَ المحجوبون وحكموا بالظنون ، فهم الذين يمشون بين الناس بالنور المجعول لهم .

فإذا كان الأمر لله بشاهد اليقين . . فآمنوا فيه بالله ؛ لأنهم لم يزايلهم شهود جمعهم في فرقهم ، ولا محوهم في صحوهم ، فهم بظاهر خلقيتهم وشهود صوريتهم في الوجود مشهودون ، وبباطن روحانيتهم في الشهود مفقودون ؛ فالبصائر في الشهود دائمة ، والأبصار في الوجود نائمة ، ومعظم مواجيد هٰذه الحالات لا تعرف إلا لأربابها ذوقاً وتحقيقاً .

وغيرهم ممن لم يحظ بهٰذه المشاهد ، ولم يكرع هٰذه الحياض والموارد . . قد يفهم بعض إشاراتهم بكمال تخلقه في غريزته ، ولٰكن إن وقف عند علمها دون ذوقها . . وقع في مهواة الدعوىٰ ، وحُرم مَنَّ المنن وحلاوة السلوىٰ ، ولا بد أن يستبدل بما هو خيرٌ الأدنىٰ ؛ كما شوهد من خلق كثير الوقوف عندما ظهر بمجرد القريحة في كتب المحققين ، وظنوا أنهم وقعوا علىٰ حقيقة من الوصال ؛ وهم يخبطون في عشواء وضلال وعمىً وبطال ، لا يميزون بين الوصال والانفصال ، ولا بين الأقوال والأفعال ، ولا بين المقامات والأحوال ، بل بارزون في حلل الجدال ، ومصممون علىٰ ما يظهر لهم في تخبيط وخبال ، وأوهام وخيال ، فنعوذ بالله من الاغترار ، بما تحلىٰ به الأشرار ، من الظهور بزي الأخيار ، والتلبُّس بملابس الأحبار ، وهم من الذين قال الله فيهم : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

فأهل الحق لهم سيما تميزهم ، وعلامات تعرفهم ؛ فإن دخلوا في الأشياء . . فبالله مستعينين ، وبالله عائذين ، ومن الله بالإذن آخذين ،

وإلى الله في جميع ذلك راجعين ، ولي في ذلك :

إذا أراد نــزول القــوم أنزلهــم      إلىٰ سما حق معبود به نزلـوا
وأرض حـظ نفـوس كان مرجعهم      إليـه منهـا وعـن عاداتهـا ارتحلوا
لا ينزلـون إلــىٰ حــق بــلا أدب      ويقظة بل علـى التحقيق إن نزلوا

ولا الحظوظ بشهوة أو متاع الغافل الهمل ، فيدخل في الأشياء بالله بعد أن خرج عنها به !! وهـٰذا والله معنى الآية التي استشهد بها المؤلف بهـٰذا المعنىٰ ؛ كما قال :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ لِيَكُونَ نَظَرِي إِلَىٰ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَٱسْتِسْلَامِي وَٱنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي

استشـهد بـهـٰذه الآيـة الكريمة لما أسـلفه مـن عبارتـه ، فبالدخول : السـلوك إلـى الله ، والترقّي في مراتب الشـهود ، والتفانـي عن الأغيار ، والتخلُّص عن رؤية الآثار .

ومدخـل الصـدق : هـو أن يكون في ذلك بالله ، ناظـراً إلىٰ حول الله في تخلُّصه عن كدورات الأغيار ، وقوته في مواجهة الحقائق والأسرار ، وورود المواهـب والأنـوار ، ولطائـف المعاني والاسـتبصار ، عند تجلِّي أسرار الأقدار ، المدهشة للقلوب والأسرار .

( وأخرجني مخرج صــدق ) في رجوعي إلى التدلِّـي في الأطوار ، ودخولي فــي الآثار ، فأكون مستســلماً لك ، ومنقاداً لمــرادك ، مؤثراً لإرشــاد العباد علىٰ ما هو المحبوب لدي ؛ وهو كوني طمساً ومحواً ، لا

انصرافَ لي إلىٰ رؤية غير ، ولا ألوي بنفع ولا ضير .

ولٰكن الاستسلام يعطي إيثار مراد الله علىٰ مراد المريد ؛ ليدخل في غمار العبيد ، ويشهد القرب في القريب والبعيد ، والبعد في البعيد والقريب ، فيكون حائراً بين هٰذه الزوايا ، ومنتظراً لرجوعه إلىٰ خالص شهود محبوبه ، وصافي شراب ينبوعه ، ولي في ذٰلك :

كفُّ الضراعة مُدَّت نحو سيدها ... يدخلْنيَ الله مدخَلْ صدقٍ في الطلب

وذاك أن يشهد السالكُ لقوّته ... وحوله في الترقي في سما القرب

ومخرج الصدق في الرجعىٰ لعالمه ... مؤيداً بجنود غير منقلب

فإذا عاد إلى الأكوان لله مستسلماً ، ولحكمه محتكماً . . حقٌّ على الله أن ينصره وينصر به ؛ كما قال :

﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ : يَنْصُرُنِي وَيَنْصُرُ بِي ، وَلَا تَنْصُرُ عَلَيَّ ، يَنْصُرُنِي عَلَىٰ شُهُودِ نَفْسِي ، وَيُفْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي

فالطالب حقيقٌ بنيل المطلوب ، وحصول المرغوب ، والتفضُّل بالموهوب ، فالجعل : هو العطاء المخصوص ، والامتنان علىٰ طوائف الخصوص ، بعطاء غير منقوص ؛ أي : اختصني بذٰلك .

والسلطان : هو الآمر الغالب الذي يغلب به كل غالب ، ويتدارك به كل فائت من المطالب ، فيكون به منصوراً نصراً عزيزاً مؤزراً ، مجموع سرّ الخطاب ، وفتح أم الكتاب ، تنصرني علىٰ شاهد نفسي ، وتقهر به دائرة الحس المانعة عن التحقيق باستكمال مقام الفناء في الله .

وانصرني **في إقبالي** والأخذ في طريق بدايتي ؛ ليتم لي مقام إرادتي ، وتنقطع عني عوائقي في طريقتي ، إلىٰ نيل بغيتي ومنتهىٰ رغبتي .

وانصرني **في رجوعي إلى الأكوان** ، أهل صدق الرغبة من الإخوان ؛ لأكون سبباً له في استخراج كيمياء سعادته ، وعوناً له في طريق إرادته ، بما ألبستنيه من حلل القبول ؛ ليحصل لمن اقتدىٰ بي كل مأمول .

**فالنصرة له أولاً** في حال سلوكه وإرادته ، **والنصرة به** في حال رجوعه إلى الأكوان بعد استكمال مقام نهايته ؛ **وهو السفر الثاني** .

**ولا تنصر عليَّ** باستيلاء النفس عليَّ ، وتحكُّم الهوىٰ فيَّ ، وهـٰذا غاية الإضلال والبعد .

**وقد جمع في دعائه** بين جلب النفع ودفع المحذور ، ودفع المحذور أجدر بالدعاء ، **وكمال الدعاء** : أن يجمع الأمرين ؛ لأنه يسأل كريماً لا تبرمه كثرة الحاجات ، ولا تتخطاه إلىٰ غيره الآمال في جلب المصالح ودفع المهمات ، **والفناء عن دائرة الحس** هي نهاية الفناء في المقامات ، وثالث مقام في الفناءات ، **ولي في ذٰلك** :

اجعل لي النصر في مبدا البدايات ... ليحصل الوصلُ ٱلىٰ أعلى النهايات
وفي رجوعي إلى الأكوان فانصرني ... وكل طالبٍ من أهل البدايات
ولا تسلط علَيَّ مَنْ كنتُ أحذره ... من سالف ٱيَّامِيَ ٱنِّي في مهمات
ودائرةْ حِسِّيَ ٱخْرِجْها وكن عوضي ... عنها فهـٰذا الذي أقصىٰ إراداتي

❋ ❋ ❋

## [ وممّا كتبه إلىٰ بعض إخوانه ]

ثم لما أنهى الكلام علىٰ ذٰلك . . أخذ يتكلم في فضل الشكر ، وجعل الكتابة ختماً كغيره من المصنفين ؛ لأنه به تمام مقامات الواصلين إلىٰ مقامات المقرَّبين ، لذٰلك قال رضي الله عنه :

**إِنْ كَانَتْ عَيْنُ ٱلْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَىٰ أَنَّ ٱللهَ وَاحِدٌ فِي مِنَّتِهِ . . فَٱلشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ**

فالأمر الآن انتهىٰ إلىٰ غاية المأمول ونهاية المحصول ، فإذا عرفت حق هٰذه النِّعم الجسام والمنن التَّوامِّ . . فلا بد من الشكر علىٰ ذٰلك ؛ ليستمر الدوام والزيادة من العطايا العظام .

والشكر : عملٌ من أعمال الإنسان ، ولٰكن له شاهدان ؛ شاهد القلب واللسان وسائر الأركان ، وعين القلب هي البصيرة ، والبصيرة مستغرقة في شهود وحدانية الحق ، غائبة عن الثان ، واللسان ظاهره من عالم ظاهر الإنسان .

وإذا وصلت نعمةٌ علىٰ يد إنسان . . فعين القلب لا نظرَ لها ولا ملائكة ولا إنس ولا جان ، فتشكر الواحد المنان ، فهٰذا حق الحقيقة من الإنسان ، ألَّا يشهد معه في منَّته ثان .

ولسان الشريعة الظاهرة في مظهر العيان ، يقتضي أن تشكر من جعله الله طريقاً في وصول الإحسان ، سواء كانت تلك دينية أو دنياوية ؛

لأن من لا يشكر القليل . . لا يشكر الكثير ، و« من لم يشكر الناس . . لم يشكر الله »[1] .

وشكر الله : هو الثناء عليه بما هو أهله ، وصرف ما أنعم الله به عليك فيما أمرك به ، وشكر الناس : هو الدعاء لهم بخير علىٰ حسن صنعهم ؛ كما جعلهم أهلاً لذٰلك وأمرَكَ ، فيكون شكرك لهم امتثالاً له من جملة شكره ؛ لأنه هو الآمر بذٰلك ، مع أن عين قلبك لم يزايلها شهود انفراده في منَّته ؛ فهٰذا مقام العارفين الموفين بحق المقامين علىٰ تمامه ، والواصلين في الشكر إلىٰ ذروة سنامه ؛ وهو إيفاء الاسم الشكور حقه والتخلُّق به ، كما أنك مأمور بذٰلك ، ومطالب بما هنالك ، ولي في ذٰلك :

إن كان بالقلب تنظرْ صرف منَّته ... والكل معدمُ لا عين ولا أثر
فالشرع يقضي بأن العبد يشكر من ... [ قد ] ساقه الله بالإسدا من البشر

والناس فيما يأتيهم من النعم علىٰ أقسام ثلاثة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

وَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ذَٰلِكَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَٱنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَنَظَرَ ٱلْإِحْسَانَ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا ٱعْتِقَاداً . . فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا إِسْنَاداً . . فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ

هٰذا تقسيمٌ في مقام الناس في شهود النعمة الواردة ، وهم أحد طرفين

(١) رواه الترمذي ( ١٩٥٥ ) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قاصيين ، ولكن أحد الطرفين محمود ؛ لأنه قاصرٌ عن رتبة الكمال ، وأحد الطرفين مذمومٌ في غاية البعد والضلال ؛ وهم المذكورون هنهنا حيث قال : ( إما غافل ) والغفلة أقبح مقامات الإنسان ، وأحط مراتب الثقلين ؛ لأن الله جعل رتبة الغافلين أحط من الأنعام السوامّ .

وأعظم أحوال الغفلة : الانهماك ؛ وهو التوغل في دركات البعد من غير مبالاة ، والغفلة قوتها بحسب قوة دائرة الحس ؛ لذلك قال : ( قويت دائرة ) لأنها كلما استقوت دائرة الحس .. قويت الدواعي الشهوانية ، وتعشَّقت إلى الطبائع الحيوانية ، فتمكَّنت شجرة الزقوم ، وكنف ظلها اليحموم ، وكلما كانت أقوىٰ وأرسخت .. كانت حضرة قدسه إلى الانطماس والغيبة أقرب .

وعلامة ذلك : ظهور الطمع في المخلوقين ، والذلة للعبيد المسترزقين ؛ لأن انطماس حضرة القدس وقوة دائرة الحس يقتضي رؤية الأغيار ، وظهور الآثار ، والحجب عن شهود القاهر الجبار .

وثمرة الحجاب : هو الشرك ؛ إما أن يشهد ما يصل إليه علىٰ أيدي الخلق اعتقاداً .. فهٰذا كفر ؛ كما شهد بذٰلك الحديث : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قال : أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافر بالكوكب ، ومنهم كافر بي مؤمن بالكوكب ؛ فأما مَن قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته .. فذٰلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما مَن قال : مُطرنا بنَوء كذا .. فذاكَ كافر بي مؤمن بالكوكب ... » الحديث بطوله (١) .

وإما إسناداً .. فهو شرك خفي ؛ كما عليه طائفة الفلاسفة ـ قبّح الله رأيهم ـ وهٰذا جارٍ في سائر العادات والمعتادات ؛ حتىٰ في المطعومات

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١) عن سيدنا زيد الجهني رضي الله عنه .

والمشروبات والملبوسات وسائر المحسوسات ، فمن أضاف شيئاً إلىٰ شيء دون الله ، أو بشيء غير الله ، أو في شيء . . فقد سلك أوعر الطرقات ، وارتكب عظيمةً من القبائح المفظعات .

بل الأمر عند ذوي البصائر الصحيحة عن غشاوة الضلال : أن القرآن في الأمور هو المحكوم به ، المعروف في العبارة بالعند ؛ أن الله يخلق هٰذا عند هٰذا بجاري عادته ، وعلىٰ مقتضىٰ إرادته ؛ فمن شهد نعمة الله من غيره . . فلا شك أنه كفر نعمته ، فاستوجب وبيل نقمته ، فصرف ما كان لله من العبودية للمخلوقين ، ونسي رب العالمين وإلٰه الأولين والآخرين ، فنعوذ بالله من طمس البصيرة ، وعمى السريرة ، ولي في ذٰلك :

فالغافلون هم الجهال إذ جعلوا ... لله نداً معاذ الله حاشاه
من يشهد الخلق دون الله حاصله ... شركٌ فظيعٌ فنار الله مأواه

❊ ❊ ❊

وأما القسم الثاني . . فهو الطرف المصطلم بالحقيقة ، ولم يشهد الخليقة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

**وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ ٱلْخَلْقِ ، بِشُهُودِ ٱلْمَلِكِ ٱلْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ ٱلْأَسْبَابِ ، بِشُهُودِ مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ ؛ فَهَٰذَا عَبْدٌ مُوَاجَهٌ بِٱلْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدِ ٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيقُ ٱلْأَنْوَارِ ، وَمَطْمُوسُ ٱلْآثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَىٰ صَحْوِهِ ، وَجَمْعُهُ عَلَىٰ فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتُهُ عَلَىٰ حُضُورِهِ**

فصاحب الحقيقة : هو الفاني بها عن كل مشهود سواها ، والحقيقة :

هي إقامة الله لعبده ، وتأهيله لشهود كمال ذاته العلية ، وصفاته السنية ، وتجلياته الأزلية ، **فلا ظهور هنالك للأغيار** ، ولا بيان للآثار ، ويسمىٰ هٰذا : **المشهد الحق** ؛ وذٰلك أن الباطل لا ظهور له معه ، والملك هو القاهر ؛ لقهره لمن سواه .

ومن أقيم في هٰذا المقام . . يسمىٰ فانياً ، وحالته الفناء عن الأسباب ؛ **لأنه شهد مسببها** ، وكل الخلق وأفعالهم أسباب لمسبب ، فلا جرم أن مَن أشهده كماله ، ومنحه قربه ووصاله . . **أن يغيب عنها** ؛ كما هو مشهود فيمَن استغرقه مُهمٌّ من الأمور الحسية يغيب بالاهتمام به عن الأشياء .

( **فهٰذا عبدٌ مواجَه بالحقيقة** ) من الله ، مخطوب لحضرته ، مطموس تحت أنوار عظمته ، ( **ظاهر عليه سناها** ) مشرق عليه ضياها ، فغاب بها عمَّن سواها ، ( **سالك** ) لطريق الحق ، تارك لما وراءه ، ( **قد استولىٰ** ) أي : وصل وحصل ( **علىٰ مداها** ) أي : غايتها ومنتهىٰ حضور قدسها ، والكون تحت ظل أنسها ؛ فهو الذي تولى الظل ( **غير أنه غريق الأنوار** ) مقهور بتجلي الاسم القهار للأغيار ، ( **ومطموس الآثار** ) ألقي في تيار بحار الأسرار ، لا يدري ليلاً من نهار .

( **قد غلب سكره** ) بخمرة التجلي العقار ( **علىٰ صحوه** ) وهو الإفاقة بالله ، وإثبات الأشياء به ، وإعطاء وجود الحق فيها حقه ، و( **جمعه** ) بالله الذي لا يعطي صاحبه تمييزاً ولا تقريراً ؛ لغلبة تجلي وصفه العزيز ، ( **علىٰ فرقه** ) المطلوب منه ؛ **وهو الفرق الشرعي** الذي يعطي الحقوق حقَّها ، ويوفي المقامات مستحقها ، ( **وفناؤه** ) بالله عن الأسباب ( **علىٰ بقائه** ) بمسببها ، ( **وغيبته علىٰ حضوره** ) .

ومقام البقاء والحضور هو الذي يتم به السرور ، ويتوالىٰ به الحبور ، ويتنعم الناظر بالمنظور ، وتنشرح به الصدور ، قال الله جل وعلا في الامتنان علىٰ نبيه بذٰلك : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، وهنا ترفع الستور ، وتتجلى البدور الكامنة تحت الخدور ؛ فكل صاحب حقيقة غاب فيه به عن كل مشهود في الكونين .. إلا هو قد لاح ظاهر سناها فيه منه له ، لٰكنه بعد لم يشهد خباياه .

* * *

وقسم ثالث ؛ وهم أهل الكمال الحاصلون علىٰ أعزّ منال ؛ وهو الذي جمع الأمرين ، وأحكم المقامين ، ونظر بالعينين ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

**وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَٱزْدَادَ صَحْواً ، وَغَابَ فَٱزْدَادَ حُضُوراً ؛ فَلَا جَمْعُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ ، وَلَا فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَنْ جَمْعِهِ ، وَلَا فَنَاؤُهُ يَصْرِفُهُ عَنْ بَقَائِهِ ، وَلَا بَقَاؤُهُ يَصْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**

هٰذا مقام أهل الكمال الواصلين إلىٰ ذروة الوصال ، والحاكمين على الأحوال ، ولم يشطحوا في المقال ، ولم يقصروا في الأفعال ، ولٰكن يعطون كل ذي قسطٍ من الأحكام الشرعية قسطه ـ أي : حكمه ـ لا ينقصهم ما يتوالىٰ علىٰ أسرارهم من سكر الشهود ، ولا يوثقهم عن الوفاء بحق المعبود ، ما يعتورهم من مخالفات الأحكام والحدود ؛ فلهم وجه في الشهود ، ووجه في الوجود ، وهٰذا مقام الصديقية ، ولي في ذٰلك :

أهل الكمال لهم في القرب أحوال عوالـيٌ فـي مقـامٍ عَـزَّ مرمـاهُ
يوفـون كل مقـامٍ مـا يكـون لـه وهـم فيِ القُرب فـي غايات علياهُ

وانظـر إلىٰ كلام أهل هـٰذا المقام ، **كيف وفوا فيه على التمام** ؛ كما قال مفسِّراً لما قدَّمه من الكلام على المقامين بكلام الصديق الأكبر في ذٰلك ، **حيث قال** :

**وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ ٱلْإِفْكِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ ؛ ٱشْكُرِي رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَٱللهِ ؛ لَا أَشْكُرُ إِلَّا ٱللهَ (١) ، دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلْمَقَامِ ٱلْأَكْمَلِ ؛ مَقَامِ ٱلْبَقَاءِ ٱلْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ ٱلْآثَارِ ، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : « لَا يَشْكُرُ ٱللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ ٱلنَّاسَ » (٢) ، فَكَانَتْ هِيَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مُصْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً عَنِ ٱلْآثَارِ ، فَلَمْ تَشْهَدْ إِلَّا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّارَ**

هـٰذا شـرحٌ منه لما أسلفه من كلامه على المقامين ، وقد أوضح فيه بغايـة البيان ، حتىٰ كاد أن يكـون الأمر على العيان ؛ **لشـدة وقعه في الأذهان** ، وولوجه في الآذان ، وتمكُّن عبارته في الجَنان ، فاستشـهد في ذٰلك بحالة الصديق ؛ **لأنه البارز فيه شهادة القرآن** ، إذ قال فيه سبحانه :

---

(١) رواه البخاري ( ٢٦٦١ ) ، ومسلم ( ٢٧٧٠ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٢) تقدم تخريجه قريباً ( ص ٨٦٦ ) .

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ : محمـد صلى الله عليه وسـلم ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ : قيل : أبو بكر .

فلما نزلت براءة عائشة التي هي من أجلِّ المنن ، وأعظم النعم علىٰ سائر الخلق ؛ فلمَّا توجَّهَ إليها الخطاب علىٰ لسان الأمين . . طالبها أبوها بوفاء تلك والقيام بها ، فقال : ( اشكري رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ) يريد بالقول والفعال ، ولم يأمرها بشكرها ؛ لعلمه بما هي عليه من كمال الاستعداد ، فلم يكن أبو بكر أراد أنها تشكر رسول الله دون الله ، ولـٰكن لما رأىٰ ما فاض من مقتضيات الشكر لله . . أراد أن توفي مقامَ الشرع حقه ؛ وهو شكر الخلق .

فقالت مترجمةً عن حالها بمقالها : ( والله ـ لأنه المشهود لديها ـ لا أشكر إلا الله ) لأن مظاهر الألوهية لم تترك فيها مساغاً لرؤية الثان .

والاصطلام في اصطلاح الطائفة : هو الحيرة والدهش ، وهـٰذه الحالة منها غير غالبة ، وإنما غالب أحوالها التمكين والصحو ، لـٰكن لما وافقها في حالة الاصطلام عن شهود الأعلام . . أفصحت بهـٰذا الكلام ، ولي في ذٰلك :

قد كان في ذٰلك الصديق أعلمها   بما هو الشكر فاجتازت عن الغير
فالاصطلام له حال يكون به   غائبٌ عن الكون لا يشهَدْ له أثر

وعائشة هي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين ، وهي من أحب أزواجه صلى الله عليه وسلم إليه ـ وقيل : خديجة ـ فتجب براءتها من الإفك ؛ فمن رماها بالإفك بعد نزول القرآن في شأن براءتها . . فهو كافر ، كمنكر صحبة أبيها رضي الله عنه ؛ لثبوت ذٰلك كله بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا اعتداد بخروج طوائف الرافضة ـ قبَّح الله رأيهم ،

وأخلى الأرض منهم ـ فذلك معلومٌ من الدين ضرورة ، فالحمد لله .

وقد وردت في فضل أبي بكر وابنته عائشة من الأحاديث ما لا يكاد يمكن حصره للآحاد ، من كثرة الأعداد ، وَيَلِي أبا بكر في الفضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عن الجميع ، ثم بقية العشرة سواء في الفضل ، ثم بقية أهل بدر ، ثم أهل بيعة الحديبية ، ثم بقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

❋ ❋ ❋

## [ جواب المؤلف عن سؤالٍ ورد إليه ]

وَهَـٰذَا سُؤَالٌ ، سَأَلَ ٱلشَّيْخَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بَعْضُ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُتَعَرِّضِينَ لِنَفَحَاتِ ٱلْوِصَالِ ، فَسُئِلَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ » (١) هَلْ ذَٰلِكَ خَاصٌّ بِهِ كَسَائِرِ مَا ٱخْتُصَّ بِهِ مِنَ ٱلْمَزَايَا وَٱلْفَضَائِلِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْ تَابِعِينَ هَدْيَهُ نَصِيبٌ مِنْهُ ؛ كَمَا لَهُمْ فِي أُمُورٍ مِنْ فَضَائِلِهِ ؟

فَأَجَابَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِمَا هُوَ ٱلصَّوَابُ ، مِنْ رَائِقِ ٱلْجَوَابِ ، وَفَصِيحِ ٱلْخِطَابِ :

إِنَّ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ بِٱلشُّهُودِ ، عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْمَشْهُودِ
فَٱلرَّسُولُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةُ أَحَدٍ كَمَعْرِفَتِهِ
فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ

وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ لِشُهُودِهِ جَلَالَ مَشْهُودِهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ أَشَارَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ بِقَوْلِهِ : « فِي ٱلصَّلَاةِ » وَلَمْ يَقُلْ : بِٱلصَّلَاةِ ؛ إِذْ هُوَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :

« ٱعْبُدِ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ، وَمُحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ !!

قَالَ لَهُ ٱلْقَائِلُ (٢) : قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ ٱلْعَيْنِ بِٱلصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ

---

(١) رواه النسائي ( ٦١/٧ ) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) في « غيث المواهب » ( ٢١٢/٢ ) : ( فإن قال قائل ) بدل : ( قال له القائل ) .

مِـنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَبَـارِزَةٌ مِنْ مِنَّةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْـفَ لَا يَفْرَحُ بِهَا ؟! وَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ؟!

فَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلْآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ إِلَى ٱلْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ ٱلْخِطَابِ ؛ إِذْ قَالَ : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، وَمَا قَالَ : فَبِذَٰلِكَ فَٱفْرَحْ ، يَا مُحَمَّدُ ؛ قُلْ لَهُمْ : لِيَفْرَحُوا بِٱلْإِحْسَانِ وَٱلتَّفَضُّلِ ، وَلْيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِٱلْمُتَفَضِّلِ

كَمَا قَالَ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

هـٰذا سؤال جامع ، وجوابه مدرجٌ فيه ؛ وهو بأن يبسط عليه القول ، كيف وقد جمع فيه رأس العبادات ، وكعبة القربات ، وأول المفترضات ، وعمدة الديانات ؟! سيما صلاة أفضل البريات ، التي احتوت غاية الكمالات ، وأرفع الدرجات ، وعدة الحسنات ، التي حظي فيها بما قرَّت به العيون ، من كشف السِّرِّ المصون ، والكنز المخزون ، تحت تجليات الشؤون ، والشهود التام ، والمقام السام ، الذي يتقاصر عن نيله أكابر المرسلين ، وجهابذة العلماء والصديقين .

فكل مصلٍّ له قرة عين فيها ، ولـٰكن قرة العين تتفاوت بحسب معرفة المعبود ، واضمحلال أعيان الوجود ، للتجلي والشهود ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس معرفةٌ كمعرفته ، ولا نال مقرَّبٌ كقربه ، ولا حظي واصلٌ بمثل وصله ، فلم يكن لأحدٍ قرةُ عينٍ كقُرَّته ؛ فإشارته بقوله : ( فيها ) دالة علىٰ أنه قرَّتْ عينه بمشاهدة الحبيب من قريب من غير حجاب ؛ لأن العبد إذا قام إلى الصلاة . . تجلى الله برحمته له في قبلته ، وقد أشار إلىٰ هـٰذا في بعض الأحاديث : « أنه أقرب إليه من

مصلاه في سجوده »[1] ، وقال أيضاً : « لو يعلم المصلي من يناجي . . ما التفت »[2] ، وهو صلى الله عليه وسلم حظي برتبة الشهود الحقي .

وأما العلم . . فلغيره ، ورتبة العلم دون رتبة الشهود ، فالشهود هو العلم ، وزاد برتبة الكشف بالعيان ، فوصف سبحانه بالشهود حيث قال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فهـٰذا هو عين مشهد الرسول بعينه صلى الله عليه وسلم ، شهد هويته ظهور ألوهيته ، فهو الشاهد والمشهود والشهود ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ أيضاً ، شهدوا بما شهد به لنفسه .

فالحاصل من ذٰلك : أنه لم يشهده حق شهوده سواه ، ولا عرفه حق معرفته إلا إياه ، فالمعرفة : هو ما يعرفه العبد من نعوت سيده ومولاه ، ولا يعرف إلا بقدر ما أشهد سنا تجلِّيه ، وظهور صفاته وعميم أياديه .

وهو صلى الله عليه وسلم لا تقرُّ عينه بغير ربه ؛ لأنه عرفه ، ومن عرفه . . لم يسكن إلىٰ سواه ، ولا يقر بغيره ، فتبين من هـٰذا : أن لكلٍّ في الصلاة قرَّةَ عين بحسب ما أشهده من تجلي ذاته ، وظهور أسمائه وصفاته ، فكيف تكون له قرة عين في الصلاة بغير ربه وقد دلَّ علىٰ أن قرة العين لا تكون إلا به بأمره صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « اعبد الله كأنك تراه »[3] ، ومحال أن تراه وترىٰ معه سواه ، فدل علىٰ أن كمال العبادة بشهوده ، ولا تشهده وأنت شاهد لسواه ؛ لاستحالة الجمع بين الوجود والعدم ، والحدوث والقدم ، والجواز والوجوب ، والحق والباطل ،

---

(١) رواه مسلم ( ٤٨٢ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » ( ١٦١/٢ ) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري ( ٥٠ ) ، ومسلم ( ٨ ) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

والنور والظلم ؛ لذٰلك قال المؤلف : ( محال أن تراه وترىٰ معه سواه ) .

فهٰذا جوابه عن معنى الحديث علىٰ منهج المقرَّبين ، وطريقة العارفين ، ومشهد الصِّدِّيقين .

فسأل السائل ثانياً عن حالة الأبرار وعموم المؤمنين بقوله : ( قد تكون قرة العين بالصلاة ؛ لأنها فضل من الله تعالىٰ وبارزة من منَّة الله عز وجل ، فكيف لا يفرح بها ، وكيف لا تكون قرة العين بها ، وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ؟! ) وصدق فيما قال في السؤال ؛ فهٰذا لرجال ، وذاك لرجال !!

فقال له الشيخ مجيباً عن سؤاله ومبيناً لمقاله : ( واعلم ـ لأن العلم في مثل هٰذا المقام هو الذي يحسن فيه الكلام ؛ لأنه مقام السائل ، وغناء الفقير العائل ـ أن الآية الذي فهمته منها قد أومأت بلطيف سرها إلى الجواب ) .

وهٰذا هو حكم الكلام الجامع المعجز المنزَّه عن الحدوث ؛ أنه يفهم لكل قومٍ علىٰ قدر مقامهم ، ويفصح لهم عن مجمل كلامهم ، ولٰكن أسراره لا تلوح إلا لمن تدبَّره ، وعرف ظاهره ومضمره ، وحقَّق معانيه وفسَّره ، والسر وراء ذٰلك كله لا نهاية لتجليات أسراره ينتهي إليها في الدار الآخرة ، فضلاً عن توقف علىٰ كليات أسراره ، أو يشاهد مشرقات أنواره في هٰذه الدار .

ففهم في الآية السائل الفرح بالفضل ، وفهم فيها المسؤول ـ رحمه [ الله ] ـ الفرحَ بالمُفْضِل ؛ كما هو شأن من وصل إلىٰ مقامه ، وحصل علىٰ غاية مرامه ، وتجلَّىٰ له بدر التجلِّي في تمامه ؛ أن يغيب برؤيته عن إنعامه ، وقرة العين ما يجده فيها من عظيم اللذة والروح والسرور ، كيف

لا وفيها مناجاة الحبيب من قريب ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ؟!

وقرة العين فيها لا تكون وفي القلب المحادثات الكونية ، والخطرات الهوائية ، والشهوات الحيوانية ، والحظوظ النفسانية ، والدواعي الشيطانية ، والكثائف الأرضية الطبيعية ، بل لمن فني عن نفسه بالكلية ، فتضرب بين هٰذه الحجب سرادق التولي الخاص ، وتغشاه أنوار الإخلاص ، ويستريح عن مدافعة الأعداء ، فيكون لطيفة من لطائفه : مشهد خاص في التكبير ؛ بالتسليم للأمر ، والانقياد للحكم ، وفي القراءة والقيام ؛ بالتخلق والمناجاة والتذلل ، ويذل ويخضع ويخشع ، والترغيب وغير ذٰلك مما تفاتح به القلوب ، وتكاشف به الأسرار من الأنوار ، فكيف لا تكون قرة العين فيها بهٰذا النعيم والروح والسرور ، والإقبال والحبور ؟!

وأما إذا كان القلب مشحوناً بالوساوس الشيطانية ، والشهوات الحيوانية ، والأسباب الدنياوية .. فكيف تنكشف له هٰذه المواهب والمنوح ، أو يواجه بتلك المنن والفتوح ؟!

فإذا رفع الحجاب ، ودنا الحبيب من الأحباب .. توالى الفرح به والسرور ، فيجوز ألا يفرح بغيره ، ويقال له بلسان الحال في ذٰلك المقام : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

فقـرة العيـن بالمحبـوب موضعها ... في العبادات حسب الطالب النظرا
كما روي عن عفيف الدين مغربها ... كما يرىٰ الله فاسمع ذا وكن حذرا
عن أن تصورَ في الأذهان لَهُ مثلا ... ولا شـبيهاً ولا نـداً ولا نظـرا
فحضـرة القـرب أعلاهـا وأقربهـا ... في الصلاة روىٰ ذا السادة الكبرا

❋ ❋ ❋

## [ الناس ثلاثة أقسام في ورود المنن ]

ولما كان الفرح بالحبيب مطلوباً من المحب .. ذكر المؤلف بإثر ذلك الفرح وحده ، فقال في بعض ما كتب به لبعض خواصّ الإخوان :

**ٱلنَّاسُ فِي وُرُودِ ٱلْمِنَنِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :**
**فَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ لَا مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِيهَا ، وَلَٰكِنْ بِوُجُودِ مُتْعَتِهِ فِيهَا ؛ فَهَٰذَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :**

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾

**وَفَرِحٌ بِٱلْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مِنَّةٌ مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةٌ مِمَّنْ أَوْصَلَهَا ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :**

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

**وَفَرِحٌ بِٱللَّهِ تَعَالَىٰ مَا شَغَلَهُ مِنَ ٱلْمِنَنِ ظَاهِرُ مُتْعَتِهَا ، وَلَا بَاطِنُ مِنَّتِهَا ، بَلْ شَغَلَهُ ٱلنَّظَرُ إِلَى ٱللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَٱلْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :** ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

هٰذا تقسيمٌ مناسبٌ للتقسيم ، إلا أن هٰذا بالفرح بالنعمة من حيث هي نعمة ، وفرح بها من حيث هي فضل من سيده ، وفرح به دون ما سواه ، واكتفاء به دون ما عداه .

والفرح ورد في القرآن ما هو منهيٌّ محضٌ ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ ، ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ ، ولـٰكن هـٰذا بالفرح بالأعراض الفانية ، والزخارف الملهية ، المشغلة عن الله ، الحاجبة عنه ، الصادَّة عن عبادته ؛ وهي النعم الدنياوية ، والحظوظ النفسانية .

وفرح مندوب إليه ؛ بالفضل الصادر من المُفْضِل الجواد ، من حيث إنه منه فضلاً وذكراً وعناية بشأنه ؛ نحو قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ؛ **لأنه صادرٌ من تفضُّلنا وتطوُّلنا** ، فالفضل ما ظهر من ملائمات النعم ، والرحمة ما أشهده إياه من كونها منه رحمة وعناية وقياماً بشأنه ، والله أعلم .

**وأما القسم الثالث** ـ وهم أهل الكمال البالغون نهاياته ، والواصلون إلىٰ أبعد غاياته ؛ من الأنبياء وسادات الأبدال وأكابر الأولياء ـ . . **فإنهم قد غابوا عن الأكوان بالكلية** ، وباينوا النفوس ، وشربوا لذيذ الكؤوس من تجلِّي الملك القدوس ، وقسمته هـٰذه حسب ما قدمه في أحوال الناس عند ورود النعم عليهم .

فمن فرح بها ، محجوباً عن موردها ومنشئها . . **فهي في حقه استدراجٌ** وتمتعٌ وحجةٌ وحجاب ، **فيغفل عن شكر موردها** ، فيذاق أليم عقاب كفرانها ، ونسيان المتفضِّل بها ، إلا أن يتدارك بالتوبة ، ومن كان حاله الفرح بالنعمة دون الله . . **فلا يخفىٰ ما هو عليه من دناءة الهمة** ، وقبح الحال ، ورذالة الفعال ، فهو يسعىٰ في غير منال ، ويطلب ما عاقبته عليه وبال ، **فحاله أقبح من الأنعام** ؛ لأنه في غاية البعد عن الشكر .

وقسم ثانٍ نال نصيباً من الشرف ، وحصل على حظ من القرب ، ونصيب من الشكر ، ولكنه دون مرتبة القسم الثالث .

**فالقسم الثاني** : هم العاملون على نيل الجزاء ، والقائمون على التقليد والاقتفاء على مناهج السلوك ، الذين لم يخرجوا بعدُ عن رؤية نفوسهم أن منها ولها ، **فهم مطالبون بإخلاص ما عملوا** ، وتحقيق ما علموا ، وشرفهم من حيث إنهم ذكروا المنعم بورود نعمته ، **فهم على مقام من الشكر** ، غير أنهم لم ينالوا كل العناية ، **فالشكر له مراتب ثلاث** حسب حالة أرباب المقام ؛ [ فمنهم ][1] الكامل والأكمل .

**والفرح** : هو الابتهاج بالمفروح به ، **والسرور** : هو الشكر نفسه ، إلا أن الشكر يعم الباطن والظاهر ، والقول والفعل والخلق .

**فأول مراتب الشكر وأقربها على العباد** : هو ألَّا تعصيه بنعمته ، **وأوسطها** : هو أن تصرف ما أنعم به عليك فيما ندبك إليه ، **وأكمل من هذا** : هو أن تغيب عن النعمة بالمنعم ، فتكون به له ، لا بشيء ولا لشيءٍ دونه ؛ فهذا هو الشكور المعرف بين هذه الأصناف بلا تعريف ، **ولي في ذلك** :

| | |
|---|---|
| الناس في واردات الفضل والمنن | ثلاثة ولهذا القول كن فطن |
| فيفرحون بها من حيث هي نعم | موافقةٌ كلَّ إسكافٍ وكل دني |
| ومن يكن في مقام العلم يشهده | من حيث هوْ منه يفرح به ولا يكن |
| لكن يكن فرح الأحباب مطلبهم | ألا يروا غيره في السر والعلن |

(١) في النسخ ( فمن ) بدل : ( فمنهم ) .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ( قُلْ لِلصِّدِّيقِينَ مِنْ عِبَادِي : بِي فَٱفْرَحُوا ، وَبِذِكْرِي فَتَنَعَّمُوا )[1]

فلا يكـون صدِّيقاً وله إلى الأغيار نظر وإقبال ، ولا تتحقق المقامات إلا بشـواهد الأحوال والعلامات ؛ فعنـد ورود الأمر الواحد يتحقق المقرُّ من الجاحد ، والمدبر من القاصد ، وتتمايز بالأفعال المقاصد ، فيظهر في مقامات الامتحان الخرز من المرجـان ، والفرحون بالله : هم أهل الروح والطرب ، ويحق لهم حيث نالوا غاية المراد والأرب ، ولي في ذٰلك :

ومـن نظَرْ وجه مـن يهوىٰ يحقُّ له ... أن يطـرب الكونُ من ألحان مغناه
ويعتريـه عظيـم الوجـد كيـف بـه ... لو أسفرت من حجاب البعد عيناه
دار الوجـود ودار الـكأس واطربـا ... ممـا يعايـن مـن أنـوار علياه
كادت علىٰ ذاك أرواحٌ تطير أسىً ... إذا حـدا حـادي الوجنـا بمغنـاه

ولما كان الفرح بالله من أجلِّ المراتب وأقصى المطالب .. طلب المؤلف رحمه الله الوصول إلىٰ ذٰلك ، والتحلِّي بما هنالك ، فقال :

وَٱللهُ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَبِٱلرِّضَا مِنْهُ ، وَأَلَّا يَجْعَلَنَا مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ ٱلْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

فالله يجعلنا كذٰلك وأحبابنا في الدين ، ومن أحاطت عليه شفقة قلوبنا ، ومن له علينا حق من المشايخ في الدين ، والأولاد والوالدين ،

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ( ٨/٢١٧ ) عن محمد بن النصر أنه قرأه في بعض الكتب .

ومن أحبنا في الله أو أحببناه ، ووالانا في الله وواليناه .

وألا يجعلَنا من الغافلين الفرحين بالأغيار ، المطموس على أسرارهم بظُلَم الآثار ، الذين سلكوا طريقَ الكفران ، وانقادوا بأزمة الأهواء لداعي الشيطان ، ونسوا عبادة الرحمن ، وانحجبوا بظواهر الأكوان .

وأن يسلك بنا مسالكَ المتقين الذين قدروه حقَّ قدره ، وكانوا نصب نهيه وأمره ، بمنِّه الفائض وكرمه العميم ، آمين ، بعد الصلاة والتسليم على خاتم أنبيائه وسيد أصفيائه محمد الأمين ، وآله الأكرمين ، وصحبه المكرمين ، نجوم الدين ، وأعلام اليقين .

* * *

# المناجاة الإلهية

للإمام ابن عطاء الله السكندريّ
رحمه الله تعالى

# المناجاة الإلهية

وهنا أخذ في المناجاة لمَّا انتهىٰ إلىٰ مقام المصافاة ، وبه تمامُ الكتاب ، فقال رضي الله عنه :

**إِلَـٰهِي ؛ أَنَا ٱلْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي ؟!**
**إِلَـٰهِي ؛ أَنَا ٱلْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي ؟!**

لما كان اسم الألوهية له التكبُّر ، وتجلىٰ في سائر المظاهر الملكوتية والملكية والجبروتية ، الحسية والمعنوية ، الشهادية والغيبية ؛ وذٰلك لما اقتضت أعيان الوجود من التغاير والكثرة والاختلاف ، وهو مع وحدته إلـٰه بكل معنىً ، ويعمُّ سائر الأسماء الجلالية والجمالية التي سائر الأكوان موجودون عن تأثيرها ، وظاهرون بمظهر منها ، فيكون بهـٰذا الاعتبار لذوي الاستبصار الإلـٰه بمعنى المعبود بحق ، والمستغني بذاته ، المفتقر إليه ما سواه ، والموجود والمرجو والمَخُوف ، والمحبوب والمقصود والموصوف بكوامل الأوصاف ، والمعروف بمحاسن الأفعال ، وغير ذٰلك من سائر ما يظهر حساً ومعنىً ؛ فالحق هو الإلـٰه ، وبمعنى الحقِ الظاهرُ وسائر الأسماء .

فلـذٰلك كلمـا ظهر العبـد في وصفٍ من صفاته . . شـهد حقيقة تلك الصفة ، فردَّها لمن هي له حقيقة ، واتصف بما هو الأصل له دون إلـٰهه .

ولما تجلى الحق له في شاهد سره بسر الغنى المطلق الديمومي ،

وأثرُ ذٰلك الوصف الإلٰهي ظاهرٌ أثره علىٰ صفحات الوجود ، وبادٍ مظهره علىٰ كل معاين موجود ، بالقيام به في كل حركة وسكون . . ظهر ـ لا محالة ـ **افتقارُ العالم بأجمعه** علوه وسفله إلىٰ إقامة القيوم ، الدائم به وله في سائر الأحوال والقوىٰ .

وإذا كان الأمر كذٰلك . . **فالعبودية أن تعرف وصفك وما هو نعتك** ؛ ليمدك من فائض فضله ، لأن كل اسمٍ يظهر أثره يقتضي حقاً من العبادة ، **ولا يكون عبادة حقيقة** إلا ما كان صادراً عن معرفة المعبود وكماله ، ومعرفة العبد ونقصه واضطراره ، وذلته تحت قهر المعبود وجلاله .

واســم **الألوهية** من أخص ما يتوسـل به المألوه ؛ لأنه لا يخفىٰ ما في دعائه بهٰذا الاسم من الاعتراف لله بكمال ألوهيته ، وعظيم ربوبيته ، وما العبـد عليـه من الاتضاع فـي أرض افتقاره وتراب ذلته ، فقال : ( **إلٰهي** ) فشهوده للألوهية أولاً . . **دليل كمال معرفته** ؛ لأن لها الأصالة ، فاقتضاء مقـام العبوديـة لهٰذا الإلٰه المعبـود أن لا بد للعبد من إِنِّيَّة ، فقال : ( **أنا الفقيـر** ) وذٰلك مـن أحسـن آداب العبيـد ؛ أنها **لا تظهر إِنِّيَّـة إلا مقترنة** بوصفهـا ، ومتدرعـة بنعتهـا ، والفقـر لـه وصـفٌ فـي الـذات والصفـات والأفعال ، بل في نفس وجودها مفتقر إلىٰ موجده أوّلاً ، وقائم في حال وجـوده ، وممد لـه مواد صفاته ، ومجري له أسـباب أفعاله ، **فكان فقيراً لا محالة** ، والسؤال بهٰذا الوصف أقرب للإجابة ، بل لا يُقرَع باب الرب بمثل التملُّق إليه بهٰذا الحال .

**وإذا علم ذٰلك** ـ أي : أصالة الفقر له ـ . . **علم أنه فقير لا يزايله افتقاره** ، ولا يفارقه اضطراره في سائر أحواله ، وظهور الغنىٰ على العبد بالأسباب الدنياوية والدرجات الأخراوية لا يزداد بها إلا افتقاراً إلى افتقاره ، فعلم

أن الفقر أبداً وصف للعبد ، وأن الغنىٰ لله دائماً سرمداً .

فإذا كنتُ فقيراً في غناي . . فكيف لا أكون فقيراً في فقري إلى الأشياء في كل حينٍ وأوانٍ وزمانٍ ومكان ؟!

فالغنىٰ : هو أن تستغني عن الشيء المفتقر إليه ، والعبد لو كان مستغنياً عن الأشياء . . لا يكون استغناؤه عنها إلا أن يشهد من وجوده ما يكون مستغنياً به ، وذٰلك ـ لا محالة ـ يحتاج إلىٰ كشف الغطاء عن قلبه ، وهو أعز سبباً ؛ لأنه لا يدرك بحيلة ولا اكتساب ، فكان الافتقار إليه أعظم ، فإذا كان فيما يرىٰ أنه غنيٌّ فقيراً . . فكيف لا يكون فقيراً وهو أبداً محتاجٌ ومضطرٌّ إلى الأسباب ؟!

وكذٰلك العلم لله وصفاً وحقيقة ، وللعبد مجازاً وعطاء من جملة العطايا ، ومزية من جملة المزايا ، وهدية من سائر الهدايا ، فإذا كان كذٰلك . . علمت أن الأصالة فيك الجهل ، ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ .

فلولا مددك إياي فيما أعلم في كوني عالماً . . لم يثبت علمي معي ، ولولا حفظك له عليَّ . . لم أكن حافظاً ، ولولا إجراؤك أسبابه لي . . لم أكن له متيقظاً ، فصح أني جاهلٌ في علمي لو وهبت لي سائر العلوم ؛ لأنَّ نِسْبَتَها إليَّ مجازية .

فالعالم حقيقة : من يعلم الأشياء وكيفياتها وهيئاتها في إجمالها وتفصيلها قبل إبراز صورها إلىٰ عالم مظهريتها ، وليس ذٰلك إلا الله .

فأنا في حال توهمي أني عالمٌ . . جاهلٌ ، فكيف لا أكون جاهلاً في جهلي بسائر الأشياء ؟! فلا أعلم مجاري الغذاء مني ، ولا تصاريف الأقدار فيَّ .

كيف وقد وصف الله الإنسانَ بالجهل ؛ كما وصف نفسه بالعلم فقال : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ، فقال في وصفه أيضاً : ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ بالماضي ، يشير إلىٰ قدم العلم له ، ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ بالحال ، يشير إلىٰ أنكم لا تعلمون في حال وجودكم ؟!

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ولكان هو الوصف كما وصف نفسه بالعلم بالأشياء : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فإذا كنتُ جاهلاً في علمي . . فكيف لا أكون جهولاً في جهلي وأنا لا[1] أعلم ماذا يجري عليَّ ؟! وكيف أنا في عالم تركيبي الذي هو مشهود لي ؟! فلقد حقق الاعتراف ، وبيَّنَ مقاصد الإنصاف ، وعرف ما للعبد من الأوصاف ، فجزاه الله خيراً ، ولي في ذٰلك :

من كان في وصفه بالحظ مفتقراً فكيف لا وهو محتاج ومفتقرا

ومن يكن جاهلاً في علمه فعلىٰ ما لا يكن جاهلاً في الجهل محتقرا

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ ٱخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ، مَنَعَا عِبَادَكَ ٱلْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ ٱلسُّكُونِ إِلَىٰ عَطَاءٍ ، وَٱلْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ

فلما كان تجلىٰ أولاً عليه بصفة الغنىٰ والعلم . . تلقاها بوصف الفقر والجهل ؛ اللَّذينِ هما اللائقان به في هـٰذا المقام ، فتجلىٰ له بوصف إرادته وقدرته ، فأعطاها حقها ، فقال : ( إلـٰهي ) لأنه تجلىٰ بوصف الإرادة المتفرعة عن العلم ، ثم تجلىٰ له بوصف الاقتدار ، فقال في مقام

---

(١) في ( أ ، د ) : ( كما ) بدل : ( لا ) .

الاعتذار ، والتبهُّل بلسان الاضطرار ، والتعلق به في مختلفات الأقدار ، وواردات تعاقب الآثار في الأطوار : فهـٰذا هو الذي أوجب لذوي البصائر والأبصار ألَّا يسكنوا مع الأغيار ؛ من جنة أو نار .

فلما رأوا سرعة اقتداره ، واختلاف ظهور مشيئته في أقداره .. لم يسكنوا إلىٰ ما يجدون من الأحوال ؛ لأنها ـ لا محالة ـ حائلة ، فكان هـٰذا الذي أقلق قلوب المحبين ، وكدَّر صفو صفات المكاشفين ؛ خوف تبديل ما هم عليه ، كما جرت بذٰلك الأحكام علىٰ أقوام أُنزلوا بعد رفعة المقام إلىٰ مراتب العوام ، بل أقبح حالاً من الأنعام ، نعوذ بالله من سوء ما سبقت به الأقدار ، وانبرمت به الأحكام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأىٰ سرعة تقلُّب القلوب تحت أستار الغيوب .. يقول في قَسَمه : « إي ومقلِّبِ القلوب »(١) .

وكما أنها أورثت ألا يسألوا حالاً يكونون عليه من الأحوال السارة .. كذٰلك أورثتهم حسن الظن بالله ، وعدم اليأس من روحه ، وتفريج ما ينزل بهم من المهمات ، ومعضلات البليات ؛ لسرعة تقليب الأحوال ، وسرعة حلول المقادير ، وهـٰكذا تكون أحوال العارفين ؛ لا يسكنون مع عطاء ، ولا ييئسون عند حلول بلاء .

ولي في ذٰلك :

إن اختـلاف مقاديـر الإلـٰه علـىٰ ... عبـاده لـم تدع في الكـون مأنوس

كـذاك لـم يـك للبلـوىٰ مقاومـة ... لـذي الشـدائد والضـراء والبـوس

۞ ۞ ۞

ناداه ثالثاً بما هو المعهود من جميل فعله ، وما هو اللائق بكمال

(١) رواه البخاري ( ٦٦١٧ ) بنحوه عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

نعته في مقابلة ما العبد عليه من النقص في الأفعال ، وارتكاب ما يعتذر منه من الخلال ، فقال بلسان الاعتذار والانطراح والإقرار :

**إِلَـٰهِي ؛ مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ**

( إلـٰهي ) بمعنى الكريم المتطول ، والمنَّان المتفضِّل ( **منّي ما يليقُ بلؤمي ، ومنكَ ما يليقُ بكرمِكَ** ) فلؤمي يقتضي معاقبتي ومعاتبتي ، ومنك ما يليق بكرمك من العفو والتجاوز والصفح ؛ كما هو وصفك .

**فشأن العبد إذا أراد الدعاء للكريم المُفْضِل** : ألا يُقدِّم بين يدي دعائه إلا الاعتذار ، بين يدي القادر الجبّار ، ودوام التضرُّع والاستغفار ، من الذنوب والأوزار ، بين يدي العفو الغفار ؛ فإن الكبائر مع ذٰلك يرتجىٰ غفرانها ، وتجلىٰ عن القلوب ظلماتها ورانها ، ويشهد ما روي : « أن الله يفرح بتوبة عبده واعتذاره إليه »[1] ، ويروىٰ أيضاً : « أن العبد إذا أذنب الذنب وقال : يا رب . . فتحجب دعاءه الملائكة عن الله حياءً من الله أولاً وثانياً وثالثاً ، حتىٰ يدعو رابعاً ، فيقول الله عز وجل : **لبيك عبدي ؛ إلىٰ كم تحجبون دعاء عبدي عني** » أو كما قال[2] .

**فهـٰذا وما ورد في الكتاب والسنة مما يقتضي أن الله يحب من**

---

(١) رواه مسلم ( ٢٦٧٥ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى البزار في « مسنده » ( ١٨/١٣٠ ) ، مرفوعاً من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها : « إذا قال العبد : يا رب يا رب أربعاً . . قال الله تبارك وتعالىٰ : لبيك عبدي ، سل تعطه » .

عبده الاعتذار إليه والرجوع بالتضرع والاستغفار له ، مما لا يكاد يدخل تحت الحصر والعدِّ ، وهـٰذا هو الحكمة ـ والله أعلم ـ في تقدير الذنب على المؤمن ؛ كما ورد : « لو لم يكن الذنب في بعضٍ خيراً للمؤمن من العجب . . ما قُدِّر عليه »(١) ، ولي في ذٰلك :

فـكل مـا كان مـن لـؤمٍ ومـن زلل فلائـق بـي وشـان الله غفـرانُ
فالعفـو أرجـىٰ لأن الله مُتَّصـفٌ بـه ولا حـرج أن يعـف رحمـانُ

❊ ❊ ❊

فاســمه العفــوُّ ، إذا تجلىٰ . . محا ظلمات الآثــار الحادثة والأوهام الزائلة ؛ وهو من أخص تجليــات الجمال ، فعند تجليه تظهر الصفات الأزلية ، والتجليات اللطفية ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**إِلَـٰهِي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِٱللُّطْفِ وَٱلرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!**

( إلـٰهي ) بمعنى اللطيـف فـي عظمته ، والعطوف في ســابق منَّته ( **وصفْتَ نفسَـكَ باللطفِ والرأفةِ قبلَ وجودِ ضعفي ، أفتمنعُني منهما بعدَ وجودِ ضعفي ؟!** ) فوصفه لنفســه في أزله بكلامه القديم الدائم ، قوله عزَّ من قائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقوله أيضاً : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ، هـٰذا قبــل وجود الخلــق وصفاتهم التــي هي الضعف والعجــز ، وصفاته لا بد وأن تظهر آثارها ، وتتجلىٰ أســرارها ، والخلق

(١) تقدم غير مرة ، وتخريجه في ( ص ١٣٩ ) .

وصفاتهم محل ظهورها ، ومجلى نورها ، فكيف يمكن اتصافه بهٰذه الصفات ولا يظهر لهم محل ظهورها ، ومجلى كوامل بدورها ؛ دون العباد وصفاتهم ؟!

ومرادُ المصنف : الوصفُ الذي يقتضي ظهورُهْ وجودَ ضعف العباد ؛ لمقاومة تجليات العدل ، وغلبات الحكم ، والناس من الوسائل والحيل ، وشقوق الشفاه وسيلان المقل ، على التفريط واقتراف الزلل ، وبيان مستتر العمل حين يتخلّف عنك كل حبيب ، ويقلاك كل قريب ، وينساك كل حميمٍ ونسيب ، **فهناك يتحقّق تجلي ظهورها** ، وترتفع الحجب عن ستورها ، فيبدو للعباد ما لم يكن لهم في حساب ، ولا سُطر في كتاب ، من توالي العطاء والثواب ، **يكون منه السؤال ، وعليه الجواب** ، فيعتذر الله سبحانه إلىٰ عبده ؛ كما ورد .

وقولنا : ( منه السؤال وعليه الجواب ) هو الحق كما نطق به الكتاب ، قوله عزَّ وجلّ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، فهٰذا قوله بنفسه لنفسه في كلامه العزيز ، فكذٰلك يكون جواب الأتباع علىٰ ألسنة المتبوعين ، والمدعوّين علىٰ ألسنة الداعين ، ولي في ذٰلك :

وصفت نفسك باللطف العميم ولا … موجود غيرك يا فرد بلا مثل
فكيف تمنع من قامت به حلل … ضعف وعجز وأنت المفضل الأزل

❊ ❊ ❊

فلما كان العبد قد يظهر أفعالاً محمودة وخصالاً شريفة .. **اعترف المؤلف بقوله :**

**إِلَـٰهِي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَحَاسِنُ مِنِّي . . فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ ٱلْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرَتِ ٱلْمَسَاوِي مِنِّي . . فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ**

( **إلٰهي** ) بمعنى المنَّان المتفضِّل بصنوف الفضل والإحسان ( **إنْ ظهرَتِ المحاسنُ منِّي . . فبفضلِكَ ولك المنَّةُ عليَّ ، وإنْ ظهرَتِ المساوي منِّي . . فبعدلِكَ ولك الحجَّةُ عليَّ** ) هٰذا من أحسن ما يناجي به الحبيب ، ويتضرَّع به العبد الأديب ؛ وهو الاعترافُ لله بما أولاه من الإحسان ، وأفاضه عليه من النعم والامتنان ، وإقامته النفس مقام الاعتذار ؛ لأن المحاسن المشار إليها في كلام المؤلف . . هو ما يظهر على العبد من صنوف الطاعات ، وأفعال الموافقات .

وليس ذٰلك مقدوراً للعبد ، بل هٰذا فضلٌ أبرزه عليه من عين منَّته ، وأفاضه لديه من سابغ رحمته ، وإلا . . فمن أنت حتىٰ تقوم له بحق العبودية وأنت متلطِّخٌ بقاذورات البشرية ، منغمسٌ في غمرات الشهوات ؟! فأنىٰ يكون منك عملٌ صالح ؛ إن لم تخلص من رؤية الخلق وظهور النفس ؟! وهٰذا لا يصلح أن يقابل به ، أو يعرض بين أهل حضرته ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ .

فإذا حصل العبد علىٰ شيءٍ مما يصلح للعرض عليه من خالص عمل أو حالة حميدة . . فإنما ذاك بارزٌ على العبد من عين منَّته ، لا مقدرة للعبد علىٰ تخليصه وتزكيته .

وإن ظهرت المساوي ورذائل الأحوال وقبائح الأعمال . . فبعدلك ، ولك الحجة عليّ ؛ لأن نسبة الأفعال الملومة والأخلاق المشؤومة إليَّ نسبةٌ وإسناد ، وإلىٰ عدلِكَ خلقٌ وإيجاد ، وهٰذه حالة الأدباء ؛ يشهدون

المحاســن من الله ، لا نسبةَ لهم فيها ، ولا اقتدار لهم عليها ، ويشهدون نســبة المســاوي إليهم ، فيندمون عليها مع ما هم يشــاهدونه من سبق الإرادة بــذٰلك ، وحكم الاقتدار فيما هنالك ، فهم معتذرون منها ظاهراً ، مستسلمون للحكم باطناً ، ولي في ذٰلك :

فرؤيــة الفضل والإحســان نســبتها إلــى الإلٰه فــلا يأتــي بهــا ألاهُ
ومــا يكــون مــن الأســوا فنســبتها إلــى العبــاد وحكــم الله أنشــاهُ

* * *

وهٰذا مما يقتضي سرعة الإجابة والإسعاف والظفر بالمطلوب ؛ لأنه جاءه بوصفه ، واعترف له بنعمته عليه وفضله ، واعترف بتقصيره ، فلم يكن التفات إلىٰ غير فضله ، ومع ذٰلك هو مشاهدٌ لتقديره وعدله ، فجدير بنيل المطلوب .

فإذا كانت أسماؤه تقتضي ظهور آثارها . . أخذ في بيان تفاصيلها ، وأسماء الجمال هي التي يحسن أن يتضرَّع بها ، ويبتهل إليه بمضمونها ؛ لأنها تضمنت للعباد دقائق اللطف والوداد ؛ لذٰلك قال :

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتَ لِي ؟! وَكَيْفَ أُضَامُ وَأَنْتَ ٱلنَّاصِرُ لِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ ٱلْحَفِيُّ بِي ؟!

( إلٰهي ) بمعنى الوكيل الكافي الناصر الحفي ؛ وهو اللطيف ( كيفَ تكلُنــي وقدْ توكَّلْــتَ لي ؟! وكيفَ أضامُ وأنــتَ الناصرُ لي ؟! أم كيفَ أخيــبُ وأنت الحفــيُّ بي ؟! ) كيف تكلني إلىٰ نفســي وتهملني تائهاً في ظلمات حسِّــي ، وتحجبني عن مشاهدات أُنسي ، وفسيح حضرات

قدسي ؛ وقد تسمَّيتَ قبل بروزي بأنك الوكيل الحافظ الكفيل ؟!

فظهور اسمك الوكيل يقتضي توكلي في سائر أموري ، ولا تتركني موكولاً إلىٰ عجزي وضعفي ، وعدم علمي بما هو الأصلح لي ، بل يقتضي تأثيره في أن تتوكَّل لي في جميع حركاتي وسكوني ، وظهوري وبطوني ، وسائر أموري ، حتىٰ تصرفني بحسن اختيارك لي فيما هو المطلوب مني ، واللائق بمقام الشهود مني ، فتقيمني بك لا بي ، وتشهدني وجودك في الأكوان غائباً عني ، فانياً عن عالم كونيتي ، باقياً بك في ديمومية ملكك ، فأحيا حياة الأبد بقيومية الواحد الأحد .

وكيف أُضام بقهر الأنام وغلبة الأحكام وجور الحكام وأنت الناصر لي ؟! لأنك صرت لي وكيلاً ؛ وبسائر أموري كفيلاً ، فلم يبقَ لي علىٰ سواك تعويل ، فمن كنت له ناصراً وكيلاً ، ولأعدائه مقاوماً . . فلم يظهر عليه المتظاهرون ، ولا يعبأ بعدد الجنود المتناصرين ، قال صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله لوطاً ؛ لقد أوىٰ إلى الركن الشديد »[1] ، عند قوله : ﴿ أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

أم كيف أخيب من فضلك العظيم وكرمك العميم الذي نال[2] أهل الجحود والضلال وأنت الحفي اللطيف بي ؟! كما قلت : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ ، وقلت في سبوغ رحمتك وتجليل منَّتك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فكيف تخيب آمالي من عطائك ؟! وكيف ترجع بخيبةٍ مِنْ نصرتك وولائك ؟! أم كيف تعود آيسةً من روح منَّتك ورجائك ؟! حاشا صفاتك العلية وتجلياتك الأزلية عن ذٰلك ، ولي في ذٰلك :

(١) رواه البخاري ( ٣٣٧٢ ) ، ومسلم ( ١٥١ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) في ( أ ، ب ) : ( قال ) بدل : ( نال ) .

أنـت الوكيـل وكل الكـون مفتقـر إليـك يا كافـيَ الذَّراتِ فـي الأزلِ
فـلا تكِلْنـي إلىٰ نفسـي وأنت لها نعـم الوكيـل ونعم الناصـر العدل
فـلا يضـام نزيـل الله منتصـراً ولا يخيـب الـذي بـالله متصـل

* * *

ولطـف الله بعبـده لم يتخلَّف عنه في سـائر أحواله وإن كانت مؤلمة لـه ؛ فهـو أعلم بدقائق الألطاف ، **فلا يفارق العباد لطفه** ، فما يحمله إلا هـو ، وإذا علمت أَنْ لا وسـيلة للعبـد أرجىٰ من اعترافه بوصفه بين يدي سيده . . **أخذ المؤلف رحمه الله في التوسل إلى الله فقال :**

## هَٰأنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ

**والتوسُّـــلُ بالفقر** شـأن الأدبـاء ؛ إنهم لا يرون وسـيلة منهم أرجىٰ ولا أنفــع ولا أقرب من الاعتراف بــذلِّ العبودية ، عند مواجهة تجليات الربوبية ؛ فالإقرار بالافتقار بين يدي الغني الجبار . . صفة الأخيار .

والوســيلة : هي ما يقدِّمها المتوســل بين يدي من يتوسل إليه ، إذا كانت من خير الأعمال . . **سُميت وسيلة** ، وإذا كان من الوسائط . . **سمي شــفيعاً** ، وقد تسمى الوسيلة شفيعاً ، والشــفيع وسيلة ، **ولا مشاحَّةَ في اللفظ** إذا عُرف المعنىٰ .

**فـلا أرجـىٰ للعبـد عنـد الله مـن الوسـيلة مثـل اعترافه لـه بصفات** الكمال ، ولنفسه بالذبول والاضمحلال ، والإفلاس عن سائر الأعمال ، والغيبة عن الأفعال ، **فلا يجد ما يتوسل به إلىٰ مولاه** إلا عدم حيله ،

وفقد علمه وعمله ، فيكون في حال قيامه في الأعمال غائباً عنها ، وفاقداً لها ، مفتقراً إلىٰ سيده الكريم ، وخالقه الرحيم ، ولي في ذٰلك :

توسلي بافتقاري للذي نزلت ... به الحوائج جل الواحد الأحد
فلا تروم نوالاً قط ما عدلت ... عن بابه من سواه الخير لم تجد

※ ※ ※

فلما كان التوسل بالفقر يقتضي ألا يكون للأغيار وجود ، ولا للأعيان شهود ، والفقر لا يناسب الغنىٰ ، ولا مناسبة بين الوجود والعدم ، ولا بين الحدوث والقدم . . قال المؤلف رحمه الله :

## وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ

كيف يكون التوسل إليك مني بفقري ولا نسبةَ بين فقري وغناك ، ولا بين نعتي ووصفك ؟! والمتوسل إلى المتوسل إليه لا بد أن تكون نسبة يتوصل بها إليه ، فكيف يتوصل إلى الله بما هو محالٌ عليه ؟!

فرؤية الفقر تنبئ عن بقية رؤية شهود غير ؛ إذ الأحوال في حضرة التوحيد أغيار ، والفقر من جملة الأحوال ، فلا سبيل إلىٰ تحقيق الفقر إلا بالغيبة عنه ، وما لم تغب عنه . . فأنت بعدُ لم تفنَ عن رؤية أحوالك ، وحضرة التوحيد لا يليق فيها شهودُ غيرِ الواحد الأحد .

فإذاً ؛ لا وسيلة إليه بسواه ، ولا اعتماد علىٰ من دونه في جميع ما يهواه ودفع ما يخشاه إلا إياه ، ولي في ذٰلك :

كيف التوسل في نيل المراد بما لا نسبة بينه والله مولانا
هٰذا في القرب فأعرف حقَّ رُتْبته أما إذا كنتَ في الأسباب فالآنا

وهٰذا رتبة في القرب ، وأما في مقام المعاملات . . **فهو المطلوب منك** ؛ كما قلت في البيت : ( أما إذا كنت في الأسباب . . فالآنا ) أي : آن لك أن تكون كذٰلك مقدماً **لافتقارك وتقصيرك واعتذارك** .

❊ ❊ ❊

ولما كان حال القرب والشهود يقضي بأن الشكوىٰ تشير إلى الغيبة عن المشهود . . **قال المؤلف رضي الله عنه :**

## أَمْ كَيْفَ أَشْكُو حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ؟!

**الشكوىٰ** : هي كشف الحال ، وإظهار الحال عن مكنون السؤال ، وذٰلك لا يكون لمن غاب عنه مكنونات الأحوال ، وعريت عنه خفيات الأفعال ، وذٰلك على الله محال ، **كيف وهو العالِم بها قبل بروز العالَم** من العدم ، وظهور أعيان الأمم ؟!

وذٰلك أيضاً عند شهود حقيقة الكشف والعيان **يتأدَّبُ عن خطوره على الجَنان** ؛ بأن يتوهم غفلة أو نسيان ، وأما بروزه على اللسان بالتضرع إلى الديَّان . . **فلا حرَج إذا كان عبودية واستيقان** ؛ أنه لا يكون إلا ما قد كان ، **ولي في ذٰلك :**

فكيف أشكو إليك الحال يا صمد وأنت عالم بما فيها من الشجنِ
أم كيف لا وأنت أهل أن تكون لها رباً تشكو إليك عظيم البث والحزنِ

**أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ إِلَيْكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ ؟!**

( **أم كيف** ) أي : عجباً كيف أترجم ؟! والترجمةُ : التفهيم باللسان عما انطوىٰ عليه الجَنان ، فكيف أبين أمراً وأنت الذي أبرزته علىٰ جَناني قبلَ أن تنطق به لساني ؟! فعلمك المحيط الذي أحاط بأوائل الأمور وأواخرها ، وببواطن الأعيان وظواهرها ، فكيف الترجمة هنالك ؛ وإظهار ما هنالك ؛ إذ شاهد الحقيقة ذٰلك ؟! اللهم إلا أن تكون الترجمة باللسان عبوديةً للرحمٰن ، وإظهاراً لسرِّ غناه في شهادة الأعيان ، فذٰلك مطلوبٌ أيضاً من الإنسان في الشرائع والأديان ، ولي في ذٰلك :

فالترجمان لمن لا يفهم الخبر والله جلَّ عن التشبيه بالبشرِ
لا تركننَّ إلى التمثيل بالغِيَرِ ولا تعطله عن عينٍ ولا أثرِ

**أَمْ كَيْفَ تَخِيبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ وَإِلَيْكَ ؟!**

فهٰذا من المصنف انعطاف ، إلىٰ نيل الظفر والإسعاف ، بمزيد الألطاف ، وتملُّق بما تحقق من عظيم الفضل والإتحاف ، بنيل مأمول الوصل .

وهٰذا هو تحقيق رجاء السالكين ، وبغية نجباء المريدين ، وثمرة غرس أعمال الصادقين ؛ أن يتحقَّقوا في الله بحسن الظن ألا يخيب آمالهم الوافدة عليه ، والمتوجِّهة بكلية همَّتها إليه .

والوفد : هو وصف القادم النازل المحبوب المفروح بقدومه ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ .

**( أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك )** بفنائها عن نسبتها بسائر أحوالها وقواها ؟! وهٰذا من المصنف إشارة منه إلىٰ تطوره في مظاهر الحقيقة وترقِّيه ، ولي في ذٰلك :

فكيف ترجع آمالي وقد وفدت إليك خائبة حاشاك يا صمدُ

وكيف لا تحسن الأحوال وهي كذا إليك نسبتها بالجود والمددِ

❁ ❁ ❁

فلما أنس من فضل الله ما لم يكن له به استعداد ، ورأىٰ من تجلِّي سرِّ الوداد ما زاد على المراد . . أخذ في الاعتراف له بذٰلك ، وعدم استحقاق نفسه لما هنالك ؛ وذٰلك مما يعطيه مقام المعرفة ، فقال :

**إِلَـٰهِي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!**

( إلـٰهي ) بمعنى اللطيف بي والحليم عني **( ما ألطفَكَ بي مع عظيمِ جهلي !! وما أرحمَكَ بي مع قبيحِ فعلي !! )** إلـٰهي ، ومنتهىٰ آمالي ، وبغية لطائف أحوالي ؛ **ما ألطفك مع عظمتك وعلو كبريائك بي ؛** لمهانة صورتي وعظيم جهلي .

فلولا عظيم لطفك بي . . لما تخلفت عني عقوبة جرائمي ، وهٰذا شأن أهل الإيمان ؛ كما روي في الحديث : « إن المؤمن يرىٰ ذنبه كالجبل يخشىٰ أن يقع عليه ، وإن المنافق يرىٰ ذنبه كالذباب علىٰ وجهه قال به

هٰكذا »[1] ، فرؤيتــه لذٰلك توجب الحياء مــن الله ، والوقوف علىٰ حدِّ العبودية بالافتقار والذلة والانكسار .

**وما أرحمك بي** ؛ لأن سرَّ رحمتك هو القيام بوجودي مع قبيح فعلي ، **فقبيح الفعل** : ما يجترحه العبد علىٰ خلاف أمر سيده ، فلا أقبح فعلاً ممن يستعين بعطائه وغوامر آلائه علىٰ معاصي سيده ، **فهٰذا أقبح كل قبيح** !! فلولا عميم رحمته وشمول رأفته . . لأدركت العاصين لله أنواعُ العقوبات ، علىٰ ممر الساعات واللحظات ، **ولي في ذٰلك** :

لطائــف الله للإنســان شــاملةٌ     وإن تعاظـم جهـل فـالإلٰه علـي
ورحمــة الله فــي الأكــوان ســابغةٌ     لا تمتنِـعْ بقبيــح الفعــل والزلــلِ

❁ ❁ ❁

**قال المؤلف رضي الله عنه :**

## إِلَـٰهِي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي !! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ

**( إلٰهي )** بمعنى اللطيـف في عظمته والداني فـي رفعة تعاليه **( ما أقربَـكَ منِّي !! ومـا أبعدَني عنك !! )** ما أقربك بشـمول إحاطتك بي ، واستغراق معيتك لباطني وظاهري وسائر لطائفي ، وقيام أمرك علىٰ سائر أحوالي ، وشهودك لسائر شؤوني المكنونة ، وسائر أعمالي المتلونة ، **وما أبعدني عنك في المناسبة والمشاكلة** ، وفي الذات والصفات والأفعال .

وذٰلك لظهور حكمته البالغة أن أوجد الخلق وجعل لهم ذوات

(1) رواه بنحوه البخاري ( ٦٣٠٨ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وصفات وأفعالاً ؛ لتظهر عظمة ربوبيته العلية ذاتاً وصفات وأفعالاً على هٰذه الرقعة العبدية ذاتاً ووصفاً وفعلاً ، ولي في ذٰلك :

قُـرْب الإلٰه مـن الأشـيا برحمتـه ... ومـا أحـاط بها مـن علمـه الأزلي

ويُعْدها عنه من حيث الصفات كما ... الـذوات كـذا الأفعـال لا مثـل

فمقام رؤية البعد : هو الذي يردُّ العبد إلى الطلب ، ومقام القرب : هو الذي يعطيه كمال الأدب ، وكلا الحالين في حق أهل الله خير ؛ فإن أقيموا في رؤيتهم لوجودهم . . فلما يقتضيه منهم من حق العبودية ، ويسمىٰ عندهم بُعداً عن شهود تجلي أسرار الربوبية ، لا البعد الذي عُني به أهل الحجاب المبعدين في دركات العذاب .

* * *

وإذا تجلَّـىٰ عليهم بكمال صفاته ، ولاحت لأسـرارهم أنوار ذاته . . كانوا بالحقيقة مجموعين ، وعن شـهود الأغيار ممنوعين ، وهو القرب الذي أشـار إليه ، وعند تجلي هٰذا المشـهد الرحموتـي قال المؤلف رضي الله عنه :

**مَا أَرْأَفَكَ بِي !! فَمَا ٱلَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟!**

لمَّـا رأىٰ من عظيم القرب ما غيَّـبَ عنه ظهور الأغيار ، وطمس عنه رؤيـة الآثار . . قـال : ما أرأفك بـي !! فالرأفة مـن خصائص فائضات الرحمـة ، فلذٰلك تسـمَّىٰ بالـرؤوف ، فقـال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فالرأفة : ظهور أثر الرحمة على المرحوم ، فما الذي يحجبني عنك وليس لي مشهود سواك ولا موجود إلا إياك ؟! ولي في ذٰلك :

في رأفتكْ علقتْ الأمال يا صمد — وكشف نور جمال الحق مشهود
فكيف يُحجب من نالته منك يد — ولا يضام نزيل الفضل والجود

* * *

فمن آثار تلك الرأفة وظهور تلك الرحمة : ما أشهده قلوب أوليائه ، واختصَّ به أرواح أصفيائه ؛ من ظهور رحمته في كل شيء ، **فلا يواجهون في الأشياء إلا سر رحمته** ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

**إِلَـٰهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِٱخْتِلَافِ ٱلْآثَارِ ، وَتَنَقُّلَاتِ ٱلْأَطْوَارِ : أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ**

( **إلـٰهي** ) بمعنى الظاهر لي برحمته ، والمتجلِّي لي في كل شيء بتمام نعمته ، وكمال منَّته ، وعظيم محبته ( **قد علمْتُ باختلافِ الآثارِ ، وتنقُّلاتِ الأطوارِ** : أنَّ مرادَكَ منِّي أنْ تتعرَّفَ إليَّ في كلِّ شيءٍ ، حتَّىٰ لا أجهلَكَ في شيءٍ ) وهـٰذا العلم الذي أشار إليه هو ما اختصَّه الله به من علمه المكنون ، وسرِّه المخزون ، الذي مَن علمه . . ارتقىٰ به إلىٰ رتبة الكشف عما دخل تحت تكوين الكاف والنون .

وإذا علَّمَ الله عبداً هـٰذا العلم . . **كان حكيماً** ، وهو الحكمة المؤتاة التي مَنْ أُوتيها . . **فقدْ أُوتي خيراً كثيراً** باطناً وظاهراً .

**واختلافها** ـ أي : الآثار ـ تبصرة لذوي الأبصار ؛ ففيها ما لا يخفىٰ من تصاريف الاعتبار ، ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ ، **فعبر أهل الاعتبار إلىٰ تحت ستور الآثار** من اسمه النافع أو الضار ، وغير ذٰلك من تقلبات الآثار .

فلــو كان أقمتني في حالة واحدة لم تنقلني عنها : ضارة أو ســارة ، حلوة أو قارة . . لكنــتُ ناقص المعرفة عن كمال ظهورك في متعددات مظاهر ألوهيتك .

فــإذا كان ما يتجلّىٰ به من المؤلمات والملائمات مما يورث العارف زيادة معرفة . . فكانت الأشــياء له كلهــا تعرُّفات خاصة ونعماً من الله ســابغة ، وهو بعض وجوه الآية في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ، كما سمعنا ذٰلك غير مرةٍ من شيخنا العارف بالله السيد الشريف عمر بن عبد الرحمٰن علوي نفع الله به : أن النعم الظاهرة : هو ما ظهر مــن النعم ، والباطِنة : ما انطوىٰ مــن التعرُّف في المحن ، وكتب بذٰلك مستشهداً به للشيخ علي بن محمد[1] بامزاحم ساكن بروم لما شكا إليه بعض ما ناله من المحن .

وإذا كان الأمر كذٰلك . . فالنعمة الباطنة فيها ما لا يخفىٰ من المزيد لســائر العبيد ؛ أما المقربون . . فلمــا تزداد به معرفتهم التي يصغر إلىٰ جنبها كل شيءٍ من أصناف النعيم .

وأما أصحــاب اليمين وعموم المؤمنين . . فلمــا ينالون من الثواب الجســيم ، ويكفر عنهم من الســيئات ، ويدفع عنهم من العقاب ؛ كما وردت بذٰلك كله الأخبار ، وشهدت به الآثار .

وهٰذه التأثيــرات كثيرة ؛ مثل : الصحة والمــرض ، والغنىٰ والفقر ، والعز والذل ، والطاعــة والمعصية ، ولك فيما ظِهر منها تعرُّف خاص ، من تجلِّي اســمٍ خاص ، ولا يكون شاهداً للاســم وغائباً عن المسمىٰ ، وغاية النعيم ومنتهىٰ كل مقصد ومطلب . . هو شهوده ، وتحقق وجوده .

---

(١) في ( أ ) : ( ابن أحمد ) بدل : ( ابن محمد ) .

وأما تنقلات الأطوار . . فهي تنقلات الأحوال وتغاير الواردات ، فهي من متعلقات القلوب ، وتجليات أسـرار الغيوب ، فهي لأرباب القلوب مشـهودة ، وعند ذوي الأحوال موجودة ؛ كالقبض والبسـط ، والخوف والرجـاء ، والهيبة والأنس ، والوجد والفقـد ، وكل ذٰلك أيضاً تعرُّفات وصفيـة وتجليات ذاتية ، يعرفها من وصـل إليها ، وتحققها من طافت بسرِّه لديها ، وأما عموم الخلق . . فليس لهم إلىٰ تنقلات الأطوار سبيل ، وإنما هم في شهود اختلاف الآثار .

والإرادة محيطـةٌ بـكل ذٰلك ، لا تنقلب عنها لمحـة ناظر ولا فلتة خاطر ، ومن أشـرف علـىٰ علم الإرادة . . كان تـاركاً لاختياره ، راضياً عن الله في جميع ما يوصله إليه من نفع وضر ، فلا أعز منه علماً .

فمن أراد غير ذٰلك ـ أي : رأىٰ أن يكون بحالة يختارها لنفسه ـ . . فقد أعوز المعرفة ؛ فعبد الله يسأل الله أن يشعره لطفه وحسن اختياره له في كل ما قضاه ، ولا يطلب أن ينقله عن حالةٍ هو فيها إلا ما قد علم أن الله يرضاه له ، كالإيمان مثلاً ؛ فإنه يطلب الثبوت عليه ، وكل ما علم أنه لا يرضاه له ؛ كالكفر وما والاه . . فيطلبُ اللهَ أن يحفظه عنه ويعصمه منه ؛ وذٰلك لأن كل ذٰلك ليس من تدبير العبد واختياره ، بل من تدبير الله واختياره ، والشر فيه ظاهر ، والإيمان أيضاً الخير فيه ظاهر ، بخلاف ما عدا ذٰلك من سائر الأحوال ؛ فالأمر فيه غيبٌ لا يدري العبد خيره من شره ، فيكون عبدَ الله حيث أقامه ، ولا يكون ممن قلَّ فهمه عن الله ؛ إن ورد عليه غير ملائمٍ لطبعه وموافقٍ لحظه . . سخط وتبرَّم ، فيصدق عليه قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ . . . ﴾ الآية .

ولٰكن المطلوب من العبـد : أن يكون حريصاً علىٰ حق العبودية لله

فـي كل حالـة تردُ عليه من الله ؛ فأمـا إن كانت من قبيل النعمة . . فحقُّ العبـد أن يقوم لله فيها بالشـكر ، وإن كانت من قبيل الطاعة . . فشـهود المِنَّة لله ، وإن كانت من قبيل الذنب . . فالتوبة والاستغفار ، وإن كانت مـن قبيـل البليـة . . فالصبـر ، فالأمر دائـر علىٰ هـٰذه الأحـوال ، ولي في ذٰلك :

لقـد علمـت بـأنَّ اللهَ حكمتـه ... فـيِ اختلافـات آثـار المقاديـر
ومـا تلـوَّن مـن حـالٍ برحمتـه ... في ما كمنْ تحت مكنون التباشير
أن يشهد العارف أنَّ الكل نعمته ... فـي كل واردٍ مـن حكـم المقاديـر
لـه زيـادة قـرب أو نيـل منتـه ... تحـت المعاني وأطـوار التصاوير

**إِلَـٰهِي ؛ كُلَّمَـا أَخْرَسَـنِي لُؤْمِـي . . أَنْطَقَنِـي كَرَمُكَ ، وَكُلَّمَا آيَسَـتْنِي أَوْصَافِي . . أَطْمَعَتْنِي أَوْصَافُكَ**

( إلـٰهي ) بمعنى المولى الكريـم المتفضِّل ، المحسـن الغني ، ذي الصفات العلا والأسـماء الحسنىٰ ( **كلَّما أخرسَـني لؤمي . . أنطقَني كرمُكَ ، وكلَّما آيستني أوصافي . . أطمعَتْني أوصافُكَ** ) .

**كلما** : يقتضي التكـرار كذٰلك ، والعبد أبداً واقع في الأفعال التي تورث اللوم بين يدي سـيده ؛ **لأن العبد ناقص في الأصل** ، فلا يصدر عنـه من الأفعال إلا النقـص ، والأفعال متفرعة عـن الذات الصادرة عنها .

وقـد علمت ما ذات العبـد عليه من النقص ، فإذا شـهد ما منه من الأفعال الناقصة الملومة والخصال الرذيلة المذمومة . . **أخرسـت لسانه**

عن الكلام ، وإذا أشهد الصفات العلية ، والنعوت الكاملة الأزلية . . غابت عنه صفاته ، واضمحل عنه شهود ذاته ، فرأى الكمال العلي نطق وأوسع في الكلام ، كيف لا وقد لاح تيار الكرم العميم والفضل العظيم ؟! فأنىٰ يفنى المقال بعبارته ، أو تفصح المقالة بإشارته ؟!

كلا لا يصل تعبير المعبرين ، ومقال المتبحرين إلىٰ غبرة من رماله ، ولا رشحة من بحار نواله ، فكيف يقصر في الكلام عند شهود مواهب ذي الكرم والجود ؟! أو كيف ييئس عند تجلي اسمه الرحيم الودود ؟! فهنا طمع في نيله أهل المعاصي والجحود ، فكيف بأهل الإيمان والشهود ؟! ولي في ذٰلك :

فكلما أخرستني قبح معصيتي ... لا شك تنطقني من وصفك الكرم
وكلما آيستني كل مفظعة ... مني إليك طمعت في فضلك العمم

❊ ❊ ❊

ثم أخذ المؤلف في بيان ما العبد متَّصفٌ به من النقص في ما يصدر منه علىٰ صورة الكمال ، فقال :

إِلَٰهِي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِيَ . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيهِ مَسَاوِيَ ؟! وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِيَ . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِيَ ؟!

( إلٰهي ) بمعنى الكامل الموصوف بصفات الكمال ، والمنعوت بنعوت الجمال والجلال ( مَنْ كانَتْ محاسنُهُ مساوي . . فكيفَ لا تكونُ مساويه مساوي ؟! ومَنْ كانَتْ حقائقُهُ دعاوي . . فكيفَ لا تكونُ دعاويهِ دعاوي ؟! ) إذا كانت المحاسن المنسوبة مساوي ؛ لما قارنها من

النقص في النشـأة ، وما يصحبها من القـوادح الموجبة للبعد عليها إن لم يزكها الله ، ويخلصها من ذميـم الإرادات الدنيئة . . فكيف لا تكون المساوي الظاهرة منه مساوي ؟!

والإنسان إذا لم يلاطفه الله ويتداركه بعصمته . . لا يخلو عن سيئةٍ يستوجب العقوبة إن لم يتجاوز عنه الله ويعف ؟! وذٰلك لأنه انطوت في طي جبلته جميع الطبائع الحيوانية ، والصفات البهيمية ، والأخلاق الضارية السبعية ، فكيف يتصور خلوه عن شيءٍ طبع في أصل خلقته ، وانتقش في طي جبلته ؟!

اللهم إلا أن يتفضَّل الله بفضله ، فتحيط به العناية الأزلية ، فتعلو فيه الصفات العلوية الصافية السماوية ، فتقهر تلك الصفات الأرضية ، وتتوالىٰ عليه الواردات الإلـٰهية ، والأسرار الحقية ، والأنوار الوصفية ، فلا جَرَمَ حينئذٍ أن يكون عليه من الكمال الإلـٰهي ما يرفعه عن حضيضه السافل ، ويلحقه بذروة الأوج الكامل ، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، ولي في ذٰلك :

محاسـن العبـد إن ينظـر إليه يرىٰ      فيهـا المسـاوي وكلٌّ فيـه منـدرجُ
كيف المساوي إذا حققت ذاك فما      يخلو عن السوء فيما قيل والحرج

( ومن كانت حقائقه ) فيما يزعم أن هناك للعبد حقائق . . فهي ( دعاوي ) لأن مسندها إلى العدم والعجز ، ( فكيف لا تكون دعاويه ) الظاهرة التي لا يخلو عنها أيضاً كل إنسان . . . [ دعاوي ] إلا من حققه الله بالشهود والعيان ؟!

فمن جملتها : شهود الغنىٰ له في ذاتٍ أو صفةٍ أو فعل ، ونسيان الافتقار كذٰلك أبداً ، فهـٰذا من الدعاوي ، بل كل دعوىٰ لم تصدر إلا

فرعاً عن هٰذا المشهد ، ولي في ذٰلك :

حقائق العبد في النسبةْ إليه سدىً فلا لها مستندٌ في الأصل يعضدها
فكيف ما كان من دعوىٰ بغير يدٍ بيان بطلانها أن ليس يشهدها

**إِلَـٰهِي ؛ حُكْمُكَ ٱلنَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ ٱلْقَاهِرَةُ . . لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالاً ، وَلَا لِذِي حَالٍ حَالاً**

( **إلـٰهي** ) بمعنى القاهر الحكيم ( **حكمُكَ النافذُ ومشيئتُكَ القاهرةُ . . لمْ يتركا لذي مقالٍ مقالاً ، ولا لذي حالٍ حالاً** ) شهود نفوذ الحكم من غير مبالاة بالأسباب ، وقهر المشيئة وغلبة الأمر . . **هو الذي قطع قلوب الخائفين** ، وذلت له ألباب العارفين[1] ، فإن [ نظرت إلىٰ ] ذي مقالة فصيحة ، فغلبه الحكم ، فسُلبت . . [ فانظر إلىٰ ] : بلعام [ بن باعوراء ] بعد أن كان ـ كما قيل ـ يكتب عنه العلم ، فخرج من فيه كالحمام ، أو كما قيل .

وإن نظرت إلىٰ رفعة المحل وقوة الحال . . فلا أنزهَ من صفيح السماء ؛ فإن إبليس غلب عليه سابق الحكم ، وانبرم علىٰ شقائه سجل الأمر ، أنزل كما ترىٰ وطُرد ـ والعياذ بالله من سوء المقدور ـ مع ما كان عليه من قوة الحال ، ورفعة المحل ، كما كان يعبد الله أربعة آلاف عام ، فكفىٰ بذٰلك مخوفاً لذوي العقول السليمة ألا يسكنوا إلىٰ شيء مما يبدو منهم من العلم أو العبادة ، وأن يكونوا كلما ازدادوا علماً . .

(١) في ( ب ) : ( ودلّه ألباب العارفين ) ، وفي ( د ) : ( وولّه ألباب العارفين ) .

ازدادوا خشية لله تعالىٰ وخوفاً من أليم المكر وشدة سطوات القهر ، ولي في ذٰلك :

نفوذ حكمك في الأشيا بلا سبب    هو الذي حيَّر الألباب والمهجا
وللمشيئة قهرٌ لا يغالبه    حال فكم فيه من علم قد اندرجا

ثم أخذ في بيان الأسباب التي يرجو بها العبد الفوز عند الله ، فقال رضي الله عنه :

**كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا ، وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا ، هَدَمَ ٱعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ**

( **كم من طاعة بنيتها** ) **والطاعة** : هي صفة قيام ظاهر العبد بالفعل المأمور به ؛ من قول أو فعل : جازم وغير جازم ، **فالجازم** : هي الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة ؛ كفرائض الإسلام ، **وغير الجازم** ؛ كنوافل الطاعات .

**وبنيتها** : هو الإتيان بها علىٰ وجه الاستقامة ، وحفظ سائر حدودها ؛ من أركان وشروط وسنن ، واجتناب منهياتها حرمة وكراهة ، وفعل ما هو الأولىٰ فعله ، وترك ما الأولىٰ تركه ، وغير ذٰلك من وجوه الحفظ ، وتحري المحافظة .

**والحالة التي شيدتها** : هي حالات القلب من **تخليته** من رذائله ، **وتحليته** بمحاسن صفاته ، وإمعان النظر بغاية الجهد في دقائق خطراته ، ولطائف حركاته ، حتىٰ بلغت ما هو المقدور من جهدي في ذٰلك ،

فاعتمدت علىٰ ذٰلك ، واستندت إلىٰ ما هنالك ، وطال لديَّ ذٰلك .

فلما انكشف لي عن نعوتك العلية ، وصفاتك السنية ، وتجلياتك الأزلية التي لا تعلَّلُ بعلة ، ولا تكتسب بحيلة ، وظهر من أسمائك الجلالية اسمُكَ العدل الذي لا يرد حكمه بسبب طاعة أو حسب أو نسب ، تعذب من تشاء وإن كان طائعاً ، وتغفر لمن تشاء وإن كان عاصياً .. هدم ذٰلك اعتمادي علىٰ ما كنت معتمداً عليه دونك ، فهربت منها إليك ، ومن كل شيءٍ دونك ، ورأيت أن الاعتماد على الأسباب دون مسببها ممَّا يوجب العقاب ، فاستقلْتُك مما كنت عليه معتمداً دونك ، فأقالني فضلُكَ الذي هو معتمَدُ الهاربين ، ومنتهىٰ رغبات الآملين ، ولي في ذٰلك :

كم طاعة كنت أحسنت القيام بها ... وكنت فيها كثير الهم مجتهدا
وحالة طال ما كنت اعتنيت لها ... بتزكيتها مع الأنفاس مرتصدا
لما تجلىٰ ظهور العدل عطَّلها ... حتىٰ علمت أنما غير الإلٰه سدىٰ

إِلَـٰهِي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمِ ٱلطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً وجَزْماً .. فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً

( إلـٰهي ) بمعنىٰ معبودي العالم بتفاصيل أحوالي ، وجريان أفعالي ، قبل مظهر صورتي وصور أعمالي ( إنَّكَ تعلمُ وإنْ لمْ تدمِ الطاعةُ منِّي فعلاً جزماً .. فقدْ دامَتْ محبَّةً وعزماً ) كما أوجدت فيَّ ، وطبعت عليه جبلتي .. علمتُ ـ لا محالة ـ أنك تعلم ذٰلك مني ؛ إذ لا تخفىٰ عليك تفاصيل أحوالي وجريان أعمالي .

وأنا أجد أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً وجزماً ؛ كما هو شأن الدائبين على عبادتك ، والعاكفين في حضرة قدسك ، الذين لا يسأمون ، ولا يستكبرون عن خدمتك ، فأنا وإن كنت [ لستُ ] كذلك فعلاً وجزماً .. فأنا دائمٌ محبةً وعزماً ؛ أي : محب لها وللعاملين بها ، وقد ورد على لسان نبيك صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب »[1] ، وأنا أحبُّ أن أعمل بها وأحب العاملين ، وعازمٌ على فعلها في كل آنٍ ، فأكون بنية القصد والعزم عليها في زمرة العاملين ، وذلك غير مستنكرٍ ولا مستبعد ؛ كما وردت بذلك الأخبار الدالة على أن العازم على فعل الطاعة في طاعة[2] .

والعزم : هو عقد القلب على فعل ذلك ؛ فهو في ديوان الطاعات إن كان طاعة ، وفي ديوان المعاصي إن كان معصية ؛ لأن العزم هو تصميم القلب على الفعل ، فما بقي إلا عزم تقدير الحركة فيه ، والعجز عن الإتيان به ، ويبقى كذلك حتى يجد مساعدة القدر له فيفعل ، ومتى وجد ذلك ولم ينهض له .. فليس بعازم ، ولي في ذلك :

فأنت تعلم أني فيك مبتغياً لطاعتكْ يا عظيم الفضل والمِنَنِ
حباً وعزماً لذاك السِّر مرتقياً إليك يا منتهى الآمال والسنَنِ

❊ ❊ ❊

فالعزم : مقتضى شهود العبد لأمر سيده ، والقهر : مقتضى فناء العبد عن سائر أفعاله ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

---

(١) رواه البخاري ( ٦١٦٨ ) ، ومسلم ( ٢٦٤٠ ) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) كقوله صلى الله عليه وسلم : « من هم بحسنة فلم يعملها .. كتبت له حسنة » ، وقد رواه البخاري ( ٧٥٠١ ) ، ومسلم ( ١٣٠ ) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لَا أَعْزِمُ وَأَنْتَ ٱلْآمِرُ ؟!

( إلـٰهي ) القاهر لمن سواه ، المعبود مستحق الامتثال ممن عداه ( كيفَ أعزمُ وأنتَ القاهرُ ؟! وكيفَ لا أعزمُ وأنتَ الآمرُ ؟! ) هـٰذا مقامٌ يشير إلى النهاية والتمام ؛ إذ شهود القهر الذي هو وصف الحق يقتضي من العبد ألَّا يكون له حركة ولا سكون في كليات أفعاله وأحواله ، ولـٰكن من وقف علىٰ ذٰلك دون شهود أمره . . وقع في التعطيل والجبر .

وكيف لا أعزم وأنت الآمر ؟! لأن شأن العبد المبادرة لامتثال أمر سيده إلىٰ ما ندبه إليه ، وانزجاره عما زجره عنه ، فإذا كان علىٰ ما ذكرنا ممتثل الأمر ومنزجراً عن النهي مع شهود فنائه عن سائر أفعاله ، واضمحلاله عن كليات أحواله . . فقد قام بحق العبودية ظاهراً ، وتأدَّبَ للربوبية باطناً ، وهـٰذا غاية مطلب العلماء ؛ إسقاط سائر الأحوال والقوىٰ منهم باطناً ، والاستقامة علىٰ حد الأمر ظاهراً ، وبذٰلك وصلوا إلىٰ صرف الحرية ، ووقفوا علىٰ حقيقة الأمر ، ولي في ذٰلك :

فكيف أعزم وأنت القاهر الأحد ... وكيف لا وأنت حقاً الآمر الصمد
هـٰذا الشهود مقام العبد بالرصد ... يكون فانٍ وباقٍ طالب المدد

إِلَـٰهِي ؛ تَرَدُّدِي فِي ٱلْآثَارِ ، يُوجِبُ بُعْدَ ٱلْمَزَارِ ، فَٱجْمَعْنِي عَلَيْكَ ، بِخِدْمَةٍ تُوَدِّينِي إِلَيْكَ

( إلـٰهي ) بمعنىٰ مقصودي ، ومنتهىٰ آمالي ، ووجه قلبي ، ومرادي

في توجهي وإرادتي ( ترَدُّدي في الآثارِ يوجبُ بُعدَ المزارِ ، فاجمعْني عليكَ بخدمةٍ توَدِّيني إليكَ ) .

**الترَدُّد في الآثار** : هو الانتقال في الأطوار ، وبقية التعلُّق بالأغيار ، والطمع في جنةٍ أو خوف من نار ، أو ترقب أنوار ، أو مخاطبات للمقامات والأسرار ، أو تردُّد بين البراري والديار ، واستئناس بالأهل والجار ، والركون إلى المألوفات ، والاغترار بزخارف الإنعام والعقار ، وغير ذٰلك ولو إلى الألحان ومطربات الأوتار وتغريد الأطيار ، فكل ما سوى الأحد القهار . . **فالركون إليه أستار وبُعْدُ مزار** .

**وقرب المزار** : هو رفع الحجب والأستار [ عن ] الحسن الذي منه استعار كل ذي حسنٍ حسنه ، وبنوره كل كائنٍ استنار ، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

وكلما نأت بالمحب عن حِبِّه الديار . . **تكاثرت مظاهر الآثار** ، وتكاثفت الأستار ، فلما أحسَّ ذٰلك . . **سارع إلى الفرار** ، ومدَّ أكف السؤال والافتقار في أن تتداركه من هٰذه المهالك والأخطار ، فقال بلسان الاضطرار : ( **فاجمعني عليك** ) لكثرة تغاير الأغيار ، ومدلهمَّات ظلمات الآثار ، **فالجمع عليه** : ألَّا يجعل فيه مساغاً لإرادة مراد غيره ، ولا اتساعاً لشهود سواه ، فيفر إليه مما سواه ، حتىٰ يفر إليه من فراره .

**والخدمة المؤدية إليه** هي إدامة ذكره ، وإتمام فرائضه ، وتكميلها بنوافل الخيرات ، مع فنائه عن شهود نفسه في ذٰلك ، وعدم اعتماده عليه ؛ وذٰلك لما روي في الحديث القدسي : « **ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه . . .** » الحديث بطوله[1] ، وإذا كان كذٰلك في

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ٢٣١ ) .

الخدمة دائباً ، وللمنَّة شاهداً ، وللنعمة شاكراً ، وفي البلية صابراً ، وعن المعاصي تائباً . . فقد حصل بعون الله على الاستقامة على جادة الطريق المثلى ، فالمرجو من فضل الله ـ كما يسَّرَ له تلك الأسباب ـ : ألَّا يغلق دونه الباب ؛ إذ هو المتفضِّل الوهَّاب ، ولي في ذلك :

تـرددي بيـن آثـارٍ وأغيـارِ موجبٌ لبعدي عن الأحباب والدارِ

فيـا غياثـاً لملهـوف ومحتـار اجمـع عليـك بطاعـات وإيثـارِ

**إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ ٱلظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ، حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ ٱلْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَىٰ غِبْتَ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِلَىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَىٰ بَعُدْتَ حَتَّىٰ تَكُونَ ٱلْآثَارُ هِيَ ٱلَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!**

( إلـٰهي ) بمعنى الظاهر الأحد المبدع لأصناف الفطر ، والمظهر لسائر المعاني والصور ( كيفَ يستدلُّ عليكَ بما هو في وجودِهِ مفتقرٌ إليك ؟! أيكونُ لغيرِكَ من الظهورِ ما ليسَ لك حتىٰ يكونَ هو المظهِرَ لك ؟! متىٰ غبْتَ حتىٰ تحتاجَ إلىٰ دليلٍ يدلُّ عليكَ ؟! ومتىٰ بعُدْتَ حتىٰ تكونَ الآثارُ هي التي تُوصلُ إليـكَ ؟! ) هـٰذا تعجبٌ ممن يظن أن الموجودات تدل عليـه ؛ وإنما [ ما ] دلت عليه إلا من حيث ما أعطاها من الوجود ، ولو لـم يكن ذلك . . لم يكن لها في ذواتها وجـود ، فدلَّ ذلك علىٰ أنه ما دلَّ عليـه من قبلها إلا وجودُهُ فيهـا ، لا هي من حيث هي ، فهو الدليل علىٰ نفسـه لا غير ؛ إذ افتقارُها في إيجادها وإمدادها في قيام وجودها أدلُّ دليلٍ على انعدامها ، وأبينُ برهان علىٰ ظهور موجدِها ، وممدِّها في

قيام وجودها ، فمتىٰ غاب ؟! ولو غاب .. لم يكن للوجود بأسره وجود ، وديموميته برهانُها قيامُ العالم ، واستمرار وجوده ..

فأرباب الشهود والعيان غنوا بما واجه قلوبهم من ظهوره ، وشروق نوره ، فلم يحتاجوا إلى الاستدلال عليه بما هو مفتقرٌ في وجوده إليه ، وكل ما سواه كذٰلك موسومٌ بالافتقار إليه ، ظاهر عليه سمة الاضطرار ، وله الغنى المطلق ..

أيكون لغيره من الظهور ما ليس له ؟! هٰذا تقبيحٌ من أرباب الشهود المستدلين بالأشياء عليه ، ولٰكن من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وليس تقبيح توبيخ ، إنما هو إغراء علىٰ ما هو الأولىٰ ، وهٰذا يحسن في قيام مناجاة الحبيب ، وتذلُّل المحب مع الحبيب ، فالدلالة لا تكون إلا علىٰ غائب ، وأنت حاضر علىٰ خفيات الضمائر ، ولمحات النواظر ، وفلتات الخواطر ، سامع وناظر ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ . . . ﴾ الآية ، فكيف توصِل الآثارُ إليه والوصول لا يكون إلا إلىٰ متحيِّز في جهة ، والله منزَّهٌ عن الجهات ؟!

فمتىٰ بَعُدَ وهو القريب الداني ؟ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، قُرْبٌ لا يماثله قرب الأجسام ، من غير مماسة ولا استقرار ، ولا حلول ولا امتزاج ، بل على الأمر الذي وصف ، والوجه الذي عرف ، فلا يوصل إليه بسواه ، ولا يُستدلُّ عليه إلا به ، ولي في ذٰلك :

كيف استدل عليه المستدل بما ... هو من بدائعه في الذر والفطرِ
وكيف يوصِلُ إليه ما به ظهرت ... أعيانه من بديع الخلق في الصورِ
تبارك الله مُظهِرُ كل كائنة ... ومنْشيَ أصناف ما في الكون من أثرِ

إِلَـٰهِي ؛ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً

( إلـٰهي ) بمعنى الرقيب عليَّ ( عميَتْ عينٌ لا تراكَ عليها رقيباً ، وخسِرَتْ صفقةُ عبدٍ لمْ تجعلْ له من حبّكَ نصيباً ) .

( عميت عين ) فعمى العين القلبية هو العمى حقيقة ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ، وعمىٰ عين القلب أشد من عمى العين الظاهرة ؛ إذ عمى العين الظاهرة ينقضي بانقضاء الدنيا ، وعمى القلب في الدار الآخرة ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ﴾ عن مراقبة الله ، وعن النظر في آيات الله ، والهجوم علىٰ محارم الله من غير حياء من الله ولا مبالاة . . ﴿ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ عن النظر إلىٰ جمال الله ، وما أعدَّ فيها لأوليائه .

ورؤيته عليها رقيباً هو مقتضى الإيمان ، والمراقبة : حالةٌ قلبيةٌ تعطي المراقب حالة يرىٰ أن الله يراه في جميع ما يتعاطاه ، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره ، وهي لأرباب القلوب ، وهي برزخٌ بين المحاسبة التي هي حالة أرباب الظواهر ، وبين المشاهدة التي هي لأرباب السرائر .

قال بعض الحكماء في الدين : إن المراقبة نور ينبسط في الصدر ، وهو من شعاع نور شمس الإحسان ؛ كالضوء على الحيطان .

( وخسرت صفقة عبد ) أي : بيعته ، وما ربحت تجارته ( لم تجعل له ) في سابق علمك ( من حبك نصيباً ) والحب من الله لعبده هو

أصل كل خيرٍ وغنم ، ومن جملته : ثناؤه عليه ، ومدحه إياه الذي لا يوازىٰ بعمل .

ومن آثاره على الظاهر : الهداية للمحابّ ، وصرفه عن المذامّ ، ومن محبته لعبده : أنه قد غفر له ، وبجَّله ، ومدحه ، وأعدَّ له الجزاء قبل إيجاده ، وهيَّأ له أرضه وسماءه ، وجنته وسائر نعمه وآلائه ، قبل إبرازه من خِباء العدم ، بما نصَّ عليه في كتابه القديم ، ووصفه العظيم ، الذي لم يسبق بفعلٍ من أفعال المخلوقين المرتبة فيه ، المضافة إليهم إضافة تشريف ، أو عيب وتعنيف .

ومحبة العبد لله فرع محبة الله له ؛ وهو ما يتقرَّب به إلى الله من أنواع الطاعات ، واجتناب المنهيات .

والخطاب في قوله : ( من محبتك نصيباً ) إلى الله ، قال الله : ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ ابتداء من غير تقدُّم عملٍ منهم يقتضي أن يحبهم لعلة ، يتعالىٰ عن العلل في سائر أفعاله ، ﴿ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ بما أظهره عليهم من آثار محبته لهم ، التي هي الطاعة ؛ كما بيَّنا ذٰلك .

ومن لم يجعل له من هٰذه المحبة المخصوصة نصيباً .. فقد بان غبنه ، وخابت مطالبه ، وبانت خسارته ؛ بأن كره انبعاثه ، فثبَّطه عن التوجُّه إليه ، والإقبال بوجه القلب عليه ، فنعوذ بالله من سوء القدر ، وما سبق به من حرمان الظفر بالوطر ، ولي في ذٰلك :

| | |
|---|---|
| من لا يراك رقيباً ظل في ظلم | حيران أعمىٰ عن الأنوار منحجب |
| وخاب عبدٌ خسِرْ في بيع صفقته | إن لم يكن لجناب الله منتسب |
| محبة الله في غيب القدم سبقت | لأهل السوابق في العليا بلا سبب |

إِلَـٰهِي ؛ أَمَرْتَ بِٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْآثَارِ ، فَٱرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُسْوَةِ ٱلْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ ٱلِٱسْتِبْصَارِ ؛ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونَ ٱلسِّرِّ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَمَرْفُوعَ ٱلْهِمَّةِ عَنِ ٱلِٱعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

( إلـٰهي ) بمعنىٰ وليّ أمري في الإدخال والإخراج ، الآمر لعبده في كليات الأحوال ، ومكلفه وظائف الأعمال ( أمرْتَ بالرجوعِ إلى الآثارِ ، فارجعْني إليها بكسوةِ الأنوارِ وهدايةِ الاستبصارِ ؛ حتىٰ أرجعَ إليكَ منها مصونَ السرِّ عن النظرِ إليها ، ومرفوعَ الهمَّةِ عن الاعتمادِ عليها ؛ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ) أمرت بالرجوع إلى الآثار لأداء ما توجَّه على العبد من الحقوق الواجبة ، وما سبق له من الأقسام العاجلة ، حتىٰ يستكمل ما له منها ، ويؤدي ما وجب عليه ، فيرجع بعد كمال المعرفة واستخلاص التوحيد بجميع أطواره ، فسأل المؤلف حِفظَ ما شهد من التوحيد ، وأشرق عليه من أنوار التفريد : أن يُحفَظ حالَ رجوعه إلىٰ تفرقة التعديد بين طبقات العبيد ، وتوارد الأضداد الذي منها : ما يشير إلى القرب ، ومنها : ما يدعو إلى البعاد .

فإذا رجع إليها بكسوة الأنوار القدسية مؤيداً ، وبعزِّ الأحدية مؤزراً ، وبالمعارف الحقية مستبصراً . . كان رجوعه إليها بالله ؛ لأنه صار له يداً ومؤيداً ، وبصراً وسمعاً ، وغير ذٰلك من استغراق أنوار المعية الحقية ؛ ما تغيب به الأعيان الخلقية ، فلا يأخذ منها شيئاً ، بل يأخذ منها ولا يكون له اعتماد عليها ، ولا نظر إليها ، وكيف ينظر إليها وقد طويت بأنوار موجدها ؟! وكيف يعتمد عليها وقد اضمحلت في ظهور مبدعها ؟!

فلا جرمَ أن يرجع إلى الله إذا كان كذٰلك محفوظ السر عنها ، مؤيداً

بالنصر عليها ، كما دخلها بالله . . خرج إليه به ؛ **إذ لم يحجبه عن شهود سيده .**

( **إنك علىٰ كل شيء قدير** ) لأن الأشياء كلها علىٰ فلك اقتدارك دائرة ، وتحت سلطان مشيئتك ناظرة ، **فلا يعجزك حفظي** عنها وأنا شيء من هـٰذه الأشياء ، وإذا توجهت قدرتك إلي بالتأييد ، ومشيئتك بالتسديد . . **لم تأخذني** كثرة **مظاهر التعديد** ، ولم ينتصر عليَّ كل معاند عنيد ، **ولي في ذٰلك :**

لأهل النهايات أمرٌ بالرجوع إلىٰ ... مظاهر الخلق في الآثار والغيرِ
ليكملوا كل نقص مثل ما كملوا ... وأيفاء حق وجَبْ في سابق القدرِ
إذا سبق ذاك فأرجعني إليك كما ... دخلت منها مصون السِّر والنظرِ

**إِلَـٰهِي ؛ ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَحَالِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ ٱلْوُصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَٱهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ ٱلْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ**

( **إلـٰهي** ) بمعنى العزيز في قربه ، والقريب في عزِّه ، واللطيف في عظمته ، والعظيم في لطفه ، والمعبود بالاستحقاق علىٰ سائر العباد ( **ذلِّي ظاهرٌ بينَ يديكَ ، وحالي لا يخفىٰ عليكَ ، منكَ أطلبُ الوصولَ إليكَ ، وبكَ أستدلُّ عليكَ ، فاهدني بنورِكَ إليكَ ، وأقمني بصدقِ العبوديَّةِ بينَ يديكَ** ) .

**الذل** : هو صفة العبد بين يدي السيد العزيز ، والمتفضِّل الكريم ، وهو روح العبودية لله ، وبمثل هـٰذه المناجاة تحسن عند المفاجاة ، وبها

تقرع خزائن العطاء ، فإذا أراد الله إعزاز عبدٍ . . عرَّفه ذلَّ نفسه ، وذبول حسِّه ، وغيَّبه عن رؤية أبناء جنسه ، حتىٰ تحلو له المناجاة ، وتصفو له المفاتحة .

وإذا أراد الله إهانة عبدٍ . . حجبه عن ذل نفسه ، وأراه الحسن منها ، وغطىٰ عنه عيوبها ، وسلَّط عليه الخلق ؛ ليشغلوه عن الله بالقيل والقال ، ووعَّر عليه مسالك الوصال ، وزيَّن له طرق الضلال ، ومخالطة الجهَّال وأهل القسوة والضلَّال ، وحرمه مجالسة الأبدال ، وحقَّرَ إليه أهل الله أهلَ الكمال ، نعوذ بالله من هـٰذا الحال ، وجنَّبنا طريق الجهَّال ، والغواة [ الضُلَّال ][1] .

( منك أطلب الوصول ) إذ لا يُطلب الوصول إليه إلا به ، وهـٰذا حال العارفين ؛ لا يجدون سبباً يوصل إليه سواه ، ولا وسيلة يتوسل بها إلا إياه ؛ لأن نظرهم لا يسبق إلىٰ غيره ، بل مطالبهم وهممهم وقف عليه ، ( وبك أستدل عليك ) إذ لا دليل عليك أظهر منك ، فكيف يستدل بغيره وهو الذي أظهره ، وبباهر قدرته قدَّره ، وبمشيئته دبَّره ؟!

( فاهدني بنورك إليك ) وهـٰذا النور هو نور الإيمان الكائن في داخل الجَنان ، وهو في القلب كالإنسان من العيان ، ويعبر عنه بالإيقان .

والإقامة بصدق العبودية لا تكون إلا بتأييد من الله لعبده ، وإلا [ لم ] يخلص من شوائب وآفات ، وإذا حصل التأييد والإقامة من الله كما ذكر . . حصل على الأدب ظاهراً وباطناً ، فاستسلم للأمر باطناً ، وانقاد للأحكام ظاهراً ، ولي في ذٰلك :

ذلـي لـه ظاهـر والحـال باديـة ... لديـه لم يخـف حال العبـد مولاه

---

(١) في النسخ : ( الجهال ) بدل : ( الضلال ) .

فمنك نطلب ما نرجو ولا حرج     لأنَّ ما ثَمَّ غير الله نرجاه

**إِلَـٰهِي ؛ عَلِّمْنِي مِنْ عِلْمِكَ ٱلْمَخْزُونِ ، وَصُنِّي بِسِرِّ ٱسْمِكَ ٱلْمَصُونِ ؛ ٱلَّذِي إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُن ﴾ . . فَيُكُونُ**

( **إلـٰهي** ) بمعنى العالم بتفاصيل العلوم ، والمحيط بكل معلوم ، الوهاب أنوار الفهوم ، لمن اختصه من العموم ( **علِّمني من علمِكَ المخزونِ ، وصنِّي بسرِّ اسمِكَ المصونِ ؛ الذي إذا قلت به للشيء : ﴿ كُن ﴾ . . فيكون** ) والعلم المخزون في خزائن : ﴿ نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فمن علم ذٰلك العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي ينطق به العلماء بالله ، وينكره عليهم أهل الغرَّة بالله ، **هو العلم بما لا يدخل تحت ظروف اللفظ والقول** ، ويتعالىٰ مشهده علىٰ ما فوق الحول والطول ، ولا يتناهىٰ فيه إلى الوصول .

وهو مفاتح **خزائن الغيب** في أسرار الصفات لمعاني الذات ، الذي تفنىٰ عند التحقق بسائر اللذات ، **حتىٰ يغيب نعيم الجنات** ، ولا يذوقه إلا الذائقون من عباد الله ، الذين شربوا صرف شراب شهود نور الذات ، الممزوج من شرابهم لأهل صفو الحالات ، أهل مقام الشهادات ، **ويعبر عن أنموذج من ظهوره في الدنيا** بالعلم اللدني ، **الذي يلقيه الله لخواصِّ عباده** من غير تعلُّمٍ ولا دراسة ، فيكشف مدخور ما ادخره حرف من كلامه ، **فينكشف ما وراء الغيوب الخمسة** ؛ وهو الغيب العرشي ، والغيب الكرسي ، والغيب السماوي ، والغيب الملكوتي ، والغيب الجبروتي .

فعنـد انكشـاف هٰذه الغيـوب . . **تطلع فجر الشـموس الوصفية** ، والمعانـي الذاتية ، وما لـم يخرج عن مضيق دائرة الحسّ ، ولم يشَـمَّ رائحة الكشف ، بل في تماويه وخيالات وغرور ، ودعاوي كاذبة وزور .

**والصيانـة بالاسـم المصـون** : هـو أن يصون سـرَّه عـن الالتفات إلى الأغيـار ، والاعتماد على الآثـار ، والانقهار تحت كثيف العادات ، ورذائل الشـهوات ؛ فمن انصان تحت صوان الاسـم الأعظم من هجوم بيان نعتات المهمات . . **فيكون له حافظاً** ، وعليه محيطاً وافياً ، **ولي في ذٰلك** :

علمنـي العلـم ذي مـن كان يعلمـه
تعـده عالمـاً فـي السـادة الأمنـا
فعلمـك اللـي إليـك انضـاف جانبـه
هو مـا ادخر تحت صون الغيب واكتمنا
وسـر إسـمك كينـان فعالمـه
لـم يخـش ريبـاً ولـم يعبـث بـه الزمنـا

**إِلَـٰهِي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ ٱلْقُرْبِ ، وَٱسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ ٱلْجَذْبِ**

( **إلـٰهي** ) بمعنى الولي بتدبيري في سائر إراداتي ، الواهب لمن يشاء الكنز الأعظم ، وهو التحقق بالمقام الأنهىٰ ( **حقِّقْني بحقائقِ أهلِ القربِ ، واسـلكْ بي مسـالكَ أهلِ الجذبِ** ) التحقُّق بالحقائق القربية في منتهىٰ نهايـة الفنـاء في المحبوب ، والظفر بالمنـىٰ ونيل نهاية المطلوب ، وهو

البقاء المحقق الذي من وصل إليه . . لم يجد وجوداً لغير الملك الحق ، فيغنىٰ به عن تدبيره لنفسه ، فضلاً عن أن يكون له إلى الأغيار استناد في جلب نفع أو دفع ضر ، وتخرق حجب الأكوان ببصيرته ، فيراها كشفاً محققاً ، فلا يعبأ بالخيالات الوهمية ، ومسالك أهل الجذب هم المؤهلون للمحبة في سابق العلم ، فهم المحبون المخطوبون للوصال ، الذين اختطفوا من الحضيض الأدنىٰ ، إلىٰ بحبوح القرب الأنهىٰ ، من غير تعبٍ ولا عناء ، بل محمولون في محفة المنَّة ، فالسابق إلىٰ قلوبهم وجود محبوبهم ، فلا يدخلون في الأشياء إلا به ، ولا يخرجون عنها إلا به ؛ لأنه السابق لهم بمحبته ، والمتولِّي لهم برعايته ، فهم أهل الفتح المبين ، ولي في ذٰلك :

يا من تحقق أسراراً بما وهبت ... من منَّة القرب حتىٰ طاب مثواها
في حضرة الحق من توحيده امتلأت ... وكان في قاب قوس القرب مأواها
اسلك بنا مسلكاً فاقت مراتبه ... بجذبةٍ منك وأتحفنا برؤياها

**إِلَـٰهِي ؛ أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ عَنْ تَدْبِيرِي ، وَبِٱخْتِيَارِكَ عَنِ ٱخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي عَلَىٰ مَرَاكِزِ ٱضْطِرَارِي**

( **إلـٰهي** ) بمعنى المدبر المختار ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ ( **أغنِني بتدبيرِكَ عن تدبيري ، وباختيارِكَ عن اختياري ، وأوقفْني علىٰ مراكزِ اضطراري** ) الغنىٰ بتدبير الله عن تدبير العبد لنفسه هي حالة الموحِّدين ، وسيما خواصِّ عباد الله المقربين ، والاختيار كذٰلك ؛ لأن نور الكشف يعطي ذٰلك ، وضده هو المذموم ، هو تدبير العبد في أمرٍ

لم يدبره فيه الشرع ، واختياره لأمر لم يدرِ فيه عينَ الصواب ، **كما هو شأن المحجوبين والجهّال المغرورين** ؛ فلذلك سأل المؤلف أن يغنيَهُ عنه بما يكشفه له من حسن اختيار الله له وتدبيره ، ويوقفه على مستقر اضطراره ، **وهٰذه هي حالة الأدباء** ؛ أنهم لا يفارقهم اضطرارهم إلىٰ مولاهم في سائر الأحوال ، ومراحون عن مقاساة التدبير والاختيار ؛ **لما حمله عنهم من واردات الأنوار** ، وصولة سلطان الحقيقة على الأسرار ، فهنا يحصل الغنىٰ عن التدبير والاختيار .

ومن وقف علمه أو صنعته وعرفها بما هي عليه من العجز والضعف والجهل بعواقب الأمور . . **وقف ـ لا محالة ـ عما ليس هو من مقتضى الربوبية** ، وسلَّم الأمر وانقاد ، وسَلِمَ عن المنازعة في أحكام الله ، والمعاندة لأقداره ، ولزم مركز اضطراره ، **ولي في ذٰلك** :

يا من هو القادر المختار في الأزلِ ... قبل البروز إلى الأشباح والصورِ

سَلْكَ ٱغنني بك عما مني من خطل ... ونجني من حتوف الجهل والضرر

**إِلَـٰهِي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي**

( **إلـٰهي** ) بمعنىٰ متولِّي أمري ، وقائد زمام أمري ( **أخرجْني من ذلِّ نفسي ، وطهِّرْني من شكِّي وشركي قبلَ حلولِ رمسي** ) .

**الإخراج الحقيقي** : هو ما كان بالله لا بالنفس ، **والذل الذي طلب المؤلف الإخراج عنه** : ذلُّ النفس لغير الله لمعنىً يتوهَّمه من وصول نفع أو حصول ضر ؛ **وذٰلك لكثافة حجابها عمَّن بيده كل منافعها**

ومضارها ، وأن الخلق فيما يصل على أيديهم آلات مسخَّرة لا تتحرك ولا تسكن إلا بتحريكه وتسكينه ، فما لم تخرج عن رؤية الأغيار وظلمة الآثار . . ذلَّت للمخلوقين لا محالة ، فطلب الخروج عن رقِّ الأكوان إلىٰ صرف صفاء عبودية الرحمٰن ، وهي الحرية المحققة التي من وصلها . . صارت الأشياء له منقادة بحكم التسخير ، وهو لا ينقاد لغير سيده ومولاه .

والشك : هو سبب الحرص على الدنيا ، الموقع في حبائل الطمع والبخل وكل رذيلة ، والشرك : هو رؤيته أنَّ لشيءٍ من الأشياء تأثيراً دون الله في سائر المعتادات .

وهٰذه الأحوال مجانبة لحقيقة التوحيد ، مباينة لمعاني التفريد التي أتحف بها خواص العبيد ، وحدُّ الشك : ضيق الصدر لأمر ينزل ، فيتبرم لذٰلك ، ويعتريه الهم والحزن والسخط ، ويظلم القلب لذٰلك ، وكلما ازداد ظلمة . . ازداد حرجاً وضيقاً كأنما يصعَّد في السماء ، ويضاده شرح الصدر بنور اليقين ، وكلما كان نور اليقين أقوىٰ . . كان الانشراح أوسع ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ .

والشرك : هو انغمار القلب بظلمة البعد ، فينظر الأسباب هي المؤثرة ، فيتمكن الهوىٰ من القلب ، وينكمش في طلب الأسباب من سائر وجوهها ، فتستعبده وتستهويه ، وكلما كان فيها أمكن . . كان من نور التوحيد أبعد ، عافانا الله من ذٰلك بمنِّهِ وكرمه ، ولي في ذٰلك :

يا منقذ الغارق المكروب في اللجج ... أخرجني أدركني أنقذني من الحرج
من ذل نفسي لغير الله ذاك لها ... سجن وقيد وعن طرق الهدىٰ عوج
ومن شكوك عن الإيقان بائنة ... وشِرْك الأغيار مر قاطع سمج

فمــن لم يتطهر من هٰذه القاذورات ، ولم يباين هٰذه المذمومات في الدنيا قبل حلــول الرمس ؛ وهو الموت الطبيعي . . توالت عليه كرباتها في البــرزخ ، وطالت معاناتهــا هنالك ، ولم يجد ســبيلاً إلى التدارك لما فات ، فتتوالىٰ عليه مرارة الحســرات ، ومقاســاة شدائد الكربات ، عافانا الله منها ، وزحزحنا من مهالكها ، ولطف بنا من مخاوفها وأحبابنا كذٰلك في الله وسائر المؤمنين ، قال :

**بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَانْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي**

هٰذه المعارف بحســب ترقِّي العارف في مراتــب القرب ؛ لأن أول مفتاح أبواب الملكوت الذي من عالم القلوب . . هو الإيمان .

وثمرته وحقيقته : التوكل على الله ، وحقيقٌ بنيل ما طلب حيث صح له مقام التوكل ، لا يوكل إلىٰ نفســه ولا إلىٰ غير ســيده ؛ كما قال الله ـ وهو أصدق القائلين ـ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ .

ثم لما أُقيم في مقام العبودية لله بالدعاء . . فقال : ( وإياك أسأل ) لأنك مشهودي ، وأنت غاية مأمولي ومقصودي ، فلا تخيبني كما قلتَ وقولك الحق : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

وفــي فضلـك الفائـض الغامـر لـذرات الوجـود أرغب وأطلـب ، فلا تحرمنــي كمـا أنك أفضته عليَّ قبل سؤالي ، فالمأمول من وصلك : ألا تحرمني بعد طلبي والتجائي ، والحرمان : هو القطيعة من الخيرات .

ولجنابك الذي لا يضام نزيله ، ولا يخيب دخيله أنتسب بالعبودية ، فلا تبعدني بأن تبدل مقامي وتغير اسمي ؛ بأن أكون عبداً لغيرك من هوىً أو دنيا ، وببابك أقف فلا تطردني ، [ و ] وقوف العبد بباب سيده : هو لزومه لطاعاته ، والتعلق بمظاهر تجلياته ، وهٰذا غاية المطلوب ، ومنتهى المرغوب ، والطرد بضد ذٰلك : أن تجده مستعبداً بظاهره للأسباب ، ومتعلقاً بباطنه بها ، فلا انفكاك له عنها ، ولا انفلات له منها .

وهٰذه المعاني كلها مما يتأكد على المريد مراعاتها ، وإمعان النظر في مضمونها ؛ ليحذر من مهالك طرقاتها ، ففيها انقطع أكثر الخلق وهم لا يشعرون ، ولي في ذٰلك :

| | |
|---|---|
| عليك متكلي يا من هو الله | فلا تكلني فذاك السؤل والجاه |
| يا ناصراً كل مستنصرٍ به وعلى | كل النوائب والأهوال يرجاه |
| إياك أسأل غوث الطالبين ومن | إليه يرغب فإن الله مولاه |
| في فضلك الغامر الفائضْ عليه فلا | تحرم نزيلاً يوافي نزل مولاه |
| ومن جنابك فلا تبعد لمنتسب | أيضاً ولا تطرد الواقِفْ لحوباه |

**إِلَـٰهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي ؟! أَنْتَ ٱلْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ٱلنَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيّاً عَنِّي ؟!**

( إلـٰهي ) بمعنى الغني بذاته وصفاته وأفعاله ( تقدَّسَ رضاكَ أنْ

تكـونَ لـه علَّةٌ منـكَ ، فكيفَ تكونُ لـه علَّةٌ منِّي ؟! أنـتَ الغنيُّ بذاتِكَ عـن أنْ يصـلَ إليكَ النفعُ منـكَ ، فكيفَ لا تكونُ غنيـاً عنِّي ؟! ) هـٰذه العبـارة ترقٍ في تجليات الأسـماء والصفـات ، وملاطفات من تعطفات ألطاف الذات .

فـأول مـا تجلـت عليـه مـن سـماء الأسـماء نجـوم الأفعـال الأزلية والمعانـي الأمريـة ، ورأىٰ مـا هـي عليه مـن التنزيه عـن العلل والآلات الخلقيـة . . نـزَّهَ ذٰلك المقـام ؛ مما يتعاطـاه الجهَّال والعوام ، بنسـبتها إلى العلـل الحادثـة بأفعال الأنام ، فقـال : ( تنزَّهَ رضاك )[1] ، كما قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : « أعـوذُ برضاك من سـخطِكَ »[2] ، ولـم يسـتعذ من سـخطه بسـبب من الأسـباب ؛ لفناء الأسباب [ و ] علل الانتسـاب ، ورضـاه أثـر مـن آثـار وصفه علىٰ شـيءٍ رضي عليـه ، وإذا برزت آثارها على العباد . . تفرعت عنها أفعالهم من حسـنها وسـيئها ، فتسمىٰ أفعالاً .

وأفعاله مقدَّسةٌ عن العلل ، لا كما يزعم المعتزلة ـ قبَّح الله رأيهم ـ بل فعله بمحض الاختيار ، فكل أفعاله وأحكامه كذٰلك لا علة تبعثه علىٰ فعل شيء ، ولا عليه وجوب لخلقه ، وما كان من المصالح . . فبمحض الفضل والكرم .

كذٰلك ( أنت الغني بذاتك ) كما أنت الغني بصفاتك وأفعالك ( عن أن يصل إليك النفع منك ) لوجود غناك عن الأغراض المكملات ؛ لوجوب كمالك ، وثبوت جمالك وجلالك عن تطرُّق نقص .

---

(١) كذا في النسخ مع أنه أوردها في الحكم قبل قليل بلفظ : ( تقدس رضاك ) .

(٢) رواه مسلم ( ٤٨٦ ) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

ولي في ذلك :

تقدست صفة المولىٰ عن العلل ... في سابق الأمر بل في حضرة الأزل
وهو الغنيْ أبداً في عزِ رتبته ... عن أن يَصِلْ منهُ لَهْ نفعٌ ولن يصل
وكل أفعال من دونَهْ ولو حسنت ... لا يستحق بها قطع ولا وصل

* * *

وهـٰذا توطئةٌ منه لسؤاله وانطراحه تحت جريان الحكم ؛ لذٰلك قال :

**إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ ٱلْقَضَاءَ وَٱلْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ بِوَثَاقِ ٱلشَّهْوَةِ أَسَرَنِي ، فَكُنْ أَنْتَ ٱلنَّصِيرَ لِي حَتَّىٰ تَنْصُرَنِي وتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّىٰ أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبِي**

( **إلـٰهي** ) بمعنىٰ ذي القدرة القاهرة والمشيئة السابقة ( **إنَّ القضاءَ والقدَرَ غلبَني ، وإنَّ الهوىٰ بوثاقِ الشهوةِ أسرَني ، فكُنْ أنت النصيرَ لي حتىٰ تنصرَني وتنصرَ بي ، وأغنِني بفضلِكَ حتىٰ أستغنيَ بك عن طلبي** ) إن القضاء السابق والحكم الغالب غلبني عن ألَّا آتيَ إلا بما هو المراد من تقريبٍ أو إبعاد ، أو شقاءٍ أو إسعاد ، أو موافقةٍ أو عناد .

وهـٰذا من الاعتذار بين يدي الكريم الغفار ، اللطيف الستار ، ولـٰكن من حق الأدب : ألَّا يقطع النظر في الأفعال الملومة عنه بمرة واحدة ، بل يعطي الأدب حقه من إضافة هـٰذه الأفعال إليه وإلىٰ هواه وشهوته ؛ لتنزيه الجناب الإلـٰهي عن مثل هـٰذه الألفاظ ، فيشهد باطناً انفراد الله

بها دون علمه أو عمله ، وظاهراً يكون لائماً لنفسه وذاماً لها ، وإذا ألهم عبداً مثل هٰذا الاعتذار وقام فيه بالأدب باطناً وظاهراً . . **فإن الله يريد أن يقبل عذره .**

( **فكن أنت النصير لي** ) علىٰ أعدائي ( **حتىٰ تنصرني** ) عليهم بما أمددتني به من جنود أنوارك ، وواردات تجليات أسرارك ، ( **وتنصر بي** ) **بعد كمال إرادتي** ، ووصول مأمولي وبغيتي ، **وتنصر بي من اقتفىٰ أثري** ، وانتحل محبتي من أبناء وقتي ، بما تلقيه عليَّ من فائضات حكمتك ، ومشرقات أنوار معرفتك ، وتلبسني من ملابس نفائس ولايتك ، **فلا يراني عدوٌّ** إلا ويرجع خاسئاً حسيراً ، **ولا حبيب ومحب** إلا ويكون قمراً منيراً ، **ولا يلوح لي ذكر في فكر** إلا ويخنس منه كل خاطر نفس وهوىً وشيطان .

**فهٰكذا النصرة بالولي** ؛ أنه جند الله لعباده الصادقين ، وسُلَّم طريق السالكين ، وقدوة أسرار المريدين ، يتوب الله على الخاطئ ، ويدني القاصي ، ويرحم العاصي ، ويأخذ علىٰ صراط الله بالنواصي ، إذا رُئِيَ . . **ذُكر الله** ، وانخنس كل شيطان من الإنس والجان ، **يحكم على الأمور بأمر إلٰهي** ، ولا يحكم عليه شيء دون وليه .

( **وأغنني** ) بك عن طلبي الغنىٰ بفضل الله ، والاكتفاء بنظر الله والرضا بتدبير الله ( **حتىٰ أستغني** ) وهٰذا دأب الموحدين ، وشأن المؤمنين ، وطريقة المكاشفين ، وسَمْتُ العارفين ؛ كما أغنيت عن الطلب الخليلَ صلى الله علىٰ نبينا وعليه وسلم ، حيث قال في حال ورود الحكم عليه : ( **حسبي عن سؤالي علمه بحالي** ) لما قال له جبريل حين رُمي به بالمنجنيق إلىٰ نار نمرود : **ألك حاجة ؟**

قال : ( أما إليك . . فلا ، وأما إلى الله . . فبلىٰ ) قال : سَلْهُ أن ينجيك ، فقال : ( حسبي عن سؤالي علمه بحالي )[1] ، فاغتناؤه عن جبريل ، وعن الملائكة الذين عرضوا عليه في تلك الأسباب ؛ كملك الرياح وملك الماء ، فاغتنىٰ بالفضل ، وتوالت عليه الألطاف ، وتوالت عليه أنوار القرب ، فأغنته عن السؤال ، ولي في ذٰلك :

إن القضا غالب والعبد مغلوب ... وقوة القدرة القاضي على الدوب

غيره :

هٰذا لربك أما أنت يا فطن ... قل بالهوىٰ أوثقَتْني شهوةُ البشر

فكن نصيري على الأعداء قاطبة ... وانصر كذٰلك بي من كان منتصر

وأغنني بك يا ذا الفضل ثانية ... مني ومن سائر الأكوان والغير

فلا جرم إن سألتك هٰذا المقام العالي ؛ الذي يفني الأول والتالي .

## أَنْتَ ٱلَّذِي أَشْرَقْتَ ٱلْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّىٰ عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ

فبذٰلك صرت لهم ولياً ، وبهم عمّن سواك حفياً ، فبرز منهم ما برز من توحيدك ومعرفتك ، فليس لأحدٍ إلىٰ توحيدك سبيل إلا بما منك من النور الذاتي ، ولا لأحدٍ إلىٰ معرفتك وصول إلا بما تجليت من التجلي الوصفي والنعت الفعلي ؛ فإشراق هٰذه الأنوار ، وتجلي هٰذه الأسرار . . هو الذي أزال عنهم ظلمات الأغيار ، ومحا عن قلوبهم صور الآثار ، وقهر لهم كل عتيد جبار .

---

(١) تقدم ( ص ٤٥٨ ) .

وأَنْتَ ٱلَّذِي أَزَلْتَ ٱلْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّىٰ لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ ، أَنْتَ ٱلْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْعَوَالِمُ

( وأنتَ الذي أزلتَ الأغيارَ عن قلوبِ أحبابِكَ حتىٰ لمْ يحبُّوا غيرَكَ ، ولمْ يكنْ لهم مطلوبٌ سواكَ ) بما أفضته عليهم من حبك وولائك ( أنت المؤنسُ لهم حيث أوحشتْهُمُ العوالمُ ) .

فمقام الأنس بالله هو ثمرة محبته التي استخلصتهم عن الأغيار ، وأوحشتهم عن الآثار ، ولم يملكهم أهل ولا عقار ، ولا وطن ولا دار ، بل انفردوا في البراري والقفار ، وتغرَّبوا عن الديار ، فراراً من الأغيار ، فآنسهم بمشرقات أنواره ، وألبسهم سرابيل أسراره ، وأعدَّ لهم نزلاً عظيماً ، ونعيماً مقيماً في دارٍ وأي دار ، وأعدَّ لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر ، في جنة سقفها عرش الرحمٰن ، ينادون بالتحيات في أقطار الأرض والسماوات ، ويلقونه بأنواع الكرامات ، واحترقت من الأزل إلى الأبد أنوار الأكوان ، وشاهدوا سرمدية الملك الديان ، فدنت إليه أسرارهم دنو محبٍّ لحبيب ، فكانوا به أشد أُنساً من الولد إلىٰ أمه ، والمحب إلىٰ حبه ، فكفاهم كل الهموم ، وباينتهم سائر الغموم .

فالتولي : هو إشراق الأنوار في القلوب التي تنشأ عنها المعرفة والتوحيد ، والمحبة هي ناشئة عن المعرفة ، وثمرتها : الأنس بالله ، وترك ما سواه ، والإدبار عما عداه ، ولي في ذٰلك :

أنت الذي في قلوب الأوليا شَرَقَتْ ... أنـوارك اللـي بهـا نـار الحناديس
أزلت عنها ظُلَمْ الأغيارِ فأحترقَتْ ... كلُّ السناديب من مقت الوساويس
أحباب صدق لهم أنس إذا رهقت ... في غيهب الليل أوجاه المفاليس

وَأَنْتَ ٱلَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى ٱسْتَبَانَتْ لَهُمُ ٱلْمَعَالِمُ

أنت الذي سقت لهم الهداية إلىٰ سبيل الولاية ، وحصلت منك لهم الرعاية ، حتى استقاموا علىٰ صراط العناية ، ولم تزل لهم حافظاً وبهم ملاطفاً ، حتىٰ ظهر لهم سر وحدانيتك ، وحصلوا في مقام فردانيتك ، وكحلت أبصار بصائرهم بنور معرفتك ، فشهدوك لهم قريباً ، وأظهرت سر لطفك بهم ، فاتخذوك حبيباً ، ولي في ذٰلك :

أنت الذي أعطيت أنوار الهداية في ... ما هوْ مرادك من غي ومن رشد

هديت قوماً إلى التحقيق فانظر في ... علم الإلٰه وما يحويه من مدد

❁ ❁ ❁

فإذا تحقَّق المريد بمقام التوحيد ، وفنيت عنه كثرة التعديد ، وشهده منه إليه أقرب من حبل الوريد . . غني به عن الأغيار ؛ لذٰلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟!

وجود الأغيار والافتقار إلى الآثار دليلٌ على انطماس البصائر وذهاب نور الأبصار ، ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، فالحق ليس بمقصود ، بل هو الموجود دون كل موجود[1] ، والحاضر عند كل شيء ، والشاهد علىٰ كل مشهود .

---

(١) قال العارف : ( إلٰهي ؛ كيف أقصدك وأنت وراء القصد ؟! أم كيف أطلبك والطلب عين البعد ؟! ) .

فما تفيض فائضة ، ولا تنطق لسان لافظة . . إلا كان عليها شاهداً ، ولها محصياً حافظاً ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ . . . ﴾ الآية ، فصح أن فقدان وجود الحق غاية العمىٰ ، ومنتهى الفقد ، وغاية الطرد .

وماذا فقد من الأشياء العدمية من وجد الحق له حافظاً ، ولديه حاضراً ، ومنه قريباً ، وله حبيباً ، ولسقمه طبيباً ، ولدعائه مجيباً ، وبتوليه له واقياً ، ولفاقاته كافياً ؟! فلا تغنيه عنه الأعراض ، ولا تسده دونه الأغراض ، بل يكون وقفاً عليه ، لا يستغني عنه بالأعيان ، ولا يكفيه دونه سائر الأكوان ، ولا يلهىٰ عن محبته بإنس ولا جان ، ولا يفتقر بعد وجوده إلى الأغيار ، ولي في ذٰلك :

ماذا وجَدْ من فقَدْ نور الإلٰه وما ... يغنيه عنه جميع الكون والصور
ومن وجَدْ ذاك نال الكل فيه فما ... غير الإلٰه وجود ثم معتبر

❁ ❁ ❁

ثم لما بيّن حال الواجدين لله ، المغتنين بوجوده دون سائر الأكوان ، وخسارة أحوال المحجوبين عنه بكثائف الأغيار ، والمطموسين في ظلمات الآثار . . فقال مبيِّناً لأحوالهم ، وذامّاً لسوء مقامهم ، فقال :

**لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ عَنْكَ بَدَلاً (1) ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوَّلاً ، وَخَيْبَتُهُ ظَاهِرَةٌ ، وَتِجَارَتُهُ بَائِرَةٌ**

مَن رضي واختار عنك بدلاً ، فليت شعري ؛ ما يعيضه بوجود سيده ؟!

(1) في هامش ( أ ، د ) نسخة : ( دونك ) بدل : ( عنك ) .

وما الذي يروي صدىٰ قلبه إذا فقد شهود ربه ؟ فلكل شيء بدل غيره ، ولكل شيء عوض ، ولا يعيض عنه شيء ، قال القائل في ذٰلك :

لـكل شــيء إذا فارقتــه عــوض  وليـس لله إن فارقـت مـن عـوض

فـلا حرمنـا وصـال الاتصـال بـه  ففيـه عافيـة مـا بعدهـا مـرض

والخسـارة : وقـوع النقـص عنـد التعـرض للربـح ، وأي صفقـة أخسـر ، وتجـارة أبـور ممـن ابتغـىٰ عنـه متحول ، ومـن محـالٍ قربه تنقُّـل ؟! وكل طالـبٍ لغيـره كذٰلك في خيبة وخسـارة ، وبوار تجارة ، ولي في ذٰلك :

خاب الذي عنك يرضىٰ بدلاً فمتىٰ  يغنيه عنك وجود الهالك الفاني

ويا خسارة من يبغي التحوُّلَ عن  قرب الحبيب فذاك المبعَد العاني

كيف التحول أم كيف الشطون وما  يلقىٰ بديلاً عـن المولىٰ ولا ثاني

* * *

فإذا كان لا غير مقصود ، بل وجوده على الحقيقة مفقود .. تعجَّبَ المؤلف رحمه الله فقال :

**إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ يُرْجَىٰ سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ ٱلْإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ ٱلِٱمْتِنَانِ ؟!**

الرجـاء من غير الله من شـأن المحجوبين ، وعلامـة البعد من رب العالميـن ، فالرجـاء : هو تأميل أمـرٍ يُترقَّبُ حصولـه ، ومن كان الله مشهوده .. فلا يكون لغيره في الحوائج مقصود ، وشاهد حصول الآمال

ونيل كل نوال . . دوام فيض الإحسان ، فكيف يرجىٰ غير مَن ألفت منه العوائد الجميلة والمنن الثقيلة ؟!

وكيف تطلب من غيرك وغيرك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

وأنت مع ذٰلك ما بدَّلت عوائد الامتنان ، بل لم تزل المنن مديمة ، والنعم لديهم مقيمة ، فلا يكون الطلب من غيره ـ بعدما علمت ما هو عليه من عدم تبديل عوائد الامتنان ـ محموداً ، ولا يكون غيره لمهمات الأمور مقصوداً ، ولي في ذٰلك :

ما يُرتجىٰ غيرُ مَن بالفضل موصوفُ ... وعنده فائضُ الإحسان مألوفُ

وكيف تطلب مَن لم ترج منَّتُهُ ... دون الإلٰه الذي بالفضل معروفُ

## يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ

حلاوة الأنس بالحب للمحبين تنسيهم كل نعيم ، والأنس يقتضي انبساط المحب ، وتدلي المحبوب ؛ فهي لديهم ألذُّ من نعيم الجنان ، والأنس للمحبين خاصة ، ولهم في مقام الأنس آيات وصنوف إكرام وسبوغ إنعام ؛ فمنهم [ من ] إذا أقيم فيه . . يقول : لو وضع السيف علىٰ مفرقي وشقَّني نصفين . . لم أجد لذٰلك ألماً ، حتىٰ قال الجنيد رضي الله عنه : ( كنت في صغري أسمع ذٰلك من السَّري ، وكنت أستبعد ذٰلك من قبلُ حتىٰ وجدتُه ) أو كما قال (١) .

(١) تقدم ( ص ٤٣٢ ) .

والمؤانسة تقتضي القيام بين يدي الحبيب ، فالقيام لا يكون حقيقة إلا للمستأنسين الذين غابت معالم الأكوان لديهم ، وذهبت محاسن الألوان عن قلوبهم ، **فلم يروا غيره** ، فقاموا له بصدق العبودية بين يديه متملِّقين ، والتملُّق : هو التلطُّف والتودُّد للحبيب ، ولا يحسن ذاك لغيره ، **ولي في ذٰلك** :

يا مَن أذاق أولي الألباب خيرته شهْدالشهودوصافيالأنسفيالأزلِ

قاموا له بين مشتاق ومكتئب وشاكٍ من ضنا الأشجان منتحلِ

❀ ❀ ❀

**فمقام المحبة يقتضي الأنس بالحبيب ، ومقام التولي يقتضي** الاستعزاز بالوالي العلي ؛ **لذٰلك قال** :

**وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ**

**ولبس الهيبة** هي القاهرة لسائر الأعداء ، **ودامغة لباطل كل عنيد** ، وذلة لكل صادق مريد ، **والهيبة** : هي ما يجده كل من واجههم من القهر على امتثال أمرهم ، وتعظيم شأنهم وإن كانوا من الجهال العوام ، والأجلاف الطَّغام ؛ حتى الوحوش والأنعام ، **فإنها تدين لهم بالإجلال والاحترام** ، إلا من برز في حلة الجدال من أهل الزيغ والضلال ؛ فإنه يتجاهل بهم ويغض عن مقامهم مع ما هو متحقق به من علو مراتبهم .

**والعزة** : هي رفع هممهم عن الأكوان ، وتعلُّقُ مطالبهم بجناب سيدهم ، واغتناؤهم به عن كل شيء سواه ، وعدم طلبهم لغرض إلا

إياه ، فهٰذا من عزة المؤمن المتصلة بعزة الله ونبيه ؛ حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولي في ذٰلك :

| | |
|---|---|
| يا مُلْبس السادة الأجناب هيبته | القائمين بعز الله كل ولي |
| نجائب الكون أنصار لسُنَّته | في كل وقت ونهج الحق معتدل |

* * *

فلما تخلفت المظاهر الخلقية المسبوقة بالعدم بلائح أنوار القدم . . عرف الشيء من أصله ، وردَّ الحق لأهله ، فقال :

أَنْتَ ٱلذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ ٱلذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَادِئُ بِٱلْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ ٱلْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِٱلْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ ٱلطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ ٱلْوَهَّابُ لَنَا ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ ٱلْمُسْتَقْرِضِينَ !!

هٰكذا شأن الموحدين إذا كرعوا مناهل اليقين ، وظهر لهم الحق المبين . . يرون أولوية الحق في سائر الأفعال ؛ فالذكر من الذاكرين حسب ما سبق من ذكره لهم بما ذكروه ، قال جلَّ من قائل : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ أي : ذكري لكم حسب ما ذكرتموني ، وهٰذا فيه رائحة إخبار عن ذكره لهم ؛ لأن ذكرهُ قديم ، وهٰذا علىٰ حسب ما ذكرتموني . . أذكركم ، فالقرآن قديم ، وهم حادثون : من أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، وعلم الحق فيهم وبهم قديم ، فهٰذا ذكره لهم قبل بروزهم من كتم العدم .

وبدو الإحسان كذٰلك أن أهَّلَهم لطاعته ، وهيَّأهم لعبادته ، وقرَّبهم لمحبته ، وواجههم برحمته قبل توجههم وتعبدهم ؛ فهو البادئ

بالإحسان وفيض الامتنان قبل ظهور الأعيان ، وانبراء الأكوان ، ووجود الإنس والجان ، بقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما وهبهم من نور الإيمان ، وتنزيل القرآن على أكمل عالم الإنسان ؛ محمد المصطفىٰ من عدنان [ صلى الله وسلم عليه وتابعيه بإحسان ] وإرساله إلىٰ كافة الإنس والجان ، وأهَّلَهم للزوم كلمة التقوىٰ بقوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ .

فالذكر : ممَّا يختصُّ بالمقربين والصفوة الدائبين ، والإحسان : ممَّا يختصُّ به أهل الإحسان المكاشفين بأنوار الصفات الشاربين عين اليقين ، والعطاء : لأهل التلقِّي بالتلقين ، والآخذين عن الوسائط بعد مشاهدة البراهين ؛ وهم عموم المؤمنين ، وعمَّار أصحاب اليمين ، الآخذين في علم اليقين ؛ فهم عالم الأفعال ، ووراء أسجاف الحكمة منتظرون .

وهو البادئ بالعطاء كما يحكم بذٰلك الشرع والعقل من قبل طلب الطالبين ؛ لأن العقل يحكم أن أفعال الحق لا تعلَّل بعلة ، ولا تنال بفَعلة ، فلا يكون طلب الطالب يوجد أمراً لم يكن في علمه أنه لا يكون ، وما كان في علمه أنه يكون . . فما يفيد الطلب وتكلُّف معاناة تعب السبب ، والإضافات إلى النسب ؟! (١) .

وأنت الوهاب جميع ذٰلك ، والموصل إلينا ما هنالك ، ثم رفعْتَ شأن الإنسان علىٰ سائر الأكوان ؛ بأن نسبتَ إليه ما أنت واهبه ، واستقرضتَ منه ما أنت موجده ، ووعدتَه عليه بجزيل الجزاء ، وتمام الفضل في العقبىٰ ، وتضعيف الثواب ، [ في ] الدنيا والمآب ؛ فأما في الدنيا : فبالخلف الأكمل ، وفي العقبىٰ : بالجزاء الأوفىٰ ، فالحمد لله ؛

---

(١) فبقي الدعاء محض عبادة ، ونفعه بالنظر إلىٰ معلَّق القضاء ، أما بالنسبة لمبرمه . . فيقال للداعي : رُفعت الأقلام وجفت الصحف .

فما أعظم منَّته !! وما أتم نعمته !! يستقرض ما أعطاك ، يثيبك عليه في عقباك ، وتنال به الثناء عنده في إعطائه ما هو ملكه !! ولي في ذٰلك :

ذكـركَ تقـدم ذكـر الذاكريـن ومـا ... يذكـرْك عبد فـذاك الذكر منك بدا
يا بادئ الكل بالإحسـان منك فما ... للطائعيـن من الإحسـان منك يدا
أنت الجواد بإعطا الفضل منك كما ... بديـت بالـكل يـا منَّـان يـا صمدا
ثم أنت تستقرض العبد الضعيف أما ... أنت الذي توجـد الأعيان والمددا

## إِلَـٰهِي ؛ ٱطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَٱجْذِبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّىٰ أُقْبِلَ عَلَيْكَ

( إلـٰهي ) بمعنى المبتدي بالإحسـان ، والمتفضِّل بالعطاء والامتنان ( اطلبْنـي برحمتِكَ حتـىٰ أصلَ إليـكَ ، واجذبْني بمنَّتِـكَ حتىٰ أُقبلَ عليكَ ) .

الطلـب من الله لعبـده برحمته : هو عيـن ما هداه إليـه من طرق المجاهـدات ، والتقرُّب إليه بنوافـل العبادات ، وعرفه مـن أنواع البر والكرامات ، فإن الله تعالىٰ رحم العباد بطلب ذٰلك منهم ؛ لينالوا عظيم مـا عنده من الفضل العظيم ، والنعيم الدائم المقيم ، ووقاية من العذاب الأليم .

فرحمهم بإرسال الرسل وإنزال الكتاب ، وأعطاهم أهلية الفهم لذٰلك والقبول له ، وأعانهم على القيام بمقتضىٰ ما عرفوه ، ثم مدحهم وأثابهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ، وذٰلك مبتدأ منه من غير شعور

لهم بشيء منه ؛ لأنهم في أول شأنهم ومبتدأ خلقتهم لا علم لهم بشيء ، ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ ، فهٰذا من الطلب منه برحمته ، فوصلوا إليه بما رحمهم به .

( واجذبني بمنَّتك ) بعد الوصول إليك بالرحمة أو قبل الطلب ، وذٰلك بمعنى الجذب قبل سبق سلوكٍ وتحري طاعةٍ ؛ كما كان لطوائف من المقربين ، والسادة المجذوبين ، والخصوص المحبوبين .

إما بعد سلوك . . فيتدارك بالجذب ، أو قبل ؛ بأن يختطف بجذبة إلٰهية ، ونفحة ربانية ، وعطية امتنانية ، تخصُّهُ من بين أبناء جنسه ، وتأخذه عن عالم حسِّه ، وتلقيه في بحر شهود الذات العلية ، وتشهده مظاهر الأوصاف القدسية ، ويكون بحكم الأولوية ، ولا يرىٰ للأغيار وجوداً ، ولا للآثار في قلبه شهوداً ، بل مستغرق السر والروح والقلب في شهود الأحد المعبود ، وإن شاء الله به إرشاد العباد . . ردَّه رحمةً في البلاد ، ونعمةً سابغةً على العباد ، يبيد العناد ، ويزيل الفساد ، ويمنح من أطاعه صِرْف الوداد ، مؤيداً بالروح الامتناني ، ومؤزراً بالسِّرِّ الصمداني .

فهٰذا معنىٰ جذبة المنَّة والإقبال على الله على الدوام ، لا يكون إلا للمحبوبين والخواص المجذوبين ، فلا يجدون للأغيار عندهم وجوداً ، ولا للآثار في قلوبهم شهوداً ، فطلب المؤلف للوصول بالرحمة والجذب ثانياً بالمنة ؛ ليكون متحققاً بكل المقامين ، عارفاً بمعنى الاسمين : الباطن والظاهر ، الأول والآخر ، كما هو لأهل الكمال ، الكارعين مناهل الوصال ، الحاكمين على الأحوال ، ولي في ذٰلك :

مـن كان بالرحمـة الرحمـٰن يطلبه ... إلـى السـلوك ونـورُ الشـرع يرعاهُ
ومـن يكـن ثـمَّ مجذوبـاً بمنَّتـه ... هـو المهنا وكهـف القـرب مـأواهُ

## إِلَـٰهِي ؛ إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، وَإِنَّ خَوْفِي لَا يُزَايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ (١)

ذكر الخوف والرجاء هنا تنبيهاً منه على سرِّ هٰذين المقامين الشريفين ؛ **لأن ظاهر الرجاء والخوف للعامة** من العوارض الحادثة ، يخافون عند وجود عارض حادث ، ويرجون كذٰلك ؛ فإن أقيموا في مقام العدل ، الذي أثره في العبد المعصية وجزاؤها العقاب وأصناف العذاب . . **خافوا** ، وإن أقيموا في الطاعة التي هي أثرُ الفضل في العبد وجزاؤها الجنة . . **رجوا** .

**والعارفون شاهدوا بواطن الأشياء** ؛ إذ شاهد الخَلْقُ ظواهرها ، فيشاهدون الصفات العلية والأسماء العلوية ، وهي لا نسبة بينها وبين الأفعال الخلقية ، **فلا يزايلهم شهود العدل** وإن أطاعوا ، **ولا تغيب صفات الفضل** وإن عصوا ؛ فهم الذين قاموا له بحكم العبودية من غير علة .

وإذا شاهدوا الأفعال الصادرة عنهم . . **لم يجدوها شيئاً** بالإضافة إلىٰ ما هم مشاهدون من الصفات الحقية ، إن نظروا إلى الطاعة الصادرة عنهم . . **نادتهم الصفة العدلية** وقوة نفوذها وعلية حكمها ، فلم يعتمدوا علىٰ طاعتهم : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ علماً منهم بأنها إن تجلَّت بالحكم . . **غلبتهم** ، وإن نظروا إلىٰ ما برز منهم من المعصية . . **نادتهم الصفة الفضلية** : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

(١) في النسخ : ( لؤمي لا يزايلني وإن أطعتك ) ، وشرح المصنف على المثبت أعلاه ، وكذا في الحكم وشروحها أيضاً .

ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، فلم يزل بهم ذٰلك ، فلم تزايلهم هٰذه شهود الصفات ، ولا يعتريهم عما هم عليه ما يبرز عنهم من الحسنات والسيئات ، هٰذا خلاف ما أهل الرسوم عليه ، وما عموم الخلق مستندون إليه ، ولي في ذٰلك :

رجائي لا ينقطع عن فضلك العمم ... وإن عصيت فشأن العبد يا ٱنسان

والخوف من مكر جبار يكون وإن ... كنت المطيع وقم للعدل ميزان

**إِلَٰهِي ؛ قَدْ دَفَعَتْنِي ٱلْعَوَالِمُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ**

هٰذا مفسِّر لما تقدَّم من كلامه ، **العوالم** : جمع عالم ؛ وهي كل ما سوى الله سبحانه ، إن اعتمدتُ على الطاعة . . لم أجدها مخلِّصة لي من عدلك إلا بما وعدت من جزيل كرمك وفضلك ، وإن شردت عنك بالمعصية . . ردَّتني إليك بشمول رحمتك وسبوغ فضلك .

فعلى الحقيقة : إن العوالم كلها تسير إليك ؛ فالخوف سابق إليك ، والرجاء داعٍ لعبادك إليك ، وكل وصفٍ من صفاتك ، أو اسمٍ من أسمائك ، أو فعلٍ من أفعالك . . ناطقٌ بوحدانيتك ، ومشير إلىٰ صمدانيتك .

فاسمك الكريم يشير إلىٰ أن الكريم لا تتخطاه الآمال ، ولا تنزل بغيره نوازل الأحوال ، وغيره كذٰلك ، والمصائب والنكبات المؤلمة ملجئةٌ للعبد إلىٰ سيده ، والعوارض والعوائق محبسة له وحاثة ، وكذٰلك النعم ، وسائر كل عالم من ملائم وألم ، ولي في ذٰلك :

إليك دفعتني الأكوان يا صمدا وعلمي أوقفني أن الفضل منك بدا

**إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أُهِينُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي ؟!**

فلما تحقَّق ذٰلك . . عجب من أنه عبدُ الله ابتدأه بالإحسان ، وناداه بفوائد الامتنان ، قبل طلبٍ منه لذٰلك ولا تعرُّض ، فكيف يخيب بعدما ألبسه لبسة العرفان ، وتوَّجه بتيجان الإيمان ، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان ؟!

وكيف أهين بعد إعزازك إياي بنص القرآن ؛ بقولك : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد أكرمتني بكرامة المحبة ، وأنلتني بفضلك رتبة القرب بقولك : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ؟!

فذٰلك منك بدا من غير طلب منا ، ولا تعرُّض منا له ، أفتراك تذيقنا إهانة البعد بعد القرب ؟! أو تراك تهيننا بعدما وهبتنا ؟! ولي في ذٰلك :

حاشا تخيبنا الإحسان يا أملي ولا تهين الذي بالله متكلي

**إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَعِزُّ وَفِي ٱلذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟! إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَفِي ٱلْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ ٱلَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!**

هٰذه أمور متضادة وأوصاف متباينة ، تتحيَّر فيها أولو العقول ،

وتتزاحم فيها الأحكام والنقول ، ولكن أرباب الكشف إذا كُوشفوا بأسرار .. **أعطتهم الاستغناء** به ، والاعتراف بقربه ، وإذا وقفوا على ضعف خلقيتهم وذلة عبوديتهم .. **أعطتهم أن الافتقار لهم أصل** ، والذلة لهم وطن .

فكلما نظروا بعين الخلقية ، والذلة الأرضية .. **قال : واعجباً ؛ كيف أعزُّ وفي الذلة أركزتني** ، وجعلت فيها تصوير خلقتي ، وإليها مآب تربتي ؟!

وإذا نظر إلى نسبة الخصوصية ، والرتبة الروحية ، والمنزلة العلوية .. **قال : كيف لا أستعزُّ وإليك نسبتي ؟!** ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ ، و﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ ، ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ .

فإذا نظر إلى قوله : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ .. قال : **كيف لا أستعزُّ وإليك نسبتي ؟!** وإذا نظر إلى قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ .. قال : **كيف أستعزُّ وفي الذلة أركزتني ؟!** وذلك بيِّنٌ لذوي الأسرار ، لا غبار عليه ولا استتار ، ولي في ذلك :

فكيف أعزُّ وفي ذُلَّتيَ أركزني ... حكم الإله وهذا الشأن معلوم
أم كيف لا وإليك العبد نسبته ... تعطي بأنك للأكوان قيوم

**أَنْتَ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَرَأَيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**

( **أنت الذي لا إلـٰه** ) يقصد ، ولا ربَّ يعبد ( **غيرك** ) إذ الغير متوجِّه

إليه ، ومُقبِل بالطوع والإذعان بين يديه ، ينادي بلسان افتقاره ، ويفصح عن فاقته واضطراره : ( **تعرَّفت لكل شيء** ) بما أنت متجلٍّ به عليه ، ومتعرّف بالاقتدار عليه ، ( **فما جهلك شيء** ) ، بل مسبِّح ومنزِّه وموقِّر ومعظِّم بقولك : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، وبقولك : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ .

( **وتعرفت إليّ** ) خاصة بما وهبتني من سرِّ معرفتك ؛ **فما جهلتك في شيء** بجمالك وجلالك ، وفضلك وعدلك ( **حتىٰ رأيتك ظاهراً في كل شيء** ) بالحكم والقدرة والقيام والأمر ، ( **فأنت الظاهر لكل شيء** ) بالقدرة القاهرة ، والمشيئة النافذة ، والمحجة الظاهرة بالأفعال والصفات ، **الباطن عنها** بالكنه والذات ، ولي في ذٰلك :

أنت الإلٰه الذي لا مثل يشبهه ولا نظير من الأنداد حاشاهُ
لكل شيء تعرف بالذي ظهرت من سرِّ قدرته تبارك اللهُ

**يَا مَنِ ٱسْتَوَىٰ بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ ، فَصَارَ ٱلْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ ؛ كَمَا صَارَتِ ٱلْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ**

**العرش** : مستوى الرحمة التي وسعت الأشياء ، وأبرزت العوالم من ظلمة العمىٰ ، وهي صفةٌ من صفات الله ، **إليها ينتهي مجموع أسرار الصفات ، فلها السبق** على التفصيليات والإجماليات ، **ومنها ظهر اختراع سائر الأكوان** المُلْكيات والملكوتيات والجبروتيات .

**والعرش** : سقف العوالم العلويات والسفليات ، والحسيات والمعنويات ، والجسمانيات والروحانيات ، **وهي من العلم الأزلي**

كالصـــورة ، والعلم روحها ، والعرش من جملة الأركان ، وهو غيب فيها لسعتها ، ولها الأصالة ، والفرع عن الشيء يكون غيباً فيه لا محالة ، وهو مجلاها ومحل ظهورها واستوائها[1] .

وسـائر الأكـوان غيـبٌ في العرش ؛ لأنهـا مصرَّفة لـه ومندرجة تحت سـعته ، وبوجوده ظهرت حكمة الله بإبراز كل ذي جسـمٍ وروحٍ في هٰذا التجلي العرشـي ، الذي هو مجلىٰ مجموع السـبع الصفات ، المعبَّر عنه بـروح القـدس ، فالأكوان غيبٌ فيه ، كما أنه غيبٌ في الرحمة ، والرحمة صفـة ذاتيـة ، فاسـم الرحمٰن تدخل تحته الأسـماءُ الإيجاديـة ، ولي في ذٰلك :

فيـا الـذي هـو رحمـان فرحمتـه ... بالاسـتوا صار عرش الله غيب هبا
كمـا العوالـم فيهـا وهـو مظهرهـا ... دور فــذاك لفعــل الله منتسـبا

مَحَوْتَ ٱلْآثَارَ بِٱلْآثَارِ[2] ، وَمَحَوْتَ ٱلْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ ٱلْأَنْوَارِ

محـو الآثار : هو اضمحلالهـا واندراجها ، فالجنة والنار والسـماوات وسـائر الأقطـار آثـار ، وكلهـا بالإضافـة إلى العـرش وسـعته متلاشـية ، والعـرش غيـرٌ كما علمت ، وهو ممحوٌّ بأنوار الصفات العلية والتجليات الأزلية ، وفلك العرش : هو الفلك الأطلس الذي لا ينتهي سيره في الدنيا ولا في الآخرة ، وسائر الأفلاك تدور بدورانه .

---

(١) ما ذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ هنا هو خلاصة إشارة ألمع لها إمامنا الغزالي في « إلجامه » و« مشكاته » .
(٢) في النسخ : ( محقت الآثار بالآثار ) بدل : ( محوت الآثار بالآثار ) .

وأفلاك الأنوار : هي الأسماء الحسنىٰ ، وأفلاك الأقطار : هي ما دون الأثير إلى الثرىٰ ، وهنا أسرار لا يجوز إذاعتها ، ولي في ذٰلك :

محقت كل وجودٍ في الوجود إذا ... كل الوجود إلى العرش المجيد هبا
والعرش في رحمة الله الإلٰه كذا ... محو فلا يأتينَّ الخلق منه نبا

## يَا مَنِ ٱحْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ ٱلْأَبْصَارُ

**العزة** : وصفٌ يقتضي اضمحلال ما سواه ، وفناء كل ما عداه ، **والسرادق** : هو كل ما يحتجب به من محرقات الأنوار ، وورد « حجابه النار »[1] ، وكل منيع الوصل يسمىٰ عزيزاً ، **والعزيز** : هو الذي لا يجوز على الخواطر الارتقاء إلىٰ مناله ، ولا يتصوَّر لذي فهمٍ أن يقصد تصوره بتكييف ، بل إيمان بوجوده بلا كيف ولا أين ، ولي في ذٰلك :

يا من كذا في حجاب العز ممتنع ... فلا إلىٰ دركه بالكيف تصوير
أنت الذي في جنان الخلد تتحفنا ... برؤية لا يُشبْها ريبُ تغرير

## يَا مَنْ تَجَلَّىٰ بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتَهُ ٱلْأَسْرَارُ[2]

**كمال البهاء** : هو ما تجلَّىٰ به لقلوب أوليائه من بديع لطفه حتىٰ عرفوه ، وبتلطُّفه عُرِفَ ، وبقدر ما يدنو يكون اللطف أرق .

---

(١) تقدم تخريجه ( ص ١٧٤ ) .
(٢) إلىٰ هنا انتهت النسخة ( د ) .

كَيْفَ تَخْفَىٰ وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ ٱلرَّقِيبُ ٱلْحَاضِرُ ؟!
وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ

ثم أخبر عن إفاضة الألطاف عليه حتىٰ شهده ظاهر ، وتعجَّب ممن يظن غيبته ، **والرقيب** : هو المراقب لخطرات الباطن ولمحات النواظر ، بقوله : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ ، ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بمعنىٰ حاضر علىٰ كل نفس بما كسبت .

( **والله الموفق** ) لما هو الحق عنده والمقبول لديه ، ( **وبه أستعين** ) وهو خير معين ، **والتوفيق في الأعمال** البدنية والنيات القلبية . . إن وافقت ما هو الحق عند الله ، والاستعانة . . في كل أمر باطناً وظاهراً .

والله أعلم

## خاتمة النسخة ( أ )

تم الكتاب بعون الله الكريم الجواد ، والحمد لله رب العالمين .

## خاتمة النسخة ( ب )

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً .

**وكان الفراغ من زبر هٰذا الكتاب صبح يوم الجمعة ، الثالث من شهر ربيع ثاني ، أحد شهور عام ( ١٢٦٦ ) سنة ست وستين ومئتين وألف من الهجرة النبوية ، علىٰ مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، بقلم الفقير الحقير عبد الرحيم بن عبد الله بن عمر باعبده ، سامحه الله تعالىٰ .**

## خاتمة النسخة ( ج )

تم الجزء الأول من « **شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم** » بحمد الله ومنِّه وكرمه ، وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين .

علىٰ يد أفقر عباد الله وأحوجهم فيما لديه : **عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمٰن باجابر** ، عفا الله عنهم ، وفرغ من زبره ضحى السبت ، آخر شهور جماد أول ، أحد شهور سنة ثلاث وسبعين ، تقبل الله ذٰلك بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين .

**يتلوه الجزء الثاني : « الصلاة محل المناجاة » والله أعلم وأحكم بغيبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .**

❋ ❋ ❋

# أهم المصادر والمراجع


- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي ( ت ١٢٠٥ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- إحياء علوم الدين ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي ( ت ٥٠٥ هـ ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، ( ١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- أدب الإملاء والاستملاء ، لابن السمعاني ؛ الإمام الحافظ محدث خراسان تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي الشافعي ( ت ٥٦٢ هـ ) ، عني به ماكس فايسفايلر ، ط ١ ، ( ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الأربعون في التصوف ، للسلمي ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي ( ت ٤١٢ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م ) ، شركة دار المشاريع ، بيروت ، لبنان .

- الإرشـــاد والتطريز في فضل ذكـــر الله تعالىٰ وتلاوة كتابه العزيز وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، **لليافعي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي الشافعي ( ت ٧٦٨ هـ ) ، تحقيـــق أنس محمد عدنـــان الشـــرفاوي ، ط ١ ، ( ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٧ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- إيقـــاظ الهمم في شـــرح الحكم ، **لابن عجيبة** ؛ الإمام المفســـر المشـــارك الشريف أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحســـني الإدريسي التطواني المالكي ( ت ١٢٢٤ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣٢٤ هـــ ، ١٩٠٤ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، القاهرة ، مصر .
- البحر الزخار ، المســـمىٰ « مســـند البزار » **للبزار** ، الإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بـــن عبد الخالق البصري البزار ( ت ٢٩٢ هـ ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط ١ ، ( ١٩٨٨ م ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- بداية الهداية ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشـــافعي ( ت ٥٠٥ هـ ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط ١ ، ( ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م ) ، دار المنهـــاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
- البـــردة ، **للبوصيـــري** ؛ إمـــام المادحين وأعجوبـــة النثر والنظم

شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد بن حماد المغربي الصنهاجي البوصيري ( ت ٦٩٦ هـ ) ، عني بها الدكتور محمد شريف عدنان الصواف ، ط ١٠ ، ( ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م ) ، دار السنابل ، دمشق ، سورية .

- البرهان المؤيد لصاحب مد اليد مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد ، **للرفاعي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفسر شيخ الطريقة الرفاعية محيي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني الأنصاري الشافعي ( ت ٥٧٨ هـ ) ، تحقيق حسن عبد الحكيم عبد الباسط ، ط ١ ، ( ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م ) ، نشره محققه ، دمشق ، سورية .

- البعث والنشور ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي ( ت ٤٥٨ هـ ) ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط ١ ، ( ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- البيان في مذهب الإمام الشافعي ، **للعمراني** ؛ الإمام الفقيه الأصولي يحيى بن أبي الخير سالم بن أسعد العمراني اليماني الشافعي ( ت ٥٥٨ هـ ) ، عني به الشيخ قاسم محمد النوري ، ط ١ ، ( ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- تاج العروس من جواهر القاموس ، **للزبيدي** ؛ الإمام الكبير الحافظ

الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضىٰ بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي ( ت ١٢٠٥ هـ ) ، تحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج ( ت ١٤٠٢ هـ ) وجماعة من أئمة التحقيق ، ط ١ ، ( ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م ) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

- تاريخ أصبهان ، المسمىٰ : « ذكر أخبار أصبهان » ، **لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي ( ت ٤٣٠ هـ ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، ( ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- تاريخ بغداد ( تاريخ مدينة السلام ) ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي ( ت ٤٦٣ هـ ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط ١ ، ( ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **لابن عساكر** ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي ( ت ٥٧١ هـ ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط ١ ، ( ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م ) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- التدوين فـي أخبار قزوين ، **للرافعي** ؛ الإمام الفقيه عالم العرب والعجم وشيخ الشافعية إمام الدين أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني ( ت ٦٢٣ هـ ) ، تحقيق عزيز الله العطاردي الحبوشاني ، ط ١ ، ( ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م ) ، دار الباز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

- التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي ( ت ٤٦٣ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ط ١ ، ( ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م ) ، دار المدني ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- تفسير القرطبي ، المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، **للقرطبي** ؛ الإمام الفقيه المفسر اللغوي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي المالكي ( ت ٦٧١ هـ ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، ( ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- التفسير الكبير ، المسمى : « مفاتيح الغيب » ، **للرازي** ؛ الإمام الحافظ المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر ابن الحسين البكري الرازي الشافعي ( ت ٦٠٦ هـ ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، ( ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة البهية لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- تهذيب الأسـرار ، **للخركوشـي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه العارف بالله عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسـابوري الخركوشي ( ت ٤٠٧ هـ ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، ( ١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م ) ، إصدارات السـاحة الخزرجية ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة .
- الجامـع لأخلاق الراوي وآداب السـامع ، **للخطيب البغدادي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي ( ت ٤٦٣ هـ ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، ( ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م ) ، مؤسسـة الرسـالة ، بيروت ، لبنان .
- الجامع لشعب الإيمان ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبـي بكر أحمد بن الحسـين بن علي الخسـروجردي البيهقي الشافعي ( ت ٤٥٨ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، ( ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م ) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- حليـة الأوليـاء وطبقات الأصفيـاء ، **لأبي نعيـم الأصبهاني** ؛ الإمـام الحافظ المـؤرخ الثقة أبي نعيـم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهرانـي الأصبهاني الشـافعي ( ت ٤٣٠ هـ ) ، ط ٥ ، ( ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م ) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة ( ١٣٥٧ هـ ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، للمحبي ؛ الإمام القاضي الأديب المؤرخ محمد أمين بن فضل الله بن محمد المحبي العلواني الحموي الدمشقي الحنفي ( ت ١١١١ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٢٨٤ هـ ، ١٨٦٤ م ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الوهبية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الدعاء ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني ( ت ٣٦٠ هـ ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد محمد حسن البخاري ، ط ١ ، ( ١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م ) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- ديوان ابن الفارض ، لابن الفارض ؛ سلطان العاشقين العارف بالله شرف الدين أبي حفص عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض السعدي الحموي المصري الشافعي ( ت ٦٣٢ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ذم الدنيا ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي ( ت ٢٨١ هـ ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ، ( ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م ) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الرسالة القشيرية ، للقشيري ؛ الإمام العلم القدوة الأستاذ زين الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي ( ت ٤٦٥ هـ ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، ( ١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- الرعاية لحقوق الله ، **للمحاسبي** ؛ الإمام الأصولي الصوفي أبي عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري ( ت ٢٤٣ هـ ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٤ ، ( بدون تاريخ ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد الكبير ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي ( ت ٤٥٨ هـ ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، ( ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م ) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن حماد عليه ، **لابن المبارك** ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي ( ت ١٨١ هـ ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط ١ ، ( ١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م ) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي ( ت ٢٨١ هـ ) ، تحقيق ياسين السواس ، ط ١ ، ( ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م ) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- الزهـد ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي ( ت ٢٤١ هـ ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، ( ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- سنن ابن ماجه ، **لابن ماجه** ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني ( ت ٢٧٣ هـ ) ، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي ( ت ١٣٨٨ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م ) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- سنن أبي داوود ، **لأبي داوود** ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني ( ت ٢٧٥ هـ ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٣ ، ( ١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- سنن الترمذي ، المسمى : « الجامع الصحيح » ، **للترمذي** ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة السلمي الترمذي ( ت ٢٧٩ هـ ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر ( ت ١٣٧٧ هـ ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي ( ت ١٣٨٨ هـ ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض ( ت ١٤١٧ هـ ) ، ط ٢ ، ( ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- سنن الدارقطني ، **للدارقطني** ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي الشافعي ( ت ٣٨٥ هـ ) ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط ١ ، ( ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
- السنن الكبرىٰ ، **للنسائي** ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني ( ت ٣٠٣ هـ ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، ( ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- السنن الكبير ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي ( ت ٤٥٨ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، ( ١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م ) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .
- سنن النسائي ( المجتبىٰ ) ، **للنسائي** ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني ( ت ٣٠٣ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م ) ، نسخة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، **لابن العماد** ؛ الإمام الفقيه الأديب المؤرخ شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن

محمد ابن العماد العكري الدمشقي الحنبلي ( ت ١٠٨٩ هـ ) ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط ١ ، ( ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م ) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- شرح الحكم العطائية **للشرقاوي** ، الإمام الفقيه شيخ الأزهر عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي ( ١٢٢٧ هـ ) ، تقديم ومراجعة عاطف وفدي ، مكتبة الرحمة المهداة ، المنصورة ، مصر .

- شرح العلامة الزرقاني على « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » ، **للزرقاني** ؛ الإمام المحدث الحجة الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي ( ت ١١١٢ هـ ) ، عني به محمد عبد العزيز الخالدي ، ط ١ ، ( ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- شرح حكم ابن عطاء الله ، **لزروق** ؛ الإمام الحجة العارف بالله أبي العباس أحمد بن محمد بن عيسىٰ زروق البرنسي الفاسي المالكي ( ت ٨٩٩ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ( ت ١٣٩٨ هـ ) والدكتور محمود بن الشريف ، ط ١ ، ( ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة النجاح ، طرابلس ، ليبيا .

- الشريعة ، **للآجري** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الحجة أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي ( ت ٣٨٧ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ، ط ٣ ، ( ١٤٢٨ هـ ،

٢٠٠٧ م ) ، دار الفضيلة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، **للترمذي** ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي ( ت ٢٧٩ هـ ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط ٢ ، ( ١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م ) ، دار البيروتي ، دمشق ، سورية .
- صحيح البخاري ، المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » ( الطبعة السلطانية العثمانية ) ، **للبخاري** ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري ( ت ٢٥٦ هـ ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، ( ١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م ) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، بيروت ، لبنان . جدة ، المملكة العربية السعودية .
- صحيح مسلم ، المسمى : « الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، **لمسلم** ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ( ت ٢٦١ هـ ) ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، ( ١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م ) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، المملكة العربية السعودية . بيروت ، لبنان .
- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، **للتاج السبكي** ؛ الإمام الحافظ المجتهد

النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي ( ت ٧٧١ هـ ) ، تحقيق محمــود محمد الطناحــي والدكتور عبد الفتــاح محمد الحلو ( ت ١٤١٤ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

ـ طبقات الصوفية ، للســلمي ؛ إمام الصوفيــة وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحســين بن محمد الأزدي الســلمي ( ت ٤١٢ هـ ) ، تحقيــق نور الدين شــريبه ، ط ٢ ، ( ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م ) ، طبعة مصورة عن نشــرة المحقق سنة ( ١٩٥٣ م ) لدىٰ دار الكتاب النفيس ، دمشق ، سورية .

ـ العظمة ، لأبي الشــيخ ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمــد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشــيخ بن حيان الأصبهاني الأنصــاري ( ت ٣٦٩ هـ ) ، تحقيــق رضاء الله بن محمــد المباركفــوري ، ط ٢ ، ( ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م ) ، دار العاصمة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ـ عوارف المعارف ، للســهروردي ؛ الإمام المحدث شيخ الصوفية شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي القرشي البغــدادي الشــافعي ( ت ٦٣٢ هـ ) ، تحقيق أديب الكمدانــي ومحمد محمــود المصطفــىٰ ، ط ١ ، ( ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م ) ، المكتبة المكية ، مكــة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

ـ غريب الحديث ، **لابن سلام** ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني ( ت ٢٢٤ هـ ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط ١ ، ( ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، **لابن عباد** ؛ الإمام الفقيه الخطيب الزاهد أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عباد النفري الرندي الحميري المالكي ( ت ٧٩٢ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ( ت ١٣٩٨ هـ ) والدكتور محمود بن الشريف ، ط ١ ، ( ١٣٨٠ هـ ، ١٩٧٠ م ) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، مصر .

ـ فتاوى السبكي ، **للتقي السبكي** ؛ الإمام المجتهد الأصولي الحافظ تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي الأنصاري السبكي الشافعي ( ت ٧٥٦ هـ ) ، ط ١ ، ( بدون تاريخ ) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، **للديلمي** ؛ الإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الديلمي الهمذاني ( ت ٥٠٩ هـ ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، ( ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، **للمناوي** ؛ الإمام الفقيه الأديب زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين علي

المناوي القاهري الشافعي ( ت ١٠٣١ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م ) ، طبعة مصورة عن المكتبة التجارية الكبرىٰ لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد ، **لأبي طالب المكي** ؛ الإمام الفقيه شيخ الصوفية أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي الشافعي ( ت ٣٨٦ هـ ) ، بعناية العلامة محمد الزهري الغمراوي ( ت بعد ١٣٦٧ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣١٠ هـ ، ١٨٩٠ م ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس ، **للعجلوني** ؛ محدث الشام العلامة المفسر أبي الفداء إسماعيل بن محمد جراح بن عبد الهادي العجلوني الدمشقي الشافعي ( ت ١١٦٢ هـ ) ، ط ٣ ، ( ١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢ م ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، **للمتقي الهندي** ؛ العلامة المحدث الفقيه علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ابن قاضي خان البرهانفوري الهندي المدني الحنفي ( ت ٩٧٥ هـ ) ، عني به الشيخ بكري حياني والشيخ صفوت السقا ، ط ١ ، ( ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- لطائف المنن في مناقب المهتدين وقدوة السالكين ، **لابن عطاء الله السكندري** ؛ الإمام الكبير صاحب الإشارات العارف

بالله تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامي السكندري المالكي ( ت ٧٠٩ هـ ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ( ت ١٣٩٨ هـ ) ، ط ٢ ، ( ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م ) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- المجروحين من المحدثين ، **لابن حبان** ؛ الإمام الحافظ المجود الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي ( ت ٣٥٤ هـ ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، ( ١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م ) ، دار الصميعي ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- المخزون في علم الحديث ، **لأبي الفتح الأزدي** ؛ الإمام الحافظ البارع أبي الفتح محمد بن الحسين بن أحمد الأزدي الموصلي ( ت ٣٧٤ هـ ) ، تحقيق محمد إقبال السلفي ، ط ١ ، ( ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ) ، الدار العلمية ، دلهي ، الهند .
- المستدرك على الصحيحين ، **للحاكم** ؛ الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي ( ت ٤٠٥ هـ ) ، وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، ( ١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤ م ) ، دار الميمان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- مسند أبي يعلى الموصلي ، **لأبي يعلىٰ** ، الإمام الحافظ محدث الموصل أبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي

( ت ٣٠٧ هـ ) ، تحقيق حسـين سليم أسـد الداراني ، ط ٢ ، ( ١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م ) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي ( ت ٢٤١ هـ ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي الدكتور أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، ( ١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

ـ مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، **للحبشي** ؛ الشريف البحاثة عبد الله محمد الحبشي الحضرمي اليمني ، ط ١ ، ( ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م ) ، المجمـع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمـارات العربية المتحدة .

ـ المصنـف ، **لعبد الرزاق الصنعاني** ؛ الإمـام الحافظ الثقة عالم اليمن أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني ( ت ٢١١ هـ ) ، تحقيق حبيـب الرحمٰن الأعظمـي ، ط ٢ ، ( ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

ـ معجم الأدباء ، المسمىٰ : « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » ، **لياقـوت الحمـوي** ؛ العلامة المؤرخ الأديب الجغرافي شـهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي ( ت ٦٢٦ هـ ) ، قدم لـه الدكتور عمر فـاروق الطباع ، ط ١ ، ( ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م ) ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان .

ـ المعجم الأوسط ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني ( ت ٣٦٠ هـ ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، ( ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

ـ المعجم الكبير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني ( ت ٣٦٠ هـ ) ، ومعه : « الأحاديث الطوال » ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، ( ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للسخاوي ؛ الإمام الحافظ الناقد شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي ( ت ٩٠٢ هـ ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، ( ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ من غاب عنه المطرب ، للثعالبي ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ( ت ٤٢٩ هـ ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط ١ ، ( ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ م ) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي ( ت ٥٠٥ هـ ) ، عني به بوجمعة عبد القادر مكري ، ط ١ ، ( ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، **للحكيم الترمذي** ؛ الإمام الولي المحدث المفسر الحكيم أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن المؤذن الترمذي الصوفي الشافعي ( ت ٣١٨ هـ ) ، تحقيق الدكتور نور الدين جيلار البوردري ، ط ١ ، ( ١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م ) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، **لابن خلكان** ؛ الإمام المؤرخ قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان البرمكي الإربلي الدمشقي الشافعي ( ت ٦٨١ هـ ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس ( ت ١٤٢٤ هـ ) ، ط ١ ، ( ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

* * *

# محتوى الكتاب


بين يدي الكتاب .......... ٩

تقديم بقلم فضيلة العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني .......... ١٦

ترجمة الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالىٰ .......... ٢١

عناية العلماء بـ « الحكم العطائية » .......... ٢٧

ـ شرح الشيخ علي باراس لـ « حكم ابن عطاء الله » .......... ٣٥

ترجمة الإمام علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالىٰ .......... ٣٨

ـ مشجر ذرية الشيخ باراس .......... ٤٧

وصف النسخ الخطية .......... ٤٨

مسيرة العمل في الكتاب .......... ٥١

صور من المخطوطات المعتمدة .......... ٥٥

* * *

« الحكم العطائية والمكاتبات والمناجاة الإلـٰهية » ٦٣

* * *

« شرح الحكم العطائية » المسمىٰ :

« شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » ١٠٧

خطبة المؤلف .......... ١٠٩

١ ـ من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء .......... ١١٣

٢ ـ إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب .......... ١١٨

٣ ـ سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار .......... ١٢٣

٤ ـ أرح نفسك من هم التدبير فما قام به عنك غيرك .......... ١٢٥

٥ ـ اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك .......... ١٢٧

٦ ـ لا يكن تأخر إمداد العطاء مع الإلحاح في الدعاء .......... ١٣٠

٧ ـ لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود به .......... ١٣٦

٨ ـ إذا فتح لك وجهةً من التعرف فلا تبال معها .......... ١٣٨

٩ ـ تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال .......... ١٤٥

١٠ ـ الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود الإخلاص فيها .......... ١٤٨

١١ ـ ادفن وجودك في أرض الخمول .......... ١٥٠

١٢ ـ ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .......... ١٥٩

١٣ ـ كيف يشرق قلب وصور الأكوان منطبعة في مرآته ؟! .......... ١٦٥

١٤ ـ الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه .......... ١٧٣

١٥ ـ مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك .......... ١٧٧

١٦ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟! ١٨٠

١٧ ـ ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث .......... ١٨٧

١٨ ـ إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونة النفس .......... ١٩٠

١٩ ـ لا تطلبه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ....١٩٢
٢٠ ـ ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها ........١٩٤
٢١ ـ طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة عنه ..............١٩٨
٢٢ ـ ما من نَفَسٍ تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه ............٢٠٣
٢٣ ـ لا تترقب فراغ الأغيار فإن ذٰلك يقطعك ..............٢٠٨
٢٤ ـ لا تستغربِ وقوع الأكدار ما دمت مقيماً في هٰذه الدار ...٢١٠
٢٥ ـ ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ....................٢١٤
٢٦ ـ من علامات النجح في النهايات .....................٢١٥
٢٧ ـ من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .....................٢١٧
٢٨ ـ ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر .....٢١٨
٢٩ ـ شتان بين من يستدل به وبين من يستدل عليه ..........٢٢١
٣٠ ـ ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ : الواصلون إليه ..............٢٢٦
٣١ ـ اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون .........٢٢٧
٣٢ ـ تشوفك إلىٰ ما بطن فيك من العيوب خير ..............٢٣٠
٣٣ ـ الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت ..............٢٣٣
٣٤ ـ اخرج عن أوصاف بشريتك ..........................٢٣٦
٣٥ ـ أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس .........٢٣٩
٣٦ ـ شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة ..........٢٤٥

٣٧ ـ كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ........ ٢٤٨
٣٨ ـ لا تتعدين همتك إلىٰ غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال .... ٢٤٨
٣٩ ـ لا ترفعن إلىٰ غيره حاجةً هو موردها عليك ............ ٢٥٠
٤٠ ـ إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه حسن ظنك به ........ ٢٥٣
٤١ ـ العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه .... ٢٥٧
٤٢ ـ لا ترحل من كون إلىٰ كون ........................ ٢٦٠
٤٣ ـ لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله .. ٢٦٥
٤٤ ـ ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك ................ ٢٧٢
٤٥ ـ ما قل عمل برز من قلب زاهد ...................... ٢٧٤
٤٦ ـ حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال .................. ٢٧٦
٤٧ ـ لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ............. ٢٧٦
٤٨ ـ من علامات موت القلب ............................ ٢٨٢
٤٩ ـ لا يعظم الذنب عندك عظمةً تصدك .................. ٢٨٤
٥٠ ـ لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله .... ٢٨٨
٥١ ـ لا عمل أرجىٰ للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ...... ٢٩٠
٥٢ ـ إنما أورد عليك الوارد لتكون عليه به وارداً ............ ٢٩٢
٥٣ ـ أورد عليك الوارد ليستلمك من يد الأغيار ............ ٢٩٤
٥٤ ـ أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك ........... ٢٩٦

٥٥ ـ الأنوار مطايا القلوب والأسرار ........................ ٢٩٨
٥٦ ـ النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ............... ٢٩٩
٥٧ ـ النور له الكشف والبصيرة لها الحكم ..................... ٣٠٢
٥٨ ـ لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ........................ ٣٠٤
٥٩ ـ قطع السائرين إليه والواصلين إليه ...................... ٣٠٦
٦٠ ـ ما بسقت أغصان ذل إلا عن بذر طمع ........................ ٣٠٨
٦١ ـ ما قادك شيء مثل الوهم .................................. ٣١٣
٦٢ ـ أنت حر عما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع ......... ٣١٥
٦٣ ـ من لم يقبل إلى الله بملاطفات الإحسان قيد إليه .......... ٣١٨
٦٤ ـ من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ..................... ٣٢١
٦٥ ـ خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه .............. ٣٢٧
٦٦ ـ من جهل المريد أن يسيء الأدب ............................ ٣٣٠
٦٧ ـ إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد ................. ٣٤١
٦٨ ـ قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته ............. ٣٤٥
٦٩ ـ قلما تكون الواردات الإلـٰهية إلا بغتةً ................... ٣٤٨
٧٠ ـ من رأيته مجيباً عن كل ما يسأل ومعبراً ................... ٣٥٢
٧١ ـ إنما جعل الدار الآخرة محلّاً لجزاء عباده المؤمنين ....... ٣٥٥
٧٢ ـ من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على .................. ٣٦٠

٧٣ ـ إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك ...... ٣٦٣
٧٤ ـ متىٰ رزقك الطاعة والغنىٰ به عنها فاعلم .................. ٣٦٥
٧٥ ـ خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك ....................... ٣٦٧
٧٦ ـ الحزن علىٰ فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها ........ ٣٦٩
٧٧ ـ ليس العارف من إذا أشار وجد الحق ..................... ٣٧١
٧٨ ـ الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية ...................... ٣٧٣
٧٩ ـ مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية ....... ٣٧٦
٨٠ ـ بسطك كي لا يبقيك مع القبض وقبضك .................. ٣٧٩
٨١ ـ العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ............... ٣٨٤
٨٢ ـ البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض ...... ٣٨٧
٨٣ ـ ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك .................. ٣٨٩
٨٤ ـ متىٰ فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع ............... ٣٩٠
٨٥ ـ الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ......................... ٣٩٢
٨٦ ـ إن أردت أن يكون لك عزٌّ لا يفنىٰ ......................... ٣٩٥
٨٧ ـ الطي الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك ................ ٣٩٧
٨٨ ـ العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان ........... ٣٩٩
٨٩ ـ جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئةً ............... ٤٠١
٩٠ ـ كفىٰ من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً ...... ٤٠٢

٩١ ـ كفى العاملين جزاءً ما هو فاتحه على قلوبهم .......... ٤٠٤
٩٢ ـ من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته .......... ٤٠٦
٩٣ ـ متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره .......... ٤١٠
٩٤ ـ إنما يؤلمك المنع ؛ لعدم فهمك عن الله فيه .......... ٤١٢
٩٥ ـ ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول .......... ٤١٤
٩٦ ـ معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة .......... ٤١٧
٩٧ ـ نعمتان ما خرج موجود عنهما .......... ٤٢٠
٩٨ ـ أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد .......... ٤٢٢
٩٩ ـ فاقتك له ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك .......... ٤٢٥
١٠٠ ـ خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك .......... ٤٢٩
١٠١ ـ متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد .......... ٤٣١
١٠٢ ـ متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك .......... ٤٣٣
١٠٣ ـ العارف لا يزول اضطراره ولا يكون .......... ٤٣٥
١٠٤ ـ أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه .......... ٤٣٧
١٠٥ ـ ليخفّفن ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه .......... ٤٤١
١٠٦ ـ من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذٰلك لقصور نظره .......... ٤٤٤
١٠٧ ـ لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك .......... ٤٤٩
١٠٨ ـ سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية .......... ٤٥٢

١٠٩ ـ لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ........ ٤٥٥
١١٠ ـ متىٰ جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره ........ ٤٥٧
١١١ ـ ليس من ثبت تخصيصه كمل تخليصه ........ ٤٦٠
١١٢ ـ لا يستحقر الورد إلا جهول الوارد يوجد ........ ٤٦٦
١١٣ ـ ورود الأمداد علىٰ حسب الاستعداد ........ ٤٧٢
١١٤ ـ الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل والعاقل ........ ٤٧٦
١١٥ ـ إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء ........ ٤٧٩
١١٦ ـ أمرك في هٰذه الدار بالنظر في مكوناته ........ ٤٨٢
١١٧ ـ علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه ........ ٤٨٥
١١٨ ـ لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات ........ ٤٨٧
١١٩ ـ الصلاة طهرة القلوب واستفتاح لباب الغيوب ........ ٤٩١
١٢٠ ـ متىٰ طلبت عوضاً علىٰ عمل ........ ٤٩٧
١٢١ ـ لا تطلب عوضاً علىٰ عمل لست له فاعلاً ........ ٤٩٩
١٢٢ ـ إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك ........ ٥٠٠
١٢٣ ـ لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ........ ٥٠٢
١٢٤ ـ كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً ........ ٥٠٤
١٢٥ ـ منعك أن تدعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين ........ ٥٠٦
١٢٦ ـ كيف تُخرَق لك العوائد وأنت لم تخرق ........ ٥١٠

١٢٧ ـ ما الشأن وجود الطلب وإنما الشأن ........................ ٥١٤
١٢٨ ـ ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ........................ ٥١٦
١٢٩ ـ لو أنك لا تصل إليه إلا بعد محو دعاويك ........................ ٥١٩
١٣٠ ـ لولا جميل ستره لم يكن عملك أهلاً للقبول ........................ ٥٢٤
١٣١ ـ أنت إلىٰ حلمه إذا أطعته أحوج منك ........................ ٥٢٦
١٣٢ ـ الستر علىٰ قسمين ستر عن المعصية وستر فيها ........................ ٥٢٩
١٣٣ ـ من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ........................ ٥٣٢
١٣٤ ـ ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم ........................ ٥٣٦
١٣٥ ـ لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة ........................ ٥٤٠
١٣٦ ـ ما حجبك عن الله وجود موجود معه ........................ ٥٤٤
١٣٧ ـ لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها ........................ ٥٤٦
١٣٨ ـ أظهر كل شيء لأنه الباطن وطوىٰ وجود كل شيء ........................ ٥٤٨
١٣٩ ـ أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك ........................ ٥٤٩
١٤٠ ـ الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته ........................ ٥٥٢
١٤١ ـ الناس يمدحونك بما يظنون فيك ........................ ٥٥٤
١٤٢ ـ المؤمن إذا مُدح استحيا من الله تعالىٰ ........................ ٥٥٨
١٤٣ ـ أجهل الناس من ترك يقين ما عنده ........................ ٥٦٠
١٤٤ ـ إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهلٍ فأثن عليه ........................ ٥٦٢

١٤٥ ـ الزهاد إذا مدحوا انقبضوا ........ ٥٦٤
١٤٦ ـ متىٰ كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت ........ ٥٦٨
١٤٧ ـ إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبب يأسك ........ ٥٧١
١٤٨ ـ إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء ........ ٥٧٥
١٤٩ ـ ربما أفادك في ليل القبض ما لم تشهده ........ ٥٧٧
١٥٠ ـ مطالع الأنوار القلوب والأسرار ........ ٥٧٩
١٥١ ـ نور مستودع في القلوب ممده النور الوارد ........ ٥٨١
١٥٢ ـ نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف ........ ٥٨٣
١٥٣ ـ ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس ........ ٥٨٥
١٥٤ ـ ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ........ ٥٨٧
١٥٥ ـ سبحان من لم يجعل الدليل عليهم إلا ........ ٥٨٩
١٥٦ ـ ربما أطلعك علىٰ أسرار ملكوته وحجب عنك ........ ٥٩٥
١٥٧ ـ من اطلع علىٰ أسرار العباد ........ ٥٩٧
١٥٨ ـ حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ........ ٦٠٠
١٥٩ ـ ربما دخل الرياء عليك ........ ٦٠٢
١٦٠ ـ استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل ........ ٦٠٥
١٦١ ـ غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ........ ٦٠٨
١٦٢ ـ من عرف الحق شهده في كل شيء ، ومن فني به ........ ٦١٠

١٦٣ ـ إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك .............. ٦١٢
١٦٤ ـ إنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار .......... ٦١٣
١٦٥ ـ لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه .... ٦١٤
١٦٦ ـ كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق ؟! .... ٦١٦
١٦٧ ـ جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ................ ٦١٧
١٦٨ ـ عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حين ............ ٦١٨
١٦٩ ـ علم أن العباد يتشوفون إلىٰ سر العناية فقال .......... ٦٢٠
١٧٠ ـ إلى المشيئة يستند كل شيء ولا تستند هي إلىٰ شيء ... ٦٢٢
١٧١ ـ ربَّما دلَّهم الأدب علىٰ ترك الطلب اعتماداً ............ ٦٢٤
١٧٢ ـ إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال وإنما ينبه ............ ٦٢٦
١٧٣ ـ ورود الفاقات أعياد المريدين ......................... ٦٢٨
١٧٤ ـ ربما وجد المريد في الفاقات ما لا يجده ................ ٦٣٠
١٧٥ ـ الفاقة بسط المواهب ................................ ٦٣٢
١٧٦ ـ إن أردت ورود المواهب عليك ........................ ٦٣٤
١٧٧ ـ تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه تحقق بذُلِّك ............ ٦٣٦
١٧٨ ـ ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة .......... ٦٣٨
١٧٩ ـ من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك ........ ٦٤١
١٨٠ ـ من عبَّر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة مع ربه ...... ٦٤٣

١٨١ ـ تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير ........ ٦٤٦
١٨٢ ـ كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز ........ ٦٤٨
١٨٣ ـ من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق ........ ٦٥٠
١٨٤ ـ ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن ........ ٦٥٢
١٨٥ ـ عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد ........ ٦٥٤
١٨٦ ـ العبارة قوت العائلة المستمعين وليس لك إلا ........ ٦٥٦
١٨٧ ـ ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ........ ٦٥٩
١٨٨ ـ لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ........ ٦٦١
١٨٩ ـ لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلق إلا أن ترى ........ ٦٦٣
١٩٠ ـ ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه ........ ٦٦٩
١٩١ ـ إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس ........ ٦٧٣
١٩٢ ـ من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ........ ٦٧٦
١٩٣ ـ قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها ........ ٦٧٩
١٩٤ ـ علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم ........ ٦٨١
١٩٥ ـ أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا ........ ٦٨٤
١٩٦ ـ من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه ........ ٦٨٨
١٩٧ ـ ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما منَّ به عليك ........ ٦٩٢
١٩٨ ـ من لم يعرف النِّعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها ........ ٦٩٤

١٩٩ ـ لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ...... ٦٩٦
٢٠٠ ـ تمكن حلاوة الهوىٰ من القلب هو الداء العضال ......... ٦٩٨
٢٠١ ـ لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ............. ٧٠٠
٢٠٢ ـ كما لا يحب العمل المشترك كذٰلك لا يحب ............. ٧٠٢
٢٠٣ ـ أنوار أُذن لها في الوصول وأنوار أُذن لها ............. ٧٠٤
٢٠٤ ـ ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب ............. ٧٠٧
٢٠٥ ـ فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار ......... ٧٠٧
٢٠٦ ـ لا تستبطئ منه النوال ولٰكن استبطئ من نفسك ......... ٧٠٩
٢٠٧ ـ حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات ...... ٧١٠
٢٠٨ ـ ما فات من عمرك فلا عوض له ، وما حصل لك منه .... ٧١٤
٢٠٩ ـ ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ..................... ٧١٦
٢١٠ ـ لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ................. ٧١٨
٢١١ ـ لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ................. ٧٢٠
٢١٢ ـ وصولك إليه وصولك إلى المعرفة به ................. ٧٢٢
٢١٣ ـ قربك منه هو أن تكون شاهداً لقربه ................. ٧٢٤
٢١٤ ـ الحقائق ترد في حال التجلي مجملةً وبعد الوعي ....... ٧٢٦
٢١٥ ـ متىٰ وردت الواردات الإلٰهية عليك ................. ٧٢٩
٢١٦ ـ الواردات تأتي من حضرة قهار لأجل ذٰلك ............. ٧٣٠

٢١٧ ـ كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به ........ ٧٣١
٢١٨ ـ لا تيئس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور ...... ٧٣٢
٢١٩ ـ لا تزكينَّ وارداً لا تعلم ثمرته فليس المراد ........ ٧٣٤
٢٢٠ ـ لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ........ ٧٣٦
٢٢١ ـ تطلعك على بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ........ ٧٣٩
٢٢٢ ـ النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه ...... ٧٤٣
٢٢٣ ـ ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ........ ٧٤٥
٢٢٤ ـ من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ........ ٧٤٧
٢٢٥ ـ ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه ........ ٧٥١
٢٢٦ ـ إذا أردت ألا تعزل فلا تتول ولايةً لا تدوم لك ........ ٧٥٣
٢٢٧ ـ إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات ........ ٧٥٤
٢٢٨ ـ إنما جعلها محلاًّ للأغيار، ومعدناً لوجود الأكدار ........ ٧٥٦
٢٢٩ ـ علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك ........ ٧٥٩
٢٣٠ ـ العلم النافع الذي يبسط في الصدر شعاعه ........ ٧٦١
٢٣١ ـ خير العلم ما كانت الخشية معه ........ ٧٦٤
٢٣٢ ـ العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك ........ ٧٦٨
٢٣٣ ـ متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ........ ٧٧٤
٢٣٤ ـ إنما أجرى الأذى على أيديهم ........ ٧٧٧

٢٣٥ ـ إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل ........ ٧٧٩
٢٣٦ ـ إنما جعله لك عدواً ليحوشك به إليه ............. ٧٨٣
٢٣٧ ـ من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً ........... ٧٨٥
٢٣٨ ـ ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأىٰ نفسه ........... ٧٨٦
٢٣٩ ـ التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن .............. ٧٨٨
٢٤٠ ـ لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف ........... ٧٩٠
٢٤١ ـ المؤمن يشغله الثناء على الله تعالىٰ ................ ٧٩١
٢٤٢ ـ ليس المحب الذي يرجو عن محبوبه عوضاً ........... ٧٩٣
٢٤٣ ـ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين .......... ٧٩٧
٢٤٤ ـ جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ........ ٨٠٦
٢٤٥ ـ وسعك الكون من حيث جثمانيتك ولم يسعك ......... ٨١١
٢٤٦ ـ الكائن في الكون ولم يفتح له ميادين الغيوب ......... ٨١٢
٢٤٧ ـ أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ؛ فإذا شهدته ..... ٨١٤
٢٤٨ ـ لا يلزم من ثبوت الخصوصية ، عدم أوصاف البشرية .... ٨١٦
٢٤٩ ـ دل بوجود آثاره علىٰ وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه ... ٨١٩
٢٥٠ ـ لا يعرف قدر أنوار القلوب والأسرار إلا ............. ٨٢٢
٢٥١ ـ وجدان ثمرات الأعمال عاجلاً بشائر العاملين .......... ٨٢٤
٢٥٢ ـ كيف تطلب العوض علىٰ عمل .................... ٨٢٥

٢٥٣ ـ قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم ........................ ٨٢٧
٢٥٤ ـ ذاكر ذكر ليستنير قلبه وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً .... ٨٢٧
٢٥٥ ـ ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر ............... ٨٢٩
٢٥٦ ـ أشهدك من قبل أن استشهدك فنطقت ..................... ٨٢٩
٢٥٧ ـ أكرمك بكرامات ثلاث جعلك ذاكراً له ..................... ٨٣٢
٢٥٨ ـ رب عمر اتسعت آماده ، وقلت أمداده ..................... ٨٣٥
٢٥٩ ـ من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن .......... ٨٣٨
٢٦٠ ـ الخذلان كل الخذلان : أن تتفرغ عن الشواغل ............ ٨٤٠
٢٦١ ـ الفكرة هي سير القلب في ميادين الأغيار .................. ٨٤١
٢٦٢ ـ الفكرة : سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له ............ ٨٤٣
٢٦٣ ـ الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان وفكرة ................. ٨٤٣

* * *

المكاتبات في ذكر حال السالك
في سيره إلى الله تعالى ٨٤٥

ـ مما كتبه إلى بعض إخوانه ........................................ ٨٦٥
ـ جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه ................................ ٨٧٤
ـ الناس ثلاثة أقسام في ورود المِنَن ................................. ٨٧٩

* * *

« المناجاة الإلـهية » ٨٨٥

خواتيم النسخ المخطوطة ........................ ٩٥٣

أهم المصادر والمراجع ........................ ٩٥٥

محتوى الكتاب ........................ ٩٧٥


* * *